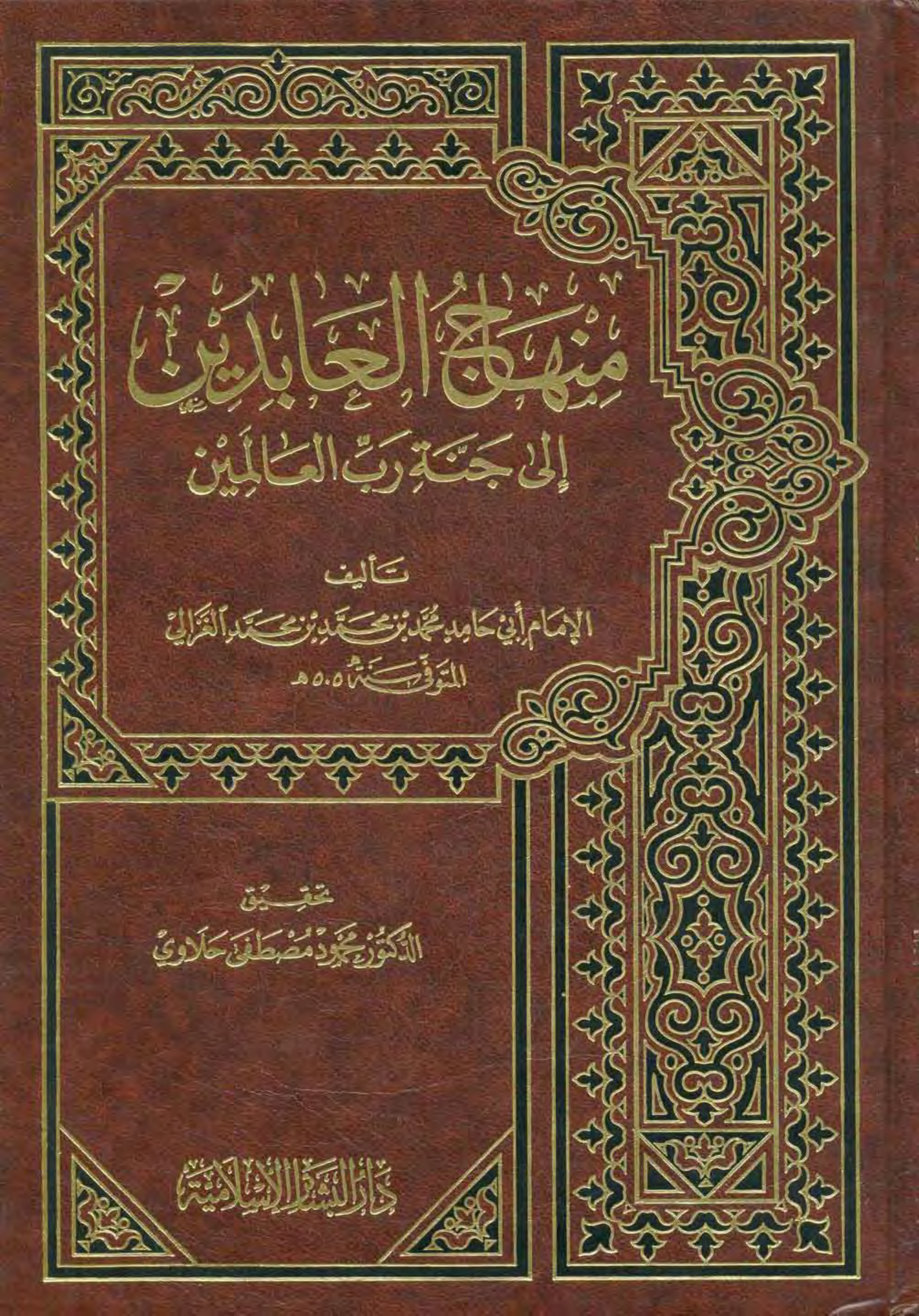

منهاج العابدين
إلى جنة رب العالمين
تأليف
الإمام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي
المتوفى سنة ٥٠٥ هـ
تحقيق
الدكتور محمود مصطفى حلاوي
دار البشائر الإسلامية

مِنْهَاجُ العَابِدِينَ

إلى جنة رب العالمين

الطَّبْعَةُ الثَّالِثَةُ
مُنقّحَة
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

دار البشائر الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع هاتف: ٧٠٢٨٥٧ - فاكس: ٠٠٩٦١١/٧٠٤٩٦٣
بيروت - لبنان ص.ب: ١٤/٥٩٥٥
e-mail:
bashaer@cyberia.net.lb

مِنهاجُ العابِدِينَ

إلى جنّةِ ربِّ العالمِين

تأليف

الإمام أبي حامد محمّد بن محمّد بن محمّد الغزالي
المتوفى سنة ٥٠٥ هـ

تحقيق

الدكتور محمود مصطفى حلاوي

دار البشائر الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد، خاتم الأنبياء والرُّسل أجمعين، وبعد:

فإن عهدي بكتاب منهاج العابدين للإمام أبي حامد الغزالي يعود إلى خمس وعشرين سنة مضت، عندما عثرت على نسخة خطيّة منه في مدينة قونية بتركيا، وقرأتها بشغف وشوق، ودعوت الله أن يمدّ بعمري حتى أخرجَ هذا الكتاب ليكون عوناً لكل مسلم في سلوك طريق الجنَّة، وهي الطريق المحفوفة بالمكاره، كما قال رسول الله ﷺ.

وقد وفّقني الله لإتمام هذا العمل، وقامت مؤسسة الرسالة بطباعته ونشره عام ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م، ونفدت هذه الطبعة بعد أقلّ من عام على صدورها، ثم حالت ظروف المؤسسة دون إعادة طبعه.

ولمّا كان الإقبال على هذا الكتاب كبيراً؛ نظراً لقيمته العلمية والدينية ولشُهرة مؤلفه، وللجهد الذي بُذل في تحقيقه وإخراجه بالشكل الذي يستحقّه، فقد عهدتُ إلى الأخ الصديق رمزي دمشقية، صاحب دار البشائر الإسلامية، بإعادة طباعته، بعد أن تمّت مراجعة الكتاب وتنقيحه من بعض الأخطاء المطبعية، وإعادة النظر بإخراجه وبفهارسه العلمية الملحقة به، راجياً الله تعالى أن أكون قد وُفِّقت فيما قصدت إليه.

ولا أدّعي أن الكتاب بحلّته الجديدة أصبح خالياً من الأخطاء، فالكمال لله وحده، لا إلّه إلاّ هو، ولكني سعيت قدر المستطاع أن يكون هذا العمل مقبولاً من العامّة والخاصة، سهل التناول، واضحاً في التعليقات والحواشي التي أضفتها أو اختصرتها؛ راجياً من الله تعالى أن يجعله في صحيفة أعمالي، ولا يحرمني خيره وخير من استضاء بنوره في ظلمة الحياة الدنيا، علّه يستعين بما جاء فيه لسلوك منهاج العابدين إلى جنّة ربّ العالمين.

ولا يفوتني أن أشكر دار البشائر الإسلاميّة، بشخص صاحبها، الأخ الصديق رمزي دمشقيّة، والشيخ أمين شحرور الذي بذل جهداً طيباً في تنقية الكتاب من بعض ما وقع فيه من أخطاء وشوائب، كما أشكر كل من قدّم جهداً لإخراج هذا الكتاب وتقديمه للقراء بحلّته الجديدة.

وفّقنا الله جميعاً لما يحبّه ويرضاه، وسدّد خطانا على الطريق المستقيم، وألهمنا الرشاد في أقوالنا وأفعالنا، وثبّت قلوبنا على محبته، وأخذ بيدنا لخدمة العلم وأهله، إنه سميع مجيب.

وَصَلِّ اللهم على سيّدنا محمد النبي الأُمي، وعلى آله وصحبه وسلّم وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

كتبه

محمود مصطفى حلاوي

بيروت في صباح يوم الجمعة

الثامن والعشرين من محرم عام ١٤١٦هجرية

الموافق ١٤ حزيران ١٩٩٦ ميلادية

مقدّمَة التحقيق

ـ أولاً: الكاتب.
ـ ثانياً: الكتاب.
ـ ثالثاً: التَّحقيق.



أولاً: الكاتب: الغَزَالي[1]

الإمام زين الدين، حجَّة الإسلام، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي، الفقيه الشافعي، أحد الأعلام[2]؛ لم يكن في آخر عصره مثله[3]. صاحب التصانيف والذكاء المفرط[4]؛ كان من أذكياء العالم في كل ما يتكلم فيه[5].

١ ــ ولادته ونشأته: طوس ـ جرجان: ٤٥٠ هـ ـ ٤٧٣ هـ :

ولد الغزالي سنة ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٩ م[6] بالطابَرَان، إحدى مدينتي طوس[7] من أعمال «خراسان»، من والد فقير صالح، كان يشتغل بغزل الصوف، ويحبُّ مجالسة الفقهاء والمتصوِّفة ويشاركهم في

---

(١) قال الغزالي في بعض مصنفاته: ونسبني قوم إلى الغزَّال، وإنما أنا الغزالي، نسبة إلى قرية يقال لها غزالة بتخفيف الزاي (را. الوافي بالوفيات ١/ ٢٧٧).
(٢) شذرات الذهب ٤/ ١٠.
(٣) الوافي بالوفيات ١/ ٢٧٤، وكذلك وفيات الأعيان ٤/ ٢١٦.
(٤) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٢٣.
(٥) البداية والنهاية ١٢/ ١٧٤.
(٦) في رواية أخرى قيل إنه ولد سنة ٤٥١ هـ (را. الوافي بالوفيات ١/ ٢٧٧).
(٧) معجم البلدان: مادة طابران (مجلد ٤ ص ٣) وفيه: أن طوس عبارة عن مدينتين أكبرهما طابران والأخرى نوقان. وقد خرج من طابران جماعة من العلماء نُسبوا إلى طوس، وقد قيل لبعض من نُسب إليها الطبراني.

حلقاتهم ويتأثر بأقوالهم؛ وكان يتضرَّع إلى الله أن يرزقه ولداً صالحاً مثلهم، ويجعله فقيهاً واعظاً[1].

لمَّا احتضر والده أوصى به وبأخيه أحمد إلى صديق له صوفي صالح، فعلَّمهما الخطَّ وأدَّبهما[2]. وبعد أن فني ما خلَّف لهما أبوهما من رزق، وتعذَّر عليهما تحصيل قوتهما، انتظما في سلك مدرسة تُعَلِّمُ الفقه وتوفر لتلاميذها القوت[3].

اشتغل الغزالي في مبدأ أمره بطوس بالفقه[4] على أحمد الراذكاني[5]. ثم ارتحل إلى أبي نصر الإسماعيلي بجرجان[6]، فأقام عنده[7] إلى أن أخذ عنه التعليقة في الفقه[8].

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٤/ ١٠٢.

(٢) شذرات الذهب ٤/ ١١.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٣٥.

(٤) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٢٣ وشذرات الذهب ٤/ ١١.

(٥) الوافي بالوفيات ١/ ٢٧٤ وكذلك وفيات الأعيان ٤/ ٢١٧.
والراذكاني نسبة إلى راذَكان، وهي بليدة بنواحي طوس. راجع: معجم البلدان مادة: راذكان، (مجلد ٣ ص ١٣).

(٦) شذرات الذهب ٤/ ١١.

(٧) انتقل الغزالي إلى جرجان وهو دون العشرين، ولا نعلم كم بقي فيها يدرس الفقه على أستاذه أبي نصر الإسماعيلي. (راجع: الغزالي، تيسير شيخ الأرض ص٧).

(٨) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٣٥، والتعليقة كما ذكر الغزالي هي «كتب هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها». راجع خبر هذه التعليقة وما جرى للغزالي مع اللصوص الذين سطوا عليها في طريق عودته من جرجان إلى طوس في كتاب طبقات الشافعية الكبرى للسُّبكي ٤/ ١٠٢.

بعد ذلك، عاد الغزالي إلى طوس وأقام فيها ثلاث سنوت[1].

٢ ـ ملازمته إمام الحرمين: نيسابور: ٤٧٣ هـ ـ ٤٧٨ هـ:

رغب الغزالي في زيادة تحصيله العلمي، فارتحل إلى إمام الحرمين بنيسابور أبي المعالي الجويني[2]، واشتغل عليه، وجدَّ في التحصيل حتى تخرَّج في مدَّة قريبة[3]، وصار من الأعيان المشار إليهم في زمن أستاذه[4]، فكان أنظر أهل زمانه؛ وجلس للإقراء في حياة إمامه[5] بعد أن برع في الفقه، ومهر في الكلام والجدل[6]. وشرع في التصنيف في ذلك الوقت[7]، وكان أستاذه يتبجَّح به[8]، ولم يزل ملازماً له إلى حين وفاته[9] عام ٤٧٨ هـ[10].

والملاحظ أن الغزالي لم يدرس على أستاذ غير الإمام الجويني فيما بعد[11]؛ كذلك فإن أثر أستاذه الجويني كان قوياً إلى

---

(١) الغزالي، تيسير شيخ الأرض ص ٧.

(٢) شذرات الذهب ٤/ ١١.

(٣) الوافي بالوفيات ١/ ٢٧٤.

(٤) وفيات الأعيان ٤/ ٢١٧.

(٥) شذرات الذهب ٤/ ١١.

(٦) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٢٣.

(٧) الوافي بالوفيات ١/ ٢٧٤، وشذرات الذهب ٤/ ١١، ووفيات الأعيان ٤/ ٢١٧ وسير أعلام النبلاء ٣٢٣.

(٨) وفيات الأعيان ٤/ ٢١٧، وسير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٢٣.

(٩) الوافي بالوفيات ١/ ٢٧٤، وفيات الأعيان ٤/ ٢١٧.

(١٠) راجع ترجمة الإمام الجويني وأخباره في ملحق تراجم الأعلام ضمن ملاحق هذا الكتاب.

(١١) العقل في الإسلام، كريم عزقول، ص ٣٨.

حدٌّ كبير، حتى يمكننا أن نعدَّه أثراً حاسماً في تطور الغزالي الفكري[1].

٣ ــ إقامته عند نظام الملك: العسكر: ٤٧٨ هـ ـ ٤٨٤ هـ :

لمَّا مات إمامه، خرج من نيسابور إلى العسكر[2] ـ المخيّم السلطاني[3] ـ ولقي الوزير نظام الملك[4]. وكان مجلسه محطَّ رحال العلماء ومقصد الأئمة والفصحاء؛ فوقع للغزالي أمور تقتضي علوّ شأنه، من ملاقاة الأئمة ومناظرة الفحول ومناطحة الكبار[5]، وجرى بينهم الجدال والمناظرة في عدّة مجالس[6]، وكان ذلك بحضرة نظام الملك[7]، فظهر الغزالي عليهم[8]، وانبهر له الوزير[9]، فأقبل عليه وحلَّ منه محلاً عظيماً، فعظمت منزلته وطار اسمه في الآفاق[10]،

---

(١) الغزالي، تيسير شيخ الأرض ص ٨.

(٢) عسكر نيسابور: المدينة المشهورة بخراسان، فيها محلَّة تسمَّى العسكر. والعسكر مجتمع الجيش حين يأتي لدخول مدينة يعسكر خارجها أحياناً، أو بعد أن يفتحها يعسكر الجيش خارجها في ناحية من نواحيها، ومع مرور الزمن يصبح العسكر هذا مدينة أو بلدة أو محلَّة تابعة للمدينة. راجع: معجم البلدان، مادة عسكر، (المجلد الرابع ص ١٢٤).

(٣) هكذا سمَّاه الذهبي، راجع: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٢٣.

(٤) وفيات الأعيان ٤/ ٢١٧، والوافي بالوفيات ١/ ٢٧٥.

(٥) شذرات الذهب ٤/ ١١ ــ ١٢.

(٦) وفيات الأعيان ٤/ ٢١٧.

(٧) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٢٣.

(٨) وفيات الأعيان ٤/ ٢١٧، والوافي بالوفيات ١/ ٢٧٥.

(٩) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٢٣.

(١٠) شذرات الذهب ٤/ ١٢.

وسار بذكره الركبان[١]، فولاَّه نظام الملك التدريس في نِظاميّة بغداد سنة أربع وثمانين وأربعمائة[٢]، وله أربع وثلاثون سنة[٣].

٤ ـ التدريس في المدرسة النظامية: بغداد: ٤٨٤ هـ - ٤٨٨ هـ:

قدم الغزالي مدينة بغداد للتدريس في نظاميتها، وكان ذلك في جمادى الأولى سنة أربع وثمانين وأربعمائة[٤]، فأُعجب به أهل العراق وارتفعت عندهم منزلته[٥]، ونفذت كلمته وعظمت حشمته[٦]، حتى غلبت على حشمة الأمراء والوزراء، وضُرِبَ به المثل، وشُدَّت إليه الرحال[٧]، وحضر عنده رؤوس العلماء فتعجبوا من فصاحته واطلاعه[٨]، وقال القاضي أبو بكر بن العربي: رأيته ببغداد يحضر مجلسَ درسِه نحو أربعمائة عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم، يأخذون عنه العلم[٩].

وكانت هذه الفترة من حياته فترة إنتاج خصب، فقد أخذ في

---

(١) وفيات الأعيان ٤/٢١٧، والوافي بالوفيات ١/٢٧٥.
(٢) سير أعلام النبلاء ١٩/٣٢٣، وشذرات الذهب ٤/١٢.
(٣) البداية والنهاية ١٢/١٧٤، وسير أعلام النبلاء ١٩/٣٢٩.
(٤) وفيات الأعيان ٤/٢١٧.
(٥) الوافي بالوفيات ١/٢٧٥.
(٦) شذرات الذهب ٤/١٢، والوافي بالوفيات ١/٢٧٥.
(٧) شذرات الذهب ٤/١٢.
(٨) البداية والنهاية ١٢/١٧٤.
(٩) شذرات الذهب ٤/١٣.

تأليف الكتب في الأصول والفقه والكلام والحكمة[1].

٥ ـ تزهُّده وانقطاعه عن التدريس: دمشق ـ مكة: ٤٨٨ هـ ـ ٤٩٠ هـ:

في ذي القعدة، سنة ثمان وثمانين وأربعمائة[2]، شرفت نفس أبي حامد عن رذائل الدنيا فرفضها واطَّرحها وأقبل على العبادة والسياحة[3]، وسلك طريق الزهد والانقطاع عن الناس[4]، تاركاً جميع ما كان عليه في بغداد من شهرة وصيت ومركز، مظهراً العزم على الخروج لمكة لأداء فريضة الحجِّ، فتوجَّه إلى الشام واعتكف في زاوية بالمسجد الأموي، وظل في دمشق حتى ذي القعدة عام٤٩٠ هـ[5]، حيث قصد الحج وزيارة رسول الله ﷺ[6].

٦ ـ اشتغاله بالعبادة وإيثاره للعزلة: دمشق: ٤٩٠ هـ ـ ٤٩٨ هـ:

لمَّا رجع الغزالي من أداء فريضة الحج توجَّه إلى الشام وأقام في مدينة دمشق يذكر الدروس في زاوية الجامع في الجانب الغربي

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٢٩.
(٢) وفيات الأعيان ٤/ ٢١٧، والوافي بالوفيات ١/ ٢٧٥.
(٣) شذرات الذهب ٤/ ١٢.
(٤) وفيات الأعيان ٤/ ٢١٧، والوافي بالوفيات ١/ ٢٧٥.
(٥) طبقات الشافعية الكبرى ٤/ ٢١٧، والوافي بالوفيات ١/ ٢٧٥.
(٦) المنقذ من الضلال ص ١٣٠، سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٣٠.

منه[1] وقد عرفت هذه الزاوية آنذاك به[2]. وفي هذه الأثناء صنَّف كتباً عديدة يقال إن «الإحياء» منها[3].

ويذكر العلماء الذين ترجموا للغزالي، أنَّ إقامته في دمشق كانت عشر سنين[4]، وهي تشمل زيارته الأولى لها بعد انقطاعه عن التدريس، ثم إقامته فيها بعد رجوعه من الحج[5].

٧ ــ السياحة والاجتهاد في العبادة: بيت المقدس ـ مصر: ٤٩٨ هـ ــ ٥٠٠ هـ:

توجَّه أبو حامد من دمشق إلى بيت المقدس، واجتهد في العبادة وزيارة المشاهد والمواضع المعظَّمة[6]، فقد جاور بالقدس[7]، ويروى أنه كان يدخل كل يوم الصخرة ويغلق بابها على نفسه. كذلك توجَّه إلى الخليل لزيارة مقام إبراهيم عليه السلام[8]..

ثم قصد مصر، وأقام مدَّة بالإسكندريَّة[9]، ولعلَّه أراد زيارة مساجد مصر وأضرحة الأولياء فيها.

---

(١) وفيات الأعيان ٤/٢١٧، والوافي بالوفيات ١/ ٢٧٥.
(٢) الوافي بالوفيات ١/ ٢٧٥.
(٣) شذرات الذهب ٤/ ١٢، البداية والنهاية ١٢/ ١٧٤، سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٢٣.
(٤) شذرات الذهب ٤/ ١٢، سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٣٤.
(٥) شذرات الذهب ٤/ ١٢.
(٦) وفيات الأعيان ٤/٢١٧، الوافي بالوفيات ١/ ٢٧٥.
(٧) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٣٠ و ٣٣٤.
(٨) المقصد الأسنى ص ٨.
(٩) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٣٤، شذرات الذهب ٤/ ١٢، الوافي بالوفيات ١/ ٢٧٥.

ويقال: إنه عزم منها على ركوب البحر للاجتماع بالأمير يوسف بن تاشفين، صاحب مراكش لما بلغه منه من محبَّة أهل العلم والإقبال عليهم، فبلغه نعي المذكور - وكان ذلك عام خمسماية - فصرف عزمه عن تلك الناحية، وعاد إلى وطنه بطوس[١].

٨ ـ العودة إلى الوطن والاشتغال بالعبادة: ٥٠٠ هـ ـ ٥٠٥ هـ :

بعد أن بلغه نعي يوسف بن تاشفين عاد إلى وطنه بطوس، وصنَّف بها كتباً نافعة[٢] مفيدة في عدة فنون[٣]؛ وأقبل على العبادة وملازمة التلاوة ونشر العلم وعدم مخالطة الناس[٤].

ثم إن الوزير فخر الملك أبو المظفر علي بن نظام الملك، لما وَزَرَ على خراسان لسنجر حاكمها من قبل أخيه محمد بن ملكشاه، حضر إلى الغزالي والتمس منه القدوم إلى نيسابور والتدريس بنظامِيَّتها[٥]. وتشير المصادر إلى أنَّ فخر الملك أَلَحَّ عليه كل الإلحاح[٦]، وأن الغزالي أُلزِم بالتدريس في نظامية نيسابور[٧]، وأجاب إلى ذلك بعد تكرار المعاودات[٨]، لكنه ما لبث أن ترك التدريس فيها وعاد إلى بيته في وطنه.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٣٤، الوافي بالوفيات ١/ ٢٧٥، وفيات الأعيان ٤/ ٢١٧.

(٢) الوافي بالوفيات ١/ ٢٧٥.

(٣) وفيات الأعيان ٤/ ١٢٧.

(٤) شذرات الذهب ٤/ ١٢.

(٥) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٢٤.

(٦) شذرات الذهب ٤/ ١٢.

(٧) وفيات الأعيان ٤/ ٢١٨، الوافي بالوفيات ١/ ٢٧٥، البداية والنهاية ١٢/ ١٧٤.

(٨) وفيات الأعيان ٤/ ٢١٨.

ولا ندري كم هي المدَّة التي قضاها الغزالي في نيسابور يدرِّس في نظاميتها. لكننا نعلم أن وفاة يوسف بن تاشفين التي جعلته يعود من الإسكندرية إلى طوس، ووفاة فخر الملك الذي ألزمه بالتدريس في نظامية نيسابور، كانتا في العام ذاته، أي عام خمسماية للهجرة[1]، لذا يمكننا أن نرجِّح أن الغزالي استطاع أن يتخذ وفاة فخر الملك ذريعة لترك المدرسة النظامية، والعودة سريعاً إلى وطنه، والتخلُّص من الإلزام الذي مارسه عليه هذا الوزير.

لهذا لم نعتبر مدة بقائه في نيسابور للتدريس في المدرسة النظامية مرحلة مهمة من حياته يجب الوقوف عندها.

وهكذا عاد الغزالي إلى وطنه بطوس، وعاد إلى ما كان عليه من رغبة في كيفية قضاء أيامه الأخيرة، فأقام بها، واتخذ له داراً حسنة وغرس فيها بستاناً أنيقاً[2]، وابتنى إلى جوار داره خانقاه للصوفية ومدرسة للمشتغلين بالعلم، ووزَّع أوقاته على وظائف الخير، من ختم للقرآن ومجالسة أهل القلوب[3]، بحيث لا يمضي لحظة منها إلاَّ في طاعة من التلاوة والتدريس، والنظر في الأحاديث، وحفظ الأحاديث الصحاح[4]، وخصوصاً البخاري. ويروي الذهبي[5] أنَّ الغزالي سمع صحيح البخاري من أبي سهل

---

(١) راجع خبر وفاة فخر الملك في البداية والنهاية ١٢/ ١٦٧.

(٢) البداية والنهاية ١٢/ ١٧٤.

(٣) البداية والنهاية ١٢/ ١٧٤، وفيات الأعيان ٤/ ٢١٨ ـ ٢١٩.

(٤) شذرات الذهب ٤/ ١٢.

(٥) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦ و ٣٣٤.

الحفصي، وأنه سمع سنن أبي داود من القاضي أبي الفتح الحاكمي الطوسي، وأن خاتمة أمره كانت إقباله على طلب الحديث ومجالسة أهله ومطالعة الصحيحين.

ولعلَّ السبب في إقباله على طلب الحديث شدَّة نقد العلماء والمحدِّثين له ولكتابه «الإحياء» ففيه أحاديث كثيرة غرائب ومنكرات وموضوعات[١]، ومن الأحاديث الباطلة جملة[٢]، ومن الواهيات كثير[٣]، حتى قال أبو الفرج ابن الجوزي: صنَّف أبو حامد الإحياء، وملأه بالأحاديث الباطلة، ولم يعلم بطلانها[٤].

ورغم هذا فالإحياء كما ذكر العلماء، من أنفس الكتب وأجملها[٥]، وهو الأعجوبة العظيم الشأن[٦]، وهو غاية في النفاسة[٧].

قال الذهبي[٨]: ما زال الأئمة يخالف بعضهم بعضاً، ويردُّ هذا على هذا. وما زال العلماء يختلفون، ويتكلَّم العالم في العالم

---

(١) البداية والنهاية ١٢/ ١٧٤.
(٢) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٤٠.
(٣) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٤١.
(٤) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٤٢.
(٥) وفيات الأعيان ٤/ ٢١٨.
(٦) شذرات الذهب ٤/ ١٣.
(٧) الوافي بالوفيات ١/ ٢٧٥.
(٨) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٤٢.

باجتهاده، وكل منهم معذور مأجور، ومن عاند أو خرق الإجماع فهو مأزور، وإلى الله تُرجعُ الأمور[1].

وانتقل أبو حامد الغزالي إلى رحمة ربِّه، يوم الاثنين رابع عشر من جمادى الآخرة سنة خمس وخمسماية بالطابَران، وهي قصبة طوس[2]، بعد مقاساة لأنواع من القصد والمناوأة من الخصوم والسعي فيه إلى الملوك[3].

رحم الله الإمام أبا حامد، فأين مثله في علومه وفضائله، ولكن لا ندَّعي عصمته من الغلط والخطأ[4].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٩/٣٢٧.
(٢) وفيات الأعيان ٤/٢١٩.
(٣) سير أعلام النبلاء ١٩/٣٢٥.
(٤) سير أعلام النبلاء ١٩/٣٤٦.

ثانياً: الكتاب: منهاج العابدين

منهاج العابدين[١]، أو منهاج العابدين إلى الجنَّة[٢]، أو منهاج العابدين إلى جنَّة ربِّ العالمين[٣]، للإمام أبي حامد الغزالي.

والعابد هو القائم بحق العبادة، التي هي ثمرة العلم... واختيار أولي الأبصار... وهي سبيل السعادة ومنهاج الجنَّة[٤].

والنَّهْجُ والمَنْهَجُ والمِنْهاج: الطريق الواضح البيِّن[٥]. وفي التنزيل: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة: ٤٨)، ولعلَّ العلماء أخذوا لفظة «منهاج» الواردة في الآية الكريمة واستعملوها حسب مقتضى الحاجة أو الفن الذي كتبوا فيه. فقد استعملت هذه اللفظة عند كثير من العلماء والمؤلفين في فنون مختلفة؛ وكما يبدو

(١) كما ورد في المخطوطة (أ) وفي النسخة المطبوعة (هـ).

(٢) كما ورد في آخر المخطوطة (ب): تمَّ منهاج العابدين إلى الجنَّة.

(٣) كما ذكره الكديري في شرحه: سراج السالكين شرح منهاج العابدين إلى جنَّة ربِّ العالمين.

(٤) را. افتتاحية منهاج العابدين.

(٥) را. القاموس المحيط ولسان العرب.

فالمنهاج هو الطريق الواضح البيِّن الذي يجب أن يسلكه طالب فنٍّ من الفنون أو علم من العلوم.

ومن أمثلة ذلك ما ذكره صاحب كشف الظنون[1]:

فمن كتب الحديث وشرحه: منهاج الابتهاج لشرح مسلم بن الحجاج.

ومن كتب الأصول: المنهاج في الأصول.

ومن كتب الفقه: منهاج الدراية في فروع الحنفية، وكذلك منهاج الطالبين.

ومن كتب البلاغة: منهاج البلاغة.

ومن كتب النحو: منهاج الأدب في التصريف.

ومن كتب التاريخ: منهاج السلوك.

ومن كتب الطب والدواء: منهاج البيان في ما يستعمله الإنسان.

ومن كتب الوعظ: منهاج الواعظين.

ومن كتب التربية الدينية: المنهاج في العبادة، منهاج القاصدين، منهاج العابدين.

١ ـ صحة نسبة الكتاب للغزالي:

إن المخطوطات التي بين أيدينا تظهر بوضوح عند ذكر اسم

---

(١) كشف الظنون ٢/ ١٨٧٠ ـ ١٨٨٠.

الكتاب ومؤلفه أن صاحب الكتاب هو أبو حامد الغزالي، كذلك نقرأ في الأسطر الأولى من افتتاحية الكتاب ما نصُّه: قال الشيخ الفقيه الصالح الزاهد عبد الملك بن عبد الله: أملى عليَّ شيخي... أبو حامد الغزالي.... هذا الكتاب.

وذكر صاحب كشف الظنون عندما أورد اسم الكتاب[1]، أنه للغزالي.

وأورد الدكتور عبد الرحمٰن بدوي في كتابه «مؤلفات الغزالي»[2]، «منهاج العابدين» في القسم الأول من الكتاب، أي ضمن الكتب المقطوع بصحة نسبتها إلى الغزالي، مرتبة حسب تاريخ تأليفها، فكان المنهاج آخر كتاب في هذا القسم.

وذكره فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق ـ قسم التصوف ـ ونسبه إلى أبي حامد الغزالي أيضاً[3]؛ كما ذكره الزركلي في «الأعلام» من بين مؤلفات الغزالي[4].

هذا وقد أُثير كثير من الجدل حول صحة نسبة الكتاب إلى الغزالي؛ والسبب في هذا الجدل هو أن محيي الدين بن عربي في كتابه «محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار»[5]. ينسبه إلى أبي الحسن

---

(١) كشف الظنون ٢/١٨٧٦.

(٢) مؤلفات الغزالي ص ٢٣٤.

(٣) فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية ـ قسم التصوف ـ الجزء الثاني، ص ٧٨٠ ـ ٧٨٦.

(٤) الأعلام ٧/٢٢.

(٥) طبع هذا الكتاب في مجلدين، ونشرته دار اليقظة العربية ـ ١٩٦٨. را. ١/٢٢٤.

علي المسفِّر السَّبتي[1]، وكان زاهداً مغموراً لقيه ابن عربي بسبتة وقال: إنه مؤلف منهاج العابدين ورسالة النفخ والتسوية، اللذين يُنسبان كلاهما للغزالي، بل والصحيح أنهما ليسا للغزالي بل لأبي الحسن علي المسفِّر السبتي.

وأول من أشار إلى هذه الشبهة هو السيد محمد بن الحسيني الزبيدي الشهير بمرتضى، وذلك في كتابه «إتحاف السادة المتَّقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين»، الفصل التاسع عشر، في ذكر مصنفاته ـ أي الغزالي ـ التي سارت بها الركبان؛ الرقم (٧٥) يقول: «ومنها: منهاج العابدين إلى جنَّة ربِّ العالمين، قيل: هو آخر تآليفه، رتَّبه على سبع عقبات.

قلت (والكلام للزبيدي): ولم يذكره السُّبكي في تعداد مصنَّفاته. ورأيت في كتاب المسامرة للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي ـ قدَّس الله سرَّه ـ ما نصُّه: إن الشيخ أبا الحسن علي بن خليل السبتي، كان عالماً بالحقيقة، عارفاً، مخمول الذكر، رأيته بسَبْتَة وتباحثت معه. ورأيت له تصانيف منها: منهاج العابدين الذي يُعزى لأبي حامد وليس له»[2].

ومن هنا، تلقَّف ماسينيون هذه الشبهة وذكرها في كتابه

---

(١) نسبة إلى سَبْتَة، بلدة مشهورة من بلاد المغرب، على البحر تقابل جزيرة الأندلس (را. معجم البلدان ٣/ ١٨٢).

(٢) إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين لمرتضى الزبيدي ١/ ٢٧. راجع: مؤلفات الغزالي ص ٤٩٤ ـ ٤٩٥.

«عذاب الحلاَّج» (ج ٢ ص ٢٠ تعليق ١)، وفي إثره جرى بويج، فشكَّك في صحة نسبة المنهاج إلى الغزالي اعتماداً علىَ ما ذكره ابن عربي.

وعلى عكس هذا نرى جوشه، واسين بلاثيوس، وجاردنر، وباور، كلَّهم يقولون إن الكتاب للغزالي[1].

ويبدو لنا أن الكتاب صحيح النسبة للغزالي لأسباب عدَّة أهمها:

١ ـ إن الذين ترجموا للغزالي وأشاروا إلى مؤلفاته عزوا هذا الكتاب له.

٢ ـ إن مقدمة الكتاب تشير بوضوح إلى أن مؤلفه الغزالي أملى هذا الكتاب المختصر على تلميذه عبد الملك بن عبد الله، وهو آخر كتاب صنَّفه.

٣ ـ إن الكتاب هو حلقة في سلسلة كتب الغزالي الوعظية التي كان يلقيها على تلاميذه، بل هو واسطة العقد فيها.

٤ ـ إن الإشارات الواردة داخل الكتاب والتي تعيد القارىء إلى مؤلفات سابقة للغزالي تدلُّ بوضوح على صحة نسبة الكتاب.

٥ ـ إن الأحاديث النبوية الواردة داخل الكتاب هي في معظمها من ضمن مجموعة الأحاديث الواردة في كتاب الإحياء.

٦ ـ إن الرجوع إلى الكلام الذي ساقه ابن عربي في كتابه

---

(١) مؤلفات الغزالي ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

«محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار» يُظهر أن هذا الكلام مقحم في سياق نص مأخوذ عن كتاب المحاسن والأضداد للجاحظ في باب المماجنات، يتحدث فيه الجاحظ عن أخبار عنان جارية الناطفي؛ وهذا مما يضعف صحة كلام ابن عربي وصحة نسبته إليه. (را. محاضرة الأبرار ١/ ٢٢٢).

٧ ــ إن اطلاعنا على القصيدة التي يوردها ابن عربي لأبي الحسن علي المسفِّر، والذي يدَّعي نسبة كتاب المنهاج له، يُظهر لنا نزعتها الصوفية الحلولية[1] البعيدة كل البعد عن مضمون المنهاج، الخالي كليًّاً من هذه النزعة، والمشتمل على دعوة لتربية النفس على العبادة والطاعة، والتغلّب على نوازع النفس الأمَّارة بالسوء.

٨ ــ إن خبر الواحد لا يقف أمام الأخبار العدَّة التي تذكر أن منهاج العابدين هو لأبي حامد الغزالي، وهو آخر ما صنَّفه.

٩ ــ قد يكون لأبي الحسن علي المسفِّر كتاب يحمل العنوان ذاته، وقد ظن ابن عربي عندما رأى كتاب أبي الحسن، أنه هو نفسه الكتاب المنسوب إلى الغزالي، ولعل ابن عربي كان يسمع بكتاب

---

(١) من هذه القصيدة نختار الأبيات التالية:

قُــــلْ لإخـــــوانٍ رأونـــــي ميِّتـــــاً	فبكـــــونـــــي إذ رأونـــــي حـــــزنـــــا
لا تظنّـــــوا المـــــوت مـــــوتـــــاً إنَّـــــه	لحيـــــاة هـــــي غـــــايـــــات المنـــــا
فـــــاخلعـــــوا الأجســـــاد عـــــن أنفسكـــــم	تبصـــــروا الحـــــق جهـــــارا بَيِّنـــــا
فـــــأنـــــا اليـــــوم أنـــــاجـــــي مـــــلأً	وأرى الحـــــق جهـــــاراً علنـــــا
عـــــاكـــــف فـــــي اللـــــوح أقـــــرأ وأرى	كـــــل مـــــا كـــــان ويـــــأتـــــي ودنـــــا
مـــــا أرى نفســـــي إلا أنتُـــــمُ	واعتقـــــادي أنكـــــم أنتـــــم أنـــــا

الغزالي دون أن يراه، فلما رأى كتاب أبي الحسن ظنه هو، وقال ما قال.

٢ ـ تاريخ تأليفه وموقعه من كتبه الأخرى:

عاد الغزالي إلى وطنه طوس عام خمسمائة للهجرة، وعاد إلى ما كان عليه من رغبة في كيفية قضاء أيامه الأخيرة، فأقام بها، واتخذ له داراً حسنة، وابتنى إلى جواره خانقاه للصوفية ومدرسة للمشتغلين بالعلم، ووزَّع أوقاته على وظائف الخير، من ختم للقرآن، ومجالسة أهل القلوب[١]، بحيث لا يمضي لحظة منها إلاَّ في طاعة من التلاوة والتدريس والنظر في الأحاديث، وحفظ الأحاديث الصحاح[٢]، وخصوصاً البخاري[٣].

في هذه المرحلة الأخيرة من عمر أبي حامد، صنَّف كتابه منهاج العابدين، وأرجّح أن الغزالي صنَّفه في آخر هذه المرحلة أي ما بين عامي ٥٠٤ هـ و ٥٠٥ هـ، وذلك للأسباب التالية:

١ ـ وجود إشارة واضحة صريحة في افتتاحية الكتاب أنه أملاه على تلميذه عبد الملك بن عبد الله، وأنه آخر كتاب صنَّفه، ولم يَسْتَمْلِ منه إلاَّ خواص أصحابه.

٢ ـ إن الأحاديث النبوية الواردة في الكتاب هي في معظمها أحاديث صحيحة وحسنة، فقد خلا الكتاب من تلك الأحاديث

---

(١) البداية والنهاية ١٢/ ١٧٤، وفيات الأعيان ٤/ ٢١٨ ـ ٢١٩.

(٢) شذرات الذهب ٤/ ١٢.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦، و ٣٣٤.

الموضوعه أو الباطلة أو الواهية التي وردت في الإحياء، والتي كانت سبباً أساسياً في مطاعن العلماء عليه[1]. وهذا ما يفسِّر سبب رجوعه إلى كتب الحديث في أيامه الأخيرة للنظر فيها، ولحفظ الأحاديث الصحاح وخصوصاً البخاري كما سبق وأشرنا.

ولا شك أن مثل هذه العملية تحتاج إلى وقت، فإذا عرفنا أنَّه بعد أن عاد عام ٥٠٠ هـ إلى طوس، اضطر للتدريس في نيسابور مدة، ثم رجع بعدها ثانية إلى طوس، ثم عكف على النظر في كتب الحديث وحفظ الصحاح خصوصاً البخاري وكل ذلك احتاج إلى وقت صُرف بعد عام ٥٠٠ هـ. وهذا ما يؤيد ترجيحنا أن الغزالي صنَّف كتاب المنهاج في العامين الأخيرين من حياته.

٣ ـ هناك إشارات أخرى أقلُّ أهمية مما ذَكَرْت، لكنها تتفق مع الحالة النفسية الهادئة التي أراد أن يعيشها الغزالي بعيداً عن الصراع مع العلماء ومخاصمتهم والرد على افتراءاتهم ودعاويهم. فبعد أن صنَّف في قطع هذه الطريق ـ أي الطريق المؤدي إلى الجنة ـ كتباً كإحياء علوم الدين، والقربة إلى الله تعالىٰ، وأسرار المعاملات، واحتوت على دقائق من العلوم اعتاصت على أفهام العامة، فقدحوا فيها، وخاضوا فيما لم يحسنوه منها[2]، عاد الغزالي إلى نفسه التي هدأت وسكنت فرأى أن الحال ـ الجديدة ـ اقتضت النظر إلى كافة خلق الله تعالىٰ ـ لا إلى جماعة خاصة منهم ـ «فابتهلْتُ إلى من بيده

---

(١) راجع ما أورده الذهبي من أقوال العلماء كابن الجوزي حول أحاديث الإحياء: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٤٠ ـ ٣٤٢.

(٢) افتتاحية منهاج العابدين.

الخلق والأمر، أن يُوَفقني لتصنيف كتاب يقع عليه الإجماع»[1]. وطلب الإجماع دليل طلب الراحة والهدوء لا طلب الصراع والخصومات، وهذه هي حاله في آخر أيام عمره.

٣ ــ مضمون الكتاب وأهميته:

أراد الغزالي من هذا الكتاب شرح كيفية سلوك طريق الآخرة[2]، وذلك بالعبادة التي هي ثمرة العلم وطريق الأتقياء ومنهاج الجنَّة[3]، حتى ينتفع به المبتدىء والمنتهي، والقوي والضعيف[4]، فهو للعامة وليس للخاصة كما هو كتاب القربة إلى الله تعالىٰ أو كتاب أسرار معاملات الدين، الذي لا ينتفع به إلاَّ فحول العلماء الراسخون في العلم[5].

لذا يقول الغزالي: «فاقتصرت في هذا الكتاب الشريف على نكت وجيزة اللفظ، غزيرة المعنى، تقنع من تأملها، وتدعه على واضحة من الطريق، إن شاء الله تعالىٰ»[6].

ولعلَّ الغزالي تعب في آخر أيامه من الاختلاف مع العلماء والمحدِّثين فأراد أن يكتب كلاماً واضحاً سهلاً مفهوماً لا يعتاص

---

(١) م. س.
(٢) المنهاج: الورقة ٩٧/أ.
(٣) م. س: الورقة ٢/أ.
(٤) م. س: الورقة ٣٤/ب.
(٥) م. س: الورقة ٣٤/ب.
(٦) م. س: الورقة ٤٤/أ.

على أحد. يقول: «فابتهلت إلى من بيده الخلق والأمر، أن يوفِّقني لتصنيف كتاب يقع عليه الإجماع[1]، ولا يعترض عليه معترض».

من هنا تبرز أهمية كتاب منهاج العابدين من بين كتب الغزالي التي ألَّفها في الموضوع ذاته أو في مواضيع أخرى.

كذلك فالكتاب يتناول النفس البشرية بالوصف والعلاج مما علق أو يعلق بها من شرور وآثام أو ميل نحوها. فقد «سألت الله أن يُطْلِعَني على سِرِّ معالجة النفس، وأنْ يُصْلِحَني ويُصلحَ بي»[2].

ويظهر الغزالي كرجل عالم بالأخلاق عظيم، قابضٍ على زمام موضوعه تماماً، دقيقٍ إلى الغاية، نفساني ذَرِب، مصنِّفٍ عجيب في ضروب الأخلاق، يُعرب عن أفكاره بفيضٍ وحرارة تفرضان على قارئه الإعجاب به.

إنه يقرر نظرية معتدلة عن التصوف الإسلامي الذي يُبعد مذهب وحدة الوجود والحلولية وغيرها مما أُخذ على بعض رجال الصوفية.

فالغزالي يمسك التصوف ضمن حدود مرسومة بدقَّة وعناية متناهيتين، ويجعل منه مدرسة رائعة لإيمان متواضع وقلب ملؤه النقاوة والصفاء، ينعكسان خلقاً إسلامياً مثالياً.

لم يخرج الغزالي عن جادَّة السنَّة، وإنما رغب في أن يجعل لتعاليمها وأحكامها تأثيراً مباشراً على حياة المسلم، أعظمَ نبلاً

---

(١) م. س: الورقة ٣/أ.

(٢) م. س: الورقة ٤٤/أ.

وأوثقَ اتصالاً بالقلب، وأن يقرِّب بينها وبين المثل الأعلى الذي يبغيه ويحبِّذه للفرد المسلم.

٤ ـ منهج الغزالي وأسلوبه في هذا الكتاب:

يقرُّ الغزالي أن المنهج الذي اتبعه في هذا الكتاب كان بإلهام من الله تعالىٰ، وهو ترتيب فريد لم يذكره في غير هذا الكتاب. يقول: «... وألهمني فيه ترتيباً عجيباً لم أذكره في المصنفات التي تقدَّمت»[١].

ثم يبيّن الغزالي هذا الترتيب الذي ألهمه إياه مولاه في طريق العبادة، فرأى أن فيها سبع عقبات هي: عقبة العلم، عقبة التوبة، عقبة العوائق، عقبة العوارض، عقبة البواعث، عقبة القوادح، عقبة الحمد والشكر، وبتمامها يتمُّ كتاب منهاج العابدين إلى الجنة[٢].

بعد ذلك يتتبَّع الغزالي هذه العقبات بشرح يقتصر على نكت وجيزة اللفظ، غزيرة المعنى، تقنع من تأملها وتدعه على واضحة من الطريق إن شاء الله[٣].

والكلمة عند الغزالي تجري من بين شفتيه من غير أن تجفَّ،

---

(١) م. س: الورقة ٣/أ.

(٢) م. س: الورقة ٥/ب. وقد ورد في معجم مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق أن منهاج العابدين يضم سبع عقبات وأربع موتات. والمعروف أن الغزالي لم يتكلم في المنهاج إلا على العقبات السبعة، ولعلَّ الناسخ أو غيره أضاف عبارة الموتات الأربعة هذه. و الله أعلم.

(٣) م. س: الورقة ٤٤/أ.

لما يهبها من حياة وعاطفة صادقة، وتتدفق الكلمات والعبارات بغزارة لا تنافي الرقة واللطافة وسرعة الانسياب والتأثير في القلوب والنفوس.

٥ ـ مخطوطات الكتاب:

يورد الدكتور عبد الرحمٰن بدوي في كتابه «مؤلفات الغزالي» أماكن وجود مخطوطات منهاج العابدين وأرقامها في مكتبات العالم؛ ولا نبالغ إذا قلنا إنّ مخطوطات هذا الكتاب تكاد تكون موجودة في معظم المكتبات العالمية المشهورة. ونودُّ أن نضيف إلى ما ذكره الدكتور بدوي أن هناك نسختين من المنهاج في صنعاء باليمن (ـ فهرست مخطوطات مكتبة الجامع الكبير ـ صنعاء):

ـ **النسخة الأولى**: أولها: حدثني الشيخ الفقيه الصالح الزاهد... وآخرها: كل خير وامة وهي مرآة تريك الحسنات والسيئات.

الخط نسخي جيد، عدد أوراقها ٨١ ورقة، عدد الأسطر في الورقة ٢٥ سطراً، قياسها ٣٢ × ٢١. والملاحظ أنها تبدأ بحدثني وليس بأملى كغيرها من المخطوطات التي بين أيدينا ولعلّها ناقصة من آخرها. ورقم هذه النسخة (٤١٢).

ـ **النسخة الثانية**: خطها نسخي معتاد، وتاريخ نسخها هو محرّم ١٠٢٠ هـ. أوراقها ١٣٨، في الورقة الواحدة ١٧ سطراً وقياسها ٢٠ × ١٥، وقد كتبت بمصوّع، وهي من وقف محمد بن الحسن، ورقمها (٢٠٣٤).

أما النسخ التي استطعت الحصول عليها أو على صورة لها فهي:

أ ـ نسخه دار الكتب الظاهرية بدمشق رقم: ٥٨٧٤ تصوُّف.

أوَّلها: الحمد لله الملك الحكيم، الجواد الكريم، العزيز الرحيم.... اعلموا إخواني أسعدكم الله وإيَّانا بمرضاته أن العبادة ثمرة العلم...

آخرها: فهذا ما أردنا أن نذكره في شرح كيفية سلوك طريق الآخرة، وقد وفَّينا بالمقصود، وصلَّى الله على خير مولود دعا إلى أفضل معبود، محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

مواصفاتها:

الخط نسخي واضح، الحبر أسود، وبعض الكلمات بالأحمر. عدد أوراقها سبع وتسعون ورقة، في كل صفحة تسعة عشر سطراً، وعدد كلمات السطر الواحد ما بين ١٢ ـ ١٥ كلمة تقريباً.

قياس الورقة: ١٧,٥ × ١٣,٥ سم مع هامش ٣ سم. والنسخة مراجعة ومقابلة، وفي هوامشها تصويبات وتوضيحات. وفي آخرها ذكر لعدد من المقابلات والمطالعات.

ناسخها: محمد بن سالم الحسباني.

تاريخ النسخ: ١٦ ذي الحجة سنة ٨٧٧ هـ.

وقد رمزت إلى هذه النسخة بـ (أ) واعتمدتها أصلاً للتحقيق لأسباب عدة أهمها:

ـ إنها من أقدم النسخ التي بين يدي.

ـ إنها تامة كاملة من بدايتها حتى نهايتها.

ـ إن خطَّها هو أوضح الخطوط.

فحيثما ذكرت عبارة «في الأصل» فإنني أعني هذه النسخة (أ).

ب ـ نسخة ثانية في دار الكتب الظاهرية بدمشق: رقم ٨٢٤٥ تصوف.

أولها: في الدين والحكم، إذ لا تجتمع هذه الأمة على ضلالة... وهذا يعني أنه سقط من أول هذه النسخة خمس وعشرون ورقة تقريباً تضم افتتاحية الكتاب والعقبة الأولى، والعقبة الثانية، ونصف العقبة الثالثة.

آخرها: كالنسخة السابقة.

مواصفاتها:

الخط نسخ معتاد، لكنه أقل إتقاناً من خط النسخة السابقة، الحبر أسود، وبعض الكلمات بالأحمر.

عدد أوراقها خمس وتسعون ورقة، والترقيم فيها متسلسل من الرقم واحد إلى آخر المخطوطة، وهذا يعني أنَّ الذي رقَّمها ليس ناسخها.

وفي كل ورقة منها واحد وعشرون سطراً، وعدد كلمات السطر الواحد ما بين ٩ ـ ١٢ كلمة تقريباً. قياس الورقة: ٢٣,٥ ×

١٥,٥ سم مع هامش ١,٥ سم تقريباً والنسخة مراجعة وفي هوامشها بعض التصويبات.

ويلاحظ أنَّ الورقة الأولى أُقحِمَت فيها، وتعود إلى شرح مختصر للرسالة المسمَّاة بذخيرة السلامة، وضعه حسين بن الشيخ طعمة البيتماني الشافعي الدمشقي؛ وهو من وقف نقيب السادة الأشراف في الشام محمد سعيد آل حمزة.

ناسخها: أحمد بن علي الحلبي.

تاريخ النسخ: **١٥** جمادى الأولى سنة **٨٤٢** هـ.

وقد رمزت إلى هذه النسخة بـ(ب)، ولم أعتمدها أصلاً لعملي مع أنها أقدم من النسخة الأولى، وذلك للنقص الواقع في أولها، لكنني اعتبرت نصَّها مرجِّحاً إذا اختلفت النُّسخ ولم يكن في النسخة الأصلية ما يساعد على الترجيح.

جـ ـ نسخة قونية (بتملُّك المحقق).

هذه النسخة كنت قد اشتريتها من دكان صغير يبيع الكتب القديمة في أحد أسواق قونية وذلك عام ١٩٧١، وهي ضمن مجموع مخطوط يشتمل: إضافة إلى منهاج العابدين، كتاب الكشف والتبيين، وتفاسير مجموعة من سور القرآن الكريم.

أولها: قال الشيخ الإمام عبد الملك بن عبد الله، أملى عليَّ شيخي الإمام حجة الإسلام، زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي رحمة الله عليه هذا الكتاب، وهو آخر كتاب صنَّفه... وهو هذا، الحمد لله الملك الحكيم، الجواد الكريم، العزيز الرحيم...

آخرها: فهذا ما أردنا ذكره في شرح كيفية سلوك الآخرة، وقد وفَّينا بالمقصود، وصلىٰ الله على خير مولود، ودعاء إلى أفضل مبعوث محمد النَّبي، وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

مواصفاتها: الخط نسخي جيد، والحبر أسود.

عدد أوراقها تسع وثمانون ورقة، في كل ورقة منها واحد وعشرون سطراً، وعدد كلمات السطر الواحد ما بين ١٢ ـ ١٥ كلمة تقريباً قياس الورقة ١٠ × ١٦ سم مع هامش ٢ سم تقريباً.

النسخة مراجعة، وفي الهوامش تصوبيات.

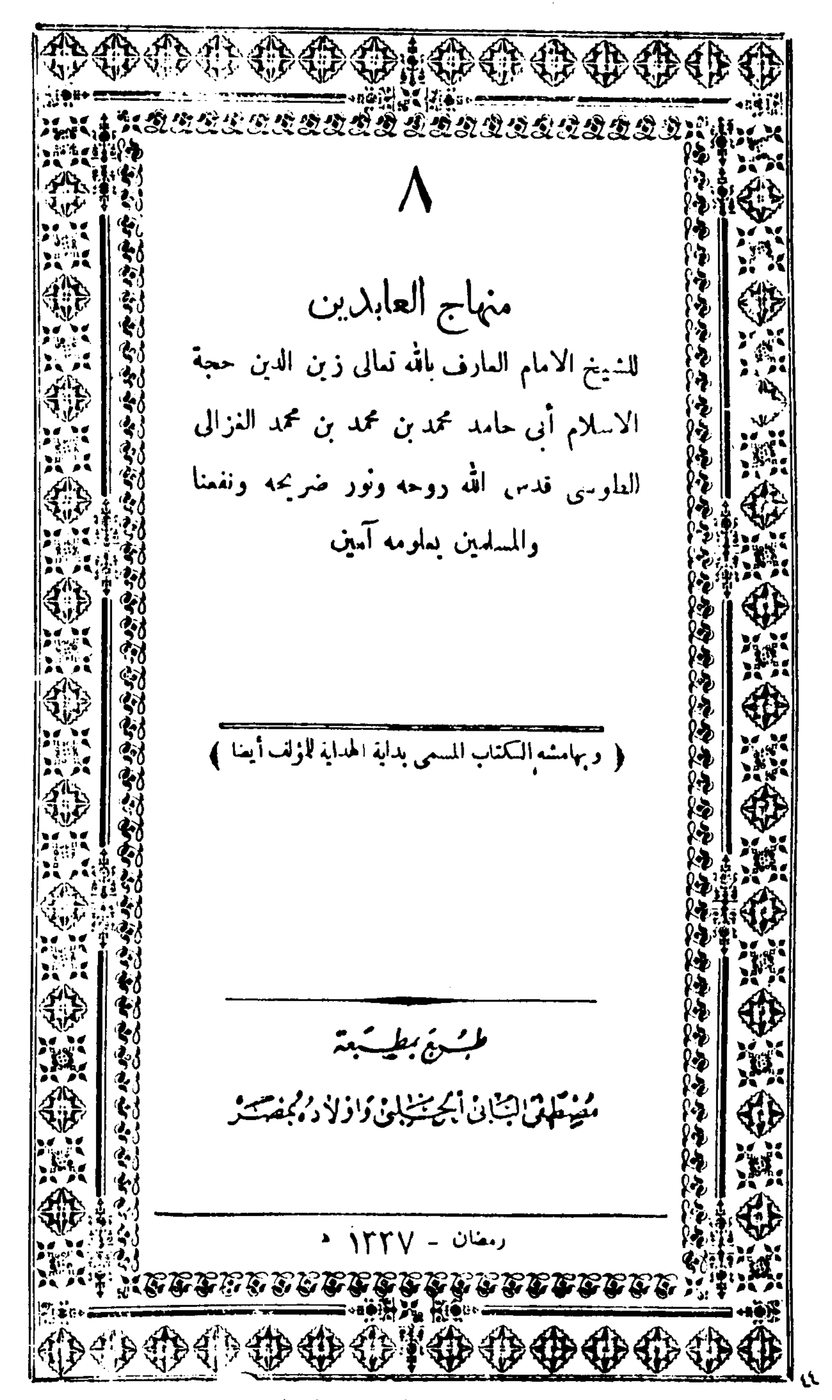
ناسخها: عثمان بن محمد، وهو مالكها أيضاً.

تاريخ النسخ: صفر ١١٤٢ هـ.

وقد رمزت إلى هذه المخطوطة بـ(ج).

٦ ـ طبعات الكتاب:

طبع كتاب منهاج العابدين أول مرة في القاهرة عام ١٢٨٨ هـ، ثم طبع ثانية عام ١٢٩١ هـ ثم ثالثة ١٣٠٥ هـ، وفي هذه الطبعات ظهر الكتاب منفرداً. وبعد ذلك أعيد طبع الكتاب وبهامشه بداية الهداية الذي هو للغزالي أيضاً، أو المنهاج بهامش البداية، من عام ١٣٠٦ هـ حتى عام ١٣٥١ هـ، وذلك بمطبعة البابي الحلبي بمصر.



٨

منهاج العابدين

للشيخ الامام العارف بالله تعالى زين الدين حجة الاسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي قدس الله روحه ونور ضريحه ونفعنا والمسلمين بعلومه آمين

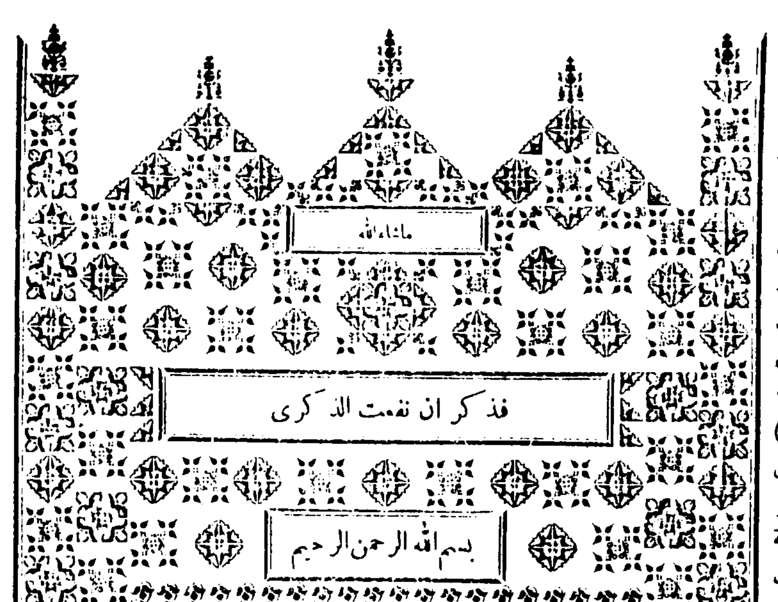
(وبهامشه الكتاب المسمى بداية الهداية للمؤلف أيضا)

طبع بمطبعة

مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

رمضان - ١٣٢٧ هـ

صورة غلاف النسخة المطبوعة



قال الشيخ الفقيه الصالح الزاهد عبد الملك بن عبد الله غفر الله له أملى علي شيخي الاجل الامام الزاهد السعيد الموفق حجة الاسلام زين الدين شرف الائمة أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي قدس الله روحه ورفع الله في الجنة درجته هذا الكتاب المختصر وهو آخر كتاب صنفه ولم يستمله منه الا خواص أصحابه وهو (الحمد لله) الملك الحكيم الجواد الكريم العزيز الرحيم الذي خلق الانسان في أحسن تقويم وفطر السموات والارض بقدرته ودبر الامور في الدارين بحكمته وما خلق الجن والانس الا لعبادته فالطريق اليه واضح للقاصدين والدليل عليه لائح للناظرين ولكن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين والصلاة على سيد المرسلين وعلى آله الابرار الطيبين الطاهرين وسلم وعظم الى يوم الدين (اعلموا اخواني أسعدكم الله واياي بمرضاته) أن العبادة ثمرة العلم وفائدة العمر وحاصل العبيد الاقوياء وبضاعة الاولياء وطريق الاتقياء وقسمة الاعزة ومقصد ذوي الهمة وشعار الكرام وحرفة الرجال واختيار أولي الابصار وهي سبيل السعادة ومنها الجنة قال الله تعالى وأنا ربكم فاعبدون وقال تعالى ان هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا ثم انا نظرنا فيها وتأملنا طريقها من مباديها الى مقاصدها التي هي أماني سالكيها فاذا هي طريق وعر وسبيل صعب كثيرة العقبات شديدة المشقات بعيدة المسافات عظيمة الآفات كثيرة العوائق والموانع خفية المهالك والمقاطع غزيرة الاعداء والقطاع عزيزة الاشياع والاتباع وهكذا يجب أن تكون لانها طريق الجنة فصيرها تصديقا لما قاله صلى الله عليه وسلم ألا وان الجنة حفت بالمكاره وان النار حفت بالشهوات وقال صلى الله عليه وسلم ألا وان الجنة حزن بربوة ألا وان النار سهل بسهوة ثم مع ذلك كله فان العبد ضعيف والزمان صعب وأمر الدين متراجع والفراغ قليل والشغل كثير والعمر قصير وفي العمل تقصير والناقد بصير والاجل قريب والسفر بعيد والطاعة هي الزاد فلا بد منها وهي فائتة فلا مرد لها فمن ظفر بها فقد فاز وسعد أبد الآبدين ودهر الداهرين ومن فاته ذلك خسر مع

(بسم الله الرحمن الرحيم)
• قال الشيخ الامام العالم العلامة حجة الاسلام وبركة الانام أبو حامد محمد بن محمد ابن محمد الغزالي الطوسي قدس الله روحه ونور ضريحه آمين • الحمد لله حق حمده والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه من بعده (أما بعد) فاعلم أيها الحريص المقبل على اقتباس العلم المظهر من نفسه صدق الرغبة وفرط التعطش اليه أنك ان كنت تقصد بطلب العلم المنافسة والمباهاة والتقدم على الأقران واستمالة وجوه الناس اليك وجمع حطام الدنيا فانت ساع في هدم دينك وهلاك نفسك وبيع آخرتك بدنياك فصفقتك خاسرة وتجارتك بائرة ومعلمك معين لك على عصيانك وشريك لك في خسرانك وهو كبائع سيف من قاطع طريق كما قال صلى الله عليه وسلم من أعان على معصية ولو بشطر كلمة كان شريكا له فيها وان كانت نيتك وقصدك بينك وبين الله تعالى من طلب العلم الهداية دون مجرد الرواية فأبشر فان

٤٥

الورقة الأولى من النسخة المطبوعة

وقد استطعت الحصول على إحدى هذه النسخ المطبوعة في مصر عام ١٣٣٧ هـ ورمزت إليها بـ(هـ). وعدد صفحات هذه النسخة خمس وتسعون صفحة.

٧ ــ شروح الكتاب ومختصره:

ذكر صاحب كشف الظنون[١]، أن شمس الدين البلاطنسي شرح المنهاج شرحين كبيراً وصغيراً؛ ثم اختصر المنهاج في جزء وسمَّاه بغية الطالبين، أوَّله: الحمد لله الذي وفَّق من شاء من عباده.

ويذكر الدكتور عبد الرحمٰن بدوي في «مؤلفات الغزالي» (٢٣٦) أن البلاطنسي توفي حوالي ٨٥٠ هـ/١٤٤٦، ومن مختصره مخطوط في برلين برقم ٣٢٦٧، وأن هناك شرحاً آخر لمصطفى البكري، منه مخطوط في برلين برقم ٣٢٦٩، وشرحاً لعبد الوهاب الشعراني سمَّاه مقاصد منهاج العابدين، منه مخطوط في بنكيبور بالهند.

كذلك شرح المنهاج الشيخ إحسان بن محمد دحلان الجمفسي الكديري، أوله: هذا شرح وجيز منيف، وتحرير رائق شريف، على كتاب منهاج العابدين إلى جنَّة ربّ العالمين... سمَّيته: سراج الطالبين على منهاج العابدين إلى جنَّة ربِّ العالمين[٢].

وقد طبعَتْه ونشرته شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، سنة ١٣٧٤ هـ/١٩٥٥ م في جزأين: الأول: ٥٤٤

---

(١) كشف الظنون ٢/١٨٧٦.

(٢) يذكر الدكتور عبد الرحمن بدوي أن سراج السالكين لمحمد بن عبد الحق بن شاه محمد وأنه طبع بمصر سنة ١٣٣١ هـ وأن للزيني دحلان كتاب تنبيه الغافلين ولعلَّه تلخيص منهاج العابدين، طبع بمصر سنة ١٢٩٨هـ.

صفحة والثاني: ٥٥٤ صفحة أي ما مجموعه ١١٠٠ صفحة تقريباً.

ومع أهمية هذا الشرح إلَّا أنه شرح مفصَّل يبعد القارىء عن جمال النص وعمق تأثيره ويدخله في شروحات مستفيضة أحياناً، يمكن الاستغناء عنها. وقد استعنت بهذا الشرح في عملي ورمزت إليه بحرف (د).

٨ ـ ترجمة الكتاب:

تُرجم منهاج العابدين إلى اللغتين التركية والفارسية حسب ما تشير المصادر التي بين أيدينا. فقد ذكر صاحب كشف الظنون أن إلياس بن عبد الله المعروف بنهاني نقله إلى التركية سنة ٩٢٥ هـ وألحق به مسائل العبادات الخمس[١]. ويذكر فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق[٢]، ترجمة أخرى للمنهاج إلى التركية قام بها عناني المتوفى سنة ٩٢٥ هـ، منها نسخ في جوتا ٧٧، وآيا صوفيا ١٧٢٢، وفاتح ٢٨٧٦.

كذلك ترجم المنهاج إلى الفارسية شيخ يوسف يدهه ساكن أيرج، المتوفَّى سنة ٨٣٤ هـ، ومنه نسخ في بنكيبور ١٣٧٩، ليدن ٤/٣١٥، الديوان الهندي ١٨٦٥، الجمعية الآسيوية في البنغال ١١٦٥. كما أن هناك ترجمة فارسية للمنهاج طبعت ببومباي سنة ١٢٩٤ هـ في ١٠٧ صفحات[٣].

---

(١) كشف الظنون ٢/١٨٧٦، ويذكره الدكتور بدوي ضمن تلخيصات المنهاج لا ضمن ترجماته، ويذكر أن منه مخطوطاً في برلين برقم ٢٣٠٩.

(٢) فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق ـ تصوّف ـ ٢/٧٨٦.

(٣) م.س.

ثالثاً: التحقيق

١ ـ النُّسخ المعتمدة:

اعتمدت في تحقيق كتاب منهاج العابدين على ثلاث نسخ خَطِّيَّة[١]، ونسختين مطبوعتين[٢]، وهي حسب أهميتها:

أ ـ نسخة خطية موجودة في دار الكتب الظاهرية (مكتبة الأسد) بدمشق، رقمها ٥٨٧٤ تصوّف، تاريخ نسخها عام ٨٧٧ هـ.

ب ـ نسخة خطية ثانية موجودة في دار الكتب الظاهرية (مكتبة الأسد) بدمشق، رقمها ٨٢٤٥ تصوُّف، تاريخ نسخها عام ٨٤٢ هـ.

جـ ـ نسخة خطية ثالثة مصدرها قونية بتركيا، وهي بتملُّك المحقق.

د ـ نسخة مطبوعة ضمن شرح للكتاب باسم: سراج الطالبين شرح منهاج العابدين إلى جنة ربِّ العالمين، للشيخ إحسان بن

---

(١) راجع ما ذكرناه عند الحديث على مخطوطات الكتاب.

(٢) راجع ما ذكرناه عند الحديث على طبعات الكتاب.

محمد دحلان الكديري. طبعت عام ١٣٧٤ هـ/ ١٩٥٥ م بمصر في جزأين كبيرين.

هـ ـ نسخة مطبوعة وبهامشها بداية الهداية للمؤلف أيضا، طبعت عام ١٣٣٧ هـ بمصر في خمس وتسعين صفحة.

٢ ـ المنهج المعتمد في التحقيق:

رغبة في إخراج النص إخراجاً علمياً جيداً يسهّل على القارىء مطالعته والاستفادة منه على أفضل وجه، رأينا أنه من المناسب اعتماد المنهج التالي:

أ : تقطيع الكتاب إلى أبواب وفصول تتفق مع مضمونه.

ب : إضافة عناوين في المتن وفي الهوامش حيث تدعو الحاجة.

جـ: شرح المفردات وإيضاح المشكل منها.

د : ضبط أوزان الأبيات الشعرية الواردة مع ذكر بحورها.

هـ: تخريج الآيات القرآنية الواردة.

و : تخريج الأحاديث النبوية وبيان درجة صحتها ومكان ورودها في الكتب الحديثية، مع إعطائها رقماً متسلسلاً من أول الكتاب إلى آخره.

ز : وضع فهرس أبجدي بالأحاديث النبوية الواردة، مرتب حسب بداية الحديث ومكان وروده تسهيلاً للعودة إليه.

حـ: التعريف بالأعلام الواردة أسماؤهم، مع إعطاء نبذة مختصرة عنهم.

ط : وضع فهرس أبجدي بالأعلام مع ذكر مكان ورودها في الكتاب.

ي : وضع فهرس بأسماء الكتب الواردة في متن الكتاب سواء أكانت للمؤلف أو لغيره.

ك : وضع فهرس بالأشعار الواردة مع ذكر قائلها ومكان ورودها وبحورها، مرتب على القوافي.

ل : وضع فهرس بأهم مصادر التحقيق.

م : إن ما وضع ضمن هلالين هو زيادة من المحقق أو من النسخ الأخرى.

وفي الختام، أسأل الله تعالىٰ أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يثيبني على ما وفَّقني إليه من خير وصواب، ويغفر لي ما اقترفت يداي من أخطاء، ويلهمني من لديه علماً ورشداً.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين

د. محمود حلاوي

بيروت في ٢٧ رمضان ١٤٠٨ هـ
الموافق ١٣ أيار ١٩٨٨ م



صورة غلاف النسخة (أ)

بسم الله الرحمن الرحيم وحسبنا الله ونعم الوكيل

الحمد لله الملك الحكيم الجواد الكريم العزيز الرحيم الذي فطر السموات
والارضين بقدرته ودبر الامر في الدارين بحكمته وما خلق الجن والانس الا لعبادته
فالطريق اليه واضح للقاصدين والدليل عليه لاح للناظرين ولكن الله يضل
من يشاء ويهدي من يشاء وهو اعلم بالمهتدين والصلاة على محمد سيد المرسلين
وعلى اله الابرار الطيبين اجمعين وسلم وعظم الى يوم الدين اعلموا اخواني اسعدكم
الله واياي انا تاملنا ان العبادة ثمرة العلم وفائدة العمر وحاصل العبد وبضاعة
الاولياء وطريق الاقوياء وقسم الاعزة ومقصد ذوي الهمة وشعار الكرام وحرفة
الرجال واختيار اولي الابصار وهي سبيل السعادة ومنهاج الجنة قال الله تبارك
وتعالى وانا ربكم فاعبدون وقال تعالى ان هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم
مشكورا ثم انا نظرنا فيها وتاملناها من مبادئها الى مقاصدها التي هي اماني
سالكيها فاذا هي طريق وعر وسبيل صعب كثير العقبات شديد المشقات
بعيد المسافات عظيم الآفات كثير العوائق والموانع خفية المهالك والمقاطع
كثيرة الاعداء والقطاع عزيزة الاشياع والاتباع وهكذا يجب ان يكون
لانها طريق الجنة فيصير هذا تصديقا لما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم
ان الجنة حفت بالمكاره وان النار حفت بالشهوات وقال صلى الله عليه وسلم
الا ان الجنة حزن بربوة الا ان النار سهل بسهوة ثم مع ذلك فان العبد
ضعيف والزمان صعب وامر الدين متراجع والفراغ قليل والشغل كثير و
العمر قصير وفي العمل تقصير والناقد بصير والاجل قريب والسفر بعيد

والطاعة

الورقة الأولى من النسخة (أ)

ولا يشرك بعبادة ربه أحدا والرابع من مخلص غير خائف لما ينظر إلى معاملاته جل جلاله
مع لطفنا به وأوليائه وخدمه البرآءة بنيته ومن خلقه حتى يقول لأكرم الخلق محمد صلى
(الله) عليه وسلم ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت الآيات ونحوها حتى حكي أنه
عليه الصلاة والسلام يقول شيبتني هود وأخواتها ثم جملة الأمر وتفصيله ما قاله رب
العالمين في أربع آيات من الكتاب العزيز قوله عز وجل أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم
إلينا لا ترجعون ثم قال عز وجل ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير
بما تعملون ثم قال جل من قائل والذين جاهدوا فينا لنهدينهم [سبلنا] وإن الله لمع المحسنين
ثم أجمل الكل فقال وهو أصدق القائلين ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني
عن العالمين ونحن نستغفر الله من كل ما زلت به القدم أو طغى به القلم ونستغفره
من أقاويلنا التي لا توافق أعمالنا ونستغفره مما ادعيناه وأظهرناه من العلم بدين
الله تعالى مع التقصير فيه ونستغفره من كل خطرة دعتنا إلى تصنع وتزين
في كتاب سطرناه أو كلام نظمناه أو علم أفدناه ونسأله أن يجعلنا وإياكم معشر
الإخوان بما علمناه عاملين ولوجهه به مريدين وأن لا يجعله وبالا علينا
وأن يضعه في ميزان الصالحات إذا ردت أعمالنا إلينا إنه جواد كريم. هذا
ما أردنا أن نذكر في شرح كيفية سلوك طريق الآخرة وقد وفينا بالمقصود وصلى
الله على خير مولود دعا إلى أفضل معبود محمد صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين وسلم
تسليما كثيرا. تم كتاب منهاج العابدين بحمد الله تعالى وعونه وحسن توفيقه
في ليلة الخميس سادس عشر من شهر ذي الحجة من سنة سبع وتسعين و[illegible]
على يد كاتبه لنفسه ولمن شاء الله عز وجل من بعده [illegible] العبد الفقير إلى [illegible]

سبلنا

تم

الورقة الأخيرة من النسخة (أ)

محمد بن ... الحسابي غفر الله له ولوالديه
ولجميع المسلمين والمشايخ واخوانه ومحبيه
في الله تعالى ولمن يقول آمين ولجميع
المسلمين آمين والحمد لله
رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد نبي الرحمة وعلى آله وصحبه وسلم ... وحسبنا الله ونعم الوكيل

قوبلت هذه النسخة
على نسخة قرئت على
الشيخ فصحت بحمد ...
٨٨١

يكون في ... ١٠١٧
فراغ هذا ...
في تاريخ ...
١٢٤٠

الورقة الأخيرة من النسخة (أ) وتبدو عليها المقابلات

بالدين في الحكم إذ لا تجتمع هذه الأمة على ضلالة كحرف الإجماع وما
عليه جمهور الأمة والسنة وغيرهم باطل وضلالات وأما أن يعتزل
بهم فليس هذا من ذلك في شيء والثاني يتمسك بالجماعة بأن لا ينقطعوا عن
جمعهم وجماعاتهم ولحوقها فإن فيها قوة الدين وجمال الإسلام وغيظ الكفار
الملحدين ولا يخلو ذلك من بركات ونظر من الله بالرحمة ولذلك يقول
حق المنفرد أن يشارك الناس في الجموع العامة في الخير وأن يجانبهم
في [illegible] والمزاحمة في سائر الأمور لما فيهما من ضروب الآفات و[illegible]
[illegible] في زمان الفتنة للرجل الضعيف في أمر الدين وأما إذا [illegible]
[illegible] في أضرابه إذا رأى زمان الفتنة الذي حذر عنه النبي صلى الله عليه
وسلم الأمة منه وأمرهم بالعزلة فالعزلة أولى لما في الخلطة من الفساد
الأول [illegible] ينقطع من جموع الإسلام والجماعات العامة وإن
[illegible] ينفرد عن الناس مرة ويسكن بما هو جبل أو بطن فلاة لصلاح [illegible]
[illegible] ولا أرى مثل هذا الرجل إنما كان إلا وعليه الله عز وجل
[illegible] الجماعات والجمعات وسائر جموع الإسلام من الله بمكان وأن
[illegible] فيهم وأكثر ما سمعنا من حال الأبدال أنهم يحضرون جموع
الإسلام إنما كانت ويسيرون من الأرض حيث شاؤوا وأن الأرض
لهم [illegible] واحد وفي الأخبار تطوى لهم وينادون بالجماعات يحضرون
أنواع البر والكرامات [illegible] واحسن [illegible] غفل
[illegible] النظر في خلاص نفسه والباب الثالث الذي لم يصل إلى المقصود
[illegible] ولقد عرض لي في صفة حالي أبيات من الشعر في هذه
[illegible] الطالبون واتصل الوصل وفاز الأحباب بالأحباب

بداية النسخة (ب) ويلاحظ أنها ليست الورقة الأولى من الكتاب

الورقة الأخيرة من النسخة (ب)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الإمام عبد الملك بن عبد الله أملى علي شيخي الإمام حجة الإسلام زين الدين أبو حامد محمد بن
محمد بن محمد الغزالي رحمة الله عليه هذا الكتاب وهو آخر كتاب صنفه ولم يسمع منه غير الخواص
من أصحابه وهو هذا الحمد لله الملك الحكيم الجواد الكريم العزيز الرحيم الذي فطر السموات والأرض
بقدرته ودبر الأمور في الدارين بحكمته وما خلق الجن والإنس إلا لعبادته فالطريق إليه
واضح للقاصدين والدليل لائح للناظرين ولكن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء و
هو أعلم بالمهتدين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله الأبرار الطيبين أجمعين
وسلم وعظم إلى يوم الدين أما بعد فاعلموا إخواننا أسعدكم الله وإيانا بمرضاته أن العبادة ثمرة العلم
وفائدة العمر وحاصل العبد وبضاعة الأولياء وطريق الأقوياء وقسمة الأعزة ومقصد ذوي
الهمة وشعار الكرام وحرفة الرجال واختيار أولي الأبصار وهي سبيل السعادة ومنهاج الجنة
قال الله تعالى وأنا ربكم فاعبدون وقال الله تعالى إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا
ثم إنا نظرنا فيها وتأملنا طريقها من مبادئها إلى غايات مقاصدها التي هي أماني سالكيها فإذا هي
طريق عسر وسبيل صعب كثيرة العقبات شديدة المشقات بعيدة المسافات
عظيمة الآفات كثيرة العوائق والموانع خفية المهالك والمقاطع كثيرة الأعداء والقطاع
عزيزة الأشياع والأتباع وهكذا يجب أن تكون لأنها طريق الجنة فيصير هذا تصديقا
لما قال رسول الله عليه السلام إن الجنة حفت بالمكاره وإن النار حفت بالشهوات وقال
رسول الله ألا وإن الجنة حزن بربوة ألا إن النار سهل بشهوة ثم مع ذلك كله فإن العبد ضعيف
والزمان صعب وأمر الدين متراجع والفراغ قليل والشغل كثير والعمر قصير وفي العمل تقصير

الورقة الأولى من النسخة (ج)

ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين ونحن نستغفر الله رب العالمين
من كل ما زلت به القدم أو طغى به القلم ونستغفره من أقوالنا التي لا توافق أعمالنا
ونستغفره مما ادعيناه وأظهرناه من العلم بدين الله تعالى مع التقصير فيه ونستغفره
من كل خطرة دعتنا إلى تصنع وتزين في كتاب سطرناه أو كلام نظمناه أو علم أفدناه
ونسأله أن يجعلنا وإياكم معشر الإخوان بما علمناه عاملين ولوجهه به مريدين
ولا يجعله وبالا علينا وأن يضعه في ميزان الصالحات إذا ردت أعمالنا إلينا
إنه جواد كريم. هذا ما أردنا ذكره في شرح كيفية سلوك الآخرة وقد وفينا بالمقصود
وصلى الله على خير مولود ودعاء إلى أفضل مبعوث محمد النبي وعلى آله وأصحابه
وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين فبين الرسالة وأوضح الدلالة وعبد ربه
حتى أتاه اليقين. وهو حسبنا ونعم الوكيل. ولا حول ولا قوة إلا
بالله العلي العظيم ... تم هذا الكتاب بحمد الله وعونه وحسن توفيقه
في يوم پنجشنبه في شهر صفر الخير المظفر ١١٤٢ سنة اثني وأربعين
ومائة بعد الألف من هجرة النبوية من يد عثمان بن محمد
غفر الله له ولوالديه ولأستاذي
بحرمة الأنبياء والأولياء
والشهداء وعباده
الصالحين

الورقة الأخيرة من النسخة (ج)

مِنْهَاجُ العَابِدِينَ

إلى جَنَّةِ رَبِّ العَالَمِيْن

تأليف

الإمام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي

المتوفى سنة ٥٠٥ هـ

تحقيق

الدكتور محمود مصطفى حلاوي



بسم الله الرحمن الرحيم

وَحَسْبُنا اللَّهُ ونِعْمَ الوكيل

إفتتاحيّة الكتاب

(قَالَ الشَّيْخُ الفَقِيهُ الصَّالِحُ الزَّاهِدُ، عَبْدُ الملِكِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، غفَرَ اللَّهُ لَهُ: أَمْلَى عَلَيَّ شَيْخِي الأَجَلُّ، الإِمَامُ الزَّاهِدُ، السَّعِيدُ المُوَفَّقُ، حُجَّةُ الإِسْلَامِ، زَيْنُ الدِّينِ، شَرَفُ الأُمَّةِ، أَبُو حَامِدٍ مُحمَّدُ بْنُ مُحمدِ بنُ مُحَمَّدٍ الْغَزَالِيُّ الطّوسِيُّ، قَدّسَ اللَّهُ رُوحَهُ، وَرَفَعَ اللَّهُ في الْجَنَّةِ دَرَجَتَهُ، هذَا الْكتابَ المختصَرَ، وهُوَ آخِرُ كِتَابٍ صَنَّفَهُ ولمْ يسْتَمْلِ مِنْهُ إِلا خَوَاصُّ أَصْحَابِهِ)/[١]. [٢/أ]

الحمدُ لِلَّهِ الْملِكِ الحَكيمِ، الجَوَادِ الكريمِ، الْعَزِيزِ الرَّحيمِ، الَّذِي فَطَرَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ بِقُدْرتِهِ، وَدَبَّرَ الأَمرِ، في الدَّارَيْنِ بِحِكْمَتِهِ، وَمَا خَلَقَ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِعِبَادَتِهِ؛ فَالطَّرِيقُ إِلَيْهِ وَاضِحٌ لِلْقَاصِدِينَ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ لَائِحٌ لِلنَّاظِرِينَ، وَلٰكِن الله يُضِلُّ مَن يَشاءُ وَيهدِي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهتَدِينَ.

---

(١) المقدّمة من نسخة (د)، وقد خلت نسخة (أ) منها. وجاءت في نسخة (ج) مختصرة، وهي تتفق مع ما جاء في (هـ).

والصَّلاةُ عَلَى محمد سَيِّدِ المُرْسَلِينَ، وَعَلَى آلِهِ الأَبْرَارِ الطَّيِّبِينَ أجمعين، وَسَلِّمْ وَعَظِّمْ إلى يَوْمِ الدِّينِ.

اْعْلَمُوا إخْوَاني، أسْعَدَكُمُ اللَّهُ وإِيَّانَا بِمَرْضاتِهِ، أَنَّ الْعِبَادَةَ ثَمَرَةُ الْعِلْمِ وَفائِدَةُ الْعُمْرِ، وَحاصِلُ العبدِ، وَبِضَاعَةُ الأَوْلِياءِ، وَطَرِيقُ الأقوياء، وَقِسَمُ الأَعِزَّةِ، وَمَقْصِدُ ذَوِي الْهِمَّةِ، وَشِعَارُ الْكِرَام، وَحِرْفَةُ الرِّجالِ، وَاْخْتِيَارُ أُولِي الأَبْصَارِ؛ وَهِيَ سَبِيلُ السعادَةِ وَمِنْهَاجُ الْجَنَّةِ؛ قال اللَّهُ تبارك وتَعَالىٰ: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾. [الأنبياء: ٩٢] وقالَ تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان: ٢٢]. ثُمَّ إنَّا نَظَرْنَا فيهَا، وَتَأَمَّلْنَا طَرِيقَهَا، مِنْ مَبادِيهَا إلى مَقاصِدِهَا الَّتِي هِيَ أَمَانِي سَالِكِيهَا فَإِذَا هِيَ طَرِيقٌ وَعْرٌ، وَسَبِيلٌ صَعْبٌ، كَبِيرَةُ الْعَقَبَاتِ، شَدِيدَةُ المَشَقَّاتِ، بَعِيدَةُ المَسافَاتِ، عَظِيمَةُ الآفاتِ، كَثِيرَةُ الْعَوَائِقِ وَالمَوَانِعِ، خَفِيَّةُ المَهالِكِ وَالمَقاطِعِ، غَزِيرَةُ الأَعْدَاءِ وَالْقُطَّاعِ، عَزِيزَةُ الأَشْيَاعِ وَالأَتْباعِ؛ وَهٰكَذَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ، لأَنَّهَا طَرِيقُ الْجَنَّةِ، فَيَصِيرُ هذا تَصْدِيقاً لِمَا قَالَهُ رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْجَنَّةَ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، وَإِنَّ النَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ»[1] وَقَالَ ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ الْجَنَّةَ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ،

---

(١) ــ رواه مسلم (٤/ ٢١٧٤)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، بلفظ (حُفّت الجنة بالمكاره وحُفّت النار بالشهوات). (الحديث رقم ٢٨٢٢).

ــ رواه البخاري (٨/ ١٢٧) في الرِّقاق، باب حجبت النار بالشهوات، عن أبي هريرة بلفظ: (حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره).

وورد أيضاً في:

ــ سنن أبي داود (كتاب السنة، باب في خلق الجنة والنار) (٥/ ١٠٨) (الحديث رقم ٤٧٤٤).

ــ وفي سنن الدارمي (٢/ ٣٣٩).

أَلَا وَإِنَّ النَّارَ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ»[1]. ثُمْ مَعَ ذٰلِكَ كُلِّهِ فَإِنَّ الْعَبْدَ ضَعِيفٌ، وَالزَّمَانُ صَعْبٌ، وَأَمْرُ الدِّينِ مُتَرَاجِعٌ، والمعين قَلِيلٌ، وَالشُّغْلُ كَثِيرٌ، وَالْعُمْرُ قَصِيرٌ، وَفِي الْعَمَلِ تَقْصِيرٌ، وَالنَّاقِدُ بَصِيرٌ، وَالأَجَلُ قَرِيبٌ، وَالسَّفَرُ بَعِيدٌ/ ، وَالطَّاعَةُ هِيَ الزَّادُ فَلَا بُدَّ مِنْهَا، وَهِيَ فائِتَةٌ فَلَا مَرَدَّ لَهَا؛ [٢/ب] فَمَنْ ظَفِرَ بِهَا فَقَدْ فَازَ وَسَعِدَ أَبَد الآبِدِينَ (وَدَهْرَ الدَّاهِرِينَ)[2]، وَمَنْ فَاتَهُ ذٰلِكَ فقد خَسِرَ مَعَ الْخَاسِرِينَ، وَهَلَكَ مَعَ الْهَالِكِينَ، فَصَارَ هٰذَا الْخَطْبُ إِذن وَاللَّهِ مُعْضَلاً، وَالْخَطَرُ عَظِيماً، وَلِذٰلِكَ عَزَّ مَنْ يَـقْصِدُ هٰذَا الطَّرِيقَ وَقَلَّ، كما قيل: «إذا عَظُمَ المطلوبُ قلَّ المُساعِدُ»، ثُمَّ عَزَّ مِنَ الْقاصِدِينَ مَنْ يَسْلُكُهُ، ثُمَّ عَزَّ مِنَ السَّالِكِينَ مَنْ يَصِلُ إِلَى المَقْصُودِ وَيَظْفَرُ بالْمَطْلُوبِ، وَهُمُ الأَعِزَّةُ الَّذِينَ اصْطَفَاهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَل لِمَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ، وَسَدَّدَهُمْ بِتَوْفِيقِهِ وَعِصْمَتِهِ، ثُمَّ أَوْصَلَهُمْ بِفَضْلِهِ إِلى رِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ. فَنَسْأَلُهُ، جَلَّ ذِكْرُهُ، أَنْ يَجْعَلَكُمْ وَإِيَّانَا مِنْ أُولئِكَ الْفَائِزِينَ بِرَحْمتِهِ.

= ــ وفي مسند ابن حنبل رواية أخرى عن أبي هريرة بلفظ (حفت الجنة بالشهوات وحفت النار بالمكاره) (٢/ ٢٦٠). وهذه الرواية فريدة.

(١) ــ رواه ابن حنبل (١/ ٣٢٧) عن ابن عباس، وهذا جزء من حديث، وتمامه كالتالي: (من أَنْظَرَ مُعْسِراً أو وضع له، وَقاهُ الله من فيح جهنم، ألا إنّ عمل الجنة حَزْنٌ بربوة ثلاثاً، ألا إن عمل النار سهل بسهوة، والسعيد من وقي الفتن، وما من جرعة أحب إلي من جرعة غيظ يكظمها عَبْدٌ، ما كَظَمَهَا عَبدٌ لله، إلاَّ مَلأَ الله جَوْفَه إيماناً).

ــ وأورد السيوطي (الجامع الصغير ٢/ ٥٠٤) القسم الأول من هذا الحديث. وقد صححه (الحديث رقم ٨٥٣٧).

راجعْ أيضاً: فيض القدير للمناوي (٦/ ٨٩) (الحديث رقم ٨٥٣٧).

(٢) ساقطة من الأصل، مثبتة في (ج) و (د) و (هـ).

نَعَمْ، وَلَمَّا وَجَدْنَا هٰذِهِ الطَّرِيقَ عَلى هٰذِهِ الصِّفَةِ، نَظَرْنا فأمْعَنَّا النَّظَرَ في كَيفيَّةِ قَطْعِهَا، ومَا يَحْتاجُ إِلْيهِ الْعَبْدُ مِنَ الأُهْبَةِ والعُدَّةِ والآلَةِ وَالْحِيلةِ مِنْ عِلْمٍ وعمَلٍ، عَسَى أَنْ يَقْطَعَها بِحُسْنِ تَوْفيقِ اللّٰهِ تَعَالىٰ في سَلامَةٍ، وَلا يَنْقَطِعُ فِي عَقباتِها المُهْلِكَة، فَيَهْلِكَ معَ الهالِكِينَ، والعياذُ باللّٰهِ.

فصنَّفْنا في قَطْعِ هٰذِهِ الطَّرِيقِ وسُلوكِها كُتباً كإِحْيَاءِ عُلومِ الدِّينِ والقُرْبَةِ إلى اللّٰهِ عزَّ وجلّ، وغَيْرِ ذٰلِكَ، واحْتَوَتْ عَلَى دَقائِقَ مِنَ العلْومِ، اعْتاصَتْ عَلَى أَفْهام العَامَّةِ، فقَدَحُوا فِيهَا، وَخَاضُوا فِيما لَمْ يُحْسِنُوهُ مِنْهَا، فأَيُّ كلامٍ أَفْصَحُ مِنْ كلام رَبِّ الْعَالمينَ، وقَدْ قَالُوا ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الفرقان: ٥]، أَلَمْ تَسْمَعْ إِلى قَوْلِ زينِ الْعابِدِينَ[1] عليِّ بنِ الحُسَيْنِ بْنِ عليِّ بن أبي طالِبٍ، رَضِيَ اللّٰهُ عنهم، حيث يقول مضمِّناً: [البسيط]

إِنِّي لأَكْتُمُ مِنْ عِلْمِي جَوَاهِرَهُ ... كَيْ لا يَرَى الحقَّ ذُو جَهْلٍ فَيَفْتَتِنا
وقَدْ تَقَدَّمَ في هٰذا أَبُو حَسَنٍ ... إلى الْحُسَيْنِ وَأَوصَىٰ قَبلهُ الحَسَنَا
يَا رُبَّ جَوْهَرِ عِلْمٍ لوْ أَبُوحُ بهِ ... لَقِيلَ لي أَنْتَ مِمَّنْ يَعْبُدُ الوَثَنَا
وَلَاسْتَحَلَّ رِجَالٌ مُسْلِمُونَ دَمِي ... يَرَوْنَ أَقْبَحَ ما يأتُونَهُ حَسَنَا

---

(١) علي بن الحسين ابن الإمام علي بن أبي طالب، السيد الإمام زين العابدين يكنى أبا الحسين، وأمه أم ولد، اسمها سلافة بنت ملك الفرس يزدجرد. ولد في سنة ثمانية وثلاثين.
وكان مع أبيه الحسين الشهيد يوم كربلاء وله ثلاث وعشرون سنة، كان ثقة، مأموناً، كثير الحديث، ورعاً.
وقد توفي في سنة ٩٤ هـ. سير أعلام النبلاء ٤/٣٨٦.

وَٱقْتَضَتِ الحالُ عِنْدَ ذَوي الدِّينِ النَّظَرَ إلى كَافَّةِ خَلْقِ اللَّهِ بِعَيْنِ الرَّحْمَةِ وَتَرْكِ المُماراةِ،/ فابْتَهَلْتُ إلى مَنْ بِيَدِهِ الخلْقُ وَالأَمْرُ، أَنْ [٣/أ] يُوَفِّقَني لِتَصْنِيفِ كِتَابٍ يَقَعُ عَلَيْهِ الإِجْماعُ، وَيَحْصُلُ بِقراءَتِهِ الانتفَاعُ، فأجَابَني لِذٰلِكَ الَّذي يُجِيبُ المُضْطَرَّ إِذَا دَعاهُ، وأَطْلَعَني بِفَضْلِهِ عَلَى أَسرَارِ ذٰلِكَ، وَأَلْهَمني فِيهِ تَرْتِيباً عَجِيباً، لَمْ أَذْكُرْهُ في المُصَنَّفَاتِ الَّتي تَقَدَّمَتْ في «أسرَارِ مُعَامَلاتِ الدِّينِ»، وهُوَ الَّذي أَنَا لهُ وَاصِفٌ فأَقُولُ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ[1].

(١) إلى هنا تنتهي افتتاحية الكتاب، ويبدأ التقديم للكتاب والتعريف بعمل المؤلف.



تقديم
الهداية إلى طريق العبادة

إنَّ أوَّلَ ما يتنبّه الْعَبْدُ لِلعِبَادَةِ وَيَتَحَرَّكُ لِسُلُوكِ طَرِيقِهَا بخَطْرَةٍ سَمَاوِيَّةٍ، وَتَوْفِيقٍ خَاصٍّ إِلٰهِيٍّ، وَهُوَ المَعْنِيُّ بقولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزّمر: ٢٢] وإليه أشار صاحبُ الشَّرْعِ ﷺ فقالَ: «إِنَّ النُّورَ إِذَا دَخَلَ الْقَلْبَ انْفَسَحَ وَانْشَرَحَ، فقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ لِذٰلِكَ مِنْ عَلاَمَةٍ يُعْرَفُ بِهَا؟ فقالَ: نعم، التَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَالإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلودِ، وَالاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُول المَوْتَ»[1].

---

(١) ـ رواه الحاكم في المستدرك عن ابن مسعود قال: تلا رسول الله ﷺ: ﴿فمن يُرِدِ الله أنْ يهديَه يشرح صدره للإسلام﴾ فقال رسول الله ﷺ: «إنّ النور إذا دخل الصدر انفسح». فقيل: يا رسول الله: هل لذلك مِنْ عِلْمٍ يُعرف؟ قال: «نعم التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله».

وفي رواية الذهبي (إذا دخل القلب) والباقي لا خلاف فيه. وتعقّب الذهبي رجال هذا الحديث، فذكر أن عديّ بن الفضل ساقط. راجع المستدرك ٤/ ٣١١.

ـ وورد هذا الحديث في «الإحياء» بصيغ ثلاث: إن النور إذا دخل الصدر انفسح (٤/ ٤٦٠) وإذا دخل في القلب انشرح له (٤/ ٢٢٠).

وإذا قذف في القلب (١/ ٧٧). =

فَإِذَا خُطِرَ بِقَلْبِ الْعَبْدِ أَوَّلَ كلِّ شَيْءٍ أَنِّي أَجِدُنِي مُنعَّماً بضرُوبٍ مِنَ النعَم، كالحيَاةِ والقُدْرَةِ وَالْعَقْلِ وَالنُّطْقِ وسائِرِ المَعانِي الشَّرِيفَةِ واللَّذَّاتِ، ومَا يَنْصرِفُ عَنِّي مِنْ ضُرُوبِ المَضَارِّ والآفاتِ، وَإِنَّ لهٰذِهِ (النِّعَم)[1] مُنْعِماً يُطالِبُنِي بشُكْرِهِ وَخِدْمَتِهِ، فَإِنْ أغْفَلْتُ ذٰلِكَ فيُزِيلُ عَنِّي نعْمَتَهُ، وَيُذِيقُنِي بَأْسَهُ ونِقْمَتَهُ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيَّ رَسُولاً أَيَّدَهُ بالمُعْجزاتِ الخارِقَةِ للعَادَاتِ الخارِجَةِ عَنْ مَقْدُورِ الْبشرِ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّ لِي رَبّاً جَلَّ ذِكْرُهُ قادِراً عَالِماً حَيّاً (مُرِيداً)[2] مُتَكلِّماً، يَأْمُرُ وَيَنْهَى، قادِراً عَلَى أنْ يُعاقِبَ إِنْ عَصَيْتُهُ، وَيُثِيبَ إِنْ أَطَعْتُهُ، عَالِماً بِأَسرَارِي وما يخْتَلِجُ في أَفْكارِي، وَقَدْ وَعَدَ وَأَوْعَدَ، وَأَمَرَ بِالْتِزَامِ قَوَانِينِ الشرْعِ، فَيقَعُ في قَلْبِهِ أَنَّهُ ممكِنٌ، إِذْ لاَ اسْتِحَالةَ لِذٰلِكَ في العَقْلِ، بأَوَّلِ الْبَدِيهةِ، فَيَخافُ عَلَى نَفْسِهِ عِنْدَ ذٰلِكَ وَيَفْزَعُ.

فَهَذَا خاطِرُ الْفَزَعِ الَّذِي يُنَبِّهُ الْعَبْدَ وَيُلْزِمُهُ الْحُجَّةَ، وَيقطَعُ عَنْهُ الْمَعْذِرَةَ، وَيُزْعِجُهُ إِلى النَّظَرِ وَالاِسْتِدْلَالِ، فَيَهْتَاجُ[3] الْعَبْدُ عِنْدَ ذٰلِكَ، وَيَقْلَقُ وَيَنْظُرُ فِي طَرِيقِ الخَلَاصِ وَحُصُولِ الأَمَانِ لَهُ مِمَّا وَقَعَ بِقَلْبِهِ/ [٣/ب]، أَوْ سَمِعَ (بِأُذُنِهِ)[4]، فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ سَبِيلاً سِوَى النَّظَرِ بِعَقْلِهِ فِي الدَّلَائِلِ، وَالاسْتِدْلَالِ بالصَّنْعَةِ عَلَى الصَّانِعِ، لِيَحصلَ لَهُ العِلْمُ الْيَقين بِمَا هُوَ الغيب، وَيَعْلَمَ أَنَّ لهُ رَبًّا كلَّفَهُ وأَمَرَهُ وَنَهَاهُ.

= وقال العراقي: أخرجه ابن أبي الدنيا في قِصَر الأمل، والبيهقي في الزهد والحاكم في المستدرك من حديث ابن مسعود.

(١) ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

(٢) ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

(٣) في الأصل: فنحتاج، والتصحيح من (هـ).

(٤) ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

عقبات طريق العبادة

فَهَذِهِ أَوَّلُ عَقَبَةٍ اسْتَقْبَلَتْهُ في طَرِيق العِبَادَة، وَهِيَ عَقَبَةُ الْعِلْمِ وَالمَعْرِفَةِ، لِيَكُونَ مِنَ الأمْرِ عَلَى بَصِيرَةٍ، فَيأْخُذَ في قَطْعِهَا مِنْ غَيْرِ بُدٍّ، بِحُسْنِ النَّظَرِ في الدَّلاَئِلِ، وَوُفُورِ التَّأَمُّلِ وَالتَّعلُّم، وَالسُّؤَالِ مِنْ عُلَماءِ الآخِرَةِ الَّذين هم أَدِلاَّءُ الطَّرِيقِ، وسُرُجُ الأُمَّةِ، وَقَادَةُ الأَئِمَّةِ، والإسْتِفَادَةِ مِنْهُمْ، وَٱسْتِهْدَاءِ الدُّعَاءِ الصَّالح مِنهُمْ، لِلتَّوْفيقِ وَالإِعَانَةِ إِلى أَنْ يَقْطَعَهَا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ سُبْحانَهُ، فَيَحْصُلَ لَهُ العِلْمُ والْيَقِينُ بالْغَيْبِ، وهُوَ أَنَّ لهُ إِلٰهاً وَاحِداً لاَ شريكَ لهُ، هُوَ الَّذي خَلَقَهُ وَأَنْعَمَ عَلَيهِ بِكُلِّ هٰذِهِ النِّعَم، وأَنَّهُ كلَّفَهُ بِشُكْرِهِ، وأَمَرَهُ بِخِدْمَته وطَاعَتِهِ، بِظَاهِرِهِ وَبَاطِنِه، وحَذَّرَهُ الْكُفْرَ وضُرُوبَ المَعاصِي، وحكَمَ لهُ بالثَّوَابِ الخَالِد إِنْ أَطَاعَهُ، وبالعِقَابِ الخالِد إِنْ عَصَاهُ وَتولَّى عنْهُ. فعِنْدَ ذٰلِكَ تَبعَثُهُ هٰذِهِ المَعْرِفَةُ وَالْيَقِينُ بالغَيْبِ عَلَى التَّشْمِيرِ لِلْخِدْمَةِ، والإِقْبَالِ عَلَى الْعِبَادَةِ لِهٰذَا السَّيِّد المُنعم الَّذي طلَبَهُ فَوَجدَهُ، وَعَرَفَهُ بَعْدَ مَا جَهِلهُ، ولٰكِنَّهُ لاَ يَدْرِي كَيْفَ يَعْبُدُهُ وَمَاذَا يَلْزَمُهُ من خِدْمَتِهِ بِظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ. فَبَعْدَ حصول هٰذِهِ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ، سُبْحَانَهُ وَتعَالى، (جَهِدَ حَتَّى يَتعلَّمَ)[1] مَا يَلْزَمُهُ مِنَ الْفَرَائِضِ الشَرعِيةِ ظَاهِراً وَبَاطِناً.

عقبة التوبة

فلما ٱسْتَكْمَلَ الْعِلْمَ وَالمَعْرِفَةَ بِالْفَرَائِضِ، انْبعَثَ لِيَأْخُذَ في الْعِبَادَةِ، وَيَشْتَغِلَ بها؛ فَنَظَرَ فَإِذَا هُوَ صَاحِبُ جِنَايَاتٍ وَذُنُوبٍ، وَهٰذَا حَالُ الأَكْثَرِ مِنَ النَّاس، فَيَقُولُ: كَيْفَ أُقْبِلُ عَلَى الْعِبَادَةِ وَأَنَا مُصِرٌّ عَلَى المَعْصِيةِ مُتَلَطِّخٌ بها؟ فَيَجِبُ أَوَّلاً أَنْ أَتُوبَ إِلَيْه، لِيَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي، وَيُخَلِّصَنِي مِنْ أَسْرِهَا، وَأَتطَهَّرَ مِنْ أَقْذَارِها، فَأَصْلُحَ لِلْخِدْمَةِ وَبِسَاطِ الْقُرْبَةِ؛ فَتَسْتَقْبِلُهُ هٰهُنَا عَقَبَةُ التَّوْبَةِ، فَيَحْتَاجُ لاَ مَحالَةَ إِلَى

(١) ساقطة من الأصل، مثبتة في (د) و (هـ)، ويقتضيها سياق الكلام.

[٤/أ] قَطْعِهَا، لِيَصِلَ إِلَى مَا هُوَ المَقْصُودُ مِنها، فَأَخَذَ فِي ذٰلِكَ بِإِقَامَةِ/ التَّوْبَةِ في حُقُوقِها وَشَرَائِطِها إِلَى أَنْ قَطَعَهَا.

عقبة العوائق

فَلَمَّا حَصَلتْ لَهُ التَّوْبَةُ الصَّادِقَةُ، وَفرَغَ مِن قَطْع هٰذِهِ الْعَقَبَةِ، حَنَّ إِلَى الْعِبادَةِ، لِيَأْخُذَ فِيها، فَنظَرَ فَإِذَا حَوْلَهُ عَوائِقُ مُحْدِقَةٌ بِهِ، كُلُّ وَاحِدةٍ مِنْها تعُوقُهُ عَمَّا قَصدَ مِنَ الْعِبادَةِ بِضَرْبٍ مِنَ التَّعْويقِ، فتَأَمَّلَ فَإِذَا هِيَ أَرْبَع: الدُّنْيا وَالْخَلْقُ وَالشَّيْطَانُ وَالنَّفْسُ، فَاحْتاجَ لاَ مَحالَةَ إِلَى دَفْعِ هٰذِهِ الْعَوائِقِ وَإِزَاحَتِها عَنْهُ، وَإِلاَّ فَلاَ يَتَأَتَّى لَهُ أمره مِنَ الْعِبادَةِ؛ فَاسْتَقْبَلَتْهُ هٰهُنـا **عَقَبةُ الْعَوائِقِ**، فَيَحْتاجُ إِلَى قَطعِهَا بِأَرْبَعَةِ أُمُورٍ: التَّجرُّدِ عَنِ الدُّنْيَا، وَالتَّفَرُّدِ عَنِ الْخَلْقِ، وَالمُحَارَبَةِ مَعَ الشَّيْطَانِ، ومضادة النَّفْسِ.

فَأَمَّا النَّفْسُ فَأَشَدُّهَا، إِذْ لاَ يُمْكِنُهُ التَّجرُّد عَنْهَا وَلاَ أَنْ يَقْهَرَهَا بِمَرَّةٍ وَيَقْمَعَهَا كالشَّيْطَانِ؛ إِذْ هِيَ المَطِيَّةُ وَالآلةُ، وَلاَ مَطْمَعَ أَيْضاً في مُوَافَقَتِهَا عَلَى مَا يَقْصِدُهُ الْعَبْدُ مِنَ الْعِبادَةِ وَالإِقْبالِ عَلَيْها، إِذْ هِيَ مَجْبُولَةٌ عَلَى ضِدِّ الْخَيْرِ كَالهوى وَاتِّبَاعِهَا لَه، فَاحْتَاجَ إِذاً إِلَى أَنْ يُلْجِمَهَا بِلِجَامِ التَّقْوَى، لِتَبْقَى لَهُ فَلا تَنْقَطِـعَ، وَتَنْقَادَ لَهُ فَلاَ تَطْغَى، فَيَسْتَعْمِلُها في المَصَالِـحِ وَالمَرَاشِدِ، وَيَمْنَعُها عن المَهَالِكِ وَالمَفَاسِدِ، فَيَأْخُذُ إِذاً في قَطْعِ هٰذِهِ الْعَقَبَةِ، وَيَسْتَعِينُ بِاللَّهِ جَلَّ ذِكْرُهُ عَلَى ذٰلِكَ.

عقبة العوارض

فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَطْعِهَا، رَجَعَ إِلَى قَصْدِ الْعِبادَةِ، فَإِذَا عَوارِضُ تَعْتَرِضُهُ، فَتَشْغَلُهُ عَنِ الإِقْبَالِ عَلَى مَقْصُودِهِ مِنَ الْعِبَادَةِ، وَتَصُدُّهُ عَنِ التَّفَرُّغِ لِذٰلِكَ كمَا يَنْبَغِي؛ فَتَأَمَّلَ فَإِذَا هِيَ أَرْبَعَةٌ:

(الأول): الرِّزْقُ. تُطَالِبُهُ النَّفْسُ بِهِ وَتَقُولُ: لاَ بُدَّ لِي مِنْ رِزْقٍ

وَقِوام، وَقَدْ تَجَرَّدْتُ من الدُّنْيا، وَتَفَرَّدْتُ أَيْضاً عَنِ الْخَلْقِ، فَمِنْ أَيْنَ يَكُونُ قِوَامِي وَرِزْقِي؟.

(وَالثَّانِي): **الأَخْطارُ** مِنْ كُلِّ شَيْءٍ تَخَافُهُ أَوْ تَرْجُوهُ أَوْ تُرِيدُهُ أَوْ تَكْرَهُهُ، وَلاَ تَدْرِي صَلاَحَهُ في ذلك أَوْ فَسَادَهُ، فَإِنَّ عَوَاقِبَ الأُمُورِ مُبْهَمَةٌ، فَيَشْتَغِلُ قَلْبُهُ بِها، فَإِنَّهُ رُبَّما يَقَعُ فِي فَسَادٍ أَوْ مَهْلَكَةٍ.

(وَالثَّالِثُ): **الشَّدَائِدُ وَالمَصَائِبُ**، تُنْصَبُ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، لاَ سِيَّمَا وَقَدِ انْتَصَبَ لِمُخَالَفَةِ الْخَلْقِ وَمُحَارَبَةِ الشَّيْطَانِ وَمُضَادَّةِ النَّفْسِ، فَكَمْ/ مِنْ غُصَّةٍ يَتَجَرَّعُهَا، وكَمْ شِدَّةٍ تَسْتَقْبِلُهُ، وَكَمْ هَمٍّ [٤/ب] وَحَزَنٍ يَعْتَرِضُهُ، وَكَمْ مُصِيبةٍ تَتَلَقَّاهُ؟

(وَالرَّابِعُ): **أَنواعُ الْقَضَاءِ** مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعالَىٰ، بالْحُلْوِ وَالمُرِّ، تَرِدُ عَلَيْهِ حالاً فَحَالاً، وَالنَّفْسُ تُسَارِعُ إِلَى السُّخْطِ، وَتُبَادِرُ إِلَى الْفِتْنَةِ؛ فَاسْتَقْبَلَتْهُ هٰهُنَا عَقَبَةُ الْعَوَارِضِ الأَرْبَعَةِ، **فَاحْتَاجَ إِلَى قَطْعِهَا بِأَرْبَعَةِ أَشْيَاء: التَّوَكُّلِ** عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ في مَوْضِعِ الرِّزْقِ، **وَالتَّفْوِيضِ إِلى الله في** مَوَاضِعِ الْخَطَرِ، **وَالصَّبْرِ** عِنْدَ نُزُولِ الشَّدَائِدِ، **وَالرِّضَا** عِنْدَ نُزُولِ الْقَضَاءِ. فَأَخَذَ فِي قَطْعِ هٰذِهِ الْعَقَبَةِ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَتَسدِيدِهِ وَحُسْنِ تَأْيِيدِهِ.

عقبة البواعث

فَلَمَّا فَرَغ مِنْ قَطْعِهَا وَعَادَ إِلَى قَصْدِ الْعِبَادَةِ، نَظَرَ فَإِذَا النَّفْسُ فَاتِرَةٌ كَسْلَى، لا تَنْشَطُ وَلاَ تَنْبَعِثُ لِخَيْرٍ كَمَا يَحِقُّ وَيَنْبَغِي، وَإِنَّمَا مَيْلُهَا أَبَداً إِلَى غَفْلَةٍ وَدَعةٍ وَرَاحَةٍ وَبَطَالَةٍ، بَلْ إِلَى شَرٍّ وَفُضُولٍ وَبَلِيَّةٍ وَجَهَالَةٍ، فَاحْتَاجَ مَعَهَا إِلَى سَائِقٍ يَسُوقُهَا إِلَى الْخَيْرِ وَالطَّاعَةِ، وَيُنَشِّطُهَا فيه، وَزَاجِرٍ يَزْجُرُهَا عَنِ الشَّرِّ وَالمَعْصِيَةِ، وَيُفَتِّرُها عَنْهُ، وَهُما: الرَّجَاءُ وَالْخَوْفُ. فَالرَّجاءُ فِي عَظِيمِ ثَوَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعالَىٰ وَحُسْنِ

مَا وَعَدَ مِنْ أَنْوَاعِ الْكَرَامَةِ، وَتَذَكُّرِ ذٰلِكَ، سَائِقٌ يَسُوقُهَا فَيَبْعَثُهَا عَلَى الطَّاعَةِ، ويُحَرِّكُهَا لِذٰلِكَ وَيُنَشِّطُهَا. وَالْخَوْفُ مِنْ أَلِيمِ عِقَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَصُعُوبَةِ مَا أَوْعَدَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعُقُوبَةِ وَالإِهَانَةِ هنا زَاجِرٌ يَزْجُرُهَا عَنِ المَعْصِيَةِ، وَيُجَنِّبُهَا وَيُفَتِّرُهَا عَنْ ذٰلِكَ. فَهٰذِهِ **عَقَبَةُ الْبَوَاعِثِ** اسْتَقْبَلَتْهُ هٰهُنَا، فَاحْتَاجَ إِلَى قَطْعِهَا بِهٰذَيْنِ الذِّكْرَيْن، فَأَخَذَ فِيهَا بِحُسْنِ تَوْفِيقِ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ، فَقَطَعَهَا.

عقبة القوادح فَلَمَّا فَرَغَ مِنْها، رَجعَ إِلَى الإِقْبَالِ عَلَى الْعِبَادَةِ، فَلَمْ يَرَ عَائِقاً وَلاَ شَاغِلاً، وَوَجَدَ بَاعِثاً وَدَاعِياً؛ فَنَشِطَ فِي الْعِبَادَةِ فَأَقَامَهَا، وَعَانَقَهَا بِتَمَامِ الشَّوْقِ وَالرَّغْبَةِ فَأَدَامَهَا، فَنَظَرَ فَإِذَا تَبْدُو لِهٰذِهِ الْعِبَادَةِ الَّتِي ٱحْتَمَلَ فِيهَا كُلَّ ذٰلِكَ آفَتَانِ عَظِيمَتَانِ وَهُمَا **الرِّيَاءُ وَالْعُجْبُ**، تَارَةً يُرَائِي بِطَاعَتِهِ النَّاسَ فَيُفْسِدُهَا، / [٥/أ] وَأُخْرَى يَمْتَنِعُ عَنْ ذٰلِكَ وَيَلُومُ نَفْسَهُ، فَيَعْجبُ بِنَفْسِهِ فَيُحْبِطُ الْعِبَادَةَ عَلَيْهِ وَيُتْلِفُهَا. فَاسْتَقْبَلَتْهُ هٰهُنَا **عقبةُ الْقَوادِحِ**، فَاحتاجَ إِلَى قَطْعِها بِالإِخْلَاصِ وَذِكْرِ المِنَّةِ وَنَحْوِهَا، لِيَسْلَمَ لَهُ مَا يَعْمَلُ مِنْ خَيْرٍ؛ فَأَخَذَ فِي قَطْعِ هٰذِهِ الْعَقَبَةِ بِإِذْنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بِجِدٍّ وَاحْتِيَاطٍ، وَتَيَقُّظٍ بِحُسْنِ عِصْمَةِ الْجَبَّارِ وَتَأْيِيدِهِ.

عقبة الحمد والشكر فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ هٰذا كُلِّه، حَصَلَتْ لَهُ الْعِبَادةُ كما يَحِقُّ وَيَنْبَغِي، وَسَلِمَتْ مِنْ كُلِّ آفَةٍ؛ وَلٰكِنَّهُ نَظَرَ، فَإِذَا هُوَ غَرِيقٌ فِي بُحُورِ مِنَنِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَأَيَادِيهِ، مِنْ كَثْرَةِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِهِ مِنْ إِمْدَادِ التَّوْفِيقِ وَالْعِصْمَةِ، وَأَنْوَاعِ التَّأْيِيدِ وَالْحِرَاسَةِ، وَخَافَ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ إِغْفَالٌ لِلشُّكْرِ، فَيَقَعُ فِي الْكُفْرَانِ، فَيَنْحَطُّ عَنْ تِلْكَ المَرْتَبَةِ ٱلرَّفِيعَةِ، الَّتِي هِيَ مَرْتَبَةُ الْخَدَمِ الْخَالِصِينَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَتَزُولُ عَنْهُ تِلْكَ النِّعَمُ الْكَرِيمَةُ مِنْ ضُرُوبِ أَلْطَافِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَحُسْنِ نَظَرِهِ إِلَيْهِ، فَاسْتَقْبَلَتْهُ هٰهُنَا عقبةُ

الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ فَأَخَذَ فِي قَطْعِهَا بِما أَمْكَنَهُ مِنْ كَثْرَةِ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ عَلَى كَثِيرِ نِعَمِهِ.

ثمرة العبادة

فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ هٰذِهِ الْعَقَبَةِ وَنَزَلَ فَإِذَا هُوَ بِمَقْصُودِهِ وَمُبْتَغَاهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلَمْ يَسِرْ إِلَّا قَلِيلاً حَتَّى وَقَعَ فِي سَهْلِ الْفَضْلِ وَصَحْرَاءِ الشَّوْقِ وَعَرَصَاتِ المَحَبَّةِ.

ثُمَّ يَقَعُ فِي رِيَاضِ الرِّضْوَانِ، وَبَسَاتِينِ الأُنْسِ إِلى بِسَاطِ الإِنْبِسَاطِ، وَمَرْتَبَةِ التَّقْرِيبِ، وَمَجْلِسِ المُنَاجَاةِ، وَنَيْلِ الْخِلَعِ وَالْكَرَامَاتِ، فَهُوَ يَتَنَعَّمُ فِي هٰذِهِ الْحَالاَتِ[1]، وَيَتَقَلَّبُ فِي طِيبِهَا أَيَّامَ بَقَائِهِ وَبَقِيَّةَ عُمْرِهِ، بِشَخْصٍ فِي الدُّنْيَا وَقَلْبٍ فِي الْعُقْبَى، يَنْتَظِرُ الْمَزِيدَ يَوْماً فَيَوْماً، وَسَاعَةً فَسَاعة، حَتَّى يَمَلَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ، وَيَسْتَقْذِرَ الدُّنْيَا وَيَحِنَّ إِلَى الْمَوتِ. وَاسْتَكْمَلَ الشَّوْقَ إِلَى المَلإِ الأَعْلَى، فَإِذَا هُوَ بِرُسُلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَيْهِ، يَرِدُونَ عَلَيْهِ، بِالرَّوْحِ وَالرَّيْحَانِ، وبالْبُشْرَى وَالرِّضْوَانِ، مِنْ عِنْدِ رَبٍّ رَاضٍ غَيْرِ غَضْبانَ، فَيَنْقُلُونَهُ فِي طِيبَةِ النَّفْسِ وَتَمامِ الْبِشْرِ وَالأُنْسِ، مِنْ هٰذِهِ الدَّارِ الْفَانِيَةِ الْمُفْتِنَةِ، إِلَى الْحَضْرَةِ الإِلٰهِيَّةِ، وَمُسْتَقَرِّ رِيَاضِ الْجَنَّةِ/ ، فَيَرَى لِنَفْسِهِ الضَّعِيفَةِ الْفَقِيرَةِ نَعِيماً [٥/ب] وَمُلْكاً كَبِيراً، وَيَلْقَى هُنَاكَ مِنْ سَيِّدِهِ الرَّحِيمِ المُفْضِلِ الْكَرِيمِ، جَلَّ ذِكْرُهُ، مِنَ اللُّطْفِ وَالْعَطْفِ، وَالتَّرْحِيبِ وَالتَّقْرِيبِ، وَالإِنْعَامِ وَالإِكْرَامِ، مَا لاَ يُحِيطُ بِهِ وَصْفُ الْوَاصِفِينَ، وَلاَ نَعْتُ النَّاعِتِينَ؛ فَهُوَ كُلَّ يَوْمٍ فِي زِيَادَةٍ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ، فَيَالَهَا مِنْ سَعَادَةٍ عَظِيمَةٍ، وَيَا لَهَا مِنْ دَوْلَةٍ عَالِيَةٍ، وَيَا لَهُ مِنْ عَبْدٍ مَسْعُودٍ، وَامْرِىءٍ مَغْبُوطٍ وَشَأْنٍ مَحْمُودٍ،

(١) في الأصل، بالمفرد، والتصحيح من (رد) و (هـ).

فَطُوبَى لَهُ وَحُسْنُ مَآبٍ.

نَسْأَلُ اللَّهَ الْبَرَّ الرَّحِيمَ سُبْحَانَهُ، أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ بِهٰذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ وَالمِنَّةِ الْجَسِيمَةِ، وَمَا ذٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ، وَأَنْ لاَ يَجْعَلَنا مِنَ الَّذِينَ لاَ نَصِيبَ لَهُمْ في هٰذَا الأَمْرِ إلا وَصْفٌ وَسَمَاعٌ وَتَمَنٍّ بِلاَ انْتِفاعٍ، وَأَنْ لاَ يَجْعَلَ مَا تعَلَّمْنَا مِنَ العِلْمِ حُجَّةً عَلَيْنَا يَوْمَ الْقِيامَةِ، وَأَنْ يُوَفِّقَنا جَمِيعاً لِلْعَمَلِ بِذٰلِكَ وَالْقِيامِ بِهِ كَما يُحِبُّ وَيَرْضَى، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ وَأَكْرَمُ الأَكْرَمِينَ.

فَهٰذَا هُوَ التَّرتِيب الَّذِي أَلْهَمَنِي مَوْلاَيَ في طَرِيقِ الْعِبَادَةِ.

خُطّة الكتاب

وَاعْلَمِ الآن، أَنَّ الْحَاصِلَ مِنَ الْجُمْلَةِ سَبْعُ عَقبَاتٍ: الأُولَى عَقبَةُ الْعِلْمِ، الثَّانِيَةُ عَقبَةُ التَّوْبَـةِ، الثَّالِثَةُ عَقبَةُ الْعَوَائِقِ، الرّابِعَةُ عَقبَةُ الْعَـوَارِضِ، الْخَـامِسـةُ[1] عَقَبَـةُ الْبَـوَاعِـثِ، السَّـادِسَـةُ عَقَبَـةُ الْقَـوَادِحِ، السَّابِعَةُ عَقْبَةُ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ، وَبِتَمَامِهَا يَتِمُّ كِتَابُ مِنْهَاجُ الْعَابِدِينَ إِلَى جَنَّةِ رَبِّ العالمين.

وَنَحْنُ الآنَ نَتتَبَّعُ هٰذِهِ الْعَقَباتِ، بِشَرْحٍ مُوجَزِ اللَّفْظِ، مُشْتَمِلٍ عَلَى النُّكَتِ الْمَقْصُودَةِ مِنْ هٰذَا الشَّأْنِ، كُلٌّ مِنْهَا فِي بَابٍ مَفْرِدٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالى.

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَلِيُّ التَّوفِيقِ وَالتَّسْدِيدِ بِمَنِّهِ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

---

(١) في الأصل: الخامس، والتصحيح من باقي النسخ.

العقبةُ الأُولى
وَهِيَ عَقَبةُ الْعِلم

أَقُولُ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ:

يَا طَالِبَ الْخَلَاصِ وَالْعِبادَةِ عَلَيْكَ أَوَّلاً، وَفَّقَكَ اللَّهُ، بِالْعِلم فإِنَّهُ الْقطْبُ وَعَلَيْهِ المَدَارُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْعِلْم وَالْعِبَادَةَ جَوْهَرَانِ لِأَجْلِهِمَا كَانَ كُلُّ مَا تَرى وَتَسْمَعُ مِنْ تَصْنِيفِ المُصَنِّفِينَ وَتَعْلِيم المُعَلِّمينَ/ [٦/أ] وَوَعْظِ الوَاعِظِينَ وَنَظَرِ النَّاظِرِينَ، بَلْ لِأَجْلِهِمَا أُنْزِلَتِ الْكُتُبُ وَأَرْسلَتِ الرُّسُلُ، بَلْ لِأَجْلِهِمَا خُلِقَتِ السَّمٰوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَا فِيهِما مِنَ الْخَلْقِ. فَتَأَمَّلْ آيَتَيْنِ في كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

إِحْدَاهُمَا: قَوْلُهُ تَعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ۝١٢﴾ [الطلاق: ١٢] وَكَفَى بِهٰذِهِ الآيَةِ دَلِيلاً عَلَى شَرَفِ الْعِلْمِ، لاَ سِيَّمَا عِلْمَ التَّوْحِيدِ.

والآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]. وَكَفَى بِهٰذِهِ الآيَةِ دَلِيلاً عَلَى شَرَفِ الْعِبَادَةِ وَلُزُومِ الإِقْبَالِ عَلَيْهَا، فَأَعْظِمْ بِأَمْرَيْنِ هُمَا الْمَقْصُودُ مِنْ

خَلْقِ الدَّارَيْنِ، فَحَقَّ لِلْعَبْدِ أَنْ لاَ يَشْتَغِلَ إِلاَّ بِهِمَا، وَلاَ يَتْعَبَ إِلاَّ لَهُما، وَلاَ يَنْظُرَ إِلاَّ فِيهِمَا، فَاعْلَمْ أَنَّ مَا سِوَاهُمَا مِنَ الأُمُورِ بَاطِلٌ لاَ خَيْرَ فِيهِ، وَلَغْوٌ لاَ حَاصِلَ لَهُ.

فَإِذَا عَلِمْتَ ذٰلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ الْعِلْمَ أَشْرَفُ الْجَوْهَرَيْنِ وَأَفْضَلُهُمَا، وَلِذٰلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى العابِدِ كَفَضْلِي على أَدْنَى رَجُلٍ مِنْ أُمتي»[1]. وَقَالَ ﷺ: «نَظْرَةٌ إِلَى الْعَالِمِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا»[2]. وَقَالَ ﷺ: «أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَشْرَفِ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟

---

(١) ـ ورد هذا الحديث في الإحياء (٦/١) بلفظ: (فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي).
ـ وفي سنن ابن ماجه (٨٠/١) باب فضل العلماء، ورد هذا الحديث ضمن حديث طويل عن أبي الدرداء وفيه: (... وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب..) (الحديث رقم ٢٢٣).
ـ وفي كشف الخفاء (فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم). (١١١/٢) الحديث رقم ١٨٢٨، وقال في تخريجه: رواه الترمذي وحسّنه عن أبي أمامة مرفوعاً. ونقل النجم عن الترمذي أنّه صحيح.

(٢) ـ جاء في كشف الخفاء (٤٢١/٢) في التعليق على الحديث رقم ٢٨١١ ونصه: (نظرة في وجه العالم أحب إلى الله من عبادة ستين سنة صياماً وقياماً).
قال: أورده الديلمي بلا سند عن أنس مرفوعاً بلفظ: (النظر إلى وجه العالم عبادة، وكذا في الجلوس معه والأكل والكلام) ولا يصح شيء من ذلك كله.
ـ وورد في ضعيف الجامع الصغير وزياداته (١٤/٦):
(نظر الرجل إلى أخيه على شوق، خير من اعتكاف سنة في مسجدي هذا) (الحديث رقم ٥٩٧١) وفيه أنه ضعيف، وقد ورد في كتاب الأحاديث الضعيفة تحت رقم ٤٦٩٠.

قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: هُمْ عُلَماءُ أُمَّتي»[1].

العلم شجرة والعبادة ثمرتها

فَبَانَ لَكَ أَنَّ الْعِلْمَ أَشْرَفُ جَوْهَراً مِنَ الْعِبَادَةِ، وَلٰكِنْ لاَ بُدَّ لِلْعَبْدِ مِنَ الْعِبَادَةِ مَعَ الْعِلْمِ، وَإلاَّ كَانَ عِلْمُه هَبَاءً مَنْثُوراً. فَإِنَّ الْعِلْمَ بِمَنْزِلَةِ الشَّجَرَةِ، وَالْعِبَادَةَ بِمَنْزِلَةِ ثَمَرَةٍ مِنْ ثَمَرَاتِها؛ فالشرَفُ لِلشّجَرَةِ إذْ هِيَ الأَصْلُ، وَلٰكِنَّ الانْتِفَاعَ إنَّما يَحْصُلُ بِثَمَرَتِهَا. فإذاً لاَ بدّ مِنَ العِبَادَةِ لِيسْلَمَ شَرَفُ الْعِلْم، وَلاَ بُدَّ لِلْعَبْدِ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِنْ كِلاَ الأَمْرَيْنِ حَظٌّ وَنَصِيبٌ. وَلِهٰذَا قَالَ الْحَسَنُ البصْريُّ[2] رَحِمَهُ اللَّهُ: اُطْلُبُوا هٰذَا الْعِلْمَ طَلَباً لاَ يَضُرُّ بِالْعِبَادَةِ، وَاطْلُبُوا هٰذِهِ الْعِبَادَةَ طَلَباً لاَ يَضُرُّ بِالْعِلْمِ.

وَلَمَّا اسْتَقَرَّ أَنَّهُ لاَ بُدَّ لِلْعَبْدِ مِنْهُمَا جَمِيعاً، فَالْعِلْمُ أَوْلَى بِالتَّقْدِيمِ

---

(١) ــ قال الكديري: (١/ ٧٤٠) وأورد الفشني: (العلماء أهل الجنة، خلفاء الأنبياء). ومن مراجعة كتب الحديث المتوفرة لدينا صحيحه وضعيفه لم نعثر على هذا الحديث، ولا على ما يقاربه، ولعل الغزالي جمع في هذا الحديث عدة معانٍ وردت في أحاديث مختلفة منها:
(العلماء ورثة الأنبياء) حديث صحيح عن أبي الدرداء وحديث (العلماء يحشرون مع الأنبياء) حديث موضوع (انظر كشف الخفاء ٢/ ٨٤، الحديث رقم ١٧٤٧).
وحديث (من قرأ القرآن وحفظه أدخله الله الجنة وشفعه في عشرة من أهل بيته، كلهم قد استوجب النار). (انظر سنن ابن ماجه ١/ ٧٨، الحديث رقم ٢١٦).

(٢) هو الحسن بن يسار البصري، مولى زيد بن ثابت، وقيل مولى حمل بن قطبة، من سبي ميسان، أعتقته بنت النضر. ولد الحسن زمن عمر بن الخطاب، وسمع عثمان بن عفان وشهد الدار ابن إحدى عشرة سنة.
كان كبير الشأن رفيع الذكر، رأساً في العلم. توفي سنة ١١٠ هـ. (سير أعلام النبلاء للذهبي ٤/ ٥٦٣).

[٦/ب] لَا مَحَالَةَ، لِأَنَّهُ الأَصْلُ وَالدَّلِيلُ/ وَلِذٰلِكَ قَالَ ﷺ: «الْعِلْمُ إمَامُ الْعَمَلِ وَالْعَمَلُ تَابِعُهُ»(١).

وَإنّما صَارَ الْعِلْمُ أَصْلاً مَتْبُوعاً، يَلْزَمُكَ تَقْدِيمُهُ عَلَى الْعِبَادَةِ لِأَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: لِتَحْصُلَ لَكَ الْعِبَادَةُ وَتَسْلَمَ، فَإنّكَ أَوّلاً يَجبُ عَلَيْكَ أَنْ تَعْرِفَ الْمَعْبُودَ ثُمَّ تَعْبُدَهُ، وَكَيْفَ تَعْبُدُ مَنْ لَا تَعْرِفُهُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفاتِ ذَاتِهِ؛ وَمَا يَجبُ لَهُ وَمَا يَسْتَحِيلُ فِي نَعتِهِ، فَرُبَّمَا تَعْتَقِدُ فِيهِ وَفي صِفَاتِهِ شَيْئاً، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ تَعَالى مِمَا يُخالِفُ الْحَقّ، فَتَكُونَ عِبَادَتُكَ هَبَاءً مَنْثُوراً.

وَقَدْ شَرَحْنَا مَا فِي ذٰلِكَ مِنَ الْخَطَرِ الْعَظِيم في بِيانِ مَعْنَى سُوءِ الْخَاتِمَةِ مِنْ كِتَابِ الْخَوفِ مِنْ جُمْلَةِ كُتُبِ «إحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ».

العلم بالواجبات الشرعية

ثُمَّ يَجبُ أَنْ تَعلَمَ مَا يَلْزَمُكَ فِعْلُهُ مِنَ الْوَاجِبَاتِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى مَا أُمِرْتَ بِهِ لِتَفْعَلَ ذٰلِكَ وَما يَلْزَمُكَ تَرْكُهُ مِنَ المَنَاهِي لِتَتْرُكَ ذٰلِكَ، وَإلَّا فَكَيْفَ تَقُومُ بِطَاعَاتٍ لَا تَعْرِفُ مَا هِيَ، وَكَيْفَ هِيَ، وَكَيْفَ يَجِبُ أَنْ تُفْعَلَ، أَمْ كَيفَ تَجْتَنِبُ مَعَاصِيَ لَا تَعْلَمُ أَنَّها مَعَاصٍ، حَتَّى لَا تُوقِعَ نَفْسَكَ فِيهَا، فَالْعِبَادَاتُ الشَّرْعِيَّةُ، كَالطَّهَارَةِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ

---

(١) ــ وتمام هذا الحديث: (يلهمه السعداء ويحرمه الاشقياء).
ــ قال الكديري في سراج الطالبين (١/ ٧٧):
هكذا رواه أبو نعيم في الحلية، وأبو طالب المكي في قوت القلوب، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، وابن القيم وغيرهم موقوفاً، كما رواه أبو نعيم في المعجم. وابن عبد البر مرفوعاً، وقال في آخره: حديث حسن ولكن ليس له إسناد قوي.

وَغَيْرِهَا، يَجِبُ أَنْ تَعْلَمَهَا بِأَحْكَامِها وَشَرَائِطِهَا، حَتَّى تُقِيمَهَا. فَرُبَّما أَنْتَ مُقِيمٌ عَلَى شَيْءٍ سِنِينَ وَأَزْمَاناً، مِمَّا يُفْسِدُ عَلَيْكَ طَهَارَتَكَ وَصَلَوَاتِكَ أَوَ تُخْرِجُهُمَا عَنْ كَوْنِهِما وَاقِعَتَيْنِ عَلَى وِفَاقِ السُّنةِ، وَأَنْتَ لاَ تَشْعُر بِذٰلِكَ، وَرُبَّما يَعْتَرِضُ لَكَ مُشْكِل، وَلاَ تَجِدُ مَنْ تَسْأَلُهُ عَنْ ذٰلِكَ وَأَنْتَ مَا تَعَلَّمْتَهُ.

العبادات الباطنة

ثُمَّ مَدَارُ هٰذَا الشَّأْنِ أَيْضاً عَلَى الْعِبَادَاتِ الْبَاطِنَةِ الَّتِي هِيَ مَسَاعِي الْقَلْبِ، يَجِبُ أَنْ تَعْلَمها مِنَ التَّوَكُّلِ وَالتَّفْوِيضِ وَالرِّضَا وَالصَّبْرِ وَالتَّوْبَـةِ وَالإِخْلاَصِ، وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمّا سَيَأْتِي ذِكْرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعالَى.

وَيَجِبُ أَنْ تَعْلَمَ مَنَاهِيَها الَّتِي هِيَ أَضْدَادُ هٰذِهِ الأُمُورِ: كَالسُّخْطِ وَالأَمَلِ والرِّيَاءَ وَالْكِبْرِ لِتَجْتَنِبَ ذٰلِكَ، فَإِنّ هٰذِهِ فَرَائِضُ نصَّ اللَّهُ تَعالى عَلَى الأَمْرِ بِهَا، وَالنَّهْيِ عَنْ أَضْدَادِهَا فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَعَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ كَمَا قَالَ تَعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم / مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [٧/أ] [المائدة: ٢٣] ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة: ١٧٢] ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] وَقَوْلُهُ تَعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾﴾ [المزمل: ٨] أَيْ أَخْلِصْ إِلَيْهِ إِخْلاَصاً، وَنَحْوَ ذٰلِكَ مِنَ الآيَاتِ. كَمَا نَصَّ عَلَى الأَمْرِ بِالصَّلاَةِ وَالصَّوْمِ؛ فَمَا لَكَ أَقْبَلْتَ عَلَى الصَّلاَةِ والصَّوْمِ، وَتَرَكْتَ هٰذِهِ الْفَرَائِضَ، وَالأَمْرَ بِهَا مِنْ رَبٍّ وَاحِدٍ فِيْ كِتابٍ وَاحِدٍ؟ بَلْ غَفَلْتَ عَنْهَا وَلاَ تَعْرِفُ شَيْئاً مِنْهَا، أغرّك فَتْوَى مَنْ أَصْبَحَ بِعَاجِلِ حَظِّهِ مَشْغُوفاً، حَتَّى صَيَّرَ المَعْرُوفَ مُنْكراً وَالمُنْكَرَ مَعْرُوفاً، وَمَنْ أَهْمَلَ الْعُلُومَ الَّتِي سَمَّاهَا اللَّهُ تَعالى فِي كِتَابِهِ نُوراً وَحِكْمَةً وَهُدًى، وَأَقْبَلَ عَلَى مَا بِهِ يَكْتَسِبُ الْحَرَامَ وَيَكُونُ مَصِيدَةً

لِلْخطام؟ أَمَا تَخَافُ أَيُّهَا المُسْتَرْشِدُ أَنْ تَـكُونَ مُضَيِّعاً لِشَيْءٍ مِنْ هٰذِهِ الْوَاجِبَاتِ بَلْ لأَكْثَرِهَا، وَتَشْتَغِلُ بِصَلاَةِ التَّطَوُّعِ وَصَوْمِ النَّفْلِ فَتَـكُونُ فِي لاَ شَيْءٍ، وَرُبَّمَا أَنْتَ مُصِرٌّ عَلَى مَعْصِيَةٍ مِنْ هٰذِهِ المَعَاصِي التي تَسْتَوْجِبُ بِها النّار، وَتَتْرُكُ مُبَاحاً مِنْ طَعامٍ أَوْ شَرَابٍ أَوْ نَوْمٍ، تَبْتَغِي بِهِ قُرْبَةً إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَتَـكُونُ فِي لاَ شَيْءٍ؛ وَأَشَدُّ مِنْ ذٰلِكَ كُلِّهِ أَنَّكَ تَكُونُ فِي أَمْنِ الأَمَلِ، وَالأَمَلُ مَعْصِيَةٌ مَحْضَةٌ، فَتَظُنُّهُ نِيَّةَ خَيْرٍ بِالْفَرْقِ بَيْنَهُما وَتَقَارُبِهِما فِي بَعْضِ الْوُجُوهِ.

وَكَذٰلِكَ تَكُونُ فِي جَزَعٍ وَسُخْطٍ وَتَظُنُّهُ تَضَرُّعاً وَابْتِهَالاً إِلَى اللَّهِ تَعَالى، وَتَكُونُ فِي رِيَاءٍ مَحْضٍ وَتَحْسبُهُ حَمْداً لِلَّهِ تَعَالَى، أَوْ دَعْوَةً لِلنَّاس إلى الخَيْرِ فَتَأْخُذُ تَعُدُّ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى المَعَاصِيَ بِالطَّاعَاتِ، وتحْتَسِبُ الثَّوَابَ الْعَظِيم في مَوَاضِعِ الْعُقُوبَاتِ، فَتَـكُون فِي غُرُورٍ عَظِيمٍ وَغَفْلَةٍ قَبِيحَةٍ، وهٰذِهِ وَاللَّهِ مُصِيبَةٌ فَظِيعَةٌ لِلْعَامِلِينَ مِنْ غَيْرَ عِلْمٍ.

ثُمَّ مَعَ ذٰلِكَ إِنّ لِلأَعْمَالِ الظّاهِرَةِ عَلاَئِقَ مِنَ المَسَاعِي الْبَاطِنَةِ تُصْلِحُهَا وَتُفْسِدُهَا: كَالإِخْلاَصِ وَالرِّيَاءِ وَالْعُجْبِ وَذِكْرِ المِنَّةِ وَغَيْرِهِ، فَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ هٰذِهِ المَسَاعِي الْبَاطِنَةَ، وَوُجُوهَ تَأْثِيرِهَا فِي الْعِبَادَاتِ الظّاهِرَةِ وَكَيْفِيَّةَ الإِحْتِرَازِ مِنْهَا وَحِفْظِ الْعَمَلِ عَنْهَا،/ [٧/ب] فَقَلَّمَا يَسْلَمُ لَهُ عَمَلُ الظّاهِرِ أَيْضاً، فَتَفُوتُهُ طاعَاتُ الظّاهِرِ وَالْبَاطِنِ فَلاَ يَبْقَى فِي يَدِهِ غَيْـرِ الشّقَـاءِ وَالْكَـدّ، وَهٰـذَا هُـوَ الْخُسْـرانُ المُبِيـنُ. وَلِهٰـذَا قَـالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ نَوْماً عَلَى عِلْمٍ خَيْرٌ مِنْ صَلاَةٍ عَلَى جَهْلٍ، فَإِنَّ الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ يُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُ»[1]. وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي

---

(١) ــ رواه أبو نعيم في الحلية (٤/ ٣٨٥) بلفظ: (نوم على علم خير من صلاة على =

الْعِلْم «إِنَّهُ يُلْهِمُهُ السُّعَدَاءَ، وَيُحْرَمُهُ الأَشْقِياءِ»[1] فَالمَعْنَى، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، أَنَّ إِحْدَى شِقْوَتَيْهِ أَنْ لاَ يَتَعَلَّمَ الْعِلْمَ، ثُمَّ يَشْقَى وَيَتْعَبُ فِي الْعِبَادَةِ عَلَى خَبْطٍ؛ فَمَا يَكُونُ لَهُ مِنْ ذٰلِكَ إِلاَّ الْعَنَاءُ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعْ وَعَمَلٍ لاَ يُرْفع، وَلِهٰذَا عَظُمَتْ عِنَايَةُ الْعُلَمَاءِ الزُّهَادِ الْعَامِلِينَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، بِالْعِلْمِ خَاصَّةً مِنْ بَيْنِ سائر النّاس، فإِنَّ مدَارَ أَمْرِ الْعُبُودِيَّةِ، وَمِلاَكَ الْعِبَادَةِ وَالْخِدْمَةِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى الْعِلْمِ، وَهٰكَذَا يَكُونُ نَظَرُ أُولِي الأَبْصارِ وَأَهْلِ التَّأْيِيدِ وَالتوْفِيق.

فَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ بِهٰذِهِ الْجُمْلَةِ أَن الطَّاعَةَ لاَ تَحْصُلُ لِلْعَبْدِ، وَلاَ تَسْلَمُ لَهُ إِلاَّ بِالْعِلْمِ، فَيَلْزَمُ إِذاً تَقْدِيمُهُ فِي شَأْنِ الْعِبَادَةِ.

= جهل) وقال كذا رواه الأعمش عن أبي البختري، وأرسله أبو البختري عن سلمان أيضاً.

ـ وذكره الجلال السيوطي في (اللباب) بلفظ: (نوم العالم أفضل من عبادة الجاهل) (الكديري ١/ ٨٩).

ـ وذكره السيوطي أيضاً في الجامع الصغير (٢/ ٥٨٥) (الحديث رقم ٩٢٩٤) برواية الحلية عن سلمان، وأشار إلى ضعفه. وقال المناوي في (فيض القدير ٦/ ٣٩١): ذكره الذهبي في الضعفاء.

ـ وذكره الألباني في ضعيف الجامع الصغير (رقم ٥٩٨٥) وأشار إلى ضعفه، وأنه مروي في الأحاديث الضعيفة برقم ٤٦٩٧.

(١) ـ هذا جزء من حديث أوله: (العلم إمام والعمل تابعه) وقد سبق تخريجه. انظر الحديث ص ٦٨ حاشية (١).

الْخَصْلَةُ الثَّانِيَةُ الَّتِي تُوجِبُ تَقْدِيمَ العِلمِ[1]: إِنَّ العِلْـمَ النّافعَ يُثْمِرُ خَشْيَةَ اللَّهِ تَعَالى وَمَهَابَتَهُ، قالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] وَذٰلِكَ أَنَّ مَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ لَمْ يَهَبْهُ حَقَّ مَهَابَتِهِ، وَلَمْ يُعَظِّمْهُ حَقَّ تَعْظِيمِهِ وَحُرْمَتِهِ، فَصارَ الْعِلْمُ يُثْمِرُ الطَّاعَةَ كُلَّهَا وَيَحْجُزُ عَنِ المَعْصِيَةِ كُلِّها بِتَوْفِيقِ اللَّهِ تعالى.

وَلَيْسَ وَرَاءَ هٰذَيْنِ مَقْصِدٌ لِلْعَبْدِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَعَلَيْكَ بِالْعِلْم، أَرْشَدَكَ اللَّهُ، يَا سَالِكَ طَرِيقِ الآخِرَةِ، أَوَّلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ بِفَضْلِهِ.

وَلَعَلَّكَ أَنْ تَقُولَ: قَدْ وَرَدَ في الْخَبَرِ عَنْ صَاحِبِ الشَّرْعِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسلاَمُهُ أَنَّهُ قَالَ: «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ»[2]. فَمَا الْعِلْمُ الَّذِي طَلَبُهُ فَرْضٌ لاَزِمٌ؟، وَمَا الْحَدُّ الَّذِي لاَ بُدَّ لِلْعَبْدِ مِنْ تَحْصِيلِهِ فِي أَمْرِ الْعِبَادَةِ؟.

---

(١) ذكر المؤلف فيما سبق أنه يلزم تقديم العلم على العبادة لأمرين: أحدهما: لتحصل لك العبادة وتسلم، والأمر الثاني هو هذه الخصلة الثانية.

(٢) سقط هذا الحديث من الأصل ومن (ج).

ـ رواه ابن ماجه عن أنس بن مالك في باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم (١/ ٨١)، (الحديث رقم ٢٢٤).

ـ وذكره السيوطي في الجامع الصغير (٢/٩٧ ـ ٩٨) بروايات عدة وأسانيد متنوعة وقد صححه (الحديث رقم / ٥٢٦٤ وما بعده).

ـ وذكر العراقي في تخريجه لهذا الحديث (إحياء ١/ ٢) أن أحمد بن حنبل والبيهقي وغيرهما ضعّفاه.

ـ وتتبع الإمام السخاوي أسانيد هذا الحديث تتبعاً وافياً وذكر أقوال العلماء فيه كقول البيهقي: (متنه مشهور وإسناده ضعيف، وقد رُوي من أوجه كلها ضعيفة). وقول الحافظ النيسابوري: «إنه لم يصح عن النبي ﷺ فيه إسناد».

[٨/أ] فَاعْلَمْ أَنَّ الْعُلُومَ الَّتِي طَلَبُهَا/ فَرْضٌ فِي الْجُمْلَةِ ثَلاَثَةٌ: **عِلْمُ التَّوْحِيدِ، وَعِلْمُ السِّرِّ**، أَعْنِي مَا يَتَعَلَّقُ بِالْقَلْبِ وَمَسَاعِيهِ، **وَعِلْمُ الشَّرِيعَةِ**.

العلوم المفروضة

١ ـ وَأَمَّا حَدُّ مَا يَجِبُ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا، **فَالَّذِي يَتَعَيَّنُ فَرْضُهُ مِنْ عِلْمِ التَّوْحِيدِ، مِقْدَارُ مَا تَعْرِفُ بِهِ أُصُولَ الدِّينِ**، وَهُوَ أَنَّ لَكَ إِلٰهاً عَالِماً قَادِراً حَيّاً مُرِيداً مُتَكَلِّماً سَمِيعاً بَصِيراً وَاحِداً لاَ شَرِيكَ لَهُ، مُتَّصِفاً بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، مُنَزَّهاً عَنْ دَلاَلاَتِ الْحُدُوثِ[١] مُنْفَرِداً بِالْقِدَمِ عَنْ كُلِّ مُحْدَثٍ؛ وَأَنَّ مُحَمَّداً ﷺ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، الصَّادِقُ فِيمَا جَاءَ بِهِ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَفِيمَا وَرَدَ عَلَى لِسَانِهِ مِنْ أُمُورِ الآخِرَةِ. ثُمَّ مَسَائِلُ فِي شَعَائِرِ السُّنَّةِ تَجِبُ مَعْرِفَتُهَا؛ وَإِيَّاكَ أَنْ تَبْتَدِعَ فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، مَا لَمْ يَأْتِ بِهِ كِتَابٌ وَلاَ أَثَرٌ، فَتَكُونَ مَعَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى أَعْظَمِ خَطَرٍ.

علم التوحيد

وَجَمِيعُ أَدِلَّةِ التَّوْحِيدِ مَوْجُودٌ أَصْلُهَا فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَدْ ذَكَرَهَا شُيُوخُنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي كُتُبِهِمْ الَّتِي صَنَّفُوهَا فِي أُصُولِ الدِّيَانَاتِ.

وَعَلَى الْجُمْلَةِ: **كُلُّ مَا لاَ تَأْمَنُ الْهَلاَكَ مَع جَهْلِهِ فَطَلَبُ عِلْمِهِ فَرْضٌ لاَ يَسُوغُ لَكَ تَرْكُهُ**، فَهٰذِهِ هذه، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

٢ ـ وَأَمَّا **الَّذِي يَتَعَيَّنُ فَرْضُهُ مِنْ عِلْمِ السِّرِّ فَمَعْرِفَةُ مَوَاجِبِهِ وَمَنَاهِيهِ**؛ حَتَّى يَحْصُلَ لَكَ تَعْظِيمُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَالإِخْلاَصُ لَهُ وَالنِّيَّةُ

علم السر

---

(١) في الأصل الحدث، والتصحيح من باقي النسخ.

وَسَلاَمَةُ العَمَلِ. وَعَامَّةُ ذٰلِكَ يَأْتِي فِي أثناءِ كِتابِنَا هٰذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

علم الشريعة

٣ ـ وَأَمَّا (مَا يَتعيَّنُ)[1] مِنْ عِلْمِ الشَّرِيعَةِ. فَكُلُّ مَا تَعيَّنَ عَلَيْكَ فَرْضُ فِعْلِهِ، وَجَبَ عَلَيْكَ مَعْرِفَتُهُ لِتُؤَدِّيَهُ، كَالطَّهارَةِ وَالصَّلاَةِ وَالصِّيَامِ؛ أَمَّا الْحجُّ وَالْجِهادُ وَالزَّكَاةُ، إِنْ تَعَيَّنَ عَلَيْكَ، وَجَبَ عَلَيْكَ عِلْمُها لِتُؤَدِّيَها وَإِلاَّ فَلاَ. فَهٰذَا حَدُّ مَا يَلْزَمُ العَبْدَ تَحْصِيلُهُ مِنَ الْعِلْمِ لاَ مَحَالَةَ، وَيَتعَيَّنُ فَرْضُهُ بِحَيْثُ لاَ بُدَّ لَهُ مِنْ ذٰلِكَ.

ما يتعينّ معرفته من هذه العلوم

فَإِنْ قُلْتَ: فَهَلْ يُفْتَرضُ عَلَيَّ أَنْ أَتعَلَّمَ مِنْ عِلْمِ التَّوْحِيدِ مَا أَنْقُضُ بِهِ جَمِيعَ مِلَلِ الْكُفْرِ وَأُلْزِمُهُمْ حُجَّةَ الإِسْلامِ، وأَنْقُضُ به جَمِيعَ البِدَعِ وأُلْزِمُهُمْ حُجَّةَ السُّنَّةِ؟.

فَاعْلَمْ أَنَّ هٰذَا فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ، وَإِنَّمَا يَتَعَيَّنُ عَلَيْكَ مَا تُصَحِّحُ بِهِ ٱعْتِقادَكَ/ فِي أُصُولِ الدِّينِ لاَ غَيْرُ. [٨/ب]

وَكَذٰلِكَ لاَ يَتَعَيَّنُ عَلَيْكَ مَعْرِفَةُ فُرُوعِ عِلْمِ التَّوْحِيدِ وَدَقَائِقه، وَالإِتْيَانُ عَلَى جَمِيعِ مَسَائِلِهِ، نَعَمْ إِنْ وَرَدَتْ عَلَيْكَ شُبْهَةٌ فِي أُصُولِ الدِّينِ، تَخَافُ أَنْ تَقْدَحَ فِي ٱعْتِقادِكَ، فَيَتَعَيَّنُ عَلَيْكَ حَلُّ تِلْكَ الشُّبْهَةِ بِمَا أَمْكَنَ مِنَ الْكَلاَمِ الْمُقْنِعِ. وَإِيَّاكَ وَالْمُمَارَاةَ وَالْمُجَادَلَةَ، فَإِنَّهَا دَاءٌ مَحْضٌ لاَ دَوَاءَ لَهُ، فَٱحْتَرِزْ مِنْهُ جَهْدَكَ، فَإِنَّ مَنِ ٱرْتَدَاهُ لَمْ يُفْلِحْ إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ وَلُطْفِهِ.

ثُمَّ ٱعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا كَانَ فِي كُلِّ قُطْرٍ دَاعٍ مِنْ دُعَاةِ أَهْلِ السُّنَّةِ يَحُلُّ الشُّبَهَ، وَيَرُدُّ عَلَى أَهْلِ الْبِدَعِ، وَيَشْتَغِلُ بِهٰذَا الْعِلْمِ، وَيُصَفِّي قُلُوبَ أَهْلِ الْحَقِّ عَنْ وساوس الْمُبْتَدِعَةِ، فَقَدْ سَقَطَ الْفَرْضُ عَمَّنْ سِوَاهُ.

---

(١) ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

وَكَذٰلِكَ لاَ يَلْزَمُكَ مِنْ مَعْرِفَةِ دَقائِقِ عِلْمِ السِّرِّ، وَجَمِيعِ شَرْحِ عَجَائِبِ الْقَلْبِ، إِلاّ مَا يُفْسِدُ عَلَيْكَ عِبادَتَكَ؛ فَتَجِبُ مَعْرِفَتُهُ لِتَجْتَنِبَهُ.

وَمَا يَلْزَمُكَ فِعْلُهُ، كَالإِخْلاَصِ وَالْحَمْدِ وَالشُّكْرِ وَالتَّوَكّلِ وَنَحْوِ ذٰلِكَ، فَيَلْزَمُكَ مَعْرِفَتُهُ لِتُؤَدِّيَهُ، وَأَمَّا مَا سِوَاهُ فَلاَ.

وكَذٰلِكَ لاَ يَلْزَمُكَ مَعْرِفَةُ سَائِرِ أَبْوَابِ الْفِقْهِ، مِنَ الْبُيُوعِ وَالْإِجَارَاتِ وَالنِّكَاحِ وَالطَّلاَقِ وَالجِنايَاتِ، وَإِنَّمَا كُلُّ ذٰلِكَ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: هٰذَا الْقَدْرُ مِنَ عِلْمِ التَّوْحِيدِ، هَلْ يَحْصُلُ بِنَظَرِ الإِنْسَانِ مِنْ غَيْرِ مُعَلِّمٍ؟

فَاعْلَمْ أَنّ الأُسْتَاذَ فَاتِحٌ وَمُسَهِّلٌ، وَالتَّحْصِيلُ مَعَهُ أَسْهَلُ وَأَرْوَحُ، وَاللَّهُ تَعالى بِفَضْلِهِ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، فَيَكُونُ هُوَ مُعَلِّمَهُمْ سُبحَانهُ وتَعَالى.

ثُمَّ ٱعْلَمْ أَنَّ هٰذِهِ الْعَقَبَةَ الّتِي هِيَ عَقَبَةُ الْعِلْمِ، عَقَبَةٌ كَؤُودٌ، وَلٰكِنْ بِهَا يُنَالُ المَطْلُوبُ وَالْمَقصُودُ، وَنَفْعُهَا كَثِيرٌ، وَقَطْعُهَا شَدِيدٌ، وَخَطَرُهَا عَظِيمٌ؛ كَمْ مَنْ عَدَلَ عَنْهَا فَضَلَّ، وَكَمْ مَنْ سَلَكَهَا فَزَلَّ، وَكَمْ مِن تَائِهٍ فِيهَا مُتَحَيِّرٌ، وَكَمْ مِنْ حائِرٍ مُنْقَطِعٍ، وَكَمْ مِنْ سَالِكٍ قَطَعَهَا فِي مُدَّةٍ يَسِيرَةٍ، وَآخَرُ مُتَرَدِّدٌ فِيها سَبْعِين سَنَةً، والأَمْرُ كُلُّهُ بِيَدِ اللَّهِ.

[٩/أ] أَمَّا نَفْعُهُ فَعَلَى/ مَا ذَكَرْنَا مِنْ شِدّةِ الْحَاجَةِ لِلْعَبْدِ إِلَيْهِ، وَبِنَاءِ أَمْرِ الْعِبَادَةِ كُلِّهِ عَلَيْهِ، لاَ سِيَّمَا عِلْمُ التّوْحِيدِ وَعِلْمُ السِّرِّ.

فَلَقَدْ رُوِيَ أَنَّ اللَّهَ تَعالى أَوْحَى إِلَى دَاوُدَ عَلَيْه السَّلاَمُ فَقالَ: يَا

العلم النافع

دَاوُدُ تَعَلَّم الْعِلْمَ النَّافِعَ. قَالَ: إِلٰهي، وَمَا الْعِلْمُ النَّافِعُ؟ قَالَ: أَنْ تَعْرِفَ جَلاَلِي وَعَظَمَتي وَكِبْرِيَائِي وَكَمَالَ قُدْرَتِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِنَّ هٰذَا هو الَّذِي يُقَرِّبُكَ إِلَيَّ.

الغاية من طلب العلم

وَعَنْ عَليّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ أَنَّهُ قَالَ: مَا يَسُرُّنِي أَنْ لَوْ مِتُّ طِفْلاً وَأُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ وَلَمْ أَكْبَرْ فَأَعْرِف رَبِّي، فَإِنَّ أَعْلَمَ النّاسِ بِاللَّهِ أَشَدُّهُمْ له خَشْيَةً، وَأَكْثَرُهُمْ عِبادَةً، وَأَحْسَنُهُمْ فِي اللَّهِ نَصِيحَةً.

وَأَمَّا شِدَّتها[1]، فَابْذُلْ نَفْسَكَ في الإِخْلاَصِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، وَلْيَكُنِ الطَّلَبُ طَلَبَ دِرَايَةٍ لاَ طَلَبَ رِوَايَةٍ، وَاعْلَمْ أَنَّ الخطَرَ عَظِيمٌ في طَلَبِ الْعِلْمِ، فَمَنْ طَلَبَهُ لِيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاس إِلَيْهِ، وَيُجَالِسَ بِهِ الأُمَرَاءَ، وَيُبَاهِيَ بِهِ النُّظَرَاءَ، أو يَتَصَيَّدَ بِهِ الْحُطَامَ فَتِجَارَتُهُ بَائِرَةٌ وَصَفْقَتُهُ خَاسِرَةٌ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُفَاخِرَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ لِيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاس إِلَيْهِ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ»[2].

---

(١) شدّتها: تعود إلى شدّة الحاجة إلى العلم.

(٢) ـ رواه ابن ماجه عن ابن عمر، باب الانتفاع بالعلم والعمل به (١/٩٣) بلفظ: (من طلب العلم ليماري به السفهاء أو ليباهي به العلماء..) (الحديث رقم ٢٥٣).

ـ وذكره السيوطي في الجامع الصغير (٢/٥٣٦) عن الترمذي بروايته عن كعب بن مالك وأشار إلى أنه حسن.

ـ وذكر المناوي في فيض القدير (٦/١٧٦) في شرحه وتتبّعه لهذا الحديث: وفيه إسحاق بن يحيى بن طلحة، قال الذهبي في الكبائر: (واهٍ) وقال غيره: مُتَكَلَّمٌ فيه من قِبَلِ حِفْظه.

قَالَ أَبُو يَزِيدَ الْبِسْطَامِي[1] رَحِمَهُ اللَّهِ: عَمِلْتُ فِي الْمُجَاهَدَةِ ثَلاَثِينَ سَنَةً، فَمَا وَجَدْتُ شَيْئاً أَشَدَّ عَلَيَّ مِنَ الْعِلْمِ وَخَطَرِهِ.

وَإِيَّاكَ أَنْ يُزَيِّنَ لَكَ الشَّيْطَانُ فَيَقُولَ لَكَ: إِذَا كَانَ قَدْ وَرَدَ هٰذَا الْخَطَرُ الْعَظِيمُ فِي الْعِلْمِ فَتَرْكُهُ أَوْلَى. فَلاَ تَظُنَّنَّ ذَلِكَ؛ فَلَقَدْ رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَال: «أُطْلِعْتُ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ عَلَى النَّارِ، فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنَ الْمَالِ؟ قالَ: لاَ، مِنَ الْعِلْمِ»[2]؛ فَمَنْ لاَ يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ لاَ تَتَأَتَّى لَهُ أَحْكَامُ الْعِبَادَةِ وَالْقِيامُ بِحُقُوقِها. وَلَوْ أَنَّ رَجُلاً عَبَدَ اللَّهَ عِبادَةَ مَلاَئِكَةِ السَّماءِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، كَانَ مِنَ الخَاسِرينَ. فَشَمِّرْ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ بِالْبَحْثِ وَالتَّلْقِينِ وَالتَّدْرِيس، وَاجْتَنِبِ الْكَسَلَ وَالمَلاَلَ، وَإِلاَّ فَأَنْتَ فِي خَطَرِ الضَّلاَل، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

أصول العقيدة

ثُمَّ جُمْلَةُ الأَمْرِ أَنَّكَ إذَا نَظَرْتَ فِي دَلاَئِلِ صُنْعِ اللَّهِ تَعَالَى،

---

(١) أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي، نسبة إلى بسطام، بلد بطريق نيسابور كان جده مجوسياً فأسلم، سلطان العارفين وأحد الزهاد المشهورين. ويحكى عنه في الشطح أشياء، منها ما لا يصح، أو يكون مقولاً عليه.
وتوفي البسطامي عن ثلاث وسبعين سنة، وذلك في عام إحدى وستين ومائتين.
سير أعلام النبلاء ١٣/٨٦.

(٢) سقط هذا الحديث من الأصل ومن (ج).
ـ ولم يرد هذا الحديث ولا معناه أيضاً في صحيح مسلم عن أهل النار وصفاتهم (٤/٢١٨٦) ولا في البخاري أيضاً (٤/١٤٢)، وقد ورد فيه عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: (اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء). وكذلك ورد في صحيح مسلم (٤/٢٠٩٦) في (كتاب الرقاق).
والملاحظ أن الحديث الذي ذكره الغزالي يشير إلى فقراء العلم وليس إلى فقراء المال. ولهذا ظهر الالتباس. وكذلك لم يرد هذا الحديث في إحياء علوم الدين، ولم يخرجه الكديري في سراج الطالبين. ولم نجد له أصلاً نبيّنه، و الله أعلم.

وَأَمْعَنْتَ النَّظَرَ، عَلِمْتَ أَنَّ لها إِلٰهاً قَادِراً عَالِماً حَيّاً مُرِيداً سمِيعاً بَصِيراً مُتكلِّماً، مُنَزَّهاً عَنْ حُدُوثِ الْكَلَامِ/ وَالْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ، مُقَدَّساً [٩/ب] عَنْ كُلِّ نَقْص وَآفَةٍ، لَا يُوصَفُ بِصِفَاتِ المُحْدَثِينَ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ مَا يَجُوزُ عَلَى الْمَحْدُودِينَ[١] وَلَا يُشْبِهُ شَيْئاً مِنْ خَلْقِهِ وَلَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ، وَلَا تَتَضَمَّنُهُ الْأَمَاكِنُ وَالجِهَاتُ، وَلَا تَحُلُّهُ الْحَوادِثُ وَالآفاتُ.

وَنَظَرْتَ فِي مُعْجِزَاتِ الرَّسُولِ ﷺ، وَأَعْلَامِ نُبُوّته، فَعلِمْتَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَمِينُهُ عَلَى وَحْيِهِ، وَمَا كَانَ السَّلَفُ يَعْتَقِدُونَهُ، مِن أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُرَى فِي الآخِرَةِ لأنّهُ مَوْجُودٌ وَلَيْسَ في جِهَةٍ مَحْدُودَةٍ وهُوَ غَيْرُ مَحْدُود. وَأَنَّ الْقُرْآنَ كلامُ اللَّهِ تَعَالَى، غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَلَيْس بِحُرُوفٍ مُقطَّعَةٍ، وَلَا أَصْوَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، إِذْ لَوْ كَانَ كَذٰلِكَ، لَكَان مِنْ جُمْلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ. وَأَنَّهُ لَا يَكُونُ فِي المُلْكِ وَالمَلَكُوتِ فَلْتَةُ خَاطِرٍ، وَلَا لَفْتَةُ نَاظِرٍ، إلَّا بِقَضَاءِ اللَّهِ تعالَى وَقَدَرِه، وَإِرَادَتِه وَمَشِيئَتِه، فَمِنْهُ الْخَيْرُ وَالشَّرُّ، وَالنَّفْعُ وَالضُّرُّ، وَالإِيمانُ والْكُفْرُ. وَأَنَّهُ لَا وَاجِبَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجلَّ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ؛ مَنْ أَثَابَهُ فَبِفَضْلِهِ وَمَنْ عَاقَبَهُ فَبِعَدْلِهِ. وَمَا وَرَدَ عَلَى لِسَان صاحِبِ الشَّرْعِ، صَلَوَاتُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلامُهُ مِنْ أُمُورِ الآخِرَةِ، كَالْحشْرِ وَالنَّشْرِ، وَعَذَابِ القَبْرِ، وَسُؤَالِ مُنْكَرٍ وَنكِيرٍ، وَالْمِيزَانِ وَالصِّرَاطِ، فَهٰذِهِ أُصُولُ دَرَجَ السَّلَفُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُـمْ عَلَى اعْتِقَادِهَا وَالتَّمسُّكِ بِها، وَوَقَعَ عَلَيْهَا الإِجْمَاعُ قَبْل تَنوُّعِ الْبِدَعِ وَظُهُورِ الأَهْواءِ، نَعُوذُ باللَّهِ مِنَ الإِبْتِدَاعِ فِي الدِّينِ وَاتِّبَاعِ الْهَوَى بِغَيْرِ دَلِيلٍ.

ثُمَّ نَظَرْتَ فِي أَعْمَالِ الْقَلْب وَالمَوَاجِبِ الْبَاطِنَةِ، وَالمَنَاهي الَّتِي

---

(١) أي: المخلوقين كما في النسخ الأخرى.

تَأْتِي في هٰذَا الْكتَابِ، لِيَحْصُلَ لَكَ عِلْمُهُ، ثُمَّ تَعْرِفَ جُملةَ مَا تَحْتَاجُ إِلَى ٱسْتِعْمَالِهِ، كَالطَّهَارَةِ وَالصَّلَاةِ وَالصّوْم ونحوه؛ فإِذَا فَعَلْتَ، فَقَدْ أَدَّيْتَ فَرْضَ اللَّهِ عَلَيْكَ الَّذي تَعَبَّدُكَ به فِي بَابِ الْعِلْم، وَلَقَدْ صِرْتَ مِنْ عُلمَاءِ أُمّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، الرّاسِخِينَ في الْعلْم، إِنْ عَمِلْتَ بِعِلْمِكَ، وَأَقْبَلْتَ عَلَى عِمَارَةِ مَعادِكَ، وَكُنْتَ عَبْداً عَالِماً عَامِلاً لِلَّهِ تَعالَى عَلَى بَصِيرَةٍ غَيْرَ جَاهِلٍ، وَلاَ مُقَلِّدٍ وَلاَ غَافِلٍ، وَلَكَ الشَّرَفُ الْعظِيمُ، وَلِعلْمِكَ القِيمَةُ الْكَثِيرَةُ وَالثَّوَابُ الْجَزِيلُ، وَكُنْتَ قَدْ قَطَعْتَ/ هٰذِهِ [١٠/أ] الْعَقَبةَ، وَخَلَّفْتَهَا وَرَاءَكَ، وَقَضيْتَ حَقَّهَا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعالَى، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ المَسْئُولُ أَنْ يُمِدَّكَ وَإِيَّانَا بِحُسْنِ تَوْفِيقِهِ وَتَيْسِيرِهِ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.



الْعَقَبَةُ الثَّانِيَةُ وَهِيَ عَقَبَةُ التَّوْبَةِ

وجوب التوبة

ثُمّ عَلَيْكَ يَا طَالِبَ الْعِبَادَةِ ـ وَفَّقَكَ اللَّهُ لطاعته ـ بِالتَّوْبَـةِ، وَذٰلِكَ لِأَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: لِيَحْصُلَ لَكَ تَوْفِيقُ الطَّاعَةِ، فإنَّ شُؤمَ الذُّنُوبِ يُورِثُ الْحِرْمَانَ، وَيُعْقِبُ الْخِذْلاَنَ، وَإنّ قَيْدَ الذُّنُوبِ يَمْنَعُ مِن المشْيِ إِلى طَاعَةِ اللَّهِ عزّ وَجَـلّ وَالمُسَارَعةِ إِلى خِدْمَتِهِ، وإِنَّ ثِقَلَ الذُّنُوبِ يَمْنَعُ مِنَ الْخِفَّةِ لِلْخَيْرَاتِ، وَالنَّشَاطِ إلى الطَّاعَاتِ، وَإِنّ الإِصْرَارَ عَلَى الذُّنُـوب يُسَوِّدُ الْقُلُوبَ، فَتَجِدُها في ظُلْمَةٍ وَقَسَاوَةٍ وَلاَ خُلُوصَ فِيها وَلاَ صَفاوَة، وَلا لَذَّةَ لطاعةٍ وَلاَ حَلاوَةَ، وَإِنْ لَمْ يَرْحَم اللَّهُ عزّ وجلّ فَسَتَجُرُّ صَاحِبَهَا إِلَى الْكُفْرِ وَالشَّقَاوَةِ.

فَيَا عَجَباً، كَيْفَ يُوَفَّقُ لِلطَّاعَةِ مَنْ هُوَ في شُـؤْمٍ وَقَساوةٍ؟ وَكَيْفَ يُدْعَى إلى الْخِدْمَةِ مَنْ هُوَ مُصرٌّ عَلَى الْمَعْصِيَةِ وَالْجَفْوَةِ؟ وَكَيْفَ يُقَرَّبُ لِلمُنَاجَاةِ مَنْ هُوَ مُتَلَطِّخٌ بالأَقْذَارِ وَالنَّجَاسَاتِ؟ فَفِي الْخَبَرِ عَنِ الصَّادِقِ المُطَـدَّقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ قالَ: «إذَا كَـذَبَ الْعَبْدُ تَنَحَّى عَنْهُ المَلَكَانِ مِنْ نَتْنِ مَا يَخْرُجُ مِنْ فِيهِ»[1] فَكَيْفَ يَصْلُحُ هٰذَا اللِّسانُ لِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟.

(١) ـ أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/١٩٧) عن ابن عمر بلفظ: (إذا كذب العبد =

فَلَا جَرَمَ لَا يَكَادُ يَجِدُ المُصِرُّ عَلَى الْعِصْيانِ تَوْفِيقاً، وَلَا تَخِفُّ أَرْكَانُهُ لِلعِبَادَةِ، وإِنِ ٱتّفَقَ، فَبِكَدٍّ لَا حَلَاوَةَ مَعَهُ وَلَا صَفْوَةَ، وَكُلُّ ذٰلِكَ لِشُؤْمِ الذُّنُوبِ وَتَرْكِ التَّوْبَةِ. وَلَقَدْ صَدَقَ مَنْ قَالَ[1]: إِذَا لَمْ تَقْوَ عَلَى قِيَامِ اللّيْلِ وصِيَامِ النّهَارِ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ مَكْبُولٌ وَقَدْ كَبَّلَتْكَ خَطِيئَتُكَ. فَهٰذِهِ هٰذِهِ.

وَالثَّانِي مِنَ الأَمْرَيْنِ: إِنَّما تَلْزَمُكَ التَّوْبَةُ لِتُقْبَلَ عِبادَتُكَ، فَإِنَّ رَبَّ الدَّيْنِ لَا يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ، وَذٰلِكَ أَنَّ التَّوْبَةَ عَنِ المَعاصِي وَإِرْضَاءَ الْخُصُومِ فَرْضٌ لَازِمٌ، وَعَامَّةُ الْعِبادَةِ الَّتِي تَقْصِدُهَا نَفْلٌ، فَكَيْفَ يُقْبَلُ تَبَرُّعُكَ وَالدَّيْنُ عَلَيْكَ حالٌّ لَمْ تَقْضِهِ؟ أم كَيْفَ تَتْرُكُ لِأَجْلِهِ الْحَلَالَ والمُباحَ/ وَأَنْتَ مُصِرٌّ عَلَى فِعْلِ المَحْظُورِ وَالْحَرَامِ؟ وَكَيْفَ تُنَاجِيهِ وَتَدْعُوهُ وَتُثْنِي عَلَيْهِ، وَهُوَ - وَالْعِياذُ بِاللَّهِ - عَلَيْكَ غَضْبانُ؟ فَهٰذَا ظَاهِرُ حَالِ العُصَاةِ المُصِرِّينَ عَلَى الْمَعْصِيَةِ. وَاللَّهُ المُسْتَعَانُ. [١٠/ب]

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى التَّوْبَةِ النَّصُوحِ وما حَدُّها؟ وَمَا يَنْبَغِي لِلعَبْدِ أَنْ يَفْعَلَهُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنَ ٱلذُّنُوبِ كُلِّهَا؟ فَأَقُولُ:

= كذبة تباعد الملك عنه مسيرة ميل من نتن ما جاء به).
وقال: غريب من حديث عبد العزيز عن نافع، تفرّد به عبد الرحيم.
ــ وأخرجه الترمذي في الزهد وقال: جيد غريب. تفرد به عبد الرحيم بن هرون.
وقال الدارقطني في عبد الرحيم: متروك الحديث يكذب، وذكر له ابن عدي مناكير. وقد رمز السيوطي لِحُسْنِهِ تبعاً لتجويد الترمذي له.
(انظر الجامع الصغير ١/ ١١٠، الحديث رقم ٨٤٠، وراجع شرح هذا الحديث وتعليق المناوي عليه في فيض القدير ١/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥).

(١) أخرج أبو نعيم في الحلية (٨/ ٩٦) من حديث محمد بن علي عن الفُضَيْل قوله: «إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار، فاعلم أنك محروم مكبّل كبّلتك خطيئتك».

أَمَّا التَّوْبَةُ فَإِنَّها سَعْيٌ مِنْ مَساعِي الْقَلْبِ، وَهِيَ عِنْدَ التَّحْصِيلِ في قَوْلِ الْعُلَمَاءِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: تَنْزِيهُ الْقَلْبِ عَنِ ٱلذَّنْبِ. قَالَ شَيْخُنَا[1] رَحِمَهُ اللَّهُ في حَدِّ التَّوْبَةِ: إِنَّهُ تَرْكُ ٱخْتِيارِ ذَنْبٍ سَبَقَ مِثْلُهُ عَنْهُ، مَنْزِلَةً لا صُورَةً، تَعْظِيماً لِلَّهِ تَعالى وَحَذَراً مِنْ سَخَطِهِ. وَلَهَا إِذاً أَرْبَعُ شَرَائِطَ:

معنى التوبة

إِحْدَاهَا: تَرْكُ ٱخْتِيَارِ الذَّنْب، وَهُوَ أَنْ يُوَطِّنَ قَلْبَهُ وَيُجَرِّدَ عَزْمَهُ عَلَى أَن لاَ يَعُود إِلى ٱلذَّنْبِ أَلْبَتَّةَ؛ فَأَمَّا إِنْ تَرَكَ الذَّنْبَ وَفي نَفْسِه أَنَّهُ رُبَّمَا يَعُود إِلَيْهِ، أَوْ لاَ يَعْزِمُ عَلَى ذٰلِكَ، بَلْ يَتَرَدَّدُ، فَإِنَّهُ رُبَّما يَقَعُ لَهُ الْعَوْدُ، فَإِنَّهُ مُمْتَنِعٌ عَنِ الذَّنْبِ غَيْرُ تَائِبٍ عَنْهُ.

شروط التوبة

وَالثَّانِيةُ: أَنْ يَتُوب عنْ ذَنْبٍ قَدْ سَبَقَ عَنْهُ مِثْلُهُ، إِذْ لَوْ لَمْ يَسْبِقْ عَنْهُ مِثْلُهُ لَكَانَ مُتَّقِياً غَيْرَ تَائِب، أَلا تَرَى أَنَّهُ يَصِحُّ الْقَوْلُ بِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ مُتَّقِياً عَنِ الْكُفْرِ، وَلاَ يَصِحُّ الْقَوْلُ بِأَنَّهُ كانَ تَائِباً عَنِ الْكُفْرِ، إِذْ

---

(١) هو أبو بكر الطُّرطُوشي كما في سراج السالكين ص ١٤٨.
وهو أبو بكر محمد بن الوليد القرشي الأندلسي الطُّرطُوشي الفقيه المالكي الزاهد المعروف بابن أبي رندقة، من أهل طُرطُوشة وهي مدينة بالأندلس على ساحل البحر.
رحل إلى المشرق سنة ٤٧٦ هـ، وحج ودخل بغداد والبصرة ومصر وفلسطين ولبنان وأقام مدة في الشام، كان إماماً عالماً عاملاً زاهداً ورعاً دَيِّناً متواضعاً متقشفاً متقللاً من الدنيا راضياً عنها باليسير.
من كتبه: كتاب كبير عارض به إحياء علوم الدين للغزالي. وله من التصانيف «سراج الملوك» وكتاب «بر الوالدين» وكتاب «الفتن» وغير ذلك.
وُلد سنة ٤٥١ هـ وتوفي سنة ٥٢٠ هـ بثغر الاسكندرية.
انظر ترجمته وأخباره في: وفيات الأعيان ٤/ ٢٦٢ ـ ٢٦٥، الديباج المذهب ٢٧٦، نفح الطيب ١/ ٣٦٧.

لَمْ يَسْبِقْ مِنْهُ كُفْرٌ بِحالٍ، وَأَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ تَائِباً عَنِ الْكُفْرِ لِمَا سَبَقَ عَنْهُ ذٰلِكَ.

وَالثَّالِثَةُ: أَنَّ الَّذِي سَبَقَ، يَكُونُ مِثْلَ ما يَتْرُكُ ٱخْتِيَارَهُ فِي الْمَنْزِلَةِ وَالدَّرَجَةِ، لَا فِي الصُّورَةِ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ الشَّيْخَ الْهَرِمَ الفَانِيَ، الَّذِي سَبَقَ مِنْهُ الزِّنَا وَقَطْعُ الطَّرِيقِ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتُوبَ عَنْ ذٰلِكَ، تُمْكِنُهُ التَّوْبَـةُ لَا مَحالَةَ، إِذْ لَمْ يُغْلَقْ عَنْهُ بَابُها، وَلَا يُمْكِنُهُ تَرْكُ ٱخْتِيَارِ الزِّنَا وَقَطْعُ الطَّرِيقِ، إِذْ هُوَ لَا يَقْدِرُ الآن عَلَى فِعْلِ ذٰلِكَ، فَلَا يَقْدِرُ عَلَى تَرْكِ ٱخْتِيَارِهِ، فَلَا يَصِحُّ وَصْفُهُ بِأَنَّهُ تَارِكٌ لَهُ، مُمْتَنِعٌ عَنْهُ، وَهُوَ عَاجِزٌ عَنْهُ، غَيْرُ / مُتَمَكِّنٍ، لٰكِنَّهُ يَقْدِرُ عَلَى مَا هُوَ مِثْلُ الزِّنا وَقَطْعِ الطَّرِيقِ، [١١/أ] فِي الْمَنْزِلَةِ وَالدَّرَجَةِ (كَالْكَذِبِ)[1] وَالْقَذْفِ وَالْغِيبَةِ وَالنَّمِيمَةِ، إِذْ جَمِيعُ ذٰلِكَ مَعَاصٍ وَإِنْ كَانَ الإِثْمُ يَتَفَاوَتُ فِي حَق الآدَمِي، فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ بِقَدْرِهَا.

ولٰكِنْ جَمِيعُ هٰذِهِ المَعَاصِي الْفَرْعِيَّـةِ كُلِّهَا بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ دُونَ مَنْزِلَةِ الْبِدْعَةِ، ومَنْزِلَةُ الْبِدْعَةِ دُونَ (مَنْزِلَةِ)[2] الْكُفْرِ، فَلِذٰلِكَ صَحَّ مِنْهُ التَّوْبَةُ عن الزِّنَا وَقَطْعِ الطَّرِيقِ وَسَائِرِ مَا مَضَى مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي هُوَ عَاجِزٌ عَنْ أَمْثَالِهَـا الْيَوْمَ فِي الصُّورَةِ.

وَالرَّابِعَةُ: أَنْ يَكُونَ تَرْكُ ٱخْتِيَارِهِ ذٰلِكَ، تَعْظِيماً لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَحَذَراً مِنْ سَخَطِهِ وَأَلِيمِ عِقَابِهِ، مُجَرَّداً لَا لِرَغْبَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ، أَوْ رَهْبَةٍ مِنَ النَّاس، أَوْ طَلَبِ ثناءٍ أو صِيتٍ، أَوْ جَاهٍ أَوْ ضَعْفٍ فِي

---

(١) زيادة من (د) و (هـ).

(٢) زيادة من (د) و (هـ).

النَّفسِ أَوْ فَقْرٍ أَوْ هوانٍ أَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ. فَهٰذِهِ شَرَائِطُ التَّوْبَةِ وَأَرْكانُها، فَإِذَا حَصَّلْتَ وَٱسْتَكْمَلْتَ، فَهِيَ تَوْبَةٌ حَقِيقِيَّةٌ صَادِقَةٌ.

مقدّمات التوبة

وَأَمَّا مُقَدِّمَاتُ التَّوْبَةِ فَثَلَاثٌ:

إِحْدَاهَا: ذِكْرُ غَايَةِ قُبْحِ الذَّنبِ.

وَالثَّانِيَةُ: ذِكْرُ شِدَّةِ عُقُوبَـةِ اللَّهِ تَعَالى، وَأَلِيمِ سَخَطِهِ وَغَضَبِهِ الَّذِي لاَ طَاقَةَ لَكَ بِهِ.

وَالثَّالِثَةُ: ذِكْرُ ضَعْفِكَ وَقِلَّةِ حِيلَتِكَ فِي ذٰلِكَ، فَإِنَّ مَنْ لاَ يَحْتَمِلُ حَرَّ شَمْسٍ وَلَطْمَةَ شُرْطِيٍّ وَقَرْصَ نَمْلَةٍ، كَيْفَ يَحْتَمِلُ حَرَّ نَارِ جَهَنَّمَ، وَضَرْبَ مَقَامِعَ[1] الزَّبَانِيَةِ، وَلَسْعَ حَيَّاتٍ كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ[2]، وَعَقَارِبَ كَالْبِغَالِ، خُلِقَتْ مِنَ النَّارِ فِي دَارِ الْغَضَبِ وَالْبَوَارِ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سَخَطِهِ وَعَذَابِهِ.

فَإِذَا وَاظَبْتَ عَلَى هٰذِهِ الأَذْكَارِ، وَعَاوَدْتَهَا آنَاءَ اللَّيْلِ وَأطراف النَّهارِ، فَإِنَّهَا سَتَحْمِلُكَ عَلَى التَّوْبَةِ النَّصُوحِ مِنَ الذُّنُوبِ، وَاللَّهُ المُوَفِّقُ بِفَضْلِهِ.

فَإِنْ قِيلَ: أَلَيْسَ قَدْ قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «النَّدَمُ تَوْبَةٌ»[3] وَلَمْ يَذْكُرْ مِمَّا ذَكَرْتُمْ مِنْ شَرَائِطِهَا وَشَدَّدْتُمْ شَيْئاً؟ يُقَالُ لَهُ:

---

(١) المقامع: جمع مِقْمَعة، وهي سياط من حديد رؤوسها معوجّة. والزبانية: الملائكة الغِلاظ الشِّداد.

(٢) البخت: نوع من الإبل طِوال الأعناق.

(٣) ــ رواه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة (٢/ ١٤٢٠) الحديث رقم ٤٢٥٢. =

اَعْلَمْ أَوَّلاً أَنَّ النَّدَمَ غَيْرُ مَقْدُورٍ لِلْعَبْدِ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ تَقَعُ النَّدَامَةُ عَنْ أُمُورٍ في قَلْبِهِ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ لَا يَكونَ ذٰلِكَ، وَالتَّوْبَةُ مَقْدُورَةٌ/ [١١/ب] لِلْعَبْدِ مَأْمُورٌ بِها؟ ثُمَّ إِنّا قَدْ عَلِمْنَا أَنَّهُ لَوْ نَدِمَ عَلَى الذُّنُوبِ لَمَا ذَهَبَ بِذٰلِكَ جَاهُهُ عِنْدَ النَّاسِ أوْ مَالُهُ فِي النَّفَقَةِ فِيهَا، فَإِنّ ذٰلِكَ لَا يَكُونُ تَوْبَةً بِلَا رَيْبٍ، فَعَلِمْتَ بِذٰلِكَ أَنَّ فِي الْخَبَرِ مَعْنًى لَمْ تَفْهَمْهُ مِنْ ظَاهِرِهِ، وَهُوَ أَنَّ النَّدَمَ لِتَعْظِيمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَخَوْفِ عِقَابِهِ، مِمَّا يَبْعَثُ عَلَى التَّوْبَةِ النَّصُوحِ، فَإِنَّ ذٰلِكَ مِنْ صِفاتِ التّائِبِينَ وَحَالِهِمْ، فإنَّهُ إِذا ذَكَرَ الأَذْكَارَ الثلاثة الّتِي هِيَ مُقَدّمَاتُ التَّوْبَةِ يندمُ. فَحمَلَتْهُ النَّدَامَةُ عَلَى تَرْكِ اَخْتِيَارِ الذَّنبِ، وَتَبْقَى نَدَامَتُهُ فِي قَلْبِهِ في المُسْتَقْبَلِ تَحْمِلُهُ عَلَى الإِبْتِهَالِ وَالتَّضَرُّعِ. فَلَمَّا كَانَ ذٰلِكَ مِنْ أَسْبَابِ التَّوْبَةِ، وَصِفاتِ التّائِبِ، سَمّاهُ باسْمِ التَّوْبَةِ، فَافْهَمْ ذٰلِكَ مُوَفَّقاً إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعالى بِفَضْلِهِ.

الهدف من الندم

فَإِنْ قُلْتَ كَيْفَ يُمْكِنُ الإِنْسانُ أَنْ يَصِيرَ بِحَيْثُ لَا يَقَعُ مِنْهُ ذَنْبٌ أَلْبَتَّةَ مِنْ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ؟ كَيْفَ وَأَنْبِيَاءُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمُ الَّذِينَ هُمْ أَشْرَفُ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى، قَدِ اَخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ: هَلْ نَالُوا هٰذِهِ الدَّرَجَة أَمْ لَا؟

فَاعْلَمْ أَنَّ هٰذَا الأَمْرَ مُمْكِنٌ غَيْرُ مُسْتَحِيلٍ ثُمَّ هُوَ هَيِّنٌ، وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ.

= ــ كذلك رواه الحاكم النيسابوري في مستدركه (٤/ ٢٤٣) وقال: صحيح الإسناد ولم يُخَرّجاه بهذه اللفظة. وقد وافقه الذهبي على صحته. وراوي الحديث هو عبد الله بن مسعود، وكذلك رواه أنس بن مالك.

ثُمَّ مِنْ شَرْطِ التَّوْبَةِ أَنْ لاَ يَتَعَمَّدَ ذَنْباً، فَأَمَّا إِنْ وَقَعَ مِنْهُ بِسَهْوٍ أَوْ خَطَإٍ فَهُوَ مَعْفُوٌّ عَنْهُ بِفَضْلِ ٱللَّهِ تعالَى، وَهٰذَا هَيِّنٌ عَلَى مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ تَعالَى.

فَإِنْ قُلْتَ إِنَّمَا يَمْنَعُنِي مِنَ التَّوْبَةِ أَنِّي أَعْلَمُ مِنْ نَفْسِي أَنِّي أَعُودُ إِلَى الذَّنْبِ وَلاَ أَثْبُتُ عَلَى التَّوْبَةِ فَلاَ فَائِدَةَ فِي ذٰلِكَ، فَاعْلَمْ أَنَّ هٰذَا مِنْ غُرُورِ الشَّيْطَانِ. وَمِنْ أَيْنَ لَكَ هٰذَا الْعِلْمُ؟ فَعَسى أَنْ تَمُوتَ تَائِباً قَبْلَ أَنْ تَعُودَ إِلى الذَّنْبِ.

وَأَمَّا الْخَوْفُ مِنَ الْعَوْدِ، فَعَلَيْكَ الْعَزْمُ وَالصِّدْقُ فِي ذٰلِكَ، وَعَلَيْهِ الإِتْمامُ، فَإِنْ أَتَمَّ فَذٰاكَ (مِنْ فَضْلِهِ)[1] وَإِنْ لَمْ يُتِمَّ، فَقَدْ غُفِرَتْ ذُنُوبُكَ السَّالِفَةُ كُلُّهَا، وَتَخَلَّصْتَ مِنها، وَتَطَهَّرْتَ، وَلَيْسَ عَلَيْكَ إِلاَّ هٰذَا الحَدَث الَّذِي أَحْدَثْتَهُ الآن وَهٰذَا هُوَ الرِّبْحُ الْعَظِيمُ وَالْفَائِدَةُ الْكَبِيرَة وَلا يَمْنَعكَ خَوْفُ الْعَوْدَةِ عَنِ التَّوْبَةِ، فَإِنَّكَ مِنَ التَّوْبَةِ أَبداً بَيْنَ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ/ وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ وَالْهِدَايَةِ. فَهٰذِهِ هٰذِهِ. [١٢/أ]

أقسام الذنوب

وَأَمَّا الْخُرُوجُ عَنِ الذُّنُوبِ وَالتَّخَلُّصُ مِنْهَا، فَاعْلَمْ أَنَّ الذُّنُوبَ فِي الْجُملَةِ ثَلاَثَةُ أَقْسامٍ:

أَحَدُهَا: تَرْكُ وَاجِباتِ اللَّهِ تَعَالى عليك، مِنْ صَلاَةٍ أَوْ صِيَامٍ أَوْ زَكَاةٍ أَوْ كَفَّارَةٍ أَوْ غَيْرِهَا، فَتَقضِي مَا أَمْكَنَكَ مِنها.

وَالثَّانِي: ذُنُوبٌ بَيْنَك وَبَيْنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعالى، كَشُرْبِ الْخَمْرِ وَضَرْبِ الْمَزَامِيرِ وَأَكْلِ الرِّبَا وَنَحو ذٰلِكَ، فَتَنْدَمُ عَلَى ذٰلِكَ، وَتُوَطِّنُ قَلْبَكَ عَلَى تَرْكِ الْعَوْدِ إِلى مِثْلِهَا أَبداً.

---

(١) ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

وَالثَّالِثُ: ذُنُوبٌ بينَكَ وَبَيْنَ الْعِبادِ، فهٰذَا أَشْكَلُ وَأَصْعَبُ، وَهِيَ أَقْسَامٌ، قَدْ تَكُونُ في المَالِ أو في النَّفْسِ أوَ فِي الْعِرْضِ، أو فِي الْحُرْمَةِ، أو فِي الدِّينِ.

الذنوب التي بين العباد

فَمَا كَانَ في المَالِ فَيَجِبُ أَنْ تَرُدَّهُ عَلَيْهِ إِنْ أَمْكَنَكَ، فَإِنْ عَجَزْتَ عَنْ ذٰلِكَ، لِعَدَمٍ، وَفَقْرٍ فَتَسْتَحِلَّ مِنْهُ، وَإِنْ عَجَزْتَ عَنْ ذٰلِكَ لِغَيْبَةِ الرَّجُلِ أَوْ مَوْتِهِ، وَأَمْكَنَ التَّصدُّقُ عَنْهُ فَافعَل، فَإِنْ لَمْ يُمْكِنْ، فَعَلَيْكَ بِتَكْثِيرِ حَسَناتِكَ وَالرُّجُوعِ إِلَى اللّهِ تَعالى بِالتَّضرُّعِ وَالإِبْتِهَالِ إليه أَنْ يُرْضِيَهُ عنْكَ يَوْمَ الْقِيامَةِ.

وَأَمَّا مَا كَانَ فِي النَّفْس، فَتُمَكِّنُهُ مِنَ الْقِصَاصِ أَوْ أَوْلِياءَهُ، حَتَّى يَقْتَصَّ مِنْكَ أَوْ تُجْعَل في حِلٍّ، فَإِنْ عَجَزْتَ، فَالرُّجُوعُ إِلى اللّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَالابْتِهَالُ إِلَيْهِ أَنْ يُرْضِيَهُ عَنْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَأَمَّا الْعِرْضُ فَإِنِ ٱغْتَبْتَهُ أَوْ بهتّه[1] أَوْ شَتَمْتَهُ، فَحَقُّكَ أَنْ تُكَذِّبَ نَفْسَكَ بَيْن يَدَيْ مَنْ فَعَلْتَ ذٰلِكَ عِنْدهُ، وَأَنْ تَسْتَحِلَّ مِنْ صاحِبِهِ إِنْ أَمْكَنَكَ، هٰذَا إِنْ لَمْ تَخْشَ زِيَادَةَ غَيْظٍ وَهَيْجِ فِتْنَةٍ في إِظْهَارِ ذٰلِكَ وَتَجْدِيدِهِ، فَإِنْ خَشِيْتَ ذٰلِكَ فَالرُّجُوعُ إِلى اللّهِ تَعَالَى لِيُرْضِيَهُ عَنْكَ وَالاسْتِغْفَارُ الْكَثِيرُ لِصاحِبِهِ.

وَأَمَّا الْحُرْمَةُ بِأَنْ خُنْتَهُ فِي أَهْلِهِ أَوْ وَلَدِهِ أَوْ نَحْوِهِ، فَلاَ وَجْهَ لِلإِسْتِحْلالِ وَالإِظْهار، لِأَنهُ يُولِّدُ فِتْنَةً وَغَيْظاً، بَلْ تَتَضَرَّعُ إِلى اللّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى لِيُرْضِيَهُ عَنْكَ، وَيَجْعَلَ لَهُ خَيْراً كَثِيراً في مُقَابَلَتِهِ، فَإِنْ أَمِنْتَ الْفِتْنَةَ وَالْهَيْجِ، وَهُوَ نَادِرٌ، فَتَسْتَحِلَّ مِنْهُ.

---

(١) بهتّه: قذفته وافتريت عليه بالكذب.

وَأَمَّا فِي الدِّينِ بِأَن كَفَّرْتَهُ أَوْ بَدَّعْتَهُ أَو ضَلَّلْتَهُ، فَهُوَ أَصعَبُ الأُمُورِ[1]، فَتَحْتَاجُ إِلَى تَكْذِيبِ/ نَفسِكَ عِنْدَ مَنْ قُلْتَ لَهُ ذٰلِك، وَأَنْ تَسْتَحِلَّ مِنْ صَاحِبِكَ إِنْ أَمْكَنَكَ، وَإِلاَّ فَالإِبْتِهَالُ إلى الله تعالى جِدّاً، وَالتَنَدُّمُ عَلَى ذٰلِكَ لِيُرْضِيَهُ عَنْكَ. [١٢/ب]

وَجُمْلَةُ الأَمْرِ فَمَا أَمْكَنَكَ مِنْ إِرْضاءِ الْخُصُومِ عَمِلْتَ، وَمَا لَمْ يُمْكِنْكَ رَاجَعْتَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالتَّضَرُّعِ وَالصِّدقِ، لِيُرْضِيَهُ عَنْكَ، فَيَكُونُ ذٰلِكَ فِي مَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالى يَوْمَ الْقِيامَةِ، وَالرَّجَاءُ مِنْهُ بِفَضْلِهِ الْعَظِيمِ وَإِحْسَانِهِ الْعَمِيمِ، أَنَّهُ إِذا عَلِمَ الصِّدْقَ مِنْ قَلْبِ الْعَبْدِ فإِنَّهُ يُرْضِي خُصَماءَهُ مِنْ خِزَانَةِ فَضْلِهِ، وَلاَ حكم، فَاعْلم هٰذِهِ حَقَّها رَاشِداً. فَهٰذِهِ هٰذِهِ.

فإِذَا أَنْتَ عَمِلْتَ مَا وَصَفْناهُ، وَبَرَّأْتَ الْقَلْبَ عَنِ ٱخْتِيَارِ مِثْلِهَا في الْمُسْتَقبَلِ، فقَدْ خَرَجْتَ مِنَ الذُّنُوبِ كُلِّها، وَإِنْ حَصَلَتْ مِنكَ تَبْرِئَةُ الْقَلْبِ، وَلَمْ يَحْصُلْ مِنْكَ قَضاءُ الْفَوائِتِ، وَإِرْضاءُ الْخُصُومِ، فالتَّبِعاتُ لاَزِمَةٌ وَسَائِرُ الذُّنُوبِ مَغْفُورَةٌ.

وَلِهٰذَا الْبَابِ شَرْحٌ يطُولُ فَلاَ يَحْتَمِلُهُ هٰذَا الْمُخْتَصَرُ، وَٱنْظُرْ كِتابَ التَّوْبَةِ مِنْ كُتُبِ «إحياء عُلُوم الدِّينَ» أَوَّلاً، وَ «كِتاب الْقُرْبَةِ إلى اللَّه» ثانياً. وَ «كِتاب الْغايَةِ الْقُصْوَى» ثالثاً. تَجِدْ فَوَائِدَ كَثِيرَةً وَشَرْحاً جَمّاً، وَالَّذِي ذَكَرْناهُ ها هُنا هُوَ الأَصْلُ الَّذِي لاَ بُدّ مِنْهُ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

(فصل) ثُمّ ٱعْلَمْ يَقِيناً أَنَّ هٰذه الْعَقَبَةَ، عقبَةٌ صَعْبَةٌ، أَمْرُهَا مُهِمٌّ

(١) في الأصل: الأمر، والتصحيح من باقي النسخ.

صعوبة اجتياز عقبة التوبة

وَضَرَرُهَا عَظِيمٌ. فَلَقَدْ بَلَغَنَا عَنِ الأُسْتاذ أَبِي إسْحٰق الإِسْفَرَايِنِي[1] رَحِمَهُ اللَّهُ تَعالى، وَكَانَ مِنَ الرّاسِخِينَ في الْعِلْم، الْعَامِلِينَ، أَنَّهُ قَالَ: دعوْتُ ٱللَّهَ سُبْحَانهُ ثلاثِينَ سَنَةً أَنْ يَرْزُقَنِي تَوْبَةً نَصُوحاً، ثُمَّ تَعَجَّبْتُ فِي نَفْسِي وقلتُ: سُبْحانَ اللَّهِ، حَاجَةٌ دَعَوْتُ اللَّهَ فِيهَا ثَلاثِينَ سَنَةً فَمَا قُضِيَتْ إِلَى الآنَ، فرَأَيْتُ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ، كَأَنَّ قَائِلاً يَقُولُ لِي: أَتَتعَجَّبُ مِنْ ذٰلِكَ؟ أَتَدْرِي مَاذَا تَسْأَلُ اللَّهَ سُبْحَانُه وَتَعالى؟ إِنَّما تَسْأَلُ اللَّهَ عزَّ وجلّ أَنْ يُحِبَّكَ. أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢﴾ البقرة: ٢٢٢]، أَفَهٰذِهِ حَاجَةٌ هَيِّنَةٌ؟ فَانْظُرْ إِلَى هٰؤُلَاء الأَئِمَّةِ، وَٱهْتِمَامِهِمْ وَمُوَاظَبَتِهِمْ عَلَى صَلَاحِ قُلُوبِهِمْ، وَالتَّزَوُّدِ لِمَعَادِهِمْ.

[١٣/أ]

الضرر في تأخير التوبة

وَأَمَّا الضَّرَرُ/ المُخَوِّفُ (في تأخير التوبة)[2] فَإِنَّ أَوَّلَ الذَّنْبِ قَسْوَةٌ، وَآخِرَهُ وَالْعِيَاذُ باللَّهِ تعالى شُؤْمٌ وَشِقْوَةٌ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَنْسَى أَمْرَ إِبْلِيسَ وَبَلْعامَ بْنِ بَاعُورَاءَ[3]، كَانَ مَبْدَأُ أَمْرِهِمَا ذَنْباً وَآخِرُهُ كُفْراً فَهلَكا مَعَ الْهَالِكِينَ أَبَدَ الآبِدِينَ. فَعلَيْكَ يَرحمُكَ اللَّهُ بالتَّيَقُّظِ وَٱلْجِهْد، عَسَى أَنْ تَقْلَعَ مِنْ قَلْبِكَ عِرْقَ هٰذَا الإِصْرَارِ، وَتُخلِّصَ رَقَبتكَ مِنْ هذه الأَوْزَارِ،

---

(١) الإمام العلامة الأوحد الأستاذ أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الفقيه العارف المتكلم الأصولي الشافعي، صاحب التصانيف الجليلة، واحد المجتهدين في عصره، ارتحل في طلب الحديث، وقد حدّث عنه البيهقي والقشيري وأبو الطيب الطبري وبنيت له بنيسابور مدرسة مشهورة، وقد توفي بنيسابور سنة ثماني عشرة وأربعمائة هـ. سير أعلام النبلاء ١٧/ ٣٥٣.

(٢) زيادة يقتضيها سياق المعنى.

(٣) من علماء بني إسرائيل في زمن موسى عليه السلام، وهو المعني بقوله تعالى ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا﴾ (سورة الأعراف الآية ١٧٥).
وكان مستجاب الدعوة عند الله.

وَلاَ تَأْمَنْ قَسَاوَةَ الْقَلْبِ، وَتَأَمّلْ حَالَكَ؛ فَلَقَدْ قال بَعْضُ الصَّالِحِينَ: إِنَّ سَوَادَ الْقَلْبِ مِنَ الذُّنُوبِ[1].

وَعَلاَمَةُ سَوادِ الْقَلْبِ أَنْ لاَ تَجِدَ مِنَ الذُّنُوبِ مَفْزَعاً، وَلاَ لِلطَّاعَةِ مَوْقِعاً، وَلاَ لِلْمَوْعِظَةِ مَنْجَعاً، وَلا تَسْتَحْقِرَنّ مِنَ الذُّنُوبِ شَيْئاً فَتَحْسِبَ نفْسَكَ تَائِباً وَأَنْتَ مُصِرٌّ عَلَى الْكَبَائِرِ.

وانظر في ما قاله الشاعر: [الكامل]:

لا تحقِرَنّ من الذنوب أقلّها إن القليل مع الدوام كثير

فَلَقَدْ بَلَغَنَا عَنْ كَهْمَس[2] بْنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قالَ: أَذْنَبْتُ ذَنْباً أَنَا أَبْكِي عَلَيْهِ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، قِيلَ ما هُوَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ؟ قالَ: زَارَنِي أَخٌ لِي في اللَّهِ، فَاشْتَرَيْتُ لَهُ سَمَكاً، فَأَكَلَ، ثُمَّ قُمْتُ إِلَى حَائِطِ جَارِي، فَأَخَذْتُ مِنْهُ قِطْعَةَ طِينٍ فَغَسَلَ بِها يَدَهُ. فَنَاقِشْ نَفْسَكَ وَحَاسِبْها، وَسارِعْ إِلى التَّوْبَةِ، وَبَادِرْ، فَإِنَّ الأَجَلَ مَكْتُومٌ، وَالدُّنْيَا غُرُورٌ.

---

(١) مصداق هذا القول ما جاء في حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر، صُقِلَ قلبُه، فإن زاد زادت» رواه ابن ماجه ١٤١٨/٢ الحديث رقم ٤٢٤٤.

وأبو هريرة هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي، أسلم عام خيبر وشهدها مع رسول الله ﷺ، ثم لازمه الملازمة التّامّة رغبة في العلم، وكان يدور معه حيثما دار. كان أحفظ الصحابة رضي الله عنهم لحديث رسول الله ﷺ. توفي في المدينة عام ٥٩ هـ ودفن بالبقيع. سير أعلام النبلاء ٥٧٨/٢.

(٢) هو كهمس بن الحسن التميمي البصري، الحنفي العابد، من كبار الثقات. حدّث عن أبي الطفيل وعبد الله بن شقيق والحسن البصري وجماعة. وحدّث عنه ابن المبارك ووكيع وخلق كثير وذكره أحمد بن حنبل فقال ثقة وزيادة. وقد توفي في سنة تسع وأربعين ومئة. سير أعلام النبلاء ٣١٦/٦.

وَتَضَرَّعَ إِلى اللّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعالى وَابْتَهِلْ، وَاذْكُرْ حَالَ أَبِينَا آدَمَ عَليه السلام الَّذِي خَلَقَهُ اللّهُ عَزَّ وجلّ بِيَدِهِ، وَنفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَحَمَلَهُ إلى جَنَّتِهِ عَلَى أَعْنَاقِ المَلاَئِكةِ، لَمْ يُذْنِبْ إِلاّ ذَنْباً وَاحِداً، نَزَلَ بِهِ ما نَزَلَ حَتَّى يُرْوَى أَنّ اللّهَ تَعالى قالَ لَهُ: يَا آدَمُ أَيُّ جَارٍ كُنْتُ لَكَ، قَالَ نِعْمَ الْجَارُ يَا رَبِّ، قالَ يَا آدَمُ اُخْرُجْ مِنْ جِوَارِي، وَضَعْ عَنْ رَأْسِكَ تاجَ كَرَامَتِي، فَإِنَّهُ لاَ يُجاوِرُنِي مَنْ عَصَانِي.

حَتَّى أَنَّهُ فِيمَا رُوِيَ، بَكَى عَلى ذَنْبِهِ مِائَتَيْ سَنَةٍ، حَتَّى قَبِلَ تَوْبَتَه وَغَفَرَ ذَنْبَهُ الْوَاحِدَ.

هٰذَا حَالُه مَعَ نَبِيِّهِ وَصَفِيِّهِ فِي ذَنْبٍ وَاحِدٍ، فَكَيْفَ حَالُ الْغَيْرِ فِي ذُنُوبٍ لاَ تُحْصَى؟ وَهٰذَا تَضَرُّعُ التَّائِبِ وَابْتِهَالُهُ، فَكَيْفَ بِالمُصِرِّ المُتَعَسِّفِ؟

وَلَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قالَ: [المتقارب]:

يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ مَنْ يَتُوبُ فكَيْفَ تَرَى حَالَ مَنْ لاَ يَتُوبُ

[١٣/ب] / فَإِنْ تُبْتَ ثمَّ نَقَضْتَ (التوبة)[١] وَعُدْتَ إِلَى الذَّنْبِ ثَانِياً، فَعُدْ إِلى التَّوْبَةِ مُبَادِراً، وَقُلْ لِنَفْسِكَ: لَعَلِّي أَمُوتُ قَبْلَ أَنْ أَعُودَ إِلى الذَّنْبِ هٰذِهِ المَرَّةَ، وَكَذٰلِكَ ثَالِثاً وَرَابِعاً. وَكمَا اتَّخَذْتَ الذَّنْبَ وَالْعَوْدَ إِلَيْهِ حِرْفَةً، فَاتَّخِذِ التَّوْبَةَ وَالْعَوْدَ إِلَيْهَا حِرْفَةً؛ فَلاَ تَكُنْ فِي التَّوْبَةِ أَعْجَزَ مِنْكَ فِي الذَّنْبِ، وَلاَ تَيْأَسْ، وَلاَ يَمْنَعْكَ الشَّيْطَانُ مِنَ التَّوْبَةِ بِسَبَبِ ذٰلِكَ، فَإِنَّهُ دِلالَةُ الْخَيْرِ؛ أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ ﷺ: «خِيَارُكُمْ كُلُّ مُفتنٍ

---

(١) ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

تَوَّابٍ»(١) أَيْ كَبِيرُ الإِبْتِلاَءِ بِالذَّنْبِ، كَثِيرُ التَّوْبَةِ مِنْهُ وَالرُّجُوعِ إِلى اللَّهِ سبحانه وتعالى بِالنَّدَامَةِ وَالاسْتِغْفَارِ؛ وَتَذَكَّرْ قَوْلَهُ سُبْحَانه وتَعَالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [النساء: ١١٠]. فَهٰذِهِ هٰذِهِ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

إجراءات التوبة

(فصل) وَجُمْلَةُ الأَمْرِ أَنَّكَ إِذَا ٱبْتَدَأْتَ فَبَرّأْتَ قَلْبَكَ عَنِ الذُّنُوبِ كُلِّهَا، بِأَنْ تُوَطّنَهُ عَلَى أَنْ لاَ تَعُودَ إِلى الذَّنْبِ أَبَداً أَلْبَتَّةَ، فليكن مَا كَانَ مِنْكَ عَلَى وَجْهٍ عَلِمَ ٱللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتعالَى، صِدْقَ عَزْمِكَ مِنْ قَلْبٍ نَقِيٍّ، وَتُرْضِي الْخُصُومَ بما أَمْكَنَكَ، وَتَقْضِي الْفوائِتَ بِمَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَتَرْجِعَ في الباقي إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى بِالإِبْتِهَالِ وَالتَّضَرُّعِ لِيَكْفِيَكَ ذٰلِكَ.

ثُمَّ تَذْهَبَ فَتَغْتَسِلَ، وَتَغسِلَ ثِيابَكَ، وَتُصَلِّيَ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ كَمَا يَجِبُ، وَتَضَعَ وَجْهَكَ بِالأَرْضِ في مَكَانٍ خَالٍ حيث لا يَرَاكَ إِلاَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، ثُمَّ تَجْعَلَ التُّرَابَ عَلَى رَأْسِكَ، وَتُمَرِّغَ وَجْهَكَ، الَّذِي هُوَ أَعَزُّ أَعْضائِكَ، في التُّرَابِ بِدَمْعٍ جَارٍ وَقَلْبٍ حَزِينٍ وَصَوْتٍ عَالٍ ونداءِ

---

(١) رواه أحمد بن حنبل عن محمد بن الحنفية عن أبيه علي بن أبي طالب بلفظ: (قال رسول الله ﷺ: إن الله يحب العبد المؤمن المُفَتَّنَ التواب) (١/ ٨٠، ١٠٣).
ــ وقال العراقي: رواه البيهقي في الشُّعَب بسند ضعيف عن علي كرم الله وجهه (الإحياء ٤/ ٣٩، بيان أقسام العباد في دوام التوبة).
ــ وورد هذا الحديث في الجامع الصغير (١/ ٥٤٢) بلفظ: (خياركم كل مُفَتَّنٍ تواب) عن البيهقي برواية علي بن أبي طالب وقد رمز إليه بإشارة (صح)(انظر: الحديث رقم ٣٩٩٦).
ــ وفي ضعيف الجامع الصحيح للألباني (٣/ ١٣١) أنه حديث ضعيف، وأنه ورد في كتاب الأحاديث الضعيفة برقم ٢٢٣٩ (انظر الحديث رقم ٢٨٧٢).

خفي، وَتَذْكُرَ ذُنُوبَكَ وَاحِداً وَاحِداً، مَا أَمْكَنَكَ، وَتَلُومَ نَفْسَكَ الْعَاصِيَةَ على فِعْلها، وَتُوَبِّخَهَا وَتقُول: يَا نَفْسُ، أَمَا تَسْتَحِي، أَمَا آنَ لَكِ أَنْ تَتُوبِي وترجعي؟ أَلَكِ طَاقَةٌ بِعَذَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ؟ أَلَكِ حَاجَةٌ بِسَخْطِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ؟ وَتَذْكُرُ مِنْ هٰذَا/ كَثِيراً وَتَبْكِي. [١٤/أ]

ثُمّ تَرْفَعُ يَدَيْكَ إلى الرَّبِّ الرَّحِيم سُبْحَانهُ وتعالى وَتقُولُ: إلٰهِي عَبْدُكَ الآبِقُ رَجَعَ إِلى بَابِكَ، عَبْدُكَ الْعَاصِي رَجَعَ إِلى الصُّلْح، عَبْدُكَ الْمُذْنِبُ أَتَاكَ بِالعُذْرِ فَاعْفُ عَنِّي بِجُودِكَ وَتَقَبَّلْنِي بِفَضْلِكَ، وَٱنْظُرْ إِلَيَّ بِرَحْمَتِكَ، اللَّهُمَّ ٱغْفِرْ لِي مَا سَلَفَ مِنَ الذُّنُوبِ، وَٱعْصِمْنِي فِيمَا بَقِيَ مِنَ الأَجَلِ، فإِنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ بِيَدِكَ، وَأَنْتَ بِنَا رَءُوفٌ رَحِيمٌ.

ثمَّ تَدْعُو دُعَاءَ الشِّدَّةِ وَهُوَ: يَا مُجلِّي عَظائِمَ الأُمُورِ يَا مُنْتَهى هِمَّةَ الْمَهْمُومِينَ، يَا مَنْ إِذَا أَرَادَ شَيئاً إِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ؛ أَحَاطَتْ بِنَا ذُنُوبُنا أَنْتَ المَذْخُورُ لهَا يَا مَذْخُور لِكُلِّ شِدّةٍ، كُنْتُ أَدَّخِرُكَ لِهٰذِهِ السَّاعَةِ، فَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرّحِيمُ.

ثُمّ أَكْثِرْ مِنَ الْبُكاءِ وَالتَّذَلُّلِ وَقُلْ: يَا مَنْ لَا يَشْغَلُهُ سَمْعٌ عَنْ سَمْعٍ، يَا مَنْ لَا تُغَلِّطُهُ المَسَائِلِ، يَا مَنْ لَا يَبْرَمُهُ إِلْحاحُ المُلِحِّينَ، أَذِقْنِي بَرْدَ عَفْوِكَ وَحَلَاوَةَ مَغْفِرَتِكَ، (بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرّاحِمِينَ)[١] إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

ثُمَّ تُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَتَسْتَغْفِرُ لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ

(١) زيادة من (ج) و (و) و (هـ).

وَالمُؤْمِنَاتِ، وَتَرْجِعُ إلَى طاعَةِ ٱللَّهِ جلّ جَلاَلُهُ، فَتَكُونُ قدْ تُبْتَ تَوْبَةً نَصُوحاً، وَقَدْ خَرَجْتَ مِنَ الذُّنُوبِ طَاهِراً كَيَوْمِ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ، وَأَحَبَّكَ اللَّهُ عزّ وجلّ وَلَكَ مِنَ الأَجْرِ وَالثَّوَابِ، وَعليْكَ مِنَ الْبَرَكَةِ وَالرَّحْمَةِ، ما لاَ يُحِيطُ بِهِ وَصْفُ الْوَاصِفِينَ، وَحَصَلَ لَكَ الأَمْنُ وَالْخَلاَصُ وَنجَوْتَ مِنَ غُصَّةِ المَعاصِي وَبَلِيَّتِها في الدُّنْيا وَالآخِرَةِ. وَكُنْتَ قَدْ قَطَعْتَ هٰذِهِ الْعَقَبَةَ، بِإِذْنِ ٱللَّهِ تَعالى، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْهِدَايَةِ والتوفيق بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ، كما هو أهله.



العقبة الثَّالِثَةُ وَهِيَ عَقبةُ العَوَائِقِ

ثُمَّ عَلَيْكَ يَاطَالِبَ الْعِبَادَةِ ـ وَفَّقكَ ٱللَّهُ ـ بِدَفْعِ الْعَوَائِقِ، حَتَّى تَسْتَقِيمَ عِبادَتُكَ. وَقدْ ذَكَرْنا أَنَّ **الْعَوَائقَ أَرْبَعةٌ:**

أَحَدُها: **الدُّنْيَا:** وَدَفْعُهَا بِالتَّجَرُّدِ عَنْهَا وَالزُّهْدِ فِيها، وَإِنَّمَا لَزِمَكَ هٰذَا التَّجَرُّدُ وَالزُّهْدُ لأَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: لِتَسْتَقِيمَ لَكَ الْعِبادَةُ/ وَتكثُر، فَإِنَّ الرَّغْبَةَ في الدُّنْيا [١٤/ب] تَشْغَلُكَ (ظاهراً وباطناً)[1]؛ أَمَّا ظَاهِرُكَ فَبالطَّلَبِ، وَأَمَّا بَاطِنُكَ فَبِالإِرَادَةِ وَحَدِيثِ النَّفْسِ، وَكِلاَهُمَا يَمْنَعُ عنْ الْعِبَادَةِ، فإِنَّ النَّفْسَ وَاحِدَةٌ، وَالقَلْبَ وَاحِدٌ، فَإِذَا ٱشْتَغَلَ بِشَيْءٍ ٱنْقَطَعَ عَنْ ضِدِّهِ. وَإِنَّ مَثَلَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، كَمَثَلِ الضُّرَّتَيْنِ، إِنْ أَرْضَيْتَ إِحْدَاهُمَا أَسْخَطْتَ الأُخْرَى؛ وَأَنَّهُما كَالمَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ، بِقَدْرِ مَا تَمِيلُ إِلى أَحَدِهِمَا، أَعْرَضْتَ عَنِ الآخَرِ.

---

(١) زيادة من (ج) يقتضيها السياق.

وأمَّا شَغْلُهَا فِي الظاهِرِ فقد رَوَيْنا عَنْ أَبِي الدَّرْداءِ[1] رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: حاوَلْتُ أَنْ أَجْمَعَ بَيْنَ الْعِبَادَةِ وَالتِّجَارَةِ فَلَمْ يَجْتَمِعَا، فَأَقْبَلْتُ عَلَى الْعِبَادَةِ وَتَرَكْتُ التِّجَارَةَ.

وَعَنْ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّه قَالَ: «لَوْ كَانَتَا مُجْتَمِعَيْنِ لأَحَدٍ غَيْرِي لاَجْتَمَعَتَا لِي لِمَا أَعْطَانِي ٱللَّهُ تعالى مِنَ الْقُوَّةِ وَٱللِّينِ» وإِذَا كَانَ الْحَدِيثُ كذلِكَ فَالضرُّ بِالفَانِيَةِ أَولى، والسَّلَامُ.

وَأَمَّا شَغْلُهَا لِلْقَلْبِ، وَهُوَ الْباطِنُ لِمَكَانِ الإرَادَةِ، فَلِما رُوِيَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ:

«مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ، وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ؛ فَآثِرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى»[2] فَبَانَ لَكَ أَنَّهُ إِذَا ٱشْتَغَلَ ظَاهِرُكَ بِالدُّنْيَا، وَبَاطِنُكَ بِإِرَادَتِها، فَلَا تَتَيَسرُ لَكَ الْعِبَادَةُ بحَقِّهَا، وَأَمَّا إِذَا

---

(١) الإمام القدوة، قاضي دمشق وصاحب رسول الله أبو الدرداء، واسمه عويمر، وقيل عامر بن زيد بن قيس الخزرجي الأنصاري روى عنه ابن عمر وابن عباس وأنس وغيرهم وكثير من التابعين. كان فقيهاً حكيماً زاهداً، شهد ما بعد أُحد من المشاهد مع رسول الله ﷺ، توفي عام ٣١ هـ أو ٣٢ هـ وقبره بدمشق. سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٣٥.

(٢) ــ رواه الإمام أحمد (٤/ ٤١٢)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٠٨) عن أبي موسى الاشعري وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرّجاه، وذكر أن فيه انقطاعاً.
ــ ورواه السيوطي في الجامع الصغير (٢/ ٤٧٨، الحديث برقم ٨٣١٣) وذكر أنه حديث صحيح.
ــ وأضاف العراقي أن من رواه أيضاً: البزّار والطبراني وابن حِبّان (إحياء ٣/ ٢٠٢).

زَهِدْتَ فِيها، فَتَفَرَّغْتَ بِظاهِرِكَ وَبَاطِنِكَ، فَتَتَيَسَّرُ لَكَ الْعِبَادَةُ، بَلْ تُعَاوِنُكَ أَعْضَاؤُكَ.

وَلَقَدْ رُوِيَ عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ[1] رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا زَهِدَ فِي الدُّنْيَا ٱسْتَنَارَ قَلْبُهُ بِالحِكْمَةِ، وَتَعَاوَنَتْ أَعْضَاؤُهُ فِي الْعِبَادَةِ». فَهٰذِهِ هٰذِهِ.

وَالثَّانِي مِنَ الأَمْرَيْنِ: أَنَّهُ يُكثِرُ قِيمَةَ عَمَلِكَ، وَيُعَظِّمُ قَدْرَهُ وَشَرَفَهُ؛ فَلَقَدْ قَالَ ﷺ: «رَكْعَتَانِ مِنْ رَجُلٍ زَاهِدٍ قَلْبُهُ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى ٱللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ عِبَادَةِ الْمُتَعَبِّدِينَ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ، أَبَداً سَرْمَداً»[2].

---

(١) أبو عبد الله سلمان الخير، مولى رسول الله ﷺ، سُئِل عن نَسَبِه فقال: أنا سلمان ابن الإسلام. وقد صحب النبي وخدمه وحدّث عنه، كان من فضلاء الصحابة وزُهّادهم وعلمائهم وذوي القرب من رسول الله ﷺ، وهو الذي أشار عليه بحفر الخندق حين جاءت الأحزاب (معركة الخندق أو الأحزاب). توفي سنة ٣٦ هـ. سير أعلام النبلاء ١/ ٥٠٥.

(٢) ــ روى السيوطي في الجامع الصغير (١/ ٦٠٠) ما نصه: (ركعة من عالم بالله خير من ألف ركعة من متجاهل بالله) (الحديث ٤٤٦٤) عن الشيرازي في الألقاب عن علي بن أبي طالب، وذكر السيوطي أنه ضعيف. ولكن الألباني لم يذكره في الأحاديث الضعيفة.

ــ وروى السيوطي أيضاً (١/ ٦٠٢): (ركعتان من عالم أفضل من سبعين ركعة من غير عالم) (الحديث رقم ٤٤٧٦) عن ابن النجار عن محمد بن علي مرسلاً. وذكر السيوطي أنه حسن.

ــ وذكر السيوطي أيضاً عن الديلمي في مسند الفردوس ما رواه أَنس بلفظ: (ركعتان من رجل ورع أفضل من ألف ركعة من مخلّط) وقال: ضعيف (راجع الحديث رقم ٤٤٧٥ في الجامع الصغير).

فَإِذَا كَانَتِ الْعِبَادَةُ تَشْرُفُ وَتَكْثُر بِذٰلِكَ، فَحَقَّ لِمَنْ طَلَبَ الْعِبَادَةَ أَنْ يَزْهَدَ فِي الدُّنيا وَيَتَجَرَّدَ عَنْهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى الزُّهْدِ وَمَا حَقِيقته؟.

[١٥/أ] فاعْلَمْ أولاً/ أَنَّ الزُّهْدَ عِنْد عُلَمَائِنا رَحِمَهُمُ اللَّهُ تعالَى زُهْدَانِ: زُهْدٌ مَقْدُورٌ لِلْعَبْدِ، وَزُهْدٌ غَيْرُ مَقْدُورٍ، فَالَّذِي هُوَ مَقْدُورٌ ثَلاثَةُ أَشْيَاءَ:

معنى الزهد

الزهد زهدان

زهد مقدور وزهد غير مقدور

(١) تَرْكُ طَلَبِ الْمَفْقُودِ مِنَ ٱلدُّنْيَا، (٢) وَتَفْرِيقُ الْمَجْمُوعِ مِنْها، (٣) وَتَرْكُ إِرادَتِهَا وَٱخْتِيَارِها.

وَأَمَّا الزُّهْدُ الَّذِي هُوَ غَيْرُ مَقْدُورٍ لِلْعَبْدِ، فَهُوَ بُرُودَةُ الشَّيْءِ عَلَى قَلْبِ الزَّاهِدِ.

ثُمَّ الزُّهْدُ الَّذِي هُوَ مَقْدُورٌ، مُقَدِّمَاتٌ لِلزُّهْدِ الذي هُوَ غَيْرُ مَقْدُورٍ؛ فَإِذَا أَتَى بِهِ الْعَبْدُ بِأَنْ لاَ يَطْلُبَ ما لَيْسَ عِنْدَهُ مِنَ ٱلدُّنْيَا، وَأَن يُفَرِّقَ مَا عِنْدَهُ مِنْهَا، وَيَتْرُكَ بِالْقَلْبِ إِرَادَتَهَا وَٱخْتِيَارَهَا لأَجْلِ اللَّهِ وَعَظِيمِ ثَوَابِه بِتَذَكُّرِهِ لآفاتِها، أَوْرَثَتْهُ هذه بُرُودَةَ الدُّنْيَا عَلَى قَلْبِهِ. وَهٰذَا عِنْدِي هُوَ الزُّهْدُ الْحَقِيقِيُّ.

تـرْك إرادة الدنيا

ثُمَّ ٱعْلَمْ أَنَّ أَصْعَبَ الأُمُورِ الثَّلاثَةِ إِنَّما هُوَ تَرْكُ الإِرادَةِ بِالْقَلْبِ، إِذْ كَمْ تارِكٍ لَها بِظَاهِرِهِ، مُحِبٌّ مُرِيدٌ لَهَا بِبَاطِنِهِ، فَهُوَ فِي مُكَافَحَةٍ وَمُقَاساةٍ مِنْ نفْسِهِ شَدِيدَةٍ، وَالشَّأْنُ كُلُّهُ في هٰذَا. أَلَمْ تَسْمَعْ إِلى قَوْلِهِ تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣] عَلَّقَ الحُكْمَ بِنَفْيِ الإِرادَةِ دُونَ الطَّلَبِ وَالْفِعْلِ لِلمُرَادِ. وَقوْلِهِ تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن

كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى: ٢٠] وَقوْلِهِ تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨] وقال: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ [الإسراء: ١٩] أَمَا تَرَى الإِشَارَاتِ كُلَّهَا إِلَى الإِرَادَةِ، فَأَمْرُهَا هُوَ المُهِمُّ إِذَنْ؛ لٰكِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وَاظَبَ وَاسْتَقَامَ عَلَى الأَوَّلَيْنِ، أَعْنِي التَّرْك والتَّفْرِيقَ، فَمَأْمُولٌ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، أَنْ يُوَفِّقَهُ لِدَفْعِ هٰذِهِ الإِرَادَةِ وَالاخْتِيارِ عَنْ قَلْبِهِ، فَإِنَّهُ المُفْضِلُ الْكَرِيمُ عَزَّ وَجَلَّ.

ثُمَّ الَّذِي يَبْعَثُ عَلَى التَّرْكِ وَالتَّفْرِيقِ، وَيُهَوِّنُ عَلَيْكَ ذٰلِكَ، ذِكْرُ آفَاتِ الدُّنْيَا وَعُيُوبِها، وَقَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ الْقَوْلَ في ذٰلِكَ، فَمِنْهُ فِي قَوْلِ بَعْضِهِمْ[1]: «تَرَكْتُ الدُّنْيا لِقِلَّةِ غَنَائِهَا وَكَثْرَةِ عَنَائِها، وَسُرْعَةِ فَنَائِهَا وَخِسَّةِ شُرَكَائِها».

قالَ شَيْخِي/ الإِمَامُ رَحِمهُ اللَّهُ: [١٥/ب]

لٰكِنْ يَجِيءُ مِنْ هَذا رَائِحَةُ الرَّغْبَةِ[2]، لأَنَّ مَنْ شَكَا فِرَاقَ أَحَدٍ أَحَبَّ وِصَالَهُ، وَمَنْ تَرَكَ شَيْئاً لِمَكَانِ الشُّرَكَاءِ فِيهِ أَحَبَّ لَوِ ٱنْفَرَدَ بِهِ. فَالْقَوْلُ الْبَالِغُ فِيهِ، مَا قَالَهُ شَيْخُنَا[3] رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ الدُّنْيَا عَدُوَّةٌ لِلَّهِ

---

(١) وهو قول يحيى بن معاذ الرازي، كما قاله ابن علوي الحداد في رسالته. (راجع سراج السالكين، ص ٢٠٢).
ويحيى بن معاذ هو أبو زكريا الواعظ، أحد رجال الطريقة. له لسان في الرجاء خصوصاً، وكلام في المعرفة. خرج إلى بلخ وأقام بها مدة، ورجع إلى نيسابور، ومات بها سنة ٢٥٨ هـ. سير أعلام النبلاء ١٣/ ١٥.

(٢) أي يجيء من قول بعضهم هذا. وهو ما سبق ذكره.

(٣) هو أبو بكر الورّاق، كما في سراج السالكين ص ٢٠٣.

=

عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنْتَ مُحِبُّهُ، وَمَنْ أَحَبَّ أَحَداً أَبْغَضَ عَدُوَّهُ». قالَ: وَلأَنَّهَا فِي أَصْلِهَا وَسِخَةٌ جيفَةٌ، أَلَا تَرَى أَنَّ الدنيا عدوّةٌ، آخِر أمرها إِلى الْقَذَرِ وَالْفَسَادِ، وَالتَّلَاشِي وَالاضْمِحْلَالِ؟ لٰكِنَّهَا جيفَةٌ ضُمِّخَتْ بِطِيبٍ وَطُلِيَتْ بِزِينَةٍ، فَاغْتَرَّ بِظاهِرِها الْغَافِلُونَ، وَزَهَدَ فِيها الْعَاقِلُونَ؟.

حكم الزهد في الدنيا

فَإِنْ قُلت: فَما حُكْمُ الزُّهْدِ في الدُّنْيَا، أَهُوَ فَرْضٌ أَمْ نَفْلٌ؟

فاعْلَمْ: أَنَّ الزُّهْدَ يَقَعُ عِنْدنَا في الحَلَالِ وَالحَرَامِ، فَهُوَ في الحَرَامِ فَرْضٌ، وَفِي الْحَلَالِ نَفْلٌ.

ثُمَّ مَنْزِلَةُ هٰذَا الْحَرَامِ لِمُسْتَقِيمِي الطَّاعَة، بِمَنْزِلَةِ الْمَيْتَةِ الْمُسْتَقْذَرَةِ، لَا يَقْدُمُ عَلَيْهَا إِلَّا عِنْدَ الضَّرُورَةِ بِمِقْدَارِ دَفْعِ الضَّرورَة.

وَأَمَّا الزُّهْدُ في الحَلَالِ فَإِنَّمَا يَكُونُ للأَبْدَالِ[1]، يَكُونُ عِنْدَهُم في الْحَلَالِ بمَنْزِلَةِ الْمَيْتَةِ، لَا يَتَنَاوَلُونَ مِنْهَا إِلَّا قَدْراً لَا بُدَّ مِنْهُ.

= وهو: محمد بن عمر الحكيم، أصله من ترمذ وأقام ببلخ. لقي أحمد بن خضرويه وصحبه وصحب محمد بن سعد بن إبراهيم الزاهد.

له الكتب المشهورة في أنواع الرياضات والمعاملات والآداب. وقد أسند الحديث. انظر ترجمته وأخباره في طبقات الصوفية ص ٢٢١، صفة الصفوة (٤/ ١٦٥)، حلية الأولياء (١٠/ ٢٣٥).

(١) الأبدال: قوم يقيم الله بهم الأرض، لا يموت أحدهم إلا قام مقامه آخر من الناس قال ابن دريد: الواحد بديل. راجع ما روي عن الأبدال في مسند الإمام أحمد بن حنبل: «الأبدال في هذه الأمة ثلاثون» (ج ٥ ص ٣٢٢)، وحديث «الأبدال يكونون بالشام وهم أربعون رجلاً» (١/ ١١٢).

وقال أبو الدرداء: (إعلم أن لله عباداً يقال لهم الأبدال، خلف من الأنبياء هم أوتاد الأرض، فلما انقضت النبوّة أبدل الله مكانهم قوماً من أمّة محمد ﷺ لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولا حلية، ولكن بصدق الورع وحسن النيّة وسلامة الصدر لجميع المسلمين، والنصيحة لهم إبتغاء مرضاة الله، بصبر من غير =

وَالْحَرَامُ عِنْدَهُمْ بِمَنْزِلَةِ النَّارِ، لاَ يَخْطُرُ بِبَالِهِمْ قَصْدُ تَنَاوُلِهَا بِحَالٍ، فَهٰذَا مَعْنَى الْبُرُودَةِ عَلَى الْقَلْبِ بِأَنْ تَنقَطِعَ هِمَّتُهُ عَنْهَا وَيَسْتَقْذِرَهَا وَيَسْتَنْكِرَهَا جِدًّا، فَلاَ يَبْقَى لَهَا في قَلْبِهِ اخْتِيَارٌ وَلاَ إِرَادَةٌ.

مَثَلُ الدنيا

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يُمكِنُ أَنْ تَصِيرَ ٱلدُّنْيا في شَهَوَاتِها وَلَذَّاتِها الْعَجِيبَةِ المَطْلُوبَةِ عِنْدَ إِنْسانٍ بِمَنْزِلَةِ النَّارِ أَوْ بِمَنْزِلَةِ الجِيفَةِ المُسْتَحِيلَةِ، وَالْبِنْيَةُ بِنْيَتُنَا، والطَّبْعُ طَبْعُنَا(1)؟

فاعْلَمْ: أَنَّ مَنْ وُفِّقَ التَّوْفِيقَ الخَاصَّ، وَعَلِمَ آفاتِها وَقَذَرها في أصلِها، تَصِيرُ عِنْدَهُ كَذٰلِكَ؛ وَإِنَّمَا يَتَعَجَّبُ مِنْ هٰذَا الرَّاغِبونَ الْعُمْيَانُ عَنْ عَيْبِ الدُّنْيا وَآفَاتِها، المُغْتَرُّونَ بظاهِرِهَا وَزِينَتِها، وَسَأَضْرِبُ لَكَ مَثَلاً لِذٰلِكَ:

فَاعْلَمْ أَنَّ هٰذَا يُمَثَّلُ بِإِنْسَانٍ صَنَعَ خَبِيصاً(2) بِشَرَائِطِهِ مِنَ السُّكَّرِ وَغَيْرِهِ، ثُمَّ طَرَحَ فِيهِ قِطْعَةَ سُمٍّ قَاتِلٍ، فَأَبْصَرَ ذٰلِكَ رَجُلٌ، وَلَمْ يُبْصِرْهُ آخَرُ، وَوَضَعَ/ الْخَبِيصَ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا مُزَيَّناً مُزَخْرَفاً، فالرَّجُلُ الَّذِي أَبْصَرَ مَا جُعِلَ فِيهِ مِنَ السُّمِّ يَكُونُ زَاهِداً في ذٰلِكَ الخَبِيصِ، لاَ يَخْطُرُ بِبَالِهِ أَنْ يَتَنَاوَلَ مِنْهُ بِحالٍ أَلْبَتَّةَ، وَيَكُونُ ذٰلِكَ عِنْدَهُ بِمَنْزِلَةِ النَّارِ، بَلْ [16/أ]

= تجبّن، وتواضع من غير مذّلة، وهم قوم اصطفاهم الله واستخلصهم لنفسه). (سراج السالكين ص ٢٥٩). وقد أورد الترمذي حديث الأبدال في نوادر الأصول من قول أبي الدرداء، كما رُوي حديث الأبدال عن جماعة من الصحابة مرفوعاً وموقوفاً.

(١) البِنْية بنيتنا: أي أننا خلقنا ضعفاء والبنية هي الفطرة.
والطبع طبعنا: أي أن من طبعنا شدة الحرص على الدنيا وملذاتها وشهواتها.

(٢) الخبيص: نوع من الحلوى تعمله العرب من التمر والسمن والأرز والدبس، وهو مأخوذ من الخبص بمعنى الخلط.

أَصْعَبُ؛ لِمَكَانِ مَا يَعْلَمُ مِنْ آفتِهِ، وَلاَ يَغْتَرُّ بِظاهِرِهِ وَزِينَتِهِ. وَأَمَّا الـرَّجُـلُ الآخَـرُ الَّـذِي لَـمْ يُبْصِـرْ مَـا جُعِـلَ فِيـهِ، ٱغْتـرَّ بِظَـاهِـرِهِ المُزَخْرفِ، وَحَرَصَ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَصْبِرْ عَنْهُ، وَأَخَذَ يَتَعَجَّبُ مِنْ صَاحِبِهِ الزَّاهِدِ فِيهِ، وَرُبَّمَا يُسَفِّهُهُ فِي ذٰلِكَ.

فَهٰذَا مَثَلُ حَرَامِ ٱلـدُّنْيَا مَـعَ الْبُصَـرَاءِ الْمُسْتَقِيمِينَ، وَالجُهَّالِ الرَّاغِبِينَ.

وأما حلال الدنيا، وإنْ لَمْ يَطْرَحْ فِيهِ السُّمَّ، لٰكِنْ بَصَقَ فِيهِ أَوِ ٱمْتَخَطَ، ثُمَّ ضَمَّخَهُ وَزَيَّنَهُ؛ فَالرَّجُلُ الَّذِي شَاهَدَ مِنْهُ ذٰلِكَ الْفِعْلَ، يَكُونُ مُسْتَقْذِراً لِذٰلِكَ الْخَبِيصِ، نَافِراً عَنْهُ لاَ يَكَادُ يَقْدُمُ عَلَيْهِ إِلاَّ عِنْدَ الضَّرُورَةِ وَشِدَّةِ الحَاجَةِ، وَالَّذِي لَمْ يُشاهِدْ ذٰلِكَ فَهُوَ جاهِلٌ بِمَا فِيهِ، مُغْتَرٌّ بِظاهِرِهِ، حَرِيصٌ عَلَيْهِ، مُكِبٌّ مُعْجِبٌ مُحِبٌّ. فَهٰذَا مَثَلُ حَلاَلِ الدُّنْيَا مَعَ الْفَرِيقَيْنِ: أَهْلِ الْبَصِيرَةِ وَالاسْتِقَامَةِ، وَأَهْلِ الرَّغْبَةِ وَالْغَفْلَةِ. وَإِنَّمَا ٱخْتَلَفَ حَالُ الرَّجُلَيْنِ مَعَ تَسَاوِيهِما في الطَّبْعِ وَالْبِنْيَةِ لموضع النَّظَر، بِبَصَـارَةٍ وَعِلْـمٍ كَـانَ لأَحَـدِهِمَـا، وَجَهْلٍ وَغَفْلَةٍ وجفاءٍ كَانَ لِلآخَرِ، فَلَوْ عَلِمَ الرَّاغِبُ، وَأَبْصَرَ مَا عَلِمَهُ الزَّاهِدُ، لَكَانَ زَاهِداً مِثْلَهُ، وَلَوْ جَهِلَ الزَّاهِدُ، وَعَمِيَ عَمَّا عَمِيَ عَنْهُ الرَّاغِبُ، لَكَانَ رَاغِباً مِثْلَهُ؛ فَعَلِمْتَ بِذٰلِكَ أَنَّ هٰذَا التَّمْيِيزَ لمَكَانِ الْبَصائِرِ دُونَ الطَّبَائِعِ، وهٰذَا أَصْلٌ مُفِيدٌ وَكَلاَمٌ بَيِّنٌ سَدِيدٌ، ٱعْتَرَفَ بِهِ مَنْ عَقَلَ وَأَنْصَفَ، وَٱللَّهُ تَعَالى وَلِيُّ الهِدَايَةِ وَالتَّوْفِيقِ بِفَضْلِه.

القدر المطلوب من الدنيا

فَإِنْ قِيلَ: فَلاَ بُدَّ مِنْ قَدْرٍ مِنَ الدّنْيَا لِيَكُونَ قِوَاماً لنَا، فَكَيْفَ نَزْهَدُ فِيهَا؟

فَاعْلَمْ أَنَّ الزُّهْدَ في الْفُضُولِ مِمَّا لاَ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ في قِوَامِ الْبِنْيَةِ،

فَالْمَقْصُودُ الْقِوَامُ وَالْقُوَّةُ حَتَّى تَعْبُدَ ٱللَّهَ سُبْحَانَهُ، لَا الأَكْلُ وَالشُّرْبُ وَالتَّلَذُّذُ، وَاللَّهُ تَعَالى إِنْ شَاءَ أَقَامَهَا/ بِشَيْءٍ وَسَبَبٍ، وَإِنْ شَاءَ أَقَامَهَا [١٦/ب] بِغَيْرِ سَبَبٍ كَالْمَلاَئِكَةِ. ثُمَّ إِنْ كانَ بِشَيْءٍ[١] فإِنْ شاءَ فَبِشَيْءٍ حاصِلٍ عِنْدَكَ، أَوْ بِطَلَبِكَ وَكَسْبِكَ، وَإِنْ شَاءَ فَبِشَيْءٍ غَيْرِهِ يُسَبِّبُهُ لَكَ مِنْ حَيْثُ لاَ تَحْتَسِبُ، مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ مِنْكَ وَلاَ كَسْبٍ؛ كَمَا قَالَ تَعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق ٢] فَإِذاً لاَ تَحْتَاجُ بِحَالٍ إِلى طَلَبٍ وَإِرَادَةٍ، فَإِنْ لَمْ تَقْوَ عَلى ذٰلِكَ وطَلَبْتَ وَأَرَدْتَ، فَٱنْوِ بِذٰلِكَ الْعُدَّةَ وَالقوَّة عَلى عِبادَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ دُونَ الشهْوَةِ وَاللَّذَّةِ؛ فَإِنَّكَ إِذَا نَوَيْتَ ذٰلِكَ، كَانَ الطَّلَبُ وَالإِرَادَةُ مِنْكَ خَيْراً وَطَلَباً لِلآخِرَةِ بِالْحَقِيقَةِ لاَ لِلدُّنْيَا، وَلاَ يَقْدَحُ فِي زُهْدِكَ وَتَجَرُّدِكَ؛ فَاعْلَمْ هٰذِهِ الْجُمْلَةَ رَاشِداً إن شاء الله، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

الْعَائِقُ الثَّانِي: الْخَلْقُ:

ثُمَّ عَلَيكَ، وَفَّقكَ اللَّهُ ـ وَإِيَّانا لِطَاعَتِهِ، بِالتَّفَرُّدِ عَنِ الْخَلْقِ وَذلِكَ لأَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ يَشْغَلُونَكَ عَنْ عِبادَةِ اللَّهِ تَعالى، عَلَى ما حُكِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ: مَرَرْتُ بِجَمَاعَةٍ يَتَرَامَوْنَ[٢] وَوَاحِدٌ جَالِسٌ بَعِيداً مِنْهُمْ، فَأَرَدْتُ أَنْ أُكَلِّمَهُ فَقَالَ: ذِكْرُ ٱللَّهِ تعالى أَشْهَى إِلَيَّ مِنْ كَلاَمِكَ، فَقُلْتُ أَنْتَ وَحْدَكَ؟ قَالَ مَعِي رَبِّي وَمَلَكَايَ، فَقُلْتُ: مَنْ سَبَقَ مِنْ هٰؤلاَءِ؟ فَقَالَ: مَنْ غَفَرَ ٱللَّهُ لَهُ، فَقُلْتُ: أَيْنَ الطَّرِيقُ؟ فَأَشَارَ

---

(١) إن كان بشيء: أي إن كان أقامها الله تعالى بشيء.

(٢) يترامون: أي يرمون السهام ويتسابقون فيها.

بِيَدِهِ إلى السَّمَاءِ، وَقامَ وَتَرَكَنِي وَقالَ: أَكْثَرُ خَلْقِكَ عَنْكَ شَاغِلٌ. فَالخَلْقُ إِذاً يَشْغَلُونَكَ عَنِ الْعِبادَةِ بَلْ يَمْنَعُونَكَ مِنْها، بَلْ يُوقِعُونَكَ في الشَّرِّ وَالْهَلاَكِ عَلَى مَا قَالَ حَاتِمٌ الأَصَمُّ[1] رَحْمَةُ اللَّه عَلَيْهِ:

طَلَبْتُ مِنْ هٰذَا الْخَلْقِ خَمْسَةَ أَشْيَاءَ فَلَمْ أَجِدْهَا: طَلَبْتُ مِنْهُمُ الطَّاعَةَ وَالزَّهَادَةَ فَلَمْ يَفْعَلُوا، فَقُلْتُ: أَعِينُونِي عَلَيْهِمَا إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَلَم يَفْعَلُوا، فَقُلْتُ: ارْضُوا عَنِّي إِنْ فعلتُ فلم يفعلُوا؛ فَقُلْتُ: لا تَمْنَعُونِي عَنْهُمَا إِذاً، فَمَنَعُونِي؛ فَقُلْتُ: لاَ تَدْعُونِي إِلَى مَا لاَ يُرْضِي اللَّهَ العَظِيمَ، ولاَ تُعَادُونِي عَلَيْهَا إِنْ لَمْ أُتَابِعْكُمْ، فَلَمْ يَفْعَلُوا؛ فَتَرَكْتُهُمْ وَاشْتَغَلْتُ بِخَاصَّةِ نَفْسِي/ . [١٧/أ]

ثم اعْلَمْ أَيُّهَا الأَخُ في الدِّينِ، أَنَّ نَبِيَّنا مُحَمَّداً ﷺ، وَصَفَ زَمَانَ الْعُزْلَةِ، وَبَيَّنَ نَعْتَهُ وَنَعْتَ أَهْلِه، وَأَمَرَ فِيهِ بِالتَّفَرُّدِ، وَكَان لاَ مَحَالَةَ أَعْلَمَ بِالمصالِحِ، وَأَنْصَحَ لَنَا مِنَّا لأَنْفُسِنَا؛ فَإِنْ وَجَدْتَ زَمَانَكَ عَلَى مَا وَصَفَ وَبَيَّنَ فَامْتَثِلْ أَمْرَهُ ﷺ، وَاقْبَلْ نَصِيحَتَهُ، وَلاَ تَشُكَّ؛ فَإِنَّهُ ﷺ كَانَ أعْرَفَ بما يَصلُحُ لك في زمانِك، ولا تتعلَّلْ، بالعِلَلِ الكاذبةِ، ولا تخادعْ نَفْسَك، وَإِلاَّ فَأَنْتَ هَالِكٌ وَلاَ عُذْرَ لَكَ.

وَالْوَصْفُ الَّذِي ذَكَرْنَا هُوَ فِي الخَبَرِ الْمَشْهُورِ عَن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ[2] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: بَيْنَما نَحْنُ حَوْلَ

---

(١) هو أبو عبد الرحمن حاتم بن علوان الأصم، ويقال حاتم بن يوسف، من أكابر مشايخ خراسان. له كلام جليل في الزهد والمواعظ والحكم. كان يقال له: لقمان هذه الأمة. وقد توفي حاتم سنة سبع وثلاثين ومئتين. سير أعلام النبلاء ١١/ ٤٨٤.

(٢) الإمام الحبر العابد صاحب رسول الله ﷺ وابن صاحبه أبو محمد، وقيل أبو عبد الرحمن. وقد أسلم قبل أبيه.
=

رسول الله ﷺ، إذْ ذَكَرَ الْفِتْنَةَ، فَقَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ النَّاسَ مَرَجَتْ عُهُودُهُمْ، وَخفَّتْ أَمَانَاتُهُمْ، وكَانُوا هٰكَذَا، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، قُلْتُ: مَا أَصْنَعُ عِنْدَ ذٰلِكَ جَعَلَنِي ٱللَّهُ فِدَاءَكَ؟ قالَ: إلْزَمْ بَيْتَكَ، وَامْلِك عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَخُذْ مَا تَعْرِفُ، وَدَعْ مَا تُنْكِرُ، وَعَلَيْكَ بِأَمْرِ الْخَاصَّةِ، وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ العامَّةِ»[1].

وذكر في خَبَر آخرَ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصلاة وَالسَّلَامُ قالَ: «ذَاكَ أَيَّامَ الْهَرْجِ؟ قِيْلَ: وَمَا أَيَّامُ الْهَرْجِ؟ قالَ: حِينَ لَا يَأْمَنُ الرَّجُلُ جَلِيسَهُ»[2].

= كان كثير العلم، مجتهداً في العبادة وتلاوة القرآن، وكان أكثر الناس أخذاً للحديث والعلم عن رسول الله ﷺ. شهد مع أبيه فتح الشام وتوفي سنة ٦٣ هـ حسب بعض الروايات. سير أعلام النبلاء ٣/ ٧٩.

(١) ـ أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الملاحم، بروايتين عن عبد الله بن عمرو بن العاص (٤/ ٥١٣ و ٥١٤) الحديث رقم ٤٣٤٢ والحديث رقم ٤٣٤٣.
ـ وأخرجه ابن ماجه (كتاب الفتن ٢/ ١٣٠٧) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أيضاً مع خلاف بسيط في بعض الألفاظ (الحديث رقم ٣٩٥٧).
ـ كذلك رواه السيوطي في الجامع الصغير (١/ ٨٢) عن ابن عمرو بن العاص (الحديث رقم ٦٢٦).
ـ وقد وهم الكديري في سراج الطالبين (١/ ٢١٨) فيما نقله عن ابن عبد الحق، عندما ذكر أن هذا الحديث رواه الحاكم، فرواية الحاكم هي لحديث آخر في ذكر أيام الهرج عن ابن مسعود. انظر الحديث التالي، حاشية رقم (٢) في هذه الصفحة.
ـ وذكره الغزالي في الإحياء (٢/ ٢٣٢) عن عبد الله بن عمرو بن العاص.
وقال العراقي: أخرجه أبو داود والنسائي في (اليوم والليلة) بإسناد حسن.

(٢) ـ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٤٢٧) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يُخَرّجاه. ووافقه الذهبي على صحته في تلخيص المستدرك.
وهذا الحديث رواه ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تكون فتنةٌ النائم فيها خير من المضطجع، والمضطجع فيها خير من القاعد، . . . قلت يا =

وَذَكَرَ ٱبْنُ مَسْعُودٍ[1] في خَبَرٍ آخَرَ لِلْحَارِثِ بْنِ عَمِيرَةَ[2]، أَنَّهُ قالَ: «إِنْ يُدْفَعْ عَنْ عُمْرِكَ، فَسَيَأْتِي عَلَيْكَ زَمَانٌ كَثِيرٌ خُطَبَاؤُهُ، قَلِيلٌ عُلَمَاؤُهُ، كَثِيرٌ سُؤَّالُهُ، قَلِيلٌ مُعْطُوهُ، الْهَوَى فِيهِ قَائِدُ الْعِلْمِ، قالَ: وَمَتَى ذٰلِكَ؟ قَالَ: إِذَا أُمِيتَتِ الصَّلَاةُ، وَقُبِلَتِ الرِّشَا، وَيُبَاعُ الدِّينُ بِعَرَضٍ يَسِيرٍ مِنَ الدُّنْيَا، فَالنَّجَاءَ وَيْحَكَ ثُمَّ النَّجَاءَ»[3].

= رسول الله: ومتى ذلك؟ قال: ذلك أيام الهرج، حين لا يأمن الرجل جليسه. قلت: فبم تأمرني إن أدركت ذلك الزمان؟ قال: اكفف نفسك ويدك وادخل دارك. قال: قلت: يا رسول الله: أرأيت إن دخل عليَّ داري؟ قال: فادخل بيتك. قال: قلت: أفرأيت إن دخل علي بيتي، قال: فادخل مسجدك واصنع هكذا ـ وقبض بيمينه على الكوع ـ وقل: ربِّيَ الله، حتى تموت على ذلك».

ـ وذكر الغزالي هذا الحديث في الإحياء (الفائدة الثالثة من فوائد العُزلة ٢/ ٢٣٣) قال العراقي: أخرجه أبو داود مختصراً، والخطَّابي في العزلة بتمامه، وفي إسناده عند الخطابي انقطاع، ووصله أبو داود بزيادة رجل اسمه سالم يُحتاج إلى معرفته.

(١) أبو عبد الرحمن، عبد الله بن مسعود بن غافل، من كبار الصحابة وساداتهم وفقهائهم ومقدّميهم في القرآن والفقه والفتوى. كان من السابقين الأولين. ومن النجباء العالمين شهد بدراً وهاجر الهجرتين، ومناقبه غزيرة، وروى علماً كثيراً. توفي سنة ٣٢ وقيل ٣٣ هـ في الكوفة. سير أعلام النبلاء ١/ ٤٦١.

(٢) ولد على عهد رسول الله ﷺ، وروى عن عمر وابن مسعود أحاديث، توفي سنة ٧٠ هـ.

(٣) ـ رواه ابن حنبل (٥/ ١٥٥) عن أبي ذر بلفظ آخر، وفيه: (سيأتي على الناس زمان يقلّ علماؤه ويكثُر خطباؤه).

ـ وانظر سنن أبي داود، كتاب الفتن والملاحم (٤/ ٤٥٤) (الحديث رقم ٤٢٥٥).

ـ وانظر أيضاً الجامع الصغير للسيوطي (٢/ ٢٨) الحديث رقم ٤٧٣٥، وفيض القدير (٤/ ١١٧).

قُلْتُ: وَجَمِيعُ مَا ذُكِرَ في هٰذِهِ الأَخْبَارِ تَرَاهُ بِعَيْنِكَ في زَمَانِكَ وَأَهْلِهِ، فَانْظُرْ لِنَفْسِكَ.

ثُمَّ إِنَّ السَّلَفَ الصَّالِحَ رَضِيَ اللَّهِ عَنهم، أَجْمَعُوا عَلَى التَّحْذِير مِنْ زَمَانِهِمْ وَأَهْلِه، وَآثَرُوا الْعُزْلَةَ، وَأَمَرُوا بِذٰلِكَ وَتَوَاصَوا بِهِ، وَلاَ شَكَّ أَنَّهُمْ كَانُوا أَبْصَرَ وَأَنْصَحَ، وَأَنَّ الزَّمَانَ لَمْ يَصِرْ/ بَعْدَهُمْ خَيْراً مِمَّا [١٧/ب] كَانَ بَلْ أَشَرُّ وَأَمَرُّ، وَهُو مَا ذُكِرِ عَنْ يُوسُفَ بْنِ أَسْبَاطٍ[(١)] رحمه الله أَنَّهُ قَالَ:

سَمِعْتُ الثَّوْرِيَّ[(٢)] يَقُولُ: وَاللَّهِ الَّذِي لاَ إِلٰه إِلاَّ هُوَ، لَقَدْ حَلَّتِ الْعُزْلَةَ في هٰذَا الزَّمَانِ.

قُلْتُ أَنَا: وَلَئِنْ حَلَّتْ في زَمَانِهِ، فَفِي زَمَانِنَا هٰذا وَجَبَتْ وَافْتُرِضَتْ.

وَعَنْ سُفْيَان أَيْضاً أَنَّهُ كَتَبَ إلى عَبَّادِ الخَوَّاصِ[(٣)] رَحِمَهُمَا اللَّهُ:

---

(١) أحد الزّهاد، من سادات المشايخ، له مواعظ وحكم، وقد روى عن الثوري وغيره. وقد نزل الثغور مرابطاً، وثقه ابن معين. وقال أبو حاتم: لا يحتجّ به. سير أعلام النبلاء ٩/ ١٦٩.

(٢) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي، كان إماماً في علم الحديث وغيره من العلوم، وهو من تابعي التابعين. أجمع الناس على دينه وورعه وزهده وثقته، وهو أحد الأئمة المجتهدين، ولد سنة ٩٧ هـ، توفي بالبصرة سنة ١٦١ هـ. سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٢٩.

(٣) عبّاد بن الخَوّاص، أبو عبيدة، من الزهّاد، المعروفين بكثرة البكاء خشية وورعاً. روى عن الأوزاعي حديثاً. كان شديد الحب لله تعالى يتشوق إلى لقائه ويطلب ذلك.
انظر ترجمته وأخباره في:
صفة الصفوة ٤/ ٢٧٥ (تر ٨٠٠)، وحلية الأولياء ٨/ ٢٨٢.

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّكَ في زَمَان كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ ورضي عنهم يَتَعَوَّذُونَ بِاللَّهِ مِنْ أَنْ يُدْرِكُوهُ، فِيمَا بَلَغَنَا، وَلَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَيْسَ لَنَا، فَكَيْفَ بِنَا حِينَ أَدْرَكْنَاهُ عَلَى قِلَّةِ عِلْمٍ، وَقِلَّة صَبْرٍ، وَقِلَّةِ أَعْوَانٍ عَلَى خَيْرٍ، وَكَدَرٍ مِنَ الدُّنْيَا وَفَسَادٍ مِنَ النَّاس؟ فَإِنَّ عُمَر بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: «في الْعُزْلَةِ رَاحَةٌ من خُلَطَاءِ السُّوءِ».

وَفي مِثْلِ هٰذَا قِيلَ: [البسيط]:

هٰـذَا الـزَّمَـانُ الَّـذِي كُنَّـا نُحَـاذِرُهُ ... في قَوْلِ كَعْبٍ وَفي قَوْلِ ٱبْنِ مَسْعُودِ

دَهْـرٌ بِـهِ الْحَـقُّ مَـرْدُودٌ بِـأَجْمَعِـهِ ... وَالظُّلْـمُ وَالْبَغْـيُ فِيـهِ غَيْـرُ مَـرْدُودِ

(أَعْمَـى أَصَـمُّ مِـنَ الأَزْمَـانِ مُلْتَبِـسٌ ... فِيهِ لِإِبْلِيسَ تَصْوِيبٌ وَتَصْعِيدُ)[1]

إِنْ دَامَ هـذَا وَلَـمْ يَحْـدُثْ لَـهُ حَـدَثٌ ... لَـمْ يُبْـكَ مَيـتٌ وَلَـمْ يُفْـرَحْ بِمَـوْلُـودِ

وَلَقَـدْ وَجَـدْتُ عَـنْ سُفْيَـانَ بْـنِ عُيَيْنَـة[2] أَنَّـهُ قَـالَ: قُلْـتُ لِلثَّـوْرِيِّ أَوْصِنِي، فَقالَ: أَقْلِلْ مِنْ مَعْرِفَةِ النَّاس، قُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، أَلَيْسَ قَدْ جَاءَ فِي الْخَبَرِ: «أَكْثِرُوا مِن مَعْرِفَةِ المؤمنينِ فَإِنَّ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ شَفَاعَةً»[3] قالَ: لاَ أَحْسِبُكَ رَأَيْتَ قَطُّ مَا تَكْرَهُ إِلاّ مِمَّنْ تَعْرِفُ، قُلْتُ:

---

(١) ساقط من الأصل، مثبت في باقي النسخ.

(٢) الإمام الكبير وشيخ الإسلام أبو محمد سفيان بن عيينة الهلالي الكوفي ثم المكي، من تابعي التابعين. وقد اتفق العلماء على جلالته وعظم مرتبته. ولد سنة ١٠٧ هـ وطلب الحديث وهو حدَث، ولقي الكبار وحمل عنهم علماً جماً وأتقن وجوّد، وجمع وصنّف، وعمّر دهراً وازدحم الخلق عليه، وانتهى إليه علوّ الإسناد وقد مات سنة ثمان وتسعين ومئة. سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٠٠.

(٣) ــ أخرج الحاكم في تاريخه عن أنس (أكثروا من المعارف من المؤمنين، فإن لكل مؤمن شفاعة عند الله يوم القيامة) عن (سراج الطالبين ١/ ٢٢٥).

ــ وأحاديث الشفاعة كثيرة في كتب الحديث، منها ما رواه ابن حنبل (٣/ ٢٠، =

أَجَلْ. ثُمَّ مَاتَ، فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ فِي المَنَامِ بِحُجَجٍ، فَقُلْتُ: أَبَا عَبْدَ اللَّهِ أَوْصِنِي، فَقَالَ: «أَقْلِلْ مِنْ مَعْرِفَةِ النَّاسِ مَا ٱسْتَطَعْتَ، فَإِنَّ المُخْلِصَ مِنْهُمْ شَدِيدٌ»[١].

وَقَدْ قِيلَ فِي مَعْنَى هٰذَا الْخَبَرِ: [الطويل]:

وَمَا زِلْتُ مُذْ لاَحَ المشِيبُ بِمَفْرِقِي ... أُفَتِّشُ عَن هٰـذَا الْـوَرَى وأُكَشِّـفُ
فَمَا أنْ عَرَفْتُ النَّاس إلاَّ ذَمَمْتُهُمْ ... جَزَى ٱللَّهُ خَيْراً كُلَّ مَنْ لَسْتُ أعْرِفُ
وَمَا لِيَ ذَنْبٌ أَسْتَحِقُّ بِهِ الْجَفَا ... سِوَى أَنَّنِي أَحْبَبْتُ مَنْ لَيْسَ يُنْصِفُ

قَالَ[٢]: وَقِيلَ كُتِبَ عَلَى بَابِهِ[٣]: جَزَى ٱللَّهُ مَنْ لاَ يَعْرِفُنَا خَيْراً، وَلاَ جَزَى بِذٰلِكَ أَصْدِقَاءَنَا، فَمَا أُوذِينَا قَطُّ إِلاَّ مِنْهُم، وَأَنْشَدُوا فِي ذلك: [الطويل]:

جَزَى اللَّهُ عَنَّا الْخَيْرَ مَنْ لَيْسَ بَيْنَنَا ... وَلاَ بَيْنَـهُ وُدٌّ وَلاَ نَتَعَـارَفُ
فَمَا صَابَنَا هَمٌّ وَلاَ نَالَنَا أَذًى ... مِنَ النَّاسِ إلاَّ مَنْ نَوَدُّ وَنَعْرِفُ

وقَالَ الْفُضَيْلُ[٤] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هٰذَا زَمَانٌ ٱحْفَظْ فيهِ لِسَانَكَ، وَٱخْفِ

= ٦٣، ٤٦٩) كقوله ﷺ: «... وإن الرجل ليشفع للفئام من الناس فيدخلون الجنة، وإن الرجل ليشفع للقبيلة، وإن الرجل ليشفع للعصبة، وإن الرجل ليشفع للثلاثة وللرجلين وللرجل».

ـ وانظر الدارمي (٢/ ٣٢٧) باب في الشفاعة، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٠).

(١) ذكره أبو نعيم في الحلية (٧/ ٢٨٩).

(٢) أي سفيان بن عيينة.

(٣) بابه: أي باب دار سفيان الثوري.

(٤) أبو علي الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي اليربوعي الزاهد، ولد بسمرقند، ونشأ بأبيورد، وكتب الحديث بالكوفة، ثم تحوّل إلى مكة، فاستوطنها، حتى توفي سنة ١٨٧ هـ. وقد أجمع العلماء، على توثيقه =

مَكَانَكَ، وَعَالِجْ قَلْبَكَ، وَخُذْ مَا تَعْرِفُ، وَدَعْ مَا تُنْكِرُ. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ [١٨/أ] رحمه الله: هٰذَا زَمَانُ السُّكُوتِ وَلُزُوم الْبُيُوتِ وَالرِّضَا بِالْقُوتِ/ إِلَى أَنْ تَمُوتَ.

وَعَنْ دَاوُدَ الطَّائِيِّ[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: صُمْ عَنِ الدُّنْيَا، وَاجْعَلْ فِطْرَكَ الآخِرَةَ، وَفِرَّ مِنَ النَّاسِ فِرَارَكَ مِنَ الأَسَدِ.

وَعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ[٢]: مَا رَأَيْتُ حَكِيماً قَطُّ إِلَّا قَالَ فِي عَقِبِ كلَامِهِ: إِنْ أَحْبَبْتَ أن لا تُعْرَفَ، فَأَنْتَ مِنَ ٱللَّهِ عَلَى بَالٍ.

وَالأَخْبَارُ فِي هٰذَا الْبَابِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يَحْتَمِلَه هٰذَا الْكِتَابُ؛ وَقَدْ صَنَّفْنَا فِيهِ كِتاباً مُفْرَداً سَمَّيْنَاهُ: «كِتَابَ أَخْلَاقِ الأَبْرَارِ وَالنَّجَاةِ مِنَ

= والاحتجاج به وصلاحه وزهده وورعه. وكان الفضيل شاطراً بقطع الطريق ثم تاب. سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٧٢.

(١) هو أبو سليمان داود بن نصير الطائي الكوفي.
الإمام الفقيه القدوة الزاهد، أحد الأولياء، ولد بعد المائة بسنوات. كان من كبار أئمة الفقه والرأي، برع في العلم بأبي حنيفة، ثم أقبل على شأنه ولزم الصمت وَفرّ بدينه. وكان الثوري يُعَظّمه ويقول: أبصر داود أمره. مات سنة اثنتين وستين ومئة. وقيل سنة خمس وستين. سير أعلام النبلاء ٧/ ٤٣٢.

(٢) الإمام الحافظ المجتهد ذو الفنون، أبو عبيد القاسم بن سلّام بن عبد الله، وهو معدود فيمن أَخذوا الفقه عن الشافعي، وكان إماماً بارعاً في علوم كثيرة منها التفسير والقراءة والحديث والفقه واللغة والنحو والتاريخ. توفّي بمكة سنة ٢٢٢ هـ، وقد عاش ٦٧ سنة.
وقيل عنه: كان أبو عبيد فاضلاً في دينه وفي علمه، مفنناً في أصناف علوم الإسلام من القرآن والفقه والعربية والأخبار حسن الرواية، صحيح النقل لم يطعن عليه أحد شيء من أمره ودينه. سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٩٠.

الأَشْرَارِ» فَقِفْ عَلَيْهِ تَرَى الْعَجَبَ الْعُجَابَ، وَالْعَاقِلُ تَكْفِيهِ إِشَارَةٌ، وَٱللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ، وَالْهِدَايَةُ بِفَضْلِهِ.

وَأَمَّا **الْخَصْلَةُ الثَّانِيَةُ**[1] الَّتِي تَقْتَضِي التَّفَرُّدَ عَنِ النَّاسِ فِي هٰذَا الشَّأْنِ: **فَإِنَّ النَّاسَ يُفْسِدُونَ عَلَيْكَ مَا يَحْصُلُ لَكَ مِنَ الْعِبَادَةِ**، إِنْ لَمْ يَعْصِمِ ٱللَّهُ سُبْحَانَهُ وتعالى بِسَبَبِ ما يَعْرِضُ مِنْ قِبَلِهِمْ مِنْ دَوَاعِي الرِّيَاءِ وَالتَّزَيُّنِ. وَلَقَدْ صَدَقَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ حَيْثُ قَالَ: «رُؤْيَةُ النَّاسِ بِسَاطُ الرِّيَاءِ». وَهٰؤُلَاءِ الزُّهَّادُ قَدْ خَافُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ هٰذَا الْمَعْنَى حَتَّى تَرَكُوا الْمُلَاقَاةَ وَالتَّزَاوُرَ.

وَلَقَدْ ذُكِرَ عَنْ هَرِمَ بْنِ حَيَّانَ[2] أَنَّهُ قَالَ لِأُوَيْسٍ الْقَرَنِيِّ[3] رَحِمَهُمَا اللَّهُ: يَا أُوَيْسُ، صِلْنَا بِالزِّيَارَةِ وَاللِّقَاءِ، فَقَالَ أُوَيْسٌ قَدْ وَصَلْتُكَ بِمَا هُوَ أَنْفَعُ لَكَ مِنْهُمَا، وَهُوَ الدُّعَاءُ عَلَى ظَهْرِ الْغَيْبِ، لِأَنَّ الزِّيَارَةَ وَاللِّقَاءَ يَعْرِضُ فِيهِمَا التَّزَيُّنُ وَالرِّيَاءُ.

وَقِيلَ لِسُلَيْمَانَ الْخَوَّاصِ[4]: قَدِمَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ[5] أَفَلَا تَأْتِيهِ؟

---

(١) وردت الخصلة الأولى ص ١٠٥.

(٢) أحد الأولياء المشهورين، وأحد العابدين، حدّث عن عمر وروى عنه الحسن البصري وغيره. وليَ بعض الحروب في أيام عمر وعثمان ببلاد فارس. قال ابن سعد: كان عاملاً لعمر، وكان ثقة، له فضل وعبادة. سير أعلام النبلاء ٤/ ٨٤.

(٣) هو أويس بن عامر القرني (محرّكة) روى له مسلم قصة مختصرة في آخر صحيحه. وهو سيد التابعين: قتل بصفّين. وكان يسكن الكوفة. سير أعلام النبلاء ٤/ ١٩.

(٤) من زهاد القرن الثاني للهجرة، كان مشغولاً بالعبادة، وهو من العابدين الكبار بالشام، سكن بيروت. وكان مجلس الإمام الأوزاعي يضمّه هو ومحمد بن يوسف وسعيد بن عبد العزيز. سير أعلام النبلاء ٨/ ١٥٩.

(٥) إبراهيم بن أدهم بن منصور، من كورة بلخ، القدوة الإمام العارف، سيّد الزهاد. =

فقَالَ لأَنْ أَلْقى شَيْطَاناً مَارداً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لِقَائِه، فَاسْتَنْكَرُوا ذٰلكَ مِنْ قَوْلِهِ، فقَالَ: إِنِّي إِذَا لَقِيتُهُ أَخَافُ أَنْ أَتزَيَّنَ، وَإِذَا لَقِيتُ شَيْطَاناً أَمْتنع مِنْهُ.

وَلَقَدْ لَقِيَ شَيْخِي الإِمَامُ[1] بَعْضَ الْعَارِفِينَ، فتَذَاكَرَا مَلِيًّا ثُمَّ دَعَوا في آخرِ حَدِيثهِمَا، فقَالَ شَيْخِي للعارِفِ: ما أَظُنَّني جَلَسْتُ مَجْلساً أَنَا له أَرْجَى مِنْ مَجْلِسِي هٰذَا، فقَالَ لَهُ الْعَارِفُ: لَكنِّي ما جَلَسْت مَجْلساً أَنَا لَهُ أَخْوفُ مِنْ مَجْلِسِي هٰذَا، أَلَسْتَ تَعْمدُ إِلَى أَحْسَنِ حَدِيثِكَ وَعُلَومِكَ فَتُحَدِّثُني بِهَا وَتُظْهِرُهَا بَيْنَ يَدَيَّ؟ وَأَنَا كَذٰلِكَ، فَقَدْ وَقَعَ الرِّيَاءُ والتزيّن؛ فَبَكَى شَيْخِي الإِمَامُ مَلِيّاً، ثُمَّ غُشِيَ عَلَيْهِ. وَكانَ بَعْدَ ذٰلِكَ يَتَمَثَّلُ بِهٰذِهِ الأَبْيَاتِ: /[السريع]: [١٨/ب]

يَـا وَيْلَتَـا مِـنْ مَـوقـفٍ مـا بِـهِ ... أَخْـوَفُ مـن أن يَعْـدِلَ الْحَـاكِـمُ

أُبَـارِزُ اللـهَ بِعِصْيَـانِـهِ ... وَلَيْـسَ لِـي مِـنْ دُونـه رَاحِـمُ

يَـا رَبِّ عَفْـواً مِنْـكَ عَـنْ مُـذْنِـبٍ ... أَسْـرَفَ إِلاَّ أَنَّـهُ نَـادِمُ

(يَقُـولُ فـي اللَّيْـلِ إِذَا مَـا دَجَـى ... آهـاً لِـذَنْـبٍ سَتَـرَ الْعَـالِـمُ)[2]

فَهٰذِهِ حَالُ أَهْلِ الزُّهْدِ وَالرِّيَاضَةِ في مُلاَقَاتِهِمْ، فَكَيْفَ حَالُ أَهْلِ الرَّغْبَةِ وَالبَطَالَةِ، بَلْ حَالُ أَهْلِ الشَّرِّ وَالجَهَالَةِ؟

وٱعْلَم أَنَّ الزَّمَانَ قَدْ أَصْبَحَ في فَسَادٍ عَظِيم، وَأَصْبَحَ النَّاسُ فِي

= كان ورعاً، وهو من رجال الصوفية الأوائل، صحب سفيان الثوري، والفُضَيْل بن عياض بعد أن ترك الدنيا وزينتها ورجع إلى طريقة أهل الزهد والورع. وتوفي سنة اثنتين وستين ومئة. سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٨٧.

(١) هو أبو بكر الورّاق.

(٢) زيادة من (د) و (هـ).

ضُرٌّ كَثِيرٍ، فَإِنَّهُمْ يُشْغِلُونَكَ عَنْ عِبَادِةِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ حَتَّى لَا يَكَادُ يَحْصُلُ لَكَ مِنْهَا شَيْءٌ؛ ثُمَّ يُفْسِدُونَ عَلَيْكَ مَا حَصَلَ لَكَ، حَتَّى لَا يَكَادُ يَسْلَم لَكَ مِنْهَا شَيْءٌ. فَلَزِمَتْكَ ٱلْعُزْلَةُ وَالتفَرُّدُ عَنِ النَّاس، وَالإِسْتِعَاذَةُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هٰذَا الزَّمَانِ وَأَهْلِه، وَاللَّهُ تَعَالَى الحَافِظُ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ.

حكم العزلة

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا حُكْمُ الْعُزْلَةِ وَالتَّفَرُّدِ عَنِ النَّاسِ؟ فَبيِّنْ لَنَا، يرحمك الله، حَالَ طَبقَاتِ الْخلقِ فِيهَا، وَالْحَدّ الَّذِي يَجِبُ مِنْهَا.

فَاعْلَمْ رَحِمَكَ اللَّهُ وَإِيَّانَا أَنَّ النَّاسَ فِي هٰذَا الْبَابِ رَجُلَانِ:

طُرق العُزْلة

ـ **رَجُلٌ لَا حَاجَةَ بِالْخَلْقِ إِلَيْهِ فِي عِلْمٍ وَبَيَانِ حُكْمٍ**، فالأَوْلَى بِهٰذَا الرَّجُلِ التَّفَرُّدُ عَنِ النَّاس، فَلَا يُخَالِطُهُمْ إِلَّا في جُمعةٍ أَوْ جَمَاعَةٍ أَوْ عِيدٍ أَوْ حجٍّ أَوْ مَجْلِس عِلْم بِالسُّنَّة، أَوْ حَاجَةٍ في مَعِيشَةٍ لَا بُدَّ مِنْ ذٰلِكَ ولا يُعرف، وَإِلَّا فَيُوَارِي شَخْصَهُ، وَيَلْزَمُ مسكنه، لَا يَعْرِفُ وَلَا يُعْرَفُ. فَأَمَّا إِنْ أَحبَّ هٰذَا الرَّجُلُ أَنْ يَنْقَطِعَ عَنِ النَّاس، فَلَا يُخَالِطْهُمْ في أَمْرٍ مِنَ الأُمُورِ أَلْبَتَّةَ، مِنْ دِينٍ ودُنْيا وَجَمَاعَةٍ وَجُمَعَةٍ وغَيْرِهَا، لِمَا يَرىٰ لَهُ فِي ذٰلِكَ مِنْ مَصْلَحَتِهِ وَفَرَاغِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَسَعُهُ ذٰلِكَ إِلَّا بِأَحَدِ أَمْرَيْنِ:

ـ إما أن يصير إلى مَوْضِعٍ لا يَلْزَمُهُ هُنَالِكَ هٰذِهِ الفرائِضُ، كَرُءُوس الْجِبَالِ وَبُطُونِ الأَوْدِيَةِ وَنَحْوِها؛ وَلَعَلَّ هٰذَا أَحَدُ الْوُجُوهِ الَّتِي دَعَتِ العُبَّادَ إِلَى تِلْكَ المَوَاضِعِ الْبَعِيدَةِ عَنِ النَّاسِ.

ـ وَإِمَّا أَنْ يَتيَقَّنَ بالْحَقِيقَةِ أَنَّ الضَّرَرَ الَّذِي يَلْحَقُهُ في مُخَالَطَةِ النَّاس بِسَبَبِ هٰذِهِ الْفُرُوضِ أَعْظَمُ مِنْ تَرْكِهَا؛ فَحِينَئِذٍ يَكُونَ لَهُ عُذْرٌ في ذَلك.

[١٩/أ] وَلَقَدْ رَأَيْتُ أَنَا بِمَكَّةَ حَرَسَهَا اللَّهُ تعالى/ بَعْضَ الْمَشَايِخِ الْمُنْفَرِدِينَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَهُوَ لَا يَحْضُرُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ فِي الْجماعة، مَعَ قُرْبِهِ مِنْهُ وَسَلَامَةِ حَالِهِ، فَحَاوَرْتُهُ في ذٰلِكَ يَوْماً في حَالِ تَرَدُّدِي إِلَيْهِ فذَكَرَ مِنْ عُذْرِهِ مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ، وَهُوَ أَنَّ مَا يجده مِنَ الثَّوَابِ لَا يَفِي بما يَلْحَقُهُ مِنَ الآثَامِ وَالتَّبِعَاتِ في الْخُرُوجِ إلى الْمَسْجِدِ وَلِقاءِ النَّاس.

قُلْتُ أَنَا: وَجُمْلَةُ الأُمُورِ فَلا عُتْبَ عَلَى الْمَعْذُورِ، وَٱللَّهُ تعالى أولى بِالْعُذْرِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ. وَلٰكِنَّ الطَّرِيقَ الْعَدْلَ فِيهِ هُوَ الأَوَّلُ؛ بِأَنْ يُشارِكَ النَّاسَ في الْجُمُعَةِ وَالجَمَاعَاتِ وَضُرُوبِ الْخَيْرَاتِ، وَيُبَايِنَهُمْ فِيمَا سِوَى ذٰلِكَ.

فَإِنْ أَحَبَّ الطَّرِيقَ الثَّانِيَ، بِأَنْ يَنْقَطِعَ عَنِ النَّاسِ بِمَرَّةٍ، فَسَبِيلُهُ الْخُرُوجُ إلى مَوَاضِعَ لَا تَتَوَجَّهُ عَلَيْهِ هٰذِهِ الْفُرُوضُ فيها.

ثم إِنَّ الطَّرِيقَ الثَّالِثَ أَنْ يَكُونَ مَعَ النَّاسِ فِي مِصْرٍ وَاحِدٍ، وَلَا يَحْضُر جُمُعَةً وَلا جَمَاعَةً، لِعُذْرٍ يَرَاهُ فِي ذٰلِكَ، مِنْ وِزْرٍ أَوْ تبعَةٍ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى نَظَرٍ دَقِيقٍ وَعَوَارِضَ عَظِيمَةٍ، حَتَّى يَسْقُطَ ذٰلِكَ عَنْهُ، وَفِيهِ خَطَرٌ مِنَ الْغَلَطِ، فَالأَوَّلَانِ أَسْلَمُ وَأَحْفَظُ لَهُ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْهِدَايَةِ بِفَضْلِهِ.

وَأَمَّا الرَّجُلُ الثَّانِي: فَرَجُلٌ يَكُونُ قُدْوَةً فِي الْعِلْمِ، بِحَيْثُ يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِي أَمْرِ دِينِهِمْ، لِبَيَانِ حَقٍّ أَوْ رَدٍّ عَلَى مُبْتَدِعٍ، أَوْ دَعوَةٍ إِلَى خَيْرٍ بِفعْلٍ أَوْ بِقَوْلٍ أَوْ نَحْوِ ذٰلِكَ، فَلَا يَسَعُ هٰذَا الرَّجُلَ الإِعْتِزَالُ عَنِ النَّاسِ بَلْ يَنْصِبُ نَفْسَهُ بَيْنَهُمْ، نَاصِحاً لِخَلْقِ اللَّهِ تَعَالى، ذَابّاً عَنْ

دِيـنِ اللَّـهِ تَعَـالـى، مُبَيِّنـاً لأَحْكَـامِ اللَّـهِ تعـالـى، فَلَـقَـدْ رَوَيْنَـا عَـنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:

«إِذَا ظَهَرَتِ الْبِدَعُ وَسَكَتَ الْعَالِمُ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ»[1] هٰذَا إِذَا كَانَ بَيْنَهُمْ، وإِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْنِهِمْ فَلَا يَجُوزُ لَهُ أَيْضاً الإِعْتِزَالُ[2].

فَلَقَدْ حُكِيَ أَنَّ الأُسْتَاذَ أَبَا بَكْرِ بْنَ فَوْرَك[3] رَحِمَهُ اللَّهُ، قَصَدَ أَنْ يَنْفَرِدَ لِعِبَادَةِ اللَّهِ تَعالى عَنِ الخلق، فَبَيْنَمَا هُوَ في بَعْضِ الْجِبالِ، إِذْ سَمِعَ صَوْتاً يُنادِي: يَا أَبَا بَكْرٍ، إِذْ صِرْتَ مِنْ حُجَجِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، تَرَكْتَ عِبادَ اللَّهِ تعالى؟! فَرَجَعَ. وَكَانَ هٰذَا سَبَبَ صُحْبَتِهِ لِلْخَلْقِ.

وَذَكَـرَ لِـي مَـأْمُـونُ بـن/ أَحْمَـدَ[4] أَنَّ الأُسْتَـاذ أَبَـا إِسْحَـاقَ [١٩/ب]

---

(١) ورد هذا الحديث في الجامع الصغير للسيوطي (١/٩٩) (الحديث رقم ٧٥١) بلفظ: (إذا ظهرت البدع، ولعن آخر هذه الأمة أولها، فمن كان عنده علم فلينشره، فإن كاتم العلم يومئذ ككاتم ما أنزل الله على محمد) قال السيوطي: رواه ابن عساكر عن معاذ. وذكر أنه حديث ضعيف، وذكره الألباني في ضعيف الجامع الصغير (١/ ٢٠٥) (رقم الحديث ٦٨٨) وأشار إلى أن رقمه في الأحاديث الضعيفة هو (١٥٠٦).
ـ ورواه أيضاً الديلمي عن ابن عساكر بلفظ: (إذا ظهرت البدع في أمتي وشُتِمَ أصحابي فليُظْهِر العالم علمه، فإن لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله).
ـ وراجع المناوي، فيض القدير (١/٤٠٢) في شرح الحديث رقم ٧٥١.

(٢) في الأصل، ذلك، والتصحيح في باقي النسخ.

(٣) الإمام العلامة الصالح، شيخ المتكلمين أبو بكر، محمد بن الحسن بن فورك الأصبهاني الأصولي، والأديب النحوي الواعظ. بلغت مصنفاته في أصول الفقه والدين ومعاني القرآن قريباً من مائة مصنف. وكانت وفاته سنة ٤٠٦ هـ ودفن بالحيرة. سير أعلام النبلاء ١٧/ ٢١٤.

(٤) لم نعثر على ترجمته.

رَحِمَهُمَا اللَّهُ قالَ لِعُبَّادِ جَبَلِ لُبْنَانَ: يَا أَكَلَةَ الْحَشِيشِ، تَرَكْتُمْ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ في أَيْدِي الْمُبْتَدِعَةِ وَاشْتَغَلْتُمْ هَا هُنَا بِأَكْلِ الْحَشِيشِ؟ قَالُوا له:

لاَ نَقْوَى عَلَى صُحْبَةِ النَّاسِ، وَإِنَّمَا أَعْطَاكَ اللَّهُ قُوَّةً فَلَزِمَكَ ذٰلِكَ. فَصَنَّفَ بَعْدَ ذٰلِكَ كِتَابَهُ: «الْجَامِعَ لِلْجَلِيِّ وَالْخَفِيِّ». وَكَانَ لَهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مَعَ غَزَارَةِ العلم، الْعَمَلُ الْجَمُّ، وَالنَّظَرُ الدَّقِيقُ فِي سُلُوكِ طَرِيقِ الآخِرَةِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ مثلَ هٰذَا الرَّجُلِ الْمُحْتَاجِ إِلَيْهِ النَّاسُ في طَرْقِ بَابِ الدِّينِ، يَحْتَاجُ في صُحْبَةِ الْخَلْقِ إِلَى أَمْرَيْنِ شَدِيدَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: صَبْرٌ طَوِيل وَحِلْمٌ عَظِيمٌ وَنَظَرٌ لَطِيفٌ وَٱسْتِعَانَةٌ بِاللَّهِ تَعَالى دَائِمَةٌ.

وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ في هٰذَا الْمَعْنَى مُنْفَرِداً عَنْهُمْ وَإِنْ كَانَ بِالشَّخْصِ مَعَهُمْ[1]، فَإِنْ كَلَّمُوهُ كَلَّمَهُمْ، وَإِنْ زَارُوهُ عَظَّمَهُمْ عَلَى قَدْرِهِمْ وَشَكَرَهُمْ، وَإِنْ سَكَتُوا عَنْهُ وَأَعْرَضُوا عَنْهُ ٱسْتَغْنَمَ ذٰلِكَ مِنْهُمْ، وَإِنْ كَانُوا في حَقٍّ وَخَيْرٍ سَاعَدَهُمْ، وَإِنْ صَارُوا إِلَى لَغْوٍ وَشَرٍّ خَالَفَهُمْ وَهَجَرَهُمْ، بَلْ رَدَّ عَلَيْهِمْ وَهَجَرَهُمْ إِنِ رَجَا قَبُولَهُمْ؛ ثُمَّ يَقُومُ بِجَمِيعِ حُقُوقِهِمْ مِنَ الزِّيَارَاتِ وَالْعِيَادَاتِ وَقَضاءِ الْحَاجَاتِ، التي تُرْفَعُ إِلَيْهِ، مَا أَمْكَنَهُ، وَلاَ يُطَالِبُهُمْ بِالْمُكَافَآتِ، وَلاَ يَرْجُو ذٰلِكَ مِنْهُمْ، وَلاَ يُرِيهِمْ مِنْ نَفْسه اسْتِيحَاشاً لِذٰلِكَ، وَيُبَاسِطُهُمْ بِالْبَذْلِ إِذَا قَدَرَ، وَيَنْقَبِضُ عَنْهُمْ فِي الأَخْذِ إِنْ أُعْطِيَ، وَيَتَحَمَّلُ مِنْهُمُ الأَذَى، وَيُظْهِرُ لَهُمُ الْبِشْرَ،

---

(١) أي منفرداً بقلبه عن الناس وإن كان بالجسد معهم.

وَيَتَجَمَّلُ لَهُمْ بِظَاهِرِهِ، وَيَكْتُمُ حَاجَاتِهِ عَنْهُمْ، فَيُقَاسِيهَا بِنَفْسِهِ، وَيُعَالِجُها في سِرِّهِ وَبَاطِنِهِ؛ ثُمَّ يَحْتَاجُ مَعَ ذٰلِكَ أَنْ يَنْظُرَ لِنفْسِهِ خَاصَّةً، فَيَجْعَلَ لَها حَظّاً مِنَ الْعِبَادَةِ الْخَالِصَةِ، كَمَا قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنْ نِمْتُ ٱللَّيْلَ لأُضَيِّعَنَّ نَفْسِي، وَإِنْ نِمْتُ النَّهَارَ لأُضَيِّعَنَّ الرَّعِيَّةَ، فَكَيْفَ لِي بِالنَّوْمِ بَيْنَ هَاتَيْنِ؟».

وَفِي هٰذَا الْمَعْنَى عَرَضَ لِي أَبْيَاتٌ مِنَ الشِّعْرِ، وَهِيَ:

[الطويل]:

فَإِنَّ كُنْتَ في هَدْيِ الأَئِمَّةِ رَاغِباً ... فَوَطِّنْ عَلَى أَنْ ترتكيك الوَقَائِعُ[1]

بِنَفْسٍ وَقُورٍ عِنْدَ كُلِّ كَرِيهَةٍ ... وَقَلْبٍ صَبُورٍ وَهُوَ في الصَّدْرِ مَايِعُ/ [٢٠/أ]

لِسَانُكَ مَخْزُونٌ وَطَرْفُكَ مُلْجَمٌ ... وَسِرُّكَ مَكْتُومٌ لَدَى الرَّبِّ ذَائِعُ

وَذِكْرُكَ مَغْمُورٌ وَبَابُكَ مُغْلَقٌ ... وَثَغْرُكَ بَسَّامٌ، وَبَطْنُكَ جَائِعُ

وَقَلْبُكَ مَجْرُوحٌ وَسُوقُكَ كَاسِدٌ ... وَفَضْلُكَ مَدْفُونٌ وَطَعْنُكَ شَائِعُ

وَفي كُلِّ يَوْمٍ أَنْتَ جَارِعُ غُصَّةٍ ... مِنَ ٱلدَّهْرِ و الإِخْوَانِ وَالْقَلْبُ طَائِعُ

نَهَارُكَ شُغْلُ النَّاسِ مِنْ غَيْرِ مِنَّةٍ ... وَلَيْلُكَ شَوْقٌ غَابَ عَنْهُ الطَّلَائِعُ

فَدُونَكَ هٰذَا اللَّيْلُ خُذْهُ ذَرِيعَةً ... لِيَوْمٍ عَبُوسٍ عَزَّ فِيهِ الذَّرَائِعُ

نَعَمْ، يَكُونُ بِالنَّفْسِ مَعَهُمْ، وَبِالْقَلْبِ مَا أَبْعَدَهُ عَنْهُمْ! وَذٰلِكَ لَعَمْرِي أَمْرٌ شَدِيدٌ وَعَيْشٌ نَكِدٌ، وَفِيهِ يَقُولُ شَيْخُنَا رَحْمَةُ اللَّهُ عليه في وَصِيَّتِهِ:

يَا بُنَيَّ، عِشْ في أَهْلِ زَمَانِكَ وَلاَ تَقْتَدِ بِهِمْ، ثُمَّ قَالَ: مَا أَشَدَّ هٰذَا الْعَيْشَ مَعَ الأَحْيَاءِ وَالاقْتِدَاءَ بِالأَمْوَاتِ.

---

(١) أي: هَيِّئْ نفسك واستعدّ لاستقبال المصائب والمصاعب.

وَعَنِ ٱبْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «خَالِطِ النَّاسَ وَزَايِلْهُمْ وَدِينُكَ لاَ تَكْلُمَنَّهُ»[1]، فَهٰذِهِ نُكْتَةٌ مُقْنِعَةٌ إن شاء الله تعالى.

حكم العزلة

ثُمّ أَقُولُ: إِذَا مَاجَ الْفِتَنُ بَعْضُهَا في بَعْضٍ، وَتَرَاجَعَ الأَمْرُ، وَوَلَّى النَّاسُ عَنْ أَمْرِ الدِّينِ مُدْبِرِينَ، لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً، وَلاَ يَطْلُبُونَ عَالِماً، وَلاَ يَرْمُقُونَ مُفِيداً، وَلاَ يَعْنِيهِمْ أَمْرُ دِينِهِمْ أَلْبَتَّةَ، وَتَرَى الْفِتْنَةَ قائمة تَعُمُّ الْعَامَّةَ، وَتَدِبُّ إِلَى الْخَاصَّةِ، فَلِلْعَالِمِ الْعُذْرُ في الْعُزْلَةِ وَالتَّفَرُّدِ وَدَفْنِ الْعِلْمِ، وَأَخَافُ أَنْ يكون مَا ذَكَرْنَاهُ هُوَ الزَّمَانُ النَّكِدُ الصَّعْبُ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ، وَعَلَيْهِ التُّكلانُ، فَهٰذَا حُكْمُ الْعُزْلَةِ وَالتَّفَرُّدِ عَنِ النَّاسِ، فَافْهَمْهُ، فَإِنَّ الْغَلَطَ فِيه عَظِيمٌ، وَضَرَرَهُ كَثِيرٌ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ..

مناقشة هذا الحكم

فَإِنْ قِيلَ: أَلَيْسَ النَّبِيُّ ﷺ يقول: «عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، فَإِنَّ يَدَ ٱللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ»[2]، «وَإِنَّ الشَّيْطَانَ ذِئْبُ الإِنْسَانِ، يَأْخُذُ الشَّاذَّةَ

---

(١) أي خالط الناس دون أن يحصل في دينك خلل من ذلك. وهذا الأثر رواه الطبراني في الكبير بلفظ: «خالطوا الناس وصافوهم بما يشتهون، ودينكم فلا يَكْلُمُنَّهُ».

(٢) ــ ذكره السيوطي في الجامع الصغير (٢/ ٦٥٥) عن ابن عباس بلفظ: (يد الله مع الجماعة) (الحديث رقم ١٠٠٠٤) وذكر المناوي في فيض القدير (٦/ ٤٥٩) أنه في رواية أخرى (مع الجماعة). وكلام المصنف (أي السيوطي) أن هذا هو الحديث بتمامه، والأمر بخلافه، بل بقّيته عند مخرجه الترمذي (من شذّ شذّ إلى النار).

ــ ورواه الطبراني بلفظ: (يد الله مع الجماعة، والشيطان مع من خالف يركض) ورجاله كما قال الهيثمي ثقات.

ــ ورواه الترمذي في الفتن عن ابن عباس وقال: غريب لا نعرفه عن ابن عباس =

وَالْفَاذَّةَ، وَالنَّاحِيَةَ وَالْقَاصِيَةَ»[1] وَقَالَ عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْفَذِّ، وَهُوَ مِنَ الإِثْنَيْنِ أَبْعَدُ»[2].

= إلا من هذا الوجه، وقد رمز المصنف لحسنه، قال ابن حجر: لكن له شواهد كثيرة منها موقوف صحيح.

(١) رواه أحمد بن حنبل (٥/ ٢٣٢) عن معاذ بن جبل بلفظ: (إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم، يأخذ الشاة، القاصية والناحية، فإياكم والشعاب، وعليكم بالجماعة والعامة، والمسجد).

ـ وأورده السيوطي في الجامع الصغير (١/ ٢٧١) وحسّنه (الحديث رقم ٢٠٢٢)، وذكره المناوي في فيض القدير (٢/ ٣٥٠) بلفظه، ونقل عن الحافظ العراقي أن رجاله ثقات إلا أن فيه انقطاعاً. وأضاف المناوي: وبيّنه تلميذه الهيثمي فقال: العلاء بن زياد لم يسمع من معاذ، والرجال ثقات.

والجدير بالذكر هنا أن ابن حنبل لم يذكر أن العلاء بن زياد سمعه من معاذ، بل من رجل حدّثه به ولم يذكر اسمه.

ـ قال العراقي (إحياء ٢/ ٢٢٤) أخرجه أحمد والطبراني، ورجاله ثقات إلا أن فيه إنقطاعاً.

(٢) ـ رواه ابن حنبل (١/ ١٨، ٢٦) عن عمر بن الخطاب وهو جزء من حديث وتمامه:

(استوصوا بأصحابي خيراً، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب، حتى أن الرجل ليبتدىء بالشهادة قبل أن يُسْأَلها، فمن أراد منكم بحبحة الجنة فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، لا يَخْلُوَنَّ أحدكم بامرأة فإن الشيطان ثالثهما، ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن)

ورواه أيضاً ابن حنبل عن عبد الله بن عامر عن أبيه برواية مختلفة أولها: (من مات وليست عليه طاعة مات ميتة الجاهلية) وفيها: (إن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد) (ابن حنبل ٣/ ٤٤٦).

ـ وفي مستدرك الحاكم (٤/ ٥٥٥) عن عبد الله بن مسعود: (الزموا هذه الطاعة والجماعة... وإن ما تكرهون في الجماعة خير مما تحبون في الفرقة...) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرّجاه.

[٢٠/ب] فَاعْلَمْ أَنَّ هٰذِهِ وَرَدَتْ، وَوَرَدَ أَيْضاً «الْزَمْ بَيْتَكَ، وَعَلَيْكَ/ بِالْخَاصَّةِ وَدَعْ أَمْرَ الْعَامَّةِ»[١] وَأَمرَ بِالْعُزْلَةِ وَالتَّفَرُّدِ فِي الزَّمَانِ السُّوءِ. وَلاَ تَناقُضَ في قَوْله عليه الصلاة والسلام، وَلاَ بُدَّ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ الْخَبَرَيْنِ بِحَوْلِ ٱللَّهِ وَقوّته.

معنى الجماعة

فَأَقُولُ: قوْلُهُ ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ» يَحْتَمِلُ ثَلاَثَةَ أَوْجُهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ يَعْنِي بِهِ في الدِّينِ وَالْحُكْمِ، إِذْ لاَ تَجْتَمِعُ هٰذِهِ الأُمَّةُ عَلَى ضَلاَلَةٍ، فَخَرْقُ الإِجْمَاعِ وَالْحُكْمُ بِخِلاَفِ مَا عَلَيْهِ جُمْهُورُ الأُمَّةِ، وَالشُّذُوذُ عَنهُمْ بَاطِلٌ وَضَلاَلٌ؛ وَإِمَّا أَنْ يَعْتَزِلَ عَنْهُمْ لِصَلاَحٍ في دِينِه، فَلَيْسَ هٰذَا مِنْ ذٰلِكَ في شَيْءٍ.

وَالثَّانِي: عَلَيْكُمْ بالجَمَاعَةِ، يعْني بِأَلاَّ تَنْقَطِعُوا عَنهُمْ فِي جُمَعِهِمْ وَجَمَاعَاتِهِمْ وَنَحْوِهَا، فَإِنَّ فِيها قُوَّةَ الدِّينِ وَجمالَ الإِسْلاَمِ، وَغَيْظَ الْكُفَّارِ وَالمُلْحِدِينَ؛ وَلاَ يَخْلُو ذٰلِكَ مِنْ بَرَكَاتٍ مِنْ ٱللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَنَظَرٍ مِنهُ بِالرَّحْمَةِ؛ وَكذٰلِكَ نَقُولُ: إِنَّ حَقَّ الْمُنْفَرِدِ أَنْ يُشَارِكَ النَّاسَ فِي الْجُمُوعِ الْعَامَّةِ فِي الْخَيْرِ، وَأَنْ يُجَانِبَهُمْ في الصُّحْبَةِ وَالمُزَاحَمَةِ في سَائِرِ الأُمُورِ، لِمَا فِيها مِنْ ضُرُوبِ الآفاتِ.

وَالثَّالِثُ: أَنَّ ذٰلِكَ فِي غَيْرِ زَمَانِ الْفِتْنَةِ لِلرَّجُلِ الضَّعِيفِ في أَمْرِ الدِّينِ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الْبَصِيرُ الْقَوِيُّ فِي أَمْرِ اللَّهِ تعالى، إِذَا رَأَى زَمَانَ الْفِتْنَةِ الَّذِي حَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ الأُمَّةَ مِنْهُ وَأَمَرَهُمْ بِالْعُزْلَةِ فِيهِ، فَالْعُزْلَةُ أَوْلَى، لِمَا في الخُلْطَةِ مِنَ الْفَسادِ وَالآفة؛ وَلاَ يَنْقَطِعُ مِنْ جُمُوعِ

(١) ــ هذا جزء من حديث ورد سابقاً (راجع ص ١٠٧ حاشية (١)).

الإِسْلاَمِ وَالْخَيْرَاتِ الْعَامَّةِ، وَإِنْ أَرَادَ أَنْ يَنْفَرِدَ عَنِ النَّاس بَمَرَّةٍ ، فَلْيَسْكُنْ بِشَاهِقِ جَبَلٍ، أَوْ بَطْنِ فَلاَةٍ، لِصَلاَحٍ يَرَاهُ في دِينِهِ.

رأي الغزالي

ثُمَّ قُلْتُ: وَلاَ أَرَى مِثْلَ هٰذَا الرَّجُلِ أَيْنَمَا كَانَ، إِلاَّ وَيُمَكِّنُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ حُضُورِ الْجَمَاعَاتِ وَالْجُمُعَاتِ وَسَائِرِ جُمُوعِ الإِسْلاَمِ، فَيَحْضُرُ لِئلاَّ يَفُوتَهُ الْحَظُّ مِنْها أَيْضاً، فَإِنَّ جُمُوعَ الإِسْلاَمِ مِنَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ بِمَكَانٍ، وَإِنْ تَغَيَّرَ النَّاسُ وَفَسَدُوا.

كَذَا سَمِعْنَا مِنْ حَالِ الأَبْدَالِ[1]، أنهُمْ يَحْضُرُونَ جُمُوعَ الإِسْلاَمِ أَيْنَمَا كَانَتْ، وَيَسِيرُونَ مِنَ الأَرْضِ حَيْثُ شَاءُوا، وَأَنَّ الأَرْضَ لَهُمْ قَدَمٌ وَاحِدٌ بإذن اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

وَفِي الأَخْبَار أَنَّ الأَرْضَ تُطْوَى لَهُمْ، وَيُنَادَوْنَ بِالتَّحِيَّات وَيُتْحَفُونَ بِأَنْوَاعِ الْبِرِّ/ [٢١/أ] وَالْكَرَامَاتِ، فَهَنِيئاً لهم بِمَا ظَفِرُوا بِهِ، وَأَحْسَنَ اللَّهُ عَزَاءَ مَنْ غَفَلَ عَنِ النَّظَرِ في خَلاَصِ نَفْسِهِ، وَأَعَانَ الطَّالِبَ الَّذِي لَمْ يَصِلْ إِلَى الْمَقْصُودِ كَأَمْثَالِنَا. وَلَقَدْ عُرِضَ لِي فِي صِفَةِ حَالِي أَبْيَاتٌ مِنَ الشِّعْرِ، وَهِيَ: [الخفيف]:

ظَفِرَ الطَّالِبُونَ وَٱتَّصَلَ الْوَصْـ ـلُ وَفَازَ الأَحْبَابُ بِالأَحْبَابِ
وَبَقِينَا مُذَبْذَبِينَ حَيَارَى بَيْنَ حَدِّ الوِصَالِ وَالاجْتِنَابِ

---

(١) (الأبدال يكونون بالشام وهم أربعون رجلاً، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً يسقى بهم الغيث، وينتصر بهم على الأعداء، ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب).
ـ رواه ابن حنبل في مسنده (١/١١٢ و ٥/٣٢٢) وقد أورد الترمذي حديث الأبدال في نوادر الأصول من قول أبي الدرداء عن جماعة من الصحابة مرفوعاً وموقوفاً.

نَـرْتَجِـي الْقُـرْبَ بِـالْبِعَـادِ وهٰـذَا	نَفْـسُ حَـالِ الْمُحَـالِ لِـلأَلْبَـابِ
فَأَسْقِنَا مِنْكَ شَرْبَةً تُذْهِبُ الْغَمْـ	ـمَ وَتَهْـدِي إِلى طَرِيقِ الصَّوَابِ
يَا طَبِيبَ السَّقَامِ يَا مَرْهَمَ الْجَرْ	حِ وَيَـا مُنْقِـذِي مِـنَ الأَوْصَـابِ
لَسْتُ أَدْرِي بِمـا أُدَاوِي سِقَـامِـي	أَوْ بمَـاذا أَفُـوزُ يَـوْمَ الْحِسَـابِ

وَلْنَقْبِضِ الآن عِنَانَ الْبَنَانِ، وَنَرْجِعْ إِلى الْمَقْصُودِ مِنْ شَأْنِ الْعُزْلَةِ فَقَدْ خَرَجْنَا عَنْ شَرْطِ الْبَابِ.

فَإِنْ قِيلَ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «رَهْبَانِيَّةُ أُمَّتِي الْجُلُوسُ فِي الْمَسَاجِدِ»[1] وَفِيهِ زَجْرٌ عَنِ التَّفَرُّدِ.

فَاعْلَمْ أَنَّ ذٰلِكَ فِي غَيْرِ زَمَنِ الْفِتْنَةِ، كَما ذَكَرْنَا، وَأَيْضاً فَإِنَّهُ يَجْلِسُ فِي الْمَسْجِدِ وَلاَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَلاَ يُدَاخِلُهُمْ، فَيَكُونُ بالشَّخْصِ مَعَهُمْ، وَفِي الْمَعْنَى مُنْفَرِداً عَنْهُمْ، وَهٰذَا هُوَ الْمَعْنِيُّ فِي التَّفَرُّدِ وَالْعُزْلَةِ الَّذِي نَحْنُ فِي شَرْحِهِ، لاَ التَّفَرُّدُ بِالشَّخْصِ وَالْمَكَانِ، فَافْهَمْ ذٰلِكَ رَحِمَكَ ٱللَّهُ، وَفِيهِ يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كُنْ وَاحِداً جَامِعِيّاً، وَمِنْ رَبِّكَ ذَا أُنْسٍ، وَمِنَ النَّاسِ وَحْشِيّاً»[2].

الرباطات

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا تَقُولُ فِي مَدَارِس عُلَماءِ الآخِرَةِ، وَرِبَاطَاتِ الصُّوفِيَّةِ، سَالِكِي طَرِيقِ الآخِرَةِ وَالكَوْنِ فِيها؟

---

(١) ـ ورد في الإحياء (٤/ ٣٧١) بلفظ: (رهبانية أمتي القعود في المساجد).
وقال العراقي: لم أجد له أصلاً.
ـ وورد هذا الحديث في كتاب كشف الخفاء (١/ ٥٢٦) وذكر أنه لم يوجد، أي لا يوجد له أصل (الحديث رقم ١٤٠٦).

(٢) واحداً جامعياً: أي واحداً بالقلب، جامعياً بالنفس، نفسك مع الجماعة وقلبك مع الله وحده.

فَاعْلَمْ أَنَّ الطَّرِيقَةَ الْمُثْلَى في هٰذَا الشَّأْنِ لِعَامَّةِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالاجْتِهادِ، وَذٰلِكَ أَنَّهَا جَمَعَتِ المَعْنَيَيْنِ وَالْفَائِدَتَيْنِ اللَّتَيْنِ إِحْدَاهُمَا: الْعُزْلَةُ عَنِ النَّاسِ، وَالتَّفَرُّدُ عَنهُمْ بِالصُّحْبَةِ وَالمُخَالَطَةِ وَالمُزَاحَمَةِ فِي أُمُورِهِمْ. وَالثَّانِيَةُ: المُشَارَكَةُ مَعَهُمْ فِي جُمَعِهِمْ وَجَمَاعَاتِهِمْ وَتَكْثِيرِ شَعَائِرِ الإِسْلَامِ، فَتَحْصُلُ السَّلَامَةُ الَّتِي هِيَ لِلْمُنْفَرِدِينَ، وَالْخَيْرُ الْكَثِيرُ/ الَّذِي هُوَ لِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ مَعَ مَا لِلنَّاسِ فِيهِمْ مِنَ العدَّةِ [٢١/ب] وَالْبَرَكَةِ وَالنَّصِيحَةِ، فَصَارَ الكَوْنُ فِيهَا أَعْدَلَ طَرِيقٍ، وَأَحْسَنَ حالٍ، وَأَسْلَمَ سَبِيلٍ، وَلِهٰذَا الشَّأْنِ أَقَامَ أَكْثَرُ الْعَارِفِينَ بَيْنَ النَّاسِ لِنَفْعِهِمْ لِعِبَادِ ٱللَّهِ تَعَالَى فِي بَابِ ٱلدِّينِ، وَقِلَّةِ أَذَاهُمْ، وَمُشَاهَدَةِ الْخَلْقِ لآدَابِهِمْ وَحُسْنِ رُسُومِهِمْ، لِيَقْتَدُوا بِهِمْ، فَإِنَّ لِسانَ الْحَالِ أَفْصَحُ مِنْ لِسَانِ الْمَقَالِ، فَصَارَ ذٰلِكَ أَحْسَنَ تَدْبِيرٍ فِي أَمْرِ الدِّينِ لِلْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ وَأَحْكَمَ رَأْيٍ.

مخالطة المريد للمجتهدين

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا حَالُ الْمُرِيدِ مَعَ المجْتَهِدِينَ وَالْمُرْتَاضِينَ، أَيَصْحَبُهُمْ أَمْ يَعْتَزِلُهُمْ؟

فَاعْلَمْ أَنَّهُمْ إِذَا كَانُوا ثَابِتِينَ عَلَى رُسُومِهِمُ الأُولى، وَسِيرَتِهِمُ المَوْرُوثَةِ عَنْ أسلافهم، فَهُمْ أَجَلُّ إِخْوَانٍ في اللَّه تعالى وَأَصْحَابٍ وَأَعْوَانٍ عَلَى عِبادَةِ ٱللَّهِ تَعَالى، فَلَا يَشْغُلَنْكَ عنهم عُزْلَةٌ وَتَفَرُّدٌ، وَإِنَّمَا مَثَلُهُمْ مَثَلُ من تَسْمَعُ مِنْ زُهَّادِ لُبْنَانَ وَغَيْرِهِمْ، أَنَّ مِنْهُمْ جَمَاعَاتٍ يَتَعَاوَنُونَ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَيَتَوَاصَوْنَ بِالْحَقِّ وَالصَّبْرِ، وَأَمَّا إن تَغَيَّرُوا وَتَرَكُوا رُسُومَهُمْ وأَخَلُّوا بِطَرَائِقِهِمُ المَوْرُوثَةِ عَنْ أَسْلَافِهِمُ الصَّالِحِينَ، فَحُكْمُ هٰذَا الْمُجْتَهِدِ الْمُرْتَاضِ مَعَهُمْ كَحُكْمِهِ مَعَ سَائِرِ النَّاسِ، يَلْزَمُ زَاوِيَتَهُ وَيَكُفُّ لِسانَهُ، وَيُشَارِكُهُمْ في خَيْرَاتِهِمْ، وَيُجَانِبُهُمْ

فِي سَائِرِ أَحْوَالِهِمْ وَآفَاتِهِمْ، فَيَكُونُ هُوَ فِي عُزْلَةٍ مِنْ أَهْلِ الْعُزْلَةِ مُنْفَرِداً عَنِ الْمُنْفَرِدِينَ.

خروج المريد إلى الناس

فَإِنْ قُلْتَ: فَإِنِ اخْتَارَ هٰذَا الْمُرْتَاضُ الْمُجْتَهِدُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بَيْنِهِم إِلى مَكَانٍ آخَرَ، لِصَلَاحٍ يَرَاهُ في نَفْسِهِ، وَتَجَنُّبِ آفَةٍ تَدْخُلُ عَلَيْهِ فِي صُحْبَتِهِمْ، فَاعْلَمْ أَنَّ هٰذِهِ المَدَارِسَ وَالرِّبَاطَاتِ، بِمَنْزِلَةِ حِصْنٍ حَصِينٍ يَتَحَصَّنُ بِهَا الْمُجْتَهِدُونَ عَنِ الْقُطَّاعِ وَالسُّرَّاقِ، وَأَنَّ الْخَارِجَ بِمَنْزِلَةِ الصَّحرَاءِ، تَدُورُ فِيهِ فُرْسَانُ الشَّيَاطِينِ، عَسْكَراً عَسْكَراً، فَتَسْلُبُهُ أَوْ تَسْتَأْسِرُهُ، فَكَيْفَ حَالُهُ إِذَا خَرَجَ إِلى الصَّحْرَاءِ، وَتَمَكَّنَ الْعَدُوُّ مِنْهُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، يَعْمَلُ فِيهِ مَا يَشَاءُ؟ فَإِذاً لَيْسَ لِهٰذَا الضَّعِيفِ إِلاَّ لُزُومُ الْحِصْنِ.

وَأَمَّا الرَّجُلُ الْقَوِيُّ الْبَصِيرُ الَّذِي لَا تَغْلِبُهُ الأَعْدَاءُ، وَاسْتَوَى عِنْدَهُ الْحِصْنُ وَالصَّحْرَاءُ، فَلاَ عَلَيْهِ إِذَا خَرَجَ؛ غير أَنَّ / الْكَوْنَ في الْحِصْنِ أَحْوَطُ عَلَى كُلِّ حَالٍ، إِذْ لَا تُؤْمَنُ الآفاتُ والْفَلَتَاتُ وَالاتِّفَاقَاتُ (مَعَ قُرَنَاءِ)[1] السُّوءِ، وَإِذَا كَانَ الأَمْرُ بِهٰذِهِ الجملة، فَالكَوْنُ مَعَ رِجَالِ اللَّهِ، وَالصَّبْرُ عَلَى مَشَقَّةِ الصُّحْبَةِ أَوْلى لِلْمُرْتَاضِ وَطالِبِ الْخَيْرِ بِكُلِّ حَالٍ، وَأَنْ لَا مَانِعَ لِلْقَوِيِّ الْبَالِغِ مَبْلَغَ الإِسْتِقَامَةِ عَنِ التَّفَرُّدِ، فَاعْلَمْ هٰذِهِ الْجُمْلَةَ وَتَأَمَّلْهَا تَغْنَمْ وَتَسْلَمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تعالى. [٢٢/أ]

زيادة الإخوان

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا تَقُولُ في زِيَارَةِ الإِخْوَانِ في اللَّهِ تعالى، وَمُوَاصَلَةِ الأَحْبَابِ بِالتَّلَاقِي وَالتَّذَكُّرِ؟

---

(١) ساقطة من الأصل، مثبتة في (د) و (هـ).

فَاعْلَمْ أَنَّ زِيَارَةَ الإِخْوَانِ فِي اللَّهِ تعالى مِنْ جَواهِرِ عِبادَةِ ٱللَّهِ تَعالى، وَفِيها الزُّلْفَةُ الْكَرِيمة إِلَى ٱللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، مَعَ مَا فِيهَا مِنْ ضُرُوبِ الْفَوَائِدِ وَصَلاحِ القلوب، وَلٰكِنْ بِشَرْطَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ لا يَخْرُجَ في ذٰلِكَ إلى الإِكْثارِ وَالإِفْرَاطِ؛ قالَ النَّبِيُّ ﷺ لأَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا»[1].

وَالثَّانِي: أَنْ تَحْفَظَ حَقَّ ذٰلِكَ بِالتَّجَنُّبِ عَنِ الرِّيَاءِ وَالتَّزَيُّنِ، وَقَوْلِ اللَّغْو وَالْغِيبَةِ وَنَحْوِ ذٰلِكَ، فَيَعُودُ عَلَيْكَ وَعَلَى أَخِيكَ الْوَبَالُ. فَلَقَدْ حُكِيَ أَنَّ الْفُضَيْلَ وَسُفْيَانَ رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَذَاكَرَا فَبَكَيَا، فَقَالَ سُفْيَانُ: يَا أَبَا عَلِيٍّ أَرْجُو أَنَّا مَا جَلَسْنا مَجْلِساً أَرْجَى لَنَا منْ هٰذَا، فَقَالَ الْفُضَيْل: مَا جَلَسْتُ مَجْلِساً أَخْوَفُ عَلَيَّ مِنْ هٰذَا، قَالَ: وَكَيْفَ يَا أَبَا عَلِيٍّ؟ فقالَ: أَلَسْتَ تَعْمَدُ إلى أَحْسَنِ حَدِيثِكَ فَتُحَدِّثُنِي بِهِ، وَأَنَا أَعْمَدُ إلى أَحْسَنِ مَا عِنْدِي، فَأُحَدِّثُكَ بِهِ، فَتَزَيَّنْتَ لِي، وَتَزَيَّنْتُ لَكَ، فَبَكَىٰ سُفْيَانُ.

---

(١) ـ رواه السيوطي في الجامع الصغير (٢/٣) الحديث رقم (٤٥٥) عن أبي هريرة في شُعَب الإيمان للبيهقي والمعجم الأوسط للطبراني. كما روى هذا الحديث عن ابن عمر وعن عائشة وعن ابن عمرو وعن حبيب بن مسلمة الفهري.
وقد تتبع العلماء أسانيده ورجاله، ووجد البعض فيه ضعفاً، وقبله البعض الآخر. فالسيوطي مثلاً ذكر أنه حسن، والألباني لم يذكره في الأحاديث الضعيفة، وتابع الإمام السخاوي أسانيده في المقاصد الحسنة (ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣) وأشار إلى كثرة رواته وطرقه وقال: (وبمجموعها يتقوّى الحديث).
ـ وقد رواه أيضاً أبو نعيم في الحلية (٣/٣٢٢) عن طلحة بن عمرو عن عطاء بن رباح عن أبي هريرة، وطلحة هذا هو سبب ضعف الحديث عند العلماء الذين ضعّفوه، لأنه غير قوي على حد قول البيهقي في شعب الإيمان. وقد أورده الذهبي في الضعفاء.

فَيَجِبُ أَنْ تكُون مُجَالَسَتُكَ لِلإِخْوَانِ، وَمُلَاقَاتِهِمْ عَلَى مِقْدَارِ قَصْدٍ فِي ٱحْتِيَاطٍ وَنَظَرٍ لَطِيفٍ، فَلَا يَقْدَحُ ذٰلِكَ حِينَئِذٍ فِي عُزْلَتِكَ وَتَفَرُّدِكَ عَنِ النَّاسِ، وَلا يَعُودُ عَلَيْكَ وَعَلَى أَخِيكَ بِضَرَرٍ وَآفَةٍ، بَلْ بِخَيْرٍ كَثِيرٍ وَنَفْعٍ عَظِيمٍ، وَٱللَّهُ الْمُوَفِّقُ.

الباعث على العزلة

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا يَبْعَثُنِي عَلَى الْعُزْلَةِ عَنِ النَّاسِ وَالتَّفَرُّدِ وَيُهَوِّنُ عَلَيَّ ذٰلِكَ؟

فَاعْلَمْ أَنَّ ٱلَّذِي يُهَوِّنُ عَلَيْكَ ذٰلِكَ ثَلاثَةُ أُمُورٍ:

[٢٢/ب]

أَحَدُهَا: / ٱسْتِغْرَاقُ أَوْقَاتِكَ في الْعِبَادَةِ؛ فَإِنَّ فِي الْعِبَادَةِ شُغْلاً؛ وَإِنَّ الاسْتِئْنَاسَ بِالنَّاسِ مِنْ عَلَامَاتِ الإِفْلَاسِ. فَإِذَا رَأَيْتَ نَفْسَكَ تَتَطَلَّعُ إلى مُلَاقَاةِ النَّاسِ وَكَلَامِهِمْ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ ولاَ ضَرُورَةٍ، فَاعْلَمْ أَنَّ ذٰلِكَ فُضُولٌ سَاقَهُ الْفَرَاغُ وَالْبَطَرُ. وَلَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قَالَ في هٰذَا المَعْنَى: [الكامل].

إِنَّ الفَـرَاغَ إلـى سَـلَامِـكَ قَـادَنِـي ... وَلَـرُبَّـمـا عَمِـلَ الْفُضُـولَ الْفَـارِغُ[١]

فَـأَنْـتَ إِذَا أعطيـت الْعِبَـادَةَ حَقَّهـا وَجَـدْتَ حَـلاَوَةَ الْمُنَـاجَـاةِ، وَاسْتَأْنَسْتَ بِكِتَابِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، وَاشْتَغَلْتَ عَنِ الْخَلْقِ، وَاسْتَوحَشْتَ مِنْ صُحْبَتِهِمْ وَكَلَامِهِمْ. وَفِي الْخَبَرِ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام، كانَ إِذَا رَجَعَ عن الْمُنَاجَاةِ، يَسْتَوْحِشُ مِنْ النَّاسِ، وَكَانَ يَجْعَلُ إِصْبَعَيْهِ في أُذُنَيْهِ، لِئَلَّا يَسْمَع كلامَهُمْ، وَكَانَ كلامُهُمْ عِنْدَهُ فِي النُّفورِ وَالْوَحْشَةِ

---

(١) الفضول: العمل الذي لا حاجة لنا به، والفارغ: الإنسان التارك لعبادة الله والواقع في الفراغ. أي: ربّما عمل الإنسان الفارغ عن عبادة الله أعمالاً لا تعنيه ولا حاجة له بها فهي لذلك من الفضول الذي لا ينبغي له.

فِي ذٰلِكَ الْوَقْتِ، كَأَصْوَاتِ الحميرِ، فَعَلَيْكَ بِمَا قَالَهُ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ: [الخفيف المجزوء]:

إِرْضَ بِاللَّهِ صَاحِباً ... وَذَرِ النَّاسَ جَانِبا[1]

صَادِقَ الْوُدِّ شَاهِداً ... كُنْتَ فِيهِمْ وَغَائِبا

قَلِّبِ النَّاسَ كَيْفَ شِئْـ ... ـتَ تَجِدْهُمْ عَقَارِبَا

وَالثَّانِي: قَطْعُ الطَّمَعِ عَنْهُمْ بمرَّة، فَيَهُونُ عَلَيْكَ أَمْرُهُمْ؛ لأَنّ مَنْ لَا تَرْجُو نَفْعَهُ، وَلَا تَخَافُ ضَرَّهُ فَوُجُودُهُ وَعَدَمُهُ سَوَاء.

وَالثَّالِثُ: تُبْصِرُ آفَاتِهِمْ وَتَذْكُرُ ذٰلِكَ وَتُكَرِّرُهُ عَلَى قَلْبِكَ، لأَنَّ هٰذِهِ الأَذكار الثَّلَاثَةَ إِذَا لَزِمْتَهَا، طَرَحَتْ بكَ عَنْ صُحْبَةِ الْخَلْقِ إِلَى بَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالتَّفَرُّدِ لِعِبَادَتِهِ، وَحَبَّبَتْهُ إِلَيْكَ، وَأَلْزَمَتْكَ بَابَهُ، وَبِاللَّهُ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ.

الْعَائِقُ الثَّالِثُ: الشَّيْطَانُ:

ثُمَّ عَلَيْكَ يَا أَخِي بِمُحَارَبَةِ الشَّيْطَانِ وَقَهْرِهِ، وَذٰلِكَ لِخَصْلَتَيْنِ:

إِحْدَاهُما: أَنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ، لَا مَطْمَعَ فِيهِ بمصَالَحَةٍ وَاتقاء غيلةٍ، بَلْ لَا يُقْنِعُهُ إِلَّا هَلَاكُكَ أَصْلاً، فَلَا وَجْهَ إِذاً لِلأَمْنِ مِنْ مِثْل هٰذَا الْعَدوِّ وَالْغَفْلَةِ عَنْهُ، وَتَأَمَّلْ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، إِحْدَاهُمَا قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ

---

(١) في الأصل ذكر البيت الأول فقط كالتالي: اتخذ الله صاحباً ودع الناس جانباً. وما أثبتناه من (د) و (هـ).

مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ [يس: ٦٠]. والثَّانِيَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]. وَهٰذَا أَقْصَى التَّحْذِيرِ وَغَايَتُهُ.

وَالْخَصْلَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ مَجْبُولٌ عَلَى عَدَاوَتِكَ، وَمُنْتَصِبٌ أَبَداً لِمُحارَبَتِكَ، فَهُوَ آنَاءَ اللَّيْلِ / وَأَطْرَافَ النَّهَارِ يَرْمِيكَ بِسِهَامِهِ، وَأَنْتَ غَافِلٌ،فَكَيْفَ يَكُونُ الْحَالُ؟ [٢٣/أ]

ثُمَّ وَقَعَتْ مَعَكَ نُكْتَةٌ أُخْرَى، وَهِيَ أَنَّكَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَدَعْوَةِ الْخَلْقِ إِلَى بَابِ اللَّهِ تعالى بِفِعْلِكَ وَقَوْلِكَ، وَهٰذَا ضِدُّ صَنِيعِ الشَّيْطَانِ وَهِمَّتِهِ، وَمُرَادِهِ وَحِرْفَتِهِ؛ فَصِرْتَ كَأَنَّكَ قُمْتَ وَشَدَدْتَ وَسَطَكَ، لِتُغَايِظَ الشَّيْطَانَ وَتُكَايِدَهُ وَتُنَاقِضَهُ، فَهُوَ أَيْضاً يَشُدُّ وَسَطَهُ لِيُعَادِيَكَ وَيُقَاتِلَكَ وَيُمَاكِرَكَ، حَتَّى يُفْسِدَ عليك وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ شَأْنَكَ، بَلْ حَتَّى يُهْلِكَكَ رَأْساً، إِذْ لَا يَأْمَنُ مِنْ جَانِبِكَ بَعْدُ؛ فَإِنَّهُ الَّذِي يُسِيءُ وَيَقْصِدُ بِالْهَلَاكِ إِلَى مَنْ لَا يُغَايِظُهُ وَلَا يُنَاقِضُهُ، بَلْ يُصَادِقُهُ وَيُوَافِقُهُ، كَالْكُفَّارِ وأَهلِ الضَّلَالِ وَأَهْلِ الرَّغْبَةِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ؛ فَكَيْفَ يُظَنُّ قَصْدُهُ لِمَنْ قَامَ يُغَايِظُه، وَتَجَرَّدَ لِمُنَاقَضَتِهِ؟ فَلَهُ إِذَنْ مَعَ سَائِرِ النَّاسِ عَدَاوَةٌ عَامَّةٌ، وَمَعَكَ أَيُّهَا الْمُجْتَهِدُ فِي الْعِبَادَةِ وَالْعِلْمِ عَدَاوَةٌ خَاصَّةٌ، وَإِنَّ أَمْرَكَ لَهُ لَمُهِمٌّ وَمَعَهُ عَلَيْكَ أَعْوَانٌ، أَشَدُّهَا عَلَيْكَ نَفْسُكَ وَهَوَاكَ، وَلَهُ أَسْبَابٌ وَمَدَاخِلُ وَأَبْوَابٌ أَنْتَ عَنْهَا غَافِلٌ.

وَلَقَدْ صَدَقَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ الرَّازِي رحمه الله حَيْثُ قَالَ: «الشَّيْطَانُ فَارِغٌ وَأَنْتَ مَشْغُولٌ وَهُو يَرَاكَ وَأَنْتَ لَا تَرَاهُ، وَأَنْتَ تَنْسَاهُ وَهُوَ لَا يَنْسَاكَ، وَمِنْ نَفْسِكَ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْكَ عَوْنٌ». فَإِذَنْ لَا بُدَّ مِنْ مُحَارَبَتِهِ وَقَهْرِهِ، وَإِلَّا فَلا تَأْمَنِ الْفَسَادَ وَالْهَلَاكَ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَبِأَيِّ شَيْءٍ أُحَارِبُ الشَّيْطَانَ وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَقْهَرُهُ

وَأَدْفعُهُ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ لأَهْلِ هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ[1] في هٰذِهِ المَسْأَلَةِ طَرِيقَيْنِ:

محاربة الشيطان

أَحَدُهُمَا مَا قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ التَّدْبِيرَ فِي دَفْعِ الشَّيْطَانِ الإِسْتِعَاذَةُ بِاللّٰهِ لَا غَيْرُ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ كَلْبٌ سَلّطَهُ اللّٰهُ تَعَالَى عَلَيْكَ؛ إِنِ اشْتَغَلْتَ بِمُحَارَبَتِهِ وَمُعَالَجَتِهِ تَعِبْتَ، وَضَاعَ عَلَيْكَ وَقْتُكَ، وربّما يَظْفَرُ بِكَ فَيَعْقِرُكَ وَيَجْرَحُكَ، فإِنّ الرُّجُوعَ إلى رَبِّ الْكَلْبِ لِيَصْرِفَهُ عَنْكَ أَوْلَى.

وَالثَّانِي: مَا قَالَ آخَرُونَ: الطَّرِيقُ المُجَاهَدَةُ، وَالقِيَامُ عَلَيْهِ بِالدَّفْعِ وَالرَّدِّ وَالمُخَالَفَةِ.

[٢٣/ب] قُلْتُ: وَالَّذِي عِنْدِي أَنَّ الطَّرِيق الْعَدْلَ / الْجَامِعَ فِي أَمْرِهِ، أَنْ تجْمَعَ بَيْنَ الطَّرِيقَيْنِ، فَتَسْتَعِيذُ بِاللّٰهِ مِنْ شَرِّهِ أَوَّلاً كما أَمَرَنَا، وَهُوَ الْكَافِي شَرَّهُ؛ ثُمَّ إِنْ رَأَيْنَاهُ يَتَغَلَّبُ عَلَيْنَا، عَلِمْنَا أَنَّهُ ٱبْتِلاءٌ مِنَ اللّٰهِ سبحانه وتَعالى، لِيَرَى صِدْقَ مُجَاهَدَتِنَا وَقُوَّتَنَا في أَمْرِهِ سبْحَانه وَتَعَالَى وصَبْرَنَا، كَمَا أَنّهُ سَلَّطَ الْكُفَّارَ عَلَيْنَا مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى كِفَايَةِ أَمْرِهِمْ وَشَرِّهِمْ، لِيَكُونَ لَنا حَظٌّ مِنَ الْجِهَادِ وَالصَّبْرِ وَالتَّمحِيص وَالشَّهادَةِ، كَمَا قالَ تَعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠] وَقالَ تَعالَى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢] فكذلك هو.

طريق محاربة الشيطان

ثُمَّ إِنَّ مُحَارَبَتَهُ وَقَهْرَهُ، فِيمَا قَالَهُ عُلَمَاؤُنَا رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمْ في ثَلاثَةِ أَشْيَاءَ:

أَحَدُهَا: أَنْ تَتَعَرَّف وَتَتَعَلَّمَ مَكَايِدَهُ وَحِيَلَهُ، فَلَا يَتَجَاسَرُ حِينَئِذٍ عَلَيْكَ، كَاللِّصِّ إِذَا عَلِمَ أَنّ صَاحِبَ الدَّارِ قَدْ أَحَسَّ فِيهِ فَرَّ.

---

(١) أي لأهل التصوّف.

والثَّانِي: أَنْ تَسْتَخِفَّ بِدَعْوَتِهِ فَلَا تُعَلِّقُ قَلْبَكَ بِذٰلِكَ، وَتَتَبَّعُهُ، فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَةِ الْكَلْبِ النَّابحِ، إِنْ أَقْبَلْتَ عَلَيْهِ ولِعَ بِكَ وَلَجّ، وَإِنْ أَعْرَضْتَ عَنْهُ سَكَتَ.

وَالثَّالِثُ: أَنْ تُدِيمَ ذِكْرَ اللَّهِ تعالى بِلِسانِكَ وَقَلْبِكَ، فَلَقَدْ قَالَ النبيّ ﷺ:

«إِنَّ ذِكْرَ ٱللَّهِ في جَنْبِ الشَّيْطَانِ كَالآكِلَةِ فِي جَنْبِ ٱبْنِ آدَمَ»[1].

مكايد الشيطان

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ تَعْلَمُ مَكَايِدَهُ، وَكَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى مَعْرِفَةِ ذٰلِكَ؟

فَاعْلَمْ (أمرين: **الأول**)[2]: أَنَّ لَهُ وَسَاوِسَ هِيَ بِمَنْزِلَةِ السِّهَامِ الَّتِي يَرْمِيهَا؛ وَذٰلِكَ إِنَّما يَتَبَيَّنُ لَكَ بِمَعْرِفَةِ الْخَوَاطِرِ وَأَقْسَامِها.

وَالثَّانِي: أَنَّ لَهُ حِيَلاً بِمَنْزِلَةِ الشَّبَكَاتِ التِي يَنْصِبُها (الصياد)[3]،

---

(١) ــ قال الكديري: (١/٢٩٢) لم أقف عليه أصلاً، إلا أن معناه صحيح، فقد أخرج أبو يعلى في مسنده عن أبي بكر الصديق (عليكم بلا إلّه إلا الله والاستغفار، فأكثروا منهما، فإن إبليس قال: أهلكت الناس بالذنوب وأهلكوني بلا إلّه إلا الله والإستغفار، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء).

ــ وفي صحيح البخاري (٤/١٥١) باب بدء الخلق، قال النبي ﷺ: «تعوّذ بالله من الشيطان» وفي رواية أخرى (٤/١٥٣) أن رسول الله ﷺ قال: (من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير... كانت له حِرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يُمْسِي).

ــ وفي مسند ابن حنبل (٤/٦٠) رواية شبيهة برواية البخاري لفظاً ومعنى. وكذلك في موطأ مالك (١/١٦٤).

ــ وكذلك رواه ابن ماجه (٢/١٢٧٢) في كتاب الدعاء الحديث (٣٨٦٧).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) زيادة من (ج) يقتضيها سياق الكلام.

وذٰلِكَ يَتبَيَّنُ لَكَ بِمَعْرِفَةِ المَكَايِدِ وَأَوْضَاعِها وَمَجَارِيها.

وَلَقَدْ ذَكَرَ عُلَماؤُنا أَبْوَاباً في الْخَواطِرِ، وَقَدْ صَنَّفْنَا كِتاباً سَمّيْنَـاهُ «تَلْبِيسَ إِبْلِيسَ»، وَكِتابُنَا هٰذَا لاَ يَحْتَمِلُ الإِكْثَارَ، وَلٰكِنَّا نَذْكُرُ لَكَ، إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعالى، مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا أَصْلاً كَافِياً إِذَا ٱعْتَصَمْتَ بِهِ.

الإلهام والوسواس

فَأَمَّا أَصْلُ الْخَواطِرِ: فَاعْلَمْ أَنّ اللَّهَ تَعـالى وَكَّلَ بِقَلْبِ ٱبْنِ آدَمَ مَلَكاً يَدْعُوهُ إِلَى الْخَيْرِ، يُقَالُ لَهُ المُلْهِمُ، وَلِدَعْوَتِهِ إِلْهَامٌ. وَسَلَّطَ في مُقَابَلَتِهِ شَيْطَاناً يَدْعُو الْعَبْدَ إِلَى الشَّرِّ، يُقَالُ لَـهُ وَسْوَاسٌ، وَلِدَعْوَتِهِ وَسْوَسَةٌ؛ فَالْمُلْهِم لاَ يَدْعُو إِلا إِلَى الْخَيْرِ، وَالْوَسْـوَاسُ لاَ يَدْعُو إِلا إِلَى الشَّرِّ/ [٢٤/أ] في قَوْلِ أَكْثَرِ عُلَمَائِنَا.

وَقَدْ حُكِيَ عَنْ شَيْخِنَا رَحِمَهُ اللَّهُ، أَنّ الشَّيْطَانَ رُبَّمَا يَدْعُو إِلى الْخَيْرِ وَقَصْدُهُ فِي ذٰلِكَ الشَّرَّ، بِأَنْ يَدْعُوَهُ إِلَى المَفْضُولِ لِيَمْنَعَهُ عَنِ الْفَاضِلِ، أَوْ يَدْعُوَهُ إِلَى خَيْرٍ، لِيَجُرَّهُ إِلى ذَنْبٍ عَظيمٍ، لاَ يَفِي خَيْرُهُ بِذٰلِكَ الشَّرِّ مِنْ عُجْبٍ أَوْ غَيْرِهِ.

فَهٰذَانِ دَاعِيانِ قَائِمانِ عَلَى قَلْبِهِ، يَدْعُوَانِهِ، وَهُوَ يَسْمَعُ قَلْبَهُ يُحِسُّ بِذٰلِكَ، عَلَى مَا رُوِيَ في الأَخْبَارِ أَنَّهُ «إِذا وُلِدَ لابْنِ آدَمَ مَوْلُودٌ قَرَنَ اللَّهُ تعالى بِهِ مَلَكاً وَقَرَنَ الشَّيْطَانُ بِهِ شَيْطَاناً»[1]. فَالشَّيْطَانُ جَاثِمٌ

---

(١) ـ هذا الحديث لم نجد له أصلاً بهذا اللفظ، لكن معناه صحيح.

فقد ورد في مسند ابن حنبل (١/ ٣٨٥) عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: (ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة. قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: وإياي، ولكن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بحق).

وفي رواية أخرى عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (ليس منكم من أحد =

عَلَى أُذُنِ قَلْبِ ٱبْنِ آدَمَ اليسرى وَالمَلَكُ جَاثِمٌ عَلَى أُذُنِ قَلْبِهِ اليمنى، فَهُمَا يَدْعُوَانِهِ.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لِلشَّيْطَانِ لَمَّةٌ بِابْنِ آدَمَ وَلِلْمَلَكِ لَمَّةٌ»[1] يَعْنِي نَزْلَةٌ بِالدَّعْوَةِ، مِنْ قَوْلِهِمْ: لَمَّ بِالْمَكَانِ وَأَلَمَّ بِهِ إِذَا نَزَلَ بِهِ.

ثُمَّ رَكَّبَ اللَّهُ تَعَالَى فِي بِنْيَةِ الإِنْسَانِ طَبِيعَةً مَائِلَةً إِلَى الشَّهَوَاتِ وَنَيْلِ اللَّذَّاتِ كَيْفَ كَانَتْ، مِنْ حُسْنٍ أَوْ قُبْحٍ، فَذٰلِكَ هَوَى النَّفْسِ الصَّارِفَةِ إِلَى الآفَاتِ، فَهٰذِهِ ثَلَاثُ دُعَاةٍ[2].

ثُمَّ ٱعْلَمْ بَعْدَ هٰذِهِ المُقَدِّمَةِ، أَنَّ الْخَوَاطِرَ هِيَ آثَارٌ تَحْدُثُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ، تَبْعَثُهُ عَلَى الأَفْعَالِ وَالتُّرُوكِ، وَتَدْعُوهُ إِلَيْهَا، وَسُمِّيَتْ خَوَاطِرَ، لِاضْطِرَابِهَا، مِنْ خَطَرَاتِ الرِّيحِ وَنَحْوِهِ، وَحُدُوثُها جَمِيعاً فِي قَلبِ الْعَبْدِ بِالْحَقِيقَةِ (مِنَ اللَّهِ)[3] سُبْحَانَهُ وَتَعالى، لٰكِنَّها أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ:

= إلا وقد وكل به قرينه من الشياطين. قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: نعم، ولكن الله أعانني عليه فأسلم) (ابن حنبل ١/ ٢٥٧).

(١) ـ قال العراقي (الإحياء ٣/ ٢٧): أخرجه الترمذي وحسّنه، والنَّسائي في السنن الكبرى من حديث ابن مسعود. (راجع الترمذي، كتاب التفسير، عند ذكر تفسير الآية ٣٥ من سورة آل عمران: ﴿... **وإني سميتها مريم، وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم**﴾.

وقد ورد هذا الحديث بتمامه في الإحياء (٣/ ٢٧) بهذا النص:

(في القلب لمّتان: لمّة من الملك، إيعاز بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه، وليحمد الله، ولمة من العدّو، إيعاز بالشر وتكذيب بالحق ونهي عن الخير، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم).

(٢) وهُمْ: المَلك الذي يدعو إلى الخير، والشيطان الذي يدعو إلى الشرّ، والنفس المائلة إلى الشهوات.

(٣) ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

أقسام الخواطر

● مِنْها مَا يُحْدِثُهُ اللَّهُ تَعالى في الْقَلْبِ ابْتِدَاءً، فَيُقَالُ لَهُ الْخَاطِرُ فَقَط.

● وَقِسْمٌ يُحْدِثُهُ مُوَافِقاً لِطَبْعِ الإِنْسَانِ، فَيُقَالُ لَهُ هَوَى النَّفْسِ وَيُنْسَبُ إِلَيه.

● وَقِسْمٌ يُحْدِثُهُ عَقِيبَ دَعْوَةِ المُلْهِمِ، فَيُنْسَبُ إِلَيْهِ وَيُقَالُ لَهُ الإِلْهَامُ.

● وَقِسْمٌ يُحْدِثُهُ عَقِيبَ دَعْوَةِ الشَّيْطَانِ، فَيُنْسَبُ إِلَيْهِ وَيُقَالُ لَهُ الْوَسْوَسَةُ، وَتُنْسَبُ إِلَيْهِ بِأَنَّهَا خَواطِرُ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَإِنَّما هِيَ في الْحَقِيقَةِ حَادِثَةٌ عِنْدَ دَعْوَتِهِ، فَهُوَ كالسَّبَبِ في ذٰلِكَ، وَلٰكِنّها تُنْسَبُ إِلَيْهِ، فَهٰذِهِ أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ مِنَ الْخَواطِرِ.

أنواع الخواطر

ثُمَّ ٱعْلَمْ بَعْدَ هٰذَا التَّقْسِيمِ، أَنَّ الْخَاطِرَ الَّذِي مِنْ قِبَلِ اللَّهِ ٱبْتِداءً قَدْ يَكُونُ بِخَيْرٍ إِكْرَاماً وَإِلْزَاماً لِلْحُجَّةِ، وَقَدْ يَكُونُ بِشَرٍّ ٱمْتِحَاناً وَتَغْلِيظاً لِلمِحْنَةِ.

وَالْخَاطِرُ يَكُونُ مِنْ قِبَلِ الْمُلْهِمِ، لاَ يَكُونُ إِلاَّ بِخَيْرٍ إِذْ هُوَ نَاصِحٌ مُرْشِدٌ لَمْ يُرْسَلْ إِلاَّ لِذٰلِكَ.

وَالْخَاطِرُ الَّذِي يَكُونُ مِنْ قِبَلِ الشَّيْطَانِ، لاَ يَكُونُ إِلاَّ بَشَرٍّ إِغْوَاءً، وَاسْتِزْلاَلاً، / وَرُبَّمَا يَكُونُ بِالْخَيْرِ مَكْراً وَاسْتِدْرَاجاً. [٢٤/ب]

وَالَّذِي يَكُونُ مِنْ قِبَلِ هَوَى النَّفْسِ يَكُونُ بالشَّرِّ وَبِما لاَ خَيْرَ فِيهِ تَمَنُّعاً وَتَعَسُّفاً.

وَلَقَدْ وَجَدْتُ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ أَنَّ هَوَى النَّفْسِ أَيْضاً قَدْ يَدْعُو إِلى خَيْرٍ وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ شَرٌّ، كَالشَّيْطانِ، فَهٰذِهِ أَنْوَاعُهَا.

خاطر الشر وخاطر الخير

ثُمَّ بَعْدَ هٰذِهِ إِنَّكَ مُحْتَاجٌ إِلى مَعْرِفَةِ ثَلاثَةِ فُصُولٍ لاَ بُدّ لَكَ مِنْها الْبَتَّةَ وَفِيهَا الْمَقْصُودُ:

أَحَدُهَا: الْفَرْقُ بَيْنَ خَاطِرِ الْخَيْرِ وَخَاطِرِ الشَّرِّ في الْجُمْلَةِ.

وَالثّانِي: الْفَرْقُ بَيْنَ خَاطِرِ شَرٍّ ٱبْتِدَائِيٍّ أَوْ هَوَائِيٍّ أَوْ شَيْطَانِيٍّ، وَبِمَاذَا تُفَرِّقُ بَيْنَهَا. فَإِنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا دَفْعاً مِنْ نَوْعٍ آخَرَ.

وَالثّالِثُ: الْفَرْقُ بَيْنَ خَاطِرِ خَيْرٍ ٱبْتِدَائِيٍّ أَمْ إِلْهَامِيٍّ، أَوْ شَيْطَانِيٍّ (أو هوائي)[1]، لِتَتْبَعَ مَا يَكُونُ مِنَ اللّٰهِ تَعَالى أَوْ مِنَ الْمُلْهِمِ، وَتَجْتَنِبَ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَكَذٰلِكَ الْهَوائي عَلَى قَوْلِ مِنْ يَقُولُ بِهِ.

في التفريق بين خاطر الخير وخاطر الشر

فَأَمَّا الْفَصْلُ الأَوَّلُ: فَقَالَ عُلَمَاؤُنَا رحمهم الله إذَا أَرَدْتَ أَنْ تعرف خَاطِرَ الْخَيْرِ مِنْ خَاطِرِ الشَّرِّ، وَتُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا، فَزِنْهُ بِأَحَدِ الْمَوَازِينِ الأَرْبَعَةِ، يَتَبَيَّنْ لَكَ حَالُهُ:

موازين الخواطر

اعرِضِ الأمْرَ الَّذِي خَطَرَ بِبَالِكَ عَلى الشَّرْعِ، فَإِنْ وَافَقَ جِنْسَهُ فَهُوَ خَيْرٌ، وَإِنْ كَانَ بِالضِّدِّ بِرُخْصَةٍ أَوْ شُبْهَةٍ فَهُوَ شَرٌّ.

فَإِنْ لَمْ يَسْتَبِنْ لَكَ بِهٰذَا الْمِيزَانِ، فَاعْرِضْهُ عَلَى **الاقْتِدَاءِ**، فَإِنْ كَانَ فِي فِعْلِهِ ٱقْتِدَاءٌ بِالصَّالِحِينَ فَهُوَ خَيْرٌ، وَإِنْ كَانَ بِالضِّدِّ ٱتِّبَاعاً لِلطَّالِحِينَ فَهُوَ شَرٌّ.

وَإِنْ لَمْ يَسْتَبِنْ لَكَ بِهٰذَا الْمِيزَانِ، فَاعْرِضْهُ عَلَى **النَّفْسِ وَالْهَوَى**، وانْظُرْ إِنْ كَانَ مِمَّا تَنْفِرُ النَّفْسُ عنه نُفْرَةَ طَبْعٍ، لاَ نُفْرَةَ خَشْيَةٍ

---

(١) الخاطر الهوائي هو ما يكون من قبل هوى النفس. واللفظة زيادة من (ج) و (د).

وَتَرْهِيبٍ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ خَيْرٌ، وَإِنْ كَانَ مِمَّا تَمِيلُ النَّفْسُ إِلَيْهِ مَيْلَ طَبْعٍ وَجِبِلَّةٍ، لَا مَيْلَ رَجَاءٍ إِلى اللَّهِ تَعَالى وَتَرْغِيبٍ، فَهُوَ شَرٌّ؛ إِذِ النَّفْسُ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ لَا تَمِيلُ بطبعها إِلى خَيْرٍ. فَبِأَحَدِ هٰذِهِ المَوَازِين، إِذَا نَظَرْتَ وَأَنْعَمْتَ النَّظَرَ، يَسْتَبِينُ خَاطِرُ الْخَيْرِ مِنْ خَاطِرِ الشَّرِّ، وَاللَّهُ تَعالى وَلِيُّ الهِدَايَةِ بِفَضْلِهِ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.

في الدافع إلى خاطر الشر

وَأَمَّا الْفَصْلُ الثَّانِي: فإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُفَرِّقَ بَيْنَ خَاطِرِ شَرٍّ يَكُونُ مِنْ قِبَلِ الشَّيْطَانِ، وَبَيْنَ خَاطِرِ شَرٍّ يَكُونُ مِنْ هَوَى النَّفْسِ، أَوْ مِنَ اللَّهِ تَعَالى ٱبْتِدَاءً فَانْظُرْ فِيهِ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ/ : [٢٥/أ]

أَحَدُها: إِنْ وَجَدْتَهُ مُصَمِّماً رَاتِباً عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ، فَهُوَ مِنَ اللَّهِ تَعالى أَوْ مِنْ هَوَى النَّفْسِ، وَإِنْ وَجَدْتَهُ مُتَرَدِّداً، فَاعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ. وَكَانَ بَعْضُ العَارِفِينَ يَقُولُ: مَثَلُ هَوَى النَّفْسِ مَثَلُ النَّمِرِ إِذَا حَارَبَ لَا يَنْصَرِفُ إِلَّا بِقَمْعٍ بَالِغٍ وَقَهْرٍ ظَاهِرٍ؛ أَوْ مَثَلُ الْخَارِجِيِّ الَّذِي يُقَاتِلُ تَدَيُّناً، لَا يَكَادُ يَرْجِعُ حَتَّى يُقْتَلَ. وَمَثَلُ الشَّيْطَان مَثَلُ الذِّئْبِ، إِذَا طَرَدْتَهُ مِنْ جَانِبٍ دَخَلَ مِنْ جَانِبٍ.

وَثَانِيهَا: إِنْ وَجَدْتَهُ عَقِيبَ ذَنْبٍ أَحْدَثْتَهُ فَهُوَ مِنَ اللَّهِ تَعالَى، إِهَانَةً وَعُقُوبَةً بِشُؤْمِ ذٰلِكَ الذَّنْبِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤].

قَالَ شَيْخِي الإِمَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ: هٰكَذَا تُؤَدِّي الذُّنُوبُ إِلَى قَسْوَةِ الْقَلْبِ: أَوَّلُها خَاطِرٌ، ثُمَّ تُؤَدِّي إِلى الْقَسْوَةِ وَالرَّيْنِ.

وَإِنْ كَانَ هٰذَا الْخَاطِرُ مُبْتَدَأً لَا عَقِيبَ ذَنْبٍ كَانَ مِنْكَ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ

مِنْ قِبَلِ الشَّيْطَانِ، هٰذَا فِي الأَكْثَرِ، لأَنَّهُ يَبْتَدِىءُ بِدَعْوَةِ الشَّرِّ وَيَطْلُبُ الإِغْوَاءَ بِكُلِّ حَالٍ.

وَثَالِثُهَا: إِنْ وَجَدْتَهُ لاَ يَضْعُفُ وَلاَ يَقِلُّ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعالى، وَلاَ يَزُولُ، فَهُوَ مِنَ الْهَوَى، وَإِنْ وَجَدْتَهُ يَضْعُفُ وَيَقِلُّ بِذِكْرِ اللَّهِ تعالى فَهُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ كَمَا ذُكِرَ فِي قَوْلِهِ تَعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾ [الناس: ٤] أَنَّ الشَّيْطَانَ جَاثِمٌ عَلَى قَلْبِ ٱبْنِ آدَمَ: إِذَا ذَكَرَ اللَّهَ تَعالى خَنَسَ، وَإِذَا غَفِلَ وَسْوَسَ.

في الدافع إلى خاطر الخير

وَأَمَّا الْفَصْلُ الثَّالِثُ: فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُفَرِّقَ بَيْنَ خَاطِرِ خَيْرٍ يَكُونُ مِنَ اللَّهِ تَعالى، أَوْ مِنَ المَلَكِ، فَانْظُرْ فِي ذٰلِكَ مِنْ ثَلاثَةِ أَوْجُهٍ:

(**أَحَدُهَا**: أَنْ تَنْظُرَ)[1] فَإِنْ كَانَ قَوِيّاً مُصَمِّماً، فَهُوَ مِنَ اللَّهِ تعالى، وَإِنْ كَانَ مُتَرَدِّداً، فَهُوَ مِنَ المَلَكِ؛ إِذْ هُوَ بِمَنْزِلَةِ نَاصِحٍ يَدْخُلُ مَعَكَ فِي كُلِّ جَانِبٍ وَوَجْهٍ، وَيَعْرِضُ عَلَيْكَ كُلَّ نُصْحٍ، رَجَاءَ إِجَابَتِكَ وَرَغْبَتِكَ فِي الخَيْرِ.

وَالثَّانِي: إِنْ كَانَ عَقِيبَ ٱجْتِهَادٍ مِنْكَ وَطَاعَةٍ، فَهُوَ مِنَ اللَّهِ سبحانِهِ وتَعَالَى، قَالَ اللَّهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾ العنكبوت: ٦٩ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]، وَإِنْ كَانَ مُبْتَدَأً، فَهُوَ مِنَ المَلَكِ فِي الأَغْلَبِ.

وَالثَّالِثُ: إِنْ كَانَ فِي الأُصُولِ وَالأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ، فَهُوَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى؛ وَإِنْ كَانَ فِي الْفُرُوعِ وَالأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ، فَهُوَ مِنَ

---

(١) ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

الْمَلَكِ فِي الأَكْثَرِ؛ إِذِ المَلَكُ لاَ سَبِيلَ لَهُ/ إلى مَعْرِفَةِ بَاطِنِ الْعَبْدِ في [٢٥/ب] قَوْلِ أَكْثَرِهِمْ.

وَأَمَّا خَاطِرُ الْخَيْرِ الَّذِي يَكُون مِنْ قِبَلِ الشَّيْطَانِ ٱسْتِدْرَاجاً إِلى شَرٍّ يَرْبِي عَلَيْهِ، فَلَقَدْ قَالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ: ٱنْظُرْ إِنْ وَجَدْتَ نَفْسَكَ فِي ذٰلِكَ الْفِعْلِ الَّذِي خَطَرَ بِقَلْبِكَ، مَعَ نَشَاطٍ لاَ مَعَ خَشْيَةٍ، وَمَعَ عَجَلَةٍ لاَ مَعَ تَأَنٍّ، وَمَعَ أَمْنٍ لاَ مَعَ خَوْفٍ، وَمَعَ عَمَى الْعَاقِبَةِ لاَ مَعَ بَصِيرَةٍ، فَاعْلَم أَنَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبْهُ؛ وَإِنْ وَجَدْتَ نَفْسَكَ عَلَى ضِدِّ ذٰلِكَ، مَعَ خَشْيَةٍ لاَ مَعَ نَشَاطٍ، وَمَعَ تَأَنٍّ لاَ مَعَ عَجَلَةٍ، وَمَعَ خَوْفٍ لاَ مَعَ أَمْنٍ، وَمَعَ بَصَارَةٍ لِلْعَاقِبَةِ لاَ مَعَ عَمًى، فَاعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ مِنَ المَلَكِ.

قُلْتُ أَنَا: وَكَأَنَّ النَّشَاطَ خِفَّةٌ فِي الإِنْسَانِ لِلْفِعْلِ مِنْ غَيْرِ بَصِيرَةٍ وَذِكْرِ ثَوَابٍ يُنْشِطُهُ فِي ذٰلِكَ.

وَأَمَّا التَّأَنِّي فَمَحْمُودٌ إِلاَّ فِي مَوَاضِعَ مَعْدُودَةٍ؛ وَذُكِرَ فِي الخَبَرِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «الْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلاَّ فِي خَمْسٍ: فِي تَزْوِيجِ الْبِكْرِ إِذَا أَدْرَكَتْ، وَقَضَاءِ الدَّيْنِ إِذَا وَجَبَ، وَتَجْهِيزِ المَيِّتِ إِذَا مَاتَ، وَقِرَى الضَّيْفِ إِذَا نَزَلَ، وَالتَّوْبَةِ مِنَ الذَّنْبِ إِذَا أَذْنَبْتَ»[1].

---

(١) ــ ورد هذا الحديث في الإحياء (٣/ ٣٣) بلفظ: (العجلة من الشيطان والتأنّي من الله تعالى) وذكر العراقي تخريجه من حديث سهل بن سعد بلفظ الأناة. وقال حسن.

ــ وقد ذكره الإمام السخاوي في المقاصد الحسنة (ص ١٥١) بلفظ: (التأني من الله والعجلة من الشيطان) وتتبع رواته ورواياته وذكر أنه مرفوع عن أنس وذكر =

وَأَمَّا الْخَوْفُ فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ فِي إِتْمَامِهِ وَأَدَائِهِ عَلَى حَقِّهِ وَوَجْهِهِ وَقَبُولِ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاه.

وَأَمَّا بَصَارَةُ الْعَاقِبَةِ فبأَنْ يَتَبَصَّرَ وَيَتَيَقَّنَ أَنَّهُ خَيْرٌ وَرُشْدٌ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ لِرُؤْيَةِ الثَّوَابِ فِي الْعُقْبَى وَرَجَائِهِ. فَاعْلَمْ ذٰلِكَ مُوَفَّقاً.

فَهٰذِهِ جُمْلَةُ الْفُصُولِ الثَّلاثَةِ، الَّتِي لَزِمَتْكَ مَعْرِفَتُهَا فِي فَصْلِ الْخَوَاطِرِ، فَارْعَهَا وَأَمْعِنِ النَّظَرَ فِيهَا مَا اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّهَا مِنَ الْعُلُومِ اللَّطِيفَةِ وَالأَسْرَارِ الشَّرِيفَةِ فِي هٰذَا الْبَابِ، واللَّهُ المُوَفِّقُ بِفَضْلِهِ.

مكايد الشيطان في الطاعة

وَأَما فَصْلُ الْحِيَلِ وَالمُخَادَعَاتِ مِنَ الشَّيْطَانِ فَمَجْرَى ذٰلِكَ وَمِثَالُهُ، أَنَّ مَكَايِدَ الشَّيْطَانِ مع ابن آدم في الطَّاعَةِ فِي سَبْعَةِ أَوْجُهٍ:

١ ــ **أَحَدُهَا: أَنْ يَنْهَاهُ عَنْها**؛ فَإِنْ عَصَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى رَدَّهُ، بِأَنْ قَالَ: مُحْتَاجٌ إلى ذٰلِكَ جِداً، إِذْ لاَ بُدَّ لِي مِنَ التَّزَوُّدِ مِنْ هٰذِهِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ، لِلآخِرَةِ الَّتِي لاَ انْقِضَاءَ لَهَا.

٢ ــ **ثُمَّ يَأْمُرُهُ بِالتَّسْوِيفِ**، فَإِن عَصَمَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَرَدَّهُ، بِأَنْ قَالَ: لَيْس أَجَلِي بِيَدِي، عَلَى أَنِّي إِن سَوَّفْتُ عَمَلَ الْيَوْمِ إِلَى غَدٍ فَعَمَلُ غَدٍ مَتَى أَعْمَلُهُ؟ فَإِنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلاً/ . [٢٦/أ]

= رواية الغزالي عن حاتم الأصم وهي بلفظ: (العجلة من الشيطان إلاّ في خمسة فإنها من سنة رسول الله ﷺ: إطعام الطعام، وتجهيز الميت، وتزويج البكر، وقضاء الدين، والتوبة من الذنب).

ــ وكذلك فعل العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٣٥٠) الحديث رقم (٩٤٣). ويلاحظ أن نص الحديث في المنهاج ورد باستبدال عبارة (وقرى الضيف إذا نزل) بعبارة (وتزويج البكر).

٣ ـ **ثُمَّ يَأمُرُهُ بِالْعَجَلَةِ** فيَقُولُ لَهُ: عَجِّلْ عَجِّلْ لِتَفْرُغَ لِكَذَا وَكَذَا، فَإِنْ عَصَمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى وَرَدَّهُ بِأَنْ قَالَ: قَلِيلُ الْعَمَلِ مَعَ التَّمَامِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرِهِ مَعَ النُّقْصَانِ.

٤ ـ **ثُمَّ يَأمُرُهُ بِإِتْمَامِ الْعَمَلِ مُراءَاةً لِلنَّاسِ**، فَإِنْ عَصَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وردَّه بِأَنْ قَالَ: مَا الَّذِي أَعْمَلُ بِمُراءَاةِ النَّاسِ؟ أَفَلاَ تكْفِينِي رُؤْيَةُ اللَّهِ تَعَالَى.

٥ ـ ثُمَّ يُرِيدُ أَنْ **يُوقِعَهُ في الْعُجْبِ**، فَيَقُولُ: مَا أَعْظَمَكَ وَمَا أَيْقَظَكَ وَمَا أَفْضَلَكَ! فَإِن عَصَمَه اللَّهُ تَعَالَى ورَدَّهُ بِأَنْ قَالَ: المِنَّةُ لِلَّهِ تَعَالَى في ذٰلِكَ دُونِي، وهُوَ الَّذي خَصَّنِي بِتَوْفِيقِهِ، وَجَعَلَ لِعَمَلِي قِيمَةً بِفَضْلِهِ، وَلَوْلاَ فَضْلُهُ فَمَاذَا كَانَ قِيمَة هٰذَا الْعَمَلِ في جَنْبِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيَّ وَجَنْبِ مَعْصِيَتِي لَهُ؟

٦ ـ ثُمَّ يَأْتِيهِ مِنْ وَجْهٍ سَادِسٍ، وَهُوَ أَعْظَمُهَا، وَلاَ يَقِفُ عَلَيْهِ إلاّ مُتَيَقِّظٌ، وَهُوَ: أَنْ يَقُولَ: ٱجْتَهِدْ أَنْتَ فِي السِّرِّ، فَإِنّ اللَّهَ تَعَالَى سَيُظْهِرُهُ عَلَيْكَ **وَيَلْبسُ كُلّ عَامِلٍ عَمَلَهُ**. وَأَرَاد بِذٰلِكَ ضَرْباً مِنَ الرِّيَاء، فَإِنْ عَصَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ورَدَّهُ بِأَنْ قَالَ: يَا مَلْعُونُ، إلى الآن كُنْتَ تَأتِيني مِنْ وَجْهِ إِفْسَادِ عَمَلِي، وَالآنَ تَأْتِينِي مِنْ وَجْهِ إِصْلاَحِهِ لِتُفْسِدَهُ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدُ ٱللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ سَيِّدِي إِنْ شَاءَ أَظْهَرَ وَإِنْ شَاءَ أَخْفَى، وَإِن شَاءَ جَعَلَنِي خَطِيراً، وَإِنْ شَاءَ جَعَلَنِي حَقِيراً، وَذٰلِكَ إِلَيْهِ، وَمَا أُبالِي، أَظْهَرَ ذَلِكَ لِلنّاسِ أَوْ لَمْ يُظْهِرْهُ، فَلَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ.

٧ ـ ثُمَّ يَأْتِيهِ مِنْ وَجْهٍ سَابعٍ وَيَقُولُ: **لاَ حَاجَةَ لَكَ إِلَى هٰذَا الْعَمَلِ** لِأَنَّكَ إِنْ خُلِقْتَ سَعيداً، لَمْ يَضُرَّكَ تَرْكُ الْعَمَلِ، وَإِنْ خُلِقْتَ شَقياً لَمْ يَنْفَعْكَ فِعْلُهُ، فَإِنْ عَصَمَهُ اللَّهُ تَعَالى ورَدَّهُ بِأَنْ قَالَ: إِنَّمَا أَنَا

عَبْدٌ، وَعَلَى الْعَبْدِ ٱمْتِثَالُ الأَمْرِ بِعُبُودِيَّتِهِ، وَالرَّبُّ أَعْلَمُ بِرُبُوبِيَّتِهِ، يَحْكُمُ مَا يَشَاءُ وَيَفْعَلُ مَا يُرِيدُ. وَلأَنَّهُ يَنْفَعُنِي الْعَمَلُ كَيْفَمَا كُنْتُ، لأَنِّي إِنْ كُنْتُ سَعِيداً ٱحْتَجْتُ إِلَيْهِ لِزِيَادَةِ الثَّوَابِ، وَإِنْ كُنْتُ شَقِيّاً، فَأَنَا مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ كَيْ لاَ أَلُومَ نَفْسِي، وَعَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لاَ يُعَاقِبُنِي عَلَى الطَّاعَةِ بِكُلِّ حَالٍ، وَلاَ يَضُرُّنِي، وَعَلَى أَنِّي إِنْ أُدْخِلْتُ النَّارَ وَأَنَا مُطِيعٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَدْخُلَهَا وَأَنَا عَاصٍ، فَكَيْفَ وَوَعْدُهُ حَقٌّ وَقَوْلُهُ صِدْقٌ؟ وَقَدْ وَعَدَ عَلَى الطَّاعَاتِ بِالثَّوَابِ، فَمَنْ لَقِيَ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى/ الإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ لَمْ يَدْخُلِ النَّارَ أَلْبَتَّةَ، وَدَخَلَ الْجَنَّةَ لاَ لاِسْتِحْقَاقِهِ بِعَمَلِهِ الْجَنَّةَ، وَلٰكِنْ لِوَعْدِ اللَّهِ الصَّادِقِ. وَلِهٰذَا الْمَعْنَى أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ السُّعَدَاءِ، إِذْ قَالُوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزّمر: ٧٤]. فَتَيَقَّظْ رَحِمَكَ اللَّهُ، فَإِنَّ الأَمْرَ كَمَا تَرَى وَتَسْمَعُ، وَقِسْ عَلَيْهِ سَائِرَ الأَفْعَالِ وَالأَحْوَالِ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ تَعَالَى وَاسْتَعِذْ بِهِ، فَإِنَّ الأَمْرَ بِيَدِهِ وَمِنْهُ التَّوْفِيقُ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

[٢٦/ب]

الْعَائِقُ الرَّابِعُ: النَّفْسُ:

صفات النفس الأمّارة بالسوء

ثُمَّ عَلَيْكَ، عَصَمَكَ اللَّهُ وَإِيَّانَا، بِالْحَذَرِ مِنْ هٰذِهِ النَّفْسِ الأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ، فَإِنَّهَا أَضَرُّ الأَعْدَاءِ، وَبَلاؤُهَا أَصْعَبُ الْبَلاَءِ، وَعِلاجُهَا أصعب الأَشْيَاءِ، وَدَاؤُهَا أَعْضَلُ الدَّاءِ، وَدَوَاؤُهَا أَشْكَلُ الدَّوَاءِ؛ وَإِنَّمَا ذٰلِكَ لأَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهَا عَدُوٌّ مِنْ دَاخِلِ (الجسد)[1]، وَاللِّصُّ إِذَا كَانَ مِنْ

(١) زيادة من (ج).

دَاخِلِ الْبَيْتِ عَزّتِ الْحِيلَةُ فِيهِ وَعظُمَ الضَّرَرُ. وصَدَقَ الْقَائِلُ: [الوافر]:

نفْسِـي إِلَـى مَـا ضَـرَّنـي دَاعِـي ... تكْثِيـر أَسْقَـامِـي وَأَوْجَـاعِـي
كَيْـف ٱحْتِيَـالِـي مِـنْ عَـدُوي إِذَا ... كَـانَ عَـدُوِّي بَيْـنَ أَضْـلاَعِـي

وَالثَّانِي: أَنَّها عَدُوٌّ مَحْبُوبٌ، وَالإِنْسَانُ عَمٍ عَنْ عَيْبِ مَحْبُوبِهِ، لاَ يَكَادُ يُبْصِرُ عَيْبَهُ، كَمَا قَالَ الْقَائِلُ: [الطويل]:

(وَلَسْتَ تَرَى عَيْباً لِذِي الْوِدِّ وَالإِخَا ... وَلاَ بَعْضَ مَا فِيهِ إِذَا كُنْتَ رَاضِياً)[1]
وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ ... وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي المَسَاوِيَا

فَإِذاً يَسْتَحْسِنُ الإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ كُلَّ قَبِيحٍ، وَلاَ يَكَادُ يَطَّلِعُ عَلَى عَيْبٍ لَهَا، وَهِيَ فِي عَدَاوَتِهَا وَأَضْرَارِهَا، فَمَا أَوْشَكَ مَا تُوقِعُهُ فِي كل فَضِيحَةٍ وَهَلاَكٍ، وَهُوَ لاَ يَشْعُرُ إِلاَّ أَنْ يَحْفَظَهُ اللَّهُ تَعَالى بِفَضْلِهِ، وَيُعِينهُ عَلَيْهَا بِرَحْمَتِهِ.

أمثلة على فتن النفس

ثُمَّ أَقُولُ: تَأَمَّلْ أَيُّهَا الرَّجُلُ نُكْتَةً وَاحِدَةً مُقْنِعَةً، وَهِيَ أَنَّكَ إِذَا نَظَرْتَ وَجَدْتَ أَصْلَ كُلِّ فِتْنَةٍ وَفَضِيحَةٍ وَخِزْيٍ وَهَلاَكٍ وَذَنْبٍ وَآفَةٍ وَقَعَ فِي خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَوَّل الْخَلْقِ إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ قِبَلِ هذِهِ النَّفْسِ، إِمَّا بِهَا وَحْدَهَا، أَوْ بِمُعَاوَنَتِهَا وَمُشَارَكَتِهَا وَمُسَاعَدَتِهَا.

فَأَوَّلُ المَعْصِيَةِ لِلَّهِ تَعَالَ كَانَ مِنْ إِبْلِيسَ، وَكَان سَبَبُهُ بَعْدَ الْقَضَاءِ السّابِقِ هَوَى النَّفْسِ بِكِبْرِهَا وَحَسَدِهَا، أَلْقَتْهُ بَعْدَ عِبَادَةِ ثَمَانِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، فِي مَا قِيلَ، فِي بَحْرِ الضَّلاَلِ/ فَغَرِقَ إِلى أَبَدِ الآبِدِينَ، إِذْ لَمْ [٢٧/أ]

(١) زيادة من (د) و (هـ).

يَكُنْ هُنَالِكَ دُنْيَا وَلاَ خَلْقٌ وَلاَ شَيْطَانٌ، بَلْ كَانَتِ النَّفْسُ بِكِبْرِهَا وَحَسَدِهَا، فَعَمِلَتْ بِهِ مَا عَمِلَتْ.

ثُمَّ ذَنْبُ آدَمَ وَحَوَّاءَ عَلَيْهِمَا السَّلامُ، طَرَحَتْهُمَا شَهْوَةُ النَّفْسِ فِي ذٰلِكَ[1]، وَحِرْصُهُمَا عَلَى الْبَقَاءِ وَالْحَيَاةِ[2]، حَتَّى اغْتَرَّا بِقَوْلِ إِبْلِيسَ، فَكَانَ ذٰلِكَ إِذاً بِعَوْنِ النَّفْسِ وَشِرْكَتِهَا، حَتَّى سَقَطَا بِذٰلِكَ مِنْ جِوَارِ اللّٰهِ تَعَالَى، وَقَرَارِ الْفِرْدَوْسِ، إِلَى هٰذِهِ الدُّنْيَا الْحَقِيرَةِ النَّكِدَةِ الْفَانِيَةِ الْمُهْلِكَةِ، وَلَقِيَا مَا لَقِيَا، وَلَقِيَ أَوْلاَدُهُمَا مَا لَقَوْا مِنْ ذٰلِكَ الْيَوْمِ إِلى أَبَدِ الآبِدِينَ.

ثُمَّ حَدِيثُ قَابِيلَ وَهَابِيلَ[3]، كَانَ السَّبَبَ (فِي أَمْرِهِمَا)[4] الْحَسَدُ وَالشُّحُّ.

ثُمَّ حَدِيثُ هَارُوتَ وَمَارُوتَ[5]، كَانَ السَّبَبَ (فِي شَأْنِهِمَا)[6] الشَّهْوَةُ، ثُمَّ هَلُمَّ جَرّاً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَلاَ تَجِدُ فِي الْخَلْقِ فِتْنَةً وَلاَ فَضِيحَةً وَلاَ ضَلاَلاً وَلاَ مَعْصِيَةً، إِلاَّ وَأَصْلُهَا النَّفْسُ وَهَوَاهَا، وَإِلاَّ كَانَ النَّاسُ فِي سَلاَمَةٍ. وَإِذَا كَانَ

---

(١) في ذلك: أي في فعل المنهيّ عنه.

(٢) أي: إن شهوة النفس في الحرص على البقاء والحياة ألقتهما في المعصية.

(٣) ابنا آدم عليه السلام. راجع قصتهما في القرآن الكريم، سورة المائدة، الآيات ٢٧ - ٣١.

(٤) زيادة من (د) و (هـ).

(٥) ملكان ذكر الله تعالى قصتهما في كتابه العزيز، سورة البقرة الآية ١٠٢.

(٦) زيادة من (د) و (هـ).

عَدُوٌّ بِهٰذَا الضَّرَرِ كُلِّهِ فَحَقٌّ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَهْتَمَّ بِأَمْرِهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى وَلِيُّ الْهِدَايَـةِ وَالتَّوْفِيقِ بِفَضْلِهِ.

كيفية لجم النفس

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا الْحِيلَةُ لَنَا إِذاً في هٰذَا الْعَدُوِّ، وَمَا التَّدْبِيرُ في أَمْرِهِ؟ فَبَيِّنْ لَنَا ذٰلِكَ.

فَاعْلَمْ أَنَّا ذَكَرْنَا فِيمَا تَقَدَّمَ، أَنَّ أَمْرَهَا عَسِيرٌ وصَعْبٌ، إِذْ لاَ يُمْكِنُ قَهْرُهَا بِمَرَّةٍ كَسَائِرِ الأَعْدَاءِ، إِذْ هِيَ المَطِيَّةُ وَالآلَةُ، - قِيلَ إِنَّ أَعْرَابِياً دَعَا لإِنْسَانٍ بِخَيْرٍ، فَقَالَ: كَبَتَ اللَّهُ كُلَّ عَدُوٍّ لَكَ إِلاَّ نَفْسَكَ - وَلاَ يُمْكِنُ إِهْمَالُها بِمَرَّةٍ، لِمَكَانِ ضَرَرِهَا، فَتَحْتَاجُ إِلى طَرِيق بَيْنَ طَرِيقَيْنِ: تُرَبِّيها وَتُقَوِّيها بِقَدْرِ مَا تَحْتَمِلُ فِعْلَ خَيْرٍ، وَتُضْعِفُهَا وَتَحْبِسُهَا عَلَى حَدٍّ لاَ تَتَمادى. فَأَنْتَ مِنْ أَمْرِهَا في عِلاَجٍ شَدِيدٍ وَنَظَرٍ لَطِيفٍ.

ثُمَّ قَدْ ذَكَرْنَا فِي أَمْرِهَا أَنْ تُلْجِمَهَا بِلِجَامِ التَّقْوَى وَالْوَرَعِ، لِتُحَصِّلَ الْفَائِدَتَيْنِ جَمِيعاً.

فَإِن قِيلَ: إنّ هٰذِهِ دَابَّةٌ جَمُوحٌ وَبَهِيمَةٌ صَعْبَةٌ شَكِسَةٌ لاَ تَنْقَادُ لِلِّجَامِ، فَمَا الْحِيلَةُ فِيها حَتَّى تُمَكِّنَنَا مِنْهَا؟

طُرُق تذليل النفس

فاعْلَمْ أَنَّكَ فِيهَا لصَادِقٌ، وَالْحِيلَةُ تَذْلِيلُهَا حَتَّى تَنْقَادَ لِلِّجَامِ.

قَالَ عُلَمَاؤُنا رَحِمَهُم اللَّه: إِنَّما تُذَلَّلُ النَّفْسَ وَتَكْسِرُ هَوَاهَا بِثَلاَثَةِ أَشْيَاءِ.

أَحَدُهَا: مَنْعُ الشَّهَوَاتِ؛ فَإِنَّ الدَّابَّةَ الحَرُونَ تَلِينُ إِذَا نُقِصَ مِنْ عَلَفِهَا.

وَالثَّانِي: حَمْلُ أَثْقَالِ العِبادَاتِ عَلَيْهَا؛ فَإِنَّ الْحِمَارَ إِذَا زِيدَ في حَمْلِهِ مَعَ النُّقْصَانِ مِنْ عَلَفِهِ تَذَلَّلَ وَٱنْقَادَ/. [٢٧/ب]

وَالثَّالِثُ: الإِسْتِعَانَةُ بِاللَّهِ وَالتَّضَرُّعُ إِلَيْهِ، بِأَنْ يُعِينَكَ، وَإِلَّا فَلَا مَخْلَصَ؛ أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف: ٥٣].

فَإِذَا وَاظَبْتَ عَلَى هٰذِهِ الأُمُورِ الثَّلَاثَةِ، ٱنْقَادَتْ لَكَ النَّفْسُ الْجَمُوحُ، بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى، فَحِينَئِذٍ تُبَادِرُ إِلَى أَنْ تَمْلِكَهَا وَتُلْجِمَهَا وَتَأْمَنَ مِنْ شَرِّهَا(١).

ماهية التقوى

فَإِنْ قُلْتَ: فَبَيِّنْ الآنَ مَا هُوَ التَّقْوَى(٢) حَتَّى نَعْلَمَهُ؟

فَاعْلَمْ أَوَّلاً أَنَّ التَّقْوَى كَنْزٌ عَزِيزٌ، فَلَئِنْ ظَفِرْتَ بِهِ، فَكَمْ تَجِدُ فِيهِ مِنْ جَوهَرٍ شَرِيفٍ، وَعِلْقٍ نَفِيسٍ، وَخَيْرٍ كَثِيرٍ، وَرِزْقٍ كَرِيمٍ، وَفَوْزٍ كَبِيرٍ، وَغُنْمٍ جسِيمٍ، وَمُلْكٍ عَظِيمٍ، وَكَأَنَّ خَيْرَاتِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ جُمِعَتْ فَجُعِلَتْ تَحْتَ هذهِ الْخَصْلَةِ الْوَاحِدَةِ الَّتِي هِيَ التَّقْوَى؛ فَتَأَمَّلْ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ ذِكْرِها، كَمْ عَلَّقَ بِهَا مِنْ خَيْرٍ، وَكَمْ وَعَدَ عَلَيْهَا مِنْ ثَوَابٍ وَأَجرٍ، وَكَمْ أَضَافَ إِلَيْهَا مِنْ سَعَادَةٍ، وَأَنَا أَعُدُّ لَكَ مِنْ جُمْلَتِهَا ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ خَصْلَةً:

---

(١) هذا الرأي الذي يورده الغزالي، كما يذكره غيره من رجال الصوفية، والمتعلّق بقهر النفس وتذليلها، وتشبيهها بالدابّة الجموح، التي لا يمكن لجمها إلّا بنقص علفها، يعارضه العلماء الذين انتقدوا مسالك الصوفية وطريقة تعاملهم مع النفس. انظر بهذا الخصوص رأي ابن الجوزي في كتابه «تلبيس إبليس» ونقده لمسالك الصوفية في طعامهم وشرابهم. (ص ٢٠٦ ـ ٢١٨).

(٢) أي ما هو حَدّ التقوى حتى نعلمه.

أَوَّلُهَا: الْمِدْحَةُ وَالثَّناء، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝١٨٦﴾ [آل عمران: ١٨٦].

خصال التقوى

وَالثَّانِي: الحِفْظُ وَالْحِرَاسَةُ مِنَ الأعْدَاءِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وَالثَّالِثُ: التَّأْيِيدُ وَالنُّصْرَةُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾ [النحل: ١٢٨]. وَقَالَ تَعالَى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٣٦﴾ [التوبة: ٣٦].

وَالرَّابِعُ: النَّجاة مِنَ الشَّدَائِدِ وَالرِّزْقُ مِنَ الحَلاَلِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣].

وَالْخَامِسُ: إِصْلاَحُ الْعَمَلِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١].

وَالسَّادِسُ: غُفْرَانُ الذُّنُوبِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧١].

وَالسَّابِعُ: مَحَبَّةُ اللَّهِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٤﴾ [التوبة: ٤].

وَالثَّامِنُ: الْقَبُولُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٧﴾ [المائدة: ٢٧].

وَالتَّاسِعُ: الإِكْرَامُ وَالإِعْزَازُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وَالْعَاشِرُ: البِشَارَةُ عِنْدَ المَوْتِ، قَال اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ﴾ [يونس: ٦٣].

وَالْحَادِي عَشَرَ: النَّجَاةُ مِنَ النّارِ، قَالَ اللَّهُ تَعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ [مريم: ٧٢]، وَقَالَ تَعالَى: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ﴾ [الليل: ١٧].

وَالثَّانِي عَشَرَ: الْخُلُودُ فِي الْجَنَّةِ، قَالَ اللَّهُ تَعالَى: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]/ [٢٨/أ]. فَهٰذَا بيانُ كُلِّ خَيْرٍ وَسَعَادَةٍ في الدَّارَيْنِ تَحْتَ هٰذِهِ التَّقْوَى، فَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ مِنْها.

ما يختص بالمتّقين

ثُمَّ الَّذي يَخْتَصُّ بِهٰذَا الشَّأْنِ مِنْ أَمْرِ العِبادةِ ثلاثَةُ أُصُولٍ:

أَحدُهَا: التَّوْفِيقُ وَالتَّأْيِيدُ أَوَّلاً، وَهُوَ لِلْمُتَّقِينَ، كما قالَ اللَّهُ تَعالى: ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝١٩٤ ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وَالثَّانِي: إصْلاَحُ الْعَمَلِ وَإِتْمَامُ التَّقْصِيرِ، وَهُوَ لِلْمُتَّقِينَ، كَمَا قالَ تَعالى: ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٧١].

وَالثَّالِثُ: قَبولُ الْعَمَلِ، وَهُوَ لِلْمُتَّقِينَ، كمَا قالَ اللَّهُ تَعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٧ ﴾ [المائدة ٢٧].

وَمَدَارُ الْعِبادَةِ عَلَى هٰذِهِ الأُمُورِ الثَّلاثَةِ: التَّوْفِيقُ أَوَّلاً حَتَّى يَعْمَلَ، ثُمَّ الإِصْلاَحُ لِلتَّقْصِيرِ حَتَّى يَتِمَّ، ثُمَّ الْقَبُولُ إذا تَمَّ؛ وَهٰذِهِ الثّلاثَةُ الّتِي يَتَضَرَّعُ فِيهَا الْعَابِدُونَ إلى اللَّهِ عزّ وجلّ، وَيَسْأَلُونَ فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا وَفِّقْنا لِطاعَتِكَ، وَأَتْمِمْ تَقْصِيرَنا، وَتَقَبَّلْ مِنَّا؛ وَقَدْ وَعَدَ اللَّهُ ذٰلِكَ كُلَّهُ عَلَى التَّقْوَى، وَأَكْرَمَ بِها المُتَّقِيَ، سَأَلَ أَوْ لَمْ

يَسْأَلْ. فَعَلَيْكَ بِهٰذِهِ التَّقْوَى، إِنْ أَرَدْتَ عِبادَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، بَلْ أَرَدْتَ سَعَادَةَ الدُّنْيَا وَالْعُقْبَى. وَلَقَدْ صَدَقَ الْقَائِلُ: [السريع]:

مَـنِ ٱتَّقَـى اللَّـهَ فَـذَاكَ الَّـذِي ... سِيـقَ إِلَيْـهِ المَتْجَـرُ الـرَّابِـحُ
لَا يَتْبَـعُ المَـرْءَ إِلَـى قَبْـرِهِ ... إِلَّا التُّقَـى وَالْعَمَـلُ الصَّـالِـحُ

والقائل: [السريع]:

مَـنْ عَـرَفَ اللَّـهَ وَلَـمْ تُغْنِـهِ ... مَعْـرِفَـةُ ٱللَّـهِ فَـذَاكَ الشَّقِـي
مَـا ضَـرَّ ذَا الطَّـاعَـةِ مَـا نَـالَـهُ ... فِـي طَـاعَـةِ ٱللَّـهِ وَمَـا ذَا لَقِـي
مَـا يَصْنَـعُ الْعَبْـدُ بِعِـزِّ الْغِنَـى ... وَالْعِـزُّ كُـلُّ الْعِـزِّ لِلْمُتَّقِـي

وَكُتِبَ عَلَى بَعْضِ الْقُبُور: [الخفيف المجزوء]:

لَيْـسَ زَادٌ سِـوَى التُّقَـى ... فَخُـذِي مِنْـهُ أَوْ دَعِـي

ثُمَّ تَأَمَّلْ أَصْلاً وَاحِداً، وَهُوَ هَبْ أَنَّكَ تَعِبْتَ جَمِيعَ عُمْرِكَ فِي الْعِبَادَةِ، وَجَاهَدْتَ وَكَابَدْتَ، حَتى حَصَلَ لَكَ مَا تَمَنَّيْتَ، أَلَيْسَ الشَّأْنُ كُلُّهُ فِي الْقَبولِ؟ وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالى يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: ٢٧]، فَرَجَعَ الأَمْرُ كُلُّهُ إِلى التَّقْوَى. وَلِذٰلِكَ رُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّها قَالَتْ: «مَا أَعْجَبَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا وَلاَ أَعْجَبَهُ أَحَدٌ إِلاَّ ذُو تُقى»[1].

وَعَنْ قَتَادَةَ[2] أَنَّهُ قالَ:/ مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَاةِ: «يَا ابْنَ آدَمَ [٢٨/ب]

---

(١) هكذا نقله العلامة ابن علوي الحداد، ولم يذكر إسناده (سراج السالكين ص ٣٣٧). لم يذكر الغزالي هذا الحديث في الإحياء، كذلك لم نجده فيما بين أيدينا من الكتب الحديثية.

(٢) قتادة بن دعامة السدوسي: من التابعين. كان عالماً كبيراً، سمع أنس بن مالك =

اتَّقِ اللَّهِ، وَنَمْ حَيْثُ شِئْتَ». وَبَلَغَنِي عَنْ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ قَيْسٍ[1] أَنَّهُ بَكَى عِنْدَ مَوْتِهِ، وَكَانَ يُصَلِّي كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ أَلْفَ رَكْعَةٍ، ثُمَّ يَأْوِي إِلى فِرَاشِهِ فَيَقُولُ لِنفسِهِ: يَا مَأْوَى كُلِّ شَرٍّ، وَاللَّهِ مَا رَضِيتُكَ لِلَّهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ. (وَبَكَى يَوْماً)[2]، فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قالَ قَوْلُهُ تَعَالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٧﴾ [المائدة: ٢٧].

أهمية التقوى

ثُمَّ تَأَمَّلْ نُكْتَةً أُخْرَى، وَهِيَ أَصْلٌ مِن الأُصُولِ، وَهِيَ مَا ذُكِرَ أَنَّ بَعْضَ الصَّالِحِينَ قالَ لِبَعْضِ أَشْيَاخِهِ: أَوْصِنِي، قَالَ: أُوصِيكَ بِوَصِيَّةِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالِمِينَ لِلأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

قُلْتُ أَنَا: أَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَى أَعْلَم بِصَلاحِ الْعَبْدِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ؟ أَوَ لَيْسَ هُوَ أَنْصَحُ لَهُ وَأَرْحَمُ وَأَرْأَفُ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ؟ وَلَوْ كَانَتْ فِي الْعَالَمِ خَصْلَةٌ هِيَ أَصْلَحُ لِلْعَبْدِ، وَأَجْمَعُ لِلْخَيْرِ، وَأَعْظَمُ لِلأَجْرِ، وَأَجَلُّ فِي الْعُبُودِيَّةِ، وَأَعْظَمُ فِي الْقَدْرِ، وَأَوْلَى بِالْحال[3]، وَأَنْجَحُ لِلآمَالِ مِنْ هٰذِهِ الخَصْلَةِ الَّتِي هِيَ التَّقْوَى، لَكَانَ اللَّهُ تَعَالَى أَمَرَ بِها عِبَادَهُ وَأَوْصى

= وابن المسيّب وابن سيرين وغيرهم من التابعين، وروى عنه جماعة من التابعين ومن أتباع التابعين وأجمعوا على توثيقه وحفظه وإتقانه وفضله.

توفي سنة ١١٨ هـ وهو ابن ست وخمسين سنة. سير أعلام النبلاء ٥/٢٦٩.

(١) ابن أبي موسى الأشعري، عامر بن عبد الله بن قيس الأشعري، أبو بردة. من سادات التابعين، كان أبوه صاحب رسول الله ﷺ. وكان عامر قاضياً على الكوفة، وله مكارم ومآثر مشهورة.

توفي سنة (١٠٤ هـ): سير أعلام النبلاء ٤/٣٤٣.

(٢) ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

(٣) في الأصل: بالحلال، والتصحيح من باقي النسخ.

خَوَاصَّهُ بِذٰلِكَ، لِكَمَالِ حِكْمَتِهِ وَسِعَةِ رَحْمَتِهِ، فَلَمَّا أَوْصَى بِهٰذِهِ الخَصلَةِ الْوَاحِدَةِ، وَجَمَعَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ مِنْ عِبادِهِ في ذٰلِكَ، وَاقْتَصرَ عَلَيْهَا، علمتَ أَنَّهَا الْغايَةُ الَّتِي لا مُتَجاوز عَنْها، وَلاَ مقتصر دُونَهَا، وَأَنَّهُ تَعَالى قَدْ جَمَعَ كُلَّ نُصْحٍ وَدَلاَلَةٍ وَإِرْشَادٍ وَتَنْبِيهٍ وَتَأْدِيبٍ، وَتَعْلِيمٍ وَتَهْذِيبٍ في هٰذِهِ الوَصِيَّةِ الْوَاحِدَةِ، كَمَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَعَلِمْتَ أَنَّ هٰذِهِ الخَصْلَةَ، الَّتِي هِيَ التَّقْوَى، هِيَ الْجَامِعَةُ لِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، الْكَافِيَةُ لِجَمِيعِ المُهِمَّاتِ، المُبَلِّغَةُ إِلَى أَعْلَى الدَّرَجَاتِ في الْعُبُودِيَّةِ.

وَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قَالَ[1]: [الطويل]:

أَلاَ إِنّما التَّقْوَى هِيَ الْعِزُّ وَالْكَرَمْ ... وَحُبُّكَ لِلدُّنْيَا هُوَ الذُّلُّ وَالْعَدَمْ
(وَلَيْسَ عَلَى عَبْدٍ تَقِيٍّ نَقِيصَةٌ ... إِذَا صَحَّحَ التَّقْوَى وَإِنْ حَاكَ أَوْ حَجَمْ)[2]

وَهٰذَا أَصْلٌ لاَ مَزِيدَ عَلَيْهِ، وَفِيهِ كِفَايَةٌ لِمَنْ أَبْصَر النُّورَ وَاهْتَدَى، وَعَمِلَ بِذٰلِكَ وَاسْتَغْنَى، وَاللَّهُ وَلِيُّ الهِدَايَةِ وَالتَّوفِيقِ بِفضلِهِ.

---

(١) هو أبو العتاهية: (ت ٢١١ هـ):
إسماعيل بن قاسم بن سويد بن كيسان العنزي، مولاهم، الكوفي، نزيل بغداد لُقِّب بأبي العتاهية لاضطراب فيه، وقيل: كان يحب الخلاعة، فيكون مأخوذ من العتوّ.
سار شعره لجودته وحسنه وعدم تقعّره. وقد تنسّك في آخر أيامه وقال في المواعظ والزهد فأجاد. سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٩٥.
انظر ترجمته وأخباره في:
الشعر والشعراء: ٤٩٧ ـ ٥٠١، طبقات ابن المعتز: ٢٢٨، الأغاني ٤/١ ـ ١١٢، تاريخ بغداد ٦/ ٢٥٠ ـ ٢٦٠، وفيات الأعيان ١/ ٢١٩ ـ ٢٢٦.
(٢) زيادة من (د) و (هـ).

المجاهدة في طلب التقوى

فَإنْ قُلْتَ: لَقَدْ عَظُمَ قَدْرُ هٰذِهِ الْخَصْلَةِ، وَجَلَّ مَوْقِعُها وَٱشْتَدَّتِ الحَاجَةُ إلى مَعْرِفتِهَا، فلاَ بُدّ الآنَ مِنْ تَفْصِيلِهَا.

فَاعْلَمْ أَنّ الأَمْرَ كَذٰلِكَ، فَحَقَّ لَهَا أَنْ يَجِلَّ قَدْرُهَا وَيَلْزَمَ طَلَبُهَا وَتَمَسَّ الْحَاجَةُ إليهَا وَإِلَى مَعْرِفَتِهَا. وَلٰكِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ خَطِيرٍ وَكَبِيرٍ يُحْتَاجُ فِي ٱجْتِلاَبِهِ إِلى طَلَبٍ كَثِيرٍ، وَتَعَبٍ كَبِيرٍ، وَهِمَّةٍ عَالِيَةٍ/ [٢٩/أ] وَجُهْدٍ شَدِيدٍ، فَإذاً، كَمَا أَنَّ هٰذِهِ الْخَصْلَةَ خَصْلَةٌ عَظِيمَةٌ كَبِيرَةٌ، فَالمُجَاهَدَةُ في طَلَبِهَا، وَالْقِيَامُ بِحَقِّهَا، وَالْعِنَايَةُ في تَحْصِيلِهَا أَيْضاً، لَفِعْلٌ كَبِيرٌ وَشَأْنٌ عَظِيمٌ، فَإِنَّ المَكَارِمَ عَلَى حَسَبِ المَكَارِهِ، وَإِنَّ اللّذّاتِ عَلَى حَسَبِ المُؤْنَاتِ، وَٱللَّهُ تَعَالى يَقُولُ: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٦٩ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وَإن اللّه تَعَالى هُوَ الرَّءُوف الرحِيم الّذِي بِيَدِهِ تَيْسِيرُ كُلِّ عَسِيرٍ، فَاسْتَمعْ وَتنَبَّهْ، وَتَفَهَّم جِدّاً بَيَانَ هٰذِهِ الْخَصْلَةِ حَتَّى تَعْلَمَهَا، ثُمَّ تَشَمَّرْ لِلْقِيَامِ بِهَا وَاسْتَعِنْ بِاللّه تَعَالَى، حَتّى تَعْمَلَ بِمَا تَعْلَمُ، فَإنّ الشَّأْنَ كُلَّهُ فِي ذٰلِكَ، وَاللّهُ وَلِيُّ الْهِدَايَةِ والتّوْفِيقِ بِفَضْلِهِ.

فَنَقُولُ: ٱعْلَمْ أَوّلاً: أَنّ التّقْوَى فِي قَوْل شُيُوخِنَا، رَحِمَهُمُ اللّهُ:

حدّ التقوى

هي تَنْزِيهُ الْقَلْبِ عَنْ ذَنْبٍ لَمْ يَسْبِقْ عَنْكَ مِثْلُهُ، حَتَّى يجعل العبدُ مِنْ قُوَّةِ الْعَزْم عَلَى تَرْكِها وِقَايَةً بَيْنه وَبَيْنَ المَعَاصِي؛ هٰكَذَا قَالَ شَيْخُنَا[١] رَحِمَهُ اللّهُ؛ وَذٰلِكَ أَنّ أَصْلَ لَفْظَةِ التّقْوَى في اللُّغَةِ هُوَ الْوَقْوَى بِالْوَاوِ، وَهُوَ مَصْدَرُ الوِقَايَةِ؛ يُقَالُ: وَقَى يَقِي وِقَايَةً وَوَقْوَى، فَأُبْدلتْ عَنِ الْوَاوِ تاءٌ، كَمَا هُوَ في الْوُكْلاَنِ وَالتُّكْلاَنِ وَنَحْوِهِمَا، فَقِيلَ

---

(١) هو أبو بكر الورّاق كما في سراج السالكين (ص ٣٤٢).

تَقْوَى؛ فَإذاً لَمّا حَصَلَتْ وِقايَةٌ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ المَعَاصِي، مِنْ قُوَّةِ عَزْمِهِ عَلَى تَرْكِها، وَتَوْطِينِ قَلْبِهِ عَلَى ذٰلِكَ، فَيُوصَفُ حِينَئِذٍ بِأَنَّهُ مُتّقٍ، وَيُقالُ لِذٰلِكَ التّنْزِيهِ وَالْعَزْمِ وَالتّوْطِينِ تَقْوَى.

معاني التقوى

وَالتّقْوَى في القُرْآنِ تُطْلَقُ عَلَى ثَلاثَةِ أَشْيَاءَ:

أَحَدُها: بِمَعْنَى الْخَشْيَةِ وَالْهَيْبَةِ، قَالَ اللّهُ تَعالَى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ۝٤١﴾ [البقرة: ٤١]، وَقَالَ تَعالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١].

وَالثّاني: بِمَعْنَى الطّاعَةِ وَالْعِبادَةِ، قالَ اللّهُ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. قالَ ابْنُ عَبّاسٍ:

أَطِيعُوا اللّهَ حَقَّ طَاعَتِهِ. وَقَالَ مُجاهِدٌ[1]: هُوَ أَنْ يُطاعَ فَلا يُعْصَى، وَأَنْ يُذْكَرَ فَلا يُنْسَى، وَأَنْ يُشْكَرَ فَلا يُكْفَرَ.

وَالثّالِثُ: بِمَعْنَى التّنْزِيهِ لِلْقَلْبِ عَنِ الذُّنُوبِ، فَهٰذِهِ هِيَ حقِيقَةُ التّقْوَى دُونَ الأوّلَيْنَ؛ أَلا تَرَى أَنّ اللّهَ تَعالَى يَقُولُ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾ [النور: ٥٢]. ذكَرَ الطّاعَةَ وَالْخَشْيَةَ، / ثُمّ ذَكَرَ التّقْوَى، فَعَلِمْتَ أَنّ حَقِيقَةَ التّقْوَى مَعنًى [٢٩/ب]

---

(١) المكّي المخزومي، وهو تابعي، إمام، متفق على جلالته وإمامته. سمع ابن عمر وابن عباس وأبا سعيد وأبا هريرة وعائشة وغيرهم من الصحابة، وسمع من التابعين طاووساً وابن أبي ليلى وآخرين.
وهو إمام في الفقه والحديث والتفسير. توفي سنة ١٠١ هـ وهو ابن ثلاث وثمانين سنة. سير أعلام النبلاء ٤/٥٤٩.

سِوَى الطَّاعَةِ وَالخَشْيَةِ[1]، وَهِيَ تَنْزِيهُ الْقَلْبِ عَنِ الذنُوبِ على مَا ذَكَرْنَاهُ.

منازل التقوى

ثُمَّ قالُوا: مَنَازِلُ التَّقْوَى ثَلاَثَةٌ: تَقْوَى عَنِ الشِّرْكِ، وَتَقْوَى عَنِ الْبِدْعَةِ، وَتقْوَى عَنِ المَعَاصِي الْفَرْعِيَّةِ. وَلَقَدْ ذَكَرَها اللَّهُ سُبْحَانَهُ في آيَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟﴾ [المائدة: ٩٣].

التَّقْوَى الأُولىٰ: تَقْوَى عَنِ الشِّرْكِ، وَالإِيمَان في مُقَابَلَتِه وهو التَّوْحِيدُ.

وَالتَّقْوَى الثَّانِيَةُ: عَنِ الْبِدْعَةِ، وَالإِيمَان الَّذِي ذُكِرَ مَعَهَا، إِقْرَارٌ بالسُّنَّةِ وَالجَماعَة.

وَالتَّقْوَى الثَّالِثَةُ: عَنِ المَعَاصِي الْفَرْعِيَّةِ، وَلاَ إِقْـرَارَ في هٰذِهِ المَنْزِلَةِ، فَقَابَلَهَا بِالإِحْسَان، وَهُوَ الطَّاعَةُ وَالإِسْتِقَامَةُ عَلَيْها؛ فَتَكُونُ مَنْزِلَةَ مُسْتَقِيمِي الطَّاعَةِ[2]. وَالآيَـةُ جَمَعَتْ ذِكْرَ المَنَازِلِ الثَّلاَثِ: مَنْزِلَةَ الإِيمانِ، وَمَنْزِلَةِ السُّنَّةِ، وَمَنْزِلَةِ الإِسْتِقَامَةِ في الطَّاعَةِ؛ وَهٰذَا مَا قَالَهُ الْعُلَمَاءُ في بيانِ مَعْنَى التَّقْوَى.

قُلْتُ أَنَا: وَجَدْتُ التَّقْوَى بِمَعْنَى ٱجْتِنَابِ فُضُولِ الحَلالِ، وَهُوَ مَا رُوِيَ في الْخَبَرِ المَشْهُورِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ: «إِنَّما سُمِّيَ

---

(١) أي أن معنى التقوى في الحقيقة هو غير الطاعة والخشية.

(٢) أن تكون التقوى الثالثة منزلة مستقيمي الطاعة.

الْمُتَّقُونَ مُتَّقِينَ، لِتَرْكِهِمْ مَا لاَ بَأْسَ بِهِ حَذَراً عَمَّا بِهِ بَأْسٌ»[1].
فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَجْمَعَ بَيْنَ مَا قَالَهُ عُلَمَاؤُنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، وَبَيْنَ مَا جَاءَ فِي الْخَبَرِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَيَكُونُ حَدّاً جَامِعاً وَمَعْنًى بَالِغاً.

التقوى عند الصوفية

فَأَقُولُ: التَّقْوَى هُوَ اجْتِنَابُ كُلِّ مَا تَخَافُ مِنْهُ ضَرَراً فِي دِينِكَ. أَلاَ تَرَى أَنَّهُ يُقَالُ لِلْمَرِيضِ الْمُحْتَمِي إِنَّهُ يَتَّقِي إِذَا اجْتَنَبَ كُلَّ شَيْءٍ يَضُرُّهُ فِي بَدَنِهِ مِنْ طَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ أَوْ فَاكِهَةٍ أَوْ غَيْرِهَا.

ثُمَّ الَّذِي يُخَافُ مِنْهُ الضرر فِي أَمْرِ الدِّينِ قِسْمَانِ: مَحْضُ الْحَرَامِ ومحض الْمَعْصِيَةِ، وَفُضُولُ الْحَلاَلِ؛ لِأَنَّ الاشْتِغَالَ بِفُضُولِ الْحَلاَلِ وَالانْهِمَاكَ فِيهِ يَسْتَجِرُّ صَاحِبَهُ إِلى الْحَرَامِ وَمَحْضِ الْعِصْيَانِ، وَذٰلِكَ لِشَرَهِ النَّفْسِ وَطُغْيَانِهَا، وَتَمَرُّدِ الْهَوَى وَعِصْيَانِهِ؛ فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَأْمَنَ الضَّرَرَ فِي أَمْرِ دِينِهِ، اجْتَنَبَ الْخَطَرَ، فَامْتَنَعَ عَنْ فُضُولِ الْحَلاَلِ، حَذَراً أَنْ يجُرَّهُ إِلى مَحْضِ الْحَرَامِ، عَلَى مَا قَالَهُ ﷺ/ [٣٠/أ] «لِتَرْكِهِمْ مَا لاَ بَأْسَ بِهِ حَذَراً عَمَّا بِهِ بَأْسٌ»، يَعْنِي لِتَرْكِهِمْ فُضُولَ الْحَلاَلِ حَذَراً عَنِ

---

(١) ـ رواه ابن ماجه (٢/١٤٠٩) في باب الورع والتقوى بلفظ: قال رسول الله ﷺ: (لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به، حذراً لما به بأس). (الحديث رقم ٤٢١٥).
ـ رواه الترمذي وقال: حسن غريب.
ـ ورواه الحاكم في المستدرك (٤/٣١٩) عن عطية بن سعد أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الرجل لا يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً لما به بأس) قال: هذا حديث صحيح الإسناد، لم يُخَرّجاه. ووافقه الذهبي على صحته.
ـ وفي مسند ابن حنبل (٤/ ٦٠) رواية شبيهة برواية البخاري لفظاً ومعنى وكذلك موطأ مالك (١/ ١٦٤).
ـ وكذلك رواه ابن ماجه (٢/ ١٢٧٢) في كتاب الدعاء الحديث (٣٨٦٧).

الْوُقُوعِ في الْحَرَامِ، فالتَّقْوَى الْبَالِغَةُ الْجَامِعَةُ ٱجْتِنَابُ كُلِّ مَا فِيهِ ضَرَرٌ لأَمْرِ الدِّينِ، وَهُوَ المَعْصِيَةُ وَالْفُضُولُ؛ هٰذَا تَفْصِيلُهَا[١].

التقوى شرعاً

وَأَمَّا إِذَا أَرَدْنَا تَحْدِيدَهَا عَلَى مَوْضُوعِ عِلْمِ الشَّرْعِ، فَنَقُولُ:

حَدُّ التَّقْوَى الْجَامِعِ تَنزِيهُ الْقَلْبِ عَنْ شَرٍّ لَمْ يَسْبِقْ عَنْكَ مِثْلُهُ، بِقُوَّةِ الْعَزْمِ عَلَى تَرْكِهِ، حَتّى يَصِيرَ ذٰلِكَ وِقَايَةً بَيْنَكَ وَبَيْنَ كُلِّ شَرٍّ.

نوعا التقوى

ثُمَّ الشُّرُورُ ضَرْبَانِ: شَرٌّ أَصْلِيٌّ، وَهُوَ مَا نُهِيَ عَنْهُ كَالْمَعَاصِي المَحْضَةِ، وَشَرٌّ غَيْرُ أَصْلِيٍّ، وَهُوَ مَا نُهِيَ عَنْهُ تَـأْدِيباً، وَهُوَ فُضُولُ الْحلاَلِ، كَالمُبَاحَاتِ المَأْخُوذَةِ بالشّهوات. **فَالأُولى: تَقْوَى فَرْضٍ**، يَلْزَمُ بِتَرْكِهَا عَذَابُ النَّارِ، **وَالثّانِيَةُ: تَقْوَى خَيْرٍ وَأَدَبٍ**، يَلْزَمُ بِتَرْكِهَا الْحَبْسُ وَالْحِسَابُ وَالتَّعْيِيرُ واللوْمُ؛ فَمَنْ أَتَى بِالأُولى، فَهُوَ في الدَّرَجَةِ الأولى مِنَ التّقْوَى، وَهِيَ مَنْزِلَةُ مُسْتَقِيمِي الطَّاعَةِ، وَمَنْ أَتَى بِالأُخْرَى، فَهُوَ فِي الدَّرَجَةِ الْعُلْيَا مِنَ التَّقْوَى، وَذٰلِكَ مَنْزِلَةُ مُسْتَقِيمِي (تَرْكِ)[٢] المُبَاحِ؛ وَإِذَا جَمَعَ الْعَبْدُ بَيْنَهُمَا، أَعْني اجتنابَ كُلِّ مَعْصِيَةٍ وَفُضُولٍ، فَقَدِ ٱسْتَكْمَلَ مَعْنَى التَّقْوَى، وَقَامَ بِحَقِّهَا، وَجَمَعَ كُلَّ خَيْرٍ فِيهَا؛ وَهٰذَا هُوَ الْوَرَعُ الْكَامِلُ الَّذِي هُوَ مِلاَكُ أَمْرِ الدِّينِ، وَذٰلِكَ مَنْزِلَةُ الأَدَبِ عَلَى بَابِ ٱللّٰهِ سُبحانَه فَهٰذَا مَعْنَى التّقْوَى وَبَيَانُهَا في الجُمْلَةِ، فَافْهَمْهُ مُوَفَّقاً إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ تَعَالَى.

فَإِنْ قُلْتَ: فَفَصِّلْ لَنَا الآنَ هٰذَا المَعْنَى في النَّفْسِ وَٱسْتِعْمالَهُ

---

(١) أي هذا الذي ذكرناه هو تفصيل التقوى.

(٢) ساقطة من الأصل، مثبتة في (ب) و (د) و (هـ).

فِيها، فَإِنَّ الْحَاجَةَ جَاءَتْ مِنْ هُنَالِكَ، لِنَعْلَمَ كَيْفَ نُلْجِمُ هٰذِهِ النَّفْسَ بِهٰذَا المَعْنَى الَّذِي فَصَّلْتَ مِنْ حَقِيقَةِ التَّقْوَى.

فَأَقُولُ: أَجَلْ إنّما تَفْصِيلُهُ في أَمْرِ هٰذِهِ النَّفْس، أَنْ تَقُومَ عَلَيْهَا بِقُوَّةِ الْعَزْمِ، فَتَمْنَعَهَا عَنْ كُلِّ مَعْصِيَةٍ، وَتَصُونَهَا عَنْ كُلِّ فُضُولٍ.

فَإِذَا فَعَلْتَ ذٰلِكَ، كُنْتَ قَدِ ٱتَّقَيْتَ ٱللَّهَ تَعَالَى فِي عَيْنِكَ وَأُذُنِكَ وَلِسَانِكَ وَقَلْبِكَ وَبَطْنِكَ ورجلك وَفَرْجِكَ وَجَمِيعِ أَرْكَانِكَ، وَأَلْجَمْتَهَا بِلِجَامِ التَّقْوَى، وَلِهٰذَا الْبابِ شَرْحٌ يَطُولُ، وَقَدْ أَشَرْنَا إِلَيْهِ في كِتَابنا: «إِحْيَاء عُلُومِ الدِّينِ».

التقوى والأعضاء الخمسة

وَأَمَّا الَّذِي لا بُدَّ مِنْهُ هٰهُنَا، فَأَنْ نَقُولَ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ تَعَالَى فَلْيُرَاعِ الأَعْضَاءَ الْخَمْسَةَ، فَإِنَّهُنَّ الأُصُولُ، وَهِيَ: الْعَيْنُ وَالأُذُنُ وَاللِّسانُ وَالْقَلْبُ وَالْبَطْنُ؛ فَيَحْرِصُ عَلَيْهَا بِالصِّيَانَةِ لَهَا/ [٣٠/ب] عَنْ كُلِّ مَا يَخَافُ مِنْهُ ضَرَراً فِي أَمْرِ الدِّينِ، مِنْ مَعْصِيَةٍ وَحَرَام وَفُضُولٍ وَإِسْرَافٍ مِنْ حَلَالٍ. وَإِذَا حَصَّلَ صِيَانَةَ هٰذِهِ الأَعْضَاءِ، فَمَرْجُوٌّ أَنْ يَكْفِيَ ضرر سَائِرَ الأعضاء، وَيَكُونَ قَدْ قَامَ بِالتَّقْوَى الْجَامِعَةِ بِجَمِيعِ بَدَنِهِ لِلَّهِ عزّ وجلّ، فَدَعَتِ الْحَاجَةُ إلى بَيَانِ خَمْسَةِ فُصُولٍ لِهٰذِهِ الأَعْضَاءِ، وَتَفْصِيلِ مَا يَحْرُمُ فِي حَقِّ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا، عَلَى قَدْرِ مَا يَلِيقُ بِهٰذَا الْكِتَابِ.



تقوى الأعضاء الخمسة

الفصل الأول: العين

عَلَيْكَ وَفَّقَكَ ٱللَّهُ وَإِيَّانَا لطاعَتِهِ بِحِفْظِ الْعَيْنِ، فَإِنَّهَا سَبَبُ كُلِّ فِتْنَةٍ وَآفَةٍ. وَأَذْكُرُ في أَمْرِهَا ثَلاثَةَ أُصُولٍ كَافِيَةٍ.

غَضُّ البصر

أَحَدُهَا: مَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور: ٣٠]. وَٱعْلَمْ أَنِّي تَأَمَّلْتُ هٰذِهِ الآيَةَ فوجدتُ فِيهَا مَعَ قِصَرِهَا ثَلاَثَةَ مَعَانٍ عَزِيزَةٍ: تَأْدِيبٌ وَتَنْبِيهٌ وَتَهْدِيدٌ.

فَأَمَّا التَّأْدِيبُ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]. وَلاَ بُدَّ لِلْعَبْدِ مِن ٱمْتِثَالِ أَمْرِ السَّيِّدِ وَالتَّأَدُّبِ بِأَدَبِهِ، وَإِلاَّ فَيَكُونُ سَيِّءَ الأَدَبِ، فَيُحْجَبُ فَلاَ يُؤْذَنُ لَهُ في حُضُورِ المَجْلِسِ وَالمُثُولِ بِالحَضْرَةِ؛ فَافْهَمْ هٰذِهِ النُّكْتَةَ، وَتَأَمَّلْ مَا تَحْتَهَا، فَإِنَّ فِيهَا مَا فيها.

وَأَمَّا التَّنْبِيهُ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠] وينطلقُ عَلَى مَعْنَيَيْنِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

أحدهما: أَن ذٰلِكَ أَطهَرُ لِقُلُوبِهِمْ، وَالزَّكَاةُ الطهارةُ، وَالتَّزْكِيَةُ: التَّطْهِيرُ.

وَالثَّاني: ذٰلِكَ أَنْمَى لِخَيْرِهِمْ وَأَكْثَرُ؛ والزَّكَاةُ في الأَصْلِ: النُّمُوُّ، فنَبَّهَ عَلَى أَنَّ في غضِّ الْبَصَرِ تَطْهِيرَ الْقَلْبِ وَتَكْثِيرَ الطَّاعَةِ وَالخَيْرِ؛ وَذٰلِكَ أَنَّكَ إِنْ لَمْ تَغُضَّ بَصَرَكَ، وَأَرْخَيْتَ عِنَانَهُ، تَنْظُرْ إلى مَا لا يَعْنِيكَ، فَلا يَخْلُو من أن تَقَعَ عَيْنُكَ عَلَى حَرَامٍ، فَإِنْ تَعَمَّدْتَ فَذَنْبٌ وكَبيرةٌ، وَرُبَّما تَعَلَّقَ قَلْبُكَ بِذٰلِكَ، فَتَهْلِكُ إِنْ لَمْ يَرْحَمِ اللَّهُ تَعَالَى؛ فَلَقَدْ رُوِيَ أَنَّ الْعَبْدَ لَيَنْظُرُ النَّظْرَةَ يَنْغَلُ[1] فِيهَا قَلْبُهُ كمَا يَنْغَلُ الأَدِيمُ في الدِّبَاغِ، لَا يَنْتَفِعُ بِهِ أَبَداً. وَإِنْ كَانَ مُباحاً[2]، فَرُبَّمَا يَشْتَغِلُ قَلْبُكَ بِهِ، فَجَاءَكَ الْوَسَاوِسُ وَالخَوَاطِرُ بِسَبَبِهِ، وَلَعَلَّكَ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ فَتَبْقَى مَشْغُولَ الْقَلْبِ مُنْقَطِعاً عَنِ/ الْخَيْرِ، وَإِنْ كُنتَ لَمْ تَرَ ذٰلِكَ، فَقَدْ كُنْتَ مُسْتَرِيحاً عَنْ ذٰلِكَ كُلِّهِ. وَفي هٰذَا المَعْنَى ذُكِرَ عَنْ عِيسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ على نبيِّنَا وعليهِ، أَنَّه قالَ: «إِيَّاكُمْ وَالنَّظْرَةَ فَإِنَّهَا تَزْرَعُ فِي الْقَلْبِ الشَّهْوَةَ، وَكَفَى بِهَا لِصَاحِبِهَا فِتْنَةً». [٣١/أ]

وَقَالَ ذُو النُّونِ[3]: نِعْمَ حَاجِبُ الشَّهَوَاتِ غَضُّ الأَبْصارِ.

وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ: [الطويل]:

وَأَنْتَ إِذَا أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِداً ... لِقَلْبِكَ يَوْماً أَتْعَبَتْكَ المَنَاظِرُ

---

(١) يَنْغَلُ: على وزن يَطْرَبُ أي يفسد.

(٢) أي إن كان النظر مباحاً، بعد أن ذكر وقوع النظر على حرام.

(٣) أبو الفيض واسمه ثوبان بن إبراهيم، وقيل: الفيض بن إبراهيم، أَوْحدُ وقته علماً وورعاً وحالاً وأدباً. كان أبوه نوبياً.
وذو النون هو من جملة من روى الموطأ عن الإمام مالك رضي الله عنه. سير أعلام النبلاء ١١/ ٥٣٢.
انظر ترجمته وأخباره في:
حلية الأولياء ٩/ ٣٣١ ـ ٣٩١.

رَأَيْـتَ الّـذِي لا كلّـهُ أَنْـتَ قـادِرٌ عَلَيْـهِ وَلاَ عَـنْ بَعْضِـهِ أَنْـتَ صَـابِـرُ
فـإِيَّـاكَ والأمـرَ الـذِي إِنْ تَـوَسَّعَـتْ مَـوَارِدُهُ ضَـاقَـتْ عليـكَ المَصَـادِرُ

فإذن لمّا كُنْتَ غَاضَّ البَصَرِ، حَافِظاً للعَيْنِ، لا تَنْظُرُ لِمَا لاَ يَعْنِيكَ وَلاَ يَهُمُّكَ، كُنْتَ نَقِي الصَّدْرِ، فارِغَ الْقَلْبِ، مُسْتَرِيحاً عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْوَسْوَاسِ، سَالِمَ النَّفْسِ عَنِ الآفاتِ، مُتَزَايِداً في الْخَيْرَاتِ، فَتَنَبَّهْ لِهٰذِهِ النُّكْتَةِ الْجَامِعَة، وَاللَّهُ المُوَفِّقُ بِمَنِّهِ وفضلهِ.

وَأَمَّا التَّهدِيدُ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠﴾ [النور: ٣٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ۝١٩﴾ [غافر: ١٩] وَكَفَى بِهٰذَا تَحْذِيراً لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ. فَهٰذَا أَصْلٌ وَاحِدٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تعالى.

النظرة سهم مسموم

الأَصْل الثَّانِي: مَا رَوَيْنَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنّ النّظرَ إِلَى مَحَاسِنِ المَرْأَةِ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ، فَمَنْ تَرَكَهَا أَذَاقَهُ اللَّهُ تَعَالَى طَعْمَ عِبَادَةٍ تَسُرُّهُ»[1] وَإِنْ وَجَدَ أَنَّ حَلاَوَةَ الْعِبَادَةِ وَلَذَّةَ الْمُنَاجَاةِ مِنَ الْعَابِدِينَ بِمَكَانٍ؛ وَهٰذَا شَيءٌ مُجَرَّبٌ عَلِمهُ وَتَحَقَّقَهُ مَنْ

(١) ـ قال العراقي (الإحياء ١/ ٢٣٤): أخرجه الحاكم وصحح إسناده من حديث حذيفة.

ـ وقد ورد هذا الحديث في الإحياء بلفظ: (النظرة سهم مسموم من سهام إبليس لعنه الله، فمن تركها خوفاً من الله آتاه عز وجل إيماناً يجد حلاوته في قلبه) (الإحياء ١/ ٢٣٤، ٣/ ١٠٢، ٤/ ٧٥).

ـ وقد ورد في مسند ابن حنبل (٥/ ٢٦٤) عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة أول مرة ثم يغض بصره إلا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها).

=

عَملَ بِهِ، أَنَّهُ إِذَا امْتَنَعَ عَنِ النَّظَرِ إِلَى مَا لاَ يَعْنِيهِ، يَجِدُ لَذةً لِلْعِبَادَةِ وَحَلاوَةً، وَلِلْقَلْبِ صَفْوَةً لَمْ يَجِدْهَا قَبْلَ ذٰلِكَ.

غاية خلق الأعضاء

الأَصْلُ الثَّالِثُ: أَنْ تَنْظُرَ إِلَى كُلِّ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَائِكَ، يَصْلُحُ لِمَاذَا وَيُنتظَرُ لَهُ مَاذَا؟ فَعَلَى حَسَبِ ذٰلِكَ تَصُونُهُ وَتَحْفَظُهُ؛ فالرِّجلُ لِلْمَشْي فِي رِيَاضِ الجَنَّةِ وَقُصُورِهَا، وَاليَدُ لِكأسِ الشَّرابِ وَتَنَاوُلِ الأَثْمَارِ، وَكَذٰلِكَ سَائِرُ الأَعْضَاءِ، فَالعَيْنُ إِنمَا للنّظرِ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلَيْسَ فِي الدَّارَيْنِ كَرَامَةٌ أَجلُّ وَأَكْبَرُ مِنْ ذٰلِكَ، فَحَقِيقٌ لِشَيءٍ يُنْتَظَرُ وَيُرْجَى لَهُ مِثْلُ هٰذِهِ الكَرَامَةِ، أَنْ يُصَانَ وَيُحْفَظَ وَيُعَزَّ وَيُكْرَمَ فَقَدْ قِيلَ: [الطويل]:

[٣١/ب] وكيفَ تَرَى لَيْلَى بعينٍ ترى بِهَا ... سِواهَا وما طَهَّرْتَها بالمَدَامعِ

فَهٰذِهِ الأُصُولُ الثَّلاثَةُ إِذَا أَحْسَنْتَ التَّأَمُّلَ فِيهَا، كفَتْكَ المؤُونَةَ في هٰذَا الْفَصْلِ، وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقُ.

= ـ وفي سنن أبي داود (٢/ ٦١١) أن رسول الله ﷺ قال: (إن المرأة تقبل في صورة شيطان. . .) (الحديث رقم ٢١٥١).

ـ وقد ورد هذا الحديث كما رواه ابن حنبل عن ابن أُمامة في الجامع الصغير للسيوطي (٢/ ٤٥١) الحديث رقم ٨٠٩٥ مع اختلاف بسيط في بعض ألفاظه، وذكر أنه ضعيف وقد شرحه وخرّجَهُ المناوي (فيض القدير ٥/ ٤٩٦) وقال: ضعّفه المنذري ولم يبيّن، وبيّن الهيثمي فقال: فيه علي بن زيد، وهو متروك.

ـ كذلك خرّجه الألباني (ضعيف الجامع الصغير. ٥/ ١٢٦) وقال إنه ضعيف، وأورده في الأحاديث الضعيفة برقم ١٠٦٤، راجع تخريج هذا الحديث ورقمه ٥٢٢٥.

ـ وفي مستدرك الحاكم (٤/ ٣١٤) وعن حذيفة: (النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة، فمن تركها من خوف الله أثابَهُ جل وعزّ إيماناً يجد حلاوته في قلبه (قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرّجاه (أي مسلم والبخاري) وعلّق الذهبي عليه فقال: إسحاق واهٍ، وعبد الرحمن هو الواسطي ضعّفوه، وذلك عند تتبعه رجال هذا الحديث.

الفصل الثاني: الأذن

فَعَلَيْكَ بِصِيانَةِ سَمْعِكَ عَنِ الْخَنَا وَالْفُضُولِ[1]، وَذٰلِكَ لِأَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: لِمَا رُوِيَ أَنَّ الْمُسْتَمِعَ شَرِيكُ الْمُتَكَلِمِ، وَفِي ذٰلِكَ يَقُولُ الْقَائِلُ: [المتقارب]:

تخيّـر مِـنَ الطُّـرقِ أَوْسَـاطَهَـا ... وَعَـدِّ عَـنِ الْجَـانِـبِ الْمُشْتَبِـهْ

وَسَمْعَكَ صُنْ عَنْ سَمَاعِ الْقَبِيحِ ... كَصَوْنِ اللِّسَانِ عَـنِ النُّطْـقِ بِـهْ

فَـإِنّـكَ عِنْـدَ اسْتِمـاعِ الْقَبِيـحِ ... شَـرِيـكٌ لِقَـائِلِـه فـانْتَبِـهْ

وَالثَّانِي: أَنَّه[2] يُهَيِّجُ الْخَوَاطِرَ وَالْوَسَاوِسَ في الْقَلْبِ، ثُمَّ مِنْ ذَلِكَ يَبْدُو الاشْتِغَالُ في الْبَدَنِ، فَمَا يَبْقَى من ذلكَ (للعبادة)[3] شيء.

أثر الكلام في القلب

ثُمَّ اعْلَم أَنَّ الْكَلاَمَ الَّذِي يَقَعُ في قَلْبِ الإِنْسَانِ وَسَمْعِهِ، بِمَنْزِلَةِ الطَّعَامِ الَّذِي يَقَعُ فِي جَوْفِهِ، فَمِنْهُ الضّارُّ وَمِنْهُ النّافِعُ، وَمِنْهُ الْغِذَاءُ وَمِنْهُ السُّمُّ القاتِلُ، بَلْ إِنَّ بقاء الْكَلاَمِ وَتَجرُّعَهُ، أَكْثَرُ وَأَبْلَغُ مِنَ الطّعَامِ، فَإِنَّ الطّعام يزُولُ عَنِ الْمَعِدَةِ بِنَوْمٍ أو غَيْرِهِ، وَرُبَّمَا يَبْقَى أَثَرُهُ

---

(١) الخنا: الفاحش من القول، والفضول: ما لا حاجة إلى سماعه.

(٢) أي: الكلام المسموع.

(٣) ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

زَمَاناً، ثُمَّ يزُولُ، وَلَهُ دَوَاءٌ يُزِيلُ أَثَرَهُ مِنْ جِسْمِ الإِنْسَانِ، وَأَمَّا الْكَلاَمُ الَّذِي يَقَع فِي قَلْبِ الإِنْسَان فَرُبَّمَا يَبْقَى مَعَهُ جَمِيعَ عُمُرِهِ وَلاَ يَنْسَاهُ، فَإِنْ كَانَ شَيئاً رَدِيئاً، فَلا يَزَالُ يُتْعِبُهُ وَيُعِيبُهُ، وَتَرِدُ بِسَبَبِهِ خَوَاطِرُ في الْقَلْبِ وَوَسَاوِسُ ويَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يُعْرِضَ عَنْهَا، وَيَعْدِلَ بِقَلْبِهِ عَنْ تَذكُّرِهَا وَيَسْتَعِيذَ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهَا، وَلاَ يَأْمَنُ من أَنْ تَحْمِلَهُ عَلَى بَلِيّةٍ وَتُحَرِّكَهُ حَتَّى يَقَعَ آخِرَ الأمْرِ في آفَةٍ عَظِيمةٍ بِسَبَبِ ذٰلِكَ. وَلَوْ كُنْتَ حَفِظْتَ سَمْعَكَ عَمّا لاَ يَعْنِيكَ، كُنْتَ عَنْ هٰذِهِ الْمُؤنِ مُسْتَرِيحاً، فَلْيَنْظُرِ الْعَاقِلُ في ذٰلِكَ وَبِاللَّهِ التَّوفِيقُ.

الفصل الثالث: اللسان

ثُمَّ عَلَيْكَ بِحِفْظِ اللِّسَانِ وَضَبْطِه وَقَيْدِه، فَإِنَّهُ أَشَدُّ الأَعْضَاءِ جِمَاحاً وَطُغْيَاناً، وَأَكْثَرُهَا فَسَاداً وَعُدْوَاناً.

وَلَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ[1] أَنَّهُ قَالَ: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَكْثَرُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ؟/ فَأَخَذَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ [٣٢/أ] بِلِسَانِ نَفْسِهِ ثُمَّ قَالَ: هٰذَا»[2] ....

(١) سفيان بن عبد الله بن ربيعة بن الحارث الثقفي الطائفي، صحابي له سماع ورواية كان عامل عمر الفاروق على الطائف. روى له مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه.
انظر ترجمته وأخباره في:
الوافي بالوفيات ١٥/ ٢٨٥ (تر ٤٠٤) طبقات ابن سعد ٥/ ٥١٤، الإستيعاب ٢/ ٦٣٠(تر ١٠٠٣).

(٢) هذا قسم من حديث رواه ابن حنبل من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي بأكثر من لفظ وكلها في المعنى ذاته. (مسند ابن حنبل ٣/ ٤١٣) وتمامه: (عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت يا رسول الله حدّثني بأمر أعتصم به، قال: قل ربي الله ثم استقم، قال: قلت يا رسول الله: ما أخوف ما تخاف علي؟ قال: فأخذ بلسان نفسه ثم قال: هذا).
ـ كذلك رواه ابن ماجه (٢/ ١٣١٤) عن سفيان بن عبد الله أيضاً (الحديث رقم ٣٩٧٢). =

وَعَنْ يُونُسَ بْنِ عُبَيْدٍ[1] رحمهُ اللَّه أنه قال: «إِنِّي وَجَدْتُ نَفْسِي تَحْتَمِلُ مُؤْنَةَ الصَّومِ في الحَرِّ الشَّدِيدِ بِالبَصرَةِ[2]، وَلاَ تَحْتَمِلُ تَرْكَ كَلِمَةٍ لاَ تَعْنِيهَا» فَعَلَيْكَ إِذَنْ بِالتَّحَفُّظِ جِدّاً وَبَذْلِ المَجْهُودِ.

وَنَذْكُرُ خَمْسَةَ أُصُولٍ:

موجبات حفظ اللسان

أَحَدُهَا: مَا رَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ[3]: «أَنَّ ابْنَ آدَمَ إِذَا أَصْبَحَ بَكَرتِ الأَعْضَاءُ كُلُّهَا إِلَى اللِّسَانِ، وَقُلْنَ: نَنْشُدُكَ اللَّه أَنْ تَسْتَقِيم،

= ـ ورواه أيضاً مسلم في صحيحه (١/ ٦٥) كتاب الإيمان، لكنه توقف عند القسم الأول من الحديث، وبرواية: (قل آمنت بالله ثم استقم) وهذه الرواية عن سفيان بن عبد الله الثقفي أيضاً.

ـ وذكره السيوطي في الجامع الصغير (٢/ ٢١٦) وصححه.

(١) يونس بن عبيد الله، التابعي الجليل، اتفقوا على جلالته وتوثيقه. رأى ابن مالك، وحدّث عن الحسن وابن سيرين وعطاء وعكرمة. وحدَّث عنه شعبة وسفيان وخلق كثير. قال ابن سعد: كان ثقة كثير الحديث. سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٨٨.

(٢) في سراج السالكين وردت لفظة البصرة بكسر الباء وقد أشار المؤلف (شارح منهاج العابدين) إلى أنها «بلد شرقي عن مصر القاهرة، كما حققه الزرقاوي في زيجه» وأظن هذا وهم وقع فيه الشارح، والمذكور في كتب التراجم والسير أن يونس بن عبيد الله كان في البصرة بالعراق وبها لقي العلماء والمحدّثين، وقد ورد هذا الخبر في سير أعلام النبلاء للذهبي (٦/ ٢٩٠) على النحو التالي: «عرضت على نفسي ترك ذكر الناس إلّا من خير، فوجدت الصوم في اليوم الحار أيسر عليها من ذلك» (راجع سراج السالكين ١/ ٣٧٢).

(٣) الإمام المجاهد، مفتي المدينة، سعد بن مالك بن سنان الأنصاري الخزرجي الخُدري، صحابي جليل، كثير الرواية عن رسول الله ﷺ وعن جماعة من الصحابة كأبي بكر وعمر وغيرهما. وكان أحد الفقهاء المجتهدين، وقد حدَّث عنه خلق كثير منهم: ابن عمر وأنس وجابر، توفي سنة ٦٤ أو ٧٤ هـ ودفن بالمدينة. سير أعلام النبلاء ٣/ ١٦٨.

فَإِنَّكَ إِنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقمنَا، وَإِنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا»[1]. قُلْتُ: وَالْمَعْنَى فِيهِ، وَاللَّهُ أَعْلَم، أَنّ نُطْقَ اللِّسَانِ يُؤثِّر في أَعْضَاءِ الإِنْسَانِ بِالتَّوفِيقِ وَالْخِذْلاَنِ، يُؤكِّدُ هٰذَا الْمَعْنَى مَا رُوي عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَار أَنَّهُ قَالَ: إِذَا رَأَيْتَ قَسَاوَةً في قَلْبِكَ، وَوَهْناً في بَدَنِكَ، وَحِرْمَاناً في رِزْقِكَ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ قَدْ تَكَلَّمْتَ فِيما لاَ يَعْنِيكَ.

وَالأَصْلُ الثَّانِي: حِفْظُ وَقْتِكَ؛ فَإِنّ أَكْثَرَ مَا يَتَكَلّمُ بِهِ الإِنْسَانُ مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، فَعَلَى الأَقَلِّ يَكُونُ لَغْواً يَضِيعُ بِهِ الْوَقْتُ.

وَذُكِرَ أَنّ حَسّانَ بن أَبِي سِنَانٍ[2]، مَرَّ عَلَى غُرْفَةٍ بُنِيَتْ فَقَالَ:

---

(١) ـ ذكره السيوطي في الجامع الصغير (١/ ٦١) برواية: (إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفّر اللسان فتقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا (الحديث رقم ٤٥٤).

ـ وشرح المناوي ألفاظ هذا الحديث وقال: رواه الترمذي في الزهد وابن خزيمة في صحيحه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري.

ـ قال العراقي: (إحياء: ٣/ ١٠٩): «ووقع في الإحياء عن سعيد بن جُبَيْر مرفوعاً، وإنما هو عن سعيد بن جُبَير عن أبـي سعيد رَفَعَهُ.

ورواه الترمذي موقوفاً على عمارة بن زيد وقال: هذا أصحّ.

ـ وأضاف المناوي: ومع ذلك إسناد الرفع جيد، لكن الموقوف أجود والله أعلم (راجع فيض القدير ١/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧، رقم الحديث ٤٥٤).

ولفظ الحديث في الإحياء: (إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكر اللسان أي تقول: اتق الله فينا فإنك إن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا).

(٢) حسان بن سنان البصري، صدوق، عابد، من أتباع التابعين وأحد العباد الورعين.

قال الإمام البخاري: كان من عبّاد أهل البصرة وكان يعمل في التجارة، ويتصدق بربحه بعد أن يأخذ قوته منه.

انظر ترجمته وأخباره في:

صفة الصفوة ٣/ ٣٣٦ ـ ٣٤١، حلية الأولياء ٣/ ١١٤ ـ ١٢٠.

مُنْذُ كَمْ بُنِيَتْ هٰذِهِ؟ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ، وَقَالَ يَا نَفْسِي الْغَرُورَةَ، تَسْأَلِينَ عَمَّا لاَ يَعْنِيكِ، وَعَاقَبَهَا بِصَوْمِ سَنَةٍ.

قُلْتُ: فَيَا طُوبَى لِلْمُهْتَمِّينَ بِأَنْفُسِهِمْ، وَيَا وَيْحَ الْغَافِلِينَ الَّذِينَ خَلَعُوا الْعِذَارَ وَأَرْخَوُا الْعِنَانَ؛ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَلَقَدْ صَدَقَ الْقَائِلُ وَأَحْسَنَ بِقَوْلِهِ: [الخفيف]:

إِغْتَنِم رَكْعَتَيْـنِ فِـي ظُلْمَـةِ اللَّيْـ ـلِ إِذَا كُنْـتَ خَـالِيـاً مُسْتَـرِيحـا

وَإِذَا مَـا هَمَمْـتَ بِـاللَّغْـوِ فِـي الْبَـا طِـلِ فَـاجْعَـلْ مَكَـانَـهُ تَسْبِيحـا

فَلُـزُومُ السُّكُـوتِ خَيْـرٌ مِـنَ النُّطْـ ـقِ وَإِنْ كُنْـتَ فِي الْكَـلاَمِ فَصِيحـا

وَالأَصْلُ الثَّالِثُ: حِفْظُ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَصُنْ لِسَانَهُ، وَأَكْثَرَ الْكَلاَمَ، يَقَعُ لاَ مَحَالَةَ فِي غِيبَةِ النَّاسِ، كَمَا قِيلَ: «مَنْ كَثُرَ لَغَطُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ»(١). والغِيبَةُ هِيَ الصَّاعِقَةُ المُهْلِكَةُ لِلطَّاعَاتِ عَلَى

---

(١) أورده السيوطي في الجامع الصغير بلفظ: (من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به) عن رواية الطبراني في المعجم الأوسط عن ابن عمر. ولم يذكر صفته (الحديث رقم ٨٩٩٠، ج ٢ ص ٥٥٢) وذكر السخاوي في المقاصد الحسنة (ص ٤٢٦) إن هذا الحديث رواه الطبراني وأبو نعيم في الحلية والعسكري وغيرهم من حديث ابن عجلان وبعضهم من حديث يحيى بن أبي كثير كلاهما عن نافع عن ابن عمر مرفوعاً. وقال العسكري: حسبه وهماً، وإن الصواب أنه عن عمر من قوله وساقه من جهة مالك بن دينار عن الأحنف قال: قال لي عمر: (يا أحنف: من كثر ضحكه قلَّت هيبته، ومن مزح استُخِفّ به، ومن أكثر من شيء عرف به، ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه). وكذا أورده من جهة معاوية بن أبي سفيان، ويضيف المناوي (٦/٢١٣ ـ ٢١٤) في شرح هذا الحديث والتعليق عليه: قال الهيثمي: وفيه من =

مَا قِيلَ: إنّ مَثَلَ مَنْ يَغْتَابُ النّاسَ، مَثَلُ مَنْ نَصَبَ مَنْجَنِيقاً، فَهُوَ يَرْمِي بِهِ حَسَنَاتِهِ شَرْقاً وَغَرْباً، يَميناً وَشِمَالاً.

وَبَلَغَنَا عَنِ الحَسَنِ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، إِنّ فُلَاناً ٱغْتَابَكَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِطَبَقٍ/ فِيهِ رُطَبٌ؛ وَقَالَ بَلَغَنِي أَنَّكَ أَهْدَيْتَ إِلَيَّ حَسَنَاتِكَ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُكَافِئَكَ. [٣٢/ب]

وَذُكِرَتِ الْغِيبَةُ عِنْدَ ٱبْنِ المُبَارَكِ[1] فَقَالَ: لَوْ كُنْتُ مُغْتَاباً لَاغْتَبْتُ أُمِّي فَإِنّها أَحَقُّ بِحَسَنَاتِي. وَذُكِرَ أَنَّهُ فاتَ حَاتِماً الأَصَمَّ لَيْلَةَ الْقِيَامُ، فَعَيّرَتْهُ زَوْجَتُهُ، فَقَالَ: إنّ أَقْوَاماً صَلَّوا بِاللَّيْلِ الْبَارِحَةَ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا نَالُوا مِنِّي، فَتَكُونُ صَلَاتُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي مِيزَانِي.

وَالأَصْلُ الرَّابِعُ: السَّلَامَةُ مِنْ آفَاتِ الدُّنْيَا، عَلَى مَا قَالَ سُفْيَانُ: «لَا تَتَكَلَّمْ بِلِسَانِكَ مَا تَكْسِرُ بِهِ أَسْنَانَكَ. وَقَالَ آخَرُ: لَا تَبْسُطَنَّ لِسَانَكَ فَيُفْسِدُ عَلَيْكَ شَأْنَكَ». وَأَنشدوا: [الكامل]:

= لا أعرفهم، وأعاده في موضع آخر وقال: فيه جماعة ضعفاء وقد وثقوا، وفي الميزان أنه خبر ساقط.

ـ قال العراقي (الإحياء ٣/ ١١١): أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر بسند ضعيف، وقد رواه أبو حاتم بن حيان في روضة العقلاء والبيهقي في الشعب موقوفاً على عمر بن الخطاب.

وقال أبو نعيم في الحلية عندما ذكر هذا الحديث ضمن ترجمة يحيى بن أبي كثير (٣/ ٧٤): هذا حديث غريب من حديث يحيى ونافع مرفوعاً ومتصلاً.

(١) أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن الواضح الحنظلي، الإمام المجمع على إمامته وجلالته في كل شيء. وهو من تابعي التابعين. كان ثقة، مأموناً، حُجّة، كثير الحديث. توفي عام ١٨١ هـ وهو عائد من الغزو وهو ابن ثلاث وستين سنة. وصنّف التصانيف النافعة الكثيرة. سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٣٦.

إِحْفَظْ لِسانَكَ لاَ تَقُولُ فَتُبْتَلَى ... إِنّ الْبَلاَءَ مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ

ولابْنِ المُبَارَكِ [المتقارب]:

أَلاَ ٱحْفَظْ لِسَانَكَ إِنّ اللِّسَان ... سَرِيعٌ إِلى المَرْءِ في قَتْلِهِ

وَإِنّ اللِّسَانَ دَلِيلُ الْفُؤَاد ... يَدُلُّ الرِّجَالَ عَلَى عَقْلِهِ

وَلاِبْنِ مُطِيع[1] [الوافر]:

لِسانُ المرْءِ لَيْثٌ في كَمِينٍ ... إِذا خَلَّى عَلَيْهِ، لَهُ إِغَارَهْ

فَصُنْهُ عَنِ الْخَنَا بِلِجَامِ صَمْتٍ ... يَكُنْ لَكَ مِنْ بَلِيَّاتٍ سِتَارَهْ

وَفِي المَثَلِ السَّائِرِ: رُبَّ كَلِمَةٍ تَقُولُ لِصَاحِبِهَا: دَعْنِي.

الأَصْلُ الْخَامِسُ: ذِكْرُ آفاتِ الآخِرَةِ وَعَاقِبتِهَا، وَأَذْكُرُ فِيهِ نُكْتَةً وَاحِدَةً، وَهُوَ أَنَّهُ لاَ يَخْلُو إِمَّا أَنْ تَقُولَ قَوْلاً مَحْظُوراً حَرَاماً، أَوْ قَوْلاً مُبَاحاً مِنْ فُضُولٍ لاَ يَعْنِيكَ، فَإِنْ كَانَ مَحْظُوراً فَفِيهِ عَذَابُ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي لاَ طَاقَةَ لَكَ بِهِ، فَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي إلى السماء نظرت في النّارِ قَوْماً يَأْكُلُونَ الْجِيَفَ، قُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَنْ هٰؤُلاَءِ؟ قَالَ: هٰؤُلاَءِ الَّذِينَ يَأْكُلُون لُحُومَ النَّاسِ»[2].

---

(١) هو عبد الله بن مطيع بن الأسود بن حارثة، القرشي العدوي، المدني، ولد في حياة النبي محمد ﷺ، ولأبيه صُحْبه. كان من رجال قريش، وقد قتل مع ابن الزبير بمكة عام ٧٣ هـ وكان قد استعمله على الكوفة، قال الزبير عنه: كان عبد الله بن مطيع من جِلّة قريش شجاعة وجلداً.
انظر ترجمته وأخباره في:
الوافي بالوفيات ١٧/ ٦٢٠ (ت ٥٢٣)، تاريخ الإسلام ٣/ ١٨٥ ـ ١٨٦، أُسد الغابة ٣/ ٢٦٢.

(٢) هناك اختلافات في رواية هذا الحديث وهو من المشاهد التي شاهدها =

وَلَقَدْ قَالَ ﷺ لِمُعَاذٍ[1]: «إِقْطَعْ لِسَانَكَ عَنْ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ وَطُلَّابِ الْعِلْمِ، وَلاَ تُمَزِّقِ النَّاسَ بِلِسَانِكَ فَتُمَزِّقَكَ كِلاَبُ النَّارِ»[2].

وَعَنْ أَبِي قِلاَبَةَ[3] قَالَ: «إِنَّ فِي الْغِيبَةِ خَرَابَ الْقَلْبِ مِنَ الْهُدَى». فَنَسْأَلُ اللَّهَ الْعِصْمَةَ مِنْ ذٰلِكَ بِفَضْلِهِ.

موجبات حفظ اللسان عن الكلام المباح

هٰذَا فِي الْكَلاَمِ الْمَحْظُورِ، وَأَمَّا الْمُبَاحُ فَفِيهِ أَرْبَعَةُ أُمُورٍ:

أَحَدُهَا: شَغْلُ الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ، بِمَا لاَ خَيْرَ فِيهِ وَلاَ فَائِدَةَ، وَحقّ لِلْمَرْءِ أَنْ يَسْتَحِيَ مِنْهُمَا فَلاَ يُؤْذِيهِمَا/ [33/أ]؛ قَالَ اللَّهُ سبحانَه: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [قٓ: ١٨].

= رسول الله ﷺ عندما عُرج به إلى السماء ورأى النار ومن فيها، وهذه الرواية في حديث ابن عباس رواها الإمام أحمد في مسنده ١/٢٥٧، وفي رواية أبـي سعيد الخدري في كتاب دلائل النبوة للبيهقي: «... فإذا أنا بأقوام يقطع من جنوبهم اللحم فيلقمونه فيقال له: كُلْ كما كنت تأكل من لحم أخيك! قلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الهمازون من أمتك اللمازون». راجع تفسير ابن كثير (سورة الإسراء: آية ١).

(١) أبو عبد الرحمن معاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي المدني، الفقيه الفاضل الصالح، أسلم وهو ابن ثماني عشرة وشهد بدراً وأُحداً والخندق مع رسول الله ﷺ وآخى الرسول ﷺ بينه وبين عبد الله بن مسعود. ومعاذ من الصحابة المشهورين وقد توفي بالطاعون عام ١٨ هـ وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة. سير أعلام النبلاء ١/٤٤٣.

(٢) ـ لم أجد له أصلاً.

ـ وقال الكديري في سراج الطالبين (١/٣٨٨): هذا الحديث رواه ابن المبارك عن خالد بن معدان.

(٣) عبد الله بن زيد البصري الجَرَمي، كان رأساً في العلم والعمل، طُلِبَ للقضاء فهرب إلى الشام وتوفّي بها سنة ١٠٦ هـ. سير أعلام النبلاء ٤/٤٦٨.

وَالثّانِي: **إرْسَالُ كِتابٍ إِلَى اللّهِ تَعَالَى مِن اللّغْوِ وَالْهذرِ**، فَلْيَحْذَرِ الْعَبْدُ مِنْ ذٰلِكَ وَلْيَخْشَ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ.

وَذُكِر أَنَّ بَعْضَهُمْ نَظَرَ إلى رَجُلٍ يَتكَلّمُ بِالْخَنا، فَقَالَ: يَا هٰذَا، إِنَّمَا تُمْلِي كتاباً إِلَى رَبِّكَ فَانْظُرْ مَا تُمْلِي؟

وَالثَّالِثُ: **قِراءَتُهُ بَيْنَ يَدَي المَلِكِ الْجَبَّارِ**[1]، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، عَلَى رُؤُوس الأشْهَادِ، بَيْنَ الشَّدَائِدِ وَالأَهْوَالِ وَأَنت جَيْعَانَ عَطْشَانَ عُرْيَانَ، مُنْقَطِعاً عَنِ الجَنَّةِ مَحْبُوساً عَنِ النِّعْمَةِ.

وَالرَّابعُ: **اللَّوْمُ وَالتَّعْيِيرُ بِمَاذَا قُلْتَ، وَانْقِطَاعُ الْحُجَّةِ، وَالحَيَاءُ مِنْ رَبِّ الْعِزَّةِ**، وقَدْ قِيلَ: إِيَّاكَ وَالْفُضُولَ، فَإِنَّ حِسَابَهُ يَطُولُ.

وَكَفَى بِهٰذِهِ الأُصُولِ واعِظاً لِمَنِ اتَّعَظَ، وَقَدْ بَسَطْنَا فِي كِتَابِ «أَسْرَارِ مُعَامَلاَتِ الدِّينِ» مَا فِيهِ مَقْنَعٌ، فَانْظُرْ فِيهِ تَجِدِ الشِّفَاءِ.

---

(١) أي قراءة الإنسان كتابه الذي سجّل فيه الملكان أعماله وأقواله، وهذا ما ذكره الله تعالى في كتابه الكريم بقوله: **﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾** [الإسراء: ١٣ ـ ١٤].

الفصل الرابع: القلب

ثُمَّ عَلَيْكَ بِحِفْظِ القلب وَإِصْلَاحِهِ وَحُسْنِ النَّظَرِ فِي ذٰلِكَ وَبَذْلِ المَجْهُودِ، فَإِنَّهُ أَعْظَمُ هٰذِهِ الأعْضَاءِ خَطَراً، وَأَكْثَرُهَا أَثَراً، وَأَدَقُّهَا أَمْراً وَأَشَقُّهَا إِصْلاحاً، وَأَذْكُرُ فِيهِ خَمْسَةَ أُصُولٍ مُقْنِعَةٍ:

موجبات حفظ القلب وإصلاحه

الأَصْلُ الأَوَّلُ[1]: قَوْلُهُ تَعَالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ۝١٩﴾ [غافر: ١٩]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥١]. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾ [المائدة: ٧]. كَمْ ذَكَرَهُ وَكَرَّرَ ذِكْرَهُ فِي الْقُرْآنِ، وَكَفَى بِاطِّلَاعِ الْعَلِيمِ الْخَبِيرِ تَحْذِيراً وَتَهْدِيداً لِلْخَوَاصِّ مِنَ الْعِبَادِ، لأَنَّ المُعَامَلَةَ مَعَ عَلَّامِ الْغُيُوبِ خَطِيرَةٌ، فَانْظُرْ مَاذَا يَعْلَمُ مِنْ قَلْبِكَ.

الأَصْلُ الثَّانِي: قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا ينظرُ إلى صُوَرِكُمْ وَأَبْشَارِكُمْ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعمالِكُمْ»[2] فَالْقَلْبُ إِذَنْ

---

(١) في الأصل: أحدها، والتصويب من (د) و (هـ) وهو ما يتفق مع ما سيأتي.

(٢) ـ رواه مسلم عن أبي هريرة (٤/١٩٨٧) بروايتين الأولى: (إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم). والثانية: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) (الحديث رقم ٢٥٦٤). =

مَوْضِعُ نَظَر رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَيَا عَجَباً مِمَّن يَهْتَمُّ بِوَجْهِهِ الَّذِي هُوَ مَوْضِعُ نَظَرِ الْخَلْقِ، فَيَغْسِلُهُ وَيُنَظِّفُهُ مِنَ الأَقْذَارِ وَالأَدْنَاس، وَيُزَيِّنُهُ بِمَا أَمْكَنَهُ، لِئَلاَّ يَطَّلِعَ مَخْلُوقٌ فِيهِ عَلَى عَيْبٍ، وَلاَ يَهْتَمُّ بِقَلْبِهِ الَّذِي هُوَ مَوْضِعُ نَظَرِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَيُطَهِّرَهُ وَيُزَيِّنَهُ وَيُطَيِّبَهُ، كَيْ لاَ يَطَّلِعَ الرَّبُّ جَلَّ وعلا عَلَى دَنَس فِيهِ وَشَيْنٍ وَآفَةٍ وَعَيْبٍ، بَلْ يُهْمِلُهُ بِفَضَائِحَ وَأَقْذَارٍ وَقَبَائِحَ، لَوِ اطَّلَعَ الْخَلْقُ عَلَى وَاحِدٍ مِنْهَا، لَهَجَرُوهُ وَتَبَرَّؤُوا مِنْهُ وَطَرَدُوهُ. وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

الأَصْلُ الثَّالِثُ: أَنَّ الْقَلْبَ مَلِكٌ مطَاعٌ وَرَئِيسٌ مُتَّبَعٌ، فَالأَعْضَاءُ كُلُّهَا تَبَعٌ له، فَإِذَا صَلَحَ المتْبُوعُ صَلَحَ التَّبَعُ/ [٣٣/ب]، وَإِذَا اسْتَقَامَ المَلِكُ اسْتَقَامَتِ الرَّعِيَّةُ. يُبَيِّنُ ذٰلِكَ مَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ»(1) وَإِذَا كَانَ صَلاَحُ الْكُلِّ فِي ذٰلِكَ، وَجَبَ صَرْفُ الْعِنَايَةِ إِلَيْهِ.

= ـ كذلك رواه ابن ماجه (٢/١٣٨٨) عن أبي هريرة أيضاً. والملاحظ أن لفظة أبشاركم غير موجودة فيما ذكرنا.
ـ وقال العراقي (إحياء ٤/ ٣٦٢): أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(١) ـ هذا هو الجزء الأخير من حديث مشهور رواه النعمان بن بشير عن رسول الله ﷺ وبدايته: (الحلال بيِّن والحرام بين. . .).
ـ وقد رواه البخاري (١/ ٢٠) كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه.
ـ ورواه أيضاً مسلم في صحيحه (٣/ ١٢٢٠) كتاب المُساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات الحديث رقم ١٥٩٩.
ـ ورواه ابن حنبل في مسنده (٤/ ٢٧٠) بلفظ: (ألا وإنَّ في الإنسان مضغة. . .). =

الأَصْلُ الرَّابعُ: أَنَّ الْقَلْبَ خِزَانَةُ كُلِّ جَوْهَرٍ لِلْعَبْدِ نَفِيس، وَكُلِّ مَعْنَى خَطِير[1]، أَوَّلُهَا الْعَقْلُ، وَأَجَلُّهَا مَعْرِفَةُ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي هِيَ سَبَبُ سَعَادَةِ الدَّارَيْنِ، ثُمَّ الْبَصَائِرُ الَّتِي بِهَا التَّقَدُّمُ وَالْوَجَاهَةُ عِنْدَ اللَّهِ تَعالَى، ثُمَّ النِّيَّةُ الْخالِصَةُ في الطَّاعَاتِ، الَّتِي بها يَتَعَلَّقُ ثَوَابُ الأبَدِ، ثُمَّ أَنْوَاعُ الْعُلُومِ وَالحِكَمِ، التي هِيَ شَرَفُ الْعَبْدِ، وَسائِرُ الأخْلاَقِ الشَّرِيفَةِ وَالْخِصَالِ الحَمِيدَةِ الَّتِي بِهَا (يَحْصُلُ)[2] تَفاضُلُ الرِّجَالِ، عَلَى مَا فَصَّلْنَا وَشَرَحْنَا فِي كِتَاب «أَسْرَارِ مُعَامَلاَتِ الدِّينِ». وَحقَّ لِمثْلِ هٰذِهِ الخِزَانَةِ أَنْ تُحْفَظَ وَتُصَانَ عَنِ الأَدْنَاس وَالآفَاتِ، وَتُحْرَسَ وَتُحْرَزَ مِنَ السُّرَّاقِ وَالقُطَّاعِ، وَتُكْرَمَ وَتُجَلَّ بِضُرُوبِ الْكَرَامَاتِ، لِئَلاَّ يَلْحَقَ تِلْكَ الْجَوَاهِرَ الْعَزِيزَةَ دَنَسٌ، وَلاَ يَظْفَرَ بِهَا وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ عَدُوٌّ.

أحوال القلب

الأَصْلُ الْخَامِسُ: أَنِّي تَأَمَّلْتُ حَالَهُ، فَوَجَدْتُ لَهُ خَمْسَةَ أَحْوَالٍ لَيْسَتْ لِغَيْرِهِ مِنْ أَعْضَاءِ ٱبْنِ آدَمَ.

أَحَدُهَا: أَنَّ الْعَدُوَّ قاصِدٌ إلَيْهِ، مُقْبِلٌ عَلَيْهِ بِغَوائله مُلاَزِمٌ لهُ؛ فَإنَّ الشَّيْطَانَ جَاثِمٌ عَلَى قَلْبِ ٱبْنِ آدَمَ، فَهُوَ مَنْزِلُ الإِلْهَامِ وَالْوَسْوَسَةِ، يَقْرَعَانِهِ أبداً بالدَّعْوَتَيْنِ كلاهما، المَلَكُ وَالشَّيْطَانُ.

= ـ ورواه ابن ماجه في سننه (٢/١٣١٨ ـ ١٣١٩) باب الوقوف عند الشبهات، في كتاب الفتن، رقم الحديث ٣٩٨٤.

ـ كذلك رواه الدارمي في سننه (٢/ ٢٤٥) من كتاب البيوع، باب في الحلال بيّن والحرام بيّن).

وكلهم رووه عن النعمان بن بشير مع توافق في معظم ألفاظه.

(١) في الأصل: كل جوهر للعبد خطير، وكل معنى نفيس. والتصحيح من باقي النسخ.

(٢) ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

وَالثَّانِي: أَنَّ الشغلَ لَهُ أَكْثَرُ، فَإِنَّ الْهَوَى وَالْعَقْلَ كِلاهُمَا فِيهِ، فَهُوَ مُعْتَرَكُ الْعَسْكَرَيْنِ: الْهَوَى وَجُنُودِهِ، وَالْعَقْلِ وَجُنُودِهِ، فَهُوَ أَبَداً بَيْنَ مُحَارَبَتِهِمَا وَتَقَاتُلِهِما وَتَنَاقُضِهِمَا، وَحقَّ للثَّغْرِ أَنْ يُحْرَسَ وَيُحْصَنَ وَلاَ يُغْفَلَ عَنْهُ.

وَالثَّالِثُ: أَنَّ الْعَوَارِضَ لَهُ أَكْثَرُ، فَإِنَّ الْخَوَاطِرَ لَهُ كَالسِّهَامِ، لاَ تَزَالُ تَقَعُ فِيهِ، وَكَالْمَطَرِ، لاَ تَزَالُ تَمْطُرُ عَلَيْهِ لَيْلاً وَنَهاراً، لاَ تَنْقَطِعُ وَلاَ أَنْتَ تَقْدِرُ عَلَى مَنْعِهَا فَتَمْتَنِعَ، وَلَيْسَ بِمَنْزِلَةِ الْعَيْنِ الَّتِي بَيْنَ جفنين، تُغَمَّضُ وَتَسْتَرِيحُ، أَوْ تَكُونُ فِي مَوْضِعٍ خَالٍ، أَوْ لَيْلٍ مُظْلِمٍ فَتُكْفَى رُؤْيَتُهَا، أَوْ اللِّسَانِ الَّذِي هُوَ وَرَاء الحجابين: الأَسْنَانِ وَالشَّفَتَيْنِ، وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَى مَنْعِهِ وَتَسْكِينِهِ، بَلِ الْقَلْبُ غَرَضٌ لِلْخَوَاطِرِ، لاَ تَقْدِرُ عَلَى مَنْعِهَا وَالتَّحَفُّظ عَنْهَا بِحَالٍ، وَلا هي تَنْقَطِعُ عَنْكَ/ بِوَقْتٍ؛ ثُمَّ النَّفْسُ مُسَارِعَةٌ إلى اتِّبَاعِهَا، وَالامْتِنَاعُ عَنْ ذٰلِكَ [٣٤/أ] فِي مَجْهُودِ الطَّاقَةِ أَمْرٌ شَدِيدٌ وَمِحْنَةٌ عَظِيمَةٌ.

وَالرَّابعُ: أَنْ عِلاَجَهُ عليكَ عَسِيرٌ، إِذْ هُوَ غَيْبٌ عَنْكَ، فَلاَ تَكَادُ تَشْعُرُ حَتَّى تَدِبَّ فِيهِ آفَةٌ، وتَحْدُثَ لَهُ حَالَةٌ، فَتَحْتَاجُ أَنْ تَبْحَثَ عَنْ ذٰلِكَ أَتَمَّ الْبَحْثِ بِطُولِ الْجَهْدِ وَدَقِيقِ النَّظَرِ وَكَثْرَةِ الرِّيَاضَةِ.

وَالخَامِسُ: أَنَّ الآفَاتِ إِلَيْهِ أَسْرَعُ، فَهُوَ إِلَى الانْقِلاَبِ أَقْرَبُ؛ فَلَقَدْ قِيلَ إِنَّ الْقَلْبَ أَسْرَعُ انْقِلاَباً مِنَ الْقِدْرِ في غَلَيَانِهَا؛ وَلِذٰلِكَ قِيلَ: [البسيط]:

مَا سُمِّيَ الْقَلْبُ إِلاَّ مِنْ تَقَلُّبِهِ وَالرَّأْيُ يَضْرِبُ بِالإِنْسَانِ أَطْوَاراً

ثُمَّ إِنْ زَلَّ الْقَلْبُ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، فَزَلَّهُ عظِيمُ، وَوُقُوعُهُ أَصْعَبُ

وَأَفْظَعُ؛ أَدْنَاهُ قَسْوَةٌ وَمَيْلٌ إِلى غَيْرِ اللَّهِ، وَمُنْتَهَاهُ خَتْمٌ بِكُفْرٍ بِاللَّهِ تَعَالَى.

أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤]. فَكَانَ الكِبْرُ بقَلْبِهِ فَحَمَلَهُ عَلَى الإِبَاءِ، وَالْكُفْرُ بِظَاهِرِهِ، أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦] فَكَانَ المَيْلُ وَاتِّبَاعُ الْهَوَى بِقَلْبِهِ، فَحَمَلَهُ عَلَى ذٰلِكَ الذَّنْبِ المَشْئُومِ بِنَفْسِهِ. أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]. وَلِهٰذَا المَعْنَى، أَيُّهَا الرَّجُلُ، خَافَ عِبَادُ اللَّهِ تَعَالَى الخَوَاصُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَبَكَوْا عَلَيها وَصَرَفُوا عِنَايَتَهُم إِلَيْهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى في وَصْفِهِمْ: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٧].

جَعَلَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُم مِن المُعْتَبِرِينَ بِالْعِبَرِ، المُهْتَمِّينَ بِمَوَاضِعِ الْخَطَرِ، المَوَفَّقِينَ لإِصْلَاحِها بِحُسْنِ النَّظَرِ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ أَمْرَ هٰذَا الْقَلْبِ لَمُهِمٌّ جِدّاً، فَأَخْبِرْنَا عَنِ المَعَانِي الَّتي تُصْلِحُهُ، وَعَنِ الآفاتِ الَّتِي تَعْتَرِضُهُ فَتُفْسِدُهُ، عَسَى أَن نُوَفَّق لِلإِجْتِهَادِ في الْعَمَلِ بِذٰلِكَ.

فيُقَالُ لَهُ: اعْلَمْ أَنَّ تَفْصِيلَ هٰذِهِ المَعَانِي طَوِيلٌ لاَ يَحْتَمِلُهُ هٰذَا الْكِتَابُ، وَإِنَّمَا عُلَمَاءُ الآخِرَةِ عُنُوا بِاسْتِخْرَاجِ ذٰلِكَ وَتَصْنِيفِهِ في هٰذِهِ النُّكْتَةِ لاَ غَيْرُ، وَقَدْ ذَكَرُوا فِيمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ ذٰلِكَ نَحْو تِسْعِينَ خَصْلَةً مَحْمُودَةً، وَفي أَضْدَادِهَا المَذْمُومَةِ، ثُم مِنَ المَسَاعِي الأفْعَالِ الْوَاجِبَةِ وَالمَحْظُورَةِ نَحْوَ ذٰلِكَ في سَائِرِ تَفَاصِيلِهَا؛ وَلَعَمْرِي إِنَّ مَنْ

أَهَمَّهُ أَمْرُ دِينِهِ، وَٱنْتَبَهَ مِنْ رَقْدَةِ الْغَافِلِينَ وَنَظَرَ لِنَفْسِهِ، فَلاَ يَكُونُ تَحْصِيلُ جَمِيعِ ذٰلِكَ وَالْعَمَلُ بِهِ عَلَيهِ كَثِيراً إِذَا وَفَّقَهُ اللَّهُ تَعالَى. وَقَدْ ذَكَرْنَا/ نُبْذَةً مِنْهَا فِي شَرْحِ عَجَائِبِ الْقَلْبِ مِنْ كِتابِ «إِحيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ» وَأَتَيْنَا عَلَى شَرْحِ جَمِيعِهَا بِتَفَاصِيلِهَا وكَيْفِيةِ عِلاَجِهَا في كِتَابِ «أَسْرَارِ مُعَامَلاَتِ الدِّينِ». وَهُوَ كِتابٌ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ، عَظِيمُ الْفَائِدَةِ وَلاَ يَنْتَفِعُ بِهِ إِلاَّ فُحُولُ الْعُلَمَاءِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ، وَمَوْضُوعُ هٰذَا الْكِتَابِ أَنْ يَنْتَفِعَ بِهِ المبْتَدِي (والمنْتَهِي)[1] وَالْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ. [٣٤/ب]

آفات القلوب وعلاجها

فَنَظَرْنَا فِي الأُصُولِ الَّتِي لاَ بُدَّ مِنْ ذِكْرِهَا فِي عِلاَجِ الْقَلْبِ، وَالحَاجَةُ إِلَيْهَا مَاسَّةٌ، وَلاَ غُنْيَةَ عَنْهَا أَلْبَتَّةَ في شَأنِ الْعِبَادَةِ، فَوَجَدْنَاهَا أَرْبَعَةَ أُمُورٍ هِيَ مَدَاحِضُ الْعَابِدِينَ وَآفاتُ الْمُجْتَهِدِينَ، وَهِيَ فِتَنُ الْقُلُوبِ وَبَلِيَّاتُ النُّفُوسِ، تَعُوقُ وَتَشِينُ، وَتُفْسِدُ وَتُتْلِفُ، وَأَرْبَعَةٌ في مُقَابَلَتِهَا فِيها قِوَامُ الْعُبَّادِ، وَٱنْتِظَامُ الْعِبَادَةِ، وإِصلاَحُ الْقُلُوبِ.

فَالآفَاتُ الأَرْبَعُ: الأَمَلُ وَالاِسْتِعْجَالُ وَالْحَسَدُ وَالْكِبْرُ. وَالمَنَاقِبُ الأَرْبَعُ: قِصَرُ الأَمَلِ وَالتَّأَنِّي فِي الأُمُورِ وَالنَّصِيحَةُ لِلْخَلْقِ وَالتَّوَاضُعُ وَالْخُشُوعُ. فَهٰذِهِ هِيَ الأُصُولُ في صَلاَحِ الْقُلُوبِ وَفَسَادِهَا، وَالنُّكْتَةُ الَّتِي عَلَيْهَا المَدَارُ، فَلْتَبْذُلِ المَجْهُودَ في التَّحَرُّزِ مِنْ هٰذِهِ الآفَاتِ وَالتَّحْصِيلِ لِهٰذِهِ المَنَاقِبِ، تُكْفَ المُؤَنَ، وَتَظْفَرْ بِالْمَقْصُودِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعالَى، وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ هٰذِهِ الآفاتِ بِكَلِمَاتٍ وَجِيزَةٍ مقْنِعَةٍ.

الآفة الأولى: طول الأمل

١ ــ **أَمَّا طُولُ الأَمَلِ**، فَإِنَّهُ الْعَائِقُ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ وَطَاعَةٍ، الْجَالِبُ لِكُلِّ شَرٍّ وَفِتْنَةٍ، وَإِنَّهُ الدَّاءُ الْعُضَالُ الَّذِي يُوقِعُ الْخَلْقَ فِي أَنْوَاعِ الْبَلِيَّاتِ.

---

(١) زيادة من (د) و (هـ).

عواقب طول الأمل

وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِذَا طَالَ أَمَلُكَ هَاجَ لَكَ مِنْهُ أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ:

أَحَدُها: تَرْكُ الطَّاعَةِ وَالْكَسَلُ فِيها، تَقُولُ: سَوْفَ أَفْعَلُ وَالأَيَّامُ بَيْنَ يَدَيَّ، وَلاَ يَفُوتُنِي ذٰلِكَ، وَلَقَدْ صَدَقَ دَاوُدُ الطَّائِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ حَيْثُ قَالَ: «مَنْ خَافَ الْوَعِيدَ قَرُبَ عَلَيْهِ الْبَعِيدُ، وَمَنْ طَالَ أَمَلُهُ سَاءَ عَمَلُهُ»(١). وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ الرَّازِي، رَحِمَهُ اللَّهُ: «الأَمَلُ قَاطِعٌ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ، وَالطَّمَعُ مانِعٌ مِنْ كُلِّ حَقٍّ، وَالصَّبْرُ صَابِرٌ إلى كُلِّ ظَفْرٍ، وَالنَّفْسُ دَاعِيَةٌ إِلى كُلِّ شَرٍّ».

وَالثَّانِي: تَرْكُ التَّوْبَةِ وَتَسْوِيفُها، تَقُولُ: سَوْف أَتُوبُ، وَفي الأَيَّام السَّعَةُ وَأَنا شَابٌّ، وَسِنِّي قَلِيلٌ، وَالتَّوْبَةُ بَيْنَ يَدَيَّ، وَأَنا قَادِرٌ عَلَيها مَتَى رُمْتُها، وَرُبَّمَا اغْتَالَهُ الْحِمامُ عَلى الإِصْرَارِ، وَاخْتَطَفَهُ/ [٣٥/أ] الأَجَلُ قَبْلَ إِصْلاَحِ الْعَمَلِ.

وَالثَّالِثُ: الْحِرْصُ عَلَى الْجَمْعِ وَالاِشْتِغَالِ بِالدُّنْيَا عَنِ الآخِرَةِ، وَيَقُولُ: أَخافُ الفقرَ في الكِبرِ، وَرُبَما أَضعَفُ عَنْ الاِكتِسَابِ، وَلاَ بُدَّ لِي مِنْ شَيْءٍ فاضِلٍ أَدَّخِرُهُ لِمَرَضٍ أَوْ هَرَمٍ أَوْ فَقْرٍ، فَهٰذَا أَو نَحْوُهُ يُحَرِّكُ إِلَى الرَّغْبَةِ في الدُّنْيَا وَالْحِرْصِ عَلَيْهَا وَالاِهْتِمَام بالرِّزْقِ، تَقُولُ أَيْشْ آكُلُ وَأَيْشْ أَشْرَبُ وَأَيْشْ أَلْبَسُ، وَهٰذَا الشِّتَاءُ وَهٰذَا الصَّيْفُ وَمَا لِي شَيْءٌ، وَلَعَلَّ الْعُمْرَ يَطُولُ فَأَحْتَاج، وَالحَاجَةُ مَعَ الشَّيْبِ شَدِيدَةٌ، وَلاَ بُدَّ مِنْ قُوتٍ وغُنْيَةٍ عَنِ النَّاس. فهذه وَأَمْثالُها تُحَرِّكُ إلى طَلَبِ الدُّنْيَا وَالرَّغْبَةِ فِيها، وَالْجَمْعِ لَهَا وَالمَنْعِ لِما عِنْدَكَ مِنْها. وَأَقَلُّ مَا في

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٧/٣٥٧) بلفظ: «من خاف الوعيد قصر عليه البعيد ومن طال أمله ضَعُفَ عمله».

الْبَابِ تُشغِلُ قَلْبَكَ وَتُضِيعُ عَلَيْكَ وَقْتَكَ وَتُكْثِرُ هَمَّكَ وَغَمَّكَ بِلاَ فَائِدَةٍ وَلاَ طَائِلٍ، عَلَى مَا رُوِيَ عَنْ أَبِي ذَرٍّ[1] رحمهُ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ: «قَتَلَنِي هَمٌّ يَوْمٍ لَمْ أُدْرِكْهُ، قِيلَ وَكَيْفَ ذٰلِكَ يَا أَبَا ذَرٍّ؟ قَالَ: إِن أَمَلِي جَاوَزَ أَجَلِي».

وَالرَّابِعُ: الْقَسْوَةُ في الْقَلْبِ وَالنِّسْيَانُ لِلآخِرَةِ، لأَنَّكَ إِذَا أَمَّلْتَ الْعَيْشَ الطويلَ، لاَ تَذْكُرُ المَوْتَ وَالْقَبْرَ، كما قالَ عَلِيُّ بنُ أَبي طالِبٍ رضي اللَّهُ عنه: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَانِ: طُولُ الأَمَلِ، وَاتِّبَاعُ الْهَوَى أَلَا وَإِنَّ طُولَ الأَمَلِ يُنْسِي الآخِرَةَ، وَاتِّبَاع الْهَوَى يَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ»[2] فَإِذَنْ يَصِيرُ فِكْرُكَ وَمُعْظَمُ قلبك في حَدِيثِ الدُّنْيَا وَأَسْبَابِ الْعَيْشِ فَي صُحْبَةِ الْخَلْق وَنَحْوِها، فيقْسُو الْقَلْبُ مِنْ ذٰلِكَ؛ وَإِنَّما رِقَّةُ الْقَلْبِ وَصَفْوَتُهُ بِذِكْرِ المَوْتِ وَالْقَبْرِ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَأَحْوَالِ

---

(١) اسمه جُنْدُب (بضم الجيم وضم الدال وفتحها) بن جنادة، وكان أبو ذر رضي الله عنه من السابقين إلى الإسلام، ومن الصحابة المشهورين. كان زاهداً متقلّلاً من الدنيا، وقد وصفه رسول الله ﷺ بأنه أصدق الناس لهجة أي كلاماً وهو أول من حيَّا رسول الله ﷺ بتحية الإسلام. وهي قوله: السلام عليكم. وقد توفي بالرَّبْذة (موضع قرب المدينة) سنة ٣٢ هـ. سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٦.

(٢) ـ ذكر البخاري بعضاً من هذا الحديث لعلي بن أبي طالب في باب الرقاق (٨/ ١١٠).

ـ وقال العراقي: أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب قصر الأمل. ورواه أيضاً من حديث جابر بنحوه، وكلاهما ضعيف (إحياء ٤/ ٤٥٣).

ـ وقال الكديري في سراج الطالبين (١/ ٤٢٧): هكذا بطوله ذكره الشريف الموسوي في نهج البلاغة (راجع نهج البلاغة ١/ ٧٢) شرح محمد عبده).

ـ ورواه الحاكم النيسابوري في التاريخ، والديلمي من حديث جابر. ورواه ابن النجار، وقال العقيلي فيه يحيى بن مسلمة بن قعنب، حدّث بالمناكير، وقد رواه ابن عساكر في التاريخ من حديث عليٍّ موقوفاً.

الآخِرَة، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ شَيءٌ مِن ذٰلِكَ فَمِنْ أَيْنَ يَكُونُ لِقَلْبِكَ رِقَّةٌ وَصَفْوَةٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦]. فَإِذَنْ أَنْتَ إِذَا طَوَّلْتَ أَمَلَكَ، قَلَّتْ طَاعَتُكَ، وَتَأَخَّرَتْ تَوْبَتُكَ، وَكَثُرَتْ مَعْصِيَتُكَ، وَاشْتَدَّ حِرْصُكَ، وَقَسَا قَلْبُكَ، وَعَظُمَتْ غَفْلَتُكَ عَن الْعَاقِبَةِ، فَذَهَبَتْ ـ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ إِنْ لَمْ يَرْحَم اللَّهُ ـ آخِرَتُكَ، فَأَيُّ حَالٍ أَسْوَأُ مِنْ هٰذِهِ؟ وَأَيُّ آفَةٍ أَعْظَمُ مِنْ هٰذِهِ؟ وَكُلُّ هٰذَا بِسَبَبِ طُولِ الأَمَلِ.

وَأَمَّا إِنْ قَصَّرْتَ مِنْ أَمَلِكَ وَقَرَّبْتَ مِنْ نَفْسِكَ مَوْتَكَ، وَتَذَكَّرْتَ حَالَ أَقْرَانِكَ وَإِخْوَانِكَ، الَّذِين غَافَصَهُمُ[١] المَوْتُ فِي وَقْتٍ لَمْ يَحْتَسِبُوهُ وَلَعَلَّ حَالَكَ مِثْلُ حَالِهِمْ، فَاحْذَرِي يَا نَفْسِي الْغُرُورَ، وَاذْكُرِي مَا قَالَ عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ[٢]: «كَمْ مِنْ مُسْتَقْبِلٍ يَوْماً لَمْ يَسْتَكْمِلْهُ، ومُنْتَظِرٍ غداً لَمْ يُدْرِكْهُ، لَوْ رَأَيْتم الأَجَلَ وَمَسيرَهُ لأَبْغَضْتُمُ الأَمَلَ وَغُرُورَهُ» [٣٥/ب] أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ عِيسَى عَلَيهِ السَّلَامُ: «ٱلدُّنْيَا ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ: أَمْس قد مَضَى مَا بِيَدِكَ مِنْهُ شَيْءٌ، وَغَداً لَا تَدْرِي أَتُدْرِكُهُ أَمْ لَا، وَيَوْمٌ أَنْتَ فِيهِ فَاغْتَنِمْهُ».

ثُمَّ قَوْلَ أَبِي ذَرٍّ: الدُّنْيَا ثَلَاثُ سَاعَاتٍ: سَاعَةٌ مَضَتْ، وَسَاعَةٌ

---

(١) غافصهم: أي فاجأهم.

(٢) ابن عتبة بن مسعود، الإمام القدوة العابد أبو عبد الله الهذلي الكوفي أخو فقيه المدينة عبيد الله.
حدّث عن أبيه وأخيه وابن المسيّب وابن عباس وغيرهم. وثّقه أحمد وغيره، قال الأصمعي: كان من آدب أهل المدينة وأفقههم، كان مرجئاً ثم تركه توفي سنة بضع عشرة ومئة. سير أعلام النبلاء ١٠٣/٥.

أَنْتَ فِيهَا، وَسَاعَةٌ لاَ تَدْرِي أَتُدْرِكُهَا أَمْ لاَ»؛ فَلَسْتَ تَمْلِكُ بِالْحَقِيقَةِ إِلاَّ سَاعَةً وَاحِدَةً، إِذِ المَوْتُ مِنْ سَاعَةٍ إِلَى سَاعَةٍ ممكن. ثُمَّ قَوْلَ شَيْخِنَا[1] رَحِمَهُ اللَّهُ: «الدُّنْيَا ثَلاَثَةُ أَنْفَاسٍ: نَفَسٌ مَضَى عَمِلْتَ فِيهِ مَا عَمِلْتَ، وَنَفَسٌ أَنْتَ فِيهِ، وَنَفَسٌ لا تَدْرِي أَتُدْرِكُهُ أَمْ لا»؛ إِذْ كَمْ مِنْ مُتَنَفِّسٍ نَفَساً فَفَاجَأَهُ المَوتُ قَبْلَ النَّفَسِ الآخِرِ؟ فَلَسْتَ تَمْلِكُ إِلاَّ نَفَساً واحِداً لاَ يَوْماً وَلاَ سَاعَةً، فَبَادِرْ فِي هٰذَا النَّفَسِ الْوَاحِدِ إِلى الطَّاعَةِ قَبْلَ أَنْ يَفُوتَ، وَإِلى التَّوْبَة فَلَعَلَّكَ في النَّفَسِ الثَّانِي تَمُوتُ، وَلاَ تَهْتَمِّي يا نفس بِالرِّزْقِ، فَلَعَلَّكِ لا تبقَيْنَ لِتحتاجِي إليه فَيَكُونُ وَقْتُك ضَائِعاً وَالْهَمُّ فضلاً، وَمَا عَسَى أَنْ يَهْتَمَّ الإِنْسَانُ لِيَوْمٍ وَاحِدٍ أَوْ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ نَفَسٍ وَاحِدٍ؟ أَمَا تَذْكُرِينَ مَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأَصْحَابِه: «أَما تَعْجَبُونَ مِنْ أُسَامَةَ[2] المُشْتَرِي الوليدة بِصَبْرِ شَهْرٍ، إِنَّ أُسَامَةَ لَطَوِيلُ الأَمَلِ، وَاللَّهِ مَا وَضَعْتُ قَدَماً فَظَنَنْتُ أَنِّي أَرْفَعُهَا، وَلاَ لُقْمَةً فَظَنَنْتُ أَنِّي أُسِيغُهَا حَتَّى يُدْرِكَنِي المَوْتُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ»[3].

---

(١) هو أبو بكر الورّاق.

(٢) مولى رسول الله ﷺ، ابن حارثة بن شراحيل بن عبد العُزَّى بن امرىء القيس.
حبُّ رسول الله ﷺ وابن مولاه.
استعمله الرسول على جيشٍ لغزو الشام، وفي الجيش عمر والكبار فلم يَسِرْ حتى توفي رسول الله ﷺ.
كان شديد السواد، خفيف الروح، شاطراً، شجاعاً، ربّاه النبي ﷺ وأحبّه كثيراً.
سير أعلام النبلاء ٢/٤٩٦.

(٣) ـ قال العراقي: أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل، والطبراني في مسند الشاميين، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب، بسند ضعيف. (إحياء ٤/٤٥٣).

فَإِذَا أَنْتَ أَيُّهَا الرَّجُلُ تَذَكَّرْتَ هٰذِهِ الأَذْكَارَ، وَوَاظَبْتَ عَلَى ذٰلِكَ بِالإِعَادَةِ وَالتَّكْرَارِ، قَصُرَ أَمَلُكَ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى، فَحِينَئِذٍ تَرَى نَفْسَكَ تُبَادِرُ إِلى الطَّاعَاتِ وَتُعَجِّلُ تَوْبَتَكَ، وَتَسْقُطُ عَنْكَ مَعْصِيَتُكَ، وَتَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا وطَلَبِهَا، فَيَخِفُّ حِسَابُكَ وَتَبِعَتُكَ وَيَقَعُ قَلْبُكَ فِي تَذَكُّرِ الآخِرَةِ وَأَهْوَالِهَا، وَمَا هُوَ إِلاَّ مِنْ نَفْسٍ إِلَى نَفْسٍ تَصِيرُ إِلَيْهَا وَتُعَايِنُهَا وَاحِداً فَوَاحِداً، فَتَزُولُ عَنْكَ الْقَسْوَةُ وَتَبْدُو لَكَ الصَّفْوَةُ والرِّقَّةُ وَتَسْتَشْعِرُ عِنْدَ ذٰلِكَ الخَوْفَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَالْخَشْيَةَ، فَيَسْتَقِيمُ لَكَ أَمْرُ عِبَادَتِكَ، وَيَقْوَى الرَّجَاءُ فِي أَنْ تسْعدَ فِي عَاقِبَتِكَ، فَتَظْفَرَ بِالْمُرَادِ فِي آخرتك، وَكُلُّ ذٰلِكَ بَعْدَ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى بِسَبَبِ هٰذِهِ/ الْخَصْلَةِ الَّتِي هِيَ قِصَرُ الأَمَلِ. [٣٦/أ]

فضل قصر الأمل

وَلَقَدْ حُكِيَ أَنَّ زُرَارَةَ بْنَ أبي أَوْفَى[1] رَحِمَهُ اللَّهُ، قِيلَ لَهُ فِي النَّوْمِ بَعْدَ مَوْتِهِ: أَيُّ الأَعْمَالِ أَبْلَغُ فِيمَا عِنْدَكُمْ؟ قَالَ: الرِّضَا وَقِصَرُ الأَمَلِ.

فَانْظُرْ لِنَفْسِكَ أَيُّهَا الأخُ، وَابْذُلِ المَجْهُودَ في هٰذَا الأَصْلِ الْكَبِيرِ فَإِنَّهُ الأَهَمُّ وَالأَعْظَمُ في صَلاَحِ الْقَلْبِ وَالنَّفْسِ، وَاللَّهُ تَعَالَى وَلِيُّ التَّوْفِيقِ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ.

الآفة الثانية: الحسد

٢ ــ وَأَمَّا الْحَسَدُ فَإِنَّهُ المُفْسِدُ لِلطَّاعَاتِ الْبَاعِثُ عَلَى الخَطِيئَاتِ، وَإِنَّهُ الدَّاءُ الَّذِي يُبْتَلَى بِهِ الْكَثِيرُ مِنَ الْقُرَّاءِ وَالْعُلَمَاءِ، فَضْلاً عَنِ الْعَامَّةِ

(١) العامري القرشي البصري، من التابعين، يكنّى أبا الحاجب، من العباد، وثّقه النسائي وابن حبّان. قال ابن سعد: مات فجأة في الصلاة سنة ثلاث وتسعين بعد المائة. سير أعلام النبلاء ٤/٥١٦.

وَالْجُهَّالِ، حَتَّى أَهْلَكَهُمْ وَأَوْرَدَهُمْ النّارَ. أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَ رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ: «سِتَّةٌ يَدْخُلُونَ النّارَ بِسِتَّةٍ: الْعَرَبُ بِالْعَصَبِيَّةِ، وَالأُمَرَاءُ بِالجَوْرِ، والدَّهَاقينُ[1] بِالْكِبْرِ، وَالتُّجَّارُ بِالْخِيَانَةِ، وَأَهْلُ الرَّسَاتِيقِ[2] بِالْجَهْلِ، وَالْعُلَمَاءُ بِالْحَسَدِ»[3]. وَإِنَّ بَلِيَّةً بَلَغَ شُؤْمُهَا أَنْ أَوْرَدَتِ الْعُلَمَاءَ النّارَ لَحَقِيقٌ أَنْ يُحْذَرَ مِنْهَا.

عواقب الحسد

وَٱعْلَمْ أَنَّ الْحَسَدَ يُهَيِّجُ خَمْسَةَ أَشْيَاءَ:

أَحَدُهَا: إفْسَادُ الطاعاتِ، قَال رَسُولُ اللّٰهِ ﷺ: «ٱلْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كمَا تَأْكُلُ النّارُ الْحَطَبَ»[4].

---

(١) الدهاقين: جمع دهقان، بكسر الدال، وهو رئيس القرية.

(٢) أهل الرساتيق: أي أصحاب القرى.

(٣) ــ قال العراقي (إحياء ٣/١٨٨) أخرجه أبو منصور الديلمي من حديث ابن عمر وأنس بسندين ضعيفين.

(٤) ــ رواه أبو داود في سُنَنِه، كتاب الأدب، باب في الحسد (٥/٢٠٨) عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «إيّاكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب».
وذكر المعلّق على هذا الحديث في الحاشية أن أحد رواته وهو إبراهيم بن أبي أسيد ذكره البخاري في التاريخ الكبير وقال: لا يصح.
ــ ورواه أيضاً ابن ماجه في سننه (٢/١٤٠٨) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار، والصلاة نور المؤمن، والصيام جُنّة من النار» وذُكر في التعليق على هذا الحديث عن كتاب الزوائد أن إسناد حديث أنس بن مالك فيه عيسى بن أبي عيسى وهو ضعيف.
ــ وورد هذا الحديث في الجامع الصغير للسيوطي (١/٥١٨) برواية أنس بن =

وَالثَّانِي: فِعْلُ المَعَاصِي وَالشُّرُورِ عَلى مَا قَالَ وَهْبُ بن منبّه[1] رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: لِلْحَاسِدِ ثَلاَثُ عَلاَمَاتٍ: يَتَمَلَّقُ إِذَا شَهِدَ، وَيَغْتَابُ إِذَا غَابَ، وَيَشْمَتُ بِالْمُصِيبَةِ. قُلْتُ: وَحَسْبُكَ إن اللَّهَ أَمَرَ بِالاِسْتِعَاذَةِ مِنْ شَرِّ الْحَاسِدِ فَقَالَ: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝ ﴾ [الفلق: ٥]. كَمَا أَمَرَ بِالإِسْتِعَاذَةِ مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ الرجيم وَالسَّاحِرِ، فَانْظُرْ كَمْ لَهُ مِنَ الشَّرِّ وَالْفِتْنَةِ حَتَّى أَنْزَلَهُ مَنْزِلَةَ الشَّيْطَانِ وَالسَّاحِرِ، حَتَّى أَنْ لاَ مُسْتَعَانَ عَلَيْهِ وَلاَ مُسْتَعَاذَ إِلاَّ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَالثَّالِثُ: التَّعَبُ وَالْهَمُّ مِنْ غَيْرِ فَائِدَةٍ، بَلْ مَعَ كُلِّ وِزْرٍ وَمَعْصِيَةٍ، كما قَالَ ابْنُ السَّمَّاكِ[٤]: لَمْ أَرَ ظَالِماً أَشْبَهَ بِالْمَظْلُومِ مِنَ

= مالك، وذكر أنه حسن. (الحديث رقم ٣٨١٧) وكذلك ذكره المناوي في فيض القدير (٣/ ٤١٣).

ـ وقال الحافظ العراقي في تخريج هذا الحديث: قال البخاري لا يصح، وهو عند ابن ماجه من حديث أنس بإسناد ضعيف، وفي تاريخ بغداد بإسناد حسن. (إحياء ١/ ٤٥) وقد ورد هذا الحديث في الإحياء ثلاث مرات (١/ ٤٥، ٣/ ١٨٧، ٣/ ٣٨٩).

(١) تابعي جليل، من المشهورين بمعرفة الكتب الماضية، سمع كثيراً من الصحابة، وروى عنه عمرو بن دينار والمغيرة بن حكيم وآخرون. اتفق العلماء على توثيقه. وقد ولي قضاء صنعاء. وكان زاهداً. توفي عام ١١٦ هـ أو ١١٤ أو ١١٠ على اختلاف الروايات. سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٤٤.

(٢) هو الزاهد القدوة، سيد الوُعّاظ، أبو العباس محمد بن صبيح العجلي الكوفي، مولى بني عجل، كان كبير القدر، دخل على الرشيد فوعظه وقال له: يا أمير المؤمنين: إنّ لك بين يدي الله مقاماً، وإنّ لك من مقامك مُنْصَرَفاً، فانظر إلى أين تكون. فبكى الرشيد كثيراً. توفي ابن السماك سنة ثلاث وثمانين ومئة. سير أعلام النبلاء ٨/ ٢٩١.

الحَاسِدِ، نَفْسٌ ذَائِمٌ[1] وَعَقْلٌ هَائِمٌ وَغَمٌّ لاَزِمٌ.

وَالرَّابِعُ: **عَمَى الْقَلْبِ** حَتَّى لاَ يَكَادُ يَفْهَمُ حُكْماً مِنْ أَحْكَامِ اللَّهِ تعالى، فَلَقَدْ قَالَ سُفْيَانُ: عَلَيْكَ بِطُولِ الصَّمْتِ تمْلِكِ الْوَرَعَ، وَلاَ تَكُنْ حَرِيصاً عَلَى الدُّنْيَا تَكُنْ حَافِظاً، وَلاَ تَكُنْ طَعَّاناً تَنْجُ مِنْ أَلسِنَة النَّاس، وَلاَ تَكُنْ حَاسِداً تكُنْ سَرِيعَ الْفَهْمِ.

[٣٦/ب] **وَالْخَامِسُ**: **الْحِرْمَانُ وَالْخِذْلاَنُ**، فَلا/ يَكَادُ يَظْفَرُ بمُرَادٍ وَيُنْصرُ عَلَى عَدُوّ، كَمَا قَالَ حَاتِمُ الأَصَمِّ: الطعّانُ غَيْرُ ذِي دِينٍ، وَالْعَائِبُ غَيْرُ عَابِدٍ، وَالنَّمَّامُ غَيْرُ مَأْمُون،وَالْحَسُودُ غيْرُ مَنْصُورٍ.

قُلْتُ: الْحَسُودُ كَيْفَ يَظْفَرُ بمُرَادِهِ، وَمُرَادُهُ زَوَالُ نِعَمِ اللَّهِ عَنْ عِبَادِهِ الْمُسْلِمِينَ، وَكَيْفَ يُنْصَرُ عَلَى أَعْدَائِهِ وَهُمْ عِبَادُ اللَّهِ الْمُؤْمِنُونَ.

وَلَقَدْ أَحْسَنَ أَبُو يَعْقُوبَ[2] فِيمَا قَالَ: «اللَّهُمَّ صَبِّرْنَا عَلَى تَمَامِ النِّعَمِ عَلَى عِبَادِكَ وَحَسِّنِ أَحْوَالَهُمْ».

وَأَنَّهُ يُفْسِدُ عَلَيْكَ الطَّاعَةَ، وَيُكْثِرُ شَرَّكَ وَمَعْصِيَتَكَ، وَيَمْنَعُكَ

= انظر أخباره وترجمته في:
المعرفة والتاريخ: ١٢/٦٧١، حلية الأولياء: ٨/٢٠٣ ـ ٢٠٧، وفيات الأعيان: ٤/٣٠١ ـ ٣٠٢.

(١) ذائم: أي حقير. ذأمه يذؤمه إذا عابه وحقّره وذمّه.

(٢) الأستاذ العارف، أبو يعقوب إسحق بن محمد النهر جوري. صحب أبا عمرو المكي وأبا يعقوب السوسي والجُنَيْد وغيرهم.
جاور مدة ومات بمكة، وقد توفي سنة ثلاثين وثلاث مئة. سير أعلام النبلاء ١٥/٢٣٢.

رَاحَةَ النَّفْس وَفَهْمَ الْقَلْبِ، وَالنَّصْرَةَ عَلَى الأَعْدَاءِ وَالظَّفْرَ بِالْمَطْلُوبِ، فَأَيُّ دَاءٍ يَكُونُ أَدْوَأَ مِنْهُ، فَعَلَيْكَ بِمُعَالَجَةِ نَفْسِكَ مِنْ ذٰلِكَ، وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيق.

الآفة الثالثة: الاستعجال

٣ ـ وَأَمَّا الإِسْتِعْجَالُ[١] وَالنَّزَقُ مَعَ سوء الخلق، فَإِنَّهُ الْخَصْلَةُ الْمُفَوِّتَةُ لِلْمَقَاصِدِ، الْمُوقِعَةُ في المَعَاصِي، وَإِنَّ مِنْهَا تَبْدُو آفاتٌ أَرْبَعٌ:

إِحْدَاهَا: أَنْ يَقْصِدَ الْعَابِدُ مَنْزِلَةً في الْخَيْرِ وَالإِسْتِقَامَةِ وَيَجْتَهِدَ، فَرُبَّمَا يَسْتَعْجِلُ فِي نَيْلِهَا، وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِوَقْتِهَا، فَإِمَّا أَنْ يَفْتُرَ وَيَيْأَسَ فَيَتْرُكَ الإِجْتِهَادَ فَيُحْرَمَ تِلْكَ المَنْزِلَةَ، وَإِمَّا أَنْ يَغْلُوَ في الْجُهْدِ وَإِتْعَابِ النَّفْس فَيَنْقَطِعَ عَنْ تِلْكَ المَنْزِلَةِ فَهُوَ بَيْنَ إِفْرَاطٍ وَتَفْرِيطٍ، وَكِلاَهُمَا نَتِيجَةُ الاسْتِعْجَالِ. وَلَقَدْ رَوينا عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ دِينَنَا هٰذَا مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ، فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لاَ أَرْضاً قَطَعَ وَلاَ ظَهْراً أَبْقَى»[٢] وَفِي المَثَلِ السَّائِرِ: إِنْ لَمْ تَسْتَعْجِل تَصِلْ. وقول القَائِلِ: [البسيط]:

---

(١) من الملاحظ أن ترتيب هذه الآفة بين الآفات الأربعة جاء قبل الحسد، ولكن الغزالي عندما ذكر تفاصيلها هنا وضعها بعد الحسد.
كذلك فإن التقسيم الأول للآفات الأربعة يشير إلى أن الاستعجال آفة، وهنا يجعلها خصلة تتفرّع عنها آفات أربع. وهذا يعني أن الغزالي لا يراعي أحياناً الترتيب والتقسيم المتسلسل ولا يحافظ على معنى واحد للمصطلح الذي يستعمله.

(٢) ـ روى ابن حنبل هذا الحديث في قسمه الأول عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق». وصححه السيوطي في الجامع الصغير (١/٣٣٨، الحديث رقم ٢٥٠٨). أما رواية البزّار في مسنده عن جابر، وهي الرواية التي يذكرها الغزالي بلفظ (إن هذا الدين متين...) فقد ضعّفها السيوطي، كذلك قال المناوي في تعليقه على هذا الحديث (فيض القدير =

قَدْ يُدْرِكُ المُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ المُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ

وَالثَّانِيَةُ: أَنْ يَكُونَ لِلْعَابِدِ حَاجَةٌ فَيَدْعُوَ اللَّهَ تَعَالَى فِيهَا وَيُكْثِرَ الدُّعَاءَ، وَيَجِدَّ، فَرُبَّمَا يَسْتَعْجِل الإِجْابَةَ قَبْلَ وَقْتِهَا، فَلاَ يَجِدُهَا فَيَفْتُرُ وَيَسْأَمُ وَيَتْرُكُ الدُّعَاءَ فَيُحْرَمُ حَاجَتَهُ وَمَقْصُودَهُ.

وَالثَّالِثَةُ: أَنْ يَظْلِمَهُ إِنْسَانٌ، فَيَغِيظَهُ فَيُعَجِّلَ فِي الدُّعَاءِ عَلَيْهِ، فَيَهْلِكَ مُسْلِمٌ بِسَبَبِهِ، وَرُبَّمَا يَتَجَاوَزُ عَنِ الْحَدِّ فَيَقَعُ فِي مَعْصِيَةٍ وَهَلاَكٍ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ [الإسراء: ١١].

= ٢/٥٤٤، الحديث رقم ٢٥٠٧) قال الهيثمي: وفيه يحيى بن المتوكل أبو عقيل وهو كذاب.

ـ ورواه البيهقي في السنن من طرق وفيه اضطراب، روي موصولاً ومرسلاً ومرفوعاً وموقوفاً، واضطرب في الصحابي أهو جابر أم عائشة أم عمر؟ ورجّح البخاري في التاريخ إرساله.

ـ ويورد الغزالي نصين لهذا الحديث: الأول ذكره بلفظ: (لا تُشَادّوا هذا الدين فإنّه متين، فمن يشادّه غلبه. فلا تبغّض إلى نفسك عبادة الله).

قال العراقي في تخريجه: أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة (لن يشادّ هذا الدين أحداً إلا غَلَبه، فسَدِّدوا وقاربوا) وللبيهقي من حديث جابر: (إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولا تُبَغِّض إلى نفسك عبادة الله) ولا يصحّ إسناده (انظر الإحياء ١/ ٣٤٤).

والثاني: ذكره بلفظ: (إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، ولا تُبَغِّض إلى نفسك عبادة الله، فإن المنبتّ لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى).

وقال العراقي في تخريجه: أخرجه أحمد من حديث أنس، والبيهقي من حديث جابر، (انظر الإحياء ٤/ ٧٩).

[٣٧/أ] وَالرَّابِعَةُ: أَنَّ أَصْلَ الْعِبَادَةِ وَمِلاَكَهَا/ الْوَرَعُ. وَالْوَرَعُ أَصْلُهُ النَّظَرُ الْبَالِغُ في كُلِّ شَيْءٍ، وَالْبَحْثُ التَّامُّ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ هُوَ بِصَدَدِهِ، مِنْ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَلُبْسٍ وَكَلامٍ وَفِعْلٍ، فَإِن كَانَ الرَّجُلُ مُسْتَعْجِلاً فِي الأُمُورِ غَيْرَ مُتَأَنٍّ وَلاَ مُتَثَبِّتٍ ولا مُتَبَيِّنٍ، لَمْ يَقَعْ مِنْهُ تَوَقُّفٌ وَنَظَرٌ في الأُمُورِ كَمَا يَجِبُ، وَيَتَسَارَعُ إلى كُل كَلاَم، فَيَقَعُ فِي الزَّلَلِ، وَإِلى كُلِّ طَعَامٍ فَيَقَعُ في الْحَرَامِ وَالشُّبْهَةِ، وَكَذٰلِكَ في كُلِّ أَمْرٍ فَيُفَوِّتُهُ الْوَرَعُ، وَأَيُّ خَيْرٍ في عِبَادَةٍ بِلاَ وَرَعٍ؟ وَإِذَا كَانَ في خَصْلَةِ الانْقِطَاعِ عَنْ مَنَازِلِ الْخَيْرِ وَحِرْمَانِ الْحَاجَاتِ وَهَلاَكِ الْمُسْلِمِينَ وَهَلاَكِهِ، ثُمَّ خَطَرِ فَوْتِ الْوَرَعِ الَّذِي هُوَ رَأْس المَالِ، فَحَقَّ لِلإِنْسَانِ أَنْ يَهْتَمَّ لَهَا، بِالإِزَالَةِ وَإِصْلاَحِ النَّفْسِ بَعْدَهَا، وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ.

الآفة الرابعة: الكبر وعواقبه

٤ ــ وَأَمَّا الْكِبْرُ فَإِنَّهُ الْخَصْلَةُ الْمُهْلِكَةُ رَأْساً، أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَه تَعَالَى: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ [البقرة: ٣٤]. وَلَيْسَتْ هٰذِهِ الْخَصْلَةُ بِمَنْزِلَةِ سَائِرِ الْخِصَالِ الَّتِي تَقْدَحُ فِي عَمَلٍ، وَتَضُرُّ بِفَرْعٍ، وَإِنَّمَا تَضُرُّ بِالأَصْلِ، وَتَقْدَحُ في الدِّينِ وَالاعْتِقَادِ، وَإِذَا قَوِيَتْ وَغَلَبَتْ فَلا تُتَدَارَكُ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ. ثُمَّ أَقَلُّ مَا يَهِيجُ مِنْها عَلَى صَاحِبِهَا أَرْبَعُ آفاتٍ:

إِحْدَاهَا: حِرْمَانُ الْحَقِّ، وَعَمَى الْقَلْبِ عَنْ مَعْرِفَةِ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَفهمِ أَحْكَامِه. قالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ٣٥﴾ [غافر: ٣٥].

وَالثَّانِيةُ: المَقْتُ وَالْبُغْضُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، قالَ اللَّهُ عزّ وجلّ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ٢٣﴾ [النحل: ٢٣] وَرُوِيَ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ

السَّلَامُ قَالَ: «يَا رَبِّ، مَنْ أَبْغَضُ خَلْقِكَ إِلَيْكَ؟ قَالَ: مَنْ تَكَبَّرَ قَلْبُهُ، وَغَلُظَ لِسَانُهُ[1]، وَصَفَّقَ عَيْنَهُ[2]، وَبَخِلَتْ يَدُهُ، وَسَاءَ خُلُقُهُ».

وَالثَّالِثَةُ: **الْخِزْيُ وَالنَّكَالُ**، في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، قَالَ حَاتِمٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: اجْتَنِبْتُ المَوْتَ عَلَى ثَلَاثَةٍ: عَلَى الْكِبْرِ، وَالْحِرْصِ، وَالخُيَلَاءِ[3]؛ فَإِنَّ المُتَكَبِّرَ لا يُخْرِجُهُ اللَّهُ من الدُّنيا حَتَّى يُرِيَهُ الْهَوَانَ مِنْ أَرْذَلِ أَهْلِهِ وَخُدَّامِهِ؛ وَالحَرِيصُ لَا يُخْرِجُهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يُحْوِجَهُ إِلَى كِسْرَةٍ أَوْ شَرْبَةٍ، وَلَا يَجِدُ مَسَاغاً، وَالْمُخْتَالُ لَا يُخْرِجُهُ اللَّهُ مِنَ الدُّنْيَا، حَتَّى يُمَرِّغَهُ اللَّهُ بِبَوْلِهِ وَقَذَرِهِ؛ وَقِيلَ: مَنْ تَكَبَّرَ بِغَيْرِ حَقٍّ، أَوْرَثَهُ اللَّهُ ذُلّاً بِحَقٍّ.

وَالرَّابِعَةُ: **النَّارُ وَالْعَذَابُ في الْعُقْبَى**، عَلَى مَا رُوِيَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ/: «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي في وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَدْخَلْتُهُ نار جَهَنَّمَ»[4]. [٣٧/ب]

وَالمَعْنَى أَنَّ الْعَظَمَةَ وَالْكِبْرِيَاءَ مِنَ الصِّفَاتِ التِي تَخْتَصُّ بِي،

---

(١) غلظ لسانه: أي أصبح كلامه فاحشاً.

(٢) صَفَّقَ عينه: أغمضها عن رؤية الخيرات.

(٣) الخيلاء: بضم الخاء وقيل بالكسر، البطر والزهو، وهو حرام.

(٤) ــ رواه ابن حنبل عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ وفيه: (ألقيته في النار) و (أدخلته جهنم) و (قذفته في النار) و (ألقيته في جهنم) (راجع مسند ابن حنبل ٢/٢٤٨، ٣٧٦، ٤٢٧، ٤١٤، ٤٤٣).

ــ كذلك رواه أبو داود في سننه (٤/٣٥٠) كتاب اللباس، باب ما جاء في الكِبْر. الحديث رقم ٤٠٩٠.

ــ ورواه أيضاً ابن ماجه (٢/١٣٩٧) كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر (الحديث رقم ٤١٧٤، ٤١٧٥).

وَلاَ تَنبغِي لأَحَدٍ غَيْرِي؛ كما أَنّ رِداءَ الإِنْسَانِ وَإِزَارَهُ يُخْتَصُّ بِهِ، لاَ يُشَارَكُ فِيهِ. وَإِنَّ خصْلَةَ تُفَوِّتُكَ مَعْرِفَةَ الْحَقِّ، وَفَهْمَ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَحْكَامِهِ، الَّذِي هُوَ أَصْلُ الأَمْرِ كُلِّهِ، ثُمَّ تُثْمِرُ لَكَ المَقْتَ مِنَ اللَّهِ سُبحانَهُ، وَالخِزْيَ فِي الدُّنْيَا، وَالنَّارَ في الآخِرَةِ؛ لاَ يَسَعُ العَاقِلَ أَنْ يَغْفُلَ عَنْ نَفْسِهِ، فَلاَ يُصْلِحُهَا بِإِزَالَتِهَا بِالْحذَرِ وَالتَّحَرُّزِ وَالاِسْتِعَاذَةِ بِاللَّهِ عزّ وجلّ مِنْ ذٰلِكَ وَهُوَ وَلِيُّ الْعِصْمَةِ وَالتَّوْفِيقِ بِمَنِّهِ ولطفهِ.

فَهٰذَا بَعْضُ مَا حَضرَنَا فِي هٰذِهِ الْخِصَالِ الأَرْبَعِ مِنَ الآفَاتِ، وَحَسْبُ الْعَاقِلِ وَاحِدَة مِنهَا، فَضْلاَ عَنْ الْكُلِّ، إِذَا أَهَمَّهُ أَمْرُ قَلْبِهِ وَحَامَى عَنْ أَمْرِ دِينِهِ، وَاللَّهُ الْمُوَفِّقُ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَإِذَا كَانَ الأَمْرُ بِهٰذِهِ الْمَنْزِلَةِ مِنْ آفاتِ هٰذِهِ الْخِصَالِ، وَلزم التّحفُّظ مِنْهَا، فَلاَ بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ حَقِيقَتِهَا وَحَدِّهَا، فَبَيِّنْ لَنَا ذٰلِكَ لِنَعْرِفَ كَيْفَ الطَّرِيقُ إلى التَّحفُّظِ عَنْهَا.

حقيقة الآفات الأربع

فَاعْلَمْ أَنَّ في كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا كلاماً كثيراً، وَقَدْ أَشْبَعْنَا الْقَوْلَ فِيهِ في كِتَابَيْ الإِحْيَاءِ وَالأَسْرَارِ، وَنَحنُ نَذْكُرُ هَا هنا ما لا بُدَّ مِنْ ذِكْرِهِ، وَلاَ يَقَعُ الْغِنَى عَنْهُ، فَنَقُولُ وَبِاللَّهِ التّوفِيقُ:

حقيقة الأمل

١ ــ **أَمَّا الأَمَلُ**، فَقَالَ أَكْثَرُ عُلَمَائِنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إِنَّهُ إِرادَةُ الْحَيَاةِ لِلْوَقْتِ المُتَرَاخِي بالحُكْم. **وَقِصرُ الأمل** تَرْكُ الْحُكْمِ فِيهِ، بِأَنْ تُقَيِّدَهُ بِالاسْتِثْنَاءِ بِمَشِيئَةِ اللَّه تَعَالَى وَعِلْمِهِ فِي الذِّكْرِ، أَوْ بِشَرْطِ الصّلاَحِ فِي الإِرَادَةِ، فَإِذَنْ إِنْ ذَكَرْتَ حَيَاتَكَ بِأَنِّي أَعِيشُ بَعْد نَفَس ثَانٍ أَوْ سَاعَةٍ ثَانِيَةٍ أَوْ يَوْمٍ ثَانٍ بِالْحُكْمِ وَالْقَطْعِ، فَأَنْتَ آمِلٌ، وَذٰلِكَ مِنْكَ مَعْصِيَةٌ، إِذْ هُوَ حُكْمٌ عَلَى الْغَيْبِ، فَإِنْ قَيَّدْتَهُ بِالْمَشِيئَةِ وَالْعِلْمِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَتقول: أَعِيشُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، أَوْ إِنْ عَلِمَ اللَّهُ أَنْ أَعِيشَ، فَقَدْ خَرَجْتَ

عَنْ حُكْمِ الأَمَلِ، (وَوُصِفْتَ بِتَرْكِ الأَمَلِ)[1]، وَكَذٰلِكَ إِنْ أَرَدْتَ حَيَاتَكَ لِلْوَقْتِ الثَّانِي قَطْعاً فَأَنْتَ آمِلٌ، وَإِنْ قَيَّدتَ إِرَادَتَكَ بِشَرْطِ الصَّلَاحِ خَرَجْتَ عَنْ حُكْمِ الأَمَلِ وَوُصِفْتَ بِقِصَرِ الأَمَلِ، مِنْ حَيْثُ تَرَكْتَ الحُكْمَ فِيهِ، فَعَلَيْكَ بِتَرْكِ الْحُكْمِ في ذِكْرِ الْبَقَاءِ وَإِرَادَتِهِ، وَالْمُرَادُ بِالذِّكْرِ ذِكْرُ الْقَلْبِ، ثُمَّ المُرَادُ مِنْهُ التَّوْطِينُ عَلَى ذٰلِكَ، وَالتَّثْبِيتُ/ لِلْقَلْبِ عَلَيْهِ، فَافْهَمْ ذٰلِكَ رَاشِداً إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. [٣٨/أ]

ثُمَّ الأَمَلُ ضربَان: أَمَلُ الْعَامَّةِ وَأَمَلُ الخَاصَّةِ.

فَأَمَلُ الْعَامَّةِ أَنْ تُرِيدَ الْحَيَاةَ وَالْبَقَاءَ لِجمعِ الدُّنْيَا وَالتَّمَتُّعِ بِهَا، وَهٰذِهِ مَعْصِيَةٌ مَحْضَةٌ، وَضِدُّهَا قِصَرُ الأَمَلِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ **ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** ۝٣﴾ [الحجر: ٣].

وَأَمَلُ الخَاصَّةِ أَنْ تُرِيدَ الْبَقَاءَ لِإِتمَامِ عَمَلِ خَيْرٍ فيهِ خَطَرٌ، وَهُوَ مَا لاَ يَسْتَيْقِنُ الصَّلاَحَ لَهُ فِيهِ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا يَكُونُ خَيْرَ مُعِينٍ، لاَ يَكُونُ لِلْعَبْدِ فيهِ أَوْ في إِتمَامِهِ صَلاَحٌ، بِأَنْ يَقَعَ بِسَبَبِهِ في آفَةٍ لاَ يَقُومُ بِهَا هٰذَا الْخَيْرُ؛ فَإِذَنْ لَيْسَ لِلْعَبْدِ إِذَا ابْتَدَأَ في صَلاَةٍ أَوْ صَوْمٍ أَو غَيْرِهِ أَنْ يَحْكُمَ بِأَنَّهُ يُتِمُّهُ إِذْ هُوَ غَيْبٌ، وَلاَ أَنْ يَقْصِدَ ذٰلِكَ قَطْعاً، لِأَنَّهُ رُبَّمَا لاَ يَكُونُ لَهُ فِيهِ صَلاَحٌ، بَلْ يُقَيِّدُ ذٰلِكَ بِالاسْتِثْنَاءِ وشَرْطِ الصَّلاَحِ، لِيَخْلُصَ مِنْ عَيْبِ الأَمَلِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿ **وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا** ۝٢٣ **إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ** ﴾ [الكهف: ٢٣].

وَضِدُّ هٰذَا الأَمَلِ فِيما قَالَه الْعُلَمَاءُ النِّيَّةُ، وَإِنَّمَا قَالُوا ذٰلِكَ عَلَى ضَرْبٍ مِنَ الاِتِّسَاعِ، لِأَنَّ النَّاوِيَ بِالنِّيَّةِ المَحْمُودَةِ يَكُونُ مُمْتَنِعاً مِنَ

---

(١) زيادة من (د) و (هـ).

الأَمَلِ، فَهٰذَا حُكْمُ الأَمَلِ، وَالنِيّة المَحْمُودَة، إِذْ قَدْ مَسَّتِ الْحَاجَةُ إِلَى مَعْرِفَتِهَا مَعَ أَنَّهَا الأَصْلُ الأَصِيلُ؛ قَالُوا رَحِمَهُم اللّٰهُ في حَدِّهَا الْجَامِعِ التّامِّ:

تعريف النيّة الصحيحة

إِنّ النيّة الصَّحِيحَةَ المَحْمُودَةَ إِرَادَةُ أَخْذِ عَمَلٍ مُبْتَدَإٍ بِهِ قَبْلَ سَائِرِ الأَعْمَالِ بِالْحِكْمِ، مَعَ إِرَادَةِ إِتمَامِه بِـالتّفْوِيضِ وَالاسْتِثْنَاءِ[1].

فَإِنْ قِيلَ: فَلم جَازَ الْحُكم في الابْتِدَاءِ، وَوَجَبَ التّفْوِيضُ وَالاسْتِثْنَاءُ في الإِتمَامِ؟ يُقَالُ لَهُ: لفقْدِ الْخَطَرِ في الابْتِدَاءِ، إِذْ هُوَ في حَالِ الابْتِدَاءِ لَيْسَ بِشَيْءٍ مُتَرَاخٍ عَنْكَ، وَلِثُبُوتِ الْخَطَرِ في الإِتْمَامِ، إِذْ هُوَ يَقَعُ في وَقْتٍ مُتَـرَاخٍ، فَفِيهِ الْخَطَرَانِ: خَطَرُ الْوُصُولِ، لاَ تَدْرِي هَلْ تَصِلُ إِلَى ذٰلِكَ أَمْ لاَ، وَخَطَرُ الْفَسَادِ، لاَ تَدْرِي هَلْ في ذٰلِكَ صَلاَحٌ أَمْ لاَ؛ فَـإِذاً وَجَبَ الاسْتِثْنَاءُ لِخَطَـرِ الْوُصُولِ، وَالتّفْوِيضُ لِخَطَرِ الْفَسَادِ، فَإِذَا حَصَلَتِ الإِرَادَةُ عَلَى هٰذِهِ الشُّرُوطِ، تَكُونُ حِينئِذٍ نِيَّةٌ مَحمُودَةٌ، مخْرِجَةٌ عَنْ حَدِّ الأَمَلِ وَآفَتِهِ، فتَأَمَّلْ جِدّاً، فَهٰذِهِ هٰذِهِ.

[٣٨/ب]

وَاعْلَمْ أَنَّ حِصْنَ قِصَرِ الأَمْلِ ذِكْرُ المَوتِ، وَحِصْنَ/ حِصْنِهِ ذِكْرُ فَجْأَةِ المَوتِ وَأَخْذُهُ عَلَى غِرَّةٍ وَغَفْلَةٍ، وَهُوَ في غُرُورٍ وَفُتُورٍ، فَاحْتَفِظْ بِهٰذِهِ الجُمْلَةِ، وَحَصِّلْهَا مُوَفَّقاً، فَإِنَّ الحَاجَةَ إِلَيْهَا مَاسَّةٌ، وَدَعْ عَنْكَ تَضْييعَ الْوَقْتِ في الْقِيلِ وَالْقَالِ وَمُلاَحَاةِ الرِّجَالِ، وَاللّٰهُ المُوَفّقُ بِفَضْلِهِ.

حقيقة الحسد

٢ ــ **وَأَمَّا الْحَسَدُ**: فَهُوَ إِرَادَةُ زَوَالِ نِعَمِ اللّٰهِ عَنْ أَخِيكَ المُسْلِمِ مِمَّا لَهُ فِيهِ صَلاَحٌ؛ فَإِنْ لَمْ تُرِدْ زَوَالَهَا عَنْهُ، وَلٰكِنْ تُرِيدُ لِنَفْسِكَ مِثْلَهَا

---

(١) إي إرادة إتمام عمل، مع تفويض ذلك إلى الله تعالى وإلى مشيئته.

فَهُوَ غِبْطَةٌ. وَعَلى هٰذَا يُحْمَلُ قَوْلُهُ ﷺ: «لاَ حَسَدَ إلاّ في اثْنَتَيْنِ»[1]. كَمَا جَاءَ في الْخَبَر: أيْ لاَ غِبْطَة إلاّ في ذٰلِكَ؛ فَعبَّر عَنِ الْغِبْطَةِ بِالْحَسَدِ اتِّسَاعاً لِمُقَارَبَتِهِمَا، فَإنْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا صَلاَحٌ، فَأَرَدْتَ زَوَالَهَا عَنْهُ، فَذٰلِكَ غيرَةٌ[2]، فَهٰذَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ هٰذِهِ الْخِصَالِ.

النصيحة

وَأَمَّا ضِدُّ الْحَسَدِ فالنصِيحةُ: وَهِيَ إرَادَةُ بَقَاءِ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى أَخِيكَ المُسْلِم، مِمَّا لَهُ فِيهَا صَلاَحٌ.

فَإنْ قِيلَ: كَيْفَ نَعْلَم أَنَّ لَهُ فِيهَا صَلاَحاً أَوْ فَسَاداً لِنَنْصَحَهُ أَوْ نَحْسُدَهُ؟ فاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ لَنَا غَالِبُ الظَّنِّ بذٰلِكَ، وَغَلبةُ الظّنِّ مِنّا تَجْرِي مَجْرَى الْعِلْمِ في هٰذِهِ المَوَاضِعِ؛ ثُمَّ إنِ اشْتَبَهَ عَلَيْكَ، فَلاَ تُرِيدَنَّ زَوَال نِعْمَةٍ عَنْ أَحَدٍ مِنَ المُسْلِمِينَ أَوْ بَقَاءَهَا، إلاَّ مُقيَّداً بِالتَّفْوِيضِ وَشَرْطِ الصَّلاَحِ، لِتَخْلُصَ مِنْ حُكْمِ الحَسَدِ، وَيَحْصُلَ لَكَ فَائِدَةُ النَّصِيحَةِ.

ما يمنع الحسد

وَأَمَّا حِصْنُ النَّصِيحَةِ المَانِعِ مِنَ الْحَسَدِ، فَهُوَ ذكرُ مَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ مُوَالاَةِ المُسْلِمِينَ، وَحِصْنُ هٰذَا الْحِصْنِ، ذِكْرُ مَا عَظَّمَ اللَّهُ

---

(١) ـ رواه البخاري (١/٢٨) كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة.
ـ ورواه ابن ماجه في سننه (٢/١٤٠٧) كتاب الزهد، باب الحسد، (الحديث رقم ٤٢٠٨).
ـ وكذلك رواه ابن حنبل (٢/٩): (لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه في الحق آناء الليل والنهار). وله رواية أخرى مشابهة مع خلاف بسيط في اللفظ (٢/٣٦).

(٢) الغيرة هنا تعني أن يغار المسلم على أخيه وعلى مصالحه، فيحفظ له دينه أو ماله أو صحته، بطلب زوال ما ليس له فيه صلاح.

تَعَالَى مِنْ حَقِّ الْمُؤْمِنِ وَرَفَعَ مِنْ قَدْرِهِ، وَمَا لَهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِن الْكَرَامَاتِ الْعَظِيمَةِ فِي الْعُقْبى، وَمَا لَكَ فِيهِ مِنَ الْفَوَائِدِ الْجَلِيلَةِ فِي الدُّنْيَا مِنَ التَّعَاوُنِ وَالتَّظَاهُـرِ وَالْجماعَاتِ وَالْجُمُعَاتِ، ثُمَّ مَا تَرْجُو مِن شَفَاعَتِهِ فِي الآخِرَةِ، فَهٰذِهِ وَنَحْوُهَا مِمَّا يَبْعَثُ عَلَى النُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيُجَنِّبُكَ أَنْ تَحْسُدَهُ فِي نِعْمَةٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ بِفَضْلِهِ.

حقيقة العجلة

٣ ـ **وَأَمَّا الْعَجَلَةُ** فَإِنَّها الْمَعْنَى الرَّاتِبُ فِي الْقَلْبِ، الْبَاعِثُ عَلى الإِقْدَامِ عَلَى الأَمْرِ بِأَوّلِ خَاطِرٍ، دُونَ التَّوَقُّفِ فِيهِ وَالاسْتِطْلَاعِ مِنْهُ، بَلْ الِاسْتِعْجَالُ فِي اتّبَاعِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ. وَضِدُّهَا **الأَنَاةُ**، وَهُوَ الْمَعْنَى الرَّاتِبُ فِي الْقَلْبِ، الْبَاعِثُ عَلَى الِاحْتِيَاطِ فِي الأُمُورِ/ [٣٩/أ] وَالنظَرِ فِيهَا وَالتَّأَنِّي فِي اتِّبَاعِهَا وَالْعَمَلِ بِهَا.

وَأَمَّا التَّوَقُّف فضِدُّهُ التَّعَسُّفُ؛ قالَ شيْخُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: الْفَرْقُ بَيْنَ التَّوَقُّف وَالتَّأَنِّي، أَنَّ التَّوقف قَبْل الدُّخُولِ في الأَمْرِ حَتَّى يَسْتَبِينَ لَهُ رُشْدُهُ، وَالتَّأَنِّي بَعدَ الدُخُولِ فيهِ، حَتّى يُؤدِّي لِكُلِّ جُزْءٍ مِنْهُ حَقَّهُ.

ثُمَّ مُقدِّمَاتُ الأَنَاةِ، ذِكْرُ وُجوهِ الْخَطَرِ في الأُمُورِ الّتِي تَعْتَرِضُ لِلإِنْسَانِ وَضُرُوبِ الآفاتِ المُخَوِّفَةِ فِيهَا، وَذِكْرُ ما في النَّظَرِ والتّثبُّت مِنَ السَّلَامَةِ، وَمَا في التَّعسُّفِ وَالِاسْتِعْجَالِ مِنَ النَّدَامَةِ وَالمَلامَةِ. فَهٰذِهِ وَأَمْثَالُهَا، مِمَّا يَبْعَثُ عَلَى التَّأَنِّي وَالتَّوَقّفِ فِي الأُمُورِ، وَيَمْنَعُ مِنَ الِاسْتِعْجَالِ وَالتَّعَسُّفِ، وَاللَّهُ وَلِيّ الْعِصْمَةِ بِرَحْمَتِهِ.

حقيقة الكبر

٤ ـ **وَأَمَّا الْكِبْرُ** فاعْلَم أَنَّهُ خَاطِرٌ في رَفْعِ النَّفْسِ وَاسْتِعْظَامِهَا[١]

(١) بالنظر إلى الغير بعين الإحتقار والذلّ.

وَالتّكبُّر اتّبَاعُهُ، والتواضعُ خَاطِرٌ في وَضْعِ النَّفْسِ واستحقارها، وَالتَّواضُعُ اتّبَاعُهُ[1]. وَلِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عامِّيٌّ وخَاصِّيٌّ.

فَالتَّوَاضُعُ الْعَامِيُّ: هو الاكْتِفَاءُ بِالدُّونِ مِنَ الملْبَسِ وَالمَسْكَنِ وَالمَرْكَبِ، وَالتَّكبُّر فِي مُقَابلَتِهِ التّرَفُّعُ عَنْ ذٰلِكَ.

وَالتَّواضُعُ الْخَاصِّيُّ: هُوَ تَمْرِيْنُ النَّفْسِ عَلَى قَبُولِ الْحَقِّ مِمَّنْ كَانَ وَضِيعاً أَوْ شَرِيفاً، وَالتّكبُرُ في مُقَابلَتِهِ التّرَفُّعُ عَنْ ذٰلِكَ، وَهُوَ مَعْصِيَةٌ كَبِيرَةٌ وَخَطِيئَةٌ عَظِيمَةٌ

ثُمَّ حِصْنُ التوَاضُعِ الْعَامِّيّ أَنْ تَذْكُرَ مَبْدَأَكَ وَمُنْتَهَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِ في الْحَالِ مِنْ ضُرُوبِ الآفاتِ والأَقْذَارِ؛ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ: أَوَّلُكَ نُطْفَةٌ مَذِرَةٌ، وَآخِرُكَ جِيفَةٌ قَذِرَةٌ، وَأَنْتَ بَيْنَهُمَا حَامِلُ الْعَذِرَةِ.

وَحِصْنُ التَّوَاضُعِ الْخَاصِيّ هُوَ ذِكْرُ عُقُوبَةِ الْعَادِلِ عَنِ الْحَقِّ، المُتَمادِي في الْبَاطِلِ، فَهٰذِهِ جُمْلَةٌ كَافِيَةٌ لِمَنِ اسْتَبْصَرَ.

---

(١) الفرق بين التواضع والضِعة، أن التواضع رضا الإنسان بمنزلة دون ما تستحقّه منزلته، والضِّعة وضع الإنسان نفسه بمحلٍ يزري به.

والفرق بين التواضع والخشوع، أن التواضع يعتبر بالأخلاق والأفعال الظاهرة والباطنة، والخشوع يعتبر بأفعال الجوارح، ولذلك قيل: إذا تواضع القلب خشعت الجوارح.

الفصل الخامس: البَطْن وحفْظه

ثُمَّ عَلَيْكَ بِحِفْظِ الْبَطْنِ وَإِصْلاَحِهِ، فَإِنَّهُ أَشَقُّ الأَعْضَاءِ إِصْلاَحاً عَلَى الْمُجْتَهِدِ، وأَكْثَرُهَا مَؤُنَةً وَشُغْلاً، وَأَعْظَمُهَا أَثَراً وَضَرَراً؛ لأَنَّهُ الْمَنْبَعُ وَالْمَعْدِنُ، وَمِنْهُ تَهِيجُ الأُمُورُ في الأَعْضَاءِ، مِنْ قُوَّةٍ وَضَعْفٍ وَعِفَّةٍ وَجِمَاعٍ وَنَحْوِهِ؛ فَعَلَيْكَ إِذاً بِصِيَانَتِهِ عَنِ الْحَرَامِ وَالشُّبْهَةِ أَوّلاً، ثُمَّ عَنْ فُضُولِ الْحَلاَلِ ثَانِياً، إِنْ كَانَتْ لَكَ هِمَّةٌ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

موجبات تجنّب الحرام

أَمَّا الْحَرَامُ وَالشُّبْهَةُ، فَإِنَّمَا يَلْزَمُكَ لِثَلاَثَةِ أُمُورٍ:

أَوَّلُهَا: حَذراً مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ. قَالَ اللَّهُ سُبْحانَهُ وَتَعَالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠]. وَقَال النَّبِيُّ ﷺ: «كُلُّ لَحْمٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ»(١).

[٣٩/ب]

(١) ــ رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣١) من حديث أبي بكر بلفظ: (كل جسد).
ــ وذكره السيوطي في الجامع الصغير (٢/ ٢٣٥) عن الطبراني في المعجم الصغير والحلية بلفظ: (كل جسد) (الحديث رقم ٦٢٩٦).
ــ وذكر المنّاوي (فيض القدير ٥/ ١٨) أن سنده ضعيف، ففيه عبد الواحد بن =

وَالثَّانِي: أَنَّ آكِلَ الْحَرَامِ وَالشُّبهَةِ مَطْرُودٌ لاَ يُوَفَّقُ لِلْعِبَادَةِ، إِذْ لاَ يَصْلُحُ لِخِدْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلاَّ كُلُّ طَاهِرٍ مُطَهَّرٍ. قُلْتُ أَنَا: أَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ مَنَعَ الْجُنُبَ مِن الدُّخُولِ إلى بَيْتِهِ، وَالمُحْدِثَ عَنْ مَسِّ كِتَابِهِ؟ قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ [النساء: ٤٣].

وقَالَ تَعالىٰ: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة: ٧٩] مَعَ أَنّ الْجَنَابَةَ وَالْحَدَثَ أَمْرٌ مُبَاحٌ، فَكَيْفَ بِمَنْ هُوَ مُنْغَمِسٌ في قَذَرِ الْحَرَامِ، وَنَجَاسَةِ السُّحْتِ وَالشُّبْهَةِ، مَتَى يُدْعَى إِلَى خِدْمَةِ ٱللَّهِ الْعَزِيزِ وَذِكْرِهِ الشَّرِيفِ سُبْحَانَهُ؟ كَلاَّ فَلاَ يَكُونُ ذٰلِكَ.

وَقَالَ يَحْيَى بْن مُعَاذٍ الرازي: «الطَّاعَةُ مَخْزُونَةٌ فِي خَزَائِنِ اللَّهِ، وَمِفْتَاحُهَا الدُّعَاءُ، وَأَسْنَانُه الْحَلاَلُ»؛ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْمِفْتَاحِ أَسْنَانٌ،

= واصل، أورده الذهبي في الضعفاء، وضعّفه الأزدي، وقال البخاري والنسائي: متروك.

ــ وورد هذا الحديث في الإحياء بلفظ: (كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به) (٢/٦، ٩٠).

ــ وقال العراقي: هو في شُعَب الإيمان من حديث كعب بن عجرة بلفظ: (سحت) وهو عند الترمذي، وحسنه، بلفظ: (لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به).

ــ وقال الكديري في سراج الطالبين (١/٤٨٢) ورواه أيضاً ابن عباس، كما في المعجم الصغير للطبراني.

ــ وفي سنن الدارمي (٢/٣١٨) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «يا كعب بن عجرة، لن يدخل الجنة لحم نبت من سحت».

فَلَا يَنْفَتِحُ الْبَابُ؛ وَإِذَا لَمْ يَنْفَتِحْ بَابُ الْخزَانَةِ، كَيْفَ يَصِلُ إِلَى مَا فِيهَا مِنَ الطَّاعَةِ؟

والثَّالِثُ: أَنَّ آكِلَ الْحَرَامِ وَالشُّبْهَة مَحْرُومٌ. وَإِنِ اتَّفَقَ لَهُ فِعْلُ خَيْرٍ فَهُوَ مَرْدُودٌ عَلَيْهِ غَيْرُ مَقْبُولٍ مِنْهُ؛ فَإِذَنْ لَا يَكُونُ لَهُ مِنْ ذٰلِكَ إِلَّا الْعَنَاءُ وَالْكَدُّ وَشغْلُ الْوَقْتِ. قَالَ النَّبِيّ ﷺ: «كَمْ مِنْ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامه إِلَّا السَّهَرُ، وَكَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامه إِلَّا الْجُوعُ وَالظَّمَأُ»[1]. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: لَا يَقْبَلُ ٱللَّهُ صَلَاةَ امْرِىءٍ وفي جَوْفِهِ حَرَامٌ. فَهٰذِهِ هٰذِهِ.

آفات فضول الحلال

وَأَمَّا فُضُولُ الْحَلَالِ، فَإِنَّهُ آفَةُ الْعُبَّادِ وَبَلِيَّةُ أَهْلِ الاجْتِهَادِ؛ فَإِنِّي تَأَمَّلْتُ فَوَجَدتُ فِيهِ عَشْرَ آفَات هُنَّ أُصُولٌ فِي هٰذَا الشَّأْنِ:

---

(١) ــ رواه ابن حنبل عن أبي هريرة بلفظ: (رُبَّ صائم حظّه من صيامه الجوع والعطش، ورب قائم حظه من قيامه السهر)(٢/٣٧٣). وفي رواية أخرى له عن أبي هريرة أيضاً: (كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، وكم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر (٢/٤٤١).

ــ كذلك رواه ابن ماجه (١/٥٣٩) (الحديث رقم ٦٩٠) وذكر في تخريجه عن الزوائد أن إسناده ضعيف.

ــ كذلك رواه الدارمي (٢/٣٠١) بلفظ: (كم من صائم ليس له من صيامه إلا الظمأ، وكم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر).

ــ وذكره السيوطي في الجامع الصغير (١/٥٩٣) بروايتين متشابهتين في الألفاظ، عن أبي هريرة وعن ابن عمر، وصححه في الروايتين. (الحديث رقم ٤٤٠٤ و ٤٤٠٥).

ــ وذكره المناوي (٤/١٦) وروي عن الحافظ العراقي قوله: إسناده حسن، وقال الهيثمي: رجاله موثقون.

الأُولَى: أَنّ في كَثْرَةِ الأَكْلِ قَسْوَة الْقَلْبِ وَذَهَاب نُورِهِ.

رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا تُمِيتُوا الْقَلْبَ بِكَثْرَةِ الطَّعَامِ والشَّرَابِ، فَإِنَّ الْقَلْبَ يَمُوتُ كالزَّرْعِ إِذَا كَثُرَ عَلَيْهِ المَاءُ»[1] وَلَقَدْ شَبَّهَ ذٰلِكَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ بِأَنَّ المَعِدَةَ كَالْقِدْرِ تَحْتَ الْقَلْبِ تَغْلِي، وَالْبُخَارُ يَرْتَفِعُ إِلَيْهِ، فَكَثْرَةُ الْبُخَارِ تُكَدِّرُهُ وَتُسَخِّمُهُ.

[٤٠/أ] والثَّانِيَةُ: أَنَّ في كَثْرَةِ/ الأَكْلِ فِتْنَةَ الأَعْضَاءِ وَهَيْجَهَا وَانْبِعَاثَهَا للفُضُولِ وَالْفَسَادِ، فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا كَانَ شَبْعَانَ بَطِراً اشْتَهَتْ عَيْنُهُ النَّظَرَ إِلَى مَا لَا يَعْنِيهِ، مِنْ حَرَام أَوْ فُضُولٍ؛ وَالأُذُنُ الاسْتِمَاعَ إِلَيْهِ؛ وَاللِّسَانُ التَكَلُّمَ بِهِ، وَالْفَرْجُ الشَّهْوَةَ، وَالرِّجْلُ المَشْيَ إِلَيْهِ؛ وَإِنْ كَانَ جَائِعاً، فتَكُونُ الأَعْضَاءُ كُلُّهَا سَاكِنَةً هَادِئَةً، لَا تَطْمَحُ إِلَى شَيْءٍ منها وَلَا تَنْشَطُ لَهَا. وَلَقَدْ قَالَ الأُسْتَاذُ أَبُو جَعْفَر[2] رَحِمَه اللَّهُ: إِنّ الْبَطْنَ عُضْوٌ إِنْ جَاعَ هُوَ شَبِعَ سَائِرُ الأَعْضَاءِ، يَعْنِي تَسْكُنُ فَلَا تُطَالِبُكَ بِشَيْءٍ، وإِنْ شَبِعَ هُوَ، جَاعَ سَائِرُ الأَعْضَاءِ. وَجُمْلَةُ الأَمْرِ، أَنَّ أَفْعَال الرَّجُلِ

---

(١) ـ قال العراقي (الإحياء ٣/ ٨١): لم أقف له على أصل.
ـ وذكر الكديري في سراج الطالبين (١/ ٤٨٥) حديثاً لرسول الله ﷺ بلفظ: (ثلاث تورث قسوة القلب: حُبّ النوم، وحبّ الراحة، وحبّ الأكل)؛ وقال: هكذا ذكره السيوطي في اللباب.

(٢) أبو جعفر الحداد الكبير الصوفي، سافر ودخل دمشق، وهو من أقران الجنيد ورُوَيْم وأبي تراب النخشبي، وهو أستاذ أبي جعفر الحداد الصغير، وكان شديد الاجتهاد معروفاً بالإيثار، من رؤساء الصوفية.
انظر ترجمته في:
طبقات الصوفية ص ٢٣٤، تاريخ بغداد ١٤/ ٤١٢، حلية الأولياء ١/ ٣٣٩ ـ ٣٤٠.

وَأَقْوَالَهُ، عَلَى حَسَبِ طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ، إِنْ دَخَلَ الْحَرَامُ خَرَجَ الحَرَامُ[1]، وَإِنْ دَخَلَ الْفُضُولُ خَرَجَ الْفُضُولُ، فَكَأَنَّ الطَّعَامَ بَذْرُ الأَفْعَالِ، وَالأَفْعَالَ نَبْتٌ تَبْدُو مِنْهُ.

وَالثَّالِثَةُ: أَنَّ فِي كَثْرَةِ الأَكْلِ قِلَّةَ الْفَهْمِ وَالْعِلْمِ، فَإِنَّ الْبِطْنَةَ تُذْهِبُ الْفِطْنَةَ. وَلَقَدْ صَدَقَ الدَّارَانِيُّ[2] رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى حَيْثُ قَالَ: «إِذَا أَرَدْتَ حَاجَةً مِنْ حَوَائِجِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، فَلاَ تَأْكُلْ حَتَّى تَقْضِيَهَا، فَإِنَّ الأَكْلَ يُغَيِّرُ الْعَقْلَ، وَهٰذَا أَمْرٌ ظَاهِرٌ عِلْمُهُ لِمَنْ اخْتَبَرَهُ.

والرَّابِعَةُ: أَنَّ فِي كَثْرَةِ الأَكْلِ قِلَّةَ الْعِبَادَةِ، فَإِنْ أَكْثَرَ الإِنْسَانُ الأَكْلَ ثَقُلَ بَدَنُهُ، وَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ، وَفَتَرَتْ أَعْضَاؤُهُ؛ فَلاَ يَجِيءُ مِنْهُ شَيْءٌ - وَإِنِ اجْتَهَدَ - إِلاَّ النَّوْمَ كَالْجِيفَةِ الْمُلْقَاةِ؛ وَلَقَدْ قِيلَ: إِذَا كُنْتَ بَطِناً فَعُدَّ نَفْسَكَ زَمِناً[3].

ولَقَدْ ذُكِرَ عَنْ يَحْيَىٰ عَلَيْهِ السَّلامَ أَنَّ إِبْلِيسَ بَدَا لَهُ وَعَلَيْهِ مَعَالِيقُ فَقَالَ لَهُ يَحْيَىٰ: مَا هٰذِهِ؟ فَقَالَ: الشَّهَوَاتُ الَّتِي أَصِيدُ بِهَا بَنِي آدَمَ، قَالَ: هَلْ تَجِدُ لِي فِيهَا شَيْئاً؟ قَالَ: لاَ، إِلاَّ أَنَّكَ شَبِعْتَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَثَقَّلْنَاكَ عَنِ الصَّلاَةِ، فَقَالَ يَحْيَىٰ عَلَيْهِ السَّلام: لاَ جَرَمَ أَنِّي لاَ أَشْبَعُ بَعْدَهَا أَبَداً. فَقَالَ إِبْلِيسُ: لاَ جَرَمَ أَنِّي لاَ أَنْصَحُ بَعْدَهَا أَحَداً أَبَداً.

---

(١) أي إذا دخل جوفه حرام كانت أعماله وأقواله حراماً بحرام.

(٢) الإمام الكبير، زاهد العصر أبو سليمان عبد الرحمن بن أحمد الداراني. أحد رجال الطريقة، كان من جملة السادات وأرباب الجد في المجاهدات توفي سنة خمس عشرة ومئتين وفي رواية أخرى سنة خمس ومئتين. سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٨٢.

(٣) البَطِن: عظيم البطن من كثرة الأكل. والزَّمِن: صاحب المرض المزمن.

فَهٰذِهِ فِيمَنْ لَمْ يَشْبَعْ فِي عُمْرِهِ إِلاَّ لَيْلَةً وَاحِدَةً، فَكَيْفَ بِمَنْ لاَ يَجُوعُ فِي عُمْرِهِ لَيْلَةً واحِدَةً، ثُمّ يَطْمَعُ فِي الْعِبَادَةِ؟.

وَقَالَ سُفْيَانُ: الْعِبَادَةُ حِرْفَةٌ، وَحَانُوتُها الْخَلْوَةُ، وَآلَتُها المجَاعَةُ.

وَالخَامِسَةُ: أَنَّ فِي كَثْرَةِ الأَكْلِ فَقْدَ حَلاَوَةِ الْعِبَادَةِ. قالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا شَبِعْتُ مُنْذُ أَسْلَمْتُ لِأَجِدَ حَلاَوَةَ عِبَادَةِ/ [٤٠/ب] رَبِّي، وَمَا رَوِيتُ مُنْذُ أَسْلَمْتُ اشْتِيَاقاً إِلَى لِقَاءِ رَبِّي». وَهٰذِهِ صِفَاتُ المُكَاشِفِينَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُكَاشَفاً، وَإِلَيْهِ أَشَارَ النَّبِيّ ﷺ بِقَوْلِهِ:

«مَا فَضَلَكُمْ أَبُو بَكْرٍ بِفَضْلِ صَوْمٍ أَوْ صَلاَةٍ، وَإِنَّما هُوَ بِشَيْءٍ وَقَرَ فِي صَدْرِهِ»[1] وَقال الدَّارَانِيُّ: أَحْلَى مَا تَكُونُ العِبَادَةُ إِذَا الْتَزَقَ بَطْنِي بِظَهْرِي.

وَالسَّادِسَةُ: أَنَّ فِيهِ خَطَرَ الْوُقوع فِي الشُّبْهَةِ وَالْحَرَامِ؛ لِأَنَّ الْحَلاَلَ لاَ يَأْتِيكَ إِلاَّ قُوتاً.

وَلَقَدْ رَوَيْنَا عَنِ النَّبِيّ ﷺ:

---

(١) ــ ورد هذا الحديث في الإحياء (١/ ٢٣) بلفظ: (ما فضل أبو بكر رضي الله عنه الناس بكثرة صيام ولا صلاة ولا بكثرة رواية ولا فتوى ولا كلام، ولكن بشيء وقر في صدره).

ــ وفي رواية أخرى أوردها الغزالي (الإحياء ١/ ١٠٠): (ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولكن بسرٍّ وقر في صدره).

ــ قال العراقي: إحياء (١/ ٢٣): أخرجه الترمذي في النوادر من قول أبي بكر بن عبد الله المزني ولم أجده مرفوعاً.

«الْحَلَال لَا يَأْتِيكَ إِلَّا قُوتاً، وَالْحَرَام يَأْتِيكَ جُزَفاً جُزفاً»[1].

والسَّابعَةُ: أَنَّ فِيهِ شُغلَ الْقَلْبِ وَالْبَدَنِ، بِتَحْصِيلِه أَوَّلاً، وَبِتَهْيِئَتِه ثَانِياً، ثُمَّ بِأَكْلِه ثَالِثاً، ثُمَّ بِإِفْرَاغِهِ وَالتَّخَلُّصِ عَنْهُ رَابِعاً، ثُمَّ بِالسَّلَامَةِ مِنْهُ خَامِساً، بِأَنْ تَبْدُوَ مِنْهُ آفَةٌ فِي الْبَدَنِ بَلْ آفاتٌ وَعِلَلٌ. وَلَقَدْ قَالَ ﷺ: «أَصْلُ كُلِّ دَاءِ الْبَرَدَةُ، يَعْنِي التُّخمَةَ، وَأَصْلُ كُلِّ دواء الأَزْمَةُ، يَعْني الْحِمْيَةَ»[2].

---

(١) ـ لم نجد له أصلاً في ما بين أيدينا من كتب الحديث.
وجزفاً: أي بكثرة دون تحديد.

(٢) ـ ورد في الإحياء (٣/ ٨٧) حديث: (البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء، وعوّدوا كل بدن بما اعتاد) قال العراقي: لم أجد له أصلاً.
ـ وفي الجامع الصغير للسيوطي (١/ ١٤٠) ورد النصف الأول من الحديث (أصل كل داء البَرَدَة) رواه الدارقطني في العلل عن أنس، وابن السني وأبو نعيم في الطب النبوي عن علي بن أبي طالب وعن أبي سعيد الخدري وعن الزهري مرسلاً. ولم يشر السيوطي إلى درجته من الصحة أو الضعف (راجع الحديث رقم ١٠٨٧).
ـ وذكر المناوي في فيض القدير (١/ ٥٣٢) في الشرح والتعليق على هذا الحديث أَنَّ مخرّجه الدارقطني تعقبه بتضعيفه، فهو مروي من حديث محمد بن جابر عن تمام بن نجيح عن الحسن البصري عن أنس بن مالك.
ـ وقال ابن الجوزي: قال ابن حبان: تمّام مُنْكَرُ الحديث، يروي أشياء موضوعة عن الثقات، كان يعتمدها. قال ابن عدي والعقيلي حديثه منكر، وعامة ما يرويه لا يتابع عليه، وفي الميزان: محمد هذا ـ أي محمد بن جابر ـ لعل البلاء منه.
وفي الطب النبوي لابن السني وأبي نعيم والمستغفري كلهم رووه عن علي بن أبي طالب وفيه إسحاق بن نجيح الملطي كان يضع الحديث. وقال بعضهم: ولا يصح شيء من طرقه، وقال ابن عدي: باطل بهذا الإسناد.
(راجع فيض القدير: الحديث رقم ١٠٨٧).

وَعَنْ مَالِكِ بنِ دِينارٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: يَا هٰؤُلاَءِ لَقَدِ اخْتَلَفْتُ إِلَى الْخَلاَءِ حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي (بِسَبَبِ كَثْرَةِ الأَكْلِ، فَيَا لَيتَ أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ رِزْقِي فِي حَصَاةٍ أَمَصُّهَا حَتَّى أَمُوتَ)[1].

ثُـمَّ لاَ بُدَّ فِي هٰذِهِ الْجُمْلَةِ[2] مِنْ طَلَبِ الدُّنْيَا وَالطَمَعِ فِي النَّاسِ، وَتَضْيِيعِ الْوَقْتِ بِسَبَبِ كَثْرَةِ الأَكْلِ.

والثَّامِنَةُ: مَا يَنَالُهُ مِنْ أُمُورِ الآخِرَةِ وَشِدَّةِ سَكَرَاتِ المَوْتِ؛ روِيَ فِي الأَخْبَارِ: «أَنَّ شِدَّةَ سَكَرَاتِ المَوْتِ عَلَى قَدْرِ لَذَّاتِ الْحَيَاةِ»، فَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ هٰذِهِ أُكْثِرَ لَهُ مِنْ تِلْكَ.

وَالتَّاسِعَةُ: نُقْصَانُ الثَّوَابِ فِي الْعُقْبَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ۝٢٠﴾ [الأحقاف: ٢٠] فَإِنَّهُ بِقَدْرِ مَا تَأْخُذُ مِنْ لَذَّاتِ الدُّنْيا يَنْقُصُ لَكَ مِنْ لَذَّاتِ الآخِرَةِ.

ولِهٰذَا الْمَعْنَى رُوِيَ أَنّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا عَرَضَ الدُّنْيَا عَلَى نَبِيِّنَا ﷺ قَال لَهُ: «وَلاَ أَنْقُصُ مِنْ آخِرَتِكَ شَيْئاً»[3]، خَصَّهُ بِذٰلِكَ، فَدَلَّ عَلَى أَنّ لِغَيْرِهِ النُّقْصَانَ، إِلاَّ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْهِ بِذٰلِكَ.

---

(١) جملة ساقطة من الأصل مثبتة في (ج) و (د) و (هـ).

(٢) أي لتحقيق ما سبق من تحصيل الطعام وَتهيئته.

(٣) ــ قال العراقي (إحياء ٣/ ٢١٢): أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا مرسلاً ورواه أحمد والطبراني متصلاً من حديث أبي مويهبة في أثناء حديث فيه: (إني قد أعطيت خزائن الدنيا والخلد ثم الجنة. . .) وسنده صحيح.

ــ وفي مسند ابن حنبل (٣/٤٨٩) روي هذا الحديث عن أبي مويهبة مولى رسول الله ﷺ بلفظ: (إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم =

وَلَقَدْ رُوِيَ أَنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ أَضَافَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَهَيَّأَ لَهُ طَعاماً، فَقَال عُمَرُ: هٰذَا لَنَا، فَمَا لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ مَاتُوا وَلَمْ يَشْبَعُوا مِنْ خُبْزِ شَعِيرٍ؟ قالَ خَالِدٌ: لَهُمُ الْجَنَّةُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ عُمَرُ: لَئِنْ فَازُوا بِالْجَنةِ، وَكَانَ/ هٰذَا [٤١/أ] حَظُّنَا مِنَ الدُّنْيَا، فَقَدْ بَانُوا مِنَّا بَوْناً عَظِيماً».

وَرُوِيَ أَنَّ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَطِشَ يَوْماً، فَدَعَا بِمَاءٍ، فَأَعْطَاهُ رَجُلٌ إِدَاوَةً فِيهَا مَاءٌ نُبِذَ فِيهِ تَمَرَاتٌ، فَلَمَّا قَرَّبَهَا عُمَرُ مِنْ فِيهِ وَجَدَ الْمَاءَ بَارِداً حُلْواً، فَأَمْسَكَ وَقَالَ: أَوَّهْ، فَقَالَ الرَّجُلُ: وَاللَّهِ مَا أَلَوْتُهُ[١] حَلَاوَةً يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ عُمَرُ: ذٰلِكَ الَّذِي مَنَعَنِي مِنْهُ، وَيْحَكَ، لَوْلَا الآخِرَةُ لَشَارَكْنَاكُمْ فِي عَيْشِكُمْ.

والْعَاشِرَةُ: الْحَبْسُ وَالْحِسَابُ وَاللَّوْمُ وَالتَّعْيِيرُ فِي تَرْكِ الأَدَبِ فِي أَخْذِ الفُضُولِ[٢] وَطَلَبِ الشَّهَوَاتِ، فَإِنَّ «الدُّنْيَا حَلَالُها حِسَابٌ، وَحَرامُها عِقابٌ، وَزِينَتُها إِلى تبابٍ»[٣].

= الجنة، وخُيِّرت بين ذلك وبين لقاء ربي عز وجل والجنة قال: قلت: بأبي أنت وأمي فخذ مفتايح الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، قال: لا والله يا أبا مويهبة لقد اخترت لقاء ربي والجنة).

ويلاحظ أن القسم الذي يذكره الغزالي لم يرد في رواية أبي مويهبة كما يذكرها ابن حنبل.

ـ راجع أيضاً سراج الطالبين (٤٩٦/١) للكديري ففيه تفصيل ذلك.

(١) ما أَلَوْتُه حلاوة: أي ما قصّرت في تحليته.

(٢) أي فضول الحلال.

(٣) تباب: خسران وهلاك.

ـ قال العراقي: أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه موقوفاً =

فَهٰذِهِ جُمْلَةُ الْعَشَرَةِ وَفِي إِحْدَاهَا كِفَايَةٌ لِمَنْ نَظَرَ لِنَفْسِهِ؛ فَعَلَيْكَ أَيُّهَا الْمُجْتَهِدُ بِالاحْتِيَاطِ الْبَالِغِ فِي الْقُوتِ كَيْ لَا تَقَعَ فِي حَرَامٍ أَوْ شُبْهَةٍ فَيَلْزَمُكَ الْعَذَابُ، ثُمَّ بِالاقْتِصَارِ مِنَ الْحَلَالِ عَلَى مَا يَكُونُ عُدَّةً عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَا تَقَعْ فِي شَرٍّ، فَتَبْقَى فِي الْحَبْسِ وَالْحِسَابِ، وَاللَّهُ تَعَالَى وَلِيُّ التَّوْفِيقِ سُبْحَانَهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَبَيِّنْ لَنا أَوَّلاً حُكْمَ الْحَرَامِ وَالشُّبْهَةِ وَحَدَّهُمَا: فَأَقُولُ لَعَمْرُ اللَّهِ لَقَدْ أَشْبَعْنَا فِيهِ فِي «أَسْرَارِ مُعَامَلَاتِ الدِّينِ»، وَذَكَرْنَا لَهُ كِتاباً مُفْرداً فِي كُتُبِ «الْإِحْيَاءِ»، لٰكِنَّا نُشِيرُ إِلَى كَلِمَاتٍ مُفْرَدَةٍ بِحَيْثُ تَصِلُ إِلَى فَهْمِ الضَّعِيفِ الْمُبْتَدِي، إِذْ مَقْصُودُ هٰذَا الْكِتَابِ أَنْ يَنْتَفِعَ بِهِ الْمُبْتَدِي فِي الْعِبَادَةِ، وَيُعِينُ الطَّالِبَ.

الحرام والشبهة

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: مَا تَيَقَّنْتَ كَوْنَهُ مِلْكاً لِلْغَيْرِ، مَنْهِيًّا عَنْهُ فِي الشَّرْعِ، فَهُوَ حَرَامٌ مَحْضٌ. وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ لَكَ يَقِينٌ بِذٰلِكَ، وَلٰكِنْ يَغْلِبُ عَلَى ظَنِّكَ أَنَّهُ كَذٰلِكَ، فَهُوَ شُبْهَةٌ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلِ الْحَرَامُ الْمَحْضُ مَا يَكُونُ بِهِ عِلْمٌ أَوْ غَالِبُ ظَنٍّ، لِأَنَّ غَلَبَةَ الظَّنِّ مِنَّا تَجْرِي مَجْرَى الْعِلْمِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْكَامِ؛ فَأَمَّا إِذَا تَسَاوَتِ الْأَمَارَتَانِ، حَتَّى تَبْقَى شَاكًّا لَا يَكُونُ لِأَحَدِهِمَا تَرْجِيحٌ عِنْدَكَ، فَذٰلِكَ شُبْهَةٌ، يُشْبِهُ أَنَّهُ حَلَالٌ وَيُشْبِهُ أَنَّهُ حَرَامٌ، فَاشْتَبَهَ أَمْرُهُ عَلَيْكَ وَالْتَبَسَ حَالُهُ.

= على عليّ بن أبي طالب بإسناد منقطع بلفظ، «وحرامها النار» ولم أجده مرفوعاً. (الإحياء ٣/ ٢٢٠).

ثُمَّ الامْتِنَاعُ عَنِ الَّذِي هُوَ حَرَامٌ مَحْضٌ حَتْمٌ وَاجِبٌ، وَعَنِ الَّذِي هُوَ شُبْهَةٌ تَقْوىً وَوَرَعٌ، وَهٰذَا أَوْلَى الْقَوْلَيْنِ عِنْدَنَا.

فَإِنْ قِيلَ: فَما تَقُولُ فِي قَبُولِ/ جَوائِزِ السَّلاَطِينِ[1] فِي هٰذَا [٤١/ب] الزَّمَانِ؟

حكم جوائز السلاطين

فَاعْلَمْ أَنَّ الْعُلَمَاءَ اخْتَلَفُوا فِيهِ، فَقَالَ قَوْمٌ: كُلُّ مَا لاَ يُتَيَقَّنُ أَنَّهُ حَرَامٌ فَلَهُ أَخْذُهُ.

وَقَالَ آخَرُونَ: لاَ يَحِلُّ أَنْ يَأْخُذَ مَا لا يَتَحَقَّقُ أَنَّهُ حَلاَلٌ، لِأَنَّ الغالب فِي هٰذَا الْعَصْرِ عَلَى أَمْوَالِ السَّلاَطِينِ الْحَرَامُ، وَالحَلاَلُ فِي أَيْدِيهِمْ مَعْدُومٌ عَزِيزٌ.

وقَالَ قَوْمٌ: إِنّ صِلاَتِ السّلاطِينِ تَحِلُّ لِلْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ إِذَا لَمْ يَتَحَقَّقْ أَنَّها حَرَامٌ، وَإِنَّمَا التَّبِعَةُ عَلَى المُعْطِي. قَالُوا: لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَبِلَ هَدِيَّةَ المُقَوقِس مَلِكِ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ، وَاسْتَقْرَضَ مِنَ الْيَهُودِ مَعَ قَوْلِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ: ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِ﴾ [المائدة: ٤٢].

قالوا: وَقَدْ أَدْرَكَ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ أَيَّامَ الظَّلَمَةِ وَأَخَذُوا مِنْهُمْ، فَمِنْهُمْ أَبُو هُرَيْرَةَ، وَابْنُ عَبَّاسٍ[2]، وَابْنُ عُمَرَ[3]، وَغَيْرُهُمْ.

---

(١) في الأصل بالمفرد، والتصحيح من باقي النسخ.

(٢) حبر الأمة وفقيه العصر وإمام التفسير، أبو العباس عبد الله، ابن عم رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ. ولد قبل الهجرة بثلاث سنين، توفي رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث عشرة سنة. وقد صحّ عنه ﷺ أنه دعا له فقال: «اللهم فقهه في الدين وعلّمه التأويل». صحب رسول الله ﷺ نحواً من ثلاثين شهراً، وحدّث عنه وعن عمر وعلي ومعاذ وغيرهم، وروى عنه خَلْق كثير.
توفي ابن عباس سنة ثمان أوْ سبعٍ وستّين، وقيل: عاش إحدى وسبعين سنة. سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٣١.

(٣) ابن الخطاب، الإمام القدوة شيخ الإسلام أبو عبد الرحمن القرشي العدوي المكي ثم =

وَقَالَ آخَرُون: لا يَحِلُّ مِنْ أمْوَالِهِمْ شَيْءٌ لاَ لِغَنِيّ وَلاَ لِفَقِيرٍ، إذْ هُمْ مَوْسُومُونَ بِالظُّلْمِ، والْغَالِبُ مِن حَالِهِم السُّحْتُ وَالْحَرَامُ، وَالْحُكْمُ لِلْغَالِبِ، فَيَلْزَمُ الاجْتِنَابُ.

وَقَالَ آخَرُونَ: مَا لاَ يُتَيَقَّنُ أَنَّهُ حَرَامٌ فَهُوَ حَلاَلٌ لِلْفَقِيرِ دُون الْغَنِيِّ، إلاَّ أَنْ يَعْلَمَ الْفَقِيرُ أَنَّ ذَلِكَ عَيْنُ الْغَصْبِ، فَلَيْسَ لَهُ أَن يَأْخُذَهُ إلاَّ لِيَرُدَّهُ عَلَى مَالِكِهِ. وَلاَ حَرَجَ عَلى الْفَقِيرِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ أَمْوَالِ السَّلاَطِينِ، لأنَّهَا إِنْ كَانَتْ مِلْكَ السُّلْطَانِ فَأَعْطَى الْفَقِيرَ فَلَهُ أَخْذُهُ بِلاَ رَيْبٍ؛ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ فَيْءٍ أَمْ خَرَاجٍ أَو عُشْرٍ، فَلِلفَقِيرِ فِيهِ حَقٌّ، وَكَذَلِكَ لأَهْلِ الْعِلْمِ؛ قالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ دَخَلَ الإِسْلاَمَ طَائِعاً وَقَرَأَ الْقُرآنَ ظَاهِراً، فَلَهُ فِي بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ كُلَّ سَنَةٍ مائتَا دِرْهَمٍ وَرُوِي مائتَا دِينَارٍ، إنْ لَمْ يَأْخُذْهَا فِي الدُّنْيَا أَخَذَهَا فِي الآخِرَةِ». وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَالْفَقِيرُ وَالْعَالِمُ يَأْخُذَانِ مِنْ حَقِّهِمَا.

قَالُوا: وَإِذَا كَانَ المَالُ مُخْتَلِطاً بِمالٍ مَغْصُوبٍ وَلاَ يمكِنُ تَمييزُهُ، أَوْ غَصْباً لاَ يُمْكِنُ رَدُّه عَلَى صَاحِبه وَذُرِّيَتِه، فَلاَ مَخْلَصَ للسُّلْطَانِ مِنْهُ إلاَّ بِأَنْ يَتصدَّقَ بِهِ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَأْمُرُهُ بِالصَّدَقَةِ عَلَى

= المدني أسلم وهو صغير، ثم هاجر مع أبيه وأول غزوة غزاها الخندق، وهو ممن بايع تحت الشجرة.

روى علماً كثيراً نافعاً عن النبي ﷺ وعن أبيه وأبي بكر وعثمان وعلي وبلال وصهيب وغيرهم، كما روى عنه خلق كثير.

وقد توفي بمكة سنة أربع وسبعين وهو ابن أربع وثمانين سنة. سير أعلام النبلاء ٣/٢٠٣.

الْفَقِيرِ وَيَنْهَى الْفَقِيرَ عَنْ قَبُولِهَا، أَوْ يَأْذَن لِلْفَقِيرِ فِي الْقَبُولِ وَهُو عَلَيْهِ حَرَامٌ، فَأَذِنَ للفَقِيرِ أَنْ يَأْخُذَ، إِلاَّ عَيْنَ الْغَصْبِ وَالْحَرَامِ، فَلَيْسَ لَهُ أَخْذُهُ. وَهٰذِهِ المَسَائِلُ لاَ يمكِنُ الْفَتْوَى فِيهَا إِلاَّ بِبَسْطٍ وَتَشْقِيقٍ، وَٱسْتِيعَابُ الْقَوْلِ فِيهَا يُخْرِجُ عَنِ المَقْصُودِ مِنَ الْكِتابِ/ [٤٢/أ] فَإِنْ أَرَدْتَ مَعْرِفَتَهَا فَطَالِعْ كِتَاب الْحَلاَلِ وَالْحَرَامِ مِنْ كِتَابِ «إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ» تَجِدْهُ مَشْرُوحاً مُبَيَّناً إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا تَقُولُ فِي صِلاَتِ أَهْلِ السُّوقِ وَغَيْرِهِمْ، هَلْ يَلْزَمُ رَدُّهَا والْبَحْثُ عَنْهَا وَقَدْ عَلِمْتَ مُجَازَفَتَهُمْ، وَقِلّةَ نَظَرِهِمْ فِي مُعَامَلاَتِهِم ،وَكَذٰلِكَ صِلاَت الإِخْوَانِ؟

صلات أهل السوق

فالجواب أَنَّهُ إِذَا كَانَ ظَاهِرُ الإِنْسَانِ الصَّلاحَ والسَّتْرَ، فَلا حَرَجَ عَلَيْكَ فِي قَبُولِ صِلَتِهِ وَصَدَقَتِهِ، وَلاَ يَلْزَمُ الْبَحْثُ بِأَنْ تَقُولَ قَدْ فَسَدَ الزَّمَانُ، فَإِنَّ هٰذَا سُوءُ ظَنٍّ بِذٰلِكَ الرَّجُلِ المُسْلِمِ، بَلْ حُسْنُ الظَّنِّ بِالمُسْلِمينَ مَأْمُورٌ بِهِ.

ثُمَّ ٱعْلَمْ مَا هُوَ الأَصْلُ في هٰذَا الْبَابِ، وَهُوَ أَنّ هٰهُنَا شَيْئَيْنِ: أَحَدُهُمَا حُكْمُ الشَّرْعِ وَظَاهِرُهُ؛ وَالثَّانِي حُكْمُ الْوَرَعِ وَحَقُّهُ.

حكم الشرع وحكم الورع

فَحُكْمُ الشَّرْعِ أَنْ تَأْخُذَ مَا أَتَاكَ مِمَّنْ ظَاهِرُهُ صَلاَحٌ، وَلاَ تَسْأَلْ إِلاَّ أَنْ تَتيَقَّنَ أَنَّهُ غَصْبٌ أَوْ حَرَامٌ بِعَيْنِهِ.

وَحُكْمُ الْوَرَعِ أَنْ لاَ تَأْخُذَ شَيْئاً مِنْ أَحَدٍ حَتَّى تَبْحَثَ عَنْهُ غَايَةَ الْبَحْثِ وَتَسْتَقْصِي عَلَيهِ غَايَةَ الاِسْتِقْصَاءِ، فَتَسْتَيْقِنَ أَنَّهُ لاَ شُبْهَةَ فِيهِ بِحَالٍ، وَإِلاَّ فَتردّهُ.

فَلَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ غُلاَماً لَهُ

أَتَاهُ بِلَبَنٍ فَشَرِبَهُ، فقَالَ الْغُلاَمُ: كُنْتُ إِذَا جِئْتُكَ بِشَيْءٍ تَسْأَلُنِي عَنْهُ وَلَمْ تَسْأَلْنِي عَنْ هٰذَا اللَّبَنِ؟ فَقَالَ: وَمَا قِصَّتُهُ؟ قَالَ: رَقَيْتُ قَوْماً رقى الْجَاهِلِيَّةِ فَأَعْطَوْنِي هٰذَا، فَتَقَيَّأَ أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ: اللَّهُمَّ هٰذِهِ مَقْدِرَتِي، فَمَا بَقِيَ فِي الْعُرُوقِ فَأَنْت حَسْبُهُ، فَهٰذَا يَدُلُّكَ عَلَى وُجُوبِ الْبَحْثِ عَمّا تَقْدُمُ عَلَيْهِ، إِنْ كَانَ لَكَ نَظَرٌ فِي الْوَرَعِ وَحَقِّهِ، فَهٰذِهِ هٰذِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَكَأَنَّ الْوَرَعَ يُخَالِفُ الشَّرْعَ وَحُكْمَهُ.

فَاعْلَمْ أَنَّ الشّرْعَ مَوْضُوعٌ عَلَى الْيُسْرِ وَالسَّمَاحَةِ، وَلِذٰلِكَ قَالَ ﷺ: «بُعِثْتُ بِالْحنيفيَّةِ السَّمْحَةِ»[1] وَالْوَرَعُ مَوْضُوعٌ عَلَى التَّشْدِيدِ وَالاِحْتِيَاطِ، كما قِيلَ: الأَمْرُ عَلَى الْمُتّقين أَضْيَقُ مِنْ عَقْدِ التِّسْعِينَ.

ثُمَّ الْوَرَعُ مِنَ الشَّرْعِ أَيْضاً، فكِلاَهُمَا فِي الأَصْلِ وِاحَدٌ، وَلٰكِنْ لِلشّرعِ حُكْمَانِ: حُكْمُ الْجَوَازِ، وَحُكْمُ الأَفْضَلِ وَالأَحْوَطِ. وَالجَائِزُ يُقال

(١) ــ قال العراقي (إحياء ٤/١٥١) أخرجه أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف. وله وللطبراني من حديث ابن عباس (أحبُّ الدينِ إلى الله الحنيفية السمحة) وفيه محمد بن إسحاق رواه بالعنعنة..

ــ وقد ورد هذا الحديث في الإحياء (٤/١٥١) بزيادة لفظة (السهلة) على آخره. وهي لم ترد في روايات هذا الحديث.

ــ وقد روى البخاري في صحيحه (كتاب الإيمان) أنه ﷺ قال: «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة» (١/١٦).

ــ كذلك رواه ابن حنبل في مسنده بلفظ (الأديان) (١/٢٣٦).

ــ وله رواية أخرى بلفظ: (بعثت بالحنيفية السمحة) (٥/٢٦٦) وهذه الرواية تتفق مع رواية الغزالي للحديث الذي نحن بصدده.

ــ ويروي ابن حنبل أيضاً هذا الحديث بلفظ: (إني أرسلت بحنيفية سمحة) (٦/١١٦ ٢٣٣).

لَهُ: حُكْمُ الشّرْعِ، وَالأَفْضَلُ الأَحْوَطُ يُقَالُ لَهُ: حُكْمُ الْوَرَعِ، فَهُمَا مَعَ تَمَيُّزِهِمَا وَاحِدٌ في الأَصْلِ، فَافْهَمْ ذٰلِكَ رَاشِداً.

فَإِنْ قُلْتَ: إِذَا جَازَ البَحْثُ وَالاِسْتِقْصَاءُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ فَسَدَ عَلَيْنَا مَا نَأْخُذُهُ في هٰذَا الزّمَانِ، وَتَعَذّرَ الأَمْرُ/ بِمَرَّةٍ عَلَى صَاحِبِ الوَرَعِ، إِذْ [٤٢/ب] لاَ بُدَّ لَهُ مِنْ بَلاَغٍ يُبَلِّغُهُ إِلَى الطّاعَةِ.

فَاعْلَمْ أَنَّ طَرِيقَ الْوَرَعِ شَدِيدٌ، وَأَنّ مَنْ قَصَدَ سُلُوكَهُ فشرطه أَنْ يُوَطِّنَ نَفْسَهُ وَقَلْبَهُ عَلَى احْتِمَالِ الشِّدّةِ وَإِلاّ فَلاَ يَتِمُّ لَهُ ذٰلِكَ؛ وَلِهٰذَا المَعْنَى صَارَ الْكَثِيرُ مِنْ أَهْلِ الْوَرَعِ وَالسَّابِقُونَ إِلَى جَبَلِ لُبْنَانَ وَغَيْرِهِ، فَاقْتَصَرُوا عَلَى أَكْلِ الْحَشِيشِ وَثَمَرَاتٍ تَافِهَةٍ لاَ شُبْهَةَ فِيهَا بِحَالٍ، فَمَنْ سَمَتْ هِمَّتُهُ إِلَى نَيْلِ مَنْزِلَةِ الْوَرَعِ الأَعْلَى، فَعَلَيْهِ أَن يَحْتَمِلَ الشَّدَائِدَ وَيَصْبِرَ عَلَيْهَا، وَيَسْلُكَ طَرِيقَ أُولئِكَ، لِيَنَالَ مَنْزِلَتَهُمْ؛ وَأَمّا إِنْ أَقَامَ بَيْنَ النّاسِ، وَأَكَلَ مِمّا يَتَنَاوَلُونَهُ فِي أَيْدِيهِمْ، فَلْيَكُنْ عِنْدَهُ بِمَنْزِلَةِ المَيْتَةِ لاَ يَقْدُمُ عَلَيْهَا إِلاّ عِنْدَ الضَّرُورَةِ، ثُمَّ لاَ يَتَنَاوَلُ مِنْها إِلاّ مِقْدَار مَا يُبَلِّغُهُ إِلى الطّاعَةِ، فَيَكُونُ لَهُ عُذْرٌ في ذٰلِكَ، وَلاَ يَضُرُّهُ إِن كَانَ فِي أَصْلِهِ شُبْهَةٌ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْلَى بِالْعُذْرِ؛ وَلِهٰذَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رضي اللَّهُ عَنْهُ: فَسَدَ السُّوقُ فَعَلَيْكُمْ بِالْقُوتِ[1].

وَلَقَدْ بَلَغَنِي عَنْ وَهْبِ بْنِ الْوَرْدِ[2] أَنَّهُ كَانَ يُجَوِّعُ نَفْسَهُ يَوْماً

---

(١) أي فسد السوق بمن فيه وما فيه بسبب كثرة الفساد والخيانة والبعد عن طاعة الله، لذا عليكم بما يقتات به المرء ليستطيع القيام بما عليه من واجبات، دون زيادة في ذلك.

(٢) ابن أبي الورد المخزومي، مولاهم، المكّي، ويقال اسمه عبد الوهاب، ووهيب =

وَيَوْمَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةً، ثُمَّ يَأْخُذُ رَغِيفاً وَيَقُولُ: اللّهُمَّ إِنكَ تَعْلَمُ أَنِّي لاَ أَقْوَى عَلَى الْعِبَادَةِ وَأَخْشَى الضَّعْفَ وَالألم إِن لَمْ آكُلهُ، اللّهُمَّ إِنْ كَانَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ خَبَثٍ أَوْ حَرَامٍ فَلا تُؤاخِذْنِي بِهِ، ثُمَّ يَبُلُّ الرَّغِيفَ فِي المَاءَ وَيَأْكُلُهُ.

قُلْتُ: فَهٰذَان الطَّرِيقَانِ[1] لِلطَّبَقَةِ الْعُلْيَا مِنْ أَهْلِ الْوَرَعِ فِيمَا نَعْلَمُهُ؛ وَأَمَّا مَنْ دُونَهُمْ فَلَهُمُ احْتِيَاطٌ وَبَحْثٌ عَلَى مِقْدَارٍ، وَلَهُمْ أَيْضاً نَصِيبٌ مِنَ الـوَرَعِ عَلَى مِقْدَارٍ، وَبِقَدْرِ مَا تَتَعَنَّى تَنَالُ مَا تَتَمَنَّى، وَاللَّهُ تَعَالَى لاَ يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً، وَهُوَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ.

فضول الحلال

فَإِنْ قِيلَ: فَهٰذَا جَانِبُ الْحَرَامِ، فَأَخْبِرْنَا عَنْ جَانِبِ الْحَلاَلِ، وَمَا حَدُّ الْفُضُولِ الَّذِي يَلْزَمُ مِنْهُ الْحَبْسُ وَالْحِسَابُ، وَمَا الْمِقْدَارُ الَّذِي إِذَا أَخَذَهُ الْعَبْدُ يَكُونُ ذٰلِكَ أَدَباً، وَلا يَكُونُ فُضُولاً، وَلاَ عَلَيْهِ فِيهِ حَبْسٌ وَلاَ حِسَابٌ؟ يُقال له:

أنواع المباح

فَاعْلَمْ أَنّ أَحْوَالَ المُبَاحِ فِي الْجُمْلَةِ ثَلاَثَةُ أَقْسامٍ:

أَحَدُهَا: أَنْ يَأْخُذَهُ الْعَبْدُ مُفَاخِراً مُكَاثِراً مُبَاهِياً مُرَائِياً، فَيَكُونُ الأَخْذُ مِنْهُ فِعْلاً مُنْكَراً، يَسْتَوْجِبُ عَلَى ظَاهِرِ فِعْلِهِ الْحَبْسَ وَالْحِسَابَ

= لقب له، وكنيته أبو عثمان ويقال أبو أمية. روى عند عبد الله بن المبارك وعمارة بن القعقاع. قال يحيى بن معين: هو ثقة، وقال أبو حاتم: كان من العبّاد. وكانت له أحاديث ومواعظ وزهد. وكان سفيان الثوري إذا حدّث الناس وفرغ قال: قوموا بنا إلى الطبيب يعني وهيباً. وقد توفي عام ١٥٠ هـ. سير أعلام النبلاء ١٩٨/٧.

(١) أي احتمال الشدائد والصبر عليها.

وَاللَّوْمَ وَالتَّعْيِيرَ، وَهُوَ/ مُنْكَرٌ وَشَرٌّ يَسْتَوْجِبُ عَلَى بَاطِنِ فِعْلِهِ ـ وَهُوَ التَّكَاثُرُ وَالتَّفَاخُرُ ـ عَذَابَ النَّارِ، وَذٰلِكَ الْقَصْدُ مِنْهُ مَعْصِيَةٌ وَذَنْبٌ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ﴾ إلى قَوْلِهِ ﴿ وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ [الحديد: ٢٠]. [٤٣/أ]

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا حَلاَلاً مُبَاهِياً مُكَاثِراً مُفَاخِراً مُرَائِياً لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ»[1] فَالْوَعِيدُ عَلَى قَصْدِهِ ذٰلِكَ بِقَلْبِهِ.

وَالْقِسْمُ الثَّانِي: أَنْ يَأْخُذَ الْحَلاَلَ لِشَهْوَةِ نَفْسِهِ لاَ غَيْرُ، فَذٰلِكَ مِنْهُ شَرٌّ يَسْتَوْجِبُ عَلَيْهِ الْحَبْسَ وَالْحِسَابَ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ ﴾ [التكاثر: ٨]. وَقَالَ ﷺ: «حَلاَلُهَا حِسَابٌ»[2].

---

(١) ـ ورد هذا الحديث في الإحياء بلفظ: (من طلب الدنيا حلالاً مكاثراً مفاخراً لقي الله وهو عليه غضبان، ومن طلبها استعفافاً عن المسألة وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر) (إحياء ٣/ ٢٢١).
قال العراقي: أخرجه أبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.
وقد رواه أبو نعيم في الحلية (٣/ ١١٠، ٨/ ٢١٥) عن أبي هريرة من حديث مكحول وقال أبو نعيم: غريب من حديث مكحول، لا أعلم له راوياً عنه إلا الحجاج.
ورواية منهاج العابدين تتفق مع رواية الحلية في جميع ألفاظ الحديث.

(٢) ورد هذا الحديث في الإحياء بهذا اللفظ دون ذكر القسم الأخير منه (٣/ ٢٢٠) وورد برواية أخرى بلفظ: (حرامها عذاب) (٤/ ٣٧١).
قال العراقي (إحياء ٣/ ٢٢٠)أخرجه أبي الدنيا، والبيهقي في الشعب من طريقه موقوفاً على علي بن أبي طالب بإسناد منقطع بلفظ: (وحرامها النار) ولم أجده مرفوعاً.
ـ وذكره السخاوي في المقاصد الحسنة (ص ١٩٦) وأشار إلى انقطاع سنده. =

وَالْقِسْمُ الثَّالِثُ: أَنْ يَأْخُذَ مِنَ الْحَلالِ في حَالِ الْعُذْرِ، قَدْراً يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَقْتَصِرَ عَلَى ذٰلِكَ، فَذٰلِكَ مِنْهُ خَيْرٌ وَحَسَنَةٌ وَأَدَبٌ وَلاَ حِسَابَ عَلَيْهِ وَلاَ عِقَابَ، بَلْ يَسْتَوْجِبُ عَلَيهِ الأَجْرَ وَالمِدْحَة، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ [البقرة: ٢٠٢]، وَقَالَ ﷺ: «مَنْ طَلبَ الدُّنْيَا حَلالاً، اسْتِعْفَافاً عَنِ المَسْئَلَةِ وَتَعَطُّفاً على جَارِهِ، وَسَعْياً عَلَى عِيَالِهِ، جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَوَجْهُهُ كَالقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ»[1]، وَذٰلِكَ لِمَا قَصَدَ بِهِ هٰذِهِ القُصُودَ المَحْمُودَةَ لِلَّهِ سبْحَانَهُ وتعالى. فَهٰذِهِ هٰذه فَاعْلَمْهَا.

فَإِنْ قِيلَ: فَما شَرْطُ المُباحِ حَتَّى يَصِيرَ خَيْراً وَحَسَنَةً كَمَا ذَكَرْتُمْ؟

فَاعْلَمْ أَنَّهُ يَحْتَاجُ لِكَوْنِهِ خَيْراً في الأَصْلِ إِلَى شَرْطَينْ: **أَحَدُهُمَا**: الْحَالُ، **وَالثَّانِي**: الْقَصْدُ.

شرط المباح

فَالْحَالُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ في حَالِ عُذْرٍ، وَهُوَ بِحَيْثُ إِنْ لَمْ يَأْخُذْ تُؤخَذْ نَفْسُهُ؛ وَتَفْسِيرُهُ أَنْ يَكُونَ حَالُهُ إِنْ لَمْ يُؤْخَذْ ذٰلِكَ المُبَاحُ يَنْقَطِعُ بِسَبَبِهِ عَنْ فَرْضٍ أَوْ سُنَّةٍ أَوْ نَفْلٍ فَيَكُونُ ذٰلِكَ أَفْضَلَ مِنْ تَرْكِ المُبَاحِ، فَإِنَّ تَرْكَ مُبَاحِ الدُّنْيَا فَضِيلَةٌ، فَإِذَا كَانَ الْحَالُ كَذٰلِكَ فَهُوَ حَالُ الْعُذْرِ.

= وأضاف: وفي مسند الفردوس عن ابن عباس رفعه: يا ابن آدم ما تصنع بالدنيا؟ حلالها حساب وحرامها عقاب.
وفي حاشية المقاصد ذكر أن محيي الدين بن العربي أسنده في المسامرات عن أبي هريرة. ولعل الزيادة الأخيرة في هذا الحديث هي من عند الغزالي. والله أعلم.

(١) ــ راجع الحديث رقم ٥٩ الذي سبق ذكره وتخريجه ص ٢١٣، حاشية (١).

وَأَمَّا الْقَصْدُ، فَإِنْ يَقْصِدَ بِهِ الْعُدَّةَ وَالاِسْتِعَانَةَ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَهُوَ أَنْ يَذْكُرَ بِقَلْبِهِ، أَنَّهُ لَوْلاَ مَا فِيهِ مِن التَّوَصُّلِ إلى عِبَادَةِ اللَّهِ تعالى لَما أَخَذَ ذٰلِكَ، فَهٰذَا ذِكْرُ الْحُجةِ. فَلَمَّا حَصَلَ ذِكْرُ الْحُجَّةِ في حالِ الْعُذْرِ، صَارَ ذٰلِكَ الأَخْذُ مِنَ الدُّنْيَا الْحَلاَلِ خَيْراً وَحَسَنَةً وَأَدَباً. وَأَمَّا لَوْ كَانَ حَالُهُ حَالَ الْعُذْرِ/ وَلاَ يَكُونُ لَهُ هٰذَا الْقَصْدُ وَالذِّكْرُ، أَوْ يَكُونُ لَهُ هٰذَا الذِّكْرُ، وَلاَ يَكُونُ في حَال الْعُذْرِ فَلاَ يَكُون ذٰلِكَ الأَخْذُ مِنْ جُمْلَةِ الخَيْرَاتِ. [٤٣/ب]

ثُمَّ الاِسْتِقَامَةُ عَلَى حِفْظِ هٰذَا الأَدَبِ تَحْتَاجُ إِلَى بَصِيرَةٍ وَقَصْدٍ مُجْمَلٍ بِأَنَّهُ لاَ يَأْخُذُ (من)[1] الدُّنْيَا بِحَالٍ إِلاَّ لِلْعُدَّةِ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، حَتى إِنَّهُ إِنْ سَهَا عَنْ ذِكْرِ الْحُجَّةِ فِي حَالٍ، أَجْزَأَهُ ذٰلِكَ الْقَصْدُ الْمُجْمَلُ عَنْ تَجْدِيدِ ذِكْرِ الْحُجَّةِ. قَال شَيْخُنا رَحِمَهُ اللَّهُ:

فَصَارَتِ الأُمُورُ الثَّلاَثَةُ مُعْتَبَرَةً فِيهِ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ وَجْهٍ؛ يَعْنِي أَنّ الذِّكْرَ وَالحَال مُعْتَبَرَانِ في حُصُولِ كَوْنِهِ خيراً أَصْلاً، وَالْقَصْدُ الْمُجْمَلُ الْمُقْتَضِي عَنْ بَصِيرَةٍ مَنْزِلَةَ الأدَبِ، مُعْتَبَرٌ في الاِسْتِقَامَةِ عَلَيْهِ، فَافْهَمْ ذٰلِكَ رَاشِداً.

فَإِنْ قِيلَ: فَإِنْ أَخذَ الدُّنْيَا الْحَلاَلَ لِشَهْوَةٍ، فَهَلْ يَكُونُ ذٰلِكَ مَعْصِيَةً، وَهَلْ يَلْزَمُ عَلَيْهِ عَذَابٌ، وَهَلِ الأَخْذُ بِالْعُذْرِ فَرْضٌ أَمْ لاَ؟

فَاعْلَمْ أَنَّ ذٰلِكَ فَضِيلَةٌ وَنُسَمِّيهِ خَيْراً وَحَسَنَةً، وَالأَمْرُ بِهِ أَمْرُ تَأْدِيبٍ، وَالأَخْذُ بالشهوة أَخذُ شَرٍّ وَسَيِّئَةٍ، وَالنَّهْيُ عَنْهُ نَهْيُ زَجْرٍ أخذ الحلال لشهوة

---

(١) ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِمَعْصِيَةٍ، وَلاَ يَكُونُ عَلَيْهِ عَذَابُ النَّارِ، وَإِنَّمَا عَلَيْهِ الْحَبْسُ وَالْحِسَابُ واللَّوْمُ وَالتَّعْيِيرُ.

فإنْ قُلْتَ: فما هٰذَا الْحَبْسُ وَالْحِسَابُ الّذِي يلزم الْعَبْدَ؟

الحبس والحساب

فَاعْلَمْ أَنّ الْحِسَابَ أَن تُسْأَلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّاذَا اكْتَسَبْتَ، وَفِيمَاذا أَنْفَقْتَ، وَمَاذَا أَرَدْتَ بِذٰلِكَ؟ وَالْحَبْسُ حَبْسٌ عَنِ الْجَنَّةِ مُدَّةَ الْحِسَابِ بِذٰلِكَ، في عَرَصَة الْقِيَامَةِ، بَيْنَ أَهْوَالِهَا وَمَخَاوِفِها عُرْيَان عَطْشَانَ وَكَفَى بِذٰلِكَ بَلِيَّةً.

الأدب في الحلال

فَإِنْ قِيلَ: فاللَّهُ سُبْحَانَهُ قد أَحَلَّ لَنَا هٰذَا الْحَلاَلَ، فَاللَّوْمُ وَالتَّعْيِيرُ في أَخْذِهِ لِمَاذَا؟

فَاعْلَمْ أَنَّ اللَّوْمَ وَالتَّعْيِيرَ لِتَرْكِهِ الأَدَبَ، كَمَنْ أُجْلِسَ عَلَى مَائِدَةِ المَلِكِ فَتَرَكَ الأَدَبَ، فَإِنَّهُ يُعَيَّرُ بِذٰلِكَ وَيُلاَمُ، وَإِنْ كَانَ الطَّعَامُ لَه مُباحاً. وَالأَصلُ فِي هٰذَا الْبَابِ أَنّ اللَّهَ تَعالَى خَلَقَ الْعَبْدَ لِعِبَادَتِهِ، وَهُوَ عَبْدٌ لِلَّهِ تَعالَى مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، فَحَقُّ الْعَبْدِ أَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ عزّ وَجلّ من كل وَجْهٍ يُمْكِنُهُ، وَيَجْعَلَ أَفْعَالَهُ كُلَّهَا عِبادَةً مِنْ أَيِّ وَجْهٍ أَمْكَنَهُ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ وَآثَرَ شَهْوَةَ نَفْسِهِ، وَاشْتَغَلَ بِذٰلِكَ عَنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ، مَعَ تَمَكُّنِهِ مِنْ ذٰلِكَ مِنْ غَيْرِ تَعَذُّرٍ، وَالدَّارُ دَارُ خِدْمَةٍ وَعِبَادَةٍ، لاَ دَارُ تَنَعُّم ولا دَارُ شَهْوَةٍ/ [٤٤/أ] اسْتحقَّ اللَّوْمَ بِذٰلِكَ وَالتعْيِيرَ مِنْ سَيِّدِهِ؛ فتَأَمَّلْ هٰذَا الأَصْلَ رَاشِداً وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

فَهٰذِهِ الْجُملَةُ الَّتِي أَرَدْنَا بَيَانَها في إِصْلاَحِ النَّفْسِ وَإِلْجَامِها بِلِجَامِ التَّقْوَى، فَارْعَها حَقَّهَا، وَاحْتَفِظْ بِهَا جِدّاً تَفُزْ بِالْخَيْرِ الْكَثِيرِ فِي الدَّارَيْنِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ وَالْعِصْمَة بِفَضْلِهِ.

فصل
في معالجة الدنيا والخلق والشيطان والنفس

فَعَلَيْكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ بِبَذْلِ المَجْهُودِ في قَطْعِ هٰذِهِ الْعَقَبَةِ الْعَظِيمَةِ الطَّوِيلَةِ[1] فَإِنَّهَا أَعْظَمُ الْعَقَبَاتِ شِدَّةً، وَأَكْثَرُهَا مُؤْنَةً، وَأَكْبَرُهَا آفَةً وَفِتْنَةً، فَإِنَّ مَنْ هَلَكَ مِنَ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ، إِنَّما انْقَطَعُوا عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ إِمَّا بِسَبَبِ دُنْيا أَوْ خَلْقٍ أَوْ شَيْطَانٍ أَوْ نَفْسٍ. وَلَقَدْ ذَكَرْنَا في كُتُبِنَا المُصَنَّفَةِ مِنْ كِتابِ «الأَسْرَارِ» و«الإِحْيَاءِ» و«الْقُرْبَةِ»، مَا يَبْعَثُ عَلَى الاِهْتِمَامِ بِذٰلِكَ.

وَمَقْصُودُ هٰذَا الْكِتابِ أَنِّي سَأَلْتُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُطْلِعَنِي عَلَى سِرِّ معَالَجَةِ النَّفْسِ، وَأَنْ يُصْلِحَنِي وَيُصْلِحَ بِي، فَاقْتَصَرْتُ في هٰذَا الْكِتَابِ الشَّرِيفِ عَلَى نُكَتٍ وَجِيزَةِ اللَّفْظِ غَزِيرَةِ المَعْنَى، تُقْنِعُ مَنْ تَأَمَّلَهَا، وَتَدَعُهُ عَلَى وَاضِحَةٍ مِنَ الطَّرِيقِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. وَهٰذَا الْفَصْلُ بِنُكَتٍ في مُعَالَجَةِ الدُّنْيَا وَالْخَلْقِ وَالشَّيْطَانِ وَالنَّفْسِ.

أَمَّا الدُّنْيَا: فَحقٌّ لَكَ أَنْ تَحْذَرَهَا وَتَزْهَدَ فِيهَا، لِأَنّ الأَمْرَ لا يَخْلُو مِنْ ثَلاثَةٍ:

---

(١) وهي عقبة العوائق.

أنواع العباد
ـ إِمَّا أَنْتَ مِنْ ذَوِي الْبَصَائِرِ وَالْفِطَنِ، فَحَسْبُكَ أَنَّ الدُّنْيَا عَدُوَّةُ اللَّهِ وَهُوَ حَبِيبُكَ وَوَلِيُّكَ، وَأَنَّ الدُّنْيَا نَقِيضَةُ عَقْلِكَ، وَالْعَقْلُ قِيمَتُكَ.

ـ وَإِمَّا أَنْتَ مِنْ ذَوِي الْهِمَمِ في عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَالاِجْتِهَاد، فَحَسْبُكَ أَنَّ الدُّنْيَا بَلَغَ مِنْ شُؤمِهَا مَا يَمْنَعُكَ مِنْ إِرَادَتِهَا، وَتَشْغَلُكَ الْفِكْرَةُ فِيهَا عَنِ الْعِبَادَةِ وَالْخَيرِ، فَكَيْفَ نَفْسُهَا؟

ـ وَإِمَّا أَنْتَ مِنْ أَهْلِ الْغَفْلَةِ لَا بَصِيرَةَ لَكَ تُبْصِرُ الْحَقائِقَ، وَلَا هِمَّةَ لَكَ تَبْعَثُ عَلَى الْمَكَارِمِ؛ فَحَسْبُكَ أَنَّ الدُّنْيَا لَا تَبْقَى: إِمَّا أَنْ تُفَارِقَهَا، وَإِمَّا أَنْ تُفَارِقَكَ، كَمَا قَالَ الْحَسَنُ رضي الله عنه: إِنْ بَقِيَتْ لَكَ الدُّنْيَا لَمْ تَبْقَ لَهَا، فَأَيُّ فَائِدَةٍ إِذَنْ في طَلَبِهَا، وَإِنْفَاقِ الْعُمْرِ الْعَزِيزِ عَلَيْهَا، وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ/ : [الوافر]: [٤٤/ب]

هَبِ الدُّنْيَا تُسَاقُ إِلَيْكَ عَفْواً ... أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَاكَ إِلَى زَوَالِ
(فَمَا تَرْجُو بِعَيْشٍ لَيْسَ يَبْقَى ... وَشِيكاً قَدْ تُغَيِّرُهُ اللَّيَالِي)[1]
وَمَا دُنْيَاكَ إِلَّا مِثْلَ ظِلٍّ ... أَظَلَّكَ ثُمَّ آذَنَ بِارْتِحَالِ

فَلَا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ إِذاً أَنْ يُخْدَعَ بِهَا، وَلَقَدْ صَدَقَ الْقَائِلُ: [الكامل]:

أَضْغَاثُ نَوْمٍ أَوْ كَظِلٍّ زَائِلٍ ... إِنَّ اللَّبِيبَ بِمِثْلِهَا لَا يُخْدَعُ
حَتّى متى تُسْقَى النُّفُوسُ بِكأسِهَا ... رُبَّ المنونِ وَأَنتَ لاهٍ تَرْتَعُ
فَلَقَدْ رَضِيتَ بأن تُعَلَّل بالمُنى ... وَإِلى المنيّة كُلّ يوم تُدْفَعُ
فَتَزَوَّدنّ لِيَوْمِ فَقْرِكَ دائباً ... وَأجْمَعْ لِنَفْسِكَ لا لِغَيرِكَ تجمعُ

---

(١) زيادة من (د) و (هـ).

وَأَمَّا الشَّيْطَانُ فَحسْبُكَ فِيهِ مَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون: ٩٨] فهذَا خَيْرُ الْعَالَمِينَ وَأَعْلَمُهُمْ وَأَعْقَلُهُمْ وَأَفْضَلُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، يَحْتَاجُ مَعَ ذلِكَ إلى أَنْ يَسْتَعِيذ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ، فَكَيْفَ بِكَ مَعَ جَهْلِكَ وَنَقْصِكَ وَغَفْلَتِكَ؟

وَأَمَّا الْخَلْقُ: فَحَسْبُكَ مِنْهُمْ أَنَّكَ لَوْ خَالَطْتَهُمْ وَوَافَقْتَهُم في أَهْوَائِهِمْ أَثِمْتَ وَأَفْسَدْتَ أَمْرَ آخِرَتِكَ، وَإِنْ خَالَفْتَهُم تَعِبْتَ بِأَذِيَّاتِهِم وَجَفَوَاتِهِم، وَكَدَّرْتَ عَلَيْكَ أَمْرَ دُنْيَاكَ، ثُمَّ لاَ تَأْمَنُ أَنْ يُلْجِئُوكَ إلى مُعَادَاتِهِم وَمُنَاوَأَتِهم فَتَقَعُ فِي شَرِّهِمْ؛ وَلأَنَّهُمْ إِنْ مَدَحُوكَ وَعَظَّمُوكَ أَخَافُ عَلَيْكَ الْفِتْنَةَ والْعُجْبَ، وَإِنْ ذَمُّوكَ وَحَقَرُوكَ أَخَافُ عَلَيْكَ الْحُزْنَ تَارَةً وَالْغَضَبَ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى أُخْرَى، وَكِلاَ الأَمْرَيْنِ آفَةٌ مُهْلِكَةٌ.

ثُمَّ اذْكُرْ حَالَكَ مَعَهُم بَعْدَ مَا صِرْتَ إِلى الْقَبْرِ بِثَلاثَةِ أَيَّام كَيْفَ يَتْرُكُونَكَ وَيَهْجُرُونَكَ وَيَنْسَوْنَكَ، فَلاَ يَكَادُون يَذْكُرُونَكَ، كَأَنَّكَ لَمْ تَرَهُمْ يوماً وَلَمْ يَرَوْكَ، فَلَمْ يَبْقَ هُنَالِكَ مَعَكَ إِلاَّ اللَّهُ تَعَالَى، أَفَلا يَكُونُ مِنَ الغَبْنِ الْعَظِيمِ أَنْ تُضَيِّعَ أَيَّامَكَ مَعَ هؤُلاءِ الْخَلْقِ، مَعَ قِلَّةِ الْوَفَاءِ مِنهُم وَقِلَّةِ الْبَقَاءِ مَعَهُم، وَتَتْرُكَ خِدْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي يَرْجِعُ إِلَيْهِ آخرُ الأَمْر وَحْدَهُ، وَلاَ يَبْقَى لَكَ إِلاَّ هُوَ أَبَدَ الآبِدِينَ؛ وَالْحَاجَاتُ كُلُّها إِلَيهِ، وَالتُّكْلاَنُ كُلُّهُ عَلَيْهِ، وَالاعْتِصَامُ كُلُّهُ في كُلِّ حَالٍ/ [٤٥/أ] وَعِنْدَ كُلِّ شِدَّةٍ وَهَوْلٍ بِهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ؛ فَتَأَمَّلْ يَا مِسْكِينُ، لَعَلَّكَ تُرْشَدُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَاللَّهُ وَلِيُّ التوفيق بِفَضْلِهِ.

وَأَمَّا النَّفْسُ: فَحَسْبُكَ مَا تُشَاهِدُ مِنْ حَالاَتِهَا وَرَدَاءَةِ إِرَادَتِهَا

وَسُوءِ اخْتِيَارِهَا، فَهِيَ فِي حَالِ الشَّهْوَةِ بَهِيمَةٌ، وَفِي حَالِ الْغَضَبِ سَبُعٌ، وَفِي حَالِ الْمُصِيبَةِ تَرَاهَا طِفْلاً صَغِيراً، وَفِي حَالِ النِّعْمَةِ تَرَاهَا فِرْعَوْناً، وَفِي حَالِ الْجُوعِ تَرَاهَا مَجْنُوناً، وَفِي حَالِ الشِّبَعِ تَرَاهَا مُخْتَالاً، إِنْ أَشْبَعْتَهَا بَطِرَتْ وَمَرِحَتْ، وَإِنْ جَوَّعْتَهَا صَاحَتْ وَجَزِعَتْ، فَهِيَ كَمَا قَالَ الأَوَّلُ: [مجزوء البسيط]:

كَحِمَارِ السُّوءِ إِنْ أَشْبَعْتَهُ رَمَحَ النَّاسَ[1] وَإِنْ جَاعَ نَهَقْ

وَلَقَدْ صَدَقَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ حَيْثُ قَالَ: إِنَّ رَدَاءَةَ هٰذِهِ النَّفْسِ وَجَهْلِهَا بِحَيْثُ إِذَا هَمَّتْ بِمَعْصِيَةٍ أَوِ انْبَعَثَتْ لِشَهْوَةٍ، لَوْ تَشَفَّعْتَ إِلَيْهَا بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ ثُمَّ بِرَسُولِهِ وَبِجَمِيعِ أَنْبِيَائِهِ وَبِكِتَابِهِ وَبِجَمِيعِ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنْ عِبَادِهِ، وَتَعْرِضُ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَالْقَبْرَ وَالْقِيَامَةَ وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ، لَا تُعْطِي الانْقِيَادَ وَلَا تَتْرُكُ الشَّهْوَةَ؛ ثُمَّ إِنِ اسْتَقْبَلْتَهَا بِمَنْعِ رَغِيفٍ، تَسْكُنُ وَتَتْرُكُ شَهْوَتَهَا، لِتَعْلَمَ خِسَّتَهَا وَجَهْلَهَا؛ فَإِيَّاكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ أَنْ تَغْفُلَ عَنْهَا، فَإِنَّهَا كَمَا قَالَ خَالِقُهَا الْعَالِمُ بِهَا جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣] فَكَفَى بِهٰذَا تَنْبِيهاً لِمَنْ عَقَلَ.

وَلَقَدْ بَلَغَنَا عَنْ رجل من بَعْضِ الصَّالِحِينَ يُقَالُ لَهُ أَحْمَدُ بْنُ أَرْقَمَ الْبَلْخِيُّ[2] أَنَّهُ قَالَ: نَازَعَتْنِي نَفْسِي بِالْخُرُوجِ إِلَى الْغَزْوِ، فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، وهٰذِهِ تَأْمُرُنِي بِالخَيْرِ، لَا يَكُونُ هٰذَا أَبداً، وَلٰكِنَّهَا اسْتَوْحَشَتْ فَتُرِيدُ لِقَاءَ النَّاسِ لِتَسْتَرْوِحَ إِلَيْهِمْ وَيَتَسَامَعَ النَّاسُ بِهَا، فَيَسْتَقْبِلُونَهَا بِالتَّعْظِيمِ وَالْبِرِّ وَالإِكْرَامِ؛ فَقُلْتُ لَهَا: لَا أُنْزِلُكِ الْعُمْرَانَ وَلَا أَنْزِلُ عَلَى

---

(١) رمح الناس: رفسهم برجليه.

(٢) أحد الصالحين. لم نعثر على ترجمته.

مَعْرِفَةٍ، فَأَجَابَت، فَأَسأْتُ الظَّنَّ بِهَا، وَقُلْتُ: اللَّهُ تَعَالَى أَصْدَقُ. فَقُلْتُ لَهَا: أُقاتِلُ الْعَدُوَّ حَاسِراً فتكُونِينَ أَوّلَ قَتِيلٍ، فَأَجَابَتْ؛ وَعَدَّ أَشْيَاءَ مِمَّا أَرَادَهَا فَأَجَابَتْ إِلى كُلِّ ذٰلِكَ، قَالَ فَقُلْتُ: يَا رَبِّ: نَبِّهنِي لَهَا، فَإِنِّي مُتَّهِمٌ لَهَا مُصَدِّقٌ لَكَ؛ فَكُوشِفْتُ بِهَا كَأَنَّهَا تَقُولُ: يَا أَحْمَدُ أَنْتَ تَقْتُلُنِي كُلَّ يَوْمٍ بِمَنْعِكَ إِيَّايَ مِنْ شَهْوَاتٍ مَرَّاتٍ، وَبِمُخَالفَتِكَ[1]، وَلاَ يَشْعُرُ بِهِ أَحدٌ[2]، فَإِنْ قَاتَلْتَ قُتِلْتَ/ مرةً وَاحِدَةً فَنَجَوْتُ مِنْكَ، وَيَتَسَامَعَ النَّاسُ [٤٥/ب] فَيقالُ: ٱسْتُشْهِدَ أَحْمَدُ، وَيَكُونُ لِي شَرَفٌ وَذِكْرٌ؛ قَالَ: فَقَعَدْتُ وَلَمْ أَخْرُجْ إِلى الْغَزْوِ في ذٰلِكَ الْعَامِ. فَانْظُرْ إِلى خِدَاعِ النَّفْسِ وَغُرُورِهَا، تُرَائِي النَّاسَ بَعْدَ المَوْتِ بِعَمَلٍ لَمْ يَكُنْ بَعْد.

وَلَقَدْ صَدَقَ الْقَائِلُ وَأَحْسَنَ [البسيط]:

تَــوَقَّ نَفْسَــكَ لاَ تَــأْمَــنْ غَــوَائِلَهَــا   فَالنَّفْسُ أَخْبَثُ مِنْ سَبْعِينَ شَيْطَانَا

فَتَنَبَّه رَحِمَكَ اللَّهُ لِهٰذِهِ الخَدَّاعَةِ الأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ، وَوَطِّنْ عَلَى مُخَالَفَتِها قَلْبَكَ بِكُلِّ حَالٍ تُصِبْ وَتَسْلَمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. ثُمَّ عَلَيْكَ بِإِلْجَامِهَا بِالتَّقْوَى لاَ حِيلةَ لَهَا سِوَاهُ.

شطر العبادة

وَاعْلَمْ أَنَّ هَهُنَا أَصْلاً أَصِيلاً وَهُوَ أَنَّ الْعِبَادَةَ شَطْرَانِ: شَطْرُ الاِكْتِسَابِ، وَشَطرِ الاِجْتِنَابِ؛ **فَالاكْتِسَابُ**: فِعْلُ الطَّاعَاتِ؛ **وَالاجْتِنابُ**: الامْتِناعُ عَنِ المَعَاصِي وَالسَّيِّئَاتِ وَهُوَ التَّقْوَى؛ وَأَنَّ شَطْرَ الاجْتِنَابِ عَلَى كُلِّ حالٍ أَسْلَمُ وَأَصْلَحُ وَأَفْضَلُ وَأَشْرَفُ لِلْعَبْدِ مِنْ شَطْرِ

---

(١) أي: بمخالفتك أوامري.

(٢) أي: لا يشعر بمنعك إياي أحد.

الاكْتساب، وَلِذٰلِكَ اشْتَغَلَ المُبْتَدِئُونَ مِنْ أَهْلِ الْعِبَادَةِ، الَّذِينَ هُمْ فِي أَوَّلِ دَرَجَةِ الاجْتِهَادِ بِشَطْرِ الاكْتِسَابِ، كُلُّ هِمَّتِهِمْ أَنْ يَصُومُوا نَهَارَهُمْ وَيَقُومُوا لَيْلَهُمْ وَنَحْوُ ذٰلِكَ، وَيَشْتَغِلُ المُنْتَهُونَ أُولُو الْبَصَائِرِ مِنْ أَهْلِ الْعِبَادَةِ بِشَطْرِ الاجْتِنَابِ، إِنَّمَا هِمَّتُهُمْ أَنْ يَحْفَظُوا قُلُوبَهُمْ عَنِ المَيْلِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَبُطُونَهُمْ عَنِ الْفُضُولِ، وَأَلْسِنَتَهُم عَنِ اللَّغْوِ، وَأَعْيُنَهُمْ عَنِ النَّظَرِ إِلَى مَا لَا يَعْنِيهِمْ.

وَلِهٰذَا المَعْنَى قَال الْعَابِدُ الثَّانِي مِنَ الْعُبَّادِ السبعة لِيُونُسَ عليه السلام، يَا يُونُسُ: مِنَ النَّاس مَنْ حُبِّبَ إِلَيْهِمُ الصَّلَوَاتُ، فَلَا يُؤْثِرُونَ عَلَيْهَا شَيْئاً، وَهِيَ عَمُودُ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَالصِّدْقِ وَالتَّضَرُّعِ وَالابْتِهَالِ، وَمِنْهُم مَنْ حُبِّبَ إِلَيْهِمُ الصَّوْمُ، فَلَا يُؤْثِرُونَ عَلَيْهِ شَيْئاً، يا يُونُسُ وَأَنَا مُفَسِّرٌ لَكَ هٰذِهِ الْخِصَالَ: اجْعَلْ صَوْمَكَ الصَّمْتَ عَنْ كُلِّ سُوءٍ، وَاجْعَلْ صَدَقَتَكَ كَفَّ الأَذَى، فَإِنَّكَ لا تَتَصَدَّقُ بِشَيْءٍ أَفْضلَ مِنْهُ، وَلَا تَصُومُ بِشَيْءٍ أَزْكَى مِنْهُ، فَإِذَا عَلِمْتَ أَنَّ جَانِبَ الاجْتِنَابِ أَوْلَى بِالرِّعَايَةِ وَالاجْتِهَادِ/ فِيهِ، فَإِنْ حَصَلَ لَكَ الشَّطْرَانِ جَمِيعاً، الاجْتِنَابُ وَالاكْتِسَابُ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ أَمْرُكَ وَحَصَلَ مُرَادُكَ، وَقَدْ سَلِمْتَ وَغَنِمْتَ؛ فَإِنْ لَمْ تَبْلُغْ إِلَّا إِلَى أَحَدِهِمَا، فَلْيَكُنْ ذٰلِكَ جَانِبَ الاجْتِنَابِ، فَتَسْلَمَ إِنْ لَمْ تَغْنَمْ، وَإِلَّا خَسِرْتَ الشَّطْرَيْنِ جَمِيعاً، وَمَا يَنْفَعُكَ قِيامُ لَيْلٍ وَتَعَبُهُ، ثُمَّ تُحْبِطُهُ بِإِرَادَةٍ وَاحِدَةٍ؟ وَمَا يُغْنِيكَ صِيامُ نَهارٍ طَوِيلٍ وَتُفْسِدُهُ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ؟ [٤٦/أ]

وَلَقَدْ رَوَيْنا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: مَا تَقُولُ فِي رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا كَثِيرُ الخَيْرِ كَثِيرُ الشَّرِّ؛ وَالآخَرُ قَلِيلُ الْخَيْرِ قَلِيلُ الشَّرِّ؟ قَالَ: لَا أَعْدِلُ بِالسَّلَامَةِ شَيْئاً.

وَمِثَالُ مَا قُلْنَاهُ[1] حَالُ المَرِيضِ، وَذٰلِكَ أَنَّ مُعَالَجَةَ المَرِيضِ نِصْفَانِ: نِصْفٌ هُوَ الدَّوَاء، وَنِصْفٌ هُوَ الاحْتِمَاءُ، فَإِنِ اجْتَمَعا فَكَأَنَّكَ بِالْمَرِيضِ قَدْ بَرِىءَ وَصَحَّ، وَإِلا فَالاحْتِمَاءُ بِهِ أَوْلَى، إِذْ لَا يَنْفَعُ دَوَاءٌ مَعَ تَرْكِ الاحْتِمَاءِ، وَقَدْ يَنْفَعُ الاحْتِمَاءُ مَعَ تَرْكِ الدَّوَاءِ.

وَلَقَدْ قَالَ ﷺ: «أَصْلُ كُلِّ دَوَاءِ الْحِمْيَة»[2] وَالمَعْنِيُّ بِهَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّهَا تُغْنِي عَنْ كُلِّ دَوَاءٍ، وَلِذَا يُقَالُ: إِنَّ أهل الْهِنْدِ جُلُّ مُعَالَجَتِهِمُ الْحِمْيَةُ، بِمَنْعِ المَرِيضِ عَنِ الأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالْكَلام عِدّة أَيَّام، فَيَبْرَأُ وَيَصِحُّ بِذٰلِكَ لَا غَيْر. فتَبَيَّنَ لَكَ بِهٰذِهِ الجُملَةِ أَنَّ التَّقْوَى مِلَاكُ الأمْرِ وَجَوْهَرُهُ، وَأَهْلها هُمُ الطَّبَقَةُ الْعُلْيَا مِنَ الْعُبَّادِ، فَعَلَيْكَ بِبَذْلِ المَجْهُودِ في ذٰلِكَ وَصَرْفِ كُلِّ الْعِنايَةِ إليهِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَلِيُّ التَّوْفِيق.

---

(١) أي أن للعبادة شطرين.

(٢) ـ هذا جزء من حديث سبق ذكره (ص ٢٠٣) بلفظ: (... وأصل كل دواء الأزمة) أي الحمية. وقال العراقي: لم أجد له أصلاً. (راجع التعليق على هذا الحديث ص ٢٠٣ حاشية (٢).

ـ وأورد السخاوي في المقاصد الحسنة هذا الحديث بلفظ: (المعدة أصل الداء والحمية رأس الدواء) وقال: لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ، بل هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب أو غيره. وهو عند ابن أبي الدنيا في الصمت من جهة وهب بن منبه قال: أجمعت الأطباء على أن رأس الطب الحمية.

ثم قال السخاوي: لا يعرف هذا من كلام النبي ﷺ، إنما هو من كلام عبد الملك بن سعيد بن انجر.

وفي الحاشية: رواه العقيلي من طريق الحميدي عن سفيان عن عبد الرحمن بن عبد الملك عن أبيه.

(انظر المقاصد الحسنة ص ٣٨٩، الحديث رقم ١٠٣٥).

فصل
في رعاية الأعضاء الأربعة
العين واللسان والبطن والقلب

مراعاة أعضاء البدن

ثُمَّ رَاعِ هٰذِهِ الأَعْضَاءَ الأَرْبَعَةَ الَّتِي هِيَ الأُصُولُ:

الأَوَّلُ: الْعَيْنُ وَحَسْبُكَ فِيهَا أَنَّ مَدَارَ أَمْرِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا عَلَى الْقَلْبِ، وَأَنَّ خَطَرَ الْقَلْبِ وَشُغْلَهُ وَفَسَادَهُ فِي الأَكْثَرِ مِنَ الْعَيْنِ؛ وَلِذٰلِكَ قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ لَمْ يَمْلِكْ عَيْنَهُ فَلَيْسَ لِلْقَلْبِ عِنْدَهُ قِيمَةٌ».

وَالثَّانِي: اللِّسَانُ وَحَسْبُكَ أَنَّ فِيهِ رِبْحَكَ وَغَنِيمَتَكَ وَثَمَرَةَ تَعَبِكَ وَاجْتِهَادِكَ كُلِّهِ لِلْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ، وَأَنَّ خَطَرَ الْعِبَادَةِ وَإِحْبَاطَهَا وَإِفْسَادَهَا فِي الأَكْثَرِ مِنْ قِبَلِ اللِّسَانِ، بِالتَّصَنُّعِ وَالتَّزَيُّنِ وَالْغِيبَةِ وَنَحْوِهَا، يُتْلِفُ عَلَيْكَ بِلَفْظَةٍ فِي لحظةٍ وَاحِدَةٍ مَا تَعِبْتَ فِيهِ سَنَةً بَلْ خَمْساً وَعَشْراً؛ وَلِذٰلِكَ: مَا شَيْءٌ أَحَقَّ بِطُولِ السِّجْنِ مِنَ اللِّسَانِ.

[٤٦/ب] وَفِيمَا رُوِيَ/ أَنَّ أَحَدَ الْعُبَّادِ السَّبْعَةِ قَالَ لِيُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا يُونُسُ إِنَّ الْعُبَّادَ إِذَا اجْتَهَدُوا فِي الْعِبَادَةِ لَمْ يَتَقَوَّوا عَلَى عِبَادَتِهِم بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنَ الصَّبْرِ عَنْ الْكَلَامِ فِي فَصْلٍ طَوِيلٍ؛ ثُمَّ عَادَ إِلَى ذٰلِكَ

فَقَالَ: وَلاَ يَكُونَنَّ عِنْدَكَ شَيْءٌ آثَرُ مِنْ حِفْظِ لِسَانِكَ، وَلاَ تكُونَنَّ لِشَيْءٍ أَعْنَى بِهِ مِنْ سَلاَمَةِ صَدْرِكَ، فَهٰذِهِ هٰذِهِ[1].

ثُمَّ اُذْكُرِ النفس الَّتِي تكَلَّمْتَ فِيهَا بِفُضُولٍ، مَا كَانَ يَضُرُّكَ لَوْ قُلْتَ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، فَرُبَّمَا يُوَافِقُ سَاعَةً عَزِيزَةً فَيَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ فَتَرْبَحُ راشداً، أَوْ قُلْتَ: لاَ إِلٰهَ إِلاّ اللَّهُ، فَيَكُونُ لَكَ مِنَ الأَجْرِ وَالذُّخْرِ مَا لاَ يُحِيطُ بِهِ وَهْمُكَ، أَوْ تَقُولَ: أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَرُبَّمَا يَتَّفِقُ حسنُ نَظَرٍ، فَيَسْتَجِيبُ اللَّهُ تَعَالَى دَعْوَتَكَ، فَنَجَوْتَ مِنْ بَلِيَّةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ؛ أَلاَ يَكُونُ مِنَ الْخُسْرَانِ الْعَظِيمِ وَالْغَبْنِ الْفَظِيعِ، أن تُفَوِّت نَفْسَكَ كُلَّ هٰذِهِ الْفَوَائِدِ الْكَرِيمَةِ، وَتَجْعَلَ نَفْسَكَ وَوَقْتَكَ في فُضُولٍ، أَقَلُّ مَا يَلْزَمُكَ فِيهِ اللَّوْمُ وَالْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ ،وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ: [المديد]:

إغتنم ركعتين في ظُلْمَةِ اللّيـ ـلِ إذَا كنتَ فارغاً مُسْتريحاً
وَإذَا مَا هَمَمْتَ بِالنُّطْقِ في الْبَا طِلِ فَاجْعَلْ مَكَانَهُ تَسْبِيحَاً
فاغتنامُ السكوتِ أَفضلُ من خَوْ ضٍ وإنْ كنت بالحديث فصيحاً

وَالثَّالِثُ: الْبَطْنُ؛ وَحَسْبُكَ أَنَّ مَقْصُودَكَ الْعِبَادَة، وَأَنَّ الطَّعَامَ بَذْرُ الْعَمَلِ وَمَاؤُهُ مِنْهُ يَبْدُو وَيَنْبتُ، وَإِذَا خَبُثَ الْبذرُ لاَ يَطِيبُ الزَّرْعُ؛ بَلْ فِيهِ خَطَرُ أَنْ يُفْسِدَ عَلَيْكَ أَرْضَكَ، فَلاَ تُفْلحُ أبداً. وَمِنْ ذٰلِكَ[2] مَا بَلَغَنَا عَنْ مَعْرُوفٍ الكَرْخِي[3] أَنَّهُ قَالَ: إِذَا صُمْتَ فَانْظُرْ عَلَى أَيِّ

---

(١) أي هذه القضية الموصوفة بالأهمية والكمال.

(٢) أي من خطر الإفساد الذي لا فلاح بعده.

(٣) هو أبو محفوظ معروف بن فيروز، الصالح المشهور، كان من المشايخ الكبار، وكان مشهوراً بإجابة الدعاء. وهو أستاذ السري السقطي، وأخباره ومحاسنه أكثر من أن تحصى. توفي ببغداد سنة ٢٠٠ هـ وقيل ٢٠١ هـ. سير أعلام النبلاء ٩/ ٣٣٩.

شَيْءٍ تُفْطِرُ، وَعِنْدَ مَنْ تُفطِرُ، وَطَعَامَ مَنْ تَأْكُلُ؟ فَكَمْ مَنْ يأْكُلُ أَكْلَةً فَيَنْقَلِبُ قَلْبُهُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ، لاَ يَعُودُ إِلَى حَالِهِ أَبَداً. وَكَمْ مِنْ أَكْلَةٍ حَرَمَتْ قِيامَ لَيْلَةٍ، وَمِنْ نَظْرَةٍ مَنَعَتْ قِرَاءَةَ سُورَةٍ؛ وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَأْكُلُ فَيُحْرَمُ بِهَا قِيَامَ[1] سَنَةٍ.

فَعَلَيْكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ بِالنَّظَرِ الدَّقِيقِ وَالاِحْتِيَاطِ الْبَالغِ الشَّدِيدِ فِي قُوتِكَ، إِنْ كَانَ لَكَ عِنَايَةٌ بِقَلْبِكَ، وَهِمَّةٌ فِي عِبَادَةِ رَبِّكَ. هٰذَا فِي أَصْلِ الْقُوتِ، حَتَّى يَكُونَ مِنْ وَجْهِهِ[2]. ثُمَّ عَلَيْكَ الأَدَبُ/ فِيهِ، [٤٧/أ] وَإِلاّ كُنْتَ حَمَّالاً لِلطَّعَامِ، مُضَيِّعاً لِلأَيَّامِ؛ وقَدْ عَلِمْنَا يَقِيناً، بَلْ رَأَيْنَا عِيَاناً أَنَّ الْعِبَادَةَ لاَ تَجِيءُ مِنْهَا شَيْءٌ إِذَا امْتَلأَ الْبَطْنُ؛ وَإِنْ أَكْرَهْتَ النَّفْسَ عَلَى ذٰلِكَ، وَجَاهَدْتَ بِضُرُوبِ الْحِيَلِ فَلاَ يَكُونُ لِتِلْكَ الْعِبَادَةِ لَذَّةٌ ولاَ حَلاَوَةٌ، وَلِذٰلِكَ قِيلَ: لاَ تَطْمَعْ بِحَلاَوَةٍ فِي الْعِبَادَةِ مَعَ كَثْرَةِ الأَكْلِ؛ وَأَيُّ نُورٍ فِي نَفْسٍ بِلا عِبَادَةٍ وَفِي عِبَادَةٍ بِلاَ لَذَّةٍ وَلاَ حَلاَوَةٍ؟ وَلِهٰذَا المَعْنَى قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ رَحِمَهُ اللَّهُ: صَحِبْتُ أَكْثَر رِجَالِ اللَّهِ تَعَالَى فِي جَبَلِ لُبْنَانَ فَكَانُوا يُوصُونَنِي: إِذَا رَجَعْتَ إِلَى أَبْنَاءِ الدُّنْيَا فَعِظْهُمْ بِأَرْبَعِ خِصَالٍ: قُلْ لَهُمْ (١) مَنْ يُكْثِرِ الأَكْلَ لاَ يَجِدُ لَذَّةَ الْعِبَادَةِ، (٢) وَمَنْ يَنَمْ كَثِيراً لاَ يَجِدْ فِي عُمْرِهِ بَرَكَةً، (٣) وَمَنْ طَلَبَ إِرْضَاءَ النَّاسِ فَلاَ يَنْتَظِرُ رِضَاءَ اللَّهِ، (٤) وَمَنْ يُكْثِرِ الْكَلاَمَ بِفُضُولٍ وَغِيبَةٍ فَلاَ يَخْرُجُ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى دِينِ الإِسْلاَمِ.

وَعَنْ سَهْلٍ[3] رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ: جِمَاعُ الْخَيْرِ كُلِّهِ فِي هٰذِهِ

---

(١) في الأصل: صيام، ولعلّ الأصح ما اثبتناه، وهو ما ورد في باقي النسخ.

(٢) أي من وجه الحلال.

(٣) سهل بن عبد الله التستري، شيخ العارفين وأحد أئمة القوم. لم يكن له في وقته =

الْخِصَالِ الأَرْبَعِ، وَبِهَا صَارَتِ الأَبْدَالُ أَبْدَالاً: إِخْمَاصُ الْبُطُونِ، وَالصَّمْتُ، وَالاعْتِزَالُ عَنِ الْخَلْقِ، وَسَهَرُ اللَّيْلِ.

وَقَالَ بَعْضُ العَارِفِينَ: الْجُوعُ رَأْسُ مَالِنَا. وَمَعْنَاهُ أَنَّ مَا يَحْصُلُ لَنَا، مِنْ فَرَاغٍ وَسَلامَةٍ وَعِبَادَةٍ وَحَلاَوَةٍ وَعِلْمٍ نَافِعٍ، بِسَبَبِ الْجُوعِ وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ لِلَّهِ سبْحَانَهُ.

(والرابع القلب)[1]: وَأَمَّا الْقَلْبُ فَحَسْبُكَ أَنَّهُ أَصْلُ الْكُلِّ، إِنْ أَفْسَدْتَهُ فَسَدَ الْكلُّ، وَإِنْ أَصْلَحْتَهُ صَلَحَ الْكُلُّ، إِذْ هُوَ الشَّجَرَةُ، وَسَائِرُ الأَعْضَاءِ أغْصَانٌ، وَمِن الشَّجَرَةِ تَشْرَبُ الأَغْصَانُ وَتَصْلُحُ وَتَفْسُدُ، وَإِنَّهُ المَلِكُ، وَسَائِرُ الأَعْضَاءِ تَبَعٌ وَأَرْكَانٌ، وَإِذَا صَلَحَ المَلِكُ صَلَحَتِ الرَّعِيَّةُ، وَإِذَا فَسَدَ فَسَدَت، فَإِذَنْ صَلاَحُ الْعَيْنِ وَاللِّسَانِ وَالْبَطْنِ وَغَيْرِهِ دَلِيلٌ عَلى صَلاَحِ الْقَلْبِ وَعِمْرَانِهِ، وَإِذَا رَأَيْتَ فِيهِ خَلَلاً وَفَسَاداً، فَاعْلَمْ أَن ذٰلِكَ مِنْ خَلَلٍ فِي الْقَلْبِ وَفَسَادٍ وَقَعَ ثَمَّ، بَلِ الْفَسَادُ فِيه أَكْثَرُ، فَاصْرِفْ عِنَايَتَكَ إِلَيْهِ فَأَصْلِحْهُ يَصْلُح الْكُلّ بِمَرَّةٍ وَتَسْتَرِيح.

ثُمَّ أَمْرُهُ دَقِيقٌ عَسِيرٌ إِذْ هُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى الْخَوَاطِرِ، وَهِيَ لَيْسَت تَحْتَ يَدِكَ، وَالامْتِنَاعُ مِنَ اتِّبَاعِهَا مَجْهُودُ طَاقَتِكَ، فَفِيهِ أَقْصَىٰ المَشَقَّةِ، وَلِهٰذَا الْمَعْنَى صَارَ إِصْلاَحُهُ أَشَدَّ عَلَى أَهْلِ الاجْتِهَادِ، وَالاهْتِمَامُ بِهِ أَكْثَرَ عِنْدَ ذَوِي الْبَصَائِرِ.

= نظير في المعاملات والورع. وكان صاحب كرامات.
لقي في الحج ذا النون المصري وصحبه. وتوفي التستري في سنة ٢٨٣ هـ وهو على أصح الأقوال. سير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٣٠.

(١) زيادة يقتضيها حسن تنسيق الكلام.

[٤٧/ب] وَعَنْ أَبِي يَزِيدَ رَحِمَهُ اللَّهُ/ أَنَّهُ قَالَ: عَالَجْتُ قَلْبِي عَشْراً وَلِسَانِي عَشْراً وَنَفْسِي عَشْراً فَكَانَ قَلْبِي أَصْعَبَ الثَّلَاثَةِ، فَهٰذِهِ هٰذِهِ.

الاهتمام بالخصال السيئة

ثُمَّ عَلَيْكَ بِالِاهْتِمَامِ بِالْخِصَالِ الأَرْبَعِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا: مِنَ الأَمَلِ، وَالْعَجَلَةِ فِي الأُمُورِ، وَالْحَسَدِ، وَالْكِبْرِ؛ وَإِنَّمَا خَصَّصْنَا هٰذِهِ الأَرْبَعَةَ مِنْ بين سَائِرِ الْخِصَالِ فِي هٰذَا الْمَوْضِعِ، وَحَضَضْنَا عَلَى الاحْتِرَاسِ مِنْهَا لِأَنَّهَا عِلَلُ الْقُرَّاءِ[1] خَاصَّةً، إِذْ هِيَ تَعْتَرِي سَائِرَ النَّاسِ عُمُوماً وَالْقُرَّاءَ خُصُوصاً فَتَكُونُ أَقْبَحَ وَأَشْنَعَ.

تَرَى الرَّجُلَ الْقَارِىءَ يُطَوِّلُ الأَمَلَ وَيَعُدُّهُ نِيَّةَ خَيْرٍ، فَيُوقِعُهُ فِي الْكَسَلِ وَالتَّوَانِي في الْعَمَلِ.

وَتَرَاهُ يَسْتَعْجِلُ فِي تَحْصِيلِ مَنَازِلِ الْخَيْرِ فَيَنْقَطِعُ عَنْها، أَوْ في إِجَابَةِ دُعَاءٍ صَالِحٍ فَيُحْرَمُ ذٰلِكَ، أَوْ فِي الدُّعَاءِ عَلَى أَحَدٍ بِسُوءٍ فَيَنْدَمُ عَلَى ذٰلِكَ، كما ذُكِرَ عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ[2].

وَتَرَاهُ يَحْسُدُ نُظَرَاءَهُ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، حَتَّى رُبَّمَا يَبْلغُ مِنْهُ ذٰلِكَ مَبْلَغاً يَحْمِلُهُ عَلَى قَبَائِحَ وَفَضَائِحَ لَا يَقْدُمُ عَلَيْهَا فَاسِقٌ وَلَا فَاجِرٌ؛ وَلِهٰذَا الْمَعْنَى قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: مَا أَخَافُ عَلَى دَمي إِلَّا

---

(١) القرّاء: يعني بهم المتعلمين والعلماء لأنهم يقرأون الكتب، فتشبّ نفسهم خصال سيئة ذكرها المصنّف.

(٢) إشارة إلى الآية الكريمة في دعائه على قومه: ﴿ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً، إنّك إن تذرهم يُضلوا عبادك، ولا يلدوا إلاّ فاجراً كفّاراً﴾، [نوح: ٢٦، ٢٧].

من الْقُرَّاءِ وَالْعُلَمَاءِ، فَاسْتَنْكَرُوا مِنْهُ ذٰلِكَ، فَقَالَ: مَا أَنَا قُلْتُهُ إِنَّما قَالَهُ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ[1].

وَعَنْ عَطَاءٍ[2] قَالَ: قَالَ لِي الثَّوْرِيُّ: ٱحْذَرُوا الْقُرَّاءَ وَاحْذَرُونِي مَعَهُمْ، فَلَوْ خَالَفْتُ أَوَدَّهُمْ لِي فِي رُمَّانَةٍ، فَأَقُولُ إِنَّهَا حُلْوَةٌ ويَقُولُ إِنَّهَا حَامِضَةٌ مَا أَمِنْتُهُ أَنْ يَسْعَى بِدَمِي إلى سُلْطَانٍ جَائِرٍ.

وَعَنْ مَالِك بن دِينَار[3] أَنَّهُ قَالَ: إِنِّي أَقْبَلُ شَهَادَةَ الْقُرَّاءِ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ وَلاَ أَقْبَلُ شَهَادَةَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ لِأَنِّي وَجَدْتُهُمْ حُسَّاداً.

---

(١) إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود... بن النَّخَع (بفتحتين) قبيلة من مذحج. توفي سنة ٩٦ هـ. تابعي، من الأئمة المشاهير. سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٢٠.

(٢) هو أبو محمد عطاء بن أبي رباح القرشي، مولاهم، المكي، مفتي الحرم، ولد بمكة في اثناء خلافة عثمان، روى عن عائشة وأبي هريرة وخلْق، وروى عنه الأوزاعي وابن جريج وأبو حنيفة. توفي سنة ٢١٥ هـ عن ثمان وثمانين سنة. سير أعلام النبلاء ٥/ ٧٨.

(٣) هو أبو يحيى البصري، رضي الله عنه، من موالي بني أسامة بن لؤي القرشي. كان عالماً زاهداً كثير الورع، قنوعاً لا يأكل إلا من كسبه، وكان يكتب المصاحف بالأجرة. روي عنه أنه قال: قرأت في التوراة: إن الذي يعمل بيده طوبى لمحياه ومماته.

وله مناقب عديدة وآثار شهيرة. وقد توفي سنة ١٣٢ هـ في البصرة. سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٦٢.

انظر ترجمته وأخباره في:

طبقات ابن سعد ٧/ ٢٤٣، طبقات خليفة: ٢١٦، تاريخ خليفة: ٣٦٥، التاريخ الكبير ٧/ ٣٠٩، ٣١٠، التاريخ الصغير ١/ ٣١٦، تاريخ الفسوي ٢/ ٩٦، الجرح والتعديل ٨/ ٢٠٨، تهذيب الأسماء ٢/ ٨٠، ٨١.

وَعَنِ الْفُضَيْلِ أَنَّهُ قَالَ لِابْنِهِ: اشْتَرِ لِي دَاراً بَعِيدَةً مِنَ الْقُرَّاءِ، مَا لِي وَلِقَوْمٍ إن ظَهَرَت مِنِّي زَلَّةٌ هَتَكُونِي، وَإِنْ ظَهَرَتْ عَلَيَّ نِعْمَةٌ حَسَدُونِي.

وَكَذٰلِكَ تَرَاهُ يَتَكَبَّرُ عَلَى النَّاسِ وَيَسْتَخِفُّ بِهِمْ مُصَعِّراً خَدَّهُ مُعَبِّساً وَجْهَهُ، كَأَنَّمَا يَمُنُّ عَلَى النَّاسِ بِمَا يُصَلِّي زِيَادَةَ رَكْعَتَينِ، أَوْ كَأَنَّمَا جَاءَهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى مَنْشُورٌ بِالْجَنَّةِ وَالْبَرَاءَةِ مِنَ النَّارِ، أَوْ كَأَنَّهُ اسْتَيْقَنَ السَّعَادَةَ لِنَفْسِهِ وَالشَّقَاوَةَ لِسَائِرِ النَّاسِ، ثُمَّ مَعَ ذٰلِكَ يَلْبَسُ لِبَاسَ الْمُتَوَاضِعِينَ مِنْ صُوفٍ وَغَيْرِهِ وَيَتَمَاوَتُ[1]، وَهٰذَا لَا يَلِيقُ بِالتَّرَفُّعِ وَالْكِبْرِ وَلَا يُلَائِمُهُ، بَلْ يُنَاقِضُه، وَلٰكِنِ الْأَعْمَى لَا يُبْصِرُ.

وَذُكِرَ أَنَّ فَرْقَداً السَّبَخِيَّ[2] دَخَلَ عَلَى الْحَسَنِ وَعَلَيْهِ كِسَاءٌ وَعَلَى الحَسَنِ/ حُلَّةٌ، فَجَعَلَ يَلْمَسُهَا فَقَالَ الحَسَنُ: مَا لَكَ تَنْظُر إلى ثِيَابِي، ثِيَابِي ثِيَابُ أَهْلِ الجَنَّةِ وَثِيَابُكَ ثِيَابُ أَهْلِ النَّارِ، بَلَغَنِي أَنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ أَصْحَابُ الأَكْسِيَةِ؛ ثُمَّ قَالَ الحَسَنُ: جَعَلُوا الزُّهْدَ فِي ثِيَابِهِمْ وَالكِبْرَ في صُدُورِهِم، وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ، لأَحَدكُم بِكِسَائِهِ أَعْظَمُ كِبْراً مِنْ صَاحِبِ المِطْرَفِ بِمِطْرَفِه[3]. [٤٨/أ]

---

(١) يتماوت: يظهر الموت ويدَّعيه.

(٢) هو أبو يعقوب السبخي، عابد، صدوق، ليّن الحديث، روى له الترمذي وابن ماجه. توفّي سنة ١٣١ هـ. من تلاميذ الحسن البصري.
انظر ترجمته في:
حلية الأولياء ٣/ص ٤٤ ـ ٥٠ ترجمة رقم ٢٠٥.
صفة الصفوة ٣/ ٢٧١.
طبقات الشعراني ١/ ٣٦ ترجمة رقم ٥٢.

(٣) المطرف: بكسر الميم ورفعها، رداء من حرير، مربّع، والجمع مطارف.

وَإِلى هٰذَا المَعْنَى أَشار ذُو النُّون رَحِمَهُ اللَّهُ حَيْثُ قَالَ: [الوافر]:

تَصَوَّفَ فَازْدَهَى بِالصُّوفِ جَهْلاً ... وَبعْضُ النَّاس يَلْبَسُهُ مَجَانَهْ
يُرِيكَ مَهَانَةً وَيُرِيكَ كِبْراً ... وَلَيْسَ الْكِبْرُ مِنْ شَكْلِ المَهَانَهْ
تَصَوَّفَ كَيْ يُقَالَ لَهُ أَمِينٌ ... وَمَا مَعْنَى تَصَوُّفِهِ الأَمَانَهْ
وَلَمْ يُرِدِ الإِلهَ بِهِ وَلٰكِنْ ... أَرَادَ بِهِ الطَّرِيقَ إِلَى الْخِيَانَهْ

فَلْتَحْذَرْ أَيُّهَا الرَّجُلُ مِنْ هٰذِهِ الآفاتِ الأَرْبَعِ لَا سِيَّمَا الْكِبْرَ، فَإِنَّ الثَّلَاثَ الأُوَل مداحِضُ لَوْ زَلَلْتَ فِيهَا لَوَقَعْتَ في الْعِصْيَانِ؛ وَالْكِبْرُ مَدْحَضٌ لَوْ زَلَلْتَ فِيه لَوَقَعْتَ فِي بِحَارِ الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ، وَلَا تَنْسَ حَدِيثَ إِبْلِيسَ وَفِتْنَتَهُ أَنَّهُ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ. والرُّجُوعُ إلى اللَّهِ سبحانه أَنْ يَعْصِمَنَا جَمِيعاً بِحُسْنِ نَظَرِهِ إِنَّهُ الْجَوَادُ الْكَرِيمُ.

فصل
في السُّبُل المؤدية إلى الزهد

عدم الانشغال بالدنيا

وَجُمْلَةُ الأمْرِ أنّكَ إِذَا نَظَرْتَ بِعَقْلِكَ أَيُّها الرَّجُلُ، فَعَلِمْتَ أنّ الدُّنْيَا لاَ بَقَاءَ لَها، وَأَنّ نَفْعَهَا يَفِي بِضُرِّهَا وَتَبعَاتِها، مِنْ كَدِّ الْبَدَنِ وَشُغْلِ الْقَلْبِ في الدُّنْيَا، وَالعَذَابِ الأَلِيم وَالحِسَابِ الطَّوِيلِ في الآخِرَةِ، زَهِدْتَ في فُضُولِهَا، فَلاَ تَأْخُذُ مِنْهَا إلاَّ مَا لاَ بُدَّ لَكَ مِنْهُ في عِبَادَةِ رَبِّكَ وَتَدَعُ التَّنَعُّمَ والتَّلَذُّذَ إلى الْجَنَّةِ، دَارِ النَّعِيمِ المُقِيمِ في جِوَارِ رَبِّ العَالَمِينَ، المَلِكِ الْقَادِرِ الْغَنِيِّ الكَرِيمِ.

ترك مخالطة الناس

وَعَلِمْتَ أَنّ الْخَلْقَ لاَ وَفَاءَ لَهُمْ، وَأَنّ مَؤُنَتَهُمْ أَكْثَرُ مِنْ مَعُونَتِهِمْ فِيمَا يَعْنِيكَ، وَتَرَكْتَ مُخَالَطَتَهُمْ إلاّ فِيمَا لاَ بُدّ لَكَ مِنْهُ، تَنْتَفِعُ بِخَيْرِهِمْ وَتَجْتَنِبُ ضَرَّهمْ، وَتَجْعَلُ صُحْبَتَكَ لِمَنْ لاَ تَخْسَرُ في صُحْبَتِهِ، وَلاَ تَنْدَمُ عَلَى خِدْمَتِهِ، وَأُنْسَكَ بِكِتَابِهِ وَمُلاَزَمَتِكَ إِيَّاهُ، فَيَكُونُ لَكَ بِكُلِّ حَالٍ، وَتَرى مِنْهُ كُلَّ جَمِيلٍ وَإِفْضَالٍ، وَتَجِدُهُ عِنْدَ كُلِّ نَائِبَةٍ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصلاة والسَّلاَمُ: «اَحْفَظِ اللّهَ تَجِدْهُ حَيْثُ اتَّجَهْتَ»[1].

---

(١) ـ هذا جزء من حديث طويل رواه ابن حنبل (١/٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧) عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا غلام، إني مُعَلِّمك كلمات: =

وَعَلِمْتَ أنّ الشّيْطَانَ خَبيثٌ قَدْ تَجَرَّدَ لِمُعَادَاتِك، فَٱسْتَعذْت مكايد بِرَبِّكَ الْقَادِرِ/ الْقَاهِرِ مِنْ هٰذَا الْكَلْبِ اللَّعِينِ، وَلاَ تَغْفُل عَنْ مَكَايِدِهِ [٤٨/ب] وَمَصَايِدِهِ، فَتَطْرُدَهُ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلاَ تَعْبَأَنَّ بِذٰلِكَ، فَإِنَّهُ يَسِيرٌ إِذَا ظَهَرَتْ مِنْكَ عَزِيمَةُ الرِّجَالِ، فَإِنَّهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [النحل: ٩٩]، وَلَقَدْ صَدَقَ أَبُو حَازِمٍ[١] فِيمَا قَالَ: مَا الدُّنْيَا وَمَا إِبْلِيسُ؟

أَمَّا الدُّنْيَا: فَما مَضَى فَحُلْمٌ، وَمَا بَقِيَ فَأَمَانِيُّ.

وَأَمَّا الشَّيْطَانُ: فَوَاللَّهِ لَقَدْ أُطِيعَ فَمَا نَفَعَ، وَلَقَدْ عُصِيَ فَمَا ضَرَّ.

وَعَلِمْتَ جَهَالَةَ هٰذِهِ النفس وَجِمَاحَهَا إِلى مَا يَضُرُّهَا، وَيُهْلِكُها، فَنَظَرْتَ إِلَيْهَا رَحْمَةً لَهَا نَظَرَ الْعُقَلاَءِ وَالْعُلَمَاءِ، الَّذِينَ يَنْظُرُونَ في الْعَوَاقِبِ، لاَ نَظَرَ الْجُهَّالِ وَالصِّبْيانِ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ في الْحَالِ، وَلاَ يَفْطُنُونَ لِغَائِلَةِ الأذَى وَيَفِرُّونَ مِنْ مَرَارَةِ الدواءِ وَأَلْجَمْتَهَا بِلِجَامِ التَّقْوَى، بِأَنْ تَمْنَعَها عَمَّا لاَ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ بِالحَقِيقَةِ، مِنْ فُضُولٍ وَكَلاَمٍ

= احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلاّ بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلاّ بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».

ـ كذلك رواه الترمذي (القيامة ٥٩) وقال: حديث حسن صحيح.

(١) أبو حازم، سلمة بن دينار، التابعي المدني، مولى بني مخزوم، شيخ المدينة النبوية، الزاهد، الفقيه، المشهور بالمحاسن.

روى عن سعيد بن المسيّب وعبد الله بن أبي قتادة وابن عمر وغيرهم؛ كما روى عنه ابن شهاب والسفيانان وغيرهم. وثّقه ابن معين وأحمد وأبو حاتم وابن خزيمة. توفي سنة ١٣٥ هـ. سير أعلام النبلاء ٦/٩٦.

وَنَظَرٍ وَتَلَبُّسٍ بِخَصْلَةٍ فاسِدَةٍ مِنْ طُولِ أَمَلٍ أَوْ عَجَلٍ أَوْ حَسَدِ مُسْلِمٍ، أَوْ تَكَبُّرٍ في غَيْرِ مَوْضِعٍ، أَوْ أَكْلٍ بِمَحْضِ شَهْوَةٍ وَشَرَهٍ، وَتُعْطِيهَا مَا لَيْسَ لَهَا مِنْهُ بُدٌّ وَلاَ تَخافُ مِنْهُ ضَرَراً؛ إِذْ لاَ ضَرُورَةَ إلى الْفُضُولِ، وَقَدْ وَسَّعَ اللَّهُ تَعالَى الأَمْرَ عَلَى عِبادِهِ بِرَحْمَتِهِ، وَأَغْنَاهُمْ عَنْ جَمِيعِ مَا يَضُرُّهُمْ في أَمْرِ دِينِهِم فَأَيُّ حَاجَةٍ إلى ذٰلِكَ؟ فَإِنّ الأَمْرَ كَمَا قَالَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ: إِنّ التَّقْوَى أَهْوَنُ شَيءٍ، إِذَا رَابَنِي أَمرٌ تَرَكْتُهُ، فَإِنّ النَّفْسَ تَسْتَكِينُ وَتَتَعوَّدُ مَا عَوَّدْتَهَا، وَإِنَّهَا لكمَا قال الْقَائِلُ: [الكامل]:

فَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَّبْتَهَا ... وَإِذَا تُرَدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

وَقَال آخر: [الطويل]:

هي النفس ما عَوَّدتها تَتعوَّدُ ... .

ويرُوى: هي النَّفْسُ مَا حَمّلْتَهَا تتحَمَّلُ[1].

وَقَالَ آخر: [الطويل]:

صَبَرتُ عَنِ اللّذاتِ حَتّى تَوَلَّتِ ... وَأَلْزَمْتُ نَفْسِي صَبْرَهَا فَاسْتَمَرَّتِ

وَمَا النَّفْسُ إلاّ حَيْثُ يَجْعَلُهَا الْفَتَى ... فَإِنْ أُطْعِمَتْ تَاقَتْ وَإلاّ تَسَلَّتِ

---

(١) وتمام البيت: «وللدهر أيّام تجور وتعدل» وهذا البيت يُنسبُ للمتنبي؛ وهو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي الكندي، أبو الطيب المتنبي، الشاعر الحكيم الذي بلغ صيته كل مسمع. ولد بالكوفة وإليها انتسب ونشأ بالشام ثم تنقل في البادية، وقال الشعر صبياً، وتنبأ في بادية السماوة بين الكوفة والشام وتبعه قوم، وقبل أن يستفحل أمره خرج إليه لؤلؤ أمير حمص ونائب الإخشيد فأسره وسجنه حتى تاب ورجع عن دعواه.
ووفد على سيف الدولة أمير حلب فمدحه وحظي عنده. ومضى إلى مصر فمدح كافور الإخشيدي ثم قصد العراق وفارس. وفي طريق عودته إلى بغداد قتله فاتك الأسدي. سير أعلام النبلاء ١٦/١٩٩.

فَإِذَا عَلِمْتَ الّذي وَصَفْنَاهُ وَعَمِلْتَ بِهِ كُنْتَ مِنَ الزَّاهِدِينَ في الدُّنْيَا، الرّاغِبِينَ فِي الآخِرَةِ.

وَٱعْلَمْ أَن مَنْ سُمِّي بِاسْمِ الزّاهِدِ، فَلَقَدْ سُمِّي بِأَلْفِ ٱسْمٍ مَمْدُوحٍ، وَكُنْتَ مِنَ المُنْفَرِدِينَ المُنْقَطِعِينَ إِلى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، الّذِين هُمْ أَهْلُ الأُنْسِ، خَدَمُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فتكُونُ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ: [المتقارب]:

تَشَاغَلَ قَوْمٌ بِدُنْيَاهُمُ ... وَقَوْمٌ تَخَلَّوْا لِمَوْلاَهُمُ/ [٤٩/أ]

فَأَلْزَمَهُمْ بَابَ مَرْضَاتِهِ ... وَعَنْ سَائِرِ الْخَلْقِ أَغْنَاهُمُ

إذا ذكّروا بالّذي أسلفُوا ... أذَابَ القُلُوبَ وأبكاهُمُ

فما يَعْرِفُونَ سوى حُبِّهِ ... فَوَالُوا الإِلَه فَوالاهُمُ

يَصُفّونَ بِاللَّيْلِ أَقْدَامَهُمْ ... وَعَيْنُ المُهَيْمِنِ تَرْعَاهُمُ

فَطُوبَى لَهُمْ ثُمَّ طُوبَى لَهُمْ ... إِذَا بِالتَّحِيَّةِ حَيّاهُمُ[1]

مكانة الزاهد

وَكُنْتَ مِنَ المجاهِدينَ في اللَّهِ، الْخَواصِّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، الّذِينَ قَالَ فِيهِم سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، وَكُنْتَ مِنَ المُتّقِينَ، الّذِينَ لَهُمْ سَعَادَةُ الدّارَيْنِ، وَصِرْتَ حِينَئِذٍ أَفْضَلَ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ المَلاَئِكَةِ المُقَرَّبِينَ، إِذْ لَيْسَتْ لَهُمْ شَهْوَةٌ تَدْعُو إلى قَبِيحٍ وَلاَ نَفْسٌ خَبِيثَةٌ، وَكُنْتَ قَدْ خَلَّفْتَ هٰذِهِ الْعَقَبَةَ الطَّوِيلَةَ الشَّدِيدَةَ وَرَاءَكَ وَسَبَقْتَ الْعَوَائِقَ كُلَّهَا إِلى مَقْصُودِكَ، وَلاَ يَهُولَنَّكَ فَإِنّهُ مَعَ الاسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ وَالاعْتِصَامِ بِهِ لَهَيِّنٌ.

---

(١) البيتان ١ و٢ من الأصل، والبيتان ٣و ٤ من (ب) و (ج) والبيتان ٥و ٦ من (د) و (هـ).

نَسْأَلُ اللَّهُ تعَالَى، وَهُوَ خَيْرُ مَسْئُول، أَنْ يُمدَّكَ وَإِيَّانَا بِحُسْنِ تَوْفِيقِهِ وَعَوْنِهِ وَتَيْسِيرِهِ، فَإِنَّهُ الْكَافِي لِكُلِّ مُهِمٍّ وَالاِسْتِعَانَةُ بِهِ فِي كُلِّ مُعْضِلٍ، فَبِيَدِهِ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

فَهٰذَا مَا أَرَدْنَا ذِكْرَهُ فِي هٰذَا الْبَابِ[1]، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

---

(١) أي: باب عقبة العوائق.

العقبة الرابعة
وهي عقبة العوارض

ثُمَّ عَلَيْكَ يَا طَالِبَ الْعِبَادَةِ ـ وَفَّقَكَ اللَّهُ ـ بِكِفَايَةِ الْعَوَارِضِ، الشَّاغِلَةِ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، بِسَدّ سَبِيلِهَا عَلَيكَ لِئَلاَّ تُشْغَلَ عَنْ مَقْصُودِكَ، وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّهَا أَرْبَعَةٌ:

العارض الأول: الرِّزْقُ وَمُطَالَبَةُ النَّفْسِ بِذٰلِكَ:

وَإِنَّمَا كِفَايَتُهُ فِي التَّوَكُّلِ، فَعَلَيْكَ بِالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي مَوْضِعِ الرِّزْقِ وَالْحَاجَةِ بِكُلِّ حَالٍ؛ وَذلِكَ لِأَمْرَيْنِ:

وجوب التوكّل لأمرين

١ ـ **أَحَدُهُمَا**: لتتفرَّغَ لِلْعِبَادَةِ وَيَتَمَشَّى لَكَ مِنَ الْخيْرِ حَقُّهُ؛ فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَكُنْ مُتَوَكِّلاً فَلاَ بُدَّ مِنَ ٱشْتِغَالِهِ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ بِسَبَبِ الْحَاجَةِ وَالرِّزْقِ وَالمَصْلَحَةِ، إِمَّا ظَاهِراً وَإِمَّا بَاطِناً؛ إِمَّا بِطَلَبٍ وَكَسْبٍ بِالْبَدَنِ كَعَامَّةِ الرَّاغِبِينَ، وَإِمَّا بِذِكْرٍ وَإِرَادَةٍ وَوَسْوَسَةٍ بِالْقَلْبِ كَالْمُجْتَهِدِينَ المُعَلِّقِينَ.

وَالْعِبَادَةُ تَحْتَاجُ إلى فَرَاغِ الْقَلْبِ وَالْبَدَنِ لِيَحْصُلَ حَقُّهَا؛ وَالْفَرَاغُ لاَ يَكُونُ إِلاَّ لِلْمُتَوَكِّلِينَ، بَلْ أَقُولُ: كُلُّ مَنْ هُوَ ضَعِيفُ الْقَلْبِ، لاَ يَكَادُ يَطْمَئِنُّ قَلْبُهُ إِلاَّ بِشَيْءٍ مَعْلُومٍ، فَلاَ يَكَادُ يَتِمُّ لَهُ أَمْرٌ خَطِيرٌ مِنْ دُنْيا وَآخِرَةٍ.

الدنيا وأبناؤها

وَكَثِيراً مَا سَمِعْتُ مِنْ شَيْخِي أَبِي مُحمَّدٍ يَقُولُ: إِنَّمَا الأمُورُ تمشِي فِي الْعَالَمِ لِرَجُلَيْنِ: مُتوَكِّل أَوْ مُتهوِّرٍ.

قُلْتُ: وَهٰذَا كَلاَمٌ جَامعٌ في مَعْنَاهُ.

المتهوِّر

فَإِنّ المُتَهوِّر يَقْصِدُ الأُمُورَ عَلَى قُوَّةِ عَادَةٍ وَجُرْأةِ قَلْبٍ، لاَ يَلْتَفِتُ/ إِلى صَارِفٍ يَصْرِفُهُ، أَوْ خَاطِرٍ يُضْعِفُهُ فَتَجْرِي لَهُ الأُمُورُ. [٤٩/ب]

المتوكل

وَالمُتَوَكِّلُ يَقْصِدُ الأُمُور عَلَى قُوَّةِ بَصِيرَةٍ، وَكَمَالِ يَقِينٍ وطمأنينة بِوَعْدِ اللّهِ سُبْحَانَهُ، وَتَمَام ثِقَةٍ بِضَمَانِهِ، ولاَ يَلْتَفِتُ إِلَى إِنسَانٍ يُخَوِّفُهُ أَو شَيْطَانٍ يُوَسْوِسُهُ، فَيَفُوزَ بِمَقَاصِدِهِ وَيَظْفَرَ بِمَطَالِبِهِ.

الضعيف

وَأَمَّا الْخَلْقُ الضَّعِيفُ أَبَداً، يَكُونُ بَيْنَ تَوَكُّلٍ وَتَرَدُّدٍ، وَفُتُورٍ وَتَحَيُّرٍ، كَالْحِمَارِ في مَعْلَفِهِ وَالدَّجَاجِ في قَفَصِهِ، يَرْمُقُ مَا تعَوَّدَ مِنْ صَاحِبِهِ، لاَ يَكَادُ يَنْفَكُّ مِنْ ذٰلِكَ؛ تَقَاعَدَتْ نَفْسُهُ عَنْ مَعَالِي الأُمُورِ، وَانْقَطَعَتْ هِمّتُهُ، فَلاَ يَكَادُ يَقْصِدُ أَمْراً شَرِيفاً، وَإِنْ قَصَدَهُ فَلاَ يَكَادُ يَظْفَرُ بِهِ وَلاَ يَتِمُّ لَهُ ذٰلِكَ، أَلاَ تَرَى أَصْحَابَ الْهِمَمِ مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، لَمْ يَنَالُوا مَرْتَبَةً كَبِيرَةً وَمَنْزِلَةً خَطِيرَةً إِلاَّ بِانْقِطَاعِ قُلُوبِهِمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ.

الملوك

أَمَّا المُلُوكُ، فَيُبَاشِرُونَ الْحُرُوبَ وَيُكَافِحُونَ الأَعْدَاءَ، إِمَّا هُلْكاً وَإِمّا مُلْكاً، حَتّى تَحْصُلَ لَهُمْ مَرْتَبَةُ المُلْكِ وَعَقْدُ الْوِلاَيَةِ.

وَقِيلَ: إِنّ مُعَاوِيَةَ[١]، رضي اللّهُ عنه، لَمّا نَظَرَ إِلى

---

(١) القرشي الأموي المكي، مؤسس خلافة بني أمية. قيل: إنه أسلم قبل أبيه وقت عمرة القضاة ولكن ما ظهر إسلامه إلا يوم فتح مكة.

حدّث عن النبي، وكتب له مرات يسيرة، وحدّث أيضاً عن أخته أم المؤمنين أم =

الْعَسْكَرَيْنِ[1] يَوْمَ صِفِّينَ قَالَ: مَنْ أَرَادَ خَطِيراً خَاطَرَ بِعَظِيمَتِهِ.

التجار

وأَمَّا التُّجّارُ فَيَرْكَبُونَ المَهَالِكَ بَرّاً وَبَحْراً، وَيَطْرَحُونَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فِي المَقَاطِعِ شَرْقاً وَغَرْباً، وَيُوَطِّنُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى أَحَدِ الأَمْرَيْنِ: إِمّا فَوْتِ الأَرْوَاحِ، وَإِمّا حُصُولِ الأَرْبَاحِ، حَتّى يَحْصُلَ لَهُمْ بِذٰلِكَ كُلُّ رِبْحٍ عَظِيمٍ وَمَالٍ جَسِيمٍ وَعِلْقٍ نَفِيسٍ.

السّوقي

وَأَمَّا السُّوقِيُّ، الّذِي قَدْ ضَعُفَ قَلْبُهُ وَرَقّ عَزْمُهُ، فَلاَ يَكَادُ يَقْطَعُ الْقَلْبَ عَنْ عَلاَقَتِهِ مِنْ نَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهُوَ مِنْ بَيْتِهِ إِلَى دُكّانِهِ طُولَ عُمْرِهِ، لاَ يَصِلُ إِلَى مرْتَبَةٍ شَرِيفَةٍ كَالْمُلُوكِ، وَلاَ إِلَى رِبْحٍ عَظِيمٍ كَالتُّجّارِ المُخَاطِرِينَ، فَإِن نَالَ فِي سُوقِهِ رِبْحَ دِرْهَمٍ عَلَى بِضَاعَتِهِ فَذَلِكَ لَهُ كَثِيرٌ، وَذٰلِكَ لِتَعَلُّقِ قَلْبِهِ بِشَيْءٍ معْلُومٍ، فَهٰـذَا فِي الدُّنْيَا وَأَبْنَائِهَا.

أبناء الآخرة

وَأَمَّا أَبْنَاءُ الآخِرَةِ، فَرَأسُ مَالِهِمْ هٰذِهِ الْخَصْلَةُ الّتِي هِيَ التّوَكُّلُ وَقَطْعُ الْقَلْبِ عَنِ الْعَلاَئِقِ، لَمَّا أَحْكَمُوهَا وَأَعطوهَا (حَقَّها)[2]، تَفَرّغُوا لِعِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وتَمَكّنُوا من التّفَرُّدِ عَنِ الْخَلْقِ، وَالسِّيَاحَةِ فِي الأَرْضِ، وَاقْتِحَامِ الْفَيَافِي، واَسْتِيطَانِ الْجِبَالِ وَالشِّعَابِ، فَصَارُوا أَقْوِيَاءَ الْعِبَادِ وَرِجَالَ الدِّينِ وَأَحْرَارَ النّاس وَمُلُوكَ الأَرْضِ بِالْحَقِيقَةِ، يَسِيرُونَ حَيْثُ يَشَاءُونَ وَيَقْصِدُون مِنَ الأُمُورِ الْعِظَامِ عِلماً وَعِبَادَةً مَا يَشَاءُونَ، لاَ عَائِقَ لَهُمْ وَلاَ حَاجِزَ لَهُمْ دُونَهُم، وكُلُّ الأَمَاكِنِ لَهُمْ/ [٥٠/أ]

= حبيبة وعن أبي بكر وعمر. ولي الخلافة بعد أن تنازل له الحسن بن عليّ عنها، وحكم حوالي عشرين سنة من ٤١ هـ حتى ٦٠ هـ. سير أعلام النبلاء ٣/١١٩.

(١) أي عسكره وعسكر علي بن أبي طالب.

(٢) ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

وَاحِدٌ، وكُلُّ الأَزْمَانِ عِنْدَهُمْ وَاحِدٌ، وَإِلَيْهِ الإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ عليه الصلاة والسلام: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَكْرَمَ النّاسِ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ، ومَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَقوى النَّاسِ فَلْيَتوكَّلْ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَغْنَى النَّاسِ فَلْيَكُنْ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ أَوْثَقَ مِنْهُ بما فِي يَدِهِ»[1].

وَعَنْ سُلَيْمَانَ الْخَوّاصِ: لَوْ أَنَّ رجُلاً تَوَكَّلَ على اللَّهِ سُبْحَانه بِصِدْقِ النّيَّةِ، لاَحْتَاجَ إِلَيْهِ الأَمَرَاءُ فَمَنْ دُونَهُمْ، وَكَيْفَ يَحْتَاجُ وَمَوْلاَهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ؟

وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ الْخَوّاصِ[2] قَالَ: لَقِيتُ غُلَاماً فِي التِّيْهِ كَأَنَّهُ

---

(١) ذكر السيوطي في الجامع الصغير (٢/٥٢٦) النصف الأول من هذا الحديث فقط، عن ابن أبي الدنيا في كتاب التوكل بروايته عن ابن عباس، ورَمَزَ لحسنه.
ـ وقال المناوي (٦/ ١٥٠) ورواه بهذا اللفظ الحاكم والبيهقي وأبو يعلى وإسحاق وعبد بن حميد والطبراني وأبو نعيم كلهم من طريق هشام بن زياد بن أبي المقدام عن محمد القرظي عن ابن عباس. وقال البيهقي في الزهد: تكلموا في هشام بسبب هذا الحديث.
ـ وقال العراقي (إحياء ٤/ ٢٤٤): رواه الحاكم والبيهقي من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف.
ـ ورواه أبو نعيم في الحلية (٣/٢١٨) بتمامه بلفظ: (من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن أحبّ أن يكون أكرم الناس فليتق الله، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يديه...) والحديث طويل وله بقيّة.

(٢) أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الخوّاص، من أقران الجُنَيْد، وله في التوكل والرياضات حَظّ كبير. توفي بالريّ سنة ٢٩١ هـ.
انظر ترجمته وأخباره في:
طبقات الصوفيه ص ٢٨٤، حلية الأولياء ١٠/٣٢٥ ـ ٣٣١، صفة الصفوة ٤/ ٨٠ ـ ٨٤.

سَبِيكَةُ فِضَّةٍ، قُلْتُ: إلى أَيْنَ يَا غُلاَمُ؟ قالَ إلى مَكَّةَ، قُلْتُ: بِلا زَادٍ وَلا رَاحِلَةٍ؟ فَقَالَ: يَا ضَعِيفَ الْيَقِينِ، الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى حِفْظِ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ يقدر أَنْ يُوَصِّلَنِي إِلَى مَكَّةَ بِلاَ زَادٍ وَلاَ رَاحِلَةٍ. فَلَمَّا دَخَلْتُ مَكَّةَ فَإِذَا هُوَ في الطَّوافِ يَقُولُ: [مجزوء الرجز].

يَـا نَفْـسُ سِيحِـي أَبَـداً وَلاَ تُحِبِّـي أَحَـدَا
إلاَّ الجليـلَ الصَّمَـدَا يَـا نَفْـسُ مُـوتِـي كَمَـدَا

فَلَمَّا رَآنِي قَالَ: يَا شَيْخُ أَنْتَ بَعْدُ عَلَى ذٰلِكَ الضَّعْفِ من اليقينِ؟

وَقَالَ أَبُو مُطِيعٍ[1] لِحَاتِمٍ الأصَمّ، بَلَغَنِي أَنَّكَ تَقْطَعُ المَفَاوِز بالتَّوَكُّلِ مِنْ غَيْرِ زَادٍ، قَالَ حَاتِمٌ: زَادِي أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ، قَالَ: مَا هِيَ؟ قَالَ: أَرَى الدُّنْيَا والآخِرَةَ مَمْلَكَةً لِلهِ عزّ وجلّ، وَأَرَى الْخَلْقَ كُلَّهُم عَبِيدَ اللَّهِ وَعِيَالَهُ، وَأَرَى الأَرْزَاقَ وَالأَسْبَابَ كُلَّهَا بِيَدِ اللَّهِ، وَأَرَى قَضَاءَ اللَّهِ نَافِذاً فِي جَمِيعِ أَرْضِ اللَّهِ. وَلَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قَالَ: [الوافر]:

أَرَى الـزُّهَّـادَ فـي رَوْحٍ وَرَاحَـهْ قُلُـوبُهُـمُ عَـنِ الـدُّنْيَـا مُـزَاحَـهْ
إِذَا أَبْصَـرْتَهُـمْ أَبصَـرْتَ قَـوْمـاً مُلُـوكَ الأَرْضِ سِيمَتُهُـمْ سَمَـاحَـهْ

خطر ترك التوكل

٢ ـ وَأَمَّا الأَمْرُ الثَّانِي الذي ٱقْتَضَى التَّوَكُّلَ عَلَى ٱللهِ سُبْحَانَهُ في هٰذَا الشَّأْنِ فَهُوَ مَا فِي تَرْكِهِ مِنَ ٱلْخطَرِ الْعَظِيمِ والأَمْرِ الْكَبِيرِ.

---

(١) واسمه الحكم بن عبد الله صاحب أبي حنيفة، كان بصيراً بالرأي، علاّمة كبير الشأن تولىّ قضاء بلخ، وكان مرجئاً. وقد لقي عبد الرحمن بن حرملة وغيره، وهو ضعيف عندهم في الحديث، وكان مكفوفاً. مات سنة ١٩٩ هـ. انظر ترجمته وأخباره في طبقات ابن سعد ٧/ ٣٧٤، ميزان الاعتدال ١/ ٥٧٤ ـ ٥٧٥، لسان الميزان ٢/ ٣٣٤ ـ ٣٣٦.

قُلْتُ: أَلَيْسَ الله سُبْحَانَهُ قَرَنَ الرِّزْقَ بِالْخلْقِ فقَال: ﴿خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ [الروم: ٤٠] فدَلَّ أَنَّ الرِّزْقَ مِنَ الله لاَ غَيْرُ كالْخلْقِ؛ ثُمَّ لَمْ يَكْتَفِ بِالدَّلاَلَةِ حَتَّى وَعَدَ فقَال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات: ٥٨] ثُمَّ لَمْ يَكْتَفِ بِالْوَعْدِ حَتَّى ضَمِنَ فقَالَ: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] ثُمَّ لَمْ يَكْتَفِ بِالضَّمَانِ حَتَّى أَقْسَمَ فقَالَ: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات: ٢٣].

ثُمَّ لَمْ يَكْتَفِ بِذٰلِكَ كُلِّهِ حَتَّى أَمَرَ بِالتَّوَكُّلِ وَأَبْلَغَ وَأَنْذَرَ فقَالَ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨] وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣] فَمَنْ لَمْ يَعْتَبِرْ قَوْلَهُ، وَلَمْ يَكْتَفِ بِوَعْدِهِ، وَلَمْ يَطْمَئِنَّ إِلَى ضَمَانِهِ، وَلَمْ يَقْنَعْ بِقَسِمِهِ، ثُمَّ لَمْ يُبَالِ/ بِأَمْرِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، فانْظُرْ مَاذَا يَكُونُ حَالُهُ، وانْتبه أَيُّ مِحْنَةٍ تَجِيءُ مِنْ هٰذا؟ وَهٰذِهِ وَاللَّهُ مُصِيبَةٌ شَدِيدَةٌ وَنَحْنُ مِنْهَا فِي غَفْلَةٍ عَظِيمَةٍ. [٥٠/ب]

وَلَقَدْ قالَ الصَّادِقُ الأَمِينُ عليه الصلاة والسلام لِابْنِ عُمَرَ: «كَيفَ بكَ إِذَا بَقِيتَ بَيْنَ قَوْمٍ يَخْبِئُونَ رِزْقَ سَنَتِهِمْ لِضَعْفِ الْيَقِينَ»(١).

وَعَنِ الْحسَنِ: لَعَنَ الله أَقْوَاماً أَقْسَمَ لَهُمْ رَبُّهُمْ فَلَمْ يُصَدِّقُوهُ.

وَقالَتِ المَلاَئِكَةُ عِنْدَ نُزُولِ هٰذِهِ الآيةِ: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الذاريات: ٢٣] هَلَكَتْ بَنُو آدَمَ، أَغْضَبُوا الرَّبَّ حَتَّى أَقْسَمَ لَهُمْ عَلَى أَرْزَاقِهِمْ.

---

(١) قال الكديري (٢/ ٨٠): رواه أحمد والطبراني والبيهقي من حديث ابن عمر.

وَعَنْ أُوَيْس الْقَرَنِيِّ أنه قَال: لَوْ عَبَدْتَ الله عِبَادَةَ أَهْلِ السَّمٰوات وَالأَرْضِ لما تَقَبَّلَ مِنْكَ حَتَّى تُصَدِّقَهُ، قِيلَ: وَكَيْفَ تُصَدِّقُهُ؟ قالَ تَكُونُ آمِناً بِمَا تكَفَّلَ الله لَكَ مِنْ أَمْرِ رِزْقِكَ، وَترَى جَسَدَكَ فارِغاً لِعِبَادَتِهِ.

وَلَقَدْ قالَ لَهُ هَرِمُ بنُ حَيّان: أَيْنَ تَأْمُرني أَنْ أُقِيمَ؟ فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إلَى الشَّامِ، قَالَ هَرِمٌ: كَيْفَ المَعِيشَةُ بِها؟ قَال: أُف لِهٰذِهِ الْقُلُوبِ، لَقَدْ خالَطَهَا الشَّك فَمَا تَنْفَعُهَا المَوعِظَةُ.

وَبَلَغَنَا أَنّ نَبَّاشاً تَابَ عَلَى يدي أَبِي يَزِيدَ الْبِسْطَامِيِّ رَحِمَهُ الله فَسَأَلَهُ أَبُو يَزِيدَ عَنْ حَالِهِ فَقَالَ: نَبَشْتُ أَلْف قَبْرٍ فَلَمْ أَرَ وُجُوهَهُمْ إلى الْقِبْلَةِ إِلاَّ رَجُلَيْنِ، فَقَالَ أَبُو يَزِيدَ: مَسَاكِينُ أُولٰئِكَ تُهَمَةُ الرِّزْقِ حَوَّلَتْ وُجُوهَهُمْ عنِ الْقِبْلَةِ.

وَذَكَرَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الصَّلاَحِ فَسَأَلَهُ عَنْ حَالِهِ؟ فَقَالَ: هَلْ سَلِمْتَ بِإِيمانِكَ؟ فَقالَ إِنَّما يَسْلَمُ الإِيمَانُ لِلْمُتَوكِّلِينَ.

نَسْأَلُ الله أَنْ يُصْلِحَنا بِفَضْلِهِ، ولاَ يُؤَاخِذَنَا بِماَ نَحْنُ أَهْلُهُ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَهٰذِهِ هٰذِهِ.

حقيقة التوكل

فَإِنْ قُلتَ: فَأَخبِرناَ مَا حَقِيقَةُ التَّوَكُّلِ وَحُكْمُهُ وَمَا يَلْزَمُ الْعَبْدَ فِيه من أَمْرِ الرِّزْقِ؟

فاعْلَمْ أَنَّهُ يَتَبَيَّنُ لَكَ هٰذَا في أَرْبَعَةِ فُصُولٍ: بَيَانِ لَفْظَةِ التَّوَكُّلِ، وَمَوْضِعِهِ، وَحَدِّهِ، وَحِصْنِهِ.

اللفظة

- **فَأَمَّا اللَّفْظَةُ**: فَإِنَّما هيَ تَوَكُّلٌ تَفَعُّلٌ مِنَ الْوَكَالَةِ، فَالْمُتَوَكِّلُ

عَلَى أَحَدٍ هُوَ الَّذِي يَتَّخِذُهُ بِمَنْزِلَةِ الْوَكِيلِ الْقَائِمِ بِأَمْرِهِ، الضَّامِنِ لِإِصْلَاحِهِ، الْكَافِي لَهُ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ وَاهْتِمَامٍ، فَهٰذِهِ جُمْلَتُهُ.

الموضع

● **وَأَمَّا الْمَوْضِعُ** فَاعْلَم أَنَّ التَّوَكُّلَ اسْمٌ مُطْلَقٌ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ:

أَحَدُهَا فِي مَوْضِعِ الْقِسْمَةِ، وَهِيَ الثِّقَةُ بِاللهِ تعالى، بِأَنَّهُ لَا يَفُوتُكَ مَا قُسِمَ لَكَ فَإِنَّ حُكمَهُ لَا يَتَبَدَّلُ، وَهٰذَا وَاجِبٌ بِالسَّمْعِ.

وَالثَّانِي فِي مَوْضِعِ النُّصْرَةِ، وَهُوَ الِاعْتِمَادُ وَالْوَثَاقَةُ بِنَصْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَكَ إِذَا نَصَرْتَهُ وَجَاهَدْتَ، قال الله تَعَالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وَقَالَ: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] وقال/ تَعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧﴾ [الروم: ٤٧] وَهٰذَا وَاجِبٌ بِالْوَعْدِ. [٥١/أ]

وَالثَّالِثُ: فِي مَوْضِعِ الرِّزْقِ وَالْحَاجَةِ، بِأَنَّ اللهَ تَعَالى مُتَكَفِّلٌ بِمَا يُقِيمُ بِنْيَتَكَ لِخِدْمَتِهِ، وَتَتَمَكَّنَ بِهِ مِنْ عِبَادَتِهِ، قال الله تَعَالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

وَقَالَ الصَّادِقُ الأَمِينُ ﷺ: «لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً»(١). وَهٰذَا فَرْضٌ

---

(١) ــ رواه ابن حنبل (١/ ٣٠، ٥٢) عن عمر بن الخطاب بلفظ: (لو أنكم توكلتم) و(لو أنكم تتوكلون).

ــ ورواه ابن ماجه في سننه (٢/ ١٣٩٤) باب التوكل، الحديث رقم (٤١٦٤) عن عمر بن الخطاب أيضاً.

ــ ورواه الحاكم في مستدركه (٤/ ٣١٨) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي على ذلك.

=

الرزق موضع التوكل

لَازِمٌ لِلْعَبْدِ، بِدَلِيلِ الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ جَمِيعاً، وَهٰذَا هُوَ الأَشْهَرُ وَالأَغْلَبُ مِنْهُ، أَعْنِي التَّوَكُّلَ في مَوْضِعِ الرِّزْقِ، وَهُوَ المَقْصُودُ مِنْ هٰذَا الْفَصْلِ، فَمَوْضِعُ التَّوَكُّلِ إِذَن هُوَ الرِّزْقُ وَهُوَ الرِّزْقُ المَضْمُونُ فِيمَا قال الْعُلَمَاءُ بِالله، وَإِنَّما يَتَّضِحُ لَكَ هٰذَا بِبَيَانِ أَقْسَامِ الرِّزْق.

أقسام الرِّزق

فَاعْلَمْ أَنَّ الرِّزْقَ أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ: مَضْمُونٌ، وَمَقْسُومٌ، وَمَمْلُوكٌ، وَمَوْعُودٌ.

المضمون

فَالمَضْمُونُ هُوَ الْغِذَاءُ وَمَا بِهِ قَوَامُ الْبِنْيَةِ دُونَ سَائِرِ الأَسْبَابِ، فالضَّمَانُ مِنَ الله تَعَالى لِهٰذَا النَّوْعِ، وَالتَّوَكُّلُ يَجِبُ بِإِزَائِهِ بِدَلِيلِ الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ، لأَنَّ الله تَعَالى كَلَّفَنَا خِدْمَتَهُ وَطَاعَتَهُ بِأَبْدَانِنا، فَضَمِنَ مَا يَسُدُّ خَلَلَ الْبِنْيَةِ لِنَقُومَ بِمَا كَلَّفَنَا.

أسباب ضمان الرزق

وَقَالَ بَعْضُ مَشَايِخِ الْكَرَّامِيَّةِ[1] كَلَاماً حَسَناً عَلَى أَصْلِهِ: إِنَّ ضَمَانَ أَرْزَاقِ الْعِبَادِ وَاجِبٌ في حُكْمِ الله تَعَالى لِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ سَيِّدٌ وَنَحْنُ الْعَبِيدُ، وَعَلَى السَّيِّدِ كِفَايَةُ مُؤْنَةِ الْعَبِيدِ، كَمَا أَنَّ على الْعَبِيدِ خِدْمَةُ السَّيِّدِ.

= ـ ورواه الترمذي في الزهد، وقال: حسن صحيح.

ـ ونقل الكديري في سراج الطالبين (٢/ ٨٧) عن الزبيدي قوله: (رواه أيضاً ابن المبارك وأبو داود الطيالسي في الزهد، والنّسائي وأبو يعلى وابن حبان والبيهقي كلهم من حديث عمر رضي الله عنه.

(١) الكرامية: فرقة من المشبّهة، شبّهوا الله بالمخلوقات، وهم أصحاب عبد الله بن محمد بن كرام.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ خَلَقَهُمْ مُحْتَاجِينَ إلى الرِّزْقِ، وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ سَبِيلاً إلى طَلَبِهِ، إِذْ لاَ يَدْرُونَ مَا هُوَ رِزْقُهُمْ، وَأَيْنَ هُوَ، وَمَتَى هُوَ؟ لِيَطْلُبُوهُ بِعَيْنِهِ مِنْ مَكانِهِ، وَفي وَقْتِهِ لِيَصِلُوا إِلَيْهِ، فَوَجَبَ أَنْ يَكْفِيَهُمْ أَمْرَ ذٰلِك وَيُوصِّلَهُمْ إِلَيْهِ.

وَالثَّالِثُ: أَنَّهُ كَلَّفَهُمُ الْخِدْمَة، وَطَلَبُ الرِّزْقِ شَاغِلٌ عَنْهَا، فَوَجَبَ أَنْ يَكْفِيَهُمُ المُؤْنَةَ لِيَتَفَرَّغُوا لِلخِدْمَةِ.

وَهَذَا كلاَمُ مَنْ لَمْ يُحِطْ بِأَسْرَارِ الرُّبُوبِيَّةِ. وَالْقَائِلُ بِأَنَّ عَلَى ٱللهِ وَاجِبٌ تَائِهٌ، وَقَدْ أَوْضَحْنَا فِي فَنِّ الْكَلاَمِ فَسَادَهُ، وَلْنَرْجِعْ إلى المَقْصُودِ مِنْ غَرَضِنَا.

المقسوم

٢ ــ وَأَمَّا الرِّزْقُ المَقْسُومُ: فَهُوَ مَا قَسَمَهُ الله سُبحَانَهُ وَكَتَبَهُ فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ، مَا يَأْكُلُهُ وَيَشْرَبُهُ وَيَلْبَسُهُ كُلُّ وَاحِدٍ بِمِقْدَارٍ وَوَقْتٍ مُؤَقَّتٍ، لاَ يَزِيدُ وَلاَ يَنْقُصُ، وَلاَ يَتَقَدَّمُ وَلاَ يَتَأَخَّرُ عَمَّا كُتِبَ بعَيْنِهِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الرِّزْقُ مَقْسُومٌ مَفْرُوغٌ مِنْهُ لَيْسَ تَقْوَى تَقِيٍّ بِزَائِده وَلاَ فُجُورُ فَاجِرٍ بِنَاقِصِهِ»[1].

المملوك

٣ ــ وَأَمَّا المَمْلُوكُ: فَمَا يَمْلِكُهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أَمْوالِ الدُّنْيَا [٥١/ب] عَلَى/ حَسَبِ مَا قَدَّرَ الله تَعالى وَقَسَمَ لَهُ أَن يَمْلِكَهُ وَهُوَ مِنْ رِزْقِ الله

---

(١) ــ ذكره السخاوي في المقاصد الحسنة (ص١١٣) بأطول من ذلك برواية العسكري عن ابن مسعود مرفوعاً، (الحديث رقم ٢٢٤) وعلق السخاوي على هذا الحديث قائلاً: (وقوله في حديث ابن مسعود: ولا فجور فاجر بناقصه) يعارض ظاهره ظاهر حديث: (أن الرجل ليحرم الرزق بذنب يصيبه) وقد تكلم السخاوي بإسهاب عن ذلك عند ذكره حديث : (إن الله لا يعذب بقطع الرزق) (حديث رقم ٢٣٦) كما بين أن إسناده ضعيف.

تَعَالى، قَالَ تعالى: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ [البقرة: ٢٥٤] أَيْ مِمَّا مَلَّكْنَاكُم.

٤ ــ وَأَمَّا المَوْعُودُ: فَهُوَ مَا وَعَدَ الله المُتَّقِينَ من عباده بِشَرْطِ التَّقْوَى حَلَالاً مِنْ غَيْرِ كَدّ، قالَ ٱللهُ تَعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣].

الموعود

فَهٰذِهِ أَقْسَامُ الرِّزْقِ، وَالتَّوَكُّلُ إِنَّما يَجِبُ بِإِزَاء المَضْمُونِ مِنْهَا، فَاعْلَمْ ذٰلِكَ.

● وَأَمَّا حَدُّ التَّوَكُّلِ: فَقَدْ قَالَ بَعْضُ شُيُوخِنَا: إِنَّهُ ٱتِّكَالُ الْقَلْبِ إِلَى الله بِالِانْقِطَاعِ إِلَيْهِ وَاليأس عَمَّا دُونَهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: حِفْظُ الْقَلْبِ إِلى الله بِمَوْضِعِ المَصْلَحَةِ، بِتَرْكِ تَعْلِيقِهِ على شَيْءٍ دُونَهُ.

حدُّ التوكّل

قَالَ الشَّيْخُ أَبُو عُمَرَ[1] رَحِمَهُ الله: التَّوَكلُ تَرْكُ التعليقُ، وَالتَّعَليقُ ذِكْرُ قِوَامِ بِنْيَتِكَ بشَيءٍ دُونَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ.

---

(١) أراد به أبا عمر محمد بن إبراهيم الزجاجي النيسابوري، جاور بمكّة سنين كثيرة، ومات بها. صحب الجُنَيْد وأبا عثمان والنوري والخوّاص ورُوَيْماً. مات بمكّة سنة ٣٤٨ هـ (سراج الطالبين ٢/ ٩٧).

وانظر ترجمته وأخباره في:

طبقات الصوفية ص ٤٣١ ـ ٤٣٣، الحلية ١٠/ ٣٧٦، المنتظم لابن الجوزي ٦/ ٣٩١.

والجُنَيْد هو الزاهد المشهور، والإمام القدوة المحدّث، أبو القاسم شيخ الصوفية. كان مولده سنة ست وستين وأربع مئة. ومات في سنة سبع وأربعين وخمس مئة. =

قالَ شَيْخي الإِمَامُ رَحِمَهُ الله: التَّوَكُّلُ وَالتَّعْلِيقُ ذِكْرَانِ، فالتَّوَكُّلُ هُوَ ذِكْرُ قِوَام بِنْيَتِكَ مِنْ قِبَلِ الله تعالى، وَالتَّعْلِيقُ ذِكْرُ قِوَامِهَا عَمَّنْ دُونَ الله تَعَالَى. وَالأَقاوِيلُ عِنْدِي تَرْجِعُ إِلى أَصْلٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ أَنْ تُوَطِّنَ نفسك عَلَى أَنَّ قِوَامَ بِنْيَتِكَ وَسَدَّ خَلَّتِكَ وَكِفَايَتِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنَ الله عَزَّ وَجَلَّ لاَ من أَحَدٍ دُونَ الله، وَلاَ بِحُطَام مِنَ الدُّنْيَا، وَلاَ بِسَبَبٍ مِنَ الأَسْبَاب، ثُمَّ الله تعالى إنْ شَاء سَبَّبَ لَهُ مَخْلُوقاً أَوْ حُطَاماً، وَإِنْ شَاء كَفَاهُ بِقُدْرَتِهِ دُونَ الأَسْبَابِ وَالْوَسَائِطِ، وَإِذَا ذَكرْتَ ذٰلِكَ بِقَلْبِكَ وَتَوَطَّنْتَ عَلَيْهِ فَانْقَطَعَ الْقَلْبُ عَنِ المَخْلُوقِينَ وَالأَسْبَابِ بِمَرَّة إِلى الله سُبْحَانَهُ وَحْدَهُ، فَقَدْ حَصَّلَ التَّوَكُّلَ حَقَّهُ، فَهٰذَا حَدُّهُ.

حِصن التوكّل

● **وَأَمَّا حِصْنُ التَّوَكُّلِ الْبَاعِثُ عَلَيْهِ**، فَهُوَ ذِكْرُ ضَمَانِ الله تعالى، وَحِصنُ حِصْنِهِ ذِكْرُ جَلاَلِ الله تَعَالى وَكَمَالِهِ في عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَنَزَاهَتِهِ عَنِ الْخُلْفِ وَالسَّهْوِ وَالْعَجْزِ وَالنَّقْصِ، فَإِذَا وَاظَبَ الْعَبْدُ عَلَى هٰذِهِ الأَذْكَارِ بَعَثَتْهُ عَلَى التوكل على اللّٰهِ سُبْحَانَهُ في أَمْرِ الرِّزْقِ.

طلب الرزق

فَإِنْ قِيلَ: فَهَلْ يَلْزَمُ الْعَبْدَ طَلَبُ الرِّزْقِ بِحَالٍ؟

فَاعْلَمْ أَنَّ الرِّزْق المَضْمُونَ الَّذي هُوَ الْغِذَاءُ وَالْقِوَامُ لاَ يُمكِنُنَا

= قيل عنه: كان فقيهاً فاضلاً ومحدّثاً صدوقاً موصوفاً بالعبادة. سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٧٢.

طَلبُهُ، إِذْ هُوَ شَيءٌ مِنْ فِعْلِ الله سُبْحَانَهُ بالْعَبْدِ، كَالحَيَاةِ وَالمَوْتِ، لاَ يَقْدِرُ الْعَبْدُ عَلَى تَحْصِيلِهِ وَلاَ دفْعِهِ.

وَأَمَّا المَقْسُومُ مِنَ الأَسْبَابِ فَلاَ يَلْزَمُ الْعَبْدَ طَلَبُهُ، إِذْ لاَ حَاجَةَ لِلْعَبْدِ إلى ذٰلِكَ، وَإِنَّمَا حَاجَتُهُ/ إلى المَضْمُونِ، وَهُوَ مِنَ الله تَعالى، [٥٢/أ] وَفي ضَمَانِ الله.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالى: ﴿وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] فالْمُرَادُ بِهِ الْعِلْمُ وَالثَّوَابُ، وَقِيلَ: هُوَ رُخْصَةٌ، إذْ هُوَ أَمْرٌ وَارِدٌ بَعْدَ الْحَظْرِ، فَيَكُونُ بِمَعْنَى الإِبَاحَةِ، لاَ بِمَعْنَى الإِيجابِ وَالإِلْزَام.

فَإِنْ قِيلَ: لٰكِنْ لِهٰذَا الرِّزْقِ المَضْمُونِ أَسْبَابٌ، فَهلْ يَلْزَمُنَا طَلبُ الأَسْبَابِ؟

قِيلَ لَهُ: لاَ يَلْزَمُكَ ذٰلِكَ، إِذْ لاَ حَاجَةَ لِلْعَبْدِ إِلَيْهِ، إِذِ الله سُبْحَانَهُ يَفْعَلُ بِسَبَبٍ وَبِغَيْرِ سَبَبٍ، فَمِنْ أَيْنَ يَلْزَمُنَا طَلَبُ السَّبَبِ؟ ثُمَّ إِنَّ الله تَعَالَى ضَمِنَ لَكَ ضَماناً مُطلقاً مِنْ غَيْرِ شَرْطِ الطَّلَبِ وَالْكَسْبِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وجلَّ: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦] ثُمَّ كَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يَأْمُرَ الْعَبْدَ بِطَلَبِ مَا لاَ يَعْرِفُ مَكَانَهُ فَيَطْلُبُهُ، إِذْ لاَ يَعْرِفُ أَيُّ سَبَبٍ مِنْهَا رِزْقُهُ الَّذِي يَتَنَاوَلُهُ لاَ غَيْرُ، وَالَّذِي يَصِيرُ سَبَبَ غِذَائِهِ وَتَرْبِيَتِهِ لاَ غَيْرُ، فَالْوَاحِدُ مِنَّا لاَ يَعْرِفُ ذَلِكَ السَّبَبَ بعَيْنِهِ وَمِنْ أَيْنَ يَحْصُلَ لَهُ، فَلاَ يَصِحُّ تَكْلِيفُهُ، فَتَأَمَّلْ رَاشِداً، فَإِنَّهُ بَيِّنٌ.

ثُمَّ حَسْبُكَ أَنَّ الأَنْبِيَاءَ، صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِمْ، وَالأَوْلِيَاءَ المُتَوَكِّلِينَ، لَمْ يَطْلُبُوا رِزْقاً في الأَكْثَرِ والأَعَمِّ، وَتَجرَّدُوا لِلْعِبَادَةِ، وَبِالإِجْمَاعِ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا تَارِكِينَ لأَمْرِ ٱلله تَعالى، وَلاَ عَاصِينَ لَهُ

تَعَالى في ذٰلِكَ، فتبَيَّنَ لَكَ أَنَّ طَلَبَ الرِّزْقِ وَأَسْبَابِهِ لَيسَ بِأَمْرٍ لاَزِمٍ لِلْعَبْدِ.

فإنْ قُلْتَ: هَلْ يَزِيدُ الرِّزْقُ بِالطَّلَبِ وَهلْ يَنْقُصُ بِتَرْكِ الطَّلَبِ؟ فَكَلاَّ، فَإِنَّهُ مَكْتُوبٌ في اللَّوْحِ المَحْفُوظِ، مُقَدَّرٌ وَمُؤَقَّتٌ، وَلاَ تَبْدِيلَ لِحُكْمِ الله، وَلاَ تَغْيِيرَ لِقِسْمَتِهِ وَكِتَابَتِه.

هٰذَا هُوَ الصَّحِيحُ عِنْدَ عُلَمَائِنَا رَضِي الله عَنْهُمْ، خِلاَف مَا ذهَبَ إلَيْه بَعْضُ أَصْحَابِ حَاتِمٍ وَشَفِيقٍ[1]، قالُوا: إِنَّ الرِّزْقَ لاَ يزِيدُ وَلاَ يَنْقُصُ بِفِعْلِ الْعَبْدِ، لكِنِ المَالَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، وَهٰذا فاسِدٌ، لِأَنَّ الدَّلِيلَ في المَوْضِعَيْنِ وَاحِدٌ، وَهُوَ الْكِتَابَةُ وَالْقِسْمَة، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]. وَلَوْ كَانَ الطَّلَبُ يَزِيدُ وَالتَّرْكُ يَنْقُصُ، لَكَانَ لِلأَسَى وَالْفَرَحِ مَوْضِعٌ إذا هُوَ قَصَّرَ وَتَوَانَى حَتَّى فَاتَهُ، وَجَدَّ وَشَمَّرَ حَتَّى حَصَّلَهُ، وَقالَ ﷺ لِلسَّائِلِ: «هَاكَ لَوْ لَمْ تَأْتِهَا لأَتَتْكَ»[2].

طلب الثواب

فَإِنْ قِيلَ: فالثَّوَابُ وَالْعِقَابُ أَيْضاً مَكْتُوبٌ في اللَّوْحِ المَحْفُوظِ، ثُمَّ يَلْزَمُنَا طَلَبُه ويَزِيدُ بِالطَّلَبِ وَيَنْقُصُ بتَرْكِه.

---

(١) شفيق البلخي:
أبو علي شفيق بن إبراهيم البلخي، من مشايخ خراسان. كان إماماً في الزهد وهو أستاذ حاتم الأصم. وله أقوال وحِكَم ومواعظ جليلة. سير أعلام النبلاء ٩/٣١٣.

(٢) ــ وفي رواية الإحياء (٤/٢٥٧): (خُذْها) والمعنى واحد.
ــ قال العراقي: أخرجه ابن حِبّان في كتاب روضة العقلاء من رواية هذيل بن شرحبيل، ووصله الطبراني عن هذيل عن ابن عمر، ورجاله رجال الصحيح.

فاعْلَمْ: أَنّ طَلَبَ الثّوابِ إنَّما وَجَبَ لِأنّ الله تَعالى أَمَرَ بِهِ أَمْراً حَتْماً/ وَأَوْعَدَ عَلَى تَرْكِهِ وَلَمْ يَضْمَنِ الثّوَابَ عَلَى غَيْرِ فِعْلٍ مِنّا، [٥٢/ب] فَزيادَةُ الثّوَابِ وَالْعِقَابِ بِفِعْلِ الْعَبْدِ، فَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا في نُكْتَةٍ، وَهِيَ مَا قالَهُ بَعْضُ عُلَمائِنَا: إنَّ المَكْتُوبَ في اللَّوحِ المَحفُوظ قِسْمَانِ:

ما كُتِبَ في اللوح

قِسْمٌ هو مَكْتُوبٌ مُطْلَقاً مِنْ غَيْرِ شَرْطٍ وَتَعْليقٍ بِفعْلِ الْعَبْدِ، وَهُوَ الأَرْزَاقُ وَالآجالُ، أَلاَّ تَرَى كَيْفَ ذَكَرَهُمَا الله مُطْلَقاً غيْرَ مَشْرُوطٍ، قَالَ الله تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] وَقالَ تَعالى: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يونس: ٤٩] وَقال صَاحِبُ الشَّرْعِ عَلَيْهِ الصلاة والسَّلاَمُ: «أَرْبَعةٌ قَدْ فُرِغَ مِنْهُنَّ: الْخَلْقُ، وَالْخُلُقُ، وَالرِّزْقُ، وَالأجَلُ»[1].

وَقِسْمٌ مَكْتَوبٌ بِشَرْطٍ مُعَلّقٍ، مَشْرُوطٌ بِفِعْلِ الْعَبْدِ، وَهُوَ الثّوَابُ وَالْعِقَابُ، أمَا تَرَى كَيْفَ ذَكَرَهُمَا الله تَعَالى في كِتَابِهِ مُعَلَّقاً بِفِعْلِ الْعِبْدِ. قالَ الله تَعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـٰهُمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾﴾ [المائدة: ٦٥] (وهذا بيّنٌ فاعلمه)[2].

---

(١) ـ أورده السيوطي في الجامع الصغير (٢/ ١٧٢ حديث رقم ٥٨٤٨) بلفظ: (فرغ إلى ابن آدم من أربع: الخَلق، والخُلق، الرزق، والأجل) ونسبه للطبراني في معجمه الأوسط عن ابن مسعود، ورمز لصحته.
ونقل العلامة المناوي في فيض القدير (٤/ ٤٢٩) عن الهيثمي قوله: فيه عيسى بن المسيب البجلي، وهو ضعيف عند الجمهور، ووثقه الدراقطني في سننه، وضعّفه في غيرها.

(٢) عبارة ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

فَـإنْ قِيلَ: فَنَحْنُ نَجِدُ الطَّـالِـبِينَ يَجِدُونَ الأَرْزَاقَ وَالأَمْـوَالَ، وَالتارِكينَ يَعْدِمُونَ وَيَفْتَقِرُونَ.

قِيلَ لَهُ: كَأَنَّكَ لاَ تَجِدُ مَعَ ذٰلِكَ طالِباً مَحْرُوماً فقيراً، أو فَارِغاً مَرْزُوقاً غَنِيّاً، بَلْ إنّ هٰذَا هُوَ الأَكْثَرُ، لِتَعْلَمَ أَنّ ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ الْعَلِيم، وَتَدْبِيرُ المَلِكِ الحَكِيم. وَأَنْشَدَنِي أَبُو بَكْرٍ مَحّمدُ بنُ سَابِقٍ[1] الصِّقلّي الْوَاعِظ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بالشام: [البسيط]:

وكَـمْ قَـوِيٍّ قَـوِيٍّ فـي تَقَلُّبِـهِ ... مُهَذَّب الرَّأْيِ عَنْهُ الـرِّزْقُ مُنْحَرِفُ
وَكَـمْ ضَعِيـفٍ ضَعِيـفٌ فـي تَقَلُّبِـهِ ... كَـأَنّـهُ مِـنْ خَلِيـجِ الْبَحْـرِ يَغْتَـرِفُ
هٰـذَا دَلِيـلٌ عَلَـى أَنّ الإِلٰـهَ لَـهُ ... فـي الْخَلْقِ سِرٌّ خَفِيٌّ لَيْسَ يَنْكَشِفُ
فَاحْمَد إِلَهَكَ في ضِيقٍ وَفي سَعَةٍ ... ولا تُعـانِـدْ فَمَـا الأَرْزَاقُ تَخْتَلِـفُ

الثقة بالله

فَإنْ قُلتَ: فَهَلْ أَدْخلُ الْبَادِيَةَ بِلاَ زَادٍ؟ فأقُول: إنْ كَانَ لَكَ قُوَّةُ قَلْبٍ بِـالله وَالثِّقَـةُ الْبَـالِغَـةُ بِـوَعْـدِ الله، فَـادْخُـلْ وَإلاّ فَكُـنْ كَـالْعَـوَامِّ بِعَلاَئِقِهِمْ. وَلَقَدْ سَمِعْتُ الإِمَامَ أَبَا المَعَالِي[2] رَحِمَهُ الله يَقُولُ: إنّ مَنْ جَرَى مَعَ الله تَعَالى عَلَى عَادَةِ النَّاس، جَرَى الله مَعَهُ عَلَى مَا هُوَ عَادَةُ النَّاس/ [٥٣/أ] في كِفَايَةِ المُؤْنَةِ، وَهٰذَا كَلاَمٌ حَسَنٌ جِدّاً، وَفِيهِ فَوَائِدُ جَمَّةٌ لِمَنْ تَأَمَّلَهَا.

---

(١) الواعظ الصقلي. كان بالشام، وله شعر، ولم نعثر على ترجمته.

(٢) هو إمام الحرمين ضياء الدين عبد الملك ابن الشيخ محمد بن عبد الله بن أبي يعقوب. . . الجويني، نسبة إلى جُوَين في نيسابور. ولد عام ٤١٩ هـ وَجاور بمكة والمدينة أربع سنين يفتي ويدرّس ويجمع طرق الشافعي. ومن ثَمّ لُقّب بإمام الحرمين. ثم عاد إلى نيسابور، فبنى له الوزير نظام الدين المدرسة النظامية فيها. وبقي قريباً من ثلاثين سنة يخطب ويجلس للمناظرة والوعظ والتدريس. توفي سنة ٤٧٨ هـ. سير أعلام النبلاء ١٨/٤٦٨.

فَإنْ قُلْتَ: أَلَيْسَ الله تَعَالى يَقُولُ: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

خير الزاد التقوى

فاعْلَمْ أَنَّ فِيهِ قَوْلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ زَادُ الآخِرَةِ، وَلِذٰلِكَ قالَ: خَيْرُ الزَّادِ التقْوَى، وَلَمْ يَقُلْ حُطَامُ (الدُّنيا)[1] وَأَسْبَابُهَا.

وَالثّانِي: أَنَّهُ كَانَ قَوْمٌ لاَ يَأْخُذُونَ زَاداً في طَرِيقِ الْحَجِّ لِأَنْفُسِهِمْ اتِّكالاً عَلَى النَّاسَ، وَيَسْأَلُونَ وَيُلِحُّونَ وَيُؤْذُونَ النّاسَ، فَأُمِرُوا بِالزّادِ أَمْرَ تَنْبِيهٍ، عَلَى أَنّ أَخْذَ الزّادِ مِنْ مَالِكَ خَيْرٌ مِنْ أَخْذِ مَالِ النّاسِ وَالإتِّكَالِ عَلَيْهِمْ، وَكَذٰلِكَ نَقُولُ.

زاد المتوكل

فَإِنْ قُلْتَ: فَالمُتَوَكِّلُ هَلْ يَحْمِلُ الزّادَ في الأَسْفَارِ؟

تعلّق القلب بالله لا بالرزق

فاعْلَمْ: أَنّهُ رُبَّما يَحْمِلُ الزّادَ وَلاَ يُعَلِّقُ الْقَلْبَ بِهِ بِأَنّهُ لاَ مَحَالَةَ رِزْقُهُ، وفيه قِوَامُهُ، إِنَّما يُعَلِّقُ الْقَلْبَ بِالله تَعَالَى وَيَتَوكَّلُ عَلَيْهِ وَيقُولُ: إِن الرِّزْقَ مَقْسُومٌ مَفْرُوغ مِنْهُ، والله تَعَالَى إنْ شَاء أَقَامَ بِنيَتِي بهذا أَوْ بِغَيْرِهِ، وَرُبَّمَا يَحْمِلُ بِنِيَّةٍ أُخْرَى، بِأَنْ يُعِينَ مُسْلِماً أَوْ نَحْوِ ذٰلِكَ، وَلَيْسَ الشَّأْنُ في أَخْذِ الزّادِ وَتَرْكِهِ، إِنّمَا الشَّأْنُ في الْقَلْبِ، لاَ تُعَلِّقْ قَلْبَكَ إلاّ بِوَعْدِ الله تَعَالى وَحُسْنِ كِفَايَتِهِ وَضَمَانِهِ، فَكَمْ مِنْ حَامِلِ الزّادِ وَقَلْبُهُ مَعَ الله تَعَالى دُونَ الزّادِ، وَكَمْ مِنْ تَارِكٍ وَقَلْبُهُ مَعَ الزّادِ دُونَ الله تَعَالى، فَالشّأْنُ إذَنْ في الْقَلْبِ، فَافْهَمْ هٰذِهِ الأُصُولَ تُكْفَ المُؤْنَةَ إنْ شَاء الله تَعَالى.

---

(١) في الأصل: حطامها، والتصويب من باقي النسخ.

فَإنْ قِيلَ: فَالنَّبِيُّ ﷺ كَانَ يَحْمِلُ الزَّادَ، وَكَذٰلِكَ أَصْحَابُهُ وَالسَّلَفُ الصَّالِحُ.

يُقَالُ لَهُ: لَا جَرَمَ أَنَّ ذٰلِكَ مُباحٌ غَيْرُ حَرَامٍ إِنَّمَا الْحَرَامُ تَعْلِيقُ الْقَلْبِ بِالزَّادِ، وَتَرْكُ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ فافْهَمْ ذٰلِكَ.

ثُمَّ مَا ظَنُّكَ بِرَسُولِ الله ﷺ حَيْثُ قالَ الله تَعَالى لَهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨] أَعصَاهُ في ذٰلِكَ وَعَلَّقَ قَلْبَهُ بِطَعَامٍ أَوَ شَرَابٍ أَوْ دِرْهَمٍ أَوْ دِينَارٍ؟ كَلاَّ وَحَاشَا أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ، بَلْ كَانَ قَلْبُهُ مَعَ الله تَعَالى، وتَوَكُّلُهُ عَلَى ٱلله تَعَالى، فَإِنَّهُ الَّذِي لَمْ يَلْتَفِتْ إلى ٱلدُّنْيَا بِأَسْرِهَا وَلَمْ يَمُدَّ يَدَهُ إلى مَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الأَرْضِ كُلِّهَا وَإِنَّمَا كَانَ أَخْذُ الزّادِ مِنْهُ عليه الصلاة والسلام وَمِنَ السَّلَفِ الصَّالحِ لِنِيَّاتِ/ [٥٣/ب] الْخَيْرِ، لاَ لِمِيْلِ قُلُوبِهِمْ عَنِ الله تَعَالى إلى الزَّادِ، وَالمعْتَبَرُ الْقَصْدُ عَلى مَا أَعْلَمْنَاكَ، فَٱنْتَبِهْ مِنْ رَقْدَتِكَ.

فَإنْ قيل: أَيُّهُمَا أَفْضَلُ، أَخْذُ الزَّادِ، أمْ تَرْكُهُ؟

أخذ الزاد وتركه

فَاعْلَمْ أَنَّ هٰذَا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلاَفِ الْحَالِ، إنْ كَانَ مُقْتَدًى بِهِ يُرِيدُ أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ أَخْذَ الزَّادِ مُبَاحٌ، أَوْ يَنْوِيَ بِهِ عَوْنَ مُسْلِمٍ، أَوْ إغَاثَةَ مَلْهُوفٍ وَنَحوَ ذٰلِكَ، فَالأَخْذُ أَفْضَلُ، وَإنْ كَانَ مُنْفَرِداً، قَوِيَّ الْقَلْبِ بِالله سُبْحَانَهُ، يشْغَلُهُ الزَّادُ عَنْ عِبَادَةِ الله، فالتَّرْكُ أَفْضَلُ، فَتَفَهَّمْ هٰذِهِ الْجُمْلَةَ وَاحْتَفِظْ بِهَا رَاشِداً، وَبِالله التَّوْفِيقُ.

العارضُ الثَّاني: الأخطارُ وإرادتُها وقصُودُها:

نتيجة التفويض

وَإِنَّمَا كِفَايَتُها في التَّفْوِيض، فَعَلَيْكَ بِتَفْوِيضِ الأَمْرِ كُلِّهِ إلى ٱلله سُبْحَانَهُ وَتَعَالى وَذٰلِكَ لأَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُما: لطُمَأْنِينَةِ الْقَلْبِ في الْحَالِ، فَإِنَّ الأُمُورَ إِذَا كَانَتْ خَطِيرَةً مُبْهَمَةً، لا يُدْرَى صَلاَحُها مِنْ فَسَادِها، فَتَكُونَ مُضْطَرِبَ الْقَلْبِ هَائِمَ النَّفْسِ، لا تَدْرِي تَقَعُ فِي صَلاَحٍ أَو فَسَادٍ؛ فَإِذَا فَوَّضْتَ الأَمْرَ كُلَّهُ إِلى اللَّهِ تَعَالَى، عَلِمْتَ أَنَّكَ لاَ تَقَعُ إِلاَّ فِي صَلاحٍ وَخَيْرٍ، فَتكونَ آمِناً مِنَ الْخطَرِ مُطْمَئِنَّ الْقَلْبِ فِي الْحَالِ، وَهٰذِهِ الطُّمَأْنِينَة وَالأَمْنُ وَالرَّاحَةُ فِي الْوَقْتِ غَنِيمَةٌ عَظِيمَةٌ؛ وَكَان شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ فِي مَجَالِسِهِ كَثِيراً: دَعِ التَّدْبِيرَ إِلَى مَنْ خَلَقَكَ تَسْتَرِحْ؛ وَقَدْ أَنْشَدَ فِي ذٰلِكَ: [الخفيف]:

إِنَّ مَنْ كَانَ لَيْسَ يَدْرِي أَفِي المَحـ ... ـبُوبِ نَفْعٌ لَهُ أَوِ المَكْرُوهِ
لَحَرِيٌّ بِأَنْ يُفَوِّضَ مَا يَعْـ ... ـجِزُ عَنْهُ إِلَى الَّذِي يَكْفِيهِ
الإِلٰهِ الْبَرِّ الَّذِي هُوَ بِالرَّأْ ... فَةِ أَحْنَى مِنْ أُمِّهِ وَأَبِيهِ

وَالثَّانِي: مِنَ الأَمْرَيْنِ: لحصُولِ الصَّلاَحِ وَالْخَيْرِ في الإِسْتِقْبَالِ، وَذٰلِكَ أَنَّ الأُمُورَ بِالْعَوَاقِبِ مُبْهَمَةٌ، فَكَمْ مِنْ شَرٍ في صُورَةِ خَيْرٍ، وَكَمْ مِنْ ضُرٍّ في حِلْيَةِ نَفْعٍ، وَكَمْ مِنْ سُمٍّ في هَيْئَةِ شَهْدٍ، وَأَنْتَ الْجَاهِلُ بِالْعَوَاقِبِ وَالأَسْرَارِ، فَإِذَا أَرَدْتَ الأُمُورَ قَطْعاً وَأَخَذْتَ فِيهَا بِاخْتِيَارِكَ مُتَحَكِّماً، فَمَا أَسْرَعَ مَا تَقَعُ في هَلاَكٍ وَلاَ تَشْعُرُ.

وَلَقَدْ حُكِيَ أَنَّ بَعْضَ الْعُبَّادِ كَان يَسْأَلُ الله أَنْ يُرِيَهُ إِبْلِيسَ، فَقِيلَ لَهُ: سَلِ الله الْعَافِيَةَ، فَأَبَى إِلاَّ ذٰلِكَ، فَأَظْهَرَهُ الله تعالى لَهُ، فَلَمَّا رَآهُ الْعَابِدُ قَصَدَهُ بِالضَّرْبِ، فَقَالَ لَهُ إِبْلِيسُ: لَوْلاَ أَرَى أَنَّكَ تَعِيشُ مِائَةَ سَنَةٍ لأَهْلَكْتُكَ وعاقَبْتُكَ، فَاغْتَرَّ بِقَوْلِهِ وَقَالَ في نَفْسِهِ: إِنَّ عُمْرِي بَعِيدٌ فَأَفْعَلُ مَا أُرِيدُ ثُمَّ أَتُوبُ، فَوَقَعَ في الْفِسْقِ وَتَرَكَ الْعِبَادَةَ وَهَلَكَ وخسر./ فَفِي هٰذِهِ مَا يُنَبِّهُكَ عَلَى تَرْك الْحُكْم في إِرَادَتِكَ، واللَّجَاجِ [٥٤/أ]

في مَطْلُوبكَ، وَيُحَذِّرُكَ أَيْضاً طُولَ الأَمَلِ، فَإِنَّهُ الآفَةُ الْعَظِيمَةُ، وَلَقَدْ صَدَقَ الْقَائِلُ: [الوافر]:

أَلا يـا نفـس إنْ تـرضـي بقـوتٍ تكُـونـي حُـرة أبـداً مليَّـهْ
وَإِيَّـاكِ المَطَـامِـعَ وَالأَمَـانِـي فَكَـمْ أُمْنِيَّـةٍ جَلَبَـتْ مَنِيَّـهْ

وَأَمَّا إذَا فَوَّضْتَ أَمْرَكَ إلى الله سُبْحَانَهُ، وَسَأَلْتَهُ أن يَخْتَار لَكَ مَا هُوَ صَلاَحُكَ، لَمْ تَلْقَ إلاَّ الْخَيْرَ والسّدَادَ، وَلاَ تَقَعُ إلاَّ عَلَى الصَّلاَحِ، قالَ الله تَعالى حِكَايَةً عَنِ الْعَبْدِ الصَّالِحَ: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ [غافر: ٤٤].

أَمَا تَرَى كَيْفَ أَعْقَبَ تَفْوِيضَهُ الْوِقَايَةَ مِنَ الأَسْوَاءِ، وَالنَّصْرَ عَلَى الأَعْدَاء، وَبُلُوغَ المُرَادِ، فتَأَمَّلْ مُوَفَّقاً.

معنى التفويض

فَإِنْ قُلتَ: بيِّنْ لَنَا مَعْنَى التَّفْوِيض وَحُكْمَهُ:

فَاعْلَمْ أَنَّ هٰهُنَا فَصْلَيْنِ بِهِمَا يَتَّضِحُ الْكَلاَمُ:

أَحَدُهُما: مَوْضِعُ التَّفْوِيضِ.

موضعه

وَالثَّانِي: مَعْنَاهُ وَحَدُّهُ وَضِدُّهُ.

١ ــ أَمَّا مَوضِعُهُ: فَاعْلَمْ أَنَّ المُرَادَاتِ ثَلاَثَةٌ:

الأول: مُرَادٌ تَعْلَمُ يَقِيناً أَنَّهُ فَسَادٌ وَشَرٌّ لا شك فِيهِ الْبَتَّةَ، كَالنَّارِ وَالْعَذَابِ، وَفي الأَفْعَالِ كَالْكُفْرِ وَالْبِدْعَةِ وَالمَعْصِيَةِ، فَلاَ سَبِيلَ إلى إرَادَةَ ذٰلِكَ.

وَالثَّانِي: مُرَادٌ تَعْلَمُ قَطْعاً أَنَّهُ صَلاَحٌ كَالْجَنَّةِ وَالْإِيمَانِ وَالسُّنَّةِ

وَنَحْوِ ذٰلِكَ، فَلَكَ إرادَتُهَا بِالْحُكْمِ، لاَ مَوْضِعَ لِلتَّفْوِيض فِيهِ، إذْ لاَ خَطَرَ فِيهِ وَلاَ شَكَّ أَنَّهُ خَيْرٌ وَصَلاحٌ.

وَالثَّالِثُ: مُرَادٌ لاَ تَعْلَمُ يَقِيناً أَنّ لَكَ فِيهِ صَلاَحاً أَوْ فَسَاداً، وَذٰلِكَ نَحْوُ النَّوَافِلِ وَالمُبَاحَاتِ، فَهٰذَا مَوْضِعُ التَّفْوِيضِ، فَلَيْسَ لَكَ أَنْ تُرِيدَهَا قَطْعاً، بَلْ بِالاِسْتِثْنَاء وَشَرْطِ الْخَيْرِ وَالصَّلاَحِ؛ فَإنْ قَيَّدْتَ إرَادَتَكَ بِالاِسْتِثْنَاء فَهُوَ تَفْوِيضٌ، وَإنْ أَرَدْتَ دُونَ الاِسْتِثْنَاء فَهُوَ طَمَعٌ مَذْمُومٌ مَنْهِيٌّ عَنْهُ، فَمَوْضِعُ التَّفْوِيضِ إذَنْ كُلُّ مُرَادٍ فِيهِ الْخَطَرُ، وهُوَ أَنْ لا تَسْتَيْقِنَ صَلاَحَكَ فِيهِ.

٢ ـ وَأَمَّا مَعْنَى التَّفْوِيضِ فقالَ بَعْضُ شُيُوخِنَا: هُوَ تَرْكُ ٱخْتِيَارِ مَا فِيهِ مُخَاطَرَةٌ، إلى المُخْتَارِ المُدَبِّرِ، العالِمِ بِمَصْلَحَةِ الْخَلْقِ، لاَ إلٰهَ إلاَّ هُوَ. وَعِبارَةُ الشَّيْخِ أبي مُحَمدٍ السِّجْزِي[1] رَحِمَهُ الله: هُوَ تَرْكُ ٱخْتِيَارِ المُخَاطَرَة عَلَى المُخْتَارِ، لِيَخْتَارَ لَكَ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ. وَقَال الشَّيْخُ أَبُو عُمَرَ رَحِمَهُ الله تعالى: هُوَ/ تَرْكُ الطَّمَع، وَالطَّمَعُ هُوَ إرادَةُ الشيْءِ المُخَاطَرِ بِالْحُكْمِ، فَهٰذِهِ عِبَارَاتُ المَشَايِخِ. [٥٤/ب]

التفويض عند الغزالي

وَالَّذي نقولُهُ إنَّ التَّفْويضَ إرادَةُ أَنْ يَحْفَظَ الله تَعالَى عَلَيْكَ مَصَالِحَكَ، فِيمَا لاَ تَأْمَنُ فِيهِ الْخَطَرَ.

---

(١) الشيخ أبو محمد السجزي، (نسبة إلى سجستان على غير قياس) العلامة، شيخ الحنفية ببلخ، أبو الحسن علي بن أحمد علي السجزي ثم البلخي الزاهد عمّر العمر الطويل حتى حدّث بالكثير، وحُمِل عنه، وكان عفيفاً، حسن السيرة. قيل: مات سنة ثمان وعشرين وخمس مئة. سير أعلام النبلاء ١٩/ ٦٣٥.

الطمع ونوعاه

وَضِدُّ التَّفْوِيضِ الطَّمَعُ، وَالطَّمَعُ في الْجُمْلَةِ يَجْرِي عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: في مَعْنَى الرَّجَاء، تُرِيدُ شَيْئاً لاَ خَطَرَ فِيهِ، وَلاَ مُخَاطَرَة بِالاسْتِثْنَاءِ، وَذٰلِكَ مَمْدُوحٌ غَيْرُ مَذْمُومٍ، كَما قالَ تعالى:

﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الشعراء: ٨٢] وقَوله تَعَالَى: ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا ﴾ [الشعراء: ٥١] وَهٰذَا الْقِسْمُ لَيْسَ مِمّا نَحْنُ فِيهِ بِسَبِيلٍ هٰهُنَا.

وَالثَّانِي: طَمَعٌ مَذْمُومٌ، قالَ النَّبيُّ ﷺ: «إياكمْ وَالطَّمَعَ فَإنّهُ فَقْرٌ حَاضِرٌ»[1] وَقِيلَ: هَلاَكُ الدِّينِ وَفَسَادُهُ الطَّمَعُ، وَمِلاَكُهُ الْوَرَعُ.

---

(١) ـ ذكره السيوطي في الجامع الصغير (١/٣٩٧) برواية الطبراني في المعجم الأوسط عن جابر بلفظ: (إيّاكم والطمع، فإنه الفقر الحاضر، وإياكم وما يُعْتذر منه) وقد أشار السيوطي إلى ضعفه. (انظر الحديث رقم ٢٩٢٧) وفي فيض القدير للمناوي (٣/ ١٣٢) عن الهيثمي قال: فيه ابن حميد، مُجْمَعٌ على ضعفه.
ـ وذكر السخاوي في المقاصد الحسنة (ص ١٣٥) هذا الحديث، وأكّد ضعفه بسبب ابن حميد المجمع على ضعفه، لا سيما وقد رواه القعنبي.
ويضيف لكن له شواهد عند العسكري من حديث محمد بن زياد عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال: قيل: يا نبي الله ما الغنى؟ قال: اليأس مما في أيدي الناس، وإياكم والطمع فإنه الفقر الحاضر (راجع المقاصد الحسنة: تخريج الحديث رقم ٢٧٣).
ـ كذلك أشار الألباني إلى ضعفه (ضعيف الجامع الصغير ٢/ ٢٥٧) ورقم الحديث عنده (٢٢٠١) ورواه أيضاً الحاكم النيسابوري في مستدركه (٤/ ٣٢٦) كتاب الرقاق. عن سعد بن أبي وقاص عن أبيه عن جده قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله أوصني وأوجزْ فقال له: «عليك بالإياس مما في أيدي الناس، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر، وَصَلِّ صلاتك وأنت مودِّع، =

قالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ ٱللهُ: الطّمعُ المَذْمُومُ شيئانِ، أَحَدهُمَا: سُكُونُ الْقَلْبِ إلَى مَنْفعَةٍ مَشْكُوكَةٍ، وَالثّانِي: إرَادَةُ الشيْءِ مُخاطَرةً بالْحُكْمِ، وَهٰذِهِ الإِرَادَةُ تُقَابِلُ التّفْويض لاَ غيْرُ، فَاعْلَمْ ذٰلِكَ.

حصن التفويض

وَأمّا حِصْنُ التّفْويض فَهُوَ ذِكْرُ خطَر الأُمُورِ، وَإمْكَانِ ٱلْهَلاَكِ وَالْفَسَادِ فِيهَا، وَحِصْنُ حِصْنِهِ ذِكْرُ عَجْزِكَ عَنِ الاِعْتِصَامِ عَنْ ضُرُوبِ الْخطَرِ، وَالاِمْتِنَاعِ عَنِ الْوُقُوعِ فِيهَا، بِجَهْلِكَ وَغَفْلَتِكَ وَضَعْفِكَ، فَالمُوَاظَبَةُ عَلَى هٰذَيْنِ الذِّكْرَيْنِ، تَحْمِلُكَ عَلَى تَفْوِيضِ الأُمُورِ كُلِّهَا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعالَى، وَالتَّحَفُّظِ عَنِ الْحُكْمِ فِيهَا، وَالاِمْتِنَاعِ عَنْ إرَادَتِهَا إلاّ بِشَرْطِ الْخَيْرِ وَالصَّلاَحِ، فَهٰذه هٰذِهِ وَبِالله التَّوْفِيقُ.

الخطر الموجب للتفويض

فَإِنْ قِيلَ: مَا هٰذا الْخَطَرُ الّذِي[1] يُوجِبُونَ التّفْوِيضَ لِأَجْلِهِ في الأُمُورِ؟

فَاعْلَمْ أَنَّ الْخَطَر في الْجمْلَةِ خطَرَان:

الأول: خَطَرُ الشّكِّ بِأنّهُ يَكُونُ أَوْ لَا يَكُونُ، أوْ أَنّكَ تَصِلُ إلَيْهِ أَوْ لَا تَصِلُ، وَهٰذَا يَحْتَاجُ إلى الاِسْتِثْنَاء وَيَقَعُ في بَابِ النِّيَّةِ وَالأَمَلِ.

وَالثّانِي: خطَرُ الْفَسَادِ، بِأَنْ لَا تَسْتَيْقِنَ فِيهِ الصَّلاَحَ لِنَفْسِكَ، فَهٰذَا ٱلّذِي يُحْتَاجُ فِيهِ إلى التَّفْوِيضِ.

الخطر وأنواعه

ثُمّ ٱخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ الأَئِمّةِ في الْخَطَرِ: فَعَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّ الْخَطَرَ في الْفِعْلِ هُوَ أَنْ تَكُونَ دُونَهُ نَجَاةٌ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُجَامِعَهُ ذَنْبٌ.

= وإياك وما تعتذر منه» قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي في تعليقه على هذا الحديث: صحيح.

(١) في الأصل: الذين، والتصويب من باقي النسخ.

[٥٥/أ] والإِيمَانُ وَالإِسْتِقَامَةُ وَالسُّنَّةُ لاَ خَطَر فِيهَا، إِذْ لاَ يُمْكِنُ/ دُونَ الإِيمانِ نَجاةٌ أَلْبَتَّةَ؛ وَالاسْتِقَامَة لاَ يُجَامِعُها ذَنب، فَإِذَنْ تَصِحُّ إرَادَةُ الإِيمان وَالإِسْتِقَامَةِ بِالْحُكْم.

وَقَالَ الأُسْتاذُ[١] رَحِمَهُ اللَّهُ: الْخَطَرُ في الْفِعْلِ مَا يمْكِنُ أَنْ يَعْتَرِضَ فِيهِ مَا يَكُونُ الإِشْتِغَالُ بِالْعَارِضِ أَوْلَى مِنَ الإِقْدَام عَلَى ذٰلِكَ الْفِعْلِ؛ وَذٰلِكَ يَقَعُ فِي الْمُبَاحَاتِ وَالسُّنَنِ وَالْفَرائِضِ؛ أَلاَ تَرَى أَنَّ مَنْ تَضَيَّقَ عَلَيْهِ وَقْتُ الصّلاَةِ وَقَصَدَ أَدَاءَهَا فَقصده غَرِيقٌ أو حَرِيقٌ يُمْكِنُهُ إِنْقَاذُهُ، فالاشْتِغَالُ بِإِنْقَاذِهِ أَوْلَى مِنَ الإِقْبَالِ عَلَىٰ الصَلاَةِ؛ فَلاَ تَصِحُّ إذَنْ إِرَادَةُ المُباحَاتِ وَالنَّوَافِلِ وَالْكَثِيرِ مِنَ الْفَرَائِضِ بِالحُكْمِ.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يَفْتَرِضَ اللَّهُ عَلَى عَبْدِهِ شَيْئاً، وَيُوعِدَهُ عَلَى تَرْكِهِ، ثُمَّ لا يَكُونُ لَهُ صَلاَحٌ فِي فِعْلِهِ؟.

فاعْلَمْ أَنَّ شَيْخَنا[٢] رَحِمَهُ اللَّهُ قالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعالى لا يَأمُر العَبْدَ بِشَيءٍ إِلاَّ وَفِيهِ صَلاَحُهُ إِذَا تَجَرَّدَ عَنِ الْعَوَارِضِ، وَلاَ يُضَيِّقُ عَلَيْهِ فِعْلاً فَرْضاً بِحَيْثُ لاَ مَعْدِلَ لَهُ عَنْهُ إِلاَّ وَلَهُ فِيهِ صَلاَحٌ، وَإِنَّما رُبَّمَا يُسَبِّبُ اللَّهُ تعالى لَهُ عُذراً لأَجْلِهِ، يَكُونُ الْعُدُولُ عَنْ أَحَدِ المَأْمُورَيْنِ أَوْلى مِنَ الاشْتِغَالِ بِالآخَرِ كَما ذَكَرْنَا، فَيَكُونُ الْعَبْدُ في ذٰلِكَ مَعْذُوراً بَلْ مَأْجُوراً لاَ بِتَرْكِ هٰذَا الْفَرْضِ بَلْ بِفِعْلِ الْفَرْضِ الّذِي هُوَ أَوْلَى.

وَلَقَدْ سَمِعْتُ الإِمَامَ[٣] رَحِمَهُ اللَّهُ في هٰذه المَسْئَلَةِ يَقُولُ: إِنَّ ما

---

(١) هو أبو إسحاق الإسفراييني، إبراهيم بن محمد، المتكلّم الأصولي، الشافعي.

(٢) هو أبو بكر الورّاق، كما في سراج الطالبين ٢/١٣٣.

(٣) هو أبو المعالي الجويني إمام الحرمين.

افْتَرضَ اللَّهُ عَلَى عِبادِهِ مِنَ الصَّلاَةِ وَالْحَجِّ وَالصَّوْمِ وَنَحْوِهِ، فَفِيها صَلاحٌ لاَ مَحَالَةَ لِلْعَبْدِ، وَصَحَّتْ إِرَادَتُها بِالحُكْمِ، واتَّفَقَ رَأْيُنَا عَلَى ذٰلِكَ، فَبَقِيَ المُبَاحَاتُ وَالنَّوَافِلُ إِذَنْ في هٰذَا الْحُكْمِ؛ فاعْلَمْ ذٰلِكَ فَإِنَّهُ مِنْ غَوَامِضِ الْبَابِ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

حالات المفوِّض

فَإِنْ قِيلَ: فَهَلْ يَأْمَنُ المُفَوِّضُ الْهَلاَكَ وَالْفَسَادَ وَالدَّارُ دَارُ مِحْنَةٍ؟

فَاعْلَمْ أَنَّ في الأَغْلَبِ لاَ يُفْعَلُ بِالْمُفَوِّضِ إِلاَّ الصَّلاَحُ، وَقَدْ يُفْعَلُ بِهِ في النَّادِرِ غَيْرُ الصَّلاَحِ؛ وَلِذٰلِكَ رُبَّما يَخْذُلُهُ فَيَقَعُ عَنْ مَنْزِلَةِ التَّفْوِيضِ، وَلاَ صَلاَحَ لِلْعَبْدِ في الخِذْلاَنِ وَالْوُقُوعِ عَنْ مَنْزِلَةِ التَّفْوِيضِ، وَبِهِ قالَ الشَّيْخ أَبُو عُمَرَ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَقِيلَ: لاَ يُفْعَلُ بِالْمُفَوِّضِ إِلاَّ مَا فِيهِ صَلاَحُهُ فِيمَا فَوَّضَ إِلى اللَّهِ سُبْحَانَهُ. وَالخِذْلاَنُ وَالْقُصُورُ عَنْ مَنْزِلَةِ التَّفْوِيضِ، مِمَّا لاَ يَقعُ فِيهِ التَّفْوِيضُ، إِذْ لاَ يُشَكُّ فِي فَسَادِ ذٰلِكَ؛ وَالتَّفْوِيض إِنَّما يَقعُ فِيمَا/ يُشَكُّ فِي فَسَادِهِ وَصَلاَحِهِ، وَهٰذَا أَوْلَى الْقَوْلَيْنِ عِنْدَ شَيْخِنَا [٥٥/ب] رَحِمهُ اللَّهُ، إِذْ لوْلاَ ذٰلِكَ لَمَا قَوِيَتِ الْبَاعِثَةُ عَلَى التَّفْوِيضِ.

التفويض والاختيار

فَإِنْ قِيلَ: فَهَلْ يَجِبُ أَنْ يُفْعَلَ بِالْمُفَوِّضِ مَا هُوَ الأَفْضَلُ؟

فَاعْلَمْ أَنَّ الإِيجابَ مُسْتَحِيلٌ في حَقِّ اللَّهِ تَعَالى وَلاَ يَجبُ لِعِبادِهِ عَلَيْهِ شَيْءٌ؛ وَقَدْ يَفْعَلُ بِالعَبْدِ الأَصْلَحَ دُونَ الأَفْضَل حِكْمَةً من الله مِنْ فِعْلِهِ. أَلاَ تَرَى أَنَّهُ قَدَّرَ لِلنبيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ رضي الله عنهم أَنْ يَنامُوا طُولَ ٱللَّيْلِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ في بَعْضِ الأَسْفَارِ حَتَّى فَاتَتْهُمْ صَلاَةُ ٱللَّيْلِ وَصَلاةُ الْفَجْرِ، وَالصَّلاَةُ أَفْضَلُ مِنَ النَّوْمِ؟ وَرُبَّمَا يُقَدِّرُ لِلْعَبْدِ

الغِنَى وَالنِّعْمَةَ في ٱلدُّنْيَا، وَإِنْ كَانَ الْفَقْرُ أَفْضَلَ؛ وَيُقَدِّرُ لَهُ ٱلإِشْتِغَالَ بِالأَزْوَاجِ وَالأَوْلَادِ، وَإِنْ كَانَ التَّجَرُّدُ لِلعِبَادَةِ أَفْضَلَ، فَإِنَّهُ خَبِيرٌ بِعِبَادِهِ بَصِيرٌ.

وَهٰذَا كمَا أَنَّ الطَّبِيبَ الْحَاذِقَ النّاصِحَ يَخْتَارُ لِلْمَرِيضِ مَاءَ الشَّعِيرِ وَإِنْ كَانَ ماءُ السُّكَّرِ أَفْضَلَ وأَنْفَسَ، لَمّا عَلِمَ أَنّ صَلاَحَ عِلَّتِهِ في مَاءِ الشّعِيرِ؛ وَالْمَقْصُودُ لِلْعَبْدِ النّجَاةُ مِنَ الْهَلاَكِ، لاَ الْفَضْلُ وَالشّرَفُ مَعَ الْفَسَادِ وَالْهَلاَكِ.

التفويض والاختيار

فَإِنْ قِيلَ: هَلْ يَكُونُ المُفَوِّضُ مُخْتَاراً؟

فاعْلَمْ أَنّ الصَّحِيحَ عِنَدَ عُلَمَائِنَا أَنّهُ يَكُونُ مُخْتَاراً وَلاَ يَقْدَحُ في تَفْوِيضِهِ، وَذٰلِكَ أَنّ الْمَعْنَى فِيهِ إِذَا كَانَ لَهُ صَلاَحٌ في المفضول وَالأَفْضَلِ، فَهُوَ يُرِيدُ مِنَ ٱللَّهِ تعالى أَنْ يُسَبِّبَ لَهُ الأَفضَلَ، كَمَا أَنّ المَرِيضَ يَقُولُ لِلطَّبِيبِ: ٱجْعَلْ دَوَائِي مَاءَ السُّكَّرِ دُونَ مَاء الشّعِيرِ، إِن كَانَ لِي صَلاَحٌ فِي كِلَيْهِمَا، لِيَحْصُلَ لِي الْفَضْلُ وَالصَّلاَحُ جَمِيعاً، فَكَذٰلِكَ الْعَبْدُ إِذَا سَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ صَلاَحَهُ فِيمَا هُوَ الأَفْضَلُ وَيُسَبِّبَ لَهُ ذٰلِكَ، لِيَجْمَعَ لَهُ الفَضْلَ وَالصَّلاَحَ جَمِيعاً، وَلٰكِنْ بِشَرْطِ أَنّهُ إِن ٱخْتَارَ لَهُ ٱللّهُ الصَّلاَحَ فِي غَيْرِ الأَفْضَلِ أَنْ يَكُونَ رَاضِياً بِذٰلِكَ.

فَإِنْ قِيلَ: فَلِمَاذَا كَانَ لِلْعَبْدِ أَنْ يَخْتَارَ الأَفْضَلَ وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَخْتَارَ الأَصْلَحَ؟

بين الأفضل والأصلح

فَاعْلَمْ أَنّ الْفَرْقَ بَيْنَهُما أَنّ الْعَبْدَ يَعْرِفُ الأَفْضَلَ مِنَ الْمَفْضُولِ، وَلاَ يَعْرِفُ الصَّلاَحَ مِنَ الْفَسَادِ لِيُرِيدَهُ بِالْحُكْمِ؛ ثُمَّ مَعْنَى ٱخْتِيَارِهِ الأَفْضَلَ، أَنْ يُرِيدَ مِنَ اللّهِ تعالى أَنْ يَجْعَلَ صَلاَحَهُ فِيمَا هُوَ الأَفْضَلُ

وَيَخْتَارَ لَهُ/ ذٰلِكَ وَيُقَدِّرَه، أَنَّ لِلْعَبْدِ تَحَكُّماً فِي شَيْءٍ مِنْ ذلِكَ [٥٦/أ] فَاعْلَمْهُ.

فَهٰذِهِ جُمْلَةٌ مِنْ دَقِيقِ هٰذَا الْعِلْمِ وَأَسْرَارِهِ؛ وَلَوْلاَ أَنَّ الْحَاجَةَ مَسَّتْ إِلَيْهِ لمَا تَعرَّضْنَا لإِيرَادِهِ لأَنَّهُ يُلاَطِمُ بِحَارَ عُلُومِ المُكَاشَفَةِ، مع أَنِّي ٱقْتَصَرْتُ عَلَى النُّكْتَةِ الْمُقْنِعَةِ في هٰذَا الْكِتَاب، وَقَصدْتُ الإِيضَاحَ لِيَنْتَفِعَ بِهِ فُحُولُ الْعُلَماءِ وَالمُبْتَدِئُونَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعالى التَّوْفِيق.

العارضُ الثالث: القضاء وورُود أنواعه:

الرضا بالقضاء

وَإِنَّمَا كِفَايَتُهُ فِي الرِّضَا بِهِ فَعَلَيْكَ أَنْ تَرْضَى بِقَضَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَذٰلِكَ لِأَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: التَّفَرُّغُ لِلْعِبَادَةِ، لأَنَّكَ إِذَا لَمْ تَرْضَ بقضاء الله عَزّ وجلّ فتَكُونَ مَهْمُوماً مَشْغُولَ الْقَلْبِ أَبَداً بِأَنَّهُ لِمَ كَانَ كَذَا وكذا، وَلِمَ ذَا لا يَكُونُ كَذَا وكذا؟

فإِذَا ٱشْتَغَلَ الْقَلْبُ بِشيْءٍ مِنْ هٰذِهِ الْهُمُومِ كَيْفَ يَتَفَرَّغُ لِلْعِبَادَةِ؟ إِذْ لَيْسَ لَكَ إِلاَّ قَلْبٌ وَاحِدٌ، وَقَدْ مَلأْتَهُ مِن ٱلْهُمُومِ، بمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا. فَأَيُّ مَوْضِعٍ يكون فِيهِ لِذِكْرِ العِبَادَةِ وَفِكْرِ الآخِرَةِ.

وَلَقَدْ صَدَقَ شَفِيقٌ البلخي رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله: إِنَّ حَسْرَةَ الأُمُورِ المَاضِيَةِ وَتَدْبِيرَ الآتِيَةِ قَدْ ذهَبَتْ بِبَرَكَةِ سَاعَتِكَ هٰذِه.

الثَّانِي مِنَ الأَمْرَيْنِ: خَطَرُ مَا فِي السُّخْطِ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ تَعالى. وَلَقَدْ رَوَيْنا في الأَخْبَارِ أَنَّ نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِياءِ شَكَا بَعْضَ مَا نَالَهُ مِنَ المَكْرُوهِ إِلَى اللَّهِ سبحانه وتَعَالى، فَأَوْحَى ٱللَّهُ تَعالى إِلَيْهِ: أَتَشْكُونِي

وَلَسْتُ بِأَهْلِ ذَمٍّ وَلاَ شَكْوَى؟ هٰكَذَا بَدَا شَأْنُكَ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ فَلِمَ تَسْخَطُ قَضَائِي عَلَيْكَ؟ أَتُرِيدُ أَنْ أُغَيِّرَ الدُّنْيَا لأَجْلِكَ، أَوْ أُبَدِّلَ اللَّوْحَ المَحْفُوظَ بِسَبَبِكَ، فَأَقْضِي مَا تُرِيدُ دُونَ مَا أُرِيدُ، وَيَكُونُ مَا تُحِبُّ دُونَ مَا أُحِبُّ؟ فَبِعِزَّتِي حَلَفْتُ، لَئِنْ تَلَجْلَجَ هٰذَا في صَدْرِكَ مَرَّةً أُخْرَى، لأَسْلُبَنَّكَ ثَوْبَ النُّبُوَّةِ وَلأُورِدَنَّكَ النَّارَ وَلاَ أُبَالِي.

قُلْتُ: فَلْيَسْتَمِعِ الْعَاقِلُ هٰذِهِ السِّيَاسَةَ الْعَظِيمَةَ وَالْوَعِيدَ الْهَائِلَ مَعَ أَنْبِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ، فَكَيْفَ مَعَ غَيْرِهِمْ؟ ثُمَّ اسْتَمِعْ ما يقول: لَئِنْ تَلَجْلَجَ هذَا فِي صَدْرِكَ مَرَّةً أُخْرَى؛ فَهٰذَا فِي حَدِيثِ النَّفْسِ وَتَرَدُّدِ الْقَلْبِ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَصْرُخُ وَيَسْتَغِيثُ وَيَشْكُو أَوْ يُنَادِي بِالْوَيْلِ والثبور مِنْ رَبِّهِ عَلَى رُؤُوسِ المَلإِ وَيَتَّخِذُ لَهُ أَعْوَاناً وَأَصْحَاباً؟ وَهٰذَا/ لِمَنْ سَخِطَ مَرَّةً، [٥٦/ب] فَكَيْفَ مِمَّنْ هُوَ في السُّخْطِ عَلَى اللَّهِ تَعَالى فِي جَمِيعِ عُمْرِهِ؟

وَهَذَا لِمَنْ شَكَا إِلَيْهِ، فَكَيْفَ مَنْ شَكَا إِلى غَيْرِهِ؟ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يَعْفُو عَنَّا وَيَغْفِرَ لَنَا سُوءَ آدَابِنَا وَيُصْلِحَنَا بِحُسْنِ نَظَرِهِ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

معنى الرضا بالقضاء

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا مَعْنَى الرِّضَا بِالْقَضَاءِ وَحَقِيقَةُ ذٰلِكَ وَحُكْمُهُ؟

فَاعْلَمْ أَنَّ عُلَمَاءَنَا قالُوا: إِنَّ الرِّضَا تَرْكُ السُّخْطِ، وَالسُّخْطُ ذِكْرُ غَيْرِ مَا قَضَى ٱللَّهُ تَعَالى بِأَنَّهُ أَوْلى بِهِ وَأَصْلَحُ لَهُ فِيمَا لاَ يَسْتَيْقِنُ فَسَادَهُ وَصَلاَحَهُ، هٰذَا شَرْطٌ فِيهِ، فَاعْلَمْ ذٰلِكَ.

الشرور والمعاصي

فَإِنْ قُلْتَ: أَلَيْسَ الشُّرُورُ وَالمَعَاصِي بِقَضاءِ اللَّهِ تعالى وَقَدرِهِ، فَكَيْفَ يَرْضَى الْعَبْدُ الشَّرَّ وَيَلْزَمُهُ ذٰلِكَ؟

فَاعْلَمْ أَنَّ الرِّضَا إِنَّمَا يَلْزَمُه بِالْقَضَاءِ، وَقَضاءُ الشَّرِّ لَيْسَ بِشَرٍّ، وَإِنَّمَا الشَّرُّ هُوَ الْمَقْضِيُّ فَلَا يَكُونُ رِضاً بِالشَّرِّ.

أنواع المقضيات

وَقَدْ قَالَ شُيُوخُنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ: الْمَقْضِيَّاتِ أَرْبَعَةٌ: نِعْمَةٌ، وَشِدَّةٌ، وَخَيْرٌ، وَشَرٌّ.

فَالنِّعْمَةُ يَجِبُ الرِّضَا فِيهَا بِالْقَاضِي وَالْقَضَاءِ وَالْمَقْضِيِّ، وَيَجِبُ عَلَيْهِ الشُّكْرُ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا نِعْمَةٌ، (وإظهار المِنّة عليه بإبداء أثر النعمة)[1].

وَالشِّدَّةُ يَجِبُ الرِّضَا فِيها بِالْقَاضِي وَالْقَضَاءِ وَالْمَقْضِيِّ، وَيَجِبُ عَلَيْهِ الصَّبْرُ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا شِدَّةٌ.

وَالْخَيْرُ يَجِبُ الرِّضَا فِيهِ بِالْقَاضِي وَالْقَضَاءِ وَالْمَقْضِيِّ، وَيَجِبُ عَلَيْهِ ذِكْرُ المِنَّةِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ خَيْرٌ وَفَّقه لَهُ.

وَالشَّرُّ يَجِبُ عَلَيْهِ فِيهِ الرِّضَا بِالْقَاضِي وَالْقَضَاءِ وَالْمَقضِيِّ، مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ مَقْضِيٌّ لَا مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ شَرٌّ، وَكَوْنُهُ مَقْضِيًّا يَرْجِعُ إِلى الْقَاضِي وَالْقَضَاءِ بالْحَقِيقَةِ، وَهٰذَا كَمَا أَنَّكَ تَرْضَى مَذْهَبَ المُخَالِفِ أَنْ يَكُونَ مَعْلُوماً لَكَ لَا أَنْ يَكُونَ مَذْهَباً لَكَ؛ ثُمَّ كَوْنُهُ مَعْلُوماً يَرْجِعُ إِلى الْعِلْمِ، فَالرِّضَا وَالمَحَبَّةُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْحَقِيقَةِ لِلْعِلْمِ بِمَذْهَبِ الغير لَا بِمَذْهَبِهِ، فَكَذَلِكَ ها هنا[2].

فَإِنْ قِيلَ: فالرَّاضِي هلْ يَكُونُ مُسْتزِيداً؟

---

(١) عبارة ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

(٢) أي بالمقضيّ، كما في (د) و(هـ).

قِيلَ لَهُ: نَعَمْ بِشَرْطِ الْخَيْرِ وَالصَّلاح دُونَ الحُكْم، وَلا يُخْرِجُهُ ذٰلِكَ عَنِ الرِّضَا، بل أن يَدُلَّ عَلَى الرِّضَا فَهُوَ أَوْلَى، فإِنَّ مَنْ أَعْجَبَهُ، شَيْءٌ وَرَضِيَ ذٰلِكَ ٱستَزَادَ مِنْهُ؛ وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَضَرَ ٱللَّبَنُ يَقُول: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لنَا فِيهِ وَزِدْنَا مِنْهُ»، وَفي غَيْرِهِ يَقُولُ: «وَزِدْنَا خَيْراً مِنْهُ»[1]، وفي مَوْضِعٍ مِنَ الموْضِعَيْنِ لَمْ يَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ غيرُ/ [٥٧/أ] رَاضٍ بِمَا قَدَّرَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ مِنْ ذٰلِكَ.

فَإِنْ قُلْتَ: لَمْ يُذْكَرْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ الاسْتِثْنَاءُ وَشَرْطُ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ.

فَاعْلَمْ أَنَّ هٰذِهِ الأُمُورَ إِنَّمَا تَكُونُ بِالْقَلْبِ، وَأَنَّ مَا (يُقَالُ)[2] بِاللِّسَانِ عِبَارَةٌ عَنْ ذٰلِكَ، فَلاَ مُعْتَبَرَ بِتَرْكِ عِبَارَتِهِ مَعَ حُصُولِهِ بِالْقَلْبِ، فَاعْلَمْ ذٰلِكَ مُوفقاً راشداً.

العارضُ الرّابع:

وجوب الصبر

الشّدائدُ والمصائبُ؛ وَإِنَّمَا كِفَايَتُها بِالصَّبْرِ. فَعَلَيْكَ بِالصَّبْر في المَوَاطِنِ، وَإِنّما ذٰلِكَ لِأَمْرَيْنِ:

---

(١) ـ أخرجه أبو داود (١١٦/٤)، «كتاب الأشربة» باب ما يقول إذا شرب اللبن، الحديث رقم (٣٧٣٠) بلفظ: (إذا أكل أحدكم طعاماً فليقل: اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيراً منه، وإذا سقي لبناً فليقل: اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه، فإنه لا يُجزىء من الطعام والشراب إلا اللبن).
ـ وأخرجه الترمذي في الدعوات، حديث ٣٤٥١، باب ما يقول إذا أكل طعاماً. وقال حسن.
ـ كذلك أخرجه ابن ماجه (١١٠٣/٢) في باب اللبن، الحديث رقم (٣٣٢٢) ولفظه قريب من لفظ أبي داود.

(٢) لفظة ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النُّسخ.

أَحَدُهُمَا: التَّوَصُّل إِلَى الْعِبَادَةِ وَحُصول الْمَقْصُودِ مِنْهَا، فَإِنَّ مَبْنَى أَمْرِ الْعِبَادَةِ كُلِّه عَلَى الصَّبْرِ وَٱحْتِمَالِ المَشَقَّاتِ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ صَبُوراً لَمْ يَصِلْ إلى شَيْءٍ مِنْها بِالْحَقِيقَةِ؛ وَذٰلِكَ أَنَّ مَنْ قَصَدَ عِبَادَةَ اللَّهِ تَعالَى وَتَجَرَّدَ لَهَا ٱسْتَقْبَلَتْهُ شَدَائِدُ وَمِحَنٌ وَمَصَائِبُ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ لاَ عِبَادَةَ إِلاَّ وَفي نَفْسِهَا مَشَقَّةٌ، وَلِذٰلك ورد كُل هٰذَا التَّرْغِيبِ فِيهِ، والوعد عَلَيْه، إِذْ لاَ يَتَأَتَّى فِعْلُ الْعِبَادَةِ إِلاَّ بِقَمْعِ الْهَوَى وَقَهْرِ النَّفْس، إِذْ هِيَ زَاجِرَةٌ عَنِ الْخَيْرِ والرشد؛ وَمُخَالَفَةُ الْهَوَى وقَهْرُ النَّفْسِ مِنْ أَشَدِّ الأُمُورِ عَلَى الإِنْسَانِ.

وَثَانِيهَا: أَنَّ الْعَبْدَ إذاً فَعَلَ الْخَيْرَ مَعَ المَشَقَّةِ، لَزِمَهُ الإِحْتِيَاطُ لَهُ حَتَّى لاَ يَفْسدَ عَلَيْهِ، وَٱلإِبْقَاءُ عَلَى العَمَلِ أَشَدُّ مِنَ الْعَمَلِ.

أنواع المحن

وَثَالِثُهَا: أَنَّ الدَّارَ دَارُ مِحْنَةٍ؛ فَمَنْ كَانَ فِيهَا لاَ بُدَّ لَهُ مِنَ الإِبْتِلاَءِ بِشَدائِدِها وَمَصَائِبِهَا، وَذٰلِكَ أَقْسَامٌ: المُصِيبَةُ فِي الأَهْلِ وَالْقَرَابَاتِ وَالإِخْوَانِ وَالأَصْحَابِ بِالْمَوْتِ وَالْفَقْدِ وَالْفِرَاقِ، وَفي النَّفْس بِأَنْوَاعِ الأَمْرَاضِ وَالأَوجَاعِ، وَفِي الْعِرْضِ بِقِتَالِ النَّاس إِيَّاهُ، وَالطَّمَعِ فِيهِ وَالإِزْدِرَاءِ بِهِ وَالْغِيبَةِ له وَالْكَذِبِ عَلَيْهِ؛ وَفي المَالِ بِالذَّهَابِ وَالزَّوَالِ. وَلِكُلِّ وَاحِدةٍ مِنْ هٰذِهِ المَصَائِبِ لَدْغَةٌ وَحُرْقَةٌ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ، فَيَحْتَاجُ إِلى الصَّبْرِ عَلَيْهَا كُلِّها، وَإِلاَّ فَيَمْنَعُهُ الْجَزَعُ وَالتَّلَهُّفُ مِنَ التَّفَرُّغِ لِلْعِبَادَةِ.

وَرَابِعُهَا: أَنَّ طَالِبَ الآخِرَةِ أَشَدُّ ٱبْتِلاَءً وَأَكْثَرُ مَحَبَّةً أَبَداً، وَمَنْ كَانَ إِلَى ٱللَّهِ تعالى أَقْرَبُ فَالْمَصَائِبُ له في الدُّنْيَا أَكْثَرُ، وَالْبَلاَءُ عَلَيْهِ

أَشَدُّ. أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ ﷺ: «أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الشهداء ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ»[1]؟

فَإِذَن مَنْ قَصَدَ الْخَيْرَ وَتَجَرَّد لِطَرِيق الآخِرَةِ، اسْتَقْبَلَتْهُ هٰذِهِ الْمِحَنُ، فَإِنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَيْهَا، وَلا يَكُونُ/ بِحَيْثُ لاَ يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، [٥٧/ب]

(١) ـ رواه البخاري (٧/ ١٤٩) كتاب الطب أو المرض، وفيه: (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأول فالأول).
ـ ورواه ابن ماجه (٢/ ١٣٣٤) كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، من حديث سعد (الحديث رقم ٤٠٢٣) ومن حديث أبي سعيد (الحديث رقم ٤٠٢٤).
ـ ورواه ابن حنبل: (١/ ١٧٢، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥، ٦/ ٣٦٩).
ـ ورواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٠٧) عن أبي سعيد قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء»، قلت: ثم من؟ قال: «ثم الصالحون» وصححه الحاكم على شرط مسلم.
ـ ورواه الترمذي في كتاب الزهد بلفظ: (قلت يا رسول الله: أي الناس أشد بلاء قال: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل) وقال الترمذي: حسن صحيح.
ـ ورواه الدارمي في الرقاق (ص ٣٢٠) باب في أشد الناس بلاء.
ـ وذكره السيوطي في الجامع الصغير (١/ ١٣٦). رواه من حديث سعد وصححه (رقم الحديث ١٠٥٤) ومن حديث أخت حذيفة، وحسنه، بلفظ: (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل). (رقم الحديث ١٠٥٦).
وتجدر الإشارة إلى أن جميع روايات هذا الحديث، والتي أشرت إلى أماكنها لم تذكر لفظة (العلماء) كما وردت عند الغزالي في روايته الأخرى.
ـ ووجدت في المستدرك للحاكم (١/ ٤٠ ـ ٤١) رواية أخرى له من حديث أبي سعيد الخدري بلفظ: (قال: يا رسول الله من أشد الناس بلاء؟ قال: الأنبياء. قال: ثم من؟ قال: العلماء. قال: ثم من؟ قال: الصالحون...).
ـ وهكذا رواه الذهبي في ذيل المستدرك (١/ ٤١) وذكر أنه صحيح على شرط مسلم.

ٱنْقَطَعَ عَنِ الطَّرِيقِ وَٱشْتَغَلَ عَنِ الْعِبَادَةِ، فَلاَ يَصِلُ إِلى شَيْءٍ مِنْ ذٰلِكَ.

وَلَقَدْ أَعْلَمَنا ٱللَّهُ تَعَالَى بِالْتِقَاءِ الْمِحَنِ وَالمَصَائِبَ وَٱبْتِلاَئِنَا بِها، وَحقَّقَ ذٰلِكَ وَأَكَّدَهُ فَقَالَ: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ١٨٦].

ثُمَّ قالَ سبحانه: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران: ١٨٦] فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى أَنَّهُ لاَ بُدَّ لَكُمْ مِنْ أَنْـوَاعِ الْبَلاَيَا، فَإِنْ تَصْبِرُوا فَأَنْتُمُ الرِّجَالُ وَعزائمُكُمْ عَزَائِمُ الرِّجَالِ؛ فَإِذَنْ مَنْ عَزَمَ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعالى يَجب أَوَّلاً أَنْ يَعْزِمَ عَلَى الصَّبْرِ الطَّوِيلِ، وَيُوطِّنَ نَفْسَهُ عَلَى ٱحْتِمَالِ المَشَاقِّ الْعَظِيمَةِ الْمُتَوَالِيَةِ إِلَى الْموتِ، وَإِلاَّ فَقَدْ قَصد الأَمْرَ بِغيْرِ آلَتِهِ وَأَتَاهُ مِنْ غَيْرِ وَجْهِهِ.

وَلَقَدْ ذُكِرَ عَنِ الْفُضَيْلِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّهُ قَالَ: مَنْ عَزَمَ عَلَى قَطْعِ الطريقِ لِلآخِرَةِ فَليجْعَلْ عَلَى نَفْسِهِ أَرْبعَةَ أَلْوَانٍ مِنَ الْموت: الأَبْيَضَ، وَالأَحمَـرَ، وَالأَسْـوَدَ، وَالأَخْضَـرَ؛ فَـالْمَـوْتُ الأَبْيَـضُ: الْجُـوعُ، وَالأَسْـوَدُ: ذَمُّ النَّـاس، وَالأَحمرُ: مُخَـالَفَـةُ الشَّيْطَـانِ، وَالأَخْضَـرُ: الْوَقَائِعُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ.

وَالثَّانِي مِنَ الأَمْرَيْنِ: مَا فِي الصَّبْرِ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيا وَالآخِرَةِ. كرامات الصابرين

ـ مِنْ ذٰلِكَ النَّجَاةُ وَالنَّجَاحُ. قوله تَعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ

﴿مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣]، مَعْنَاهُ: ومَنْ يَتَّقِ اللَّهَ بِالصَّبْرِ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً مِنَ الشَّدَائِدِ.

ـ وَمِنْهَا الظَّفَرُ على الأعْدَاءِ، قالَ تَعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ۝٤٩﴾ [هود: ٤٩].

وَمِنْها الظَّفَرُ بِالْمُرَادِ، قالَ تَعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧] وَقِيلَ: كَتَبَ يُوسُفُ في جَوَابِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِما السَّلامُ: إنّ آبَاءَكَ صَبَرُوا فَظَفَرُوا، فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرُوا تَظْفَرْ كَمَا ظَفَرُوا.

وقيل في هذا المَعْنَى [البسيط]:

لَا تَيْأَسَنَّ وَإِنْ طَالَتْ مُطَالَبَةٌ ... إِذَا اسْتَعَنْتَ بِصَبْرٍ أَنْ تَرَى فَرَجَا
أَخْلِقْ بِذِي الصَّبْرِ أَنْ يَحْظَى بِحَاجَتِهِ ... وَمُدْمِنِ الْقَرْعِ لِلْأَبْوَابِ أَنْ يَلِجَا

ـ وَمِنْهَا التَّقَدُّمُ عَلَى النَّاس وَالإِمَامَةُ، قالَ الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤].

وَمِنْهَا الثَّنَاءُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ الله تَعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝٤٤﴾ [صٓ: ٤٤].

[٥٨/أ] ـ وَمِنْهَا الْبِشَارَةُ/ وَالصَّلاَةُ وَالرَّحْمَةُ، قَالَ تَعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝١٥٥﴾ [البقرة: ١٥٥]. إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ الآية [البقرة: ١٥٧].

ـ وَمِنْهَا المَحَبَّةُ مِنَ اللَّهِ تَعالى. قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ۝١٤٦﴾ [آل عمران: ١٤٦].

ـ وَمِنْهَا الدَّرَجَاتُ الْعُلَى فِي الْجَنَّةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الفرقان: ٧٥].

ـ وَمِنْهَا الْكَرَامَةُ الْعَظِيمَةُ قالَ تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤].

ـ وَمِنْهَا ثَوَابٌ بِلاَ غَايَةٍ وَلاَ نِهَايَةٍ، خَارِجاً عَنْ أَوْهَامِ الْخَلْقِ وَأَعْدَادِهِمْ قالَ تَعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠].

فَسُبْحَانَهُ مِنْ سَيِّدٍ مَاجِدٍ مَا أَكْرَمَهُ، كُلُّ هٰذِهِ الْكَرَامَاتِ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ يعطي عَبْدَهُ عَلَى صَبْرِ ساعةٍ. فَبَانَ لَكَ أَنَّ خير الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ في الصَّبْرِ. قالَ ﷺ: «مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِنْ عَطَاءٍ خَيْراً أَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»[1] وَعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: جَمِيعُ خَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ في صَبْرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ.

---

(١) ـ هذا هو القسم الأخير من حديث رواه أبو سعيد الخدري أنَّ ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ، فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى نفد ما عنده فقال: «ما يكون عندي من خير فلن أدَّخرَ عنكم، ومن يستعفف يُعِفُّه الله، ومن يستغن يُغْنِه الله، ومن يتصَبَّرْ يصبّره الله، وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر».
ـ رواه البخاري (٢/ ١٥١ ـ ١٥٢) كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة. ورواه أيضاً في كتاب الرقاق باب الصبر (٨/ ١٢٤).
ـ كذلك رواه مسلم (٢/ ٧٢٩) كتاب الزكاة، باب فضل التعفّف والصبر، الحديث رقم (١٠٥٣).
ـ ورواه ابن حنبل (٣/ ١٢) بلفظ: (ما أجد لكم رزقاً أوسع من الصبر) وبلفظ: (وما رُزِقَ العبد رزقاً أوسع من الصبر) (٣/ ٤٧) وبلفظ ثالث (ولن تعطوا عطاء خيراً أوسع من الصبر) (٣/ ٩٣).
ـ ورواه أيضاً أبو داود في سننه (٢/ ٢٩٥) كتاب الزكاة باب في الاستعفاف. =

وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ: [مجزوء البسيط]:

الصَّبْـرُ مِفْتَـاحُ مَـا يُـرْجَـى ... وَكُـلُّ خَيْـرٍ بِـهِ يَكُـونْ
اصْبِـرْ وَإِنْ طَـالَـتِ الليـالـي ... فَـرُبَّمَـا أَمْكَـنَ الْحَـرُونْ[1]
وَرُبَّمَـا نِيـلَ بـاصْطِبَـارٍ ... مَـا قِيـلَ هَيْهَـاتَ لاَ يَكُـونْ

وَالقَائِل: [الطويل]:

صَبَرْتُ وَكَانَ الصَّبْرُ مِنِّي سَجِيَّةً ... وَحَسْبُكَ أَنَّ اللَّهَ أَثْنَى عَلَى الصَّبْرِ
إِذَا كَانَ بابُ الذلِّ من جانِبِ الغِنى ... سمَوْتُ إلى العلياءِ من جانبِ الفَقْرِ
سَأَصْبِرُ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّـهُ بَيْنَنَا ... فَـإِمَّـا إِلَـى يُسْـرٍ وَإِمَّـا إِلَـى عُسْـرِ

فَعَلَيْكَ بِاغْتِنَامِ هٰذِهِ الخَصْلَةِ الشَّرِيفَةِ وَبَذْلِ المَجْهُودِ فِيهَا تَكُنْ مِنَ الْفَائِزِينَ، وَاللَّهُ تَعَالَى وَلِيُّ التَّوْفِيقِ.

حقيقة الصبر

فَإِنْ قُلْتَ فَمَا حَقِيقَةُ الصَّبْرِ وَحُكْمُهُ؟

فَاعْلَمْ أَنَّ لَفْظَةَ الصَّبْرِ مِنْ طَرِيقِ اللُّغَةِ الحَبْسُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية [الكهف: ٢٨]. أَي احْبِسْ نَفْسَكَ مَعَهُمْ، وَإِنَّمَا يُوصَفُ اللَّهُ تَعَالَى بِالصَّبْرِ عَلَى مَعْنَى حَبْسِهِ

= ـ كذلك رواه الدارمي في سننه (١/ ٣٨٧) كتاب الزكاة: باب في الاستعفاف عن المسألة.
ـ ورواه الترمذي في البرّ، ما جاء في الصبر، حديث رقم (٢٠٥٢).
ـ ورواه أيضاً النَّسائي في الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، حديث رقم (٢٥٨٩).

(١) الحرون: الخيل الذي يرفض الانقياد. والمقصود أنه يمكن تحقيق الأمر الصعب.

الْعَذَابَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ فَلا يُعَاجِلُهُمْ بِهِ. ثُمَّ الْمَعْنَى الَّذِي هُوَ مِنْ مَسَاعِي الْقَلْبِ سُمِّيَ صَبْراً لأَنَّهُ حَبْسُ النَّفْسِ عَنِ الْجَزَعِ، وَالْجَزَعُ فِيمَا قَالَهُ الْعُلَمَاءُ ذِكْرُ اضْطِرَابِكَ فِي الشِّدَّةِ، وَقِيلَ بَلْ إِرَادَةُ الْخُرُوجِ/ [٥٨/ب] عَنِ الشِّدَّةِ بِالْحُكْمِ، وَالصَّبْرُ تَرْكُهُ، وَحِصْنُ الصَّبْرِ ذِكْرُ مِقْدَارِ الشِّدَّةِ وَوَقْتِهَا، وَأَنَّهَا لاَ تَزِيدُ وَلاَ تَنْقُصُ، وَلاَ تَتَقَدَّمُ وَلاَ تَتَأَخَّرُ، وَلاَ فَائِدَةَ فِي الْجَزَعِ، بَلْ فِيهِ الضَّرَرُ وَالخَطَرُ. وَحِصْنُ هٰذَا الْحِصْنِ ذِكْرُ حُسْنِ عِوَضِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ، وَكَرِيمِ الذُّخْرِ فِي ذٰلِكَ لَدَيْهِ؛ فَهٰذِهِ هٰذِهِ. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

فصل
في الرزق وتدبيره

فَعَلَيْكَ بِقَطْعِ هٰذِهِ الْعَقَبَةِ الشَّدِيدَةِ المَنِيعَةِ بِدَفْعِ هٰذِهِ الْعَوارِضِ الأَرْبَعَةِ وَإِزَاحَةِ عِلَّتِهَا، وَإِلاَّ فَلاَ تَدَعُكَ تَذْكُرُ مَقْصُودَكَ مِنَ الْعِبَادَةِ وَلِتَتَفَكَّرَ فِيهَا، فَضْلاً عَنْ أَنْ تُدْرِكَهَا وَتُحَصِّلَهَا، وَإِنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا شُغْلاً شَاغِلاً عَاجِلاً وَآجِلاً.

أمر الرزق وتدبيره

ثم إنّ أعضلها وأَعْظَمَهَا أمر هذا الرِّزْقِ وَتَدْبِيرُهُ، فَإِنَّهُ الْبَلِيَّةُ الْكُبْرَى لِعامَّةِ الْخَلْقِ، أَتْعبَتْ نُفُوسَهُمْ، وَشَغَلَتْ قُلُوبَهُمْ، وَأَكْثَرَتْ هُمُومَهُمْ، وَضَيَّعَتْ أَعْمَارَهُمْ، وَأَعظَمَتْ تبعاتهم وَأَوْزَارَهُمْ، وَعَدَلَتْ بِهِمْ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَخِدْمَتِهِ إِلَى خِدْمَةِ الدُّنْيَا وَخِدْمَةِ الْمَخْلُوقِينَ،

ضمان الله للرزق

فَعَاشُوا فِي الدُّنْيَا فِي ظُلْمَةٍ وغَفْلَةٍ وَتَعَبٍ وَنَصَبٍ، وَمَهَانَةٍ وَذُلٍ، وَقَدِمُوا الآخِرَة مَفَالِيسَ، بَيْنَ أَيْدِيهِم الْحِسَابُ وَالْعَذَابُ، إن لم يرحم اللَّهُ تَعَالَى بِفَضْلِهِ؛ فَانْظُرْ كَمْ من آيَةٍ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذٰلِكَ، وَكَمْ ذَكَرَ مِنْ وَعْدِه وَضَمَانِهِ وَقَسَمِهِ عَلَى ذٰلِكَ. وَلَمْ تَزَلِ الأَنْبِيَاءُ وَالْعُلَمَاءُ يَعِظُونَ النَّاسَ وَيُبَيِّنُونَ لَهُمْ الطَّرِيقَ وَيُصَنِّفُونَ لهم الْكُتُبَ وَيَضْرِبُونَ لَهُمُ الأَمْثَالَ وَيُخَوِّفُونَهُمْ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَهُمْ مَعَ ذٰلِكَ لاَ يَهْتَدُونَ وَلاَ يَتَّقُونَ وَلاَ يَطْمَئِنُّونَ، بَلْ هُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ ذٰلِكَ لاَ يَزَالُونَ يَخَافُونَ أَنْ يَفُوتَهُمْ غَدَاءٌ أَوْ عَشَاءٌ.

وَأَصْلُ ذٰلِكَ كُلِّهِ قِلَّةُ التَّدَبُّرِ لآيَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَقِلَّةُ التَّفَكُّرِ فِي صَنَائِعِ اللَّهِ، وَتَرْكُ التَّذَكُّرِ لِكَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَتَرْكُ التَّأَمُّلِ لِأَقْوَالِ الصَّالِحِينَ مَعَ الإِسْتِرْسَالِ لِوَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ وَالإِصْغَاءِ إِلَى كَلَامِ الجَاهِلِينَ وَالإِغْتِرَارِ بِعَادَاتِ الْغَافِلِينَ، حَتَّى تَمَكَّنَ الشَّيْطَانُ مِنْهُمْ، وَرَسَخَتِ الْعَادَاتُ فِي قُلُوبِهِمْ، فَتَأَدَّى بِهِمْ ذٰلِكَ إِلَى ضَعْفِ الْقَلْبِ وَرِقَّةِ الْيَقِينِ.

أصل معضلة الرزق

وَأَمَّا الأَخْيَارُ الَّذِينَ هُمْ أُولُو الأَبْصَارِ وَأَرْبَابُ الجِدِّ وَالإِجْتِهَادِ، أَبْصَرُوا طَرِيقَ السَّمَاءِ، فَلَمْ يَعْبَئُوا بِأَسْبَابِ الأَرْضِ، وَاعْتَصَمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ، فَلَمْ يَكْتَرِثُوا/ بِعَلَائِقِ الْخَلْقِ، وَتَيَقَّنُوا بِآيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَبْصَرُوا طَرِيقَهُ، فَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلى وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ وَالخَلْقِ وَالنَّفْسِ، فَإِذَا وَسْوَسَ لَهُمْ شَيْطَانٌ أَوْ نَفْسٌ أَوْ إِنْسَانٌ قَامُوا بِالمُنَاقَشَةِ وَالمُدَافَعَةِ وَالمُخَالَفَةِ، حَتَّى وَلَّى الْخَلْقُ عَنْهُم، وَاعْتَزَلَ عَنْهُمُ الشَّيْطَانُ، وَانْقَادَتْ لَهُمُ النَّفْسُ، وَاسْتَقَامَ لَهُمُ الطَّرِيقُ الْمُسْتَقِيمُ، عَلَى مَا ذُكِرَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بنِ أَدْهَمَ رَحِمَهُ اللَّهُ، أَنَّهُ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ الْبَادِيَةَ أَتَاهُ الشَّيْطَانُ فَخَوَّفَهُ بِأَنَّ هٰذِهِ بَادِيَةٌ مُهْلِكَةٌ وَلَا زَادَ مَعَكَ وَلَا سَبَبَ فَعَزَمَ عَلَى نَفْسِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنْ يَقْطَعَ عَلَى تَجَرُّدِهِ ذٰلِكَ، وَأَنْ لَا يَقْطَعَهَا حَتَّى يُصَلِّيَ تَحْتَ كُلِّ مِيلٍ مِنْ أَمْيَالِهَا أَلْفَ رَكْعَةٍ، وَقَامَ بِمَا عَزَمَ عَلَيْهِ وَبَقِيَ فِي الْبَادِيَةِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً، حَتَّى إِنَّ الرَّشِيدَ حَجَّ فِي بَعْضِ تِلْكَ السِّنِينِ فَرَآهُ تَحْتَ مِيلٍ يُصَلِّي، فَقِيلَ لَهُ: هٰذَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: كَيْفَ تَجِدُكَ يَا أَبَا إِسْحٰقَ؟ فَأَنْشَأَ إِبْرَاهِيمُ يَقُولُ: [الطويل]:

الأخيار والرزق

[٥٩/أ]

خبر إبراهيم بن أدهم

نُرَقِّعُ دُنْيَانَا بِتَمْزِيقِ دِينِنَا ... فَلَا دِينُنَا يَبْقَى وَلَا مَا نُرَقِّعُ

فَطُوبَى لِعَبْدٍ آثَرَ اللَّهَ رَبَّهُ ... وَجَادَ بِدُنْيَاهُ لِمَا يَتَوَقَّعُ

خبر آخر عن بعض الصالحين

وَعَنْ بَعْضِ الصَّالِحِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ، أَنَّهُ كَانَ فِي بَعْضِ الْبَوَادِي، فَوَسْوَسَ لَهُ الشَّيْطَانُ بِأَنَّكَ مُتَجَرِّدٌ، وَهٰذِهِ بَادِيَةٌ مُهْلِكَةٌ لَا عُمْرَانَ فِيهَا وَلَا نَاس، فَعَزَمَ عَلَى نَفْسِهِ بِأَنْ يَمْضِيَ عَلَى تَجَرُّدِهِ، وَأَنْ يترك الطَّرِيقَ حَتَّى لَا يقع بأحد مِنَ النَّاسِ وأن لَا يَأْكُلَ شَيْئاً حَتَّى يُجْعَلَ فِي فيه السَّمْنُ وَالْعَسَلُ ثُمَّ عَدَلَ عَنِ الشَّارِعِ وَمَرَّ عَلَى وَجْهِهِ فقالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: فَسِرْتُ مَا شَاءَ اللَّهُ، فإِذَا بِقَافِلَةٍ قَدْ أَضَلَّتِ الطَّرِيقَ وَهُمْ يَسِيرُونَ، فَلَمَّا أَبْصَرْتُهُمْ رَمَيْتُ بِنَفْسِي إِلَى الأَرْضِ لَعَلَّهُمْ لَا يُبْصِرُونَنِي، فَسَيَّرَهُمُ اللَّهُ حَتَّى وَقَفُوا عَلَيَّ، فَغَمَضْتُ عَيْنِي، فَدَنَوْا مِنِّي وَقَالُوا: هٰذَا مُنْقَطِعٌ غُشِيَ عَلَيْهِ مِنَ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ، فَهَاتُوا سَمْناً وَعَسَلاً نَجْعَلُهُ فِي فِيه لَعَلَّهُ يَفِيقُ، فَأَتَوْا بِسَمْنٍ وَعَسَلٍ فَسَدَدْتُ فَمِي وَأَسْنَانِي فَأَتَوْا بِسِكِّينٍ فَعَالَجُوا فَمِي حَتَّى يَفْتَحُوهُ، فَضَحِكْتُ، فَفَتَحْتُ فَايَ، فَلَما رَأَوْا ذٰلِكَ مِنِّي قَالُوا مَجْنُونٌ أَنْتَ؟ قُلْتُ لَا وَالحَمْدُ لِلَّهِ تَعَالَى، وَأَخْبَرْتُهُمْ بِبَعْضِ مَا جَرَى لِي مَعَ الشَّيْطَانِ.

[٥٩/ب] وَعَنْ بَعْضِ مَشَايِخِنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ قَالَ: نَزَلْتُ فِي بَعْضِ/ أَسْفَارِي أَيَّامَ التَّعْلِيمِ مَسْجِداً، وَكُنْتُ مُتَجَرِّداً عَلَى عَادَةِ أَوْلِيَائِنَا، فَوَسْوَسَ إِلَيَّ الشَّيْطَانُ بِأَنَّ هٰذَا مَسْجِدٌ بَعِيدٌ عَنِ النّاسِ، لَوْ سِرْتَ إِلى مَسْجِدٍ بَيْنَ النّاس لَرَآكَ أَهْلُهُ وَقَامُوا بِكِفَايَتِكَ؛ فَقُلْتُ: لَا أَبِيتُ إِلَّا هٰهُنَا، وَعَلَيَّ عَهْدُ اللَّهِ أَنْ لَا آكُلَ إِلَّا الحَلْوَاءَ، وَلَا آكُل حَتَّى يُوضَعَ فِي فَمِي لُقْمَةً لُقْمَةً، وَصَلَّيْتُ الْعَتَمَةَ وَأَغْلَقْتُ الْبَابَ؛ فَلَمَّا مَضَى صَدْرٌ مِنَ اللّيْلِ، إِذَا أَنَا بِإِنْسَانٍ يَدُقُّ الْبَابَ وَمَعَهُ سِرَاجٌ، فَلَما كَثُرَ الدَّقُّ فَتَحْتُ الْبَابَ، فَإِذَا بِعَجُوزٍ وقَدْ دَخَلَتْ، فَوَضَعَتْ بَيْنَ يَدَيَّ طَبَقاً من الخَبِيصِ، وَقَالَتْ: هٰذَا الشَّابُّ وَلَدِي، صَنَعْتُ لَهُ هٰذَا الخَبِيص

وَجَرَى بَيْنَنَا كَلامٌ، فَحَلَفَ أَنْ لاَ يَأْكُلَ حَتَّى يَأْكُلَ مَعَهُ رَجُلٌ غَرِيبٌ، أَوْ قَالَتْ هٰذَا الْغَرِيبُ الَّذِي في الْمَسْجِدِ؛ فَكُلْ رَحِمَكَ اللَّهُ، وَأَخَذَتْ تَضَعُ فِي فَمِي لُقْمَةً وَفِي فَمِ وَلَدِهَا لُقْمَةً.

فَهٰذِهِ وَأَمْثَالُهَا مِنْ مُجَاهَدَاتِ الصَّالِحِينَ ومناقضاتهم لِلشَّيْطَانِ، فَإِنَّ لَكَ فِي ذٰلِكَ فَوَائِد ثَلاَثَة:

فوائد هذه الأخبار

إِحْدَاهَا: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الرِّزْقَ لاَ يَفُوتُ مَنْ قُدِّرَ لَهُ بِحَالٍ.

وَالثانِيَةُ: أنْ تَعْلَم أَنَّ أَمرَ الرِّزْقِ وَالتَّوَكُّلِ لَمهِمٌّ جِدًّا، وَأَنّ لِلشَّيْطَانِ فِيهِ غَوَائِلَ وَوَسَاوِسَ عَظِيمَةً، حَتَّى أَنّ مِثْلَ أُولٰئِكَ الأَئِمَّة الزُّهَّاد لَمْ يَتَخَلّصُوا مِنْ ذٰلِكَ وَلَمْ يَيْأَسْ مِنْهُمُ الشَّيْطَانُ بَعْدَ طُولِ تِلْكَ الرِّيَاضَاتِ وَالمُجَاهَدَاتِ التِي سَبَقَتْ لَهُمْ، حَتَّى يَحْتَاجُوا إِلَى دَفْعِهِ بِهٰذِهِ المُنَاقَضَاتِ. وَلَعَمْرِي أَنّ مَنْ جَاهَدَ النَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ سَبْعِينَ سَنَةً، لاَ يَأْمَن أَنْ يُوَسْوِسَا لَهُ كَما يُوَسْوِسَانِ لِلْمُبْتَدِىءِ فِي الْعِبَادَةِ، بَلْ لِغَافِلٍ لَمْ يَجْتَهِدْ سَاعَةً في الرِّيَاضَةِ، وَلَوْ ظَفِرَا بِهِ لَفَضَحَاهُ وَأَهْلَكَاهُ هَلاَكَ الْغَافِلِينَ الْمُغْتَرِّينَ، وَفِي ذٰلِكَ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَبْصَارِ.

وَالثَّالِثَةُ: أَنْ تَعْلَمَ أَنّ الأَمْرَ لاَ يَتِمُّ إِلاَّ بِالجِدِّ المَحْضِ وَالمُجَاهَدَةِ الْبَالِغَةِ، فَإِنّهُم كانُوا لحماً وَدَماً وَبَدَناً وَرُوحاً مِثْلَكَ، بَلْ كانُوا أَنْحَف أَبْدَاناً وَأَضْعَفَ أَرْكَاناً وَأَدَقَّ عِظَاماً مِنْكَ، وَلٰكِنْ كَانَتْ لَهُمْ قُوَّةُ الْعِلْمِ وَنُورُ الْيَقِينِ وَهِمّةُ أَمْرِ الدِّينِ، حَتَّى قَوَوْا عَلَى مِثْلِ تِلْكَ المُجَاهَدَاتِ وَالْقِيَامِ بِحَقِّ تِلْكَ المَقَامَاتِ؛ فَانْظُرْ لِنَفْسِكَ، رَحِمَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ، وَدَاوِهَا مِنْ هٰذَا الدَّاءِ المُعْضِلِ، لَعَلَّكَ تُفْلِحُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

فصل
نصائح في التوكل على الله في تدبير الرزق

ثُمَّ ٱعْلَمْ بَعْدَ هٰذِهِ الجُمْلَةِ أَنِّي مُجَرِّدٌ لَكَ نُكَتاً وَجَدْتُهَا، بِحَيْثُ تَنْكُتُ في الْقَلْبِ إِذَا تَذَكَّرْتَهَا/ وَتكْفِيكَ مُؤْنَةَ هٰذَا الْبَابِ، وَتَدَعُكَ [٦٠/أ] عَلَى وَاضِحَةِ الطريق إِنْ تَـأَمَّلْتَهَا وَعَمِلْتَ بِهَا، وَاللَّهُ المُوَفِّقُ.

الأُولَى: أَنْ تَعْلَمَ أَنّ اللَّهَ تَعَالى ضَمِنَ رِزْقَك في كِتَابِهِ، وَتَكَفّلَ لَكَ بِهِ، وما تَقُولُ لَوْ وَعَدَكَ مَلِكٌ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا أَنَّهُ يُضِيفُكَ اللَّيْلَةَ وَيُعَشِّيكَ، وَأَنْتَ حَسَنُ الظَّنِّ بِهِ، أَنَّهُ صَادِقٌ لَا يَكْذِبُ وَلاَ يُخْلِفُ الْوَعْدَ؛ بَلْ لَوْ وَعَدَكَ بِذٰلِكَ سُوقِيٌّ أَوْ يَهُودِيٌّ أَوْ نَصْرَانِيٌّ أَوْ مَجُوسِيٌّ، مَسْتُورٌ عِنْدَكَ بِظَاهِرِهِ، عَفِيفٌ فِي مَقَالَتِهِ، أَلَسْتَ تَثِقُ بِوَعْدِهِ وَتَطْمئِنُّ بِقَوْلِهِ وَلا تَهْتَم لِعَشَائِكَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ ٱتِّكالاً عَلَيْهِ؟ فَمَا لَكَ وَقَدْ وَعَدَكَ اللَّهُ وَضَمِنَ لَكَ رِزْقَكَ وَتَكَفَّلَ، بَلْ أَقْسَمَ عَلَيْهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، وَأَنْتَ لَا تَطْمَئِنُّ بِوَعْدِهِ، وَلا تَسْكُنُ إِلى قَوْلِهِ وَضَمَانِهِ، وَلا تَنْظُرُ إِلى قَسَمِهِ، بَلْ يَضْطَرِبُ قَلْبُكَ وَيَهْتَمُّ؟ فَيَا لَهَا مِنْ فَضِيحَةٍ لَوْ رَأَيْتَ وَبَالَهَا، وَيَا لَهَا مِنْ مُصِيبةٍ لَوْ عَلِمْتَ نكالها.

وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: [الطويل]:

أَتَطْلُـبُ رِزْقَ اللَّـهِ مِـنْ عِنْـدِ غَيْـرِهِ ... وَتُصْبِـحُ مِـنْ خَـوْفِ الْعَـوَاقِبِ آمِنَـاً

وَتَرْضَى بِصَرَّافٍ وَإِنْ كَانَ مُشْرِكاً ضَمِيناً وَلاَ تَرْضَى بِرَبِّكَ ضَامِناً
كَأَنَّكَ لَمْ تقْنع[1] بِمَا فِي كِتَابِهِ فَأَصْبَحْتَ مَنْحُولَ الْيَقِينِ مُزَابِنَاً

وَلِهٰذَا الْمَعْنَى يَنْجَرُّ هٰذَا الأَمْرُ إِلى الشَّكِّ وَالشُّبْهَةِ، وَيُخَافُ عَلَى صَاحِبِهِ ـ وَالعِيَاذُ بِاللَّهِ ـ سَلْبُ الْمَعْرِفَةِ وَالدِّينِ، وَلِهٰذَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٣﴾ [المائدة: ٢٣] ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾ [المجادلة: ١٠] فَحَسْبُ الْمُؤْمِنِ الْمُهْتَمِّ بأمر دِينِهِ هٰذِهِ النُّكْتَةُ الْوَاحِدَةُ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

الثَّانِيَةُ: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الرِّزْقَ مَقْسُومٌ، صَحَّ ذٰلِكَ من كِتَابِ اللَّهِ وَأَخْبَارِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَتَعْلَمَ أَنَّ قِسْمَتَهُ لاَ تتَغَيَّرُ وَلاَ تَتَبَدَّلُ؛ إِنْ أَنْكَرْتَ الْقِسْمَةَ أَوْ جَوَّزْتَ نَقْضَهَا، فَذٰلِكَ بَابُ الْكُفْرِ تَقْرَعُهُ، نَعُوذُ بِاللَّهِ؛ وَإِنْ عَلِمْتَ أَنَّهُ حَقٌّ لاَ يَتَغَيَّرُ، فَأَيُّ فائِدَةٍ في الإِهْتِمَامِ وَالطَّلَبِ إِلاَّ الذُّل وَالْهَوَانُ في الدُّنْيَا، وَالشِّدَّةُ وَالْخُسْرَانُ في الآخِرَةِ؟ وَلِذٰلِكَ قالَ ﷺ: «مَكْتُوبٌ عَلَى ظَهْرِ الْحُوتِ وَالثَّوْرِ رِزْقُ فُلاَنِ بنِ فُلاَنٍ، فَلاَ يَزْدَادُ الْحَرِيصُ إِلاَّ جُهْداً»[2]، وَفِي مثل ذٰلِكَ يَقُولُ شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّ مَا قدَّرَ لِمَاضِغَيْكَ أَنْ يَمْضُغَاهُ فَلاَ يَمْضُغُهُ غَيْرُكَ، فَكُلْ رِزْقَكَ ـ وَيْحَكَ ـ بِالْعِزِّ، وَلاَ تَأْكُلْهُ بِالذُّلِّ، فهٰذِهِ نُكْتَةٌ حسنة مُقْنِعَةٌ/ [٦٠/ب] لِلرِّجَالِ.

---

(١) لم تقنع: أي لم تقتنع بما وعد الله من ضمان الرزق لعباده. مُزابنا: من فعل زَبَنَ أي دفع، وكأنك تدفع اليقين الصادق باليقين المنحول غير الصادق.
(٢) لم أجد له أصلاً.

الثَّالِثَةُ: مَا سَمِعْتُ شَيْخِي الإِمَام[1] رَحِمَهُ اللَّهُ يَحْكِي عَنْ الأُسْتَاذِ[2] رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: إِنَّ مِمَّا يُقْنِعُنِي فِي أَمْرِ الرِّزْقِ أَنِّي تَذَكَّرْتُ وَقُلْتُ لِنَفْسِي: أَلَيْسَ هٰذَا الرِّزْقُ لِلْحَيَاةِ وَالْعَيْشِ، وَالمَيِّتُ مَا يَصْنَعُ بِالرِّزْقِ؟ فَإِذَا كَانَ حَيَاةُ الْعَبْدِ فِي خَزَانَةِ اللَّهِ تعالَى وَبِيَدِه، إِنْ شَاءَ يُعْطِينِي وَإِنْ شَاءَ يَمْنَعُنِي، وَهُوَ غَيْبٌ عَنِّي، مَوْكُولٌ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ يُدَبِّرُهُ كَيْفَ يَشَاءُ، وَأَنَا سَاكِنُ النَّفْسِ بِذٰلِكَ. فَهٰذِهِ نُكْتَةٌ لَطِيفَةٌ مُقْنِعَةٌ لأَهْلِ التَّحْقِيقِ.

النكتة الرَّابِعَةُ: مِمّا ذَكَرْنَا فِي هٰذا الْفَصْلِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ضَمِنَ رِزْقَ الْعَبدِ وَلَمْ يَضْمَنْ إِلَّا الرِّزْقَ المَضْمُونَ الَّذِي هُوَ الْغِذَاءُ وَالتَّرْبِيَةُ، وَفِيهِ الْقِوَامُ وَالْعُدَّةُ.

وأَمَّا الأسبَابُ مِنَ الطَّعَامِ وَالشّرابِ، فالْعَبْدُ إِذَا تَجَرَّدَ لِعِبَادَةِ اللَّهِ وَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ، فَرُبَّمَا يُحْبَسُ عَنْهُ الأَسْبَابُ، فَلَا يَعْبَأَنَّ بِذٰلِكَ وَلَا يَضْجر، لِمَا عَلِمَ مِنْ حَقِيقَةِ الأَمْرِ أَنَّ الضَّمَانَ قِوَامُ الْبِنْيَةِ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ تعالى، إِنَّمَا هُوَ فِي هٰذَا المَعْنَى لَا غَيْرُ، وَالْمُنْتَظَرُ مِنَ اللَّهِ تَعَالى هٰذَا المَعْنَى، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالى لا مَحَالَةَ يُمِدُّهُ بِالْقُوَّةِ لِيَقُومَ بِحَقِّ الْعِبَادَةِ وَالْخِدْمَةِ مَا دَامَ لَهُ أَجَلٌ وَتَكْلِيفٌ بِالْعِبَادَةِ، وَهٰذَا هُوَ المَقْصُودُ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ، إِنْ شَاءَ يُقِيمُ بِنْيَةَ عَبْدِهِ بِطَعَامٍ وَشَرَاب أَوْ بِطِينٍ وَتُرَاب، أَوْ بِتَسْبِيحٍ وَتَهْلِيلٍ كَالْمَلَائِكَةِ، وَإِنْ شَاءَ بِدون هٰذَا كُلِّهِ. فَلَيْسَ مَطْلُوبُ الْعَبْدِ إِلَّا الْقِوَامَ وَالْقُوَّةَ لِلْعِبَادَةِ

---

(١) الإمام: أي إمام الحرمين الجويني.

(٢) الأستاذ: أي أبو إسحاق الإسفراييني.

لَيْسَ الأكْلَ وَالشُّرْبَ وَشِدّةَ الشَّهْوَةِ وَنَيْلَ اللَّذّةِ، فَلاَ اعْتِبَارَ بالأَسْبَابِ إذَنْ، وَلِهٰذَا الْمَعْنَى قَوِيَتِ الزُّهَّادُ وَالْعُبَّادُ عَلَى الأَسْفَارِ وَطَيِّ اللّيَالِي والأيَّامِ.

فَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَأكُلْ عَشْرَةَ أيّامٍ، وَمِنْهُم مَنْ لَمْ يَأْكُلْ شَهْراً وَشَهْرَيْنِ وَهُوَ عَلَى قُوَّتِهِ.

ومِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَسْتَفُّ الرَّمْلَ فَيَجْعَلُه اللَّهُ عز وجل لَهُ غِذَاءً، خبر عن نَحْوَ مَا ذُكِرَ عَنْ الثّوْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّهُ نَفِدَتْ نَفَقَتُهُ بِمَكّةَ، فَمَكَثَ الثوري خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْماً يَسْتَفُّ الرَّمْلَ.

وَقَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ الأَسْوَدُ[1]: رَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ بنَ أَدْهَمَ يَأْكُلُ الطِّينَ عِشْرِينَ يَوْماً.

وَعَنِ الأَعْمَشِ[2] قالَ: قالَ إِبْراهِيمُ التَّيْمِيُّ[3] رَحِمَهُ اللَّهُ: مَا

---

(١) من كبار أولياء الله. صحب سفيان الثوري وإبراهيم بن أدهم وغيرهما وكان يُعَدّ من الأبدال. وله مواعظ وحكم. وهو من رجال القرن الثاني للهجرة. سير أعلام النبلاء ٩/ ٧٨.
وانظر ترجمته وأخباره في: حلية الأولياء ٨/ ٢٧١.

(٢) سليمان بن مهران الكوفي الإمام شيخ الإسلام، شيخ المقرئين والمحدِّثين أبو محمد الأسدي، مولاهم، الحافظ، كان ثقة، عالماً فاضلاً، رأى أنس بن مالك وحكى عنه وعن كثير من التابعين كما روى عنه خلق كثير منهم أبي حنيفة والأوزاعي وشعبة. قيل عنه: هو علامة الإسلام.
توفي سنة ثمانية وأربعين ومئة. سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٢٦.

(٣) إبراهيم بن يزيد بن شريك الكوفي من تيم الرباب ويكنّى أبا أسماء. كان من العُبَّاد، ثقة، صالح الحديث، قتله الحجاج ولم يبلغ أربعين سنة، وقد توفي في حبس الحجاج سنة ٩٢ هـ. سير أعلام النبلاء ٥/ ٦٠.

أَكَلْتُ مُنْذُ شَهْرٍ، قُلْتُ مُنْذُ شَهْرٍ؟ قَالَ: وَلاَ شَهْرَينَ، إلاّ أَنَّ إنْساناً نَاشَدَنِي عَلَى عُنْقُودٍ مِنْ عِنَبٍ فَأَكَلْتُهُ، فَأَنَا أَشْتَكِي بَطْنِي.

قُلْتُ: فَلاَ تَعْجَبَنّ مِنْ ذٰلِكَ، فَإِنّ لِلَّهِ الْقُدْرَةَ عَلَى مَا يَشَاءُ؛ وَهٰذَا مَرِيض تَرَاهُ لاَ يَأْكُلُ شَهْراً، وَهُوَ حَيٌّ يَعِيشُ، وَالمَرِيضُ عَلَى كُلِّ حَالٍ أَضْعَفُ نَفْساً وَأَرَقُّ طَبْعاً مِنَ الصحيح.

[٦١/أ] وَأَمَّا الَّذِي يَمُوتُ/ جُوعاً فَذٰلِكَ أَجَلٌ حَضَرَهُ، كَالَّذِي يَمُوتُ شِبَعاً وَتُخَمَةً. وَلَقَدْ بَلَغَنِي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَرَّازِ[1] رَحِمَهُ اللَّهُ أَنّهُ كَانَ يقول: حَالِي مَعَ اللَّهِ تعالى أَنْ يُطْعِمَنِي في كُلِّ ثَلاَثَةِ أَيَّام، فَدَخَلْتُ الْبَادِيَةِ، فَمَضَتْ عَلَيَّ ثَلاَثَةُ أَيَّامٍ مَا طَعِمْتُ، فَلَمَّا كَان في الْيَوْمِ الرَّابِعِ وَجَدْتُ ضَعْفاً، فَجَلَسْتُ مَكَانِي، فَإِذَا بِهَاتِفٍ يَقُولُ: يَا أَبَا سَعِيدٍ أَيُّما أَحَبُّ إِلَيْكَ: سَبَبٌ أَوْ قُوى؟ فَقُلْتُ: لاَ، إلاَّ الْقُوَى، فَقُمْتُ مِنْ وَقْتِي وَقَدِ ٱسْتَقْلَلْتُ، فَأَقَمْتُ ٱثْنَيْ عَشَرَ يَوْماً مَا طَعِمْتُ وَلاَ وَجَدْتُ أَلَماً لِذٰلِكَ.

فإذا رَأَى الْعَبْدُ ٱحْتِبَاس الأَسْبَابِ عَنْهُ، وَعَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ التّوَكُّلَ عَلَى ٱللَّهِ، فَلْيَسْتَيْقِنْ بِأَنَّ ٱللَّهُ تَعَالى يمدّهُ بِالْقُوَّةِ فَلاَ يَضْجَرَنَّ لِذٰلِكَ، بَلْ حَقُّهُ أَنْ يَشْكُرَ اللَّهَ تَعَالى على ذلك شُكْراً كَثِيراً، فَإِنّ لـه المِنَّةُ

---

(١) أحمد بن عيسى البغدادي، العارف، شيخ الصوفية وصاحب التصانيف، وكان من المتوكلين.

ويقال: إنه أول من تكلّم في علم الفناء والبقاء. وهو إمام القوم في كل فن من علومهم، وهو أحسن القوم كلاماً خلا الجُنَيْد فإنّه الإمام.

مات سنة ٢٧٧ هـ وقيل ٢٨٦ هـ.

والخرَّاز: نسبة إلى خَرْز الجلود كالقِرَب وغيرها. سير أعلام النبلاء ١٣/٤١٩.

انظر ترجمته في: طبقات الصوفية ٢٢٨ ــ ٢٣٢، حلية الأولياء ١٠/٢٤٦ ــ ٢٤٩.

وَالصُّنْعَ اللَّطِيف، إِذْ رَفَعَ عَنْهُ المُؤْنَةَ وَأَعْطَاهُ المَعُونَةَ، وَحَصَلَ لَهُ الأَصْلُ والْمَقْصُودُ، وَدَفَعَ عَنْهُ الثِّقْلَ وَالْوَاسِطَةَ، وَخَرَقَ لَهُ عَلَائِقَ الْعَادَةِ، وَأَرَاهُ طَرِيقَ الْقُدْرَةِ، أن شَبَّهَ حَالَهُ بِحَالِ المَلَائِكَةِ، وَرَفَعَهُ عَنْ حَالَةِ الْبَهَائِمِ وَالْعَامَّةِ في تِلْكَ الْكَرَامَةِ، فَتَأَمَّلْ هٰذَا الأَصْلَ الكَبِيرَ تَغْنَمِ الرِّبْحَ الْعَظِيمَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تعالى.

أهمية التوكل

قُلتُ: لَعَلَّكَ تَقُولُ: أراكَ أَطْنَبْتَ في هٰذَا الْفَصْلِ خِلَافَ شَرْطِ الْكِتَابِ.

فَأَقُولُ: لَعَمْرُو اللَّهِ إِنَّهُ لَقَلِيلٌ فِي جَنْبِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي هٰذَا الْمَعْنَى، إِذْ هُوَ أَهَمُّ شَأْناً في الْعِبَادَةِ، بَلْ عَلَيْهِ مَدَارُ أَمْرِ الدُّنْيا وَالْعُبُودِيَّةِ، فَمَنْ لَهُ همَّةٌ في هٰذَا الشَّأْنِ فَلْيَسْتَمْسِكْ بِذٰلِكَ وَلْيراعِهِ حَقَّهُ، وَإلاّ فَهُوَ عن المقصُودِ بِمَعْزِلٍ.

وَالَّذِي يَدُلُّكَ على بَصِيرَةِ عُلَماءِ الآخِرَةِ الْعَارِفِينَ بِاللَّهِ، أَنَّهُمْ بَنَوْا أَمْرَهُمْ عَلَى التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ، وَالتَّفَرُّغ لِعِبَادَةِ اللَّهِ وَقَطْعِ الْعَلَائِقِ كُلِّهَا؛ فَكَمْ صَنَّفُوا مِنْ كِتَابٍ، وَكَمْ أَوْصَوْا بِوَصِيَّةٍ؛ وَقَيَّضَ اللَّهُ لَهُمْ أَعْوَاناً مِنَ السَّادَةِ وَأَصْحَاباً، فتَمَشّى لَهُمْ مِنَ الْخَيْرِ المَحْضِ مَا لَمْ يَتَمَشَّ لِطَائِفَةٍ مِنْ طَوَائِفِ الأُمَّةِ إِلاَّ لِزُهَّادِ الْكَرَامِيَّةِ، الَّذِينَ بَنوا مَذهبهم عَلَى أُصُولٍ غيْرِ مُسْتَقِيمَةٍ، وَمَا زِلْنَا أَعِزَّةً مَا دُمْنَا عَلَى مِنْهَاجِ أَئِمَّتِنَا نُخْرِجُ مِنْ مَعَاهِدِنَا وَمَدَارِسنا كُلَّ حِينٍ، إِمَّا إِمَامٌ في الْعِلْمِ كَالأُسْتَاذِ أَبِي إسْحٰقَ وَأَبِي حَامِدٍ[1] ....

---

(١) الأستاذ العلامة شيخ الإسلام أبو حامد أحمد بن أبي طاهر محمد بن أحمد الإسفراييني شيخ الشافعية ببغداد. =

وَأَبِي الطَّيِّبِ[1] وَابْنِ فَوْرَكٍ وَشَيْخِنَا الإِمَامِ وَأَمْثَالِهِمْ مِنَ السَّادَةِ، وَإِمَّا صِدِّيقٌ فِي الْعِبَادَةِ كَأَبِي إِسْحٰقَ الشِّيرَازِي[2]، وَأَبِي سَعِيدٍ الصُّوفي[3] وَنَصْرِ المَقْدِسِي[4] وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ فاقَ الأُمَّةَ عِلْماً وَزُهْداً، حَتَّى ضَعُفَتِ الْقُلُوبُ مِنْ بَعْضِنَا وَتَلَطَّخْنا بِشَيْءٍ مِنَ/ الْعَلَائِقِ الّتي ضَرَرُهَا أَكْثَرُ مِنْ نَفْعِها، تَرَاجَعَتِ الأُمُورُ، وَتَقَاعَدَتِ الْهِمَمُ، وَطَارَتِ الْبَرَكَاتُ وَزَالَتِ [٦١/ب]

= ولد سنة أربع وأربعين وثلاث مئة، وقدم بغداد وله عشرون سنة، فتفقَّه على أبي الحسن بن المرزبان، وبرع في المذهب، وأربى على المتقدمين، وعظم جاهه عند الملوك، حدّث عنه من تلامذته القاضي أبو الحسن الماوردي. وقد توفي في سنة ست وأربع مئة. سير أعلام النبلاء ١٧/ ١٩٣.

(١) الإمام العلامة، شيخ الإسلام، القاضي أبو الطيب، طاهر بن عبد الله بن طاهر بن عمر الطبري، الشافعي، فقيه بغداد. ولد سنة ثمان وأربعين وثلاث مئة بآمل، وسمع الحديث بجرجان وبنيسابور وببغداد حيث استوطن ودرَّس وأفتى وأفاد وولي القضاء. وكان أبو الطيب ورعاً عاقلاً عارفاً بالأصول والفروع، محققاً، حسن الخلق، صحيح المذهب. سير أعلام النبلاء ١٧/ ٦٦٧.

(٢) الشيخ الإمام، القدوة، المجتهد، شيخ الإسلام، أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف، الفيروز أبادي الشيرازي الشافعي، نزيل بغداد.
ولد في سنة ثلاث وتسعين وثلاث مئة، وقدم بغداد سنة خمس عشرة وأربع مئة.
قال السمعاني: هو إمام الشافعية، ومدرّس النظامية، وشيخ العصر، رحل الناس إليه من البلاد وقصدوه، وتفرد بالعلم الوافر مع السيرة الجميلة، صنّف في الأصول والفروع والخلاف والمذاهب، وكان زاهداً ورعاً متواضعاً. وقد توفي سنة ست وأربع مئة ببغداد. سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤٥٢.

(٣) (صديق في العبادة للغزالي) لم نعثر على ترجمته.

(٤) الشيخ الإمام العلامة القدوة المحدّث شيخ الإسلام أبو الفتح نصر بن إبراهيم بن نصر المقدسي، الإمام الزاهد المجمع على جلالته وفضيلته وله مصنّفات كثيرة في المذهب وغيره. صحبه الغزالي متبرّكاً به حين قدم إلى دمشق. . .
وقد توفي المقدسي سنة ٤٩٠ هـ بدمشق. سير أعلام النبلاء ١٩/ ١٣٦.

اللذّاتُ وَالحلَاوَاتُ، فَلا تَكَادُ تَصْفُو لأَحَدٍ عِبَادَةٌ، أَوْ يَحْصُلُ لَهُ عِلْمٌ وَحَقِيقَةٌ، فَإِنَّ اللَّمْعَةَ الّتِي تَظْهَرُ مِنّا الآنَ لَيْسَتْ إِلاّ مِمّا بَقِيَ عَلَى مِنْهَاجِ أَسْلاَفِنَا وَشُيُوخِنَا المُتَقَدِّمِينَ، كَالْحَارِثِ المُحَاسِبِيِّ[1]، وَمُحَمّدِ بْنِ إِدْرِيسَ الشّافِعِيِّ وَالمُزَنِيِّ[2] وَحَرْمَلَةَ[3] وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَئِمَّةِ الدِّينِ، رضي اللَّهُ عنهم أَجْمَعِينَ، فَهُمْ كَمَا قيل: [الطويل]:

رعى اللَّهُ قوماً قد رعوا حقّ ربّهم ... فلا نقضوا عهداً ولا أخلفوا عهدا
فمَا صَحِبُوا الأَيّامَ إِلاّ تَعَفُّفَا ... وَمَا وَجَدُوا مِنْ حُبِّ سَيِّدِهِمْ بُدَّا
أفاضِلُ صِدِّيقُونَ أَهْلُ وِلاَيَةٍ ... إِلَى سَيِّدِ السَّادَاتِ قَدْ جَعَلُوا القَصْدا
تَحَلَّلَ عَقْدُ الصَّبْرِ مِنْ كُلِّ صَابِرٍ ... وَمَا حَلّتِ الأَيَّامُ مِنْ صبرهِم عَقْدَا

---

(١) الزاهد العارف، شيخ الصوفية أبو عبد الله الحارث بن أسد، البغدادي المحاسبي، صاحب التصانيف في التصوف، ولقب المُحاسبي (بضم الميم) لكثرة محاسبته لنفسه.
له كتب كثيرة في الزهد، وأصول الديانة والردّ على المعتزلة والرافضة وقد توفي سنة ثلاث وأربعين ومئتين. سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٩٢.

(٢) الإمام العلاّمة، فقيه الملة علم الزهّاد أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى، صاحب الشافعي وهو من أهل مصر، كان زاهداً عالماً مجتهداً غوّاصاً على المعاني الدقيقة، وهو إمام الشافعيين وأعرفهم بطرقه وفتاويه وما ينقله عنه.
صنّف كتباً كثيرة في مذهب الإمام الشافعي الذي قال عنه: المُزَني ناصر مذهبي. توفي سنة ٢٦٤ هـ في مصر. والمزني (بضم الميم وفتح الزاي) نسبة إلى مُزَينة وهي قبيلة مشهورة. سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٩٢.

(٣) أبو عبد الله حرملة بن يحيى بن عبد الله، صاحَبَ الإمام الشافعي ولزمه وتفقّه به، وحدث عن ابن وهب فأكثر جداً، وكان أعلم الناس به.
ولد سنة ١٦٦ هـ ومات في سنة ٢٤٣ هـ. سير أعلام النبلاء ١١/ ٣٨٩.

وَكُنَّا فِي الصَّدْرِ الأَوَّلِ مُلُوكاً فِصِرْنَا سُوقَةً، وَكُنَّا فُرْسَاناً فَصِرْنَا رِجَالَةً[1]، وَلَيْتَنَا لاَ نَنْقَطِعُ عَنِ الطَّرِيقِ بِمَرَّةٍ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى الْمَصَائِبِ، والمسؤُولُ أَنْ لاَ يَسْلُبَنَا هٰذَا الرَّمَقَ، إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ، مَنَّانٌ رَحِيمٌ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

دواعي التفويض

وأمَّا التّفويض[2] فَتَأَمَّلْ فِيهِ أَصْلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ الاخْتِيَارَ لاَ يَصْلُحُ إِلاّ لِمَنْ كَانَ عَالِماً بِالأُمُورِ بِجَمِيعِ جِهَاتِهَا، ظَاهِرِهَا وَبَاطِنِهَا، وَحَالِهَا وَعَاقِبَتِهَا، وَإِلاَّ فَلاَ يَأْمَنُ أَنْ يَخْتَارَ الْهَلاَكَ وَالْفَسَادَ عَلَى مَا فِيهِ الْخَيْرُ وَالصَّلاَحُ، أَلاَ تَرَى أَنَّكَ لَوْ قُلْتَ لِبَدَوِيٍّ أَوْ قَرَوِيٍّ أَوْ رَاعِي غَنَمٍ: انقُدْ لِي هٰذِهِ الدَّرَاهِمَ وَمَيِّزْ لي بَيْنَ جَيِّدِهَا وَرَدِيئِهَا، فَإِنَّهُ لاَ يَهْتَدِي لِذٰلِكَ، وَلَوْ قُلْتَ لِسُوقِيٍّ غَيْرِ صَيْرَفِيٍّ فَرُبَّما يَعْسُرُ أَيْضاً؟ فَلاَ تَأْمَنْ إذن إِلا بِأَنْ تَعْرِضَهَا عَلَى الصَّيْرَفِيِّ الْخَبِيرِ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْخَواصِّ وَالأَسْرَارِ. وَهٰذَا الْعِلْمُ الْمُحِيطُ بِالأُمُورِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ لاَ يَصْلُحُ إِلاَّ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَلاَ يَسْتَحِقُّ إِذَنْ أَحَدٌ أَنْ يَكُونَ لَهُ الاخْتِيَارُ وَالتَّدْبِيرُ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَلِذٰلِكَ يَقُولُ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ [القصص: ٦٨] ثُمّ قالَ تَعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [النمل: ٧٤].

[٦٢/أ] وَحُكِيَ عَن بَعْضِ الصَّالِحِينَ، قِيلَ/ لَهُ: من قِبَلِ اللَّهِ تَعَالى: سَلْ تُعْطَ، وَكَانَ مُوَفَّقاً فَقَالَ: إِنَّ عَالِماً بِجَمِيعِ الْوُجُوه يَقُولُ لِجَاهِلٍ مِنْ

---

(١) رجالة: أي نسير على أقدامنا بعد أن كنا نركب الخيل.

(٢) أي تفويض الأمر كلّه لله.

جَمِيعِ الْوُجُوهِ: سَلْ تُعْطَ، أي شيء أَعْلَمُ مَاذَا يَصْلُحُ لِي فَأَسْأَلُهُ؟ وَلٰكِنِ ٱخْتَرْ أَنْتَ لِي، فَهٰذِهِ هٰذِهِ.

الأَصْلُ الثَّاني: مَا تَقُولُ لَوْ أَنَّ رَجُلاً قالَ لَكَ: أَنَا أَقُومُ بِجَمِيعِ أُمُورِكَ وَأُدَبِّرُ جَمِيعَ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ مَصَالِحِكَ، فَفَوِّضِ الأَمْرَ كُلَّهُ إِلَيَّ، وَاشْتَغِلْ أَنْتَ بِشَأْنِكَ الَّذِي يَعْنِيكَ؛ وَهُوَ عِنْدَكَ أَعْلَمُ أَهْلِ زَمَانِكَ، وَأَحْكَمُهُمْ وَأَقْوَاهُمْ وَأَرْحَمُهُمْ وَأَتْقَاهُمْ وَأَصْدَقُهُمْ وَأَوْفَاهُمْ؛ أَلَسْتَ تَغْتَنِمُ ذٰلِكَ وَتَعُدُّهُ أَعْظَمَ نِعْمَةٍ، وَتَمْتَنُّ مِنْهُ أَكْبَرَ مِنَّةٍ، وَتُقَدِّمُ لَهُ أَوْفَرَ شُكْرٍ وَأَجْمَلَ ثَنَاءٍ؟ ثُمَّ إِذَا ٱخْتَارَ لَكَ شَيْئاً لَا تَعْرِفُ وَجْهَ الصَّلَاحِ فِيهِ فَلَا تَضْجَرْ لِذٰلِكَ؛ بَلْ تَثِقُ وَتَطْمَئِنُّ إِلَى تَدْبِيرِهِ، وَتَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَخْتَارُ لَكَ إِلاّ مَا هُوَ الْخَيْرُ، وَمَا يَنْظُرُ لَكَ إِلاّ الصَّلَاحَ كَيْفَمَا كَان، بَعْدَمَا وَكَّلْتَ الأَمْرَ إِلَيْهِ وَضَمِنَ ذٰلِكَ؟

فَمَا لَكَ إِذَن لَا تُفَوِّضُ الأُمُور إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ وَهُو الذِي يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ؟ أَعْلَمُ كُلِّ عَالِمٍ، وَأَقْدَرُ كُلِّ قادِرٍ، وَأَرْحَمُ كلِّ راحِمٍ، وَأَغْنَى كُلِّ غَنِيٍّ، لِيَخْتَارَ لَكَ بِلَطِيفِ عِلْمِهِ وَحُسْنِ تَدْبِيرِهِ مَا لَمْ يَبْلُغْهُ عِلْمُكَ وَلَا يُدْرِكُهُ فَهْمُكَ؟ وَاشْتَغِلْ أَنْتَ بِشَأْنِكَ الَّذِي يَعْنِيكَ فِي عَاقِبَتِكَ، وَإِذَا اخْتَارَ لَكَ أَمْراً لَا تَعْلَمُ وَجْهَ سِرِّهِ رَضِيتَ بِذٰلِكَ وَاطْمَأْنَنْتَ إِلَيْهِ كَيْفَمَا كَانَ، هُوَ الصَّلَاحُ وَالْخَيْرُ، فَتأَمَّل راشِداً إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعالى وَبِاللَّهِ سُبحانه التَّوْفِيقُ.

دواعي الرضا بالقضاء

وَأَمَّا الرِّضَا بِالْقَضَاءِ، فَتَأَمَّلْ فِيهِ أَصْلَيْن مُقْنِعَينِ لَا مَزِيدَ عَلَيْهِمَا:

أَحَدُهُمَا: مَا فِي الرِّضَا مِنَ الْفَائِدَةِ فِي الحَالِ وَالمَآلِ.

فأَمَّا الْفَائِدَةُ الحالية فَفَرَاغُ الْقَلْبِ، وَقِلَّةُ الْهَمِّ مِنْ غَيْرِ فَائِدَةٍ،

وَلِذٰلِكَ قَالَ بَعْضُ الزُّهَادِ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِذَا كانَ الْقَـدر حَقّاً فَالْهَمُّ فَضْلٌ. وَأَصْلُه الخَبَرُ المَأْثُورُ عَن رسول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِابْنِ مَسْعُودٍ:

«لِيَقِلَّ هَمُّك، وَمَا قُدِّرَ يَكُنْ وَمَا لَمْ تُرْزَقْ لَمْ يَأْتِكَ»[1] هٰذَا هُوَ الْكَلَامُ الجَامِعُ، النَّبَوِيُّ، البَالِغُ[2] فِي قِلَّةِ اللَّفْظِ وَكَثْرَةِ المَعْنَى.

وَأَمَّا الْفَائِدَةُ فِي المَآلِ، فَثَوَابُ اللَّهِ تَعَالَى وَرِضْوَانُهُ، لقوله تَعَالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة: ١١٩]. وفي السُّخْطِ مِنَ الْهَمِّ وَالحُزْنِ وَالضَّجَرِ في الحَالِ[3]، وَالوِزْرِ وَالعُقُوبَةِ في الآخرة بِلَا فَائِدَةٍ، إِذِ الْقَضَاءُ نَافِذٌ فَلَا يَنْصَرِفُ بِهَمِّكَ وَسُخْطِكَ، كَما قِيلَ: [الكامل]:

[٦٢/ب] مَا قَدْ قُضِي يَا نَفْسُ فَاصْطَبِرِي لَهُ ... وَلَكِ الأَمَانُ مِنَ الّذِي لَمْ يُقْدَرِ/

(وتيقّنـي أَنَّ المُقَـدَّرَ كَـائِـنٌ ... حَتْماً عَلَيْكِ صَبَرْتِ أَمْ لَمْ تَصْبِرِي)[4]

---

(١) ــ ذكره السخاوي في المقاصد الحسنة (٤٧١) بلفظ: (لا يكثر همك، ما يقدر يكن وما ترزق يأتك) وقال: قاله لابن مسعود، رواه أبو نعيم من حديث خالد بن رافع وهو مختلف في صحبته، ورواه الأصبهاني في ترغيبه من رواية مالك بن عمر والمعافري مرسلاً. (راجع المقاصد الحسنة الحديث رقم ١٣٢٧).

ــ وذكر العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٥٠٥) إضافة إلى ما ذكره السخاوي أن لأبي نعيم أيضاً عن أنس قال: خدمت النبي عشر سنين فما لامني فيما نسيت ولا فيما ضيَّعت، فإن لامني بعض أهله قال دعوه، فما قدر فهو كائن، وفي رواية أخرى: فما قدر سيكون (الحديث رقم ٣١٣٠). وفي رواية لابن ماجه في سننه (١/ ٣٠) في باب القدر (... فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأنّ ما أخطأت لم يكن ليصيبك). الحديث رقم ٧٧.

(٢) البالغ: أي البليغ.

(٣) الحال: أي الدنيا.

(٤) سقط هذا البيت من الأصل، وذُكر في باقي النسخ.

وَالْعَاقِلُ لاَ يَخْتَارُ الهَمَّ بِلاَ فَائِدَةٍ مَعَ الْوِزْرِ وَالْعُقُوبَةِ عَلَى رَاحَةِ الْقَلْبِ وَثَوَابِ الجَنَّةِ.

وَالأَصْلُ الثَّاني: مَا فِي السُّخْطِ مِنْ عِظَمِ الْخَطَرِ وَالضَّرَرِ وَالْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ، إِلاَّ أَنْ يَتَدَارَكَهُ اللَّهُ. وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾ [النساء: ٦٥] نَفَى الإِيمَان، وَأَقْسَمَ عَلَى مَنْ سَخِطَ قَضَاء رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَيْفَ حَالُ مَنْ سَخِطَ قَضَاءَ الله تَعَالَى؟ وَرَوَيْنَا أَنَّ رسول الله ﷺ قال في حديث قدسي عن رب العالمين: «مَنْ لَمْ يَرْضَ بِقَضَائِي، وَلَمْ يَصْبِرْ عَلَى بَلاَئِي وَلَمْ يَشْكُرْ نَعْمَائِي فَلْيَتَّخِذْ إِلَهاً سِوَائي»[1].

قِيلَ كأَنَّهُ يَقُولُ: هٰذَا لاَ يَرْضَانِي رَبّاً حِينَ يَسْخَطُ، فَلْيَتَّخِذْ رَبّاً آخَرَ يَرْضَاهُ؛ وَهٰذَا غَايَةُ الْوَعِيدِ وَالتَّهْدِيدِ لِمَنْ عَقَلَ. وَلَقَدْ صَدَقَ بَعْضُ السَّلَفِ إِذْ قِيلَ لَهُ: مَا الْعُبُودِيَّةُ وَالرُّبُوبِيَّةُ؟ فَقَالَ: الرَّبُّ يَقْضِي

---

(١) ـ رواه الطبراني في المعجم الأوسط عن أنس بن مالك كما جاء في الجامع الصغير للسيوطي (٢/٥٥٨) الحديث رقم ٩٠٢٧ ولفظه: (من لم يرض بقضاء الله، ويؤمن بقدر الله فليلتمس إلَهاً غير الله) وأشار السيوطي إلى ضعفه.
ـ وذكره الألباني في ضعيف الجامع الصغير (٥/ ٢٥٠) الحديث رقم (٥٨٥٤) وأشار إلى ضعفه أيضاً وإلى وروده في الأحاديث الضعيفة برقم (٥٠٦) وفي الروض النضير برقم (١١٩).
ـ وقال الكديري في سراج الطالبين (٢/١٩٨ ـ ١٩٩): قال العراقي: رواه الطبراني في الكبير، وابن حِبّان في الضعفاء من حديث أبي هند الداري، وإسناده ضعيف.

وَالْعَبْدُ يَرْضَى، فَإِذَا قَضَى الرَّبُّ وَلَمْ يَرْضَ الْعَبْدُ فَمَا هُنَاكَ رُبُوبِيَّةٌ ولا عبوديّة.

الصبر

فَتأَمَّلْ هٰذَا الأَصْلَ لِنَفْسِكَ لَعَلّكَ تَسْلَمُ بِعَوْنِ اللّهِ وَتَوْفِيقِهِ.

وَأَمَّا الصَّبْرُ فَإِنّهُ دَوَاءٌ مُرٌّ، وَشُرْبَةٌ كَرِيهَةٌ إلا أنها مباركة كريمة[1] تَجْلِبُ كُلَّ مَنْفَعَةٍ، وَتَدْفَعُ عَنْكَ كُلَّ مَضَرَّةٍ، وإِذَا كَانَ الدَّوَاءُ بِهٰذِهِ الصِّفَةِ، فَالإِنْسَانُ الْعَاقِلُ يُكْرِهُ النَّفْسَ عَلَى شُرْبِهِ وَتَجَرُّعِهِ، وَيُغْضِي عَلَى مَرَارَتِهِ وَحِدَّتِه، وَيَقُولُ: مَرَارَةُ سَاعَةٍ وَرَاحَةُ سَنَةٍ.

أنواع الصبر

فَأَمَّا الْمَنَافِعُ الَّتِي يَجْلِبُهَا، فَاعْلَمْ أَنَّ الصَّبْرَ أَرْبَعَةٌ:

١ ــ صَبْرٌ عَلَى الطَّاعَةِ.

٢ ــ وَصَبْرٌ عَنِ الْمَعْصِيَةِ.

٣ ــ وَصَبْرٌ عَنْ فُضُولِ الدُّنْيَا.

٤ ــ وَصَبْرٌ عَلَى الْمِحَنِ وَالْمَصَائِبِ.

فوائد الصبر

فَإِذَا احْتَمَلَ مَرَارَةَ الصَّبْرِ، وَصَبَرَ فِي هٰذِهِ الْمَوَاطِنِ الأَرْبَعَةِ، تَحْصُلُ لَهُ الطَّاعَاتُ وَمَنَازِلُهَا، مِنَ الإِسْتِقَامَةِ وَثَوَابِهَا الْجَزِيلِ فِي الْعَاقِبَةِ، ثُمَّ لا يَقَعُ في الْمَعَاصِي وَبَلِيَّاتِها في الدُّنْيا وَتَبِعَاتِها في الآخِرَةِ، ثُمَّ لَا يُبْتَلَى بِطَلَبِ الدُّنْيَا وَمَا لَهَا مِنَ الشُّغْلِ فِي الْحَالِ وَالتَّبِعَةِ في الْمآلِ، ثُمَّ لَا يُحْبَطُ أَجْرُهُ عَلَى مَا ٱبْتُلِيَ بِهِ وَذَهَبَ عَنْهُ، فَحَصَلَ إِذَنْ بِسَبَبِ الصَّبْرِ الطَّاعَةُ وَمَنَازِلُها الشَّرِيفَةُ وَثَوَابُها، وَالتَّقْوَى

---

(١) في الأصل: وشربة كريهة مباركة. وما أثبتناه من (ج) لأنه يوضح المعنى المراد.

وَالزُّهْدُ وَالْعِوَضُ وَالثَّوَابُ الْجَزِيلُ مِنَ اللَّهِ عز وجل، وَتَفْصِيلُ ذٰلِكَ أَمْرٌ لاَ يَعْلَمُهُ إِلاَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

وَأَمَّا دَفْعُ المَضَارِّ فَيُرِيحُهُ أَوَّلاً مِنْ مُؤْنَةِ الْجَزَعِ وَمُقَاسَاتِهِ، في الدنْيَا، ثُم وِزْرِهِ وَعُقوبَتِهِ فِي الآخرة.

وَأَمَّا إنْ هُوَ ضَعُفَ/ عَن الصَّبْرِ وَسَلَكَ طَريقَ الْجَزَعِ، فَاتَهُ كُلُّ [٦٣/أ] مَنْفعَةٍ، وَلَحقَهُ كُلُّ مَضَرَّةٍ، إِذْ لاَ يَصْبِرُ عَلَى مَشَقَّةِ الطَّاعَةِ، فَلاَ يَفْعَلُ الطَّاعَةَ وَلاَ يَصْبِرُ عَلَى حِفْظِها فَيُحْبِطُهَا، أَوْ لاَ يَصْبِرُ عَلَى المُوَاظَبَةِ عَلَيْهَا، فَلاَ يَصِلُ إلى مَنْزِلَةٍ شَرِيفَةٍ فِيها مِنْ دَرَجَاتِ الإِسْتِقَامَةِ، أَوْ لاَ يَصْبِرُ عَنْ مَعْصِيَةٍ، فَيَقَعُ فِيهَا أَوْ عَنْ فُضُولٍ فَيَشْتَغِلُ بِهِ، أَوْ لاَ يَصْبِرُ عَلَى مُصِيبَةٍ يُحْرَمُ ثَوَابَ الصَّبْرِ، وَرُبَّمَا يُكْثِرُ الْجَزَعَ حَتَّى يَفُوتَ الْعِوَضُ بِسَبَبِ ذٰلِكَ فَتكُونُ لَهُ مُصِيبَتَانِ: فَوْتُ الشَّيْءِ، وَفَوْتُ الأَجْرِ وَالْعِوَضِ، وَحُلُولُ المَكْرُوهِ، وَحِرْمَانُ الصَّبْرِ. وَلَقَدْ قِيلَ: حِرْمَانُ الصَّبْرِ عَلَى المُصِيبَةِ أَشَدُّ مِنَ المُصِيبَةِ؛ وَأَيُّ فَائِدَةٍ في شَيْءٍ يُذْهِبُ الْحَاصِلَ المَوْجُودَ، وَلاَ يَرُدُّ عَلَيْكَ الذَّاهِبَ المَفْقُودَ؟ وإذَا فَاتَكَ أَحَدُهُمَا فَلاَ يَفُوتُكَ الآخَرُ.

وَمِنَ الْكَلاَمِ الْجَامعِ أَنَّ عَلِيّاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَزَّى رَجُلاً فَقَالَ: إِنْ صَبَرْتَ جَرَتْ عَلَيْكَ المَقَادِيرُ وَأَنْتَ مَأْجُورٌ، وَإِنْ جَزِعْتَ جَرَتْ عَلَيْكَ المَقادِيرِ وَأَنْتَ مَأْزُورٌ.

ثُمَّ أقولُ: إن جُمْلَةَ الأَمْرِ أَنَّ قَطْعَ الْقَلْبِ عَنِ الْعَلاَئقِ المَأْلُوفَةِ وَقطعَ النَّفْس عَنْ الْعَادَاتِ الرَّاسِخَةِ، بِالتَّوَكُّلِ المَحْضِ عَلَى اللَّهِ عَز وَجَلَّ، وَتَرْكِ التَّدْبِيرِ في الأُمُورِ، وَتَفْوِيضِها إلى اللَّهِ عَز وجل، مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ بِما هُوَ السِّرُّ فِيهَا، وَكَبْح النَّفْسِ عَنِ السخْطِ وَالجزعِ، مَعَ

تَسَارُعِ النَّفْسِ إِلَيْهِ، وَإِكْرَاهِهَا عَلَى لِجَامِ الرِّضَا وَتَجَرُّعِ شُرْبَةِ الصَّبْرِ مَعَ نَفْرَتِهَا عَنْ ذٰلِكَ، لِأَمْرٌ مُرٌّ وَعِلَاجٌ شَدِيدٌ وَحِمْلٌ ثَقِيلٌ، ولٰكِنَّهُ تَدْبِيرٌ سَدِيدٌ وَطَرِيقٌ مُسْتَقِيمٌ، وَلَهُ عَاقِبَةٌ مَحْمُودَةٌ وَأَحْوَالٌ سَعِيدَةٌ مَسْعُودَةٌ.

وَمَا تَقُولُ فِي الْوَالِدِ الْمُشْفِقِ الْغَنِيِّ، إِذَا عزّ وَلَدَهُ الْعَزِيزَ رُطَبَةً أَوْ تُفَّاحَةً يَأْكُلُها وَهُوَ أَرْمَدُ، وَسَلَّمَهُ إِلى المُعَلِّمِ الْغَلِيظِ السَّائِسِ، وَيَحْبِسُهُ طَول النَّهَارِ عِنْدَهُ وَيُضْجِرُهُ، وَيَحْمِلُهُ إِلَى الْحَجَّامِ لِيَحْجمَهُ فَيُوجِعَهُ وَيُقْلِقَهُ، أَتُرَى مَنَعَ ذٰلِكَ مِنْ بُخْلٍ بِهِ، كَيْفَ وَهُوَ يُعْطِي الأَجَانِبَ وَيُوسِعُ عَلَيْهِمْ؟ أَوْ هَوَانٍ بِهٰذَا الْوَلَدِ عِنْدَهُ، كَيْفَ وَهُوَ يَكْنِزُ لَهُ جَمِيعَ مَا في يَدِهِ؟ أَوْ قَصَدَ بذلك إِتْعَابَهُ وَإِيذَاءَهُ لِبُغْضٍ لَهُ، كَيْفَ وَهُوَ قُرَّةُ عَيْنِهِ وَثَمَرَةُ فُؤَادِهِ، لَوْ هَبَّتْ عَلَيْهِ رِيحٌ لَعَزَّ عَلَيْهِ؟، كَلَّا، وَلٰكِنْ لِمَا عَلِمَ أَنَّ صَلَاحَهُ فِي ذٰلِكَ، وَأَنَّ بِهٰذَا التَّعَبِ الْقَلِيلِ يَصِلُ/ [٦٣/ب] إِلى خيرٍ كثيرٍ وَنَفْعٍ عَظِيمٍ.

وَمَا تَقُولُ فِي الطَّبِيبِ الْحَاذِقِ النَّاصِحِ المُحِبِّ، إِذَا مَنَعَ المَرِيضَ الدَّنِفَ شُرْبَةَ مَاءٍ وَهُوَ ظَمْآنُ وَيَتَقَلَّى كَبِدُهُ، وَسَقَاهُ شُرْبَةَ إِهْلِيلَجٍ[1] كَرِيهَةً، تَجْزَعُ عَنْ ذٰلِكَ نَفْسُهُ وَطَبْعُهُ، (أَتُرَى)[2] أَنَّ ذٰلِكَ مِنْهُ مُعَادَاةٌ وَإِيذَاءٌ؟ كَلَّا، بَلْ نُصْحٌ وَإِحْسَانٌ لِمَا عَلِمَ يَقِيناً أَنَّ فِي إِعْطَائِهِ شَهْوَتَهُ سَاعَةً هَلَاكَهُ وَعَطَبَهُ رَأْساً، وَفي مَنْعِ ذٰلِكَ شِفَاؤُهُ وَبَقَاؤُهُ.

---

(١) الاهليلج: تمر، وهو أصناف كثيرة، يصنع منه شراب لمداواة بعض الأمراض وهو معروف لدى أصحاب هذه الصناعة.
(٢) لفظة ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

فَتَأَمَّلْ أَيُّهَا الرَّجُلُ إِذَا حَبَسَ اللَّهُ عَنْكَ رَغِيفاً أَوْ دِرْهَماً، فَتَعْلَمُ يَقِيناً أَنَّهُ يَمْلِكُ مَا تُرِيدُ، وَيَقْدِرُ عَلَى إِيصَالِهِ إِلَيْكَ، وَلَهُ الْجُودُ وَالفَضْلُ، وَيَعْلَمُ حَالَكَ فَلاَ يَخْفَى عَلَيْهِ مكانك بشَيْءٍ، فَلاَ عُدْمَ وَلاَ عَجْزَ وَلاَ خَفَاءَ، تَعَالى عَنْ ذٰلِكَ وَتَقَدَّسَ، فَإِنَّهُ أَغْنَى الأَغْنِيَاءِ وَأَقْدَرُ الْقَادِرِينَ، وَأَعْلَمُ الْعُلَمَاءِ، وَأَجْوَدُ الأَجْوَدِينَ؛ فَتَعْلَمْ إِذَنْ بِالْحَقِيقَةِ أَنَّهُ لَمْ يَمْنَعْكَ إِلاَّ لِصَلاَحٍ وَٱخْتِيَارٍ لَكَ، كَيْفَ وَهُوَ الّذِي يَقُولُ: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] كَيْفَ وَهُوَ الّذِي جَادَ عَلَيْكَ بِمَعْرِفَتِهِ، وَهِيَ الّتي تَتَلاَشَى في جَنْبِهَا الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا.

وَفِي الْخَبَرِ المَشْهُورِ: إِنَّ ٱللَّهَ سبحانه يَقُولُ: «إِنِّي لأَذُودُ أَوْلِيَائِي عَنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا كَمَا يَذودُ الرَّاعِي الشَّفِيقُ إِبلَهُ عَنْ مَبَارِكِ[1] الْعِرَّةِ»[2].

وَإِذَا ٱبْتَلاكَ بِشِدَّةٍ فَاعْلَمْ يَقِيناً أَنَّهُ غَنِيٌّ عَنِ ٱبْتِلاَئِكَ وَٱمْتِحَانِكَ، عَالِمٌ بِحَالِكَ، بَصِيرٌ بِضَعْفِكَ، وَهُوَ بِكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ؛ أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ ﷺ: «لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ المُؤْمِنِ مِنَ الْوَالِدَةِ الشَّفِيقَةِ بِوَلَدِهَا»[3].

---

(١) مبارك: جمع مَبْرَك: كمداخل ومدخل، وهو موضع بروك الإبل واضطجاعها، والعِرّ والعِرَّة: الجرب، والمقصود: إبعاد الإبل عن المواضع التي تؤذيها.

(٢) ـ قال الكديري في سراج الطالبين (٢/ ٢١١): هذا الخبر أورده أبو نعيم في الحلية، ومكّي بن طالب في قوت القلوب، طويلاً عن وهب بن منبّه.

(٣) ـ قال العراقي (إحياء ٤/ ٥٤٥): متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب، وفي أوله قصة المرأة من السَّبي إذ وجدت صبياً في السبي فأخذته ببطنها فأرضعته.

ـ وروى هذا الحديث البخاري (٨/ ٩) كتاب الأدب، باب رحمة الولد، بلفظ: (لله أرحم بعباده من هذه بولدها).

=

فَإِذَا (علمتَ هذا)[1] عَلِمْتَ أَنَّهُ لَمْ يُنْزِلْ بِكَ هٰذَا المَكْرُوهَ إِلاَّ لِصَلاَحٍ لك جَهِلْتَهُ أَنْتَ وَهُوَ عالم بِذٰلِكَ؛ وَلِهٰذَا تراه يُكْثِرُ ٱبْتِلاَءَ أنبيائه وَأَصْفِيائِهِ، الَّذِينَ هُمْ أَعَزُّ عِبَادِهِ؛ حَتَّى يَقُولَ ﷺ: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ قَوْماً ٱبْتَلاَهُم»[2] وَيَقُول: «أَشَدُّ النَّاسِ بَلاَءً الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الشُّهَدَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ»[3]. وَإِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يَحبِسُ عَنْكَ الدُّنْيَا، أَوْ يُكْثِرُ عَلَيْكَ الشَّدَائِدَ وَالبَلْوَى، فَاعْلَمْ أَنَّكَ عِنْدَهُ عَزِيزٌ، وَأَنَّكَ عِنْدَهُ

= ـ وهكذا رواه مسلم (٤/ ٢١٠٩) كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله، الحديث رقم ٢٧٥٤.

ـ في سنن ابن ماجه (٢/ ١٤٣٦) خبر آخر عن ابن عمر عن امرأة تحصب تنّورها قالت لرسول الله ﷺ: (أو ليس الله بأرحم بعباده من الأم بولدها؟ قال: نعم) وفي التعليق على هذا الحديث ذكر في الزوائد أن الإسناد بهذا الحديث ضعيف لضعف إسماعيل بن يحيى (أحد رواته)، متفق على تضعيفه (الحديث رقم ٤٢٩٧).

ـ وفي سنن أبي داود (٣/ ٤٦٩) كتاب الجنائز (الحديث ٣٠٨٩) رواية أخرى بلفظ: (لله أرحم بعباده من أم الأفراخ بفراخها).

(١) زيادة يقتضيها سياق الكلام مثبتة في باقي النسخ، ساقطة من الأصل.

(٢) ـ رواه ابن حنبل (٥/ ٤٢٧ ـ ٤٢٩) من حديث محمود بن لبيد، وتمامه: (. . . فمن صبر فله الصبر، ومن جزع فله الجزع).

ـ ورواه ابن ماجه في سننه (٢/ ١٣٣٨) عن أنس بن مالك، بلفظ: (عِظَمُ الجزاء من عِظَم البلاء وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط) (الحديث رقم ٤٠٣١).

ـ وذكره السيوطي في الجامع الصغير (١/ ٤٨) وصححه، الحديث رقم (٣٥٤) كما رواه الطبراني في المعجم الأوسط والمعجم الكبير، والبيهقي، والضياء المقدسي، عن أنس. قال الهيثمي: رجال الطبراني موثّقون. وقال المنذري رواته ثقات. (راجع فيض القدير ١/ ٢٤٦).

(٣) راجع تخريج الحديث ص ٢٦٨ حاشية (١).

بِمَكَانٍ عَلِيٍّ، وَأَنَّهُ يَسْلُكُ بِكَ طَرِيقَ أَوْلِيَائِهِ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ وَلاَ يَحْتَاجُ إِلَى ذَلِكَ. أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] بلِ اعْرِفْ مِنَّتَهُ عَلَيْكَ فِيمَا يَحْفَظُ عَلَيْكَ مِنْ صَلاَحِكَ، وَيُكْثِرُ مِنْ أَجْرِكَ وَثَوَابِكَ، وَيُنْزِلُكَ مَنَازِلَ الأَبْرَارِ وَالأَعِزَّةِ عِنْدَهُ، فَكَمْ تَرَى/ مِنْ [٦٤/أ] عَوَاقِبَ حَمِيدَةٍ، وَمَوَاهِبَ كَرِيمَةٍ، وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ.

فصل
في الرضا بترك التدبير إلى الله تعالى

وَبِالْجُمْلَةِ إِذ عَلِمْتَ يَقِيناً أَنَّ اللَّهَ تَعَالى المَلِيءُ[1] بِضَمَانِ رِزْقِكَ الَّذِي لاَ بُدَّ لَكَ مِنْهُ فِي بَقَائِكَ وَقِيامِكَ بِعِبَادَتِهِ، وَأَنَّهُ القادِرُ عَلَى مَا يَشَاءُ كَيْفَ شَاءَ، وَهُوَ الْبَصِيرُ بِحَاجَتِكَ حَالاً فحَالاً سَاعَةً فَسَاعَةً، اتَّكَلْتَ عَلَى ضَمَانِهِ الْحَقِّ وَوَعْدِهِ الصدق، وَسَكَنَ قَلْبُكَ بِذٰلِكَ وَأضربْتَ عَنْ تِلك الْعَلاَئِقِ وَالأَسْبَابِ، وَتَعَلُّقِ قَلْبِكَ بِها، إِذِ الْعَلاَئِقُ لاَ تُغْنِيكَ وَلاَ تَكْفِيكَ دُونَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنَّهُ تَعالى يُيَسِّرُ أَكْلَهَا وَشُرْبَهَا، ثُمَّ هُوَ الَّذِي يُمْرِئُهَا وَيُهْنِئُهَا، ثُمَّ هُوَ الَّذِي يُلْحِقُكَ قُوَّتَها وَنَفْعَهَا، وَيَدْفَعُ عَنْكَ ثِقْلَهَا وَضُرَّهَا، وَهُوَ تَعالى يُغْنِيكَ وَيَكْفِيكَ دُونَها إِذَا شَاءَ، فَالأَمْرُ كُلُّهُ إِلَيْهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، فَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ لاَ غَيْرُ.

وَكَذٰلِكَ تَتْرُكُ التَّدْبِيرَ في أُمُورِكَ على مَنْ يُدَبِّرُ السَّمواتِ وَالأَرْضَ، وَتُرِيحُ نَفْسَكَ عَنْ شَيْءٍ لاَ يَبْلُغُهُ عِلْمُكَ وَبَصرِكَ مِنْ أَمْرٍ يكون غداً أو لا يكون، بِأَنَّهُ كَيْفَ يَكُونُ؛ وَتَكُفُّ عَنْ لَعَلَّ وَلَوْ، إِذْ لَيْسَ فِيهِ إلاّ شَغْلُ الْقَلْبِ وَتَضْيِيعُ الْوَقْتِ، وَلَعَلَّهُ تَكُونُ أُمُورٌ لَمْ تَخْطُرْ

(١) المليء والمليّ بالادغام، على وزن فعيل: أي الغني والمقتدر.

بِبَالِكَ، فَيَكُونُ مَا سَبَقَ من فِكْرِكَ وتضييعُ العمر في ذلك، وَتَدْبِيرِكَ وَتَضْيِيعِكَ الْوَقْتَ الْعَزِيزَ لَغْواً بِلاَ فَائِدَةٍ، بَلْ خُسْرَاناً تَنْدَمُ عَلَيْهِ وَتُغْبَنُ فيهِ، لِمَكَانِ شُغْلِ القَلْبِ بلا فائدة؛ وَفي هٰذَا المَعْنَى لِبَعْضِ الزُّهّادِ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُمْ: [الكامل]:

سَبقَتْ مَقَادِيرُ الإِلٰهِ وَحُكْمُهُ ... فَأَرِحْ فُؤَادَكَ مِنْ لَعَلَّ وَمِنْ لَوِ

وقال آخر: [الخفيف]:

سَهِرَتْ أَعْينٌ ونامَتْ عُيونُ ... في أمورٍ تكون أو لا تكونُ
إنّ ربّاً كفاك بالأمس ما كا ... نَ سَيَكْفِيكَ في غدٍ ما يكونُ

وقالَ آخرُ: [الكامل]:

سَيَكُونُ مَا هُو كَائِنٌ في وَقْتِهِ ... وَأَخُو الْجَهَالَةِ مُتْعَبٌ مَحْزُونُ
فَلَعَلَّ مَا تَخْشَاهُ لَيْسَ بِكَائِنٍ ... وَلَعَلَّ مَا تَرْجُوهُ لَيْسَ يَكُونُ

وَتقُولُ لِنَفْسِكَ في الْجُمْلَةِ يَا نَفْس: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾ [التوبة: ٥١] وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ؛ إِذ هُوَ قَدِيرٌ لاَ نِهَايَةَ لِقُدْرَتِهِ، حَكِيمٌ لاَ نِهَايَةَ لِحِكْمَتِهِ، رَحِيمٌ لاَ نِهَايَةَ/ لِرَحْمَتِهِ؛ وَمَنْ كَانَ بِهٰذِهِ الصفة فَحَقِيقٌ أَنْ تتكل عَلَيْهِ وَتُفَوِّضَ الأَمْرَ كُلَّهُ إِلَيْهِ، فَعَلَيْكَ بِالتَّفْوِيضِ. [٦٤/ب]

الرضا بالقضاء

وَكَذٰلِكَ تُوَطِّنُ قَلْبَكَ عَلَى أَنّ مَا يَقضِي اللَّهُ لَكَ فَهُوَ الأَوْفَقُ وَالأَصْلَحُ وَأَنَّ ذٰلِكَ لاَ يَبْلُغُ عِلْمُنَا كَيْفِيَّتَهُ وَسِرَّهُ؛ وَتَقُولُ: يَا نَفْسُ المَقْدُورُ كَائِنٌ لاَ مَحَالَةَ؛ فَلاَ فَائِدَةَ في السُّخْطِ، وَالْخَيْرُ فِيمَا يَصْنَعُ اللَّهُ، فَلاَ وَجْهَ للسُّخْطِ، أَلَسْتِ تَقُولِينَ: رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبّاً، فَكَيْفَ لاَ تَرْضِينَ بِقَضَائِهِ! وَالْقَضَاءُ مِنْ شَأْنِ الرُّبُوبِيَّةِ وَحَقِّهَا، فَعَلَيْكَ بِالرِّضَا.

ضبط القلب عن الجزع

وَكَذٰلِكَ إِذَا أَصَابَتْكَ مُصِيبَةٌ وَحلَّ بِكَ مَكْرُوهٌ فتُرَاعِي نَفسَكَ عِنْدَ ذٰلِكَ، وَتَضْبُطُ قَلْبَكَ حَتَّى لَا تَجْزَعَ، وَلَا تَظْهَرُ منه شِكَايَةٌ وَقَلَقٌ، سِيَّمَا عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى، فَإِنّ الشَّأْنَ هُنَالِكَ، وَالنَّفْسُ مُتَسَارِعَةٌ جِدّاً إِلَى عَادَةِ الْجَزَعِ عِنْدَ ذٰلِكَ، وَتَقُولُ: يَا نَفْسُ هٰذِهِ قَدْ وَقَعَتْ، فَلَا حِيلَةَ لِدَفْعِهَا، وَقَدْ دَفَعَ اللَّهُ تَعَالَى مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهَا، فَإِنَّ أَنْواعَ الْبَلَاءِ فِي خَزَائِنِهِ لَكَثِيرَةٌ، وَإِنَّ هٰذِهِ سَتَنْقَضِي فَلَا تَبْقَى، وَإِنّها سَحَابَةٌ سَتَنْقَشِعُ، فَتَجَلَّدِي يَا نَفْسُ قَلِيلاً تَجِدِي لِذٰلِكَ سُرُوراً طَوِيلاً، وَثَواباً جَزِيلاً بَعْدَ أَنْ لَا دَفْعَ لِلنَّازِلِ، وَلَا فَائِدَةَ فِي الْجَزَعِ، وَلَا مُصِيبَةَ فِي الْحَقِيقَةِ مَعَ الْعَزَاءِ والصَّبْرِ، فَتَشْغَلُ لِسَانَكَ بِالاسْتِرْجَاعِ، وَقَلْبَكَ بِذِكْرِ مَا يَحْصُلُ لَكَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الأَجْرِ، وَتَتَذَكَّرُ صَبْرَ أُولِي الْعَزْمِ عَلَى المَصَائِبِ الْعِظَامِ مِنَ الأَنْبِيَاءِ وَالأَوْلِيَاءِ الأَعِزَّةِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى.

وَإِذَا حَبَسَ اللَّهُ عنك الرزق والدُّنْيَا فِي وَقْتٍ فَتَقُولُ: يَا نَفْسُ هُوَ أَعْلَمُ بِالْحَالِ وَأَرْحَمُ بِكِ وَأَكْرَمُ، وَأَنّهُ الّذِي يُطْعِمُ الْكَلْبَ فِي خِسَّتِهِ، وَيُطْعِمُ الْكَافِرَ فِي عَدَاوَتِهِ، وَأَنَا عَبْدُهُ الْعَارِفُ المُوَحِّدُ، أما أُسَاوِي عِنْدَهُ رَغِيفاً أيضاً؟، فَاعْلَمِي بِالْحَقِيقَةِ أَنَّهُ لَمْ يَحْبِسْ ذٰلِكَ عَنْكِ إِلَّا لِنَفعٍ عَظِيمٍ، وَسَيَجْعلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً، فَاصْبِرِي قَلِيلاً تَرَيِ الْعَجَبَ مِنْ لَطِيفِ صُنْعِهِ، أَمَا سَمِعْتِ الْقَائِلَ: [الوافر]:

تَـوَقَّـعْ صُنْـعَ رَبِّـكَ سَـوْفَ يَـأتِـي ... بِمـا تَهْـوَاهُ مِـنْ فَـرَجٍ قَـرِيـبِ

وَلَا تَيْـأَسْ إِذَا مَـا نَـابَ خَطْـبٌ ... فَكَمْ فِي الْغَيْبِ مِنْ عَجَبٍ عَجِيبِ

ولآخَر: [مجزوء الوافر]:

(أَلَا يَـا أَيُّهَـا المَـرْءُ ... الَّـذِي الْهَـمُّ بِـهِ بَـرَّحْ)[1]

---

(١) هذا البيت ساقط من الأصل، ومثبت في (د) و(ج).

إذَا ٱشْتَدَّتْ بِكَ الْعُسْرَى فَفَكِّرْ فِي أَلَمْ نَشْرَحْ/ [٦٥/أ]
فَعُسْرٌ بَيْنَ يُسْرَيْنِ إذَا كَرَّرْتَهُ فَٱفْرَحْ

فَإذَا جَرَّبْتَ هٰذِهِ الأَذْكَارَ وَنَحْوَهَا، وَوَاظَبْتَ عَلَيْهَا بِالتَّكْرِيرِ وَالتَّمْرِينِ، فَإِنَّ ذٰلِكَ سَيُهَوِّنُ عَلَيْكَ إذَا كَانَتْ لَكَ هِمَّةٌ وَٱجْتِهَادٌ زَمَاناً غَيْرَ طَوِيلٍ.

وَلَقَدْ دَفَعْتَ هٰذِهِ الْعَوَارِضَ الأَرْبَعَةَ[1] عَنْ نَفْسِكَ، وَكُفِيتَ مُؤْنَتَها وَصِرْتَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْمُتَوَكِّلِينَ الْمُفَوِّضِينَ، الرَّاضِينَ بِقَضَائِهِ، الصَّابِرِينَ عَلَى بَلاَئِهِ، وَحَصَّلْتَ لِنَفْسِكَ رَاحَةَ الْقَلْبِ وَالْبَدَنِ فِي الدُّنْيَا، وعَظِيمَ الثَّوَابِ وَالذُّخْرِ فِي الْعُقْبَى، وَجَلِيلَ الْقَدْرِ وَالمَحَبَّةِ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَيَجْتَمِعُ لَكَ خَيْرُ الدَّارَيْنِ، وَتَسْتَقِيمُ لَكَ طَرِيقُ الْعِبَادَةِ، إِذْ لاَ عَائِقَ وَلاَ شَاغِلَ، وَكُنْتَ حِينَئِذٍ قَدْ قَطَعْتَ هٰذِهِ الْعَقَبَةَ العسيرَةَ، واللَّهُ سُبْحَانَهُ المَسْئُولُ، أَنْ يُمِدَّكَ وَإِيَّانَا بِحُسْنِ تَوْفِيقِه، فَإِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ بِيَدِهِ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ بِاللَّهِ الْعَلِيِّ العَظِيمِ.

(١) وهي: الرزق، والأخطار، والمصائب، وأنواع القضاء.



العقبة الخامسة
وهي عقبة البواعث

ثُمَّ عَلَيْكَ يَا أَخِي بِالسَّيْرِ إِذَا ٱسْتَقَامَ لَكَ الطَّرِيقُ، وَسَهُلَتِ السَّبِيلُ، وَارْتَفَعَتِ العَوَائِقُ، وَزَالَتِ الْعَوَارِضُ، وَلاَ يَحْصُلُ لَكَ السَّيْرُ المُسْتَقِيمُ إِلاَّ بِاسْتِشْعَارِ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَإِلزامِهِمَا حَقَّهُمَا عَلَى حَدِّهِما.

أَمَّا الْخَوْفُ، فَيَجِبُ إِلْزَامُهُ لأَمْرَيْنِ:

ضرورة استشعار الخوف

أَحَدُهُما: للزَّجْرِ عَنِ المَعَاصِي؛ فَإِنَّ هٰذِهِ النَّفْسَ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ مَيَّالَةٌ إِلى الشَّرِّ، طَمَّاحَةٌ إِلَى الْفِتْنَةِ ولاَ تَنْتَهِي عَنْ ذٰلِكَ إِلاّ بِتَخْوِيفٍ عَظِيمٍ، وَتَهْدِيدٍ بَالِغٍ، لَيْسَتْ هِيَ فِي طَبْعِها حُرَّةً يَهُمُّهَا الْوَفَاءُ، وَيَمْنَعُهَا الْحَيَاءُ عَنْ الْجَفاءِ، إِنَّما هِيَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ رَحِمَهُ اللَّه:

[مجزوء الكامل]:

الْعَبْدُ يُقْرَعُ بِالْعَصَا ... وَالحُرُّ تَكْفِيهِ المَلاَمَهْ

وَالتَّدْبِيرُ في أَمْرِها أَنْ تُقْرِعَهَا أَبَداً بِسَوْطِ التَّخْوِيفِ، قَولاً وَفِعلاً وَفِكْراً؛ نَحْوَ مَا ذُكِرَ عَنْ بَعْضِ الصَّالِحِينَ، أَنَّ نَفْسَهُ دَعَتْهُ إِلى مَعْصِيَةٍ، فَانْطَلَقَ وَنَزَعَ ثِيَابَهُ، يَتَمَرَّغُ فِي الرَّمْضَاء، وَيَقُولُ لِنَفْسِهِ:

ذُوقي، فَنَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً مِنْ هٰذِهِ، أَيْ جِيفَةٌ بِاللَّيْلِ وَبَطَالَةٌ بِالنهَارِ.

وَالثَّانِي: لئلا تَعْجَبَ بِالطَّاعَاتِ فتَهْلِكَ، بَلْ تَقْمَعُها بِالذَّمِّ وَالْعَيْبِ وَالنَّقْصِ مِنَ الأسْوَاءِ وَالأَوْزَارِ، الَّتِي فِيهَا ضُرُوبُ الأَخْطَارِ، وَذٰلِكَ نَحْوُ مَا ذُكِرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ أُخِذْنَا أنا وعيسى بِمَا كَسَبَتْ هَاتَانِ لَعُذِّبْنَا عَذَاباً لَمْ يُعَذَّبْهُ أَحد»[1]/ ، وَأَشَارَ بِأُصْبعَيْهِ. وَعَنِ الْحَسَنِ[2] أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: مَا يأمَنُ أَحَدُنَا أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَ ذَنْباً، فأَطْبَقَ بَابَ المَغْفِرَةِ دُونَهُ، فَهُوَ يَعْمَلُ فِي غَيْرِ عمل. [٦٥/ب]

وَعَنِ ابْنِ السماك فِيمَا يُعَاتِبُ نَفْسَهُ: تَقُولِينَ قولَ الزَّاهِدِينَ، وَتَعْمَلِينَ عَمَلَ المُنَافِقِينَ، وَفِي الْجَنَّةِ تَطْمَعِينَ، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ! إِنَّ لِلْجَنَّةِ قَوْماً آخَرِينَ، وَلَهُمْ أَعْمَالٌ غَيْرُ مَا تَعْمَلِينَ.

فَهٰذِهِ وَأَمْثَالُهَا مِمّا يَلْزَمُ الْعَبْدَ تَذْكِيرُهَا لِلنَّفْس وَتَكْرِيرُهَا عَلَيْهَا، لِئلاَّ تَعْجَبَ بِطَاعَةٍ، أَوْ تَقَعَ فِي مَعْصِيَةٍ، وَبِاللَّهِ التَّوفِيقُ.

ضرورة استشعار الرجاء

وأَمَّا الرَّجَاءُ: فَإنمَا يَلْزَمُكَ اسْتِشْعَارُهُ لأَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: لِلْبَعْثِ[3] عَلَى الطاعَاتِ، وَذٰلِكَ أَنَّ الْخَيْرَ ثَقِيلٌ، وَالشَّيْطَان عَنْهُ زَاجِرٌ، وَالْهَوَى إلى ضِدِّهِ دَاعٍ، وَحَالُ أَهْلِ الغَفْلَةِ مِنْ عَامَّةِ الْخَلْقِ فِي النَّفْس مُنْطَبِعٌ مُشَاهَدٌ، وَالثَّوَابُ الَّذِي يُطْلَبُ بِهِ عَنِ الْعَيْنِ غَائِبٌ، وَأَمَدُ الْوُصُولِ إِلَيْهِ فيما يَحْسِبُهُ بَعِيدٌ، وَإِذَا كَانَ الْحَالُ عَلَى

---

(١) لم أجد له أصلاً.

(٢) أي الحسن البصري.

(٣) للبعث على الطاعات: أي للحض والحث عليها.

هٰذِهِ الْحَالَةِ، فَلاَ تَنْبَعِثُ النَّفْسُ لِلْخَيْرِ، وَلاَ تَرْغَبُ فِيهِ حَقَّهُ، وَلاَ تَهْتَزُّ لَهُ إِلاَّ بِأَمْرٍ يُقَابِلُ كُلَّ هٰذِهِ المَوَانِعَ، وَيُسَاوِيهَا، بَلْ يَزِيدُ عَلَيْهَا، وَذٰلِكَ الأَمْرُ هُوَ الرَّجَاءُ القَوِيُّ في رَحْمَةِ اللَّهِ تعالى، وَالتَّرْغِيبُ الْبَالِغُ في حُسْنِ ثَوَابِهِ وَكَرِيمِ أَجْرِهِ، وَلَقَدْ قَالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ: الْحُزْنُ يَمْنَعُ عَنِ الطَّعَامِ، وَالخَوْفُ يَمْنَعُ مِنَ الذُّنُوبِ، وَالرَّجَاءُ يُقَوِّي عَلَى الطَّاعَاتِ، وَذِكْرُ المَوْتِ يُزَهِّدُ في الفُضُولِ.

وَالثَّاني: لِيُهَوِّنَ عَلَيْكَ ٱحْتِمَالَ الشَّدَائِدِ وَالمَشَقَّاتِ.

وَٱعْلَمْ: أَنَّ مَنْ عَرَفَ مَا يَطْلُبُ هَانَ عَلَيْهِ مَا يَبْذُلُ؛ وَمَنْ طَابَ لَهُ شَيءٌ وَرَغِبَ فِيهِ حقَّ رَغْبَتِهِ، ٱحْتَمَلَ شِدَّتَهُ وَلَمْ يُبَالِ بِمَا يَلْقَى مِنْ مُؤْنَتِهِ؛ وَمَنْ أَحَبَّ أَحداً حَقَّ مَحَبَّتِهِ، أَحَبَّ أَيْضاً ٱحْتِمَالَ مِحْنَتِهِ، حَتَّى أَنَّهُ لَيَجِدُ لِذَلِكَ المِحْنَةِ ضُرُوباً مِنَ اللَّذَّةِ؛ أَلاَ تَرَى مُشْتَارَ[1] الْعَسَلِ لاَ يُفَكِّرُ بِلَسْعِ النَّحْلِ، لِمَا يَتَذَكَّرُ مِنْ حَلاَوَةِ الْعَسَلِ؛ وَالأَجِيرُ لاَ يَعْبَأُ بِارْتِقَاءِ السلَّم الطَّوِيلِ، مَعَ الْحِمْلِ الثَّقِيلِ طُولَ النَّهَارِ الصَّائِفِ المَدِيدِ، لِمَا يَتَذَكَّرُ مِنْ أَخْذِ دِرْهَمَيْنِ بِالْعَشِيِّ؛ وَإِنَّ الْفَلاَّحَ لا يُفَكِّرُ بِمُقَاسَاةِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَمُبَاشَرَةِ الشَّقَاءِ وَالكَدِّ طُولَ السَّنَةِ، لِمَا يَتَذَكَّرُ مِنَ الْبَيْدَرِ أَوَانَ الْغَلَّةِ؛ وَكَذٰلِكَ، يَا أَخِي، الْعُبَّادُ الذِينَ هُمْ أَهْلُ الاجْتِهَادِ، إِذَا ذَكَرُوا الْجَنَّةَ في طِيبِ مَقِيلِهَا، وَأَنْوَاعِ نَعِيمِهَا، مِنْ قُصُورِهَا وَحُورِهَا، وَطَعَامِهَا، وَشَرَابِهَا، وَحُلِيِّهَا وَحُلَلِهَا، وَسَائِرِ مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ تَعَالَى لأَهْلِهَا، هَانَ عَلَيْهِمْ مَا احْتَمَلُوهُ مِنْ تعَبٍ فِي عِبَادَةٍ،

---

(١) مشتار العسل: الذي يجتني ويستخرج عسل النحل من محلّه. وشار العسل: إستخرجه.

[٦٦/أ] أَوْ فَاتَهُمْ في الدُّنْيَا مِنْ لَذَّةٍ وَنِعْمَةٍ، أَوْ نَالَهُمْ مِنْ ضَرَرٍ/ وَمَشَقَّةٍ.

وَلَقَدْ حُكِيَ أَنَّ أَصْحَابَ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، كَلَّمُوهُ فِيمَا كَانُوا يَرَوْنَ مِنْ خَوْفِهِ وَٱجْتِهادِهِ وَرَثَّةِ حَالِهِ، فَقَالُوا: يَا أُسْتَاذُ: لَوْ نَقَصْتَ مِنْ هٰذَا الْجُهْدِ نِلْتَ مُرَادَكَ أَيْضاً إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، فَقَالَ سُفْيَانُ: كَيْفَ لَا أَجْتَهِدُ وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ أَهْلَ ٱلْجَنَّةِ يَكُونُونَ في مَنَازِلِهِمْ، فَيَتَجَلَّى لَهُمْ نُورٌ تُضِيءُ لَهُ الجَنَّاتُ الثَّمَان، فَيَظُنُّونَ أَنَّ ذٰلِكَ نُورٌ مِنْ جهة الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى فَيَخِرُّونَ سَاجِدِينَ، فَيُنَادَوْنَ: أَنْ ٱرْفَعُوا رُؤوسَكُمْ، لَيْسَ الَّذِي تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ نُورُ جَارِيَةٍ تَبَسَّمَتْ في وَجْهِ زَوْجِهَا، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ: [البسيط]:

مَا ضَرَّ مَنْ كَانَتِ الفِرْدَوْسُ مَنْزِلَهُ ... مَاذَا تَحَمَّلَ مِنْ بُؤسٍ وَإِقْتَارِ

تَرَاهُ يَمْشِي كئيباً خَائِفاً وَجِلاً ... إلى المَسَاجِدِ يَمْشِي بَيْنَ أَطْمَارِ

يَا نَفْسُ مَا لَكِ مِنْ صَبْرٍ عَلَى لهبٍ[1] ... قَدْ حَانَ أَنْ تُقْبِلي مِنْ بَعْدِ إِدْبَارِ

قُلْتُ أَنَا: وَإِذَا كَانَ مَدَارُ أَمْرِ العِبادة عَلَى الأَمْرَيْنِ: الْقِيَام بِالطَّاعَةِ وَالِانْتِهَاءِ عَنِ المَعْصِيَةِ، وَذٰلِكَ لَا يَتِمُّ مَعَ هٰذِهِ النَّفْس الأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ إِلَّا بِتَرْغِيبٍ وَتَرْهِيبٍ وَتَرْجِيَةٍ وَتَخْوِيفٍ، فَإِنَّ الدَّابَّةَ الْحَرُونَ تَحْتَاجُ إلى قَائِدٍ يَقُودُهَا، وَإلى سَائِقٍ يَسُوقُهَا، وإذا وَقَعَتْ في مَهْوَاةٍ، فَرُبَّمَا تُضْرَبُ بِالسَّوْطِ مِنْ جَانِبٍ، وَيُلَوَّحُ لَهَا بِالشَّعِيرِ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ، حَتَّى تَنْهَضَ وَتَتَخَلَّصَ مِمَّا وَقعَتْ فِيهِ، وَإِنَّ الصَّبِيَّ الْعَرِمَ لَا يَمُرُّ إلى الكُتَّابِ إِلَّا بِتَرْجِيَةٍ مِنَ الوَالِدَيْنِ، وَتَخْوِيفٍ مِنَ المُعَلِّمِ؛ فَكَذٰلِكَ

ترغيب النفس وترهيبها

(١) في الأصل: نار، والتصويب من (د) و(هـ) وهذا يتفق مع عروض البحر البسيط.

النَّفْسُ دابَّةٌ حَرُونٌ، وَقَعَتْ في مَهْوَاةِ الدُّنْيا، فَالْخَوفُ سَوْطُهَا وَسَائِقُهَا، وَالرَّجَاءُ شَعِيرُهَا وَقَائِدُها، وَإِنَّهَا الصَّبِيُّ الْعَرِمُ، يُحْمَلُ إلى كُتّابِ الْعِبَادَةِ وَالتَّقْوَى، فَذِكْرُ النَّارِ وَالْعِقَابِ تَخْوِيفُها، وَذِكْرُ الْجَنَّةِ وَثَوابِهَا تَرْجِيَتُها وَتَرْغِيبُها. ولِذٰلِكَ يَلْزَمُ الْعَبْدَ الطَّالِبَ لِلْعِبَادَةِ وَالرِّيَاضَةِ، أَنْ يُشْعِرَ النَّفْسَ بِالأمْرَيْنِ اللَّذَيْنِ هُمَا: الخَوْفُ وَالرَّجَاءُ، وَإلاّ فَلاَ تُسَاعِدُ النَّفْسُ الجَمُوحُ عَلَى ذٰلِكَ، وَبِهَذا المَعْنَى أتى الذِّكْرُ الْحَكِيمُ بِمَجْمُوعِ الأمْرَيْنِ: الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ، وَالتَّرْغِيبُ والتَّهدِيدُ، وأبلغ في كُلٍّ مِنهُمَا، فَذَكَرَ مِنَ الثَّوَابِ الكَرِيمِ مَا لاَ صَبْرَ عَنْهُ، وَذَكَرَ مِنَ الْعِقَابِ الأَلِيمِ مَا لاَ صَبْرَ عَلَيْهِ؛ فَعَلَيْكَ إذاً بِالْتِزَامِ هٰذينِ المَعْنَيَيْنِ، يَحْصُلُ لَكَ مُرَادُكَ، وَيَسْهُل عَلَيْكَ احْتِمَالُ المَشَقَّةِ، وَاللَّهُ تَعَالَى وَلِيُّ التَّوْفِيقِ بِفَضْلِهِ.

حقيقة الخوف

فَإنْ قُلْتَ: فَمَا حَقِيقَةُ الرَّجاءِ وَالخَوْفِ وَحُكْمُهُمَا؟

فَاعْلَمْ أَنَّ الْخَوْفَ/ وَالرَّجَاءَ عِنْدَ عُلَمَائِنا رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَرْجِعَانِ إلى قَبِيلِ الْخَوَاطِرِ، وَإِنَّمَا المَقْدُورُ لِلْعَبْدِ مُقَدِّمَاتُهُمَا. [٦٦/ب]

قَالُوا: الْخَوْفُ رَعْدَةٌ تَحْدُثُ في الْقَلْبِ عَنْ ظَنِّ مَكْرُوهٍ يَنَالُهُ، وَالْخَشْيَةُ نَحْوُهُ؛ لٰكِنِ الْخَشْيَةُ تَقْتَضِي ضَرْباً مِنَ الاِسْتِعْظَامِ وَالمَهابَةِ؛ وَضِدُّ الْخَوْفِ، الْجَرَاءَةُ؛ وَلٰكِنْ قَدْ يُقَابَلُ بِالأمْنِ، يُقَالُ: خَائِفٌ، وَآمِنٌ، وَخَوْفٌ، وَأَمْنٌ، لِأَنَّ الآمِنَ الّذِي يَجْتَرِىءُ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَالْحَقِيقَةُ أَنّ الْجَرَاءَةَ تُضادُّهُ.

مقدِّمات الخوف

وَمُقَدِّمَاتُ الْخَوْفِ أَرْبَعٌ:

الأُولَى[1]: ذِكْرُ الذُّنُوبِ الكَثِيرَةِ الَّتِي سَبَقَتْ، وَكَثْرَةُ الْخُصُومِ الَّذِينَ مَضَوْا في المظالِمِ، وَأَنْتَ مُرْتَهِنٌ لَمْ يَتَبَيَّنْ لَكَ الْخَلاَصُ بَعْدُ.

وَالثَّانِيَةُ: ذِكْرُ شِدَّةِ عُقُوبَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، الَّتِي لاَ طَاقَةَ لَكَ بِهَا.

وَالثَّالِثَةُ: ذِكْرُ ضَعْفِ نَفْسِكَ عَنِ احْتِمَالِها.

حقيقة الرجاء

وَالرَّابِعَةُ: ذِكْرُ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْكَ مَتَى شَاءَ وَكَيْفَ شَاءَ.

وَأَمَّا الرَّجَاءُ: فَهُوَ ابْتِهَاجُ الْقَلْبِ بِمَعْرِفَةِ فَضْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَاسْتِرْوَاحُهُ إلى سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهٰذَا مِنْ جُمْلَةِ الْخَوَاطِرِ غَيْرُ مَقْدُورٍ لِلْعَبْدِ. وَرَجَاءٌ هُوَ مَقْدُورٌ، وَهُوَ تَذَكُّرُ فَضْلِ اللَّهِ وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ؛ وَقَدْ تُسَمَّى أَيْضاً إِرَادَةُ الْمُخَاطَرَةِ بِالاِسْتِثْنَاءِ رَجاء. وَالمُرَادُ مِنْ هٰذَا البَابِ، هُوَ الأَوَّلُ، وَهُوَ التَّذَكُّرُ عَلَى حَسَبِ الاِبْتِهَاجِ وَالاِسْتِرْوَاحِ؛ وَضِدُّهُ الْيَأْسُ، وَهُوَ تَذَكُّرُ فَوَاتِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَقَطْعُ الْقَلْبِ عَنْ ذٰلِكَ، وَهُوَ مَعْصِيَةٌ مَحْضَةٌ.

وَهٰذَا الرَّجَاءُ فَرْضٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْعَبْدِ سَبِيلٌ إِلى الامْتِناعِ عَنِ الْيَأْسِ إلاّ بِهِ، وَإِلاَّ فَهُوَ نَفْلٌ بَعْدَ اعْتِقَادِ الْجُمْلَةِ في فَضْلِ اللَّهِ وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ.

مقدمات الرجاء

وَمُقَدِّمَاتُ الرَّجَاءِ أَرْبَعٌ:

الأُولَى: ذِكْرُ سَوَابِقِ فَضْلِهِ إِلَيْكَ مِنْ غَيْرِ قَدَمٍ أَوْ شَفِيعٍ.

وَالثَّانِيَةُ: ذِكْرُ مَا وَعَدَ مِنْ جَزِيلِ ثَوَابِهِ وَعَظِيمِ كَرَامَتِهِ حَسَبِ

---

(١) ساقطة من الأصل: مثبتة في باقي النسخ.

فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ، دُونَ ٱسْتِحْقَاقِكَ إِيَّاهُ بِالْفِعْلِ، إِذْ لَوْ كَانَ عَلَى حَسَبِ الْفِعْلِ لَكَانَ أَقَلَّ شَيْءٍ وَأَصْغَرَ أَمْرٍ.

وَالثَّالِثَةُ: ذِكْرُ كَثْرَةِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ فِي أَمْرِ دِينِكَ وَدُنْيَاكَ فِي الْحَالِ، مِنْ أَنْوَاعِ الإِمْدَادِ وَالأَلْطَافِ، مِنْ غَيْرِ ٱسْتِحْقَاقٍ أَوْ سُؤَالٍ.

وَالرَّابِعَةُ: ذِكْرُ سِعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَسَبْقِهَا غَضَبَهُ، وَأَنَّهُ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ، الْغَنِيُّ الْكَرِيمُ، الرَّؤُوفُ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ.

فَإِذَا وَاظَبْتَ عَلَى هٰذَيْنِ النَّوْعَيْنِ مِنَ الأَذْكَارِ أفضيا بِكَ إِلى ٱسْتِشْعَارِ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ بِكُلِّ حَالٍ، وَاللَّهُ تَعَالَى وَلِيُّ التَّوفِيق بِفَضْلِهِ ورحمتِهِ.

فصل
ضرورة الاحتياط عند قطع عقبة البواعث

[٦٧/أ] فعلَيْكَ/ أيُّها الرَّجُلُ بِقَطْعِ هٰذِهِ الْعَقَبَةِ في تَمَامِ الاِحْتِيَاطِ وَالتَّحَرُّزِ وَحَدِّ الرِّعَايَةِ، فَإِنَّهَا عَقَبَةٌ دَقِيقَةُ المَسْلَكِ، خَطِرَةُ الطَّرِيقِ، وَذٰلِكَ أَنَّ طَرِيقَها بَيْنَ طَرِيقَيْنِ مَخُوفَيْنِ مُهْلِكَيْنِ: أَحَدُهُمَا طَرِيقُ الأمْنِ. وَالثَّانِي طَرِيقُ الْيَأْس، وَطَرِيقُ الرَّجَاءِ وَالخَوْفِ هُوَ الطَّرِيقُ الْعَدْلُ بَيْنَ الطَّرِيقَيْنِ الْجَائِرَيْن، فَإِنْ غَلَبَ الرَّجَاءُ عَلَيْكَ حَتَّى فَقَدْتَ الْخَوْفَ أَلْبَتَّة، وَقَعْتَ فِي طَرِيقِ الأَمْنِ: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩٩﴾ [الأعراف ٩٩]، وَإِنْ غَلَبَ الْخَوْفُ حَتَّى فَقَدْتَ الرَّجَاءَ أَلْبَتَّةَ، وَقَعْتَ فِي طَرِيقِ الْيَأْس: ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٧﴾ [يوسف: ٨٧] فَإِنْ كُنْتَ رَكِبْتَ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ، وَٱعْتَصَمْتَ بِهِما جَمِيعاً، فَهُوَ الطَّرِيقُ الْعَدْلُ الْمُسْتَقِيمُ، الَّتِي هِيَ سَبِيلُ أَوْلِيَاءِ اللّهِ تَعَالَى وَأَصْفِيَائِهِ، الَّذِينَ وَصَفَهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠].

فَإِذَن ظَهَرَ لَكَ فِي هٰذِهِ الْعَقَبَةِ ثَلَاثَةُ طُرُقٍ: طَرِيقُ الأَمْنِ وَٱلْجَرَاءَةِ، وَطَرِيقُ الْيَأْسِ وَالْقُنُوطِ، وَطَرِيقُ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ مُمْتَدٌّ

بَيْنَهُمَا؛ فَإِنْ مِلْتَ عَنْهُ بِقَدَمٍ إلى يَمِينِكَ أَوْ يَسَارِكَ، وَقَعْتَ في المُهْلِكَيْنِ وَهَلَكْتَ مَعَ الْهَالِكِينَ؛ ثُمَّ الشَّأْنُ أَنَّ الطَّرِيقَيْنِ الْجَائِرَيْنِ المُهْلِكَيْنِ أَوْسَعُ مَجَالاً وَأَكْثَرُ دَاعِياً، وَأَسْهَلُ سُلُوكاً مِنَ الطَّرِيقِ الْعَدْلِ، لِأَنَّكَ إِذَا نَظَرْتَ مِنَ جَانِبِ الأَمْنِ، رَأَيْتَ مِنْ سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَكَثْرَةِ فَضْلِهِ وَغَايَةِ جُودِهِ، مَا لاَ يَبْقَى لَكَ مَعَهُ خَوْفٌ، فَتَتَّكِلُ عَلى ذٰلِكَ بِمَرَّةٍ وتأنس بِهِ؛ وإِنْ نَظَرْتَ مِنْ جَانِبِ الْخَوْفِ، رَأَيْتَ مِنْ عَظِيمِ سِيَاسَةِ اللَّهِ وَكَثْرَةِ هَيْبَتِهِ، وَدِقَّةِ أَمْرِهِ، وَغَايَةِ مُنَاقَشَتِهِ، مَعَ أَوْلِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ، مَا لاَ يَكَادُ يَبْقَى مَعَهُ رَجَاءٌ، فَتَيْأَسُ بِمَرَّةٍ وَتَقْنَطُ، فَتَحْتَاجُ أَنْ لاَ تَنْظُرَ إِلى سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَقَطْ، حَتَّى تَتَّكِلَ وَتَأْمَنَ، وَلاَ إِلى عَظِيمِ الْهَيْبَةِ وَالمُنَاقَشَةِ فَقَطْ، حَتَّى تَقْنَطَ وَتَيْأَسَ، بَلْ تَنْظُرُ إِلى هٰذَا وَإِلى هٰذَا جَمِيعاً، وَتَأْخُذُ مِنْ هٰذَا بَعْضاً، وَمِنْ هٰذَا بعْضاً، فَتَرْكَبَ بَيْنَهُمَا طَرِيقاً دَقِيقاً، وَتَسْلُكَ ذٰلِكَ لِتَسْلَمَ، فَإِنَّ طَرِيقَ الرَّجَاءِ المَحْضِ سَهْلٌ وَاسِعٌ عَرِيضٌ، وَعَاقِبَتُهُ تُؤَدِّيك إلى الأَمْنِ وَالْخُسْرَانِ؛ وَطَرِيقُ الْخَوْفِ المَحْضِ وَاسِعٌ عَرِيضٌ، وَعَاقِبَتُهُ تُؤَدِّيكَ إِلى الضَّلاَلِ؛ والطَرِيقُ الْعَدْل بَيْنَهُمَا، طَرِيقُ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، وَإِنْ كَانَ دَقِيقاً عَسِراً، فَإِنَّه/ سَبِيلٌ سَالِمٌ، وَمَنْهَجٌ بَيِّنٌ، يُؤَدِّي إِلى الْغُفْرَانِ [٦٧/ب] وَالإِحْسَانِ، ثُمَّ إِلَى الْجِنَانِ وَالرِّضْوَانِ، وَلِقَاءِ المَلِك الرَّحمٰنِ؛ أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ تَعَالَى في أَبْنَاءِ هٰذَا السَّبِيلِ: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]، وقالَ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧]، فَتَأَمَّلْ هٰذِهِ الْجُمْلَةَ جِدّاً وَتَشَمَّرْ وَتَنَبَّهْ لِلأَمْرِ، فَإِنَّهُ لاَ يَجِيءُ بِالْهُوَيْنَا، وَاللَّهُ الموفّق.

أصول سلوك طريق الخوف والرجاء

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّهُ لاَ يَتَأَتَّى لَكَ سُلُوكُ هٰذِهِ الطَّرِيقِ، وَحَمْلُ هٰذِهِ النَّفْس الْجَمُوحِ الكسلانة عَلَى الْخَيْرِ، بِاجْتِنَابِ المَحْبُوبِ عِنْدَهَا، وَاكْتِسَابِ الطَّاعَاتِ الثَّقِيلَةِ عَلَيْهَا، إلاَّ بِالتَّحَفُّظِ بِثَلاثَةِ أُصُولٍ، وَالتَّذَكُّرِ لَهَا عَلَى سَبِيلِ الدَّوَامِ، مِنْ غَيْرِ فَتْرَةٍ[1] وَلاَ غَفْلَةٍ.

الأول: ذِكْرُ أَقْوَالِهِ سُبْحَانَهُ في التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ.

وَالثَّانِي: ذِكْرُ أَفْعَالِهِ سُبْحَانَهُ في الأخْذِ وَالْعَفْوِ.

وَالثَّالِثُ: ذِكْرُ جَزَائِهِ لِلْعِبادِ في المَعادِ مِنَ الثّوابِ وَالْعِقَابِ. وَتَفْصِيلُ كُلِّ أصْلٍ مِنْهَا يَحْتَاجُ إِلى صُحُفٍ كَثِيرَةٍ، وَلِأَجْلِهَا صَنَّفْنَا كِتَابَ: «تَنْبِيهِ الْغَافِلِينَ»، وَنَحْنُ نُشِيرُ في هٰذَا الْكِتَابِ إِلى كَلِمَاتٍ تُوقِفُكَ عَلَى المَقْصُودِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تعالى.

---

(١) الفترة: الضعف.

الأصلُ الأوّل: أَقواله سبحانَهُ

تَدَبَّرْ أَيُّهَا الرجُلُ مَا في الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، مِنْ آيَاتِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ وَالتَّرْجِيَةِ وَالتَّخْوِيفِ.

فَمِنْ آيَاتِ الرَّجاء قَوْلُهُ تَعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزّمر: ٥٣] ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥] ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر: ٣] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥] - ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢] - ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: ١٤٣] - ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣] فَهٰذِهِ وَنَحْوُهَا من آيَاتِ الرَّجَاء.

وَمِنْ آيَاتِ الْخَوْفِ وَالسياسَةِ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [الزّمر: ١٩] - ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥] - ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦] ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء: ١٢٣] - ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٤] - ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾

[الزّمر: ١٤٧] ـ ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣] نَسْأَلُ ٱللهَ تَعَالى أَنْ يُسَلِّمَنَا بِرَحْمَتِهِ.

وَمِنَ الآيَاتِ اللَّطِيفَةِ الْجَامِعَةِ بَيْنَ الْخَوفِ وَالرَّجَاءِ قَوْلُهُ تَعَالى: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الحجر: ٤٩] ثُمَّ قَالَ فِي عَقِبِهِ: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ٥٠] لِئَلاَّ يَسْتَولِي عَلَيْكَ/ [٦٨/أ] الرّجَاءُ بِمَرّةٍ، وَقَوْلُهُ: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣] ثُمَّ قَالَ فِي عَقِبِهِ: ﴿ذِي ٱلطَّوْلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ [غافر: ٣] لِئَلاَّ يَسْتَوْلِي عَلَيْكَ الْخَوفُ بِمَرَّةٍ، وَأَعْجَبُ من ذلك قَوْلُهُ تَعَالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٠]، ثُمَّ قَالَ فِي عَقِبِهِ تَعَالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ [آل عمران: ٣٠] وَأَعْجَبُ مِنْهُ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [قٓ: ٣٣].

عَلَّقَ الْخَشْيَةَ بِاسْمِ الرَّحْمٰنِ، دُونَ ٱسْمِ ٱلْجَبّارِ، أو الْمُنْتَقِمِ، وَالْمُتكبِّرِ وَنَحْوِهِ، لِتَكُونَ الْخَشْيَةُ مَعَ ذِكْرِ الرَّحْمَةِ، فَلَا تَكُونُ ٱلْخَشْيَةُ تُطِيرُ قَلْبَكَ بِمَرَّةٍ، فَيَكُونُ تَخْوِيفاً فِي تَأْمِينٍ، وَتَحْرِيكاً فِي تَسْكِينٍ، كَما تَقُولُ: أَمَا تَخْشَى الْوَالِدَةَ الرَّحِيمَةَ؟ أَمَا تَخَافُ الْوَالِدَ الرحيم؟ أَمَا تَخَاف الأَمِيرَ الْكَرِيمَ؟ وَالْمُرَادُ مِنْ ذٰلِكَ أَنْ يكونَ الطّرِيقُ عَدْلاً، فَلاَ تَذْهَبْ إِلى أَمْنٍ ولا قُنُوطٍ.

جَعَلَنَا الله وَإِيَّاكُمْ مِنَ الْمُتَدَبِّرِينَ لِهٰذَا ٱلذِّكْرِ الْحَكِيمِ، الْعامِلِينَ بِما فِيهِ، إِنّهُ هُوَ الْجَوادُ الْكَرِيمُ.

الأصلُ الثاني: في أفعاله ومعاملاته

من جانب الخوف:

أَمَّا مِنْ جَانِبِ الْخَوْفِ: فَأولاً أَنَّ إبْليسَ عَبَدَهُ ثمانِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، فَلَمْ يَتْرُكْ فِيمَا قِيلَ، مَوْضِعَ قَدَمٍ إلاّ سَجَدَ فِيهِ لله تَعَالى سَجْدَةً، ثُمَّ تَرَكَ لهُ أَمْراً وَاحِداً، فَطَرَدَهُ عَنْ بَابِهِ، وَضَرَبَ بِوَجْهِهِ عِبَادَةَ ثَمَانِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَلَعَنَهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً أَلِيماً أَبَدَ الآبِدِينَ. (خبر إبليس)

(خبر يونس)

حَتَّى رُوِيَ أَنَّ الصَّادِقَ الأَمِينَ، صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِ وَسَلاَمُهُ، رَأى جِبْرِيلَ، مُتَعَلِّقاً بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ وَهُوَ يَصْرُخُ: إلٰهِي: لاَ تُغَيِّرَ ٱسْمِي وَلاَ تُبَدِّلْ جِسْمِي. (خبر جبريل)

ثُمَّ آدمُ ﷺ، صَفِيُّهُ وَنَبِيُّهُ الَّذِي خَلَقَهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَهُ مَلاَئِكَتَهُ، وَحَمَلَهُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ إلى جِوَارِهِ، ٱنْبَسَطَ فَأَكَلَ أَكْلَةً وَاحِدَةً لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فِيهَا، فَنُودِيَ: أَلاَ لا يُجَاوِرُنِي مَنْ عَصَانِي، وَأَمَرَ المَلاَئِكَةَ الَّذِينَ حَمَلُوا سَرِيرَهُ، يَزُجُّونَهُ مِنْ سَمَاءٍ إلى سَمَاء، حَتَّى أَهْوَوْهُ بالأَرْضِ، وَلَمْ تُقْبَلْ تَوْبَتُهُ فِيمَا رُوِي، حَتَّى بَكَى عَلَى ذٰلِكَ مِائَتَيْ سَنَة، وَلَحِقَهُ مِنَ الْهَوَانِ وَالْبَلاَءِ مَا لَحِقَهُ، وَبَقِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ في تَبِعَاتِ ذٰلِكَ إلَى الأَبَدِ. (خبر آدم)

ثُمَّ إنَّ نُوحاً ﷺ شَيْخَ المُرْسَلِينَ، الَّذِي ٱحْتَمَلَ في أَمْرِ دِينِهِ مَا (خبر نوح)

ٱحْتَمَلَ، لَمْ يَقُلْ إلاَّ كَلِمَةً وَاحِدَةٍ عَلَى غَيْرِ وَجْهِهَا، إذْ نُودِيَ: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود: ٤٦]. حَتَّى رُوِيَ فِي بَعْضِ الأَخْبَارِ أَنَّهُ لَمْ يَرْفع رَأْسَهُ إلى السَّمَاءِ حَيَاءً مِنَ الله تعالى أَرْبَعِينَ سَنَةً.

خبر إبراهيم

ثُمَّ إبْرَاهِيم خَلِيل ٱلله ﷺ، لَمْ يَكُنْ مِنْهُ إلاّ هَفْوَةٌ وَاحِدَةٌ، فَكَمْ خَافَ وَتَضَرَّعَ وَقَالَ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: ٨٢] حتى رُوِيَ أَنَّهُ كَانَ يَبْكِي مِنْ شِدَّةِ/ [٦٨/ب] الْخَوْفِ، فَيُرْسِلُ ٱلله عَزَّ وجلَّ الأَمِينَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَقُولُ يَا إبراهيمُ: هَلْ رَأَيْتَ خَلِيلاً يُعَذِّبُ خَلِيلَهُ بِالنَّارِ؟ فَيَقُولُ: يَا جِبْرِيلُ إِذَا ذَكَرْتُ خَطِيئَتِي نَسِيتُ خُلَّتَهُ.

خبر موسى

ثُمَّ مُوسَى بن عِمْرَانَ ﷺ، لَمْ يَكُنْ مِنْهُ إلَّا وكزة عَنْ حِدَّةٍ، فَكَمْ خَافَ، وَٱسْتَغْفَرَ وَقَالَ: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ [القصص: ١٦].

خبر بلعم ابن باعوراء

ثُمَّ فِي زَمَانِهِ بَلْعَم بن بَاعُورَاء، كَانَ بِحَيْثُ إذَا نَظَرَ يَرَى الْعَرْشَ، وَهُوَ المَعْنِيُّ بِقَولِهِ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف: ١٧٥]. وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ إلاّ أَنَّهُ مَالَ إلى ٱلدُّنْيَا وَأَهْلِهَا مَيْلَةً وَاحِدَةً، وَتَرَكَ لِوَلِيٍّ مِنْ أَوْلِيَائِهِ حُرْمَةً وَاحِدَةً، تَسْلُبُهُ مَعْرِفَتَهُ، وَجَعَلَهُ بِمَنْزِلَةِ الْكَلْبِ المَطْرُودِ: فَقَال: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: ١٧٦]. فَأَوْقَعَهُ فِي بَحْرِ الضَّلَالِ وَالْهَلَاكِ إلى الأَبَدِ. حَتَّى سَمِعْتُ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ يَقُولُ: إنَّهُ كَانَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ بِحَيْثُ يَكُونُ فِي مَجْلِسِهِ ٱثْنَا عَشَرَ أَلْفَ مِحْبَرَةٍ لِلْمُتَعَلِّمِيْنَ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ عَنْهُ، ثُمَّ صَارَ بِحَيْثُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ صَنَّفَ

كِتاباً أَنْ لَيْسَ لِلْعَالَمِ صَانِعٌ، نَعُوذُ بِالله مِنْ سَخَطِه وَعَذَابِهِ الأَلِيمِ، وَفَظِيعِ خذْلَانِهِ الَّذِي لَا طَاقَةَ لَنا بِهِ.

فَانْظُرْ حُبَّ الدُّنْيَا وَشُؤْمَهَا مَا تَجْلِبُ لِلْعُلَمَاءِ خَاصَّةً. فَتنبَّه، فَإِنَّ الأَمْرَ خَطِيرٌ، وَالْعُمْرَ قَصِيرٌ، وَفَي الْعَمَلِ تَقْصِيرٌ، وَالنَّاقِد بَصِيرٌ؛ فَإِنْ خَتَمَ بِالْخَيْرِ أَعْمَالَنَا، وَأَقَالَنَا عَثَرَاتِنَا، فَمَا ذٰلِكَ عَلَيْه بِعَسِيرٍ.

خبر داود

ثُمَّ إِنَّ دَاوُدَ ﷺ خَلِيفَتَهُ فِي أَرْضِهِ، أَذْنَبَ ذَنْباً وَاحِداً، فَبَكَى عَلَى ذٰلِكَ حَتَّى نَبَتَ الْعُشْبُ فِي الأَرْضِ مِنْ دُمُوعِهِ، وَقَالَ: إِلٰهِي أَمَا تَرْحَمُ بُكَائِي وَتَضَرُّعِي؟ فَنُودِيَ: يَا دَاوُدُ نَسِيتَ ذَنْبَكَ، وَذَكَرْتَ بُكَاءَكَ؟! وَلَمْ يَقْبَلْ تَوْبَتَهُ أَرْبَعِينَ يَوْماً، وَقِيلَ أَرْبَعِينَ سَنَةً.

ثُمَّ يُونُسَ عَلَيْهِ الصَّلَاة والسَّلامُ، غَضِبَ غَضْبَةً وَاحِدَةً فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا، فَسَجَنَهُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ، تَحْتَ قَعْرِ الْبِحَارِ، أَرْبَعِينَ يَوماً وَهُوَ يُنَادِي: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وَسَمِعَتِ المَلَائِكَةُ صَوْتَهُ، فَقَالُوا: إِلٰهَنَا وَسَيِّدَنَا، صَوْتٌ مَعْرُوفٌ فِيْ مَوْضِعٍ مَجْهُولٍ، قَالَ تَعَالَى: ذٰلِكَ عَبْدِي يُونُسَ، فَشفعَتِ المَلَائِكَةُ فِيهِ، ثُمَّ مَعَ ذٰلِكَ كُلِّهِ غَيَّرَ ٱسْمَهُ، وَقَالَ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فَنَسَبَهُ إِلَى سِجْنِهِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ١٤٢ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤﴾ [الصافات: ١٤٢ ـ ١٤٤] ثُمَّ ذَكَرَ نِعْمَتَهُ وَمِنَّتَهُ عليه فَقَالَ: ﴿لَّوۡلَآ / أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ٤٩﴾ [القلم: ٤٩]. فَانْظُرْ إِلَى هٰذِهِ السِّيَاسَةِ أَيُّهَا الْمِسْكِينُ.

[٦٩/أ]

خبر سيدنا محمد ﷺ

وَكَذٰلِكَ هَلُمَّ جرّا، إِلَى سَيِّدِ المُرْسَلِينَ ﷺ، أكرم خلقِهِ عليه، يَقُولُ: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ

بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾ [هود: ١١٢]، حَتَّى كَانَ يقول ﷺ: «شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا»[1] قِيلَ: عَنَى هٰذِهِ الآيةَ وَأَشْكَالَهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [غافر: ٥٥]، إِلَى أَنْ مَنَّ عَلَيْهِ بِالْغُفْرَانِ فَقَالَ: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ ﴾ [ألم نشرح: ٢]، وَقَالَ ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح: ٢]، وَكَانَ بَعْدَ ذٰلِكَ عَلَيْهِ الصلاة والسَّلَام يُصَلِّي اللَّيْلَ، حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ، فَيَقُولُونَ: أَتفعَلُ هٰذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَقَدْ غفرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَيَقُولُ: «أَفَلاَ أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً»[2].

وَكَانَ عَلَيْهِ الصلاَة والسَّلام يَقُولُ: «لَوْ أَنِّي وَعِيسَى أُخِذْنَا بِمَا كَسَبَتْ هَاتَانِ لَعُذِّبْنَا عَذَاباً لَمْ يُعَذَّبْهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ»[3]. وَكَانَ يُصَلِّي اللَّيْلَ وَيَبْكِي وَيَقُولُ: «أَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِن عِقَابِكَ، وَبِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ بِك مِنْكَ، لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»[4].

---

(١) ـ ذكر السيوطي في الجامع الصغير (٢/ ٥٠) هذا الحديث مع زياداته فبلغت ثمانية أحاديث بروايات ومصادر عدة وقد حسنها جميعها (الأحاديث من رقم ٤٩١١ حتى رقم ٤٩١٨).
أما الحديث الذي نحن بصدده فقد رواه الطبراني في المعجم الكبير عن عقبة بن عامر وعن أبي جحيفة، وأشار السيوطي إلى صحته. (راجع فيض القدير للمناوي ٤/ ١٦٨ ـ ١٦٩).

(٢) ـ رواه الإمام مسلم (٤/ ٢١٧١) عن المغيرة بن شعبة (الحديث رقم ٢٨١٩).
ـ ورواه ابن حِبّان في صحيحه من رواية عبد الملك هكذا قاله العراقي (إحياء ٤/ ٨١).

(٣) انظر تخريج الحديث ص ٣٠٢ حاشية (١).

(٤) ـ رواه مسلم (١/ ٣٥٢) كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود =

خبر الصحابة

ثُمَّ الصَّحَابَةُ رضي اللَّهُ عَنهم الذِينَ هُمْ خَيْرُ قَرْنٍ من خَيْرِ أُمَّةٍ، كَانَ يَبْدُو شَيْءٌ مِنْهُم مِنَ المِزَاحِ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ تعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦]. الآية، ثُمَّ وَضَعَ في هٰذِهِ الأُمَّةِ، مَعَ كَوْنِهَا مَرْحُومَةً، الْحُدُودَ وَالسِّيَاسَاتِ الْعَظِيمَةَ وَالآدَابَ، حَتَّى كَانَ يُونُس بنُ عُبَيدٍ يَقُولُ: لا تَأْمَنْ مَنْ قَطَعَ فِي خَمْسَةِ دَرَاهِمَ خَيْرَ عُضْوٍ مِنْكَ، أَنْ يَكُونَ غداً عَذَابُهُ هٰكَذَا.

نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى الْكَرِيمَ الرَّحِيمَ، أَنْ لاَ يُعَامِلَنَا إلاّ بِمَحْضِ كَرَمِهِ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرّاحِمِينَ.

من جانب الرجاء:

وَأَمّا جَانِبُ الرّجَاءِ: فَحَدِّثْ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ الْوَاسِعَةِ وَلاَ حَرَجَ، وَمَنْ الّذِي يَعْرِفُ غَايَتَهَا أَوْ يُحْسِنُ وَصْفَهَا، فَإِنَّهُ يَهَبُ كُفْرَ سَبْعِينَ سَنَةٍ بِإِيمَانِ سَاعَةٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ

= (الحديث رقم ٤٨٦) بلفظ: (اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك..).

ـ كذلك رواه أبو داود في سننه (١/٥٤٧) كتاب الصلاة، باب الدعاء في الركوع والسجود الحديث رقم (٨٧٩) عن عائشة بلفظ مسلم.

ـ ورواه ابن ماجه في سننه (١/٣٧٣) كتاب إقامة الصلاة باب ما جاء في القنوت في الوتر الحديث رقم (١١٧٩) عن علي بن أبي طالب.

ـ ورواه ابن حنبل في مسنده (١/٩٦، ١١٨، ١٥٠، ٦/٥٨، ٢٠١) وذكر دعاء رسول الله ﷺ في قنوت الوتر وفي دعاء السجود.

خبر سحرة فرعون

﴿لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]. أَمَا تَرَى في أَمْرِ سَحَرَة فِرْعَوْنَ الَّذِينَ جَاءُوا لِحَرْبِهِ، وَحَلَفُوا بِعِزَّةِ عَدُوِّهِ، فَقَالُوا: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٢١﴾ [الأعراف: ١٢١]، عَنْ صِدْقِ الْقُلُوبِ، كَيْفَ قَبِلَهُمْ وَوَهَبَ لَهُمْ جَميعَ مَا سَلَفَ؟ ثُمَّ كَيْفَ/ جَعَلَهُمْ رُؤُوسَ الشهَدَاءِ فِي الْجَنَّةِ أَبَدَ الآبِدِينَ؟ [٦٩/ب]

فَهٰذَا مع مَنْ عَرَفَهُ وَوَحَّدَهُ سَاعَة بَعْدَ ذٰلِكَ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ وَالْفَسَادِ، فَكَيْفَ حَالُ مَنْ أَفْنَى في تَوْحِيدِهِ عُمْرَهُ، وَلَا يَرَى لِذٰلِكَ أَهْلاً فِي الدَّارَيْنِ غَيْرَهُ؟ أَمَا تَرَى أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ طُولَ أَعْمَارِهِمْ، قَامُوا وقَالُوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ [الكهف: ١٤]، وَالْتَجأُوا إِلَيْهِ، كَيْفَ قَبِلَهُمْ، ثُمَّ أَعَزَّهُمْ وَأَكْرَمَهُمْ، فَقَالَ: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف: ١٨]، وَكَيْفَ أَعْظَمَ لَهُمُ الْحُرْمَةَ، وَأَلْبَسَهُمُ الْمَهَابَةَ وَالْخَشْيَةَ، حَتَّى يَقُولَ لِأَكْرَمِ الْخَلْقِ ﷺ: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ۝١٨﴾ [الكهف: ١٨]، بَلْ كَيْفَ أَكْرَمَ كَلْباً تَبِعَهُمْ حَتَّى ذَكَرَهُ في كِتَابِهِ الْعَزِيزِ مَرَّاتٍ، ثُمَّ جَعَلَهُ مَعَهُم في الدُّنْيَا مَحْجُوباً، وَيُدْخِلُهُ في الآخِرَةِ الْجَنَّةَ مُكَرَّماً؛ فَهٰذَا فَضْلُهُ مَعَ كَلْبٍ خَطَا خُطُواتٍ مَعَ قَوْمٍ عَرَفُوهُ وَوَحَّدُوهُ أَيَّاماً مَعْدُودَةً مِنْ غَيْرِ عِبَادَةٍ أَوْ خِدْمَةٍ، فَكَيْفَ فَضْلُهُ مَعَ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، الَّذِي خَدَمَهُ وَوَحَّدَهُ وَعَبَدَهُ سَبْعِينَ سَنَةً؟ وَلَوْ عَاشَ سَبْعِينَ أَلْفَ سَنَةٍ كَانَ قَاصِداً لِلْعُبُودِيَّةِ.

خبر أصحاب الكهف

عتاب الله لبعض أنبيائه

أَمَا سمعت كَيْفَ عَاتَبَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصلاة والسَّلامُ في دُعَائِهِ عَلَى الْمُجْرِمِينَ بِالْهَلَاكِ؟

وَكَيْفَ عَاتَبَ مُوسَى عليه الصلاة والسلام في أَمْرِ قَارُونَ،

فَقَالَ: ٱسْتَغَاثَ بِكَ قارُونُ فَلَمْ تُغِثْهُ؛ فَوَعِزَّتِي لَوْ ٱسْتَغَاثَ بِي لأَغَثْتُهُ وَعَفَوْتُ عَنْهُ.

وَكَيْفَ عَاتَبَ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ في شَأْنِ قَوْمِهِ: بِأَنَّكَ تَحْزَنُ عَلَى شَجَرَةِ يَقطِينٍ، أَنْبَتُّهَا فِي سَاعَةٍ وَأَيْبَسْتُهَا في سَاعَةٍ، وَلاَ تَحْزَنُ عَلَى مائَةِ أَلْف أَوْ يَزِيدُونَ؟ ثُمَّ كَيْفَ قَبِلَ عُذْرَهُمْ، وَصَرَفَ عَذَابَهُ الْعَظِيمَ عَنْهُم بَعْدَمَا أَضَلَّهُمْ.

ثُمَّ كَيْفَ عَاتَبَ سَيِّدَ المُرْسَلِينَ صَلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ أَجْمَعِينَ وسلّم، فِيمَا رُوِيَ[1] أَنَّه دَخَلَ مِنْ بَابِ بَنِي شَيْبَةَ، فَرَأى قوماً يَضْحَكُونَ، فقَالَ: لِمَ تَضْحَكُونَ؟ لاَ أَرَاكُمْ (تَضْحَكُونَ)[2]، حَتَّى إذَا كَانَ عِنْدَ الْحَجَرِ رَجَعَ إِلَيْهِمُ القَهْقَرَى فَقَالَ جَاءَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلام فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لَكَ: لِمَ تُقَنِّطُ عِبَادِي مِنْ رَحْمَتِي: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الحجر: ٤٩] وَهٰذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَلَّهُ أَرْحَمُ بِالْعَبْدِ مِنَ الْوَالِدَةِ الشَّفِيقَةِ بِوَلَدِهَا»[3]. وَفِي الْخَبَرِ المَشْهُورِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ

(١) ـ أخرجه أحمد بن حنبل من حديث أبي هريرة (٢/ ٣١٢، ٤٣٢، ٤٥٣) ومن حديث أنس (٣/ ١٨٠، ١٩٣، ٢١٠)، ومن حديث عائشة (٦/ ٨١، ١٦٤).
ـ وأخرجه ابن ماجه (٢/ ١٤٠٢) الحديث رقم ١٩٠ بزيادة من حديث أبي ذر.
ـ وقال العراقي: (إحياء ٤/ ١٤٥) متفق عليه من حديث أنس وقد أخرجه ابن حِبان في صحيحه من حديث أبي هريرة. وقال العجلوني في كشف الخفاء: (٢/ ٢٠٢ الحديث رقم ٢٠٩٦) متفق عليه عن أنس مرفوعاً، وعن أبي هريرة وجماعة. ورواه الحاكم عن أبي ذر وزاد فيه.

(٢) ساقطة من الأصل مثبتة في باقي النّسخ.

(٣) سبق ذكره وتخريجه ص ٢٩٣ حاشية (٣).

[٧٠/أ] رَحْمَةٍ/: فَوَاحِدَةٌ مِنْهَا قَسَّمَهَا بَيْنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ؛ وَادَّخَرَ مِنْهَا تِسْعَةً وَتِسْعِينَ لِنَفْسِهِ، لِيَرْحَمَ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١).

وَإِذْ قَدْ أَعْطَاكَ الله تعالى مِنَ الرَّحْمَةِ الْوَاحِدَةِ كُلَّ هٰذِهِ الْعَطَايَا الْكَرِيمَةِ الْعَزِيزَةِ، مِنْ مَعْرفتِهِ سُبْحَانَهُ وتعالى، وَالْكَوْنِ مِنْ هٰذِهِ الأُمَّةِ الْمَرْحُومَةِ، ثُمَّ مَعْرِفَةِ السُّنةِ وَالْجَمَاعَةِ، إِلَى سَائِرِ مَا لَدَيكَ مِنَ النِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، فَمَرْجُوٌّ مِنْ فَضْلِهِ وكرمِهِ أَنْ يُتِمَّ ذٰلِكَ، فَإِنَّ مَنْ بَدَأَ بِالْإِحْسَانِ فَعَلَيْهِ الإِتْمَامُ، وَيَجْعَلُ لك مِنْ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ رَحْمةً لَكَ الْحَظَّ الْوَافِرَ، نَسْأَلُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ لاَ يُخَيِّبَ آمَالَنا مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ بِفَضْلِهِ، إِنَّهُ السَّيِّدُ الْكَرِيمُ، الْجَوادُ الرَّحِيمُ.

---

(١) ــ رواه مسلم (٤/٢١٠٨) كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى، عن أبي هريرة وعن سلمان الفارسي بألفاظ متقاربة وبمعنى متشابه. الحديث رقم (٢٧٥٢) (٢٧٥٣).

ــ كذلك رواه ابن ماجه في سننه (٢/١٤٣٥) عن أبي هريرة وعن أبي سعيد (الحديث رقم ٤٢٩٣ و٤٢٩٤). وفي الزوائد: حديث أبي سعيد صحيح ورجاله ثقات.

ــ وقال العراقي (إحياء ٤/١٥١): متفق عليه من حديث أبي هريرة.

ــ ورواه أيضاً الحاكم في مستدركه (١/٥٦) كتاب الإيمان، قال: صحيح على شرط الشيخين.

الأصل الثالث
فِي ذِكْرِ مَا وَعَدَ وَأَوْعدَ فِي المَعَاد

فَلْنَذْكُرْ في ذٰلِكَ الأَحْوَالَ الأَرْبَعَةِ:

١ ـ المَوْتَ.

٢ ـ وَالْقَبْرَ.

٣ ـ وَالْقِيَامَة.

٤ ـ وَالْجَنَّةَ وَالنَّار، وَما في كُلِّ مَقَامٍ مِنْهَا مِنَ الْخَطَرِ لِلْمُطِيعِينَ، وَالْعَاصِينَ، وَالْمُقَصِّرِينَ، وَالْمُجْتَهِدِينَ.

١ ـ أَمَّا المَوْتُ فَأَذْكُرُ فِيهِ حَالَ رَجُلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: مَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ شُبْرُمَةَ[1] أَنَّهُ قَالَ: دَخَلْتُ مَعَ

---

(١) الإمام العلامة، فقيه العراق، ابن شُبْرُمة. قاضي الكوفة. حدّث عن أنس ابن مالك وعامر الشعبي وإبراهيم النخعي والحسن البصري وأبي زُرعة وطائفة. حدّث عنه: الثوري وابن المبارك وسفيان بن عُيَيْنَة وخَلْقٌ سواهم، وثقه أحمد بن حنبل وأبو حاتم الرازي وغيرهما. وكان من أئمة الفروع، وأما الحديث فما هو بالمكثر.
=

الشَّعْبِيِّ[1] عَلَى رَجُلٍ مَرِيضٍ نَعُودُهُ وَهُوَ لِمَا بِهِ، وَعِنْدَهُ رَجُلٌ يُلَقِّنُهُ: لَا إِلَهَ إِلا ٱللَّهُ، فَقَالَ الشَّعْبِيُّ: ٱرْفُقْ بِهِ، فَتَكَلَّمَ المَرِيضُ وَقَالَ: إن تُلَقِّنِّي أَوْ لَمْ تُلَقِّنِّي فَإِنِّي لَا أَدَعُهَا! ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦]، فَقَالَ الشَّعْبِيُّ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّى صَاحِبَنَا.

وَالآخَرُ: مَا حُكِيَ أَنَّ تِلْمِيذاً لِلْفُضَيْلِ بنِ عِيَاضٍ، حَضَرَتْهُ الْوَفاةُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ الْفُضَيْلُ وَجَلَسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، وَقَرَأَ سُورَةَ (يٰسٓ) فَقَالَ: يَا أُسْتَاذُ لَا تَقْرَأْ، فَسَكَتَ؛ ثُمَّ لَقَّنَهُ فَقَالَ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ: لَا أَقُولُهَا لِأَنِي مِنْهَا بَرِيءٌ، وَمَاتَ عَلَى ذٰلِكَ؛ فَدَخَلَ الْفُضَيْلُ مَنْزِلَهُ وَجَعَلَ يَبْكِي أَرْبَعِينَ يوماً لَمْ يَخْرُجْ مِنَ الْبَيْتِ، ثُمَّ رَآهُ فِي النَّوْمِ وَهُوَ يُسْحَبُ إلى جَهَنَّمَ، فَقَالَ بِأَيِّ شَيءٍ نَزَعَ اللَّهُ المَعْرِفَةَ مِنْكَ وَكُنْتَ أَعْلَمَ تَلَامِذَتِي؟ قَالَ: بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءٍ:

أسباب نزع المعرفة بالله

أَوَّلُهَا: النّمِيمَة، فَإِنِّي قُلْتُ لِأَصْحَابِي، بِخِلَافِ مَا قُلْتُ لَكَ.

= كان ابن شبرمة عفيفاً، صارماً، عاقلاً، خيّراً، يشبه النُّسّاك. وكان شاعراً، كريماً، جواداً.
وعن ابن شبرمة قال: عجبت للناس يحتمون من الطعام مخافة الداء ولا يحتمون من الذنوب مخافة النار. سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٤٧.

(١) هو أبو عمرو عامر بن شراحيل، كوفي، تابعي جليل القدر وافر العلم قيل كان مولده في إمرة عمر بن الخطاب لست سنين خلت منها. ويذكر الذهبي أنه ولد بعد سنة اثنتين وثلاثين. وقد حدث عن كبراء الصحابة، وروى عنه كبار العلماء. قال الواقدي: مات سنة خمس ومئة عن سبع وسبعين سنة. سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٩٤.

وَالثَّانِي: الْحَسَد، حَسَدْتُ أَصْحَابِي.

وَالثَّالِثُ: كَانَ بِي عِلَّةٌ فَجِئْتُ إِلَى الطَّبِيبِ فَسَأَلْتُهُ عَنْهَا، قَالَ: تَشْرَبُ فِي كُلِّ سَنَةٍ قَدَحاً مِنْ خَمْرٍ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ تَبْقَى بِكَ الْعِلَّة؛ فَكُنْتُ أَشْرَبُهُ/، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سَخَطِهِ الَّذِي لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ. [٧٠/ب]

ثُمَّ أَذْكُرُ حَالَ رَجُلَيْنِ آخَرَيْنِ: أَحَدُهُمَا مَا حُكِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ اللَّهُ، أَنَّهُ لَمَّا ٱحْتُضِرَ، نَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ فَضَحِكَ وَقَالَ: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: ٦١]. وَسَمِعْتُ إِمَامَ الْحَرَمَيْنِ[١] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَحْكِي عَنِ الأُسْتَاذِ أَبِي بَكْرٍ[٢] رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: كَانَ لِي صَاحِبٌ أَيَّامَ التَّعْلِيم، وَكَانَ مُبْتَدِئاً كَثِيرَ الْجَهْدِ فِي التَّعَلُّم، تَقِيّاً مُتَعَبِّداً، وَكَانَ لاَ يَحْصُلُ لَهُ مَعَ ذَلِكَ الاجْتِهَاد إِلاَّ الْقَلِيلُ، وكُنَّا نَتَعَجَّبُ مِنْ حَالِهِ؛ فَمَرِضَ فَلَزِمَ مَكَانَهُ بَيْنَ الأَوْلِيَاءِ فِي الرِّبَاط، وَلَمْ يَدْخُلْ بَيْت المَرْضَى[٣]، وَكَانَ يَجْتَهِدُ مَعَ مَرَضِه، فَٱشْتَدَّ بِهِ الْحَالُ وَأَنَا بِجَانِبِهِ؛ فَبَيْنَمَا هُوَ كَذٰلِكَ، إِذْ شَخَصَ بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ قَالَ لِي: يَا ٱبْنَ فُورَكَ: (لِمِثْلِ هٰذَا فَلْيَعْمَلِ العَامِلُونَ) وَتُوُفِّيَ عِنْدَ ذٰلِكَ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْه.

رواية عن عبدالله بن المبارك

وَأَمَّا الآخَرُ، فَنَحْوُ مَا رُوِيَ عَنْ مَالِكَ بن دِينَارٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى جَارٍ لَهُ ٱحْتُضِرَ، فَقَالَ لَهُ: يَا مَالِكُ: جَبَلاَنِ مِنْ نَارٍ بَيْنَ

رواية عن مالك بن دينار

---

(١) إمام الحرمين: هو أبو المعالي عبد الملك الجويني، ابن الشيخ أبي محمد، من أصحاب الإمام الشافعي.

(٢) أبو بكر: هو محمد بن الحسن بن فورك.

(٣) بيت المرضى: جناح يخصص للمرضى من الطلبة، يُفرَدون فيه للاعتناء والمعالجة.

يَدَيَّ أُكَلَّفُ الصُّعُودَ عَلَيْهِمَا، فَسَأَلْتُ أَهْلَهُ فَقَالُوا: كَانَ لَهُ مِكْيالَانِ يَكِيلُ بِأَحَدِهِمَا وَيَكْتَالُ بِالآخَرِ، فَدَعَوْتُ بِهِمَا، فَضَرَبْتُ أَحَدَهُمَا بِالآخَرِ حَتَّى كَسَرْتُهُما، ثُمَّ سَأَلْتُ الرَّجُلَ فَقَالَ: مَا يَزْدَادُ الأَمْرُ عَلَيَّ عِظَماً.

٢ ـ وَأَمَّا الْقَبْرُ وَالْحَالُ بَعْدَ المَوْتِ، فَأَذْكُرُ فِيهِ حَالَ رَجُلَيْنِ:

رواية عن سفيان الثوري

أَحَدُهُمَا: مَا ذُكِرَ عَنْ بَعْضِ الصَّالِحِينَ قَالَ: رَأَيْتُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ فِي النَّوْمِ بَعْدَ مَوته، فَقُلْتُ: كَيْفَ حَالُكَ يَا أَبَا عَبْدَ اللَّهِ؟ فَأَعْرَضَ عَنِّي وَقَالَ: لَيْسَ هٰذَا زَمَانَ الكُنَى! فَقُلْتُ: كَيْفَ حَالُكَ يَا سُفْيَانُ؟ فَأَنْشَأَ يَقُولُ: [الطويل]:

نَظَرْتُ إِلَى رَبِّي عَيَاناً فَقَالَ لِي ... هَنِيئاً رِضَائِي عَنْكَ يَا ٱبْنَ سَعِيدِ
لَقَدْ كُنْتَ قَوَّاماً إِذَا اللَّيْلُ قَدْ دَجَا ... بِعَبْرَةِ مُشْتَاقٍ وَقَلْبِ عَمِيدِ
فَدُونَكَ فَٱخْتَرْ أَيَّ قَصْرٍ تُرِيدُهُ ... وَزُرْنِي فَإِنِّي عَنْكَ غَيْرُ بَعِيدِ

وَالرَّجُلُ الثانِي: مَا ذُكِرَ أَنَّ بَعْضَهُمْ رُؤِيَ فِي النَّوْم شَاحِبَ اللَّون، مَغْلُولَةً يَدَاهُ إِلى عُنُقِهِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ؟ فَأَنْشَدَ يَقُولُ: [المتقارب]:

[٧١/أ] تَوَلَّى زَمَانٌ لَعِبْنَا بِهِ ... وَهَذَا زَمَانٌ بِنَا يَلْعَبُ/

رواية عن عمر بن عبد العزيز

وَحَالَ آخَرَيْنِ: أَحَدُهُمَا: مَا رُوِيَ عَنْ بَعْضِ الصَّالِحِينَ قَالَ: كَانَ لِيَ ٱبْنٌ ٱسْتُشْهِدَ، فَلَم أَرَهُ فِي المَنَامِ إِلَى لَيْلَة تُوُفِّي عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ[١] رَضِيَ اللَّهُ عَنه، إِذْ تَرَاءَى لِي تِلْكَ الليلة، فَقُلْتُ: يا

(١) هو الخليفة الأموي، والإمام العادل، أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم. أجمعوا على جلالته وعلمه وصلاحه وزهده وورعه وعدله، وقد اعتُبر =

بُنَيَّ أَلَمْ تَكُ مَيِّتاً؟ فَقَالَ: لاَ، وَلٰكِنِّي ٱسْتُشْهِدْتُ، وَأَنَا حَيٌّ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى أُرْزَق، فَقُلْتُ: مَا جَاءَ بِكَ؟ قَالَ: نُودِيَ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: أَلاَ لاَ يَبْقَى نَبِيٌّ وَلاَ صدِّيقٌ وَلاَ شَهِيدٌ إِلاَّ وَحَضرَ الصَّلاَةَ عَلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، فَجِئْتُ لأَشْهَدَ الصَّلاَةَ، ثُمَّ جِئْتُكُمْ لأُسَلِّمَ عَلَيْكُمْ.

وأما الآخَرُ: نحو مَا رُوِيَ عَنْ هِشَام بنِ حَسَّانَ[1] أَنَّه قَالَ: مَاتَ لِيَ ٱبْنُ حَدَثٌ، فَرَأَيْتُهُ في المنام، فَإِذَا هُوَ أَشْيَبُ، فَقُلْتُ: يَا بُنَيَّ مَا هٰذَا الشَّيْبُ؟ فَقَالَ: لَمَّا قَدِمَ عَلَيْنَا فُلاَنٌ، زَفرتْ جَهَنَّمُ لِقُدُومِهِ زَفْرَةً لَمْ يَبْقَ مِنَّا أَحَدٌ إلاَّ شَابَ. نَعُوذُ باللَّهِ الرَّحِيمِ مِنَ الْعَذَابِ الأَلِيمِ.

٣ ــ وَأَمَّا الْقِيَامَةُ، فَتَأَمَّلْ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم: ٨٦].

فَوَاحِد يَخْرُجُ مِنْ قَبْرِهِ، فَإِذا الْبُرَاقُ عَلَى رَأس الْقَبْرِ وَالتَّاجُ وَالْحُلَلُ، فَيَلْبَسُ وَيَرْكَبُ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ، لاَ يُخَلَّى مِنْ عِزَّة أَنْ يَمْشِيَ إِلَى الْجَنَّةِ بِرِجْلَيْهِ.

= أحد الخلفاء الراشدين. ومناقبه كثيرة. قد ولي الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩، وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر. سير أعلام النبلاء ٥/ ١١٤.

(١) قال أبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٦٩): المترقّب ذو الأحزان المتيقظ ذو الأشجان، هشام بن حسان، لزم أستاذه الحسن بن أبي الحسن عشر سنين. وكان يحدّث فيبكي وتجري الدموع على لحيته. وقد أدرك الأئمة الأعلام، واقتبس عنهم الأقضية والأحكام. سمع محمد بن سيرين وقتادة وعكرمة وهشام بن عروة وحدّث عنهم. مات سنة ثمان وأربعين ومئة. سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٥٥.

وَآخَرُ يَخْرُجُ مِنِ قَبْرِهِ، فَإِذا الزَّبَانِيَةُ وَالأَنْكَالُ، لاَ يُخَلُّونَ الشَّقِيَّ أن يَمْشِي إِلَى النَّارِ بِرِجْلَيْهِ، بَلْ يُسْحَبُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ عَلَى وَجْهِهِ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سَخَطِهِ.

وَلَقَدْ سَمِعْتُ بَعْضَ الْعُلَماءِ يَرْوِي عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ[1]: «إِذَا كَانَ يَوْم الْقِيَامَةِ يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ قُبُورِهِمْ لَهُمْ نُجُبٌ يَرْكَبُونَهَا، لَهَا أَجْنِحَةٌ خُضْرٌ، فَتَطِيرُ بِهِمْ في عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى حِيطَانِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا رَأَتْهُمُ المَلاَئِكَةُ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَنْ هٰؤُلاَءِ؟ فَيَقُولُونَ: مَا نَدْرِي، لَعَلَّهُمْ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَأْتِيهِمْ بَعْضُ المَلاَئِكَةِ فَيَقُولُونَ: مَنْ أَنْتُمْ؟ وَمِنْ أيِّ الأُمَمِ؟ فَيَقُولُونَ: نَحْنُ مِنْ أُمَّةِ مُحَمّدٍ ﷺ، فَتَقُولُ المَلاَئِكَةُ: هَلْ حُوسِبْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: لاَ، فَيَقُولُونَ: هَلْ وُزِنْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: لاَ، فَيَقُولُونَ: هَلْ قَرَأْتُمْ كُتُبَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: لاَ، فَتَقُولُ المَلاَئِكَةُ: ارْجِعُوا فَكُلُّ ذٰلِكَ وَرَاءَكُمْ، فَيَقُولُونَ: هَلْ أَعْطَيْتُمُونَا شَيْئاً فَنُحَاسَبَ عَلَيْهِ؟. وَفِي خَبَرٍ آخَرَ: مَا مَلَكْنَا شَيْئاً فَنَعْدِلَ وَلاَ نَجُورَ/ [٧١/ب]، وَلٰكِنْ عَبَدْنَا رَبَّنَا حَتَّى دَعَانَا فَأَجَبْنَاهُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: صَدَقَ عِبَادِي، مَا عَلَى المُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ». أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [فصّلت: ٤٠].

فَأَعْظِمْ بِرَجُلٍ يُشَاهِدُ تِلْكَ الأَهْوَالَ وَالزَّلاَزِلَ وَالْوَقَائِعَ، وَهُوَ آمِنٌ لاَ يَدْخُلُ قَلْبَهُ فَزَعٌ، وَلاَ يَكُونُ عَلَى قَلْبِهِ ثِقَلٌ. نَسْأَلُ اللَّهَ تعالى

---

(١) لم أجد له أصلاً.

أَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مِنْ أُولَئِكَ السُّعَدَاءِ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّه بِعَزِيزٍ.

٤ ــ وأَمَّا الجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَتَأَمَّلْ بِهِمَا آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى: إِحْدَاهُمَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان: ٢١]. وَقَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ آخَرِينَ: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

وَرُوِيَ أَنَّهُم يَصِيرُونَ عِنْدَ ذَلِكَ كِلَاباً يَتَعَاوَوْنَ في النارِ. نَعُوذُ بِاللَّهِ الرَّءُوف الرَّحِيمِ مِنْ عَذَابِهِ الأَلِيمِ؛ فَإِنَّ الأَمْرَ كَمَا قَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ: لَا نَدْرِي أَيُّ المُصِيبَتَيْنِ أَعْظَمُ: فَوْتُ الْجِنَانِ، أَمْ دُخُولُ النَّار؟ أَمَّا الْجَنَّةُ: فَلَا صَبْرَ عَنْهَا، وَأَمَّا النَّارُ: فَلَا صَبْرَ عَلَيْهَا؛ وَعَلَى كُلِّ حَال فَوتُ النَّعِيمِ أَيْسَرُ مِنْ مُقَاسَاةِ الْجحِيمِ.

ثُمَّ الطَّامَةُ الكُبْرَى والمُصِيبَةُ الْعُظْمَى هِيَ الْخُلُودُ، إِذْ لَوْ كَانَ الأَمْرُ عَلَى كُلِّ حَالٍ[1] مُنْقَطِعاً لَكَانَ الأمر هَيِّناً؛ وَلَكِنِ الشَّأْنُ في أَمَدٍ بِلَا آخرٍ؛ فَأَيُّ قَلْبٍ يَحْتَمِلُ ذَلِكَ! وَأَيُّ نَفْس تَصْبِرُ عَلَى ذَلِكَ؟ وَلِذَلِكَ قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ذِكْرُ الْخَالِدِينَ، يَقْطَعُ قُلُوبَ الخَائِفِينَ».

آخر من يخرج من النار

وَذُكِرَ عِنْدَ الْحَسَنِ[2] أَنَّ آخِرَ مَنْ يَخْرُجُ من النَّارِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ هَنَّادٌ، عُذِّبَ أَلْفَ عَام، يُنَادِي يَا حَنَّانُ يَا مَنَّانُ، فَبَكَى الْحَسَنُ وَقَالَ:

---

(١) في الأصل: إذ لو كان على حال، والتصويب من باقي النسخ.
(٢) أي الحسن البصري.

يَا لَيْتَنِي كُنْتُ هَنَّاداً، فَتَعَجَّبُوا مِنْهُ، فَقَالَ: وَيْحَكُمْ، أَلَيْسَ يَوْماً يَخْرُجُ؟

خوف نزع المعرفة

قُلْتُ: يَرْجِعُ الأَمْرُ كُلُّهُ إِذَنْ إِلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ، وَهِيَ النُّكْتَةُ الَّتِي تَقْصِمُ الظُّهورَ، وَتُصَفِّرُ الْوُجُوهَ، وَتَقْطَعُ الْقُلُوبَ، وَتُذِيبُ الأَكْبَادَ، وَتدمِي العُيُونَ مِنَ الْعُبَّادِ، وَهِيَ خَوْفُ نَزْعِ المَعْرِفَةِ، فَهٰذِهِ الْغَايَةُ الَّتِي يَنْتَهِي إِلَيْهَا خَوْفُ الْخَائِفِينَ، وَتَبْكِي عَلَيْهَا أَعْيُنُ البَاكِينَ.

وَلَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْغُمُومَ ثَلاثَةٌ: غَمُّ الطَّاعَةِ أَنْ لاَ تُقْبَلَ، وَغَمُّ المَعْصِيَةِ أَنْ لاَ تُغْفَرَ، وَغَمُّ المَعْرِفَةِ أَنْ تُسْلَبَ، وَقَالَ المُخْلِصُونَ: بَلِ الْغَمُّ كُلُّهُ وَاحِدٌ بِالْحَقِيقَةِ، وَهُوَ غَمُّ المَعْرِفَةِ، وَكُلُّ غَمٍّ دُونَهُ جَلَلٌ إِذْ لَهُ انْقِضَاءٌ.

[٧٢/أ]

وَلَقَدْ بَلَغَنَا عَنْ يوسُفَ بْنِ أَسْبَاطٍ رَحِمَهُ اللَّهُ/ أَنَّهُ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى سُفْيَانَ فَبَكَى لَيْلَهُ أَجْمَعَ، فَقُلْتُ: بُكَاؤُكَ هٰذَا عَلَى الذُّنُوبِ؟ قَالَ: فَحَمَلَ تِبْناً وَقَالَ: الذُّنُوبُ عَلَى اللَّهِ أَهْونُ مِنْ هٰذَا، إِنَّمَا أَخْشَى أَنْ يَسْلُبَنِي اللَّهُ الإِسْلاَمَ، نَسْأَلُ اللَّه رَبَّنَا المَنَّانَ سُبْحَانَهُ أَنْ لاَ يَبْتَلِينَا بِمُصِيبَةٍ، وَأَنْ يُتِمَّ عَلَيْنَا بِفَضْلِهِ كَبِيرَ نِعْمَتِهِ، وَأَنْ يَتَوَفَّانَا عَلَى مِلَّةِ الإِسْلاَمِ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَقَدْ ذَكَرْنَا سَبَبَ سُوءِ الْخَاتِمَةِ وَمَعْنَاهَا فِي كِتَابِ: «إِحْيَاءِ عُلُوم الدِّينِ» فتَأَمَّلْهُ هُنَاكَ، فَإِنَّ الْخَوْضَ فِيهِ هٰهُنَا خرُوجٌ إِلَى الإِكْثَارِ، فَتَأَمَّلْ هٰذِهِ الْجُمْلَةَ، فَإِنَّ التَّفْصِيلَ أَكْثَرُ في أن يَأْتِي عَلَيْهِ الْوَهْمُ وَالذِّكْرُ لَعَلَّكَ تُفْلِحُ بِعَوْنِ اللَّهِ وَحُسْنِ تَوْفِيقِهِ.

بين الخوف والرجاء

فَإِنْ قُلْتَ: فَأَيُّ الطَّرِيقَيْنِ أَسْلُكُ: طَرِيقَ الْخَوْفِ، أَمْ طَرِيقَ الرَّجَاءِ؟

يُقَالُ لَكَ: بَلِ المُرَكَّبِ بَيْنَهمَا، فَلَقَدْ قِيلَ: إنّ من غَلَبَ عَلَيْهِ الرَّجَاءُ صَارَ مُرْجِئاً[١] بِهِ، رُبَّمَا يُخَافُ عَلَيْهِ أَنْ يَصِيرَ خُرَّمِيّاً[٢]، وَمَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الْخَوْفُ صَارَ حَرُورِيا[٣]؛ وَالمُرادُ أَنْ لاَ يَنْفَرِدَ بِأَحَدِهِمَا دُونَ الآخَرِ؛ فَإِنَّ بِالحقِيقَةِ الرَّجَاءَ الْحَقِيقِيَّ لاَ يَنْفَكُّ عَنِ الْخَوفِ الحَقِيقِيِّ، وَالْخَوْفُ الْحَقِيقِّي، لا يَنْفَكُّ عَنِ الرَّجَاءِ الْحَقِيقِيِّ؛ وَلِذٰلِكَ قِيلَ:الرَّجَاء كُلُّهُ لِأَهْلِ الْخَوْفِ إلا الأَمْن، وَالْخَوْفُ كُلُّهُ لِأَهْلِ الرَّجَاءِ إلا الْيَأْسِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَهَلْ يَكُونُ أَحَدُهُمَا أَرْجَحَ وَأَكْثَرَ ذِكْراً بِحَالٍ؟

فَاعْلَمْ أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا كَانَ صَحِيحاً قوِيّاً، فَالْخَوْفُ أَوْلَى بِهِ؛ وَإِنْ مَرِضَ وَضَعُفَ، لاَ سِيَّمَا إِذَا أَشْرَفَ عَلَى الآخِرَةِ، فَالرَّجَاءُ أَوْلَى؛ كَذَا سَمِعْتُ الْعُلَمَاءَ يَقُولُونَ.

قُلْتُ: وَذٰلِكَ لِمَا رُوِيَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: «أَنَا عِنْدَ المنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ مَخَافَتِي»[٤]، فَيَصِيرُ رَجَاؤُهُ أَوْلَى فِي ذٰلِكَ الْوَقْتِ لِانْكِسَارِ

---

(١) المرجئة: هم جماعة يرجئون العمل عن النيّة، أي يؤخرون في الرتبة عنها. وكانوا يقولون: لا يضرّ مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، فهم يعطون الرجاء. وقيل: هم طائفة يرجئون الأعمال أي يؤخرونها، فلا يرتبون عليها ثواباً ولا عقاباً، بل يقولون: المؤمن يستحقّ الجنّة بالإيمان دون بقيّة الطاعات، والكافر يستحقّ النار بالكفر، دون بقيّة المعاصي. (راجع الملل والنِّحل للشهرستاني).

(٢) الخُرْمية: أصحاب بابك الخُرمي. (راجع: الملل والنحل للشهرستاني).

(٣) الحروريّة: فرقة من الخوارج، منسوبة إلى حروراء، قرية قرب الكوفة، لجأ إليها الخوارج بعد التحكيم في معركة صفين. (راجع: الملل والنِّحل للشهرستاني).

(٤) ـ ذكره السخاوي في المقاصد (ص ٩٦ حديث رقم ١٨٨) بلفظ: (أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي).

=

قلْبِهِ، وَخَوْفِهِ المُتَقَدِّم زَمَانَ الصِّحّةِ وَالْقُوَّة وَالإِمْكَانِ، وَلِذٰلِكَ يُقَالُ لَهُمْ: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ [فصلت: ٣٠].

فَإِنْ قُلْتَ: أَلَيْسَ قَدْ جَاءَت الأَخْبَارُ الْكَثِيرَةُ في حُسْنِ الظنِّ بِاللّٰهِ وَالترْغِيب في ذٰلِكَ؟

حسن الظن بالله

فَاعْلَمْ أَنَّ مِنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِاللّٰهِ تَعَالى الْحَذَرَ مِنْ مَعْصِيتِهِ، وَالْخَوْفَ مِنْ عِقَابِهِ، وَالإِجْتِهَادَ فِي خِدْمَتِهِ. وَاْعْلَم أَنَّ هٰهُنا أَصْلاً أَصِيلاً وَنُكْتَةً حَسنةً يَغْلَطُ فِيهَا الْكَثِيرُ مِنَ النَّاسِ، وَهُوَ أَنَّ الْفرْقَ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالأُمْنِيَّةِ، أَنَّ الرَّجَاءَ يَكُونُ عَلَى أَصْلٍ، وَالتَّمَنِّي لاَ يَكُونُ عَلَى أَصْلٍ؛ مِثَالُهُ: مَنْ زرَعَ وَاْجْتَهَدَ وَجَمَعَ بَيْدَراً، ثُمَّ يَقُولُ: أَرْجُو أَنْ يَحْصُلَ لِي مِنْهُ مِائَةُ قَفِيزٍ، فَذٰلِكَ مِنْهُ رَجَاءٌ؛ وَآخَرُ لاَ يَزْرَعُ زَرْعاً، وَلا يَعْمَلُ يَوْماً، فَذَهَبَ وَنَامَ وَأَغْفَلَ سَنَتَهُ، فَإِذَا/ جَاءَ وَقْتُ الْبَيَادِرِ يَقُولُ: أَرْجُو أَنْ يَحْصُلَ لِي مِائَةُ قَفِيزٍ: فَتَقُولُ لَهُ: مِنْ أَيْنَ لَكَ هٰذَا الرَّجَاءُ؟ وَإِنَّمَا ذٰلِكَ أُمْنِيَةٌ بِلاَ أَصْلٍ. فَكَذٰلِكَ الْعَبْدُ إِذَا اْجْتَهَدَ في عِبَادَةِ اللّٰه تَعالى، وَاْنْتَهَى عَنْ مَعْصِيَةِ اللّٰهِ تَعَالَى، يَقُولُ: أَرْجُو أَنْ يَتَقَبَّلَ اللّٰهُ هٰذَا الْيَسِيرَ، وَيُتِمَّ هٰذَا التَّقْصِيرَ، وَيُعظمَ الثَّوَابَ، وَيَعْفُوَ عَنِ الزَّلَلِ، وَأَحْسَنَ الظَّنَّ، فَهٰذَا مِنْهُ رَجَاءٌ.

بين الرجاء والتمني

[٧٢/ب]

فَأَمَّا إِذَا غَفَلَ وَتَرَكَ الطَّاعَاتِ، وَاْرتكَبَ المَعَاصِيَ، وَلَمْ يُبَالِ بِسَخَطِ اللّٰهِ تَعَالى وَلاَ رِضَاهُ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، ثُمَّ أَخَذَ يَرْجُو مِنَ اللّٰهِ

= ـ وكذا ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٢٣٤، حديث رقم ٦١٤) ونقل قول القاري: (ولا يخفى أن الكلام في هذا المقام لم يبلغ الغاية). قلت، وتمامه: (وأنا عند المندرسة قلوبهم لأجلي) ولا أصل لهما في المرفوع.

الْجَنَّةَ، وَالنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ، فَذٰلِكَ مِنْهُ أُمْنِيَّةٌ لاَ حَاصِلَ تَحْتَهَا، سَمَّاهَا رَجَاءً وَحُسْنَ ظَنٍّ، وَذٰلِكَ خَطَأٌ وَضَلاَلٌ. وَقَدْ نَظَمَ الْمَعْنَى الْقَائِلُ[1]:

[البسيط]:

تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا   إِنَّ السَّفِينَةَ لاَ تَجْرِي عَلَى الْيَبَسِ

قُلْتُ: وَمِمَّا يُبَيِّنُ هٰذَا الأَصْلَ مَا رَوَيْنَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَن أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الأَمَانِيَّ»[2] وَفِي ذٰلِكَ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: إِنَّ أَقْوَاماً أَلْهَتْهُمْ أَمَانِيُّ الْمَغْفِرَةِ حَتَّى خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لَهُمْ حَسَنَةٌ، يَقُولُ: إِنِّي أُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّي، وكَذَبَ، لَوْ أَحْسَنَ الظَنَّ بِرَبِّهِ لأَحْسَنَ الْعَمَلَ لَهُ؛ ثُمَّ تَلاَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ١١٠] الآية: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ

---

(١) يروى هذا البيت لعبد الله بن المبارك (كما في سراج الطالبين ٢/ ٣٤٤) وقبله:

مـا بـالُ دِينِـكَ تـرضـى أن تُـدَنِّسَـهُ   وثـوبُـكَ الـدهـرَ مغسـولٌ مـن الـدَّنَـسِ

وقد سقط هذا البيت من الأصل ورد في (د) و(هـ).

(٢) ـ رواه ابن حنبل (٤/ ١٢٤) عن شداد بن أوْس.

وراه أيضاً ابن ماجه (٢/ ١٤٢٣) كتاب الزهد باب ذكر الموت والاستعداد له (الحديث رقم ٤٢٦٠).

ـ ورواه كذلك الحاكم في مستدركه (١/ ٥٧) كتاب الإيمان، وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه. وعلق الذهبي على أحد رواة هذا الحديث وهو أبو بكر بن أبي مريم فقال: أبو بكر واهٍ، أي ضعيف. وقال ابن ظاهر: مدار الحديث عليه أي على أبي بكر ـ وهو ضعيف جداً (فيض القدير ٥/ ٦٨).

ويلاحظ أن الغزالي أضاف إلى هذا الحديث لفظه الأخير فالكل توقف عند عبارة: وتمنى على الله. ويلاحظ أيضاً أن الغزالي أورد هذا الحديث في الإحياء (٢/ ٣٣١، =

﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصّلت: ٢٣] وَعَنْ جَعْفَر الضُّبَعِيِّ[1] قَالَ: رَأَيْتُ أَبَا مَيْسَرَةَ الْعَابِدَ[2] وَقَدْ بَدَتْ أَضْلاَعُهُ مِنَ الإِجْتِهَادِ، قُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاسِعَةٌ؛ فَغَضِبَ وَقَالَ: هَلْ رَأَيْتَ مَا يَدُلّ عَلَى الْقُنُوطِ؟ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ؛ قَالَ جَعْفَرٌ فَأَبْكَانِي قَوْلُهُ.

فَإِذَا كَانَ الرُّسُلُ وَالأَبْدَالُ وَالأَوْلِيَاءُ، مَعَ كُلِّ هٰذَا الإِجْتِهَادِ فِي الطَّاعَةِ، وَالْحَذَرِ عَنِ الْمَعْصِيَةِ فَأَيْش تَقُولُ؟ أَمَا كَانَ لَهُمْ حُسْنُ ظَنٍّ بِاللَّهِ؟ بَلَى، فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَعْلَمَ بِسِعَةِ رَحْمَتِهِ وَأَحْسَنَ ظَنّاً بِجُودِهِ منه، وَلٰكِنْ عَلِمُوا أَنَّ ذٰلِكَ دُونَ الإِجْتِهَادِ أُمْنِيَةٌ وَغُرُورٌ. فَاعْتَبِرْ بِهٰذِهِ النُّكْتَةِ، وَتَأَمَّلْ حَالَهُمْ، وَانْتَبِهْ مِنْ رَقْدَتِكَ، وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ.

= ٣٧٩، ٤/٦٨، ٣٩٦) وفي كل هذه المرات توقف عند عبارة: وتمنى على الله،لكنه استبدل لفظة (الأحمق) بلفظة (العاجز).

ــ وذكره السيوطي في الجامع الصغير وصححه (الحديث رقم ٦٤٦٨).

(١) جعفر بن سليمان الضُّبَعي (والضبيعي كما في الحلية) الشيخ العالم الزاهد، محدّث الشيعة، أبو سليمان الضُّبَعي البصري. كان ينزل في بني ضُبَيْعة فنُسب إليهم. صحب العباد ونقل عنهم وعن الزهاد، صحب مالك بن دينار وفرقداً السبخي وغيرهما. وقد روى عن مالك أقوالاً عدة، فقد اختلف إليه عشر سنين يأخذ عنه ويصلّي معه صلاة الليل. كان ثقة. سير أعلام النبلاء ٨/ ١٧٦.

(٢) لم نعثر على ترجمته. ولعل أبا ميسرة العابد هذا من رجال أوائل القرن الثالث أو أواخر القرن الثاني للهجرة.

فصل

خلاصة العقبة الخامسة، عقبة البواعث

كرامات الأولياء

وَجُمْلَةُ الأَمْرِ أَنَّكَ إذَا تَذَكَّرْتَ سَعَةَ رَحْمَةِ اللَّهِ التِي سَبَقَتْ غَضَبَهُ وَوَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، ثُمَّ إِنْ كُنْتَ مِنْ هٰذِهِ الأُمَّةِ المَرْحُومَةِ/ [٧٣/أ] الْكَرِيمَةِ عَلَى اللَّهِ تَعالى، ثُمَّ غَايَةَ(١) فَضْلِهِ الكريم، وَكَمَالَ جُودِهِ القديم، وَجَعَلَ(٢) عُنْوَانَ كِتَابِهِ إِلَيْكَ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ثُمَّ كَثْرَةَ أَيَادِيهِ إِلَيْكَ وَنِعْمَتَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً، مِنْ غَيْرِ شَفِيعٍ أَوْ قَدَمٍ سَابِقَةٍ لَكَ؛ وَتَذَكَّرْتَ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ، كمالَ جَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَعِظَمَ سُلْطَانِهِ وَهَيْبَتِهِ؛ ثُمَّ شِدَّةَ غَضَبِهِ الَّذِي لَا تَقُومُ لَهُ السَّمٰوَاتُ وَالأَرْضُ؛ ثُمَّ غَايَةَ غَفْلَتِكَ وَكَثْرَةَ ذُنُوبِكَ وَجَفْوَتِكَ، مَعَ دِقَّةِ أَمْرِهِ وَخَطَرِ مُعَامَلَتِهِ، في إِحَاطَةِ عِلْمِهِ وَبَصَرِهِ بِالْعُيُوبِ وَالْغُيُوبِ؛ ثُمَّ حُسْنَ وَعْدِهِ وَثَوَابِهِ؛ الَّذي لَا يَبْلُغُ كُنْهَهُ الأَوْهَامُ، وَشِدَّةَ وَعِيدِهِ وَأَلِيمَ عِقَابِهِ، الذي لَا يَحْتَمِلُ ذِكْرَهُ الْقُلُوبُ، تَارَةً تَنْظُرُ إِلى فَضْلِهِ، وَتَارَةً تَنْظُرُ إِلى عَذَابِهِ، وَتَارَةً تَنْظُرُ إِلى رَحْمَتِهِ وَرَأْفَتِه، وَتَارَةً تَنْظُرُ إِلى نَفْسِكَ في جَفَوَاتِهَا وَجِنَايَاتِهَا، فَإِذَا فَعَلْتَ يُودي بِكَ جَمِيعِ ذٰلِكَ إِلَى الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ،

---

(١) أي ثم تذكرت غاية فضله الكريم.

(٢) أي وإنه جَعَلَ الآية الأولى في القرآن الكريم بسم الله الرحمٰن الرحيم.

وَكُنْتَ قَدْ سَلَكْتَ السَّبِيلَ الشَّارِعَ الْقَصْدَ[1]، وَعَدَلْتَ عَنِ الْجَانِبَيْنِ الْمُهْلِكَيْنَ: الأَمْنِ وَالْيَأْسِ؛ وَلاَ تَتِيهُ فِيهِما مَعَ التَّائِهِينَ، وَلاَ تَهْلِكُ مَعَ الْهَالِكِينَ؛ وَشَرِبْتَ الشَّرَابَ الْمَمْزُوجَ الْعَدْلَ، فَلاَ تَهْلِكُ بِبُرُودَةِ الرَّجَاءِ الصِّرْفِ، وَلاَ بِحَرَارَةِ الْخَوْفِ الصِّرْفِ؛ فكَأَنِّي بِكَ وَقَدْ وَصَلْتَ إِلَى الْمَقْصُودِ غَانِماً، وَشُفِيتَ مِنَ الْعِلَّتَيْنِ سَالِماً، وَوَجَدْتَ النَّفْسَ قَدِ انْبَعَثَتْ لِلطَّاعَةِ، وَدَانَتْ فِي الْخِدْمَةِ لَيْلاً وَنَهَاراً مِنْ غَيْرِ فَتْرَةٍ وَلاَ غَفْلَةٍ، وَاجْتَنَبت الْمَخَازِيَ وَالْمَعَاصِيَ وَهَجَرْتَهَا بِمَرَّةٍ، كما قَالَ نَوْفٌ[2]: «إِنَّ نَوْفاً إِذَا ذَكَرَ الْجَنَّةَ طَالَ شَوْقُهُ، وَإِذَا ذَكَرَ النَّارَ طَارَ نَوْمُهُ». وَصِرْتَ حِينَئِذٍ مِنَ الأَصْفِيَاءِ الْخَوَاصِّ الْعَابِدِينَ، الَّذِينَ وَصَفَهُمُ ٱللَّهُ تَعَالى بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠] وَكُنْتَ قَدْ خَلَّفْتَ هٰذِهِ الْعَقَبَةَ الْخَطِيرَةَ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعالى وَحُسْنِ تَوْفِيقِهِ، فَكَمْ لَكَ مِنْ حَلاَوَةٍ وَصَفْوَةٍ فِي الدُّنْيَا، وَكَمْ لَكَ مِنْ ذُخْرٍ كَرِيمٍ وَأَجْرٍ عَظِيمٍ فِي الْعُقْبَى، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ مَسْؤُولٌ أَنْ يُمِدَّكَ وَإِيَّانا بِحُسْنِ تَوْفِيقِهِ وَتَسْدِيدِهِ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَأَجْوَدُ الأَجْوَدِينَ، وَلاَ حَوْلَ/ [٧٣/ب] وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

---

(١) السبيل الشارع القصد: أي الطريق الأعظم الوسط. راجع سورة النحل الآية ٩.

(٢) أي نوف البِكالي:

وهو نوف بن أبي فضالة البِكالي (بالكسر والتخفيف ولام، نسبة إلى بِكال ككتاب، بطن من حِمْيَر) وهو المرغّب في المحاسبة والمعالي. كان للكتب قارياً، وإلى المحامد داعياً، وعن المحاذر ناهياً. تابعي، شامي، كان إمام أهل دمشق في عصره، من رجال الحديث، ورد ذكره في الصحيحين مات في الغزو شهيداً بعد التسعين (نحو ٩٥ هـ)، وكان راوياً للقصص. وهو ابن زوجة كعب الأحبار.

حلية الأولياء ٦/ ٤٨. تهذيب التهذيب ١٠/ ٤٩٠.

العقبة السادسة وهي عقبة القوادح

القادح الأول: عدم الإخلاص لله تعالى

ثُمَّ عَلَيْكَ يَا أَخِي أَيَّدَكَ ٱللَّهُ وَإِيَّانَا بِحُسْنِ تَوْفِيقِهِ، بَعْدَ مَا ٱسْتَبَانَ لَكَ السَّبِيلُ، وَٱسْتَقَامَ لَكَ المَسِيرُ، بِتَمْيِيزِ سَعْيِكَ وَصِيَانَتِهِ عَمَّا يُفْسِدُهُ وَيُضَيِّعُهُ عَلَيْكَ، وَإِنَّمَا (لَزِمَكَ)[1] ذٰلِكَ بِإِقامةِ الإِخْلَاصِ وَذِكْرِ المِنَّةِ، وَالاجْتِنَابِ عَنْ ضِدِّهِ لأَمْرَيْنِ:

فائدة الإخلاص

أَحَدُهُمَا: لِمَا في فِعْلِهِ مِنَ الْفَائِدَةِ، وَهو حُسْنُ القَبُولِ مِنَ اللَّهِ تَعالى وَفَوْزُ الثَّوابِ عَلَيْهِ.

(والثاني: لما في تركه من عقوبة وخطر)[2] فَتكُونُ مَرْدُوداً ذاهِبَ الثَّوَابِ، كُلًّا أَوْ بَعْضاً، عَلَى مَا رُوِيَ في الْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: «أَنَا أَغْنَى الأَغْنِيَاءِ عنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً فَأَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَنَصِيبِي لَهُ، فَإِنِّي لَا أَقْبَلُ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصاً»[3].

---

(١) لفظة ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

(٢) زيادة من المحقق يقتضيها حسن ترتيب الكلام.

(٣) ــ رواه مسلم (٤/ ٢٢٨٩) كتاب الزهد والرقائق: باب من أشرك في عمله غيرالله؛ عن أبي هريرة (الحديث رقم ٢٩٨٦).

=

وَقِيلَ: إن اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِعَبْدِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ إذَا الْتَمَسَ ثَوَابَ عَمَلِهِ: «أَلَمْ يُوَسَّعْ لَكَ فِي المَجَالِسِ؟ أَلَمْ تَكُنِ الرئيس في الدُّنْيَا؟ أَلَمْ يَرْخُص بَيْعُكَ وَشِراؤُكَ؟ أَلَمْ تُكَرَّمْ؟»[1] هٰذَا وَأَشْبَاهُهُ مِنَ الْخَطَرِ وَالضَّرَرِ.

خطر الرياء فضيحتان

قلْتُ: وَمِنْ خَطَرِ الرِّيَاءِ فَضِيحَتَانِ وَمُصِيبَتَانِ:

أَمَّا الْفَضِيحَتَانِ: فَإِحْدَاهُمَا فَضِيحَةُ السِّرِّ، وَهِيَ اللَّوْمُ عَلَى رُؤُوسِ المَلَائِكَةِ، وَذٰلِكَ لِمَا رُوِيَ أَنَّ المَلَائِكَةَ تَصْعَدُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ مجتهِدِين، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعالى: «رُدُّوهُ إِلَى سِجِّينٍ، فَإِنَّهُ لَمْ يُرِدْنِي

= ــ ورواه ابن ماجه في سننه (٢/ ١٤٠٥) كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة بروايتين (الحديث رقم ٤٢٠٢ والحديث رقم ٤٢٠٣).

ــ وروى هذا الحديث ابن حنبل في مسنده (٢/ ٣٠١ و٤٣٥) عن أبي هريرة بلفظ: (قال الله عز وجل: أنا خير الشركاء، من عمل لي عملاً فأشرك فيه غيري أنا منه بريء، وهو للذي أشرك).

ــ وذكره السيوطي في الجامع الصغير (الحديث رقم ١٩٣١) وحسنه.

ــ وعلق المنّاوي في فيض القدير على هذا الحديث (٢/ ٣١١) بقول الهيثمي: فيه شهر بن حوشب وثّقه أحمد وغيره، وضعفه غير واحد، وبقية رجاله ثقات.

(١) ــ مأخوذ من حديث رواه أبو هريرة عن رؤية العبد يوم القيامة ربَّه حيث يقول الله تعالى له: (... **ألم أكرمك وأسوِّدْكَ وأزوِّجك وأسخّر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟...**).

ــ رواه مسلم في صحيحه (راجع الأحاديث القدسية ص ٤١٨).

ــ وأخرج الترمذي عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري مختصراً لرواية مسلم. وقال الترمذي: حديث صحيح غريب. (الأحاديث القدسية ص ٤٢٠).

ــ ورواه البيهقي أيضاً في البعث كما ذكر الكديري في سراج الطالبين (٢/ ٣٥٣).

بِهِ»[1]، فَيَفْتَضِح ذٰلِكَ الْعَمَلُ وَالْعَبْدُ.

وَالثَّانِيَةُ: فَضِيحَةُ الْعَلاَنِيَةِ، وَهِيَ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلاَئِقِ.

رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ الْمُرَائِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُنَادَى بِأَرْبَعَةِ أَسْمَاءٍ: يَا كَافِرُ، يَا فَاجِرُ، يَا غَادِرُ، يَا خَاسِرُ، ضَلَّ سَعْيُكَ، وَبَطَلَ أَجْرُكَ، فَلاَ خَلاَقَ لَكَ، الْيَوْمَ ٱلْتَمِسِ الأَجْرَ مِمَّنْ كُنْتَ تَعْمَلُ لَهُ يَا مُخَادِعُ»[2] وَرُوِيَ أَنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُسْمِعُ الْخَلاَئِقَ: «أَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ النّاسَ؟ خُذُوا أُجُورَكُمْ مِمَّنْ كُنتم عَمِلْتُمْ لَهُ، فَإِنِّي لاَ أَقْبَلُ عَمَلاً خَالَطَهُ شَيْءٌ»[3].

وَأَمَّا الْمُصِيبَتَانِ فَإِحْدَاهُمَا: فَوَاتُ الْجَنَّةِ؛ وَذٰلِكَ مَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ الْجَنَّةَ تَكَلَّمَتْ وَقَالَتْ: أَنَا حَرَامٌ عَلَى كُلِّ بَخِيلٍ وَمُرَاءٍ»[4] وَالْخَبَرُ يَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ:

مصيبتان

---

(١) ــ قال العراقي (إحياء ٣/ ٢٩٤): أخرجه ابن المبارك في الزهد، ومن طريقه ابن أبي الدنيا في الإخلاص. وأبو الشيخ في كتاب العظمة من رواية حمزة بن حبيب مرسلاً، ورواه ابن الجوزي في الموضوعات. .
ورواية الإحياء: إن الله تعالى يقول للملائكة: **إن هذا لم يردني بعمله فاجعلوه في سجّين** .

(٢) ــ قال العراقي (إحياء ٣/ ٢٩٤): أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية جبلة اليحصبي عن صحابي لم يسمّ، وزاد (يا كافر يا خاسر) ولم يقل(يامرائي) وإسناده ضعيف.

(٣) ــ روى ابن ماجه في سننه (٢/ ١٤٠٦) كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة قول رسول الله ﷺ: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى مناد: ما كان أشرك في عمل له لله، فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإني أغنى الشركاء عن الشرك» (الحديث رقم ٤٢٠٣) راجع الحديث وتخريجه ص ٣٣٥ حاشية (٣).

(٤) لم أجد له أصلاً.

أَحَدُهُمَا: أَنَّ هٰذَا الْبَخِيلَ مَنْ يَبْخَلُ بأقبح بخل، وَهُوَ قَوْلُ: لَا إِلٰهَ/ إِلَّا ٱللَّهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ؛ وَهٰذَا المُرَائِي مَنْ يُرَائِي بِأَقْبَحِ رِيَاءٍ، وَهُوَ المُنَافِقُ الَّذِي يُرَائِي بِإِيمَانِهِ وَتَوْحِيدِهِ. وَفِي هٰذَا الْقَوْلِ تَرْجِيَةٌ. [٧٤/أ]

وَالثَّانِي: مَنْ لَمْ يَنْتَهِ عنِ البُخْلِ وَالرِّيَاءِ، وَلَمْ يُرَاعِ نَفْسَهُ، فَفِيهِ خطَرَانِ: (أحدهما أن)[1] يَلْحَقَهُ شُؤْمُ ذٰلِكَ، فَيَقَعُ فِي الْكُفْرِ، فَتَفُوتُه ٱلْجَنَّةُ رَأْساً وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ؛ (وَالآخرُ سَلْبُ الإِيمَان؛ الَّذِي يَسْتَحِقُّ بِهِ النارَ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سُخْطِهِ وَشَدِيدِ غَضَبِهِ)[2].

وَالمُصِيبَةُ الثَّانِيَة: دُخُولُ النَّار، وَذٰلِكَ لِما رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ: «أَوَّلُ مَنْ يُدْعَى يَوْمَ الْقِيامَةِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَرَجُلٌ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ المَالِ، فَيَقُولُ ٱللَّهُ تَعَالَى لِلْقَارِىءِ: أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟ فَيَقُولُ: بَلَى يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: مَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ قُمْتُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهار، فَيَقُولُ ٱللَّهُ عَزَّ وَجلَّ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ المَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، ويقولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتعالى: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فَلَانٌ قارِىءٌ، وَقَدْ قِيلَ ذٰلِكَ. وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ المَالِ فَيَقُولُ لَهُ: أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ؟ فَيَقُولُ: بَلَى يَا ربِّ، فَيَقُولُ: ماذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ فَيَقُولُ: كُنْتُ أَصِل بِهِ الرَّحِم

(١) زيادة يقتضيها سياق الكلام، وهي مثبتة في (د) و(هـ).

(٢) جملة ساقطة من (أ) و(ب) و(ج)، مثبتة في (و) و(هـ)، وهي لازمة لاستكمال الكلام.

وَأَتَصَدَّقُ، فَيَقُولُ اللَّهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ المَلائِكَةُ كَذَبْتَ، فَيَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فلانٌ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ ذٰلِكَ. وَيُؤْتَى بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلَ اللَّهِ، فَيَقُولُ: مَا فَعَلْتَ؟ فَيَقُولُ: أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ، فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ؛ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ المَلائِكَةُ: كَذَبْتَ، بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلَانٌ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ ذٰلِكَ. ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ عَلَى رُكْبَتِي، وَقَالَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ: أُولٰئِكَ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ يُسْعَرُ بِهِمْ نَارُ جَهَنَّمَ»[1].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ النَّارَ وَأَهْلَها يَعُجُّونَ مِنْ أَهْلِ الرِّيَاءَ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ تَعُجُّ النَّارُ؟ قال: مِنْ حَرِّ النَّارِ الَّتِي يُعَذَّبُونَ بِهَا»[2] وَفِي هٰذِهِ الْفَضَائح عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَبْصَارِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَلِيُّ الْهِدَايَةِ بِفَضْلِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَأَخْبِرْنَا عَنْ حَقِيقَةِ الإِخْلَاصِ وَالرِّيَاءِ وَحُكْمِهِمَا وَتَأْثِيرِهِمَا فِي الْعَمَلِ.

حقيقة الإخلاص

فَاعْلَمْ أَنَّ الإِخْلَاصَ عِنْدَ عُلَمَائِنَا إِخْلَاصَانِ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ، وَإِخْلَاصُ طَلَبِ الأَجْرِ:

---

(١) ــ رواه مسلم (٣/ ١٥١٤) في كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء عن أبي هريرة بلفظ: (إنّ أول الناس يقضي يوم القيامة عليه . . .).
ــ ورواه ابن حنبل (٢/ ٣٢٢) عن أبي هريرة بلفظ: (إنّ أول الناس يقضي فيه يوم القيامة ثلاثة . . .).
كذلك رواه الترمذي (باب الزهد ٤٨) والنَّسائي (باب الجهاد ٢٢).

(٢) لم أجد له أصلاً.

[٧٤/ب] ١ ــ فَأَمَّا إِخْلَاصُ الْعَمَلِ، فَهُوَ/ إِرَادَةُ التَّقَرُّبِ إِلى اللَّهِ تعالى وَتَعْظِيم أَمْرِهِ، وَإِجَابَةُ دعوته؛ وَالبَاعِثُ عَلَيْهِ هو الاعْتِقَادُ الصَّحِيحُ.

النِّفاق وَضِدُّ هٰذَا الإِخْلَاصِ النِّفَاقُ، وَهُوَ التَّقَرُّبُ إِلى من دُونَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتعالى. وَقَالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ: النِّفَاقُ هُوَ الإِعْتِقَادُ الْفَاسِدُ الَّذِي هُوَ لِلْمُنَافِقِ في اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَيْسَ هُوَ مِنْ قَبِيلِ الإِرَادَاتِ لِعِلَّةٍ ذَكَرْنَاهَا في مَوْضِعِهَا.

٢ ــ وأَمَّا إِخْلَاصُ طَلَبِ الأَجْرِ؛ فَهُوَ إِرَادَةُ نَفْعِ الآخِرَةِ بِعَمَلِ الْخَيْرِ. وَكَانَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: إِنَّهُ إِرَادَةُ نَفْعِ الآخِرَةِ بِخَيْرٍ، لَمْ يُرَدّ رَدّاً يَتَعذَّرُ خَيْرُهُ، بِحَيْثُ تُرْجَى بِهِ تِلْكَ الْمَنْفَعَةُ. وَقَدْ شَرَحْنَا هٰذِهِ الشَّرَائِطَ.

وَقَالَ الْحَوَارِيُّونَ[1] لِعِيسٰى عَلَيْه السَّلَامُ: مَا الْخَالِصُ مِنَ الأَعْمَالِ؟ قَالَ: الَّذِي تَعْمَلهُ لِلَّهِ تَعالى وَلا تُحِبُّ أَنْ يَحْمَدَكَ عَلَيْهِ أَحَدٌ؛ وَهَذَا تَعَرُّضٌ لِتَرْكِ الرِّيَاءِ، وَإِنَّمَا خَصَّهُ بِالذِّكْرِ، لِأَنَّهُ أَقْوَى الأَسْبَابِ الْمُشَوِّشَةِ لِلإِخْلَاصِ.

وَقَالَ الْجُنَيْدُ: الإِخْلَاصُ تَصْفِيَةُ الأَعْمَالِ مِنَ الْكُدُورَاتِ. وَقَالَ الْفُضَيْلُ: الإِخْلَاصُ دَوَامُ الْمُرَاقَبَةِ وَنِسْيَانُ الْحُظُوظِ كُلِّهَا، وَهٰذَا هُوَ الْبَيَانُ الْكَامِلُ.

وَالأَقَاوِيلُ في هٰذَا كَثِيرَة، فَلا فَائِدَةَ في تَكْثِيرِ النَّقْلِ بَعْدَ انْكِشَافِ الْحَقَائِقِ؛ وَقَدْ قَالَ سَيِّدُ المرسلين الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ

---

(١) الحواريون: جمع حواريّ، وحواريّ الرجل: خالصته. وهو من الحَوَر أي البياض الخالص، سُمّي به أصحاب عيسى ابن مريم عليه السلام لخلوص نيّتهم ونقاء سريرتهم.

محمد ﷺ، إِذْ سُئِلَ عَنِ الإِخلاَصِ فَقَالَ: «تَقُولُ رَبِّي اللَّهُ ثُم تَسْتَقِيمُ كَمَا أُمِرْتَ»[1] أَيْ لاَ تَعْبُدْ هَوَاكَ وَنَفْسَكَ، وَلاَ تَعْبُدْ إِلاَّ رَبَّكَ، وَتَسْتَقِيمُ في عِبَادَتِكَ كمَا أُمِرْتَ. وَهٰذِهِ إِشَارَةٌ إِلى قَطْعِ كُلِّ مَا سِوَى اللَّهِ عَنْ مَجْرَى النَّظَرِ، وَهُوَ الإِخْلاَصُ حَقّاً.

الرياء ونوعاه

وضِدُّ الإِخْلاَصِ الرِّيَاءُ[2]، وَهُوَ إِرَادَةُ نَفْعِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ. ثُمَّ الرِّيَاءُ ضَرْبَان: رِيَاءٌ مَحْضٌ، وَرِيَاءُ تَخْلِيطٍ.

فَالْمَحْضُ: أَنْ تُرِيدَ بِهِ نَفْعَ الدُّنيا لاَ غَيْرُ، وَالتَّخْلِيطُ: أَنْ تُرِيدَهُمَا جَمِيعاً، نَفْعَ الدُّنْيَا وَنَفْعَ الآخِرَةِ، هٰذَا حَدُّهُمَا.

وَأَمَّا تَأْثِيرُهُمَا: فَإِنَّ إِخْلاَصَ الْعَمَلِ أَنْ تَجْعَلَ الْفِعْلَ قُرْبَةً، وإِخْلاَصَ طَلَبِ الأَجْرِ أَنْ تَجْعَلَهُ مَقْبُولاً وَافِرَ الأَجْرِ وَالتَّعْظِيمِ.

وَالنِّفَاقُ يُحْبِطُ الْعَمَلَ وَيُخْرِجُهُ عَنْ كَوْنِهِ قُرْبَةً، مُسْتَحَقّاً عَلَيْهِ الثوَابُ بِالْوَعْدِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

فالرِّيَاءُ المَحْضُ لاَ يَكُون مِنَ الْعَارِفِ، عِنْدَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ، وَإِنْ كَانَ أَبْطَلَ لِنصْفِ الثَّوَابِ/ وَعِنْدَ بعضهم قَدْ يَكُونَ الرِّيَاءُ المحْضُ مِنَ [٧٥/أ]

---

(١) ـ رواه مسلم في صحيحه (١/ ٦٥) كتاب الإيمان، عن سفيان بن عبد الله الثقفي، (الحديث رقم ٦٨).
ـ وذكره الغزالي في الإحياء (٤/ ٣٨٢) وخرجه العراقي فقال: لم أره بهذا اللفظ، وللترمذي وصححه، وابن ماجه، من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي قلت: يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به قال: «قل ربي الله ثم استقم».

(٢) يلاحظ هنا الفرق بين الرياء والإخلاص، والنفاق والإخلاص، فالنفاق اعتقاد والرياء عمل.

الْعَارِفِ، وَأَنَّهُ يَذْهَبُ بِنِصْفِ الأَضْعَافِ. وَالتَّخْلِيطُ يَذْهَبُ بِرُبْعِ الأَضْعَافِ.

وَالصَّحِيحُ عِنْدَ شَيْخِنَا رَحِمَهُ اللَّهُ، أَنَّ الرِّيَاءَ المَحْضَ لاَ يَكُونُ مِنَ العَارِفِ مع تَذَكُّرِه الآخِرَةَ، وَيَكُونُ مَعَ السَّهْوِ.

وَالمُخْتَارُ أَنّ مِنْ تَأْثِيرِ الرِّيَاءِ رَفْعَ الْقَبُولِ وَالنُّقْصَان في الثَّوَابِ، وَلاَ تَقْدِيرَ لَهَ بِنِصْفٍ وَلا بِرُبْعٍ، وَشَرْحُ هٰذِهِ المَسَائِلِ يَطُولُ، وَقَدْ شَرَحْنَا في كِتَابِ: «إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ» شَرْحاً مُسْتَقْصِياً، وَأَشْبَعْنَا الْقَوْلَ «فِي أَسْرَارِ مُعَامَلاَتِ الدِّينِ».

تأثير الرياء

فإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَوْضِعُ الإِخْلاَصِ، وَفي أَيِّ طَاعَةٍ يَقَعُ وَيَجِبُ؟ فَاعْلَمْ أَنّ الأَعْمَالَ عِنْدَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ ثَلاَثَةُ أَقْسَامٍ:

مواضع الإخلاص

ـ قِسْمٌ يَقَعُ فِيهِ الإِخْلاَصَان جَمِيعاً، وَهُوَ الْعِبَادَاتُ الظَّاهِرَةُ الأَصْلِيَّةُ.

ـ وَقِسْمٌ لاَ يَقَعُ فِيهِ شَيْءٌ مِنْهُمَا، وَهُوَ الأَعْمَالُ الْبَاطِنَةُ الأَصْلِيَّةُ.

ـ وَقِسْمٌ يَقَعُ فِيهِ إِخْلاَصُ طَلَبِ الأَجْرِ دُونَ إِخْلاَصِ الْعَمَلِ، وَهُوَ المُبَاحَاتُ المَأْخُوذَة لِلعُدَّةِ.

قَالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنّ كُلَّ عَمَلٍ يَحْتَمِلُ الصَّرْفَ إِلى غَيْرِ اللَّهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ الأَصْلِيَّةِ يَقَعُ فِيهِ إِخْلاَصُ الْعَمَلِ، وَالْعِبَادَاتُ الْبَاطِنَةُ أَكْثَرُهَا يقعُ فِيها إِخْلاَصُ الْعَمَلِ.

٢ ـ وَأَمَّا إِخْلَاصُ طَلَبِ الأَجْرِ: قالَ مَشَايِخُ الْكَرَّامِيَّةِ[1]: لَا يَقَعُ فِي الْعِبَادَاتِ الْبَاطِنَةِ، إِذْ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهَا أَحَدٌ إِلَّا ٱللَّهُ فَامْتَنَعَ مِنها دَوَاعِي الرِّيَاءِ، فَلَمْ يُحْتَجْ إِلى إِخْلَاصِ طَلَبِ الأَجْرِ. وَكَانَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: إِذَا أَرَادَ مريدٌ مِنَ اللَّهِ تعالى بِالْعِبَادَاتِ الْبَاطِنَةِ نَفْعَ الدُّنْيَا فَهُوَ أَيْضاً رِيَاءٌ.

قُلْتُ أَنَا: وَلَا يَبْعُدُ إِذَنْ أَنْ يَقَعَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْعِبَادَاتِ الْبَاطِنَةِ الإِخْلَاصَانِ، وَكَذٰلِكَ فِي النَّوَافِلِ، يَجِبُ فِيهَا الإِخْلَاصَانِ جَمِيعاً عِنْدَ الشُّرُوعِ فيها.

وَأَمَّا الْمُبَاحَاتُ الْمَأْخُوذَةُ لِلعُدَّةِ، فَإِنما يَقَعُ فِيهَا إِخْلَاصُ طَلَبِ الأَجْرِ دونَ إِخْلَاصِ العَمَلِ، إِذْ هِيَ لَا تَصْلُحُ أَنْ تكُونَ بِنَفْسِهَا قُرْبَةً بَلْ هِيَ عُدَّةٌ عَلَى الْقُرْبَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: هٰذَا مَوْضِعُهُمَا، فَبَيِّنْ لَنَا وَقْتَهُمَا مِنَ الْعَمَلِ؟

فاعْلَمْ أَنَّ إِخْلاصَ الْعَمَلِ مَعَ الْفِعْلِ يُقَارِنُهُ لَا مَحَالَةَ وَلَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ، وَأَمَّا إِخْلَاصُ طَلَبِ ٱلأَجْرِ، فَرُبَّما يَتَأَخَّرُ عنهُ، وَعِنْدَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ يَعْتَبِرُونَ فِيهِ وَقْتَ الْفَرَاغِ مِنَ الْعَمَلِ، فَإِذَا فَرَغَ عَلَى إِخْلَاصٍ أَوْ رِيَاءٍ فَقَدِ ٱنْقَضَى الأَمْر، وَلَا يُمْكِنُهُ اسْتِدْرَاكَهُ بَعْدُ. وَعِنْدَ/ عَبْدَانَ [٧٥/ب] مِنْ الْمَشَايِخِ الْكَرَّامِيَّةِ: مَا لَمْ يَنَلِ الْمَنْفَعَةَ الْمَطْلُوبَةَ بِالرِّيَاءِ، يُمْكِنُهُ إِقَامَةُ ٱلإِخْلَاصِ في ذٰلِكَ الْعَمَلِ، فَإِذَا نَالَ الْمَطْلُوبَ فَقَدْ فاتَ.

وَقالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنّ الْفَرِيضَةَ يُمْكِنُ إِقَامَةُ ٱلإِخْلَاصِ فِيهَا

---

(١) الكرامية: فرقة من المشبّهة، أصحاب عبد الله محمد بن كرام.

إِلَى المَوْتِ، وَأَمَّا النَّوَافِلُ فَلاَ سَبِيلَ إِلى ذٰلِكَ. قالَ: وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الله أَدْخَلَ الْعَبْدَ في الْفَرِيضَةِ، فَمَأْمُولٌ مِنْهُ التَّفَضُّلُ وَالتَّيْسِيرُ فِيهَا؛ وَأَمَّا النَّفْلُ فَالْعَبْدُ الَّذِي أَدْخَلَ فِيهِ نَفْسَهُ وَتَكَلَّفَهُ، فَطُولِبَ بِحَقِّ مَا تَكَلَّفَه.

قُلْتُ: وَفي هَذِهِ المَسْئَلَةِ فائِدَة، وَهِيَ أَنَّ مَنْ سَبَقَ مِنْهُ الرِّيَاء، أَوْ تَرَكَ الإِخْلاَصَ في عَمَلٍ، فَيُمْكِنُهُ ٱسْتِدْرَاكُ ذٰلِكَ وَتَلاَفِيهِ عَلَى أَحَدِ الْوُجُوهِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا. وَالمَقْصُودُ مِنْ نَقْلِ مَذَاهِبِ النَّاس في هٰذِهِ الدَّقائِقِ، عِلْمُنَا الآنَ بِقِلَّةِ الْعَامِلِينَ وَقِلَّةِ الرَّغْبَةِ في سُلُوكِ هٰذَا الطَّرِيقِ، وَالتَّقْرِيبُ عَلَى الْمُبْتَدِىء في الْعِبَادَةِ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ لِعِلَّتِهِ دَوَاءً في هٰذَا الْقَوْلِ، وَجَدَهُ في الآخَرِ لاِخْتِلاَفِ الأَعْرَاضِ وَعِلَلِ الأَعْمَالِ وَآفاتِهَا، فَافْهَمْ رَاشِداً إِنْ شَاء الله.

فَإِنْ قُلْتَ: أَكُلُّ عَمَلٍ يَحْتاجُ إلى إِخْلاَصٍ مُفْرَدٍ؟

وجوب الإخلاص في الأعمال

فَاعْلَمْ أَنَّه قَدِ اخْتُلِفَ في ذٰلِكَ، فَقِيلَ: إِنَّهُ يَجِبُ لِكُلِّ عَمَلٍ إِخْلاَصٌ مُفْرَدٌ، وَقِيلَ: يَجُوزُ تَناوُلُ الإِخْلاَصِ لِجُمْلَةٍ مِنَ الْعِبَادَاتِ، فَالْعَمَلُ ذُو الأَرْكَان كَالصَّلاَةِ وَالْوُضُوءِ يَكْفِيهِمَا إِخْلاَصٌ وَاحِدٌ، لأَنَّ بَعْضَهَا مُتَعَلِّقٌ بِبَعْضٍ صَلاَحاً وَفَسَاداً، فَصَارَتْ كَشَيْء وَاحِدٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: إِنْ أَرَادَ بِعَمَلِهِ الْخَيْرَ مِنَ الله تَعالى في ٱلدُّنْيَا وَلاَ يُرِيدُ مِنَ النَّاسِ شَيْئاً مِنْ مِدْحَةٍ أَوْ سُمْعَةٍ أَوْ مَنْفَعَةٍ، أَيَكُونُ ذٰلِكَ رِيَاءً؟

فَاعْلَمْ أَنّ ذَلِكَ مَحْضُ الرِّيَاء، قَالَ عُلَمَاؤُنَا رَحِمَهُمُ الله: الاِعْتِبَارُ في الرِّيَاء بِالْمُرَادِ، لاَ بِالَّذِي يُرِيدُ مِنْهُ، فَإِنْ كَانَ مُرَادُكَ مِنْ عَمَلِ الْخَيْرِ نَفْعاً دُنْيَوِيّاً فَإِنَّهُ رِيَاءٌ، سَوَاءٌ أَرَدْتَهُ مِنَ الله أَوْ مِنَ النَّاسِ،

قالَ الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى: ٢٠].

وَلَيْسَ الاعْتِبَارُ بِلَفْظَةِ الرِّيَاءِ وَٱشْتِقَاقِهَا مِنْ مَعْنَى الرُّؤْيَةِ، وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ هٰذِهِ ٱلإِرَادَةُ الْفَاسِدَةُ بِهٰذَا الاِسْمِ لِأَنَّهَا أَكْثَرُ مَا تَقَعُ وَتَكُونُ مِنْ قِبَلِ النَّاسِ وَرُؤْيَتِهِمْ، فَافْهَمْ.

فَإِنْ/ قُلْتَ: إذَا كَانَ الْقَصْدُ في الدُّنْيَا الَّتِي يُرِيدُهَا مِنَ الله تَعالى [٧٦/أ] التَّعَفُّفَ عَنِ النَّاسِ، وَالْعُدَّةَ عَلَى عِبَادَةِ ٱلله تَعالى أَيَكُونُ ذٰلِكَ رِيَاءً؟.

فَاعْلَمْ أَنَّ التَّعَفُّفَ لَيْسَ في كَثْرَةِ المَالِ وَالْجَاهِ، وَإِنَّمَا هُوَ في الْقَنَاعَةِ وَالثِّقَةِ بِكِفَايَةِ الله تَعالى.

وَأَمَّا الْعُدَّةُ عَلَى عِبَادَةِ الله سُبْحانَهُ، فَإِذَا كانَ مُرَادُهُ ذٰلِكَ، فَلَا يَكُونُ رِيَاءً، وَكَذٰلِكَ مَا يَتَّصِلُ بِأَمْرِ الآخِرَةِ وَأَسْبَابِها، وَيَصِيرُ لُطْفاً لِذٰلِكَ، فَإِنْ أُرِيدَ بِعَمَلِ الْخَيْرِ هٰذَا النَّوْعُ فَلَا تَكُونُ تِلْكَ ٱلإِرَادَةُ رِيَاء، لأَنَّ هٰذِهِ الأُمُورَ (تَصِيرُ)(١) بِتِلْكَ النِّيَّةِ خَيْراً، وَتَصِيرُ في حُكْمِ أَعْمَالِ الآخِرَةِ، وَلَا تَكُونُ إرادَةُ الْخَيْرِ رِيَاء.

وَكَذٰلِكَ إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يَكُونَ لَكَ تَعْظِيمٌ عِنْدَ النَّاسِ، أَوْ مَحَبَّةٌ عِنْدَ المَشَايِخِ وَالأَئِمَّةِ، يَكُونُ قَصْدُكَ مِنْ ذٰلِكَ التَّمَكُّنَ مِنْ مَذْهَبِ الْحَقِّ والرَّدَّ عَلَى أَهْلِ الْبِدَعِ، والنَّشْرَ لِلْعِلْمِ أَوْ حَضَّ النَّاسِ عَلَى الْعِبَادَةِ وَنَحْوَ ذٰلِكَ، دُونَ أَنْ تَقْصِدَ بِذٰلِكَ شَرَفَ نَفْسِكَ، مِنْ حَيْثُ هِيَ أَوْ دُنْيَا تَنَالُهَا، فَإِنَّ هٰذِهِ كُلَّهَا إرَادَات سَدِيدَةٌ وَنِيَّاتٌ مَحْمُودَةٌ، لَا

(١) لفظة ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

يَدْخُلُ شَيْءٌ مِنْهَا فِي بَابِ الرِّيَاءِ، إِذِ المَقْصُودُ مِنها أمْرُ الآخِرَةِ بِالْحَقِيقَةِ.

قراءة سورة الواقعة

وَٱعْلَمْ أَنِّي سَأَلْتُ بَعْضَ مَشَايِخِنَا عَمَّا يَعتَادُهُ أوليَاؤُنا مِنْ قِرَاءةِ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ فِي أَيَّامِ الْعُسْرَةِ، أَلَيْسَ المُرَادُ بِذٰلِكَ أَنْ يَدْفَعَ الله تِلْكَ الشِّدَّةِ عَنهُمْ، وَيُوَسِّعَ عَلَيْهِمْ بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيا عَلَى مَا جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ، فَكَيْفَ تَصِحُّ إِرَادَةُ مَتَاعِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرةِ؟

فَقَالَ فِي جَوَابِهِ رَحِمَهُ الله كَلاَماً مَعْنَاهُ أَنَّ المُرَادَ منه أنْ يَرْزُقَهُمُ الله قَنَاعَةً أَوْ قُوتاً يَكُونُ لَهُمْ عُدَّةً عَلَى عِبَادَةِ الله تَعَالى وَقُوَّةً عَلَى دَرْسِ الْعِلْمِ؛ وَهٰذِهِ مِنْ جُمْلَةِ إِرَادَاتِ الْخَيْرِ دُونَ الدُّنْيَا.

وَٱعْلَمْ أَنَّ هٰذِهِ السِّيرَةَ، أَعْنِي قِرَاءَةَ هٰذِ السُّورَةِ عِنْدَ الشِّدَّةِ فِي أَمْرِ ٱلرِّزْقِ وَالْخَصَاصَةِ[1]، إِنَّمَا هُوَ شَيْء وَرَدَتْ بِهِ الأخْبارُ المَأْثُورَة عَنِ النَّبيِّ ﷺ، وَعَنِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم، وحَتَّى أَنَّ ابن مَسْعُودٍ رضي الله عنه، حِينَ عُوتِبَ فِي أَمْرِ وَلَدِهِ، إِذْ لَمْ يَتْرُكْ لَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئاً، قال: لَقَدْ خَلَّفْتُ لَهُمْ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ، وَمِنْ ذٰلِكَ الأَصْلِ فِي السُّنَّةِ هٰذِهِ الْخَصْلَةُ فِي سِيَرِ عُلَمائِنا رَحِمَهُمُ الله، وَإِلاَّ فَلاَ مُبَالاَةَ بِحَمْدِ الله/ تَعَالى بِشِدَّةٍ فِي أَمْرِ الدُّنْيَا أَوْ سَعَةٍ، وَهُمُ الذِينَ يَغْتَنِمُونَ [٧٦/ب] ضِيقَ الدُّنْيَا وَعُسْرَهَا، وَيَتَغَالَونَ بِذٰلِكَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَيَعُدُّونَهُ مِنَ الله تَعَالى نِعمة عَظِيمَةً، وَيَخَافُونَ إِذَا بَدَا لَهُمْ سَعَةٌ مِنَ الدُّنْيَا، الَّتِي لاَ يَعُدُّهَا أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ الإِحْسَانَ وَالنِّعْمَةَ، أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ ٱسْتِدرَاجاً

---

(١) الخصاصة: الحاجة.

مِنَ اللهِ تَعَالى وَمُصِيبَةٌ؛ كَيْفَ وَبِطَانَتُهُمُ الأَسْفَارُ وَالطَّيُّ[1] في عُمُومِ أَحَوالِهِمْ، وَمُقَدَّمُوهُمْ يَقُولُونَ: الْجُوعُ رَأْسُ مَالِنَا، فَهٰذَا وَضْعُ مَذْهَبِ أَهْلِ التَّصَوُّفِ وَهُوَ مَذْهَبِي وَمَذْهَبُ أَشْيَاخِي، وَبِذٰلِكَ جَرَتْ سِيرَةُ سَلَفِنَا.

وَأَمَّا تَقْصِيرُ بَعْضِ المُتَأَخِّرِينَ فَلَا يُعْتَبَرُ بِهِ. وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا هٰذَا الْفَصْلَ لِئَلَّا يَغْمِزَ فِيهِمْ مُخَالِفٌ، جَهْلاً مِنْهُ بِمَقَاصِدِ القَوْمِ في أُمُورِهِم أَوْ يَغْلَطَ منهم مُبْتَدِئٌ سَلِيمُ الصَّدْرِ، لَمْ يَأْخُذْ مِنَ الْعِلْمِ حَقَّهُ بِأَنَّ يَقول: كَيْفَ يَلِيقُ هٰذَا بِحَالِ أَهْلِ العِلْمِ وَالتَّجَرُّدِ وَأَرْبَابِ الصَّبْرِ وَالرِّيَاضَة، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ مَأْخُوذٌ مِنَ السُّنَّةِ.

ثُمَّ المَقْصُودُ حُصُولُ الْقَنَاعَةِ وَالْعُدَّة، لَا اتِّبَاعُ الشَّرَهِ وَالشَّهْوَةِ أَوِ الضَّعْفِ عَنِ احْتِمَالِ العُسْرَةِ وَالشِّدَّةِ؛ وَأَكْثَرُ مَا تَرَى في عَقِيب ذٰلِكَ[2]، قَنَاعَةً في الْقَلْبِ وَفَقْدَ كَلْبِ الجُوعِ[3] وَضَعْفَهُ، وَسُلُوَّهُ عَنِ الطَّعَامِ وَنَهْمَتِهِ، عَلِمَ ذٰلِكَ مَنِ امْتَحَنَهُ، فَاعْلَمْ هٰذِهِ الجُمْلَة موفّقاً إن شاء الله تَعَالى.

---

(١) الطيّ والطوى: الجوع.

(٢) عقيب ذلك: أي بعد قراءة سورة الواقعة.

(٣) كلب الجوع: الألم الذي يحدثه الجوع في المعدة.

القادح الثاني: العُجْب

وَإِنَّمَا يَلْزَمُكَ ٱجْتِنَابُهُ لِأَمْرَيْنِ:

لزوج اجتناب العجب لأمرين:

الأول: أَنَّهُ يَحْجُبُ عَنِ التَّوْفِيقِ وَالتَّأْيِيد مِنَ الله تَعَالى، فَإِنَّ المُعْجِبَ مَخْذُولٌ، فَإِذَا انْقَطَعَ عَنِ الْعَبْدِ التَّأْيِيدُ وَالتَّوْفِيقُ فَما أَسْرَعَ مَا يَهْلِكُ ولِذٰلِكَ قال ﷺ: «ثَلاَثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوىً مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ»[1].

(١) ـ رواه أبو نعيم في الحلية عن أنس بن مالك من حديث قتادة بلفظ: (ثلاث مهلكات وثلاث منجيات. .) قال أبو نعيم: حديث غريب (٢/ ٣٤٣).

ـ ورواه أيضاً برواية ثانية عن أنس بن مالك من حديث زياد النميري بلفظ: (ثلاث كفارات، وثلاث درجات، وثلاث منجيات وثلاث مهلكات. . . فأما المهلكات، فشح مطاع، وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه) (٦/ ٢٦٩).

وفي رواية ثالثة يذكرها أبو نعيم عن ابن عباس بلفظ: (ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وعجب كل ذي رأي برأيه) (٣/ ٢١٩).

ـ وذكره السيوطي في الجامع الصغير (١/ ٤٦٩) (الحديث رقم ٣٤٧١ و٣٤٧٢) عن أبي الشيخ في التوبيخ، وعن المعجم الأوسط للطبراني بروايته عن أنس، وأشار إلى ضعفه.

ـ وقال المنّاوي في فيض القدير (٣/ ٣٠٨) في تعقُّبه هذا الحديث: قال العلاء: سنده ضعيف، وعده في الميزان من المناكير، قال الهيثمي: فيه ابن لهيعة ومن لا يُعرف. =

الثَّانِي: أنَّهُ يُفْسِدُ الْعَمَلَ الصّالِحَ، وَلِذٰلِكَ قالَ المَسِيحُ عَلَيْهِ السّلامُ: يَا مَعْشَرَ الحَوارِيِّينَ كَمْ مِنْ سِرَاجٍ قَدْ أَطْفَأَتْهُ الرِّيحُ، وَكَمْ مِنْ عَابِدٍ قَدْ أَفْسَدَهُ الْعُجْبُ.

وَإِذَا كانَ المَقْصُودُ وَالْفَائِدَةُ الْعِبَادَةَ، وَهٰذِهِ الْخَصْلَةُ تَحْرُمُ الْعَبْدَ حَتَّى لَا يَحْصُلَ لَهُ خَيْرٌ، فَإِنْ حَصَلَ فَقَلِيلٌ مِنْ ذٰلِكَ[1] يُفْسِدُهُ، حَتَّى لَا يَبْقَى بِيَدِهِ شيء، فَحَقِيقٌ أن يَحْذَرَ مِنْ ذٰلِكَ وَيَتَحَفَّظ، وَاللهُ تَعَالى وَلِيُّ التَّوْفِيقِ وَالْعِصْمَةِ.

فَإِنْ قلت: فَما حَقِيقَةُ الْعُجْبِ وَمَا مَعْنَاهُ وَمَا تَأْثِيرُهُ وَحُكْمُهُ/ [٧٧/أ] فَبَيِّنْ لَنا ذٰلِكَ؟

حقيقة العُجب

فَاعْلَمْ أنّ حَقِيقَةَ الْعُجْبِ اسْتِعْظَامُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَتَفْصِيلُهُ عِنْدَ عُلَمَائِنَا رَحِمَهُمُ اللهُ: ذِكْرُ الْعَبْد حُصُولَ شَرَفِ الْعَمَلِ بِشَيْءٍ دُونَ الله عَزّ وَجَلَّ أَوِ النّاس أَوِ الشيء. قالوا: وَقَدْ يَكُونُ الْعُجْبُ مُثَلَّثاً، بِأَنْ يُذْكَرَ ذٰلِكَ مِنْ هٰذِهِ الثَّلاثَةِ جَمِيعاً: النَّفْسُ وَالْخَلْقُ وَالشَّيْء جَميعاً[2] وَمُثَنًّى، بِأَنْ يَذْكُرَهُ مِنِ اثْنَيْنِ، وَمُوَحَّداً، بِأَنْ يَذْكُرَهُ مِنْ وَاحِدٍ.

وَضِدُّ العُجْبِ ذِكْرُ المِنَّةِ، وَهُوَ أَنْ يَذْكُرَ أَنّهُ بِتَوْفِيق الله، وَأَنَّهُ

= ــ وتجدر الإشارة هنا إلى أن الألباني في (ضعيف الجامع الصغير) لم يذكر هذا الحديث فهو لم يعتبره ضعيفاً.

ــ وقد ذكر الغزالي هذا الحديث مرات عديدة. وقال الحافظ العراقي في تخريجه: أخرجه البزّار والطبراني وأبو نعيم والبيهقي في الشعب من حديث أنس، بإسناد ضعيف (إحياء ١/ ١٥) ووافقه العجلوني في كشف الخفاء (ص ٣٨٦).

(١) من ذلك: أي من العجب.

(٢) كرر اللفظة ليشير إلى حصول هذه الثلاثة مجتمعة.

الَّذي شَرَّفَهُ وَعَظَّمَ ثَوَابَهُ وَقَدْرَهُ، وَهٰذَا الذِّكْرُ فَرْضٌ عِنْدَ دَوَاعِي العُجْبِ، نَفْلٌ في سَائِرِ الأَوْقَاتِ.

تأثير العجب

وَأَمَّا تَأْثِيرُ الْعُجْبِ في الْعَمَلِ، قالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: الْمُعْجِبُ يَنْتَظِرُ الإِحْبَاطَ، فَإِنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ سَلِمَ وَإِلاَّ أُحْبِطَ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ مُحَمَّدُ بنُ صَابِرٍ مِنْ شُيُوخِ الْكَرَّامِيَّةِ، وَالإِحْبَاطُ عِنْدَهُ: أَنْ يَذْهَبَ عَنِ العَمَلِ جَمِيعُ الأَسْمَاء الحَسَنَةِ حَتَّى لاَ يَسْتَحِقَّ بِذٰلِكَ ثَوَاباً وَلاَ مِدْحَةً أَلْبَتَّةَ، وَفي قَوْلِ غَيْرِهِ: هُوَ ذَهَابُ الإِضْعَافِ لاَ غَيْرُ[1].

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يَلْتَبِسُ عَلَى العَبْدِ الْعَارِفِ أَنَّ الله تَعَالَى هُوَ الَّذي وَفَّقَ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ وَعَظَّمَ قَدْرَهُ وَأَكْثَرَ ثَوَابَه بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ؟

فَاعْلَمْ أَنَّ هٰهُنَا نُكْتَةً لَطِيفَةً وَذَخِيرَةً شَرِيفَةً، وَهِي أَنَّ النَّاسَ في العُجبِ عَلى ثَلاَثَة أَصْنَافٍ:

أصناف المعجبين

- صِنْفٌ هُمُ المُعْجبُونَ بِكُلِّ حَالٍ، وَهُمُ المُعْتَزِلَةُ والقدريّة، وَالذينَ لاَ يَرَوْنَ لِلَّهِ عَلَيْهِمْ مِنَّةً في أَفْعَالِهِمْ، وَيُنْكِرُونَ الْعَوْنَ والتّوفِيقَ الخَاصَّ وَاللُّطْفَ، وَذٰلِكَ لِشُبْهَةٍ ٱسْتَوْلَتْ عَلَيْهِم.

- وَصِنْفٌ هُمُ الذَّاكِرُونَ المِنَّة بِكُلِّ حَالٍ، وَهُمُ المُسْتَقِيمُونَ، لاَ يَعْجَبونَ بِشَيءٍ مِنَ الأَعْمَالِ، وَذٰلِكَ لِبَصِيرَةٍ أُكْرِمُوا بِهَا وَتَأْيِيدِ خُصُّوا بِهِ.

- وَالثَّالِثُ هُمُ المُخَلِّطُونَ، وَهُمْ عَامَّةُ أَهْلِ السُّنَّةِ، تَارَةً

---

(١) أي مضاعفة الأجر من عند الله، كما جاء في قوله تعالى: ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾ سورة البقرة الآية ٢٦١.

يَنْتَبِهُونَ فَيَذْكُرُونَ مِنَّةَ اللَّهِ، وَتَارَةً يَغْفُلُونَ فَيَعْجَبُونَ، وذٰلِكَ لِمَكَانِ الْغَفلَةِ العَارِضَةِ وَالْفَتْرَةِ في الاِجْتِهَادِ[1]، وَالنَّقْصِ في الْبَصِيرَةِ.

المعتزلة والأفعال

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ حَالُ الْقَدَرِيةِ وَالمُعْتَزِلَةِ فِي أَفْعَالِهِم؟

فَاعْلَمْ أَنّ في ذٰلِكَ ٱخْتِلاَفاً فَقِيلَ إِنَّهُ مُحْبِطٌ لِمَكَانِ ٱعْتِقَادِهِمْ؛ وَقِيلَ: لاَ يَحْبِطُ عَمَلٌ بِاعْتِقَادٍ في الجُمْلَةِ مِنْ فِرَقِ الإِسْلاَمِ حَتَّى يَخُصَّ كُلَّ/ عَمَلٍ بِإِعْجَابٍ؛ كما أَنَّ اعْتِقَادَ أَهْلِ السُّنَّةِ لاَ يَمْنَعُ الْعُجْبَ في كُلِّ عَمَلٍ، حَتَّى يَخُصَّهُ بِذِكْرِ المِنَّةِ. [٧٧/ب]

قوادح أخرى في العمل

فَإِنْ قِيلَ: فَهَلْ سِوَى الْعُجْبِ وَالرِّيَاءِ مِنْ قَادِحٍ فِي الْعَمَلِ؟

قِيلَ لَهُ: أَجَلْ، إِنّ فِيهِ لَقَوَادِحَ سِوَاهُمَا؛ لٰكِنَّا خَصَّصْنَاهُمَا بِالذِّكْرِ، لِأَنّهُمَا الأَصْلُ الذي يَدُورُ عَلَيْهِمَا مُعْظَمُ الباب. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ المَشَايِخِ: إِنّ حَقَّ الْعَبْدِ أَنْ يَتَحَفّظَ في العَمَلِ مِنْ عَشَرَةِ أَشْيَاء: النِّفَاقِ، وَالرِّيَاءِ، وَالتَّخْلِيطِ، وَالمَنِّ، وَالأَذَى، وَالنَّدَامَةِ، وَالعُجْبِ، وَالحَسْرَةِ، وَالتّهَاوُنِ، وَخَوفِ مَلاَمَةِ النَّاس.

القوادح وأضدادها

ثُمَّ ذَكَرَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ ضِدَّ كُلِّ خَصْلَةٍ مِنْهَا وَإِضْرَارَهَا بِالعَمَلِ؛ فَضِدُّ النِّفَاقِ إِخْلاَصُ الْعَمَلِ، وَضِدُّ الرِّيَاءِ إِخْلاَصُ طَلَبِ الأَجْرِ، وَضِدُّ التّخْلِيطِ التَّفْرِيدُ، وَضِدُّ المَنِّ تَسْلِيمُ الْعَمَلِ إِلَى اللَّهِ، وَضِدُّ الأَذَى تَحْصِينُ العَمَلِ، وَضِدُّ النَّدَامَةِ تَثْبِيتُ النَّفْسِ، وَضِدُّ العُجْبِ ذِكْرُ المِنَّةِ، وَضِدُّ الحَسْرَةِ ٱغْتِنَامُ الخَيْرِ، وَضِدُّ التَّهَاوُنِ تَعْظِيمُ التَّوْفِيقِ، وَضِدُّ خَوْفِ مَلاَمَةِ النَّاسِ الخشية.

---

(١) الفترة في الاجتهاد: الفتور والكسل في العبادة.

تأثير هذه القوادح

وَاعْلَمْ أنّ النِّفَاقَ يُحْبِطُ العَمَلَ، وَالرِّيَاءَ يُوجِبُ رَدَّهُ؛ وَالمَنَّ وَالأَذَى يُحْبِطَانِ الصَّدَقَةَ أَصْلاً في الوَقتِ[1] وَعِند بَعْضِ المشايخ يُبطِلَانِ أَضْعافَهَا[2]. وَأَمَّا النَّدَامَة فَإِنَّهَا تُحْبِطُ الْعَمَلَ في قَوْلِهِمْ جَمِيعاً[3]؛ وَالعُجْبُ يُذْهِبُ أَضْعَافَ العَمَلِ؛ وَالحَسْرَةُ وَالتَّهَاوُنُ وَخَوْفُ المَلَامَةِ تُخَفِّفُ الْعَمَلَ فَتُذْهِبُ رَزَانَتَهُ.

قُلْتُ: فَالقبُول وَالرَّدُّ عِنْدَ أَهْلِ التَّحْصِيلِ، يَرْجِعَانِ إلى ضُرُوبٍ مِنَ التَّعْظِيمِ وَالِاسْتِخْفَافِ، وَالإِحْبَاطُ إِبْطَالُ مَنَافِعَ تَكُونُ بِالْفِعْلِ وَبِسَبَبِهِ. ثُمَّ تَارَةً يَكُونُ إِبْطالاً للثَّوابِ وَأُخْرَى إِبْطَالاً لِلتَّضْعِيفِ. وَالثَّوَابُ مَنْفَعَةٌ يَقْتَضِيهَا الفِعْلُ بِعَيْنِهِ وَقَرَائِنه وَأَحْوَاله؛ وَالتَّضْعِيفُ زِيَادَةٌ عَلَى هٰذَا؛ وَالرَّزَانَةُ زِيَادَةٌ تَحْصُلُ لِمُقْتَضَى قَرَائِن وَأَحْوَالٍ أُخَرَ، كَالإِحْسَانِ إِلى أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الخَيْرِ، ثُمَّ إِلى الوَالِدَيْنِ، ثُمَّ إِلى نَبِيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ. فَفِي الشَّيء يَكُونُ رَزَانَةً فَلَا يَكُونُ تَضْعِيفاً[4]. فَهٰذَا تَهذِيبُ مَا تَحَقّقْتُ في هٰذِهِ المَعانِي فَاعْلَمْ ذٰلِكَ وَبِاللَّهِ التّوفِيقُ.

---

(١) في الوقت: أي في الحال، وفي الوقت نفسه الذي تُقدَّم فيه الصدقة.

(٢) يبطلان أضعافها: أي يبطلان أجرها المضاعف.

(٣) قولهم جميعاً: أي قول جميع العلماء.

(٤) يكون العطاء رزانة: أي ففي مثل هذا الشيء من الأعمال، يكون العطاء والثواب رزانة وليس تضعيفاً.

فصل
في الرياء والعُجْب وخطرهما

فَعَلَيْكَ بِقَطْعِ هٰذِهِ الْعَقَبَةِ المُخوفَةِ، ذَاتِ المَقَاطِعِ وَالمَتَالِفِ في غَايَةِ التَّحرُّزِ، فَإِنَّ صَاحِبَ بِضَاعَةِ الطَّاعاتِ قَدْ قَطَعَ تِلْكَ الْعَقَبَاتِ، وَتَحَمَّلَ تِلْكَ المَشَقَّاتِ، حَتَّى حَصَلَتْ لَهُ بِضَاعَةٌ/ مِنَ الْعِبَادَةِ عَزِيزَةٌ شَرِيفَةٌ، فَإِنَّهُ لاَ يَخَافُ عَلَى بِضَاعَتِهِ تِلْكَ، إلاّ فِي هٰذِهِ الْعَقَبَةِ، فَإِنَّ فِيهَا مَقَاطِعَ يَحْذَرُ أَنْ تُسْلَبَ فِيهَا بِضَاعَتُهُ، وَمَتَالِفَ يَحْذَرُ أَنْ يَبْدُوَ لَهُ مِنْهَا آفاتٌ تُفْسِدُ عَلَيْهِ طَاعَاتِهِ. ثُمَّ أَعْظَمُهَا خطَراً وَأَعَمُّهَا وُقُوعاً، هٰذَانِ الْقَاطِعَانِ اللَّذَانِ هُمَا: الرِّيَاءُ وَالْعُجْبُ. فَلْنَذْكُرْ في كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أُصُولاً مُقْنِعَةً، نُجَرِّدُها لَكَ، لَعَلَّكَ تُكْفَى مُؤنَتَهَا بِإِذْنِ اللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. [٧٨/أ]

أصول الرياء:

أما الرِّيَاءُ فَأَذْكُرُ فِيهِ أَوَّلاً:

عدم الصدق في العبودية

الأصل الأول: قَوْلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢]، كأنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى يَقُولُ: إنِّي خَلَقْتُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا، فِي كُلِّ هٰذِهِ الصَّنَائِعِ

وَالْبَدَائِعِ، وَاكْتَفَيْتُ بِنَظَرِكَ لِتَعْلَمَ أَنِّي عَالِمٌ قادِرٌ وَأَنْتَ تُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، مَعَ مَا فِيهِمَا مِنَ المَعَايِب وَالتَّقْصِيـر، فَلاَ تَكْتَفِي بِنَظَرِي إِلَيْكَ، وَبِعِلمِي بِكَ، وَثَنَائِي عَلَيْكَ، وَشُكْرِي لَكَ، حَتَّى تُحِبَّ أَنْ يَعْلَمَ الْخَلْقُ لِيمْدَحُوكَ بِذٰلِكَ، أَيَكُونُ ذٰلِكَ وَفَاءً؟ أَيَكُونُ ذٰلِكَ عَقلاً يَرْضَاهُ أَحَدٌ لِنَفْسِهِ؟ وَيْحَكَ أَفَلاَ تَعْقِلُ؟

إرادة الدنيا دون الآخرة

الأصل الثّاني: أَنَّ مَنْ كَانَ لَهُ جَوْهَرٌ نَفِيسٌ، يُمْكِنُهُ أَنْ يَأْخُذَ في ثَمَنِه أَلْفَ أَلْفَ دِينارٍ فَبَاعَهُ بِفَلْسٍ، أَلَيْسَ يَكُونُ ذٰلِكَ خُسْرَاناً عَظِيماً وَغُبْناً فَظِيعاً، وَدلِيلاً بَيِّناً عَلَى خِسَّةِ الْهِمَّةِ، وَقُصُورِ الْعِلْمِ، وَضَعْفِ الرَّأْيِ وَقِلّة الْعَقْلِ؟ فَمَا يَنَالُهُ الْعَبْدُ بِعَمَلِهِ مِنَ الْخَلْقِ مِنْ مِدْحَةٍ وَحُطَامٍ، بِالإِضَافَةِ[1] إِلى رِضَى رَبِّ الْعَالَمِينَ وَشُكْرِهِ وَثَنَائِهِ وَثَوَابِهِ، لأَقَلُّ مِنْ فَلْسٍ في جَنْبِ أَلْفِ أَلْفِ دِينَارٍ وَأَضْعَافِ ذٰلِكَ؛ بَل في جَنْبِ الدّنْيَا وَمَا فِيهَا وَأَكْثَرُ وَأَكْبَرُ. أَلَا يَكُونُ مِنَ الْخُسْرَانَ الْمُبِينِ أَنْ تُفَوِّتَ نَفْسَكَ تِلْكَ الْكَرَامَاتِ الْعَزِيزَةِ الشَّرِيفَةِ، بِهٰذِهِ الأُمُورِ الْحَقِيرَةِ الدَّنِيَّةِ؟ ثُمَّ إِنْ كَانَ وَلاَ بُدَّ مِنْ هٰذِهِ الْخسِيسَةِ، فَاقْصِد أَنْتَ الآخِرَةَ تَتْبَعْكَ الدُّنْيَا، بَلِ اطْلُبِ الرَّبَّ وَحْدَهُ يُعْطِكَ الدَّارَيْنِ، إِذْ هُوَ مَالِكُهُمَا جَمِيعاً، وَذٰلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾ [النساء: ١٣٤]، وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيُعْطِي الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ، وَلاَ يُعْطِي الآخِرَةَ بِعَمَلِ الدُّنْيا»[2]. فَإِذَا أَنْتَ أَخْلَصْت

---

(١) بالإضافة: تعني هنا بالمقارنة مع.

(٢) ــ رواه ابن المبارك في كتاب الزهد عن أنس، وهكذا نقله عنه السيوطي في الجامع الصغير (١/ ٢٥٧) بلفظ: (إن الله تعالى يعطي الدنيا على نيّة الآخرة، وأبى أن يعطي الآخرة على نيّة الدنيا) وأشار إلى ضعفه. =

النِّيَّةَ، وَجَرَّدْتَ الْهِمَّةَ لِلآخِرَةِ، حَصَلَتْ لَكَ الآخِرَةُ وَالدُّنْيَا جَمِيعاً؛ وَإِنْ أَنْتَ أَرَدْتَ الدُّنْيَا ذَهَبَتْ عَنْكَ الآخِرَةُ في/ الْوَقْتِ، وَرُبَّمَا لا [٧٨/ب] تَنَالُ الدُّنْيَا كَمَا تُرِيدُ، وَإِنْ نِلْتَهَا فَلا تَبْقَى لَكَ، فَتَكُونُ قَدْ خَسِرْتَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ، فَتَأَمَّلْ أَيُّهَا الْعَاقِلُ.

العمل للمبغض لا للمحب

الأَصلُ الثَّالِثُ: أَنَّ المَخْلُوقَ الَّذِي لِأَجْلِهِ تَعْمَلُ، وَرِضَاهُ تَطْلُبُ، لَوْ عَلِمَ أَنَّكَ تَعْمَلُ لِأَجْلِهِ لأَبْغَضَكَ وَلَسَخِطَ عَلَيْكَ وَٱسْتَهَانَ بِكَ وَٱسْتَخَفَّ بِكَ، فَكَيْفَ يَعْمَلُ الْعَاقِلُ الْعَمَلَ لِأَجْلِ مَنْ لَوْ عَلِمَ بِهِ أَنَّهُ يَطْلُبُ رِضَاهُ لَسَخِطَ عَلَيْهِ وَأَهَانَهُ؟

فَٱعْمَلْ يَا مِسْكِينُ لِأَجْلِ مَنْ إِذَا عَمِلْتَ لِأَجْلِهِ، وَقَصَدْتَهُ بِسَعْيِكَ، وَطَلَبْتَ رِضَاهُ بِذٰلِكَ، أَحَبَّكَ وَأَعْطَاكَ، وَأَكْرَمَكَ حَتَّى أَرْضَاكَ وَأَغْنَاكَ وَكَفَاكَ. فَهٰذِهِ هٰذِهِ، فَافْطَنْ لَهَا إِنْ كُنْتَ تَعْقِلُ.

العمل على كسب رضا الناس لا رضا الله

الأَصلُ الرَّابع: أَنَّ مَنْ حَصَلَ لَهُ سَعْيٌ يُمْكِنُ أَنْ يَكْتَسِبَ بِهِ رِضَا أَعْظَمِ مَلِكٍ فِي الدُّنْيَا، فَطَلَبَ بِهِ رِضَا كَنَّاسٍ خَسِيسٍ بَيْنَ النَّاسِ، أَفَلا يَكُونُ ذٰلِكَ دَلِيلاً عَلَى السَّفَهِ وَرَدَاءَةِ الرَّأْيِ مِنْهُ وَسُوءِ الْحَظِّ، وَيُقَالُ: مَا حَاجَتُكَ إِلى رِضَا هٰذَا الكَنَّاسِ مَعَ إِمْكَانِكَ مِنْ رِضَا المَلِكِ؟ فَكَيْفَ وَقَدْ سَخِطَ الكَنَّاسُ عَلَيْكَ بِسَبَبِ سَخْطِ المَلِكِ؟ فَفَاتَكَ الْكُلُّ، فَهٰذَا حَالُ الْمُرَائِي.

= ــ وقد ذكره الألباني في (ضعيف الجامع الصغير) برقم (١٧٤٤) وأشار إلى ضعفه أيضاً وذكر رقمه في الأحاديث الضعيفة (٣١٥٦).

ــ ويذكر المنّاوي في فيض القدير (٢/ ٣٠٤٤) أن الديلمي خرّجه في مسنده الفردوس، مسنداً عن أنس بهذا اللفظ.

ــ وفي سراج الطالبين (٢/ ٣٩٤) أن الديلمي رواه بإسناد ضعيف.

وَأيُّ حَاجَةٍ إلى إرْضَاءِ مَخْلوقٍ حَقِيرٍ ضَعِيفٍ مَهِينٍ، وَهُوَ مُتَمَكِّنٌ مِنْ تَحْصِيلِ رِضْوَانِ اللّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الْكَافِي عَنِ الْكُلِّ؟

فَإِنْ ضَعُفَتِ الْهِمَّةُ، وَكَلَّتِ الْبَصِيرَةُ، حَتَّى طَلَبْتَ رِضَا مَخْلُوقٍ لَا مَحَالَةَ، فَسَبِيلُكَ أَنْ تُجَرِّدَ إرَادَتَكَ، وَتُخْلِصَ سَعْيَكَ لِلَّهِ، فإنَّ الْقُلُوبَ وَالنَّوَاصِيَ بِيَدِهِ، فَهُوَ يُمِيلُ إِلَيْكَ الْقُلُوبَ، وَيَجْمَعُ لَكَ النُّفُوسَ، وَيَشْحَنُ مِنْ حُبِّكَ الصُّدُورَ، فَتَنَالُ بِذَلِكَ مَا لَا تَنَالُ بِجَهْدِكَ وَقَصْدِكَ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ، وَقَصَدْتَ بِعَمَلِكَ رِضَا المَخْلُوقِينَ دُونَهُ سُبْحَانَهُ، فَإِنَّهُ يَصْرِفُ عَنْكَ الْقُلُوبَ وَيُنَفِّرُ عَنْكَ النُّفُوسَ، وَيُسخِطُ عَلَيْكَ (الْخَلْقَ)[1]، فَيَحْصُلُ لَكَ بِهَذَا الأَمْرِ سَخَطُ اللّهِ وَسَخَطُ النَّاسِ جَمِيعاً، فَيَا لَهُ مِنْ خُسْرَانٍ وَحِرْمَانٍ.

وَلَقَدْ ذُكِرَ عَنِ الحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ يَقُولُ: وَاللَّهِ لأَعْبُدَنَّ اللّهَ عِبَادَةً أُذْكَرُ بِهَا؛ فَكَانَ أَوَّلَ دَاخِلِ المَسْجِدَ وَآخِرَ خَارِجٍ مِنْهُ، لَا يَرَاهُ أَحَدٌ حِينَ الصَّلاةِ إلَّا قَائماً يُصَلِّي، وَصَائماً لَا يُفْطِرُ، وَيَجْلِسُ إِلى حِلَقِ الذِّكْرِ، فَلَبَثَ كَذَا سَبْعَةَ أَشْهُرٍ، وَكَانَ لَا يَمُرُّ بِقَوْمٍ إِلَّا قَالُوا: فَعَلَ اللّهُ بِهَذَا المُرَائِي وَصَنَعَ؛ فَأَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ بِاللَّوْمِ، وَقَالَ: أَرَانِي فِي غَيْرِ شَيْءٍ/ لأَجعَلَنَّ عَمَلِي كُلَّهُ لِلَّهِ، فَلَمْ يَزِدْ عَلَى عَمَلِهِ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُ قَبْلَ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ تَغَيَّرَتْ نِيَّتُهُ إِلى الْخَيْرِ؛ فَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ يَمُرُّ بِالنَّاسِ فَيَقُولُونَ: رَحِمَ اللّهُ فُلَاناً، الآنَ أَقْبَلَ عَلَى الْخَيْرِ؛ ثُمَّ قَرَأَ الْحَسَنُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم: ٩٦] قال: يُحِبُّهُم وَيُحَبِّبُهُمْ إِلَى المُؤْمِنِينَ. [٧٩/أ]

---

(١) في الأصل: القلوب، وهذا خطأ واضح من الناسخ، والتصويب من باقي النسخ.

وَلَقَدْ صَدَقَ الْقَائِلُ: [مجزوء البسيط]:

يَـا مُبْتَغِـي الْحَمْـدَ وَالنَّـوَالا ... فِـي عَمَـلٍ تَبْتَغِـي مُحَـالاَ
قَـدْ خَيَّـبَ اللَّـهُ ذَا رِيَـاءٍ ... وَأَبْطَـلَ السَّعْـيَ وَالْكَـلاَلاَ
مَـنْ كَـانَ يَـرْجُـو لِقَـاءَ رَبٍّ ... أَخْلَـصَ مِـنْ خَـوْفِـهِ الْفِعَـالاَ
اَلْخُلْـدُ وَالنَّـارُ فِـي يَـدَيْـهِ ... فَـرَائِـهِ يُعْطِـكَ النَّـوَالاَ
وَالنَّـاسُ لاَ يَمْلِكُـونَ شَيْئـاً ... فَكَيْـفَ رَاءَيْتَهُـمْ ضَـلاَلاَ

أصول العُجْب

وَأَمَّا الْعُجْبُ فَلْنَذْكُرْ فِيهِ أُصُولاً:

أن لا يرى الإنسان مِنّة الله عليه في تقدير عمله

أَحَدُهَا: أَنَّ فِعْلَ الْعَبْدِ إِنَّمَا صَارَتْ لَهُ قِيمَةٌ لِمَا وَقَعَ مِنَ اللَّهِ مَوْقِعَ الرِّضَا وَالقَبُولِ، وَإِلاَّ فَتَرَى الأَجِيرَ يَعْمَلُ طُولَ النَّهَارِ بِدِرْهَمَيْنِ، وَالْحَارِسُ يَسْهَرُ طُولَ اللَّيْلِ بِدَانِقَيْنِ، وَكَذٰلِكَ أَصْحَابُ الصِّنَاعَاتِ وَالْحِرَفِ كُلُّ وَاحِدٍ يَعْمَلُ فِي اللَّيْلِ وَالنّهارِ، فَيَكُونُ قِيمَةُ ذٰلِكَ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةً. فَإِنْ صَرَفْتَ العَمَلَ إلى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَصُمْتَ لِلَّهِ تَعالَى يوماً، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزُّمر: ١٠]، وَفِي الْخَبَرِ: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، ولاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[1] فَهٰذَا يَوْمُكَ الَّذِي قِيمَتُهُ دِرْهَمَانِ، مَعَ احْتِمَالِ التَّعَبِ الْعَظِيمِ، صَارَت لَهُ هٰذِهِ القِيمَة، بِتَأْخِيرِ غَدَاءٍ إلى عَشَاءٍ. وَلَوْ قُمْتَ لَيْلَةً لِلَّهِ تعَالَى، قَال تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

(١) ــ رواه مسلم (٤/ ٢١٧٤): كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها بلفظ: قال الله عز وجل: «أعددت لعبادي الصالحين . . .» (حديث رقم ٢٨٢٤).
=

[السجدة: ١٧] فَهٰذَا الَّذِي قِيمَتُهُ دَانِقَانِ ودِرْهَمَانِ صَارَت لَهُ هٰذِهِ الْقِيمَةُ وَالْقَدْرُ؛ بَلْ جَعَلْتَ لِلَّهِ تَعَالَى سَاعَةً، تُصَلِّي فِيهَا رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ، بَلْ نَفَساً قُلْتَ: لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللَّهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر: ٤٠] فَهٰذِهِ ساعةٌ مِنْ أَنْفَاسِكَ الَّتِي لاَ قِيمَةَ [٧٩/ب] لَهَا عِنْدَ أَهْلِ الدُّنْيَا وَلاَ عِنْدَكَ، فَكَمْ تُضَيِّعُها فِي لا شَيْءٍ، وَكَمْ تَمُرُّ عَلَيْكَ بلاَ فَائِدَةٍ، وَصَارَ لَهُ[1] هٰذَا الْقَدْرُ الْعَظِيمُ لماذا؟ لمَّا أَنَّه وَقَعَ مَرْضِياً لِلَّهِ تَعَالَى، فَعَظَّمَ قَدْرَهُ وَكَبَّر قِيمَتَهُ بِفَضْلِهِ، فَحُقَّ إِذَنْ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَرَى حَقَارَةَ عَمَلِهِ، وَقِلَّةَ قَدْرِهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ، وَأَنْ لاَ يَرَى إِلاَّ مِنَّةَ اللَّهِ تَعَالَى فِيمَا شَرَّف مِنْ قَدْرِ عَمَلِهِ، وَأَعظَمَ مِنْ جَزَائِهِ، وَأَنْ يَحْذَرَ عَلَى فِعْلِهِ مِنْ أَنْ يَقَعَ عَلَى وَجْهٍ لاَ يَصْلُحُ لِلَّهِ تَعالَى، وَلاَ يَقَعُ مِنْهُ مَوْقعَ الرِّضا، وَتَذْهَبُ عَنْهُ الْقِيمَةُ الَّتِي حَصَلَتْ لَهُ، فَيَعُودُ إِلى مَا كَانَ فِي الأَصْلِ مِن الثَّمَنِ الْحَقِيرِ مِنْ دَرَاهِمَ أَوْ دَوَانِقَ، وَأَحْقَرَ وَأَخسَّ مِنْ ذٰلِكَ.

وَمِثَالُهُ، أَنَّ العُنقُودَ مِنَ العِنَبِ، وَالإِضْبَارَةَ[2] مِنَ الرَّيْحَانِ، يَكُونُ قِيمَتُهُ فِي السُّوقِ دَانِقاً، فَإِنْ أَهْدَاهُ وَاحِدٌ إِلى مَلِكٍ من الملوكِ

= ـ ورواه البخاري (٤/ ١٤٣) باب صفة الجنة، وفي تفسير سورة السجدة (٦/ ١٤٥).

ـ وفي سنن ابن ماجه (٢/ ١٤٤٧) باب صفة الجنة: يقول الله عزّ وجلّ: «أعددت لعبادي الصالحين . . .» (حديث رقم ٤٣٢٨).

ـ وأخرجه الترمذي (٢/ ٢٢٥) في تفسير سورة الواقعة باللفظ نفسه.

(١) صار له: أي صار للعمل.

(٢) الإضبارة من الريحان: المجموعة من غصون شجر الريحان.

فَاستَحسنَهُ، فَوَقَع مِنْهُ مَوْقِعَ الرِّضا فوهَبَ لَهُ عَلَى ذٰلِكَ أَلْفَ دِينَارٍ لِما وَقَعَ من الملكِ مَوْقعَ الرِّضا، فَصَارَ مَا قِيمَتُهُ حَبَّةٌ بِألفِ دِينَارٍ، فَإِذَا لَمْ يَرْضَهُ المَلِكُ، وَرَدَّهُ عَلَيْهِ، رَجَعَ إلى قِيمَتِهِ الخَسِيسَةِ مِنْ حَبَّةٍ أو دَانِقٍ[1]؛ فَكَذٰلِكَ مَا نَحْنُ فِيهِ فَتَنَبَّهْ وَأَبْصِرْ مِنَّةَ اللَّهِ وَصُنْ فِعْلَكَ عَمَّا يَشِينُهُ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

نسيان فضل الله

الأَصْلُ الثَّانِي: مَا تَعْلَمُ أَنَّ المَلِكَ فِي الدُّنْيَا إِذَا أَجْرَى عَلَى أَحَدٍ جِرَايَةً، مِنْ طَعَامٍ أَوْ كِسْوَةٍ أَوْ دَرَاهِمَ أَوْ دَنَانِيرَ مَعْدُودَةٍ فَانِيَةٍ، فَإِنَّهُ يَسْتَخْدِمُهُ بضروب الخدمة آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، مَعَ مَا فِي ذٰلِكَ مِنَ الذُّلِّ وَالصَّغَارِ، وَيَقُومُ عَلَى رَأسِهِ حَتَّى تُخَدَّرَ رِجْلاَهُ، وَيَسْعَى بَيْنَ يَدَيْهِ إِذَا رَكِبَ، وَرُبَّمَا يَحْتَاجُ أَنْ يَكُونَ عَلَى بَابِهِ طُول اللَّيْلِ حَارِساً؛ وَرُبَّمَا يَبْدُو لَهُ عَدُوٌّ، فَيَحْتَاجُ أَنْ يُقَاتِلَ عَدُوَّهُ، فَيَبْذُلَ رُوحَهُ الَّتِي لاَ خَلَفَ عَنْهَا لِأَجْلِهِ، وَيَحْتَمِلُ كُلَّ هٰذِهِ الْخِدْمَةِ وَالْكُلْفَةِ وَالضرَرِ، لِأَجْلِ تِلْكَ المَنْفَعَةِ النَّكِدَةِ الْحَقِيرَةِ، مَعَ أَنَّهَا بِالحَقِيقَةِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِنَّما هُوَ[2] بِمَنْزِلَةِ سَبَبٍ فِي ذٰلِكَ، فَرَبُّكَ الَّذِي خَلَقَكَ وَلَمْ تَكُ شَيئاً، ثُمَّ رَبَّاكَ فَأَحْسَنَ التَّرْبِيَةَ، ثُمَّ أَنْعَمَ عَلَيْكَ مِنَ النِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ، فِي دِينِكَ وَنَفْسِكَ وَدُنْيَاكَ، مَا لاَ يَبْلُغُ كُنْهَهَا فَهْمُكَ وَوَهْمُكَ، قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ/ : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ثُمَّ إِنَّكَ تُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ مَعَ مَا فِيهِمَا مِنَ المَعَايِبِ وَالآفَاتِ، وَمَعَ مَا وَعَدَ عَلَيْهِمَا فِي المُسْتَقْبَلِ مِنْ حُسْنِ الثَّوَابِ وَضَرب من الكَرَامَاتِ، حَتَّى [٨٠/أ]

---

(١) الحبّة: أصغر وحدة من النقود، والدانق: سدس الدرهم.

(٢) أي الملك.

تَسْتَعْظِمَ ذٰلِكَ وَتَعْجَبَ، فَلَيْسَ هذا مِنْ شَأْنِ عَاقِلٍ إِذَا نَظَرْتَ، فَهٰذِهِ هٰذِهِ.

قلّة تقدير العبد لعظمةِ الله

وَالأَصْلُ الثَّالِثُ: أَنَّ المَلِكَ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ تَخْدُمَهُ المُلُوكُ وَالأُمَرَاءُ، وَتَقُومَ عَلَى رَأْسِهِ السَّادَاتُ وَالْعُظَمَاءُ، وَيَتَوَلَّى خِدْمَتَهُ الأَلِبَّاءُ وَالْحُكَمَاءُ، وَيَطْلُبُ مِدْحَتَهُ الْعُقَلَاءُ وَالْعُلَمَاءُ، وَيَمْشِي بَيْنَ يَدَيْهِ الأَكَابِرُ وَالرُّؤَسَاءُ، إِذَا أَذِنَ لِسُوقِيٍّ أَوْ قَرَوِيٍّ، بِمُقْتَضَى رَأْفَةٍ وَعِنَايَةٍ لَهُ، فِي بَابِهِ حَتَّى زَاحَمَ أُوْلٰئِكَ المُلُوكَ وَالسَّادَاتِ وَالأَكَابِرَ والفضلاء، فِي خِدْمَتِهِ وَمِدْحَتِهِ، وَيَجْعَلَ لَهُ مَقَاماً مِنْ حَضْرَتِهِ مَعْلُوماً، وَيَنْظُرَ إِلى خِدمَتِهِ بِعَيْنِ الرِّضا، وَإِنْ كَانَتْ مُشَوَّشَةً مَعِيبَةً، أَلَيْسَ يُقَالُ لَهُ: لَقَدْ كَبُرَتْ عَلَى هٰذَا الْحَقِيرِ المِنَّةُ مِنَ المَلِكِ، وَعَظُمَتْ عِنَايَتُهُ بِهِ، فَإِنْ أَخَذَ هٰذَا الْحَقِيرُ يَمُنُّ عَلَى المَلِكِ بِتِلْكَ الْخِدْمَةِ المَعِيبَةِ، وَيَسْتَعْظِمُ ذٰلِكَ وَيَعْجَبُ بِهِ، أَلَا يُقَالُ إِنَّ ذٰلِكَ لَسَفِيهٌ جِدّاً وَمَجْنُونٌ لَا يَعْقِلُ شَيْئاً؟

وَلَمَّا تَقَرَّرَ هٰذَا، فَإِنَّ إِلٰهَنَا سُبْحَانَهُ، هُوَ المَلِكُ الَّذِي يُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَالمَعْبُودُ الَّذِي يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً.

فَمِنَ الْخَدَمِ عَلَى بَابِهِ جِبْرِيلُ الأَمِينُ وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ وَعِزْرَائِيلُ، وَحَمَلَةُ الْعَرْشِ وَالْكَرُوبِيُّونَ[1] وَالرُّوحَانِيّونَ، وَسَائِرُ

---

(١) الكَروبيّون: بفتح الكاف وتخفيف الراء، هم سادات الملائكة، وهم الذين حول =

المَلاَئِكَةِ المُقَرَّبِينَ، الَّذِينَ لاَ يُحْصِي عَدَدَهُمْ إلاَّ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ، في مَنَازِلِهِمُ الرَّفِيعَةِ وَأَنْفُسِهِمُ الطَّاهِرَةِ وَعِبَادَاتِهِم الْعَظِيمَةِ.

ثُمَّ مِنَ الَّذِينَ خَدَمَ عَلَى بَابِهِ: آدَمُ وَنُوحٌ وَإبراهِيمُ وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَمُحَمَّدٌ خَيْرُ العَالَمِينَ، مَعَ سَائِرِ الأنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، في مَرَاتِبِهِمُ المُنِيفَةِ، وَمَنَاقِبِهِمُ العَزِيزَةِ الشَّرِيفَةِ، وَمَقَامَاتِهِمُ الكَرِيمَةِ، وعِبادَاتِهِمُ الْجَلِيلَةِ الخَطِيرَةِ.

ثُمَّ الْعُلَمَاءُ الأَئِمَّةُ الأَبْرَارُ وَالزُّهَّادُ في مَرَاتِبِهِمُ الْفَاخِرَةِ، وَأَبْدَانِهِمُ النَّقِيَّةِ الطَّاهِرَةِ، وَعِبَادَاتِهِمُ الكَثِيرَةِ الْخَالِصَةِ المُتَظَاهِرَةِ.

وَأَذَلُّ الْخَدَمِ عَلَى بَابِهِ/ مُلُوكُ ٱلدُّنْيَا وَجَبَابِرَتُهَا، يَخِرُّونَ لَهُ عَلَى [٨٠/ب] الأذْقَانِ سَاجِدِينَ صَاغِرِينَ، وَيُعَفِّرُونَ الْوُجُوهَ في التُّرَابِ خَاضِعِينَ، وَيَرْفَعُونَ إِلَيْهِ حَوَائِجَهُمْ بَاكِينَ ضَارِعِينَ، وَيَعْتَرِفُونَ لَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ وَلأَنْفُسِهِم بِالنَّقْصِ، عانين صَاغِرِينَ، حَتَّى رُبَّمَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ نَظْرَةً، وَيَقْضِي لَهُمْ بِفَضْلِهِ حَاجَةً، أَوْ يَتَجَاوَزُ عَنْهُم بِكَرَمِهِ زَلَّةً؛ فَمَعَ هٰذِهِ الْعَظَمَةِ وَالجَلاَلِ، وَالمُلْكِ وَالكَمَالِ، قَدْ أَذِنَ لَكَ في حَقَارَتِكَ وَعُيُوبِكَ، وَأَنْتَ الَّذِي لَوِ ٱسْتَأْذَنْتَ عَلَى رَئِيس بَلَدِكَ، فَرُبَّمَا لاَ يَأْذَنُ لَكَ، وَإِنْ كَلَّمْتَ أَمِيرَ نَاحِيَتِكَ، فَرُبَّمَا لاَ يُكَلِّمُكَ، وَإِنْ سَجَدْتَ لِسُلْطَانِ بَلَدِكَ بِالأرضِ، فَرُبَّمَا لاَ يَلْتَفِتُ إِلَيْكَ، أَذِنَ لَكَ اللَّهُ جَلَّ جلاَلُهُ حَتَّى تَعْبُدَهُ وَتُثْنِي عَلَيْهِ وَتُخَاطِبَهُ، بَل تُدِلُّ عَلَيْهِ بِالْمَسْئَلَةِ وَتُبَاسِطُهُ، فَتَسْتَقْضِيَهُ حَاجَتَكَ، وَتَسْتَكْفِيَهُ مُهِمَّاتِكَ، ثُمَّ إِنَّهُ يَرْضَى

= العرش، الطائفون به، لُقّبوا بذلك لأنهم متصدّعون للدعاء، برفع الكرب عن الأمة، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

رَكْعَتَيْكَ في مَعَايِبِهمَا، بَلْ يُعِدُّ مِنَ الثَّوَابِ عليهما مَا لاَ يَخْطُرُ بِقَلْبِ بَشَرٍ، وَأَنْتَ مَعَ ذٰلِكَ تَعْجَبُ بِهَاتَيْنِ الرَّكْعَتَيْنِ، وَتَسْتَكْثِرُ ذٰلِكَ وَتَسْتَعْظِمُهُ، وَلاَ تَرَى مِنَّةَ اللَّهِ عَلَيْكَ فِي ذٰلِكَ؛ فَمَا أَسْوَأَكَ مِنْ عَبْدٍ، وَمَا أَجْهَلَكَ مِنْ إِنْسَانٍ، وَاللَّهُ تَعالى الْمُسْتَعَانُ، وَإِلَيْهِ الْمُشْتكى مِنْ هٰذِهِ النَّفْسِ الْجَاهِلَةِ وعَلَيْهِ التُّكلانُ، فَهٰذِهِ هٰذِهِ.

فصل
في من يُعْجَبُ بِعمَلِهِ وَيَنْسى فَضْلَ اللَّهِ عليهِ

وَعَلَى وَجْهٍ آخَرَ، المَلِكُ الْعَظِيمُ إِذَا أَذِنَ بِإِدْخَالِ الْهَدَايَا إِلَيْهِ، فَيَدْخُلُ بِحَضْرَتِهِ الأُمَرَاءُ وَالْكُبَراءُ وَالرُّؤَسَاءُ وَالنُّبَلَاءُ وَالأَغْنِيَاءُ، بِأَنْوَاعِ الْهَدَايَا مِنَ الْجَوَاهِرِ الثَّمِينَةِ وَالذَّخَائِرِ النَّفِيسَةِ وَالأَمْوَالِ الْجَلِيلَةِ؛ فَإِنْ جَاءَ بَقَّالٌ بِبَاقَةِ بَقْلٍ، أَوْ قَرَوِيٌّ بِسَلَّةِ عِنَبٍ تُسَاوِي دَانِقاً أَوْ حَبَّةً، فَيَدْخُلُ فِي حَضْرَتِهِ وَيُزَاحِمُ أُولَئِكَ الأَكَابِرَ وَالأَغْنِيَاءَ بِهَدَايَاهُمُ الكَثِيرَةِ الشَّرِيفَةِ، وَهٰذَا المَلِكُ يَقْبَلُ مِنْ هٰذَا الْفَقِيرِ هَدِيَّتَهُ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ بِنَظَرِ القَبُولِ وَالرِّضَا، وَيَأْمُرُ لَهُ بِأَنْفَسِ خِلْعَةٍ وَكَرَامَةٍ، أَلَا يَكُونُ مِنْهُ ذٰلِكَ غَايَةَ الْفَضْلِ وَالْكَرَمِ؟ فَإِنْ أَخَذَ هٰذَا الْفَقِيرُ يَمُنُّ بِذٰلِكَ عَلَى المَلِكِ وَيَعْجَبُ بِهِ، وَيَسْتَعْظِمُهُ وَيَنْسَى ذِكْرَ مِنَّةِ المَلِكِ، أَلَا يُقَالُ هٰذَا مَجْنُونٌ مُضْطَرِبُ الْعَقْلِ، أَوْ سَفِيهٌ سَيِّءُ الخُلُقِ عَظِيمُ الْجَهْلِ؟ فَالآنَ إِنَّكَ إِذَا قُمْتَ لِلَّهِ لَيْلَةً وَصَلَّيْتَ رَكَعَاتٍ، فَإِذَا فَرَغْتَ فَتَفَكَّرْ كَمْ قَامَ لله سُبْحَانَهُ فِي هٰذِهِ اللَّيْلَةِ مِنَ الْخَدَمِ فِي/ أَقْطَارِ الأَرْضِ بَرِّهَا وَبَحْرِهَا، وَجِبَالِهَا [٨١/أ] وَبِلَادِهَا، مِنْ أَصْنَافِ المُسْتَقِيمِينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالخَائِفِينَ وَالمُشْتَاقِينَ، وَالمُجْتَهِدِينَ وَالمُتَضَرِّعِينَ، وَكَمْ حَضَرَتْ فِي هٰذِهِ السَّاعَةِ بِبَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِنْ عِبَادَةٍ صَافِيَةٍ، وَخِدْمَةٍ خَالِصَةٍ، عَنْ أَنْفُسٍ خَاشِعَةٍ وأبدان طَاهِرَةٍ، وَعيُونٍ بَاكِيَةٍ وقُلوبٍ عَامِرَةٍ وَصُدُورٍ نَقِيَّةٍ، وَأَرْكَانٍ تَقِيَّةٍ.

وَصَلاَتُكَ إنْ كُنتَ بَذَلْتَ المَجْهُودَ في تَحْسِينِهَا وَإِحْكَامِهَا وَإِصْلاَحِهَا، فَلاَ تكَادُ تَصْلُحُ بِحضرَةِ هٰذَا المَلِكِ، وَلاَ تَتبَيَّنُ في جَنْبِ تِلْكَ الْعِبَادَاتِ الَّتِي تُعْرَضُ هُنَالك؛ كَيْفَ وَقَدْ كَانَتْ مِنْكَ عَنْ قَلْبٍ غَافِلٍ (مُخْتَلِطٍ بِأَنْواعِ العُيُوبِ، وَبَدَنٍ نَجِسٍ بِأَقْذَارِ الذُّنُوبِ، وَلِسَانٍ)[1] مُتَلَطِّخٍ بِأَنْوَاعِ المَعْصِيَةِ وَالْفُضُولِ؛ فَكَيْفَ يَصْلُحُ هٰذَا أَنْ يُحْمَلَ إلى تِلْكَ الحَضْرَةِ، وَكَيْفَ يَسْتَأْهِلُ أن يُهْدَى إلى رَبِّ الْعِزَّةِ؟

قَالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ: اُنْظُرْ أَيُّهَا الْعَاقِلُ، هَلْ وَجَّهْتَ قَطُّ صَلاَةً مِنْ صَلَوَاتِكَ إلى السَّمَاءِ، كَمَائِدَةٍ بَعَثْتَهَا إِلى بُيُوتِ الأَغْنِيَاءِ؟

وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ الوَرَّاقُ يَقُولُ: مَا فَرغْتُ مِنْ صَلاَةٍ إِلاَّ اسْتَحَيْتُ مِنْهَا حِينَ فَرَغْتُ أَشَدَّ حَيَاءً مِنْ حياءِ امْرَأَةٍ فَرَغَتْ مِنَ الزِّنَا. ثُمَّ إنَّ الرَّبَّ الكَرِيمَ سُبْحَانَهُ، بِمَحْضِ كَرَمِهِ وَفَضْلِهِ، عَظَّمَ قَدْرَ هَاتَيْنِ الرَّكْعَتَيْنِ، وَوَعَدَ عَلَيْهِمَا مِنْ جَزِيلِ الثَّوَابِ مَا وَعَدَ، وَأَنْتَ عَبْدُهُ وَفي جَرَايَتِهِ، وَعَمِلْتَ مَا عَمِلْتَ بِتَوْفِيقِهِ وَتَيْسِيرِهِ ثم مَعَ ذٰلِكَ تَعْجَبُ بِذٰلِكَ وَتَنْسَى مِنَّةَ اللَّهِ عَلَيْكَ. هٰذَا وَاللَّهِ أَعْجَبُ الْعَجَبِ لاَ يَكَادُ يذهَبُ مِثْلُهُ إلاَّ عَنْ جَاهِلٍ لاَ فِكْرَ لَهُ، وَغَافِلٍ لاَ ذِهْنَ لَهُ، وَقَلْبٍ مَيِّتٍ خاوٍ لاَ خَيْرَ فِيهِ، فَهٰذِهِ هٰذِهِ، نَسْأَلُ اللَّهَ حُسْنَ السلامة بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ.

---

(١) جملة ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

فصل
في الدعوة إلى التيقُّظ من الغفلة لاجتياز عقبة القوادح

ثُمَّ أَقُولُ بَعْدَ هٰذِهِ الْجُمْلَةِ: تَيَقَّظْ مِنْ رَقْدَتِكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ في هٰذِهِ الْعَقَبَةِ وَإِلاَّ كُنْتَ مِنَ الخَاسِرِينَ؛ فَإِنَّ هٰذِهِ الْعَقَبَةَ أَشَدُّ وَأَشَقُّ وَأَمَرُّ وَأَضَرُّ عَقَبَةً ٱسْتَقبَلَتْكَ في هٰذِهِ الطَّرِيقِ، إِذْ تَنْتَهِي ثَمَرَةُ كُلِّ مَا مَضَى مِنَ الْعَقَبَاتِ؛ فَإِنْ سَلِمْتَ غَنِمْتَ وَرَبِحْتَ، وَإِن كَانَتِ الأُخْرَى، فَقَدْ ضَاعَ السَّعْيُ كُلُّهُ وَخَابَ الأَمَلُ، وَبَطَلَ العُمْرُ.

ثُمَّ الشَّأْنُ كُلُّهُ أَنْ قَدِ ٱجْتَمَعَ في هٰذِهِ الْعَقَبَةِ هٰهُنَا ثَلاَثَةُ أُمُورٍ هي: أَنَّ الأَمْرَ دَقِيقٌ جِدّاً، وَالْغَبْنَ شَدِيدٌ، وَالخَطَرَ عَظِيمٌ.

دوافع التيقّظ [٨١/ب]

١ ــ أَمَّا دِقَّةُ الأَمْرِ، فَإِنَّ مَجَارِيَ الرِّيَاءِ وَالْعُجْبِ فِي الأَعْمالِ دَقِيقَةٌ خَفِيَّةٌ بِالْغَايَةِ، فَلاَ يَكَادُ يَتَنَبَّهُ/ لِذٰلِكَ إِلاَّ كُلُّ نِحْرِيرٍ في أَمْرِ الدِّينِ، بَصِيرٍ يَقْظَانِ الْقَلْبِ مُتَحَرِّزٍ، وَأَنَّى يَطَّلِعُ عَلَيْهِ الجَاهِلُ اللَّعُوبُ، وَالْغَافِلُ النَّئُومُ؟

حكاية عن عطاء السلمي

وَلَقَدْ سَمِعْتُ بَعْضَ عُلَمَائِنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ بِنَيْسَابُور يَحْكِي أَنَّ عَطَاءَ السُّلَمِيَّ[1] رَحِمَهُ اللَّهُ، نَسَجَ ثَوْباً فَأَحْكَمَهُ وَحَسَّنَهُ جِدّاً، ثُمَّ

---

(١) وقيل: السليمي، بفتح السين وكسر اللام، نسبة إلى سلمة بن مالك، وهم بطن من =

حَمَلَهُ إلى السُّوقِ فعَرَضَهُ فَاسْتَرْخَصَهُ البَزّازُ[1] وَقَالَ: إنّ فِيهِ عُيُوباً كَيْتَ وَكَيْتَ؛ فَأَخَذَهُ عطاءٌ وَجَلَسَ يَبْكِي بُكَاءً شَدِيداً، فَنَدِمَ الرَّجُلُ عَلَى ذٰلِكَ، وَجعَلَ يَعْتَذِرُ إلَيْهِ، وَيَبْذُلُ لَهُ في ثَمَنِهِ مَا يُرِيدُ؛ فَقَالَ عَطَاءٌ: لَيْسَ ذٰلِكَ ما تَظُنُّ، إنَّمَا أنَا عَامِلٌ في هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ، وَقَدِ اجْتَهَدْتُ في إحْكَامِ هٰذَا الثَّوبِ وَإِصْلاَحِهِ وَتَحْسِينِهِ، حَتَّى لاَ يُوجَدَ بِهِ عَيْبٌ، فَلَمَّا عُرِضَ عَلَى البَصِيرِ بِعُيُوبِهِ، أظْهَرَ فِيهِ عُيُوباً كُنْتُ عَنْهَا غَافِلاً، فَكَيْفَ أعْمَالُنَا هٰذِهِ، إذَا عُرِضَتْ غَداً عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ كَمْ يَبْدُو فِيها مِنَ العُيُوبِ وَالنُّقْصَانِ، الَّذِي نَحْنُ اليَوْمَ عَنْهَا غافلون؟

وَعَنْ بَعْضِ الصالِحِينَ قال: كُنْتُ لَيْلَةً في وَقْتِ السَّحَرِ في غُرْفَةٍ لي شَارِعَةٍ أقْرَأُ سُورَةَ طٰهَ، فَلَمَّا أَنْ خَتَمْتُهَا غَفَوتُ غَفْوَةً، فَرَأَيْتُ شَخْصاً نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ بِيَدِهِ صَحِيفَةٌ، فَنَشَرَهَا بَيْنَ يَدَيَّ، فَإذَا فِيهَا سُورَةُ طٰهَ، وَإذَا تحْتَ كُلِّ كَلِمَةٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ مُثْبَتَةٍ إلاّ كَلِمَةً وَاحِدَةً، فَإنِّي رَأَيْتُ مَكَانَهَا مَحْواً وَلَمْ أرَ تَحْتَهَا شَيْئاً؛ فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَقَدْ قَرَأتُ هٰذِهِ الْكَلِمَةَ، وَلاَ أَرَى لَهَا ثواباً وَلاَ أَرَاهَا أُثْبِتَتْ؛ فَقَالَ الشَّخْصُ: صَدَقْتَ، قَدْ قَرَأْتَها وَكَتَبْنَاهَا، إلاَّ أَنَّا سَمِعْنَا مُنَادِياً مِنْ قِبَلِ العَرْشِ: امْحُوهَا وَأَسْقِطُوا ثوابَهَا، فَمَحَوْنَاهَا؛ قَالَ فَبَكَيْتُ في مَنَامي وَقُلْتُ: لِمَ فَعَلْتُمْ ذٰلِكَ؟ قَالُوا: مَرَّ رَجُلٌ فَرَفَعْتَ صَوْتَكَ لِأَجْلِهِ فَذَهَبَ ثَوَابُهَا، فَهٰذِهِ هٰذِهِ.

= الأزد، زاهد مشهور، ويقال له العبدي وهو من صغار التابعين، روى عن أنس بن مالك، وكان يسكن البصرة وسمع من الحسن البصري وجعفر بن زيد، واشتغل بنفسه عن الرواية. وكان قد أرْعَبَه فرط الخوف من الله. سير أعلام النبلاء ٦/ ٨٦.

(١) البزّاز: صانع البزّ، وهو الخياط.

٢ ـ وَأَمَّا شِدَّةُ الغَبْنِ، فَلِأَنَّ الرِّيَاءَ وَالْعُجْبَ آفَةٌ تَقَعُ فِي لَحْظَةٍ، فَرُبَّمَا تُفْسِدُ عَلَيْكَ عِبَادَةَ سَبْعِينَ سَنَةً.

وَحُكِيَ أَنَّ رَجُلاً أَضَافَ سُفْيَانَ الثَّورِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ وَأَصْحَابَهُ فَقَالَ لِأَهْلِهِ: هَاتُوا الطَّبَقَ لاَ الَّذِي أَتَيْتُ بِهِ فِي الحَجَّةِ الأولى، بَلِ الَّذِي أَتَيْتُ بِهِ فِي الحَجَّةِ الثَّانِيَةِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ سُفْيَانُ وقَالَ: مِسْكِينٌ قَدْ أَفْسَدَ عَلَيْهِ بِهٰذَا حَجَّتَيْهِ.

وَوَجْهٌ آخَرُ فِي الْغَبْنِ، أَنَّ أَقَلَّ طَاعَةٍ سَلِمَتْ مِن هٰذَا الرِّيَاءِ وَالْعُجْبِ، يَكُونُ لَهَا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ القِيمَةِ مَا لاَ نِهَايَةَ لَهُ، وَأَكْبَرُ طَاعَةٍ/ [٨٢/أ] إِذَا أَصَابَتْهَا هٰذِهِ الآفَةُ، بَقِيتْ لاَ قِيمَةَ لَهَا، إِلاَّ أَنْ يَتَدَارَكَهَا اللَّهُ تَعَالَى، عَلَى مَا رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: لاَ يَقِلُّ عَمَلٌ مَقبُولٌ أَلْبَتَّةَ، وَكَيْفَ يَقِلُّ عَمَلٌ مَقْبُولٌ[1]؟

وَسُئِلَ النَّخَعِيُّ، عَنْ عَمَلِ كَذَا وَكَذَا: مَا ثَوَابُهُ؟ فَقَالَ: إِذَا قُبِلَ لاَ يُحْصَى ثَوَابُهُ.

وَعَنْ وَهْبٍ قَالَ: كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، رَجُلٌ عَبَدَ اللَّهَ سَبْعِينَ عَاماً صَائِماً، يُفْطِرُ مِنْ سَبْتٍ إلى سَبْتٍ، فَطَلَبَ إِلى اللَّهِ تَعَالَى حَاجَةً فَلَمْ تُقْضَ، فَأَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ وَقَالَ: مِنْ قِبَلِكِ أُتِيتُ، لَوْ كَانَ عِنْدَكِ خَيْرٌ لَقُضِيَتْ حَاجَتُكِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى مَلَكاً فَقَالَ: يَا ابْنَ آدَمَ، سَاعَتُكَ الَّتِي أَزْرَيْتَ بِنَفْسِكَ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَتِكَ الَّتِي مَضَتْ.

---

(١) قال الكديري في سراج الطالبين (٢/ ٤٢٢): «قد ورد هذا القول في قوت القلوب بلفظ: قال عليّ كرّم الله وجهه: كونوا بقبول العمل أشدَّ اهتماماً منكم بالعمل، فإنّه لا يقلّ عمل مَعَ تقوى وكيف يقلّ عمل يُتَقَبَّل؟

قلت: فَلْيَنْظُرْ الْعَاقِلُ إلى هٰذَا الْكَلَامِ. أَلَيْسَ مِنَ الْغبْنِ أَنَّ وَاحِداً يَكْدَحُ وَيَتْعَبُ سَبْعِينَ سَنَةً، وَآخَرَ يَتفَكَّرُ سَاعةً، فَيكُونُ فِكْرُهُ سَاعَةً أَفْضَلَ من سبعين سنة (عبادة)[1] وخيراً؟ أَلَيْسَ مِنَ الْغبْنِ الْعَظِيمِ أَنَّكَ مُتَمَكِّنٌ مِنْ سَاعَةٍ خَيْرٍ مِنْ سَبْعِينَ سَنَةً، وَتَتْرُكُ ذٰلِكَ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ؟ بَلَى إِنَّهُ لَأَعْظَمُ الْغبْنِ، وَإِنَّ إغْفَالَهُ لَأَشَدُّ خُسْرَاناً، وَإِنَّ الْخَصْلَةَ الَّتِي لَهَا هٰذِهِ الْقِيمَةُ وَالخطَرُ، يَجبُ أَنْ تُحْذَرَ وَتُجْتَنَبَ، وَلمِثْلِ هٰذَا المَعْنَى إِنَّمَا وَقَعَ نَظَرُ أُولِي الأَبْصَارِ مِنَ الْعُبَّادِ فِي مِثْلِ هٰذِهِ الدَّقَائِقِ، وَاهْتَمُّوا بِمِثْلِ هٰذِهِ الأَسْرَارِ بِمَعْرِفَتِهَا أَوَّلاً، ثُمَّ رِعَايَتِهَا وَالتَّحَفُّظِ عَنْهَا ثَانِياً، وَلَمْ تُغْنِهِمْ كَثْرَةُ الأَعْمَالِ بِالظَّاهِرِ، وَقَالُوا: الشَّأْنُ فِي الصَّفْوَةِ لَا فِي الْكَثْرَةِ، وَقَالُوا: جَوْهَرَةٌ وَاحِدَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ خَرَزَةٍ.

وَأَمَّا الَّذِينَ قَلَّ عِلْمُهُمْ، وَكَلَّ فِي هٰذَا الْبَابِ نظَرُهُمْ، فَجهِلُوا المَعَانِيَ، وَأَغْفَلُوا مَا فِي الْقُلُوبِ مِنْ العُيُوبِ، وَاشْتَغَلُوا بِإِتْعَابِ النُّفُوس بالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، وَالإِمْسَاكِ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَنَحوِهِ، فَغرَّهُمُ العَدَدُ وَالْكَثْرَةُ، وَلَمْ يَنْظُرُوا مَا فيهَا مِنَ الْمُخِّ[2] وَالصَّفْوَةِ، وَمَا يُغْنِي عَدَدُ الْجَوْزِ وَلَا لبَّ فِيها؟ وَمَا يَنْفَعُ رَفْعُ السقُوفِ وَلَمْ

---

(١) لفظة ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

(٢) المخّ: مخّ كل شيء: خالصه. ومخّ العبادة: أصلها والغرض منها، ومنه قوله ﷺ: الدعاء مخّ العبادة»، فهو امتثال أمر الله تعالى حيث قال: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾، فهو محض العبادة وخالصها، وهو أيضاً توجّه إلى الله وحده وقطع الأمل عن سواه، وهذا هو أصل العبادة.

تُحْكَمْ مَبَانِيهَا؟ وَمَا يَعْقِلُ هٰذِهِ الْحَقَائِقَ إِلاّ الْعَالِمُونَ بِاللَّهِ الْمُكَاشَفُونَ، وَاللَّهُ تَعَالَى وَلِيُّ الْهِدَايَةِ بِفضله.

٣ ــ وَأَمَّا عظم الخطر فمن وجوه:

أَحَدُهَا: أنَّه:

١ ــ مَلِكٌ لاَ نِهَايَةَ لِجَلاَلِهِ وَعَظَمَتِهِ.

٢ ــ وَلَهُ عَلَيْكَ نِعَمٌ لاَ تُعَدُّ وَلاَ تُحْصَى.

٣ ــ وَلَكَ بَدَن/ مَعِيبٌ بِعُيُوبٍ خَفِيَّةٍ، مَؤُوفٍ[1] بِآفَاتٍ كَثِيرَةٍ. [٨٢/ب]

٤ ــ وَأمورٍ مَخُوفةٍ إِنْ وَقَعَ زَلَلٌ مَعَ تَسَارُعِ النَّفْسِ إِلَيْهِ، فَتَحْتَاجُ أَنْ تَسْتَخْرِجَ عملاً صالحاً صَافِياً سَالِماً مِنْ بَدَنٍ مَعِيبٍ وَنَفْسٍ مَائلةٍ إِلَى الشَّرِّ، أَمَّارَةٍ بِالسُّوءِ عَلَى وَجْهٍ يَصْلُحُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ فِي جَلاَلِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَكَثْرَةِ أَيَادِيهِ وَمِنَّتِهِ، وَيَقَعُ مِنْهُ مَوْقعَ ٱلرِّضَا وَالْقَبُولِ، وَإِلاَّ فَيَفُوتُكَ الرِّبْحُ الْعَظِيمُ الَّذِي لاَ تَسْمَحُ النَّفْسُ بِفَوْتِهِ، بَلْ رُبَّمَا يُصِيبُكَ فِيهِ مُصِيبة لاَ طَاقَةَ لَكَ بِهَا، وَهٰذَا وَٱللَّهِ شَأْنٌ عَظِيمٌ وَخَطْبٌ جَسِيمٌ.

١ ــ وَأَمَّا جَلاَلُ المَلِكِ وَعَظَمَتُهُ بِحَيْثُ أَنَّ المَلاَئِكَةَ المُقَرَّبِينَ الأَبْرَارَ، قَائِمُونَ لَهُ بِالْخِدْمَةِ آنَاء اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ؛ حَتَّى إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ هُوَ مُنْذُ خَلَقَهُ ٱللَّهُ تَعَالى فِي قِيَامٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِي رُكُوعٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِي سُجُودٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِي تَسْبِيحٍ وَتَهْلِيلٍ، فَلاَ يُتِمُّ الْقَائِمُ قِيَامَهُ، وَلاَ الرَّاكِعُ رُكُوعَهُ، وَلاَ السَّاجِدُ سُجُودَهُ، وَلاَ المُسَبِّحُ تَسْبِيحَهُ، مَادّاً بِهِ صَوْتَهُ إِلَى نَفْخِ الصُّورِ؛ ثُمَّ لَمَّا فَرَغوا مِنْ هٰذِهِ

---

(١) مؤوف: أصابته آفة، والفعل إيف كقيل فهو مؤوف ومَئِيف.

الْخِدمَةِ الْعَظِيمَةِ، نَادَوْا بِأَجْمَعِهِمْ: سُبحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حقَّ عِبادَتِكَ.

وهٰذَا سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ وَخَيْرُ الْعَالَمِينَ، أَعْلَمُ الْخَلْقِ وَأَفْضَلُهُمْ، مُحَمَّدٌ ﷺ يقُولُ: «لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْت كَما أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسكَ»[1] يَقُولُ: أَنَا لاَ أَقْدِرُ أَنْ أُثْنِيَ عَلَيْكَ ثَنَاءً أَنْتَ لَهُ أَهْلٌ، فَضلاً عَنْ أَنْ أَعْبُدَكَ كمَا أَنْتَ لَهُ أَهْلٌ، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ: «لَيْسَ أَحَدٌ يَدْخُلُ ٱلْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ، قالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قالَ: وَلاَ أَنَا، إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي ٱللَّهُ بِرَحْمَتِهِ»[2].

---

(١) ــ هذا جزء من حديث رواه مسلم (١/٣٥٢) كتاب الصلاة: باب ما يقال في الركوع والسجود، ورقم الحديث (٢٢٢) وهو دعاء ولفظه: «اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك».

ــ كذلك رواه مالك في الموطأ (١/١٦٧) باب ما جاء في الدعاء.

ــ ورواه أيضا أبو داود في سننه (١/٥٤٧) كتاب الصلاة: باب الدعاء في الركوع والسجود، الحديث رقم (٨٧٩) والروايات الثلاثة السابقة كلها عن عائشة رضي الله عنها.

ــ كذلك أخرجه ابن ماجه عن علي بن أبي طالب، كواحد من أدعية الوتر (١/٣٧٣) كتاب إقامة الصلاة، باب ما جاء في القنوت والوتر الحديث رقم (١١٧٩) ثم عاد ابن ماجه وأخرجه برواية ثانية عن عائشة رضي الله عنها (٢/١٢٦٣) في كتاب الدعاء، الحديث رقم (٣٨٤١).

ــ وأخرجه الإمام أحمد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه (١/٩٦، ١١٨، ١٥٠) وعن عائشة أيضاً (٦/٥٨) وتتفق جميع الروايات في جميع كتب السنة على ألفاظ هذا الحديث بلا زيادة ولا نقصان. ورواه أيضاً النسائي في قيام الليل، والترمذي في الدعوات.

(٢) ــ رواه البخاري عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لن يدخل أحداً عمله الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن =

٢ ـ وَأمّا النِّعَمُ والأيادِي، فَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وَعَلى مَا رُوِيَ أَنَّهُ يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى ثَلاثَةِ دَوَاوِينَ: دِيوَانِ الْحَسَنَاتِ، وَدِيوَانِ السَّيِّئَاتِ، وَدِيوَانِ النِّعَمِ، فَتُقَابَلُ الحَسَنَاتُ بِالنِّعَمِ، فَلاَ يُؤْتَى بِحَسَنَةٍ إِلاَّ أُتِيَ بِنِعْمَةٍ، حَتَّى تَعمّ الْحَسَنات بِالنِّعَم، وَتَبْقَى السَّيئاتُ وَالذُّنُوبُ؛ فَلِلَّهِ تَعَالَى فِيهَا المَشِيئَةُ.

٣ ـ وَأَمَّا عُيُوبُ النَّفْسِ وَآفَاتُهَا فَقَدْ قَدَّمْنَاهَا في بَابِها.

٤ ـ وَالأَمْرُ المَخُوفُ أَنَّ العَبْدَ يَكْدَحُ وَيَدْأَبُ سَبْعِينَ سَنَةً غَافِلاً عَنْ عُيُوبِهِ وَآفَاتِهِ؛ فَرُبَّما لاَ يَكُونُ وَاحِدٌ مِنْهَا مَقْبُولاً. وَرُبَّمَا يَتْعَبُ

= يتغمدني الله بفضل ورحمة، فسدِّدوا وقاربوا، ولا يتمنَّينَّ أحدكم الموت، إما محسناً فلعله أن يزداد خيراً، وإما مسيئاً فلعله أن يستعتب» (١٥٧/٧) (كتاب المرضى).

ـ كذلك رواه البخاري أيضاً (كتاب الرقاق ٨/ ١٢٣) عن عائشة.

ـ ورواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٦٩)، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب: لن يدخل أحد الجنة بعمله عن أبي هريرة بلفظ: «لن ينجي أحداً منكم عمله...».

ـ وكذلك رواه ابن ماجه في سننه عن أبي هريرة (كتاب الزهد، باب التوقّي على العمل ٢/ ١٤٠٥ الحديث رقم ٤٢٠١، وأشار إلى حسن إسناده كما يقول الهيثمي في الزوائد.

ـ ورواه الدارمي في سننه (٢/ ٣٠٥، باب لا ينجي أحدكم عمله) عن جابر، والمعنى واحد.

ـ ويروي ابن حنبل هذا الحديث في مسنده خمساً وعشرين مرة عن أبي هريرة وعن أبي سعيد الخدري، وعن جابر بن عبد الله، وعن عائشة وبألفاظ متقاربة مع إضافة عبارة (ولا ينجيه من النار).

ـ راجع ابن حنبل (٢/ ٢٣٥، ٢٥٦، ٢٦٤...).

أَعْوَاماً فَتَفْسُدُ، بِسَاعَةٍ وَاحِدَةٍ؛ وَأَعْظَمُ خَطَراً مِنْ ذٰلِكَ كُلِّهِ أَنَّهُ رُبَّمَا يَنْظُرُ ٱللَّهُ تعالَى إِلَى الْعَبْدِ وَهُوَ يُرَائِي النَّاسَ بِعِبَادَتِهِ وَخِدْمَتِهِ، جَعَلَ/ [٨٣/أ] ظَاهِرَهُ لِلَّهِ، وقلبه وَبَاطِنَهُ لِلْخَلْقِ، فَيَطْرُدُهُ طَرْداً لَا مَرَدَّ لَهُ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

روايات عن عدم قبول العمل

وَلَقَدْ سَمِعْتُ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ يَحْكِي عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّه أَنَّهُ رُؤِيَ في المَنَامِ بَعْدَ مَوْتِهِ، فَسُئِلَ عَنْ حَالِهِ فَقَالَ: أَقَامَنِي ٱللَّهُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ يَا حَسَنُ: أَتَذْكُرُ يَوْمَ كُنْتَ تُصَلِّي في الْمَسْجد، إِذْ رَمَقَكَ النَّاسُ بِأَبْصَارِهِمْ فَزِدْتَ حُسْناً لِصَلَاتِك، فَلَوْلَا أَنَّ أَوَّلَ صَلَاتِكَ كَانَ لِي خَالِصاً، لَطَرَدْتُكَ الْيَوْمَ عَنْ بَابِي، وَلَقَطَعْتُكَ عَنِّي مَرَّةً وَاحِدَةً.

وَلَمَّا كَانَ الأَمْرُ في الْجُمْلَةِ مِنَ الدِّقَةِ وَالصُّعُوبَةِ إِلَى حَدٍّ عَظِيمٍ، نَظَرَ أُولُو الأَبْصَارِ فِيهِ، فَخَافُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَا يَلْتَفِت إِلَى جَمِيعِ مَا يُظْهِرُ لِلنَّاسِ مَنْ أَعْمَالِهِ، حَتَّى حُكِي عَنْ رَابِعَة[١] أَنَّهَا قالَتْ: مَا ظَهَرَ مِنْ أَعْمَالِي لَا أَعُدَّهُ شَيْئاً؛ وَقالَ آخَرُ: ٱكْتُمْ حَسَنَاتِكَ كمَا تَكْتُمُ سَيِّئَاتِكَ، وَآخَرُ يَقُولُ: إِنْ أَمْكَنَكَ أَنْ تَجْعَلَ لَكَ خَبْئاً مِنَ الْخَيْرِ فَافْعَلْ، قَدْ حُكِيَ أَنَّه قِيلَ لِرَابِعَةَ: بِمَ تَرْبِحِينَ أَكْثَرَ مَا تَرْتَجِينَ؟ فقالَت: بِيَأْسِي مِنْ جُلِّ عَمَلِي.

رابعة العدوية

وَحُكِيَ أَنَّهُ ٱجْتَمَعَ مُحَمَّدُ بنُ وَاسِعٍ وَمَالِكُ بنُ دِينَارٍ، فَقَالَ مَالِكُ بن دينار: إِمَّا طَاعَةُ اللَّهِ أَوِ النَّارُ، فَقَالَ مُحَمَّدُ بنُ وَاسِعٍ[٢]: إِمَّا

(١) البصرية، الزاهدة، العابدة، الخاشعة، أم عمرو رابعة بنت إسماعيل قيل: عاشت ثمانين سنة، وتوفيت سنة ثمانين ومئة. سير أعلام النبلاء ٨/ ٢١٥.

(٢) الإمام الرباني، القدوة، أبو بكر الأزدي البصري العابد، وكان رحمه الله يقول: =

رَحْمَةُ اللَّهِ أَوِ النَّارُ، فَقَالَ مَالِكٌ: مَا أَحْوَجَنِي إِلَى مُعَلِّمٍ مِثْلِكَ.

أبو يزيد البسطامي

وَعَنْ أَبِي يَزِيدَ الْبِسْطَامِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: كَابَدْتُ الْعِبَادَةَ ثَلاثِينَ سَنَةً، فَرَأَيْتُ قَائِلاً يَقُولُ لِي: يَا أَبَا يَزِيدَ: خَزَائِنُهُ مَمْلُوءَةٌ مِنَ الْعِبَادَةِ، فَإِنْ أَرَدْتَ الْوُصُولَ إِلَيْهِ فَعَلَيْكَ بِالذِّلَّةِ وَالافْتِقَارِ.

وَسَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا الْحَسَنِ، يَحْكِي عَنِ الأُسْتَاذِ أَبِي الْفَضْلِ رَحِمَهُما ٱللَّهُ، أَنّهُ كَانَ يَقُولُ: إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّ مَا أَعْمَلهُ مِنَ الطَّاعَاتِ غَيْرُ مَقْبُولَةٍ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، فَقِيلَ لَهُ في ذٰلِكَ، فَأَجابَ: إِنِّي أَعْلَمُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْفِعْلُ حَتَّى يَكُونَ مَقْبُولاً وَأَعْلَمُ أَنِّي لَسْتُ أَقُومُ بِذٰلِكَ، فَعَلِمْتُ أَنَّهَا غَيْرُ مَقْبُولَةٍ؛ قِيلَ لَهُ: فَلِمَ تَفْعَلُهَا؟ قَالَ عَسَى أَنْ يُصْلِحَنِي ٱللَّهُ تَعَالَى يَوْماً فَتَكُونَ النَّفْسُ مُتَعَوِّدَةً لِعَمَلِ ٱلْخَيْرِ؛ أَفَلا أَحْتَاجُ إِلَى أَنْ أُعَوِّدَهَا ذٰلِكَ مِنَ ٱلرَّأْسِ؟ فَهٰذِهِ حَالُ هٰؤُلاَءِ الأَعْلاَمِ، وَذَوِي المُجَاهَدَاتِ وَالأَقْدَارِ. ولذلك قيل: [الكامل]:

فَاطْلُبْ لِنَفْسِكَ صُحْبَةً مَعْ غَيْرِهِمْ ... وَقَعَ الأَيَاسُ وَخَابَتِ الآمَالُ
هَيْهَاتَ تُدْرِكُ بِالتَّوَانِي سَادَةً ... كَدُّوا النُّفُوسَ وَسَاعَدَ الإِقْبَالُ/ [٨٣/ب]

ثُمّ رَأَيْتُ أَنِّي أُثْبِتُ هٰهُنَا الْخَبَرَ المَأْثُورَ عَنِ الصَّادِقِ المَصْدُوقِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلامُهُ، وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ فِي غَيْرِ كِتَابٍ.

حديث معاذ

رُوِيَ عَنِ ٱبْنِ المُبَارَكِ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ رَجُلٍ (وَهُوَ خالِدُ بْنُ

= من زهد في الدنيا فقد ملك الدنيا والآخرة. ويقول أيضاً: من أقبل بقلبه على الله أقبل الله بقلوب العباد إليه. حدّث عن أنس بن مالك ومحمد بن سيرين وغيرهما. وهو قليل الرواية. مات سنة ثلاث وعشرين ومئة أو سبع وعشرين ومئة كما في رواية أخرى. سير أعلام النبلاء ٦/ ١١٩.

مَعْدَانَ[1])[2] أَنَّهُ قالَ لِمُعَاذٍ رضي الله عنه: حَدِّثْني حَديثاً سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ، حَفِظْتَهُ وَذَكَرْتَهُ في كُلِّ يَوْمٍ مِنْ شِدَّتِه وَدِقَّتِه، قَالَ نَعَمْ، ثُمَّ بَكَى بُكَاءً طَوِيلاً، ثُمَّ قالَ: واشَوْقَاهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِلى لِقَائِه؛ ثُمَّ قَالَ: بَيْنَا أَنَا عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ، إذ رَكِب وأردفَني، ثُمَّ سِرْنَا فَرَفَعَ بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ قالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يَقْضِي في خَلْقِهِ مَا يَشَاءُ. يَا مُعَاذُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا سَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ، قالَ: أُحَدِّثُكَ بِحَدِيثٍ إِنْ حَفِظْتَهُ نَفَعَكَ، وَإِنْ ضَيَّعْتَهُ ٱنْقَطَعَتْ حُجَّتكَ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، يا مُعَاذ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ سَبْعَةَ أَمْلاكٍ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ، لِكُلِّ سَمَاءٍ مَلَكاً، وَجَعَلَ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ السَّمٰوَاتِ مَلَكاً بَوّاباً عَلَى قَدْرِ الْبَابِ وَجَلاَلَتِه، فَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ، لَهُ نُورٌ وَشُعَاعٌ كَالشَّمْسِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ به السَّمَاءَ الدُّنْيَا، وَالْحَفَظَةُ تَسْتَكْثِرُ عَمَلَهُ وَتُزَكِّيه، فَإِذَا ٱنْتَهَى إِلَى الْبَابِ قالَ المَلَكُ لِلْحَفَظَةِ: ٱضْرِبُوا بِهٰذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ، أَنَا صَاحِبُ الْغِيبَةِ، أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لاَ أَدَعَ عَمَلَ مَنْ يَغْتَابُ النّاسَ يُتَجَاوَزُنِي إِلَى غَيْرِي.

العمل والغيبة

ثُمَّ يَجِيءُ الْحَفَظَةُ مِنَ الْغَدِ، مَعَهُمْ عَمَلٌ صَالِحٌ، لَهُ نُورٌ، تَسْتَكْثِرُهُ الحَفَظَةُ وَتُزَكِّيهِ حَتَّى إِذَا ٱنْتَهَوْا بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ قَالَ لَهمْ المَلَكُ: قِفُوا وَٱضْرِبُوا بِهٰذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ، فَإِنَّهُ أَرَادَ بِهِ عَرَضَ

العمل والدنيا

---

(١) هو أبو عبد الله الكلاعي الشامي ثقة، عابد. شيخ أهل الشام، حدّث عن خلق من الصحابة، وهو معدود من أئمة الفقه، وثّقه ابن سعد والعجلي والنسائي. مات سنة خمس ومئة للهجرة. سير أعلام النبلاء ٤/٥٣٦.

(٢) ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

الدُّنْيَا، أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لاَ أَدَعَ عَمَلَهُ يُتَجَاوَزُنِي إِلَى غَيْرِي. فَتَلْعَنُهُ الْمَلاَئِكَةُ حَتَّى يُمْسِيَ.

وَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ مُبْتَهِجاً، فِيهِ صَدَقَةٌ وَصِيَامٌ وَكَثِيرٌ مِنَ الْبِرِّ، فَتَسْتَكْثِرُهُ الْحَفَظَةُ وَتُزَكِّيهِ، فَإِذَا ٱنْتَهَوْا بِهِ إِلى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، قالَ الْمَلَكُ الْبَوَّابُ: قِفُوا وَٱضْرِبُوا بِهٰذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ، أَنَا الْمَلَكُ صَاحِب الْكِبْرِ، أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لاَ أَدَعَ عَمَلَهُ يتجاوزُنِي إلى غَيْرِي، إِنَّهُ كَانَ يَتَكَبَّرُ عَلَى النَّاسِ فِي مَجَالِسِهِمْ. العمل والكبر

وَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ وَهُوَ يَزْهُو كَمَا تَزْهُو النُّجُومُ وَالْكَوْكَبُ الدُّرِّيُّ، لَهُ دَوِيٌّ وَتَسْبِيحٌ بِصَوْمٍ وَصَلاَةٍ وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ، فَإِذَا ٱنْتَهَوْا به إِلى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، قالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهَا: قِفُوا وَٱضْرِبُوا بِهٰذَا الْعَمَلِ وَجْه/ صَاحِبِهِ، أَنَا الْمَلَكُ صَاحِبُ الإِعْجَابِ، أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لاَ أَدَعَ عَمَلَهُ يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي، إِنَّهُ كَانَ إِذا عَمِلَ عَمَلاً أَدْخَلَ الْعُجْبَ فِيهِ. العمل والإعجاب [٨٤/أ]

وَتَصْعَدُ الملائكة بِعَمَلِ الْعَبْدِ يُزَفُّ كمَا تُزَفُّ الْعَرُوسُ إِلى أَهْلِهَا، حَتَّى إِذَا ٱنْتَهَوْا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ بِذٰلِكَ الْعَمَلِ الْحَسَنِ مِنْ جِهَادٍ وَحَجٍّ لَهُ ضَوْءٌ كَضَوْءِ الشَّمْس، فَيَقُولُ الْمَلَكُ الموكل: أَنَا الْمَلَكُ صَاحِبُ الْحَسَدِ، إِنَّهُ كَانَ يَحْسُدُ الناسَ عَلَى مَا آتاهُمُ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، فقَدْ سَخِطَ مَا رَضِيَ اللَّهَ، أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لاَ أَدَعَ عَمَلَهُ يُجَاوِزُنِي إلى غَيْرِي. العمل والحسد

وَتَصْعَدُ الملائكة بِعَمَلِ الْعَبْدِ بِوُضُوءٍ تَامٍّ، وَصَلاَةٍ كَثِيرَةٍ وَصِيام وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ فَيَتَجَاوَزُون بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَيَقُولُ لهم الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِالْبَابِ: أَنَا صَاحِبُ الرَّحْمَةِ، ٱضْرِبُوا بِهٰذَا الْعَمَلِ وَجْهَ العمل والرحمة

صَاحِبِهِ، إِنَّهُ لَمْ يَرْحَمْ قَطُّ إِنْسَاناً، وإِنْ أُصِيبَ عَبْدٌ شَمِتَ بِهِ؛ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لاَ أَدَعَ عَمَلَهُ يُتجاوَزُنِي إلى غَيْرِي.

العمل والذكر

وَتَصْعَدُ المَلاَئِكَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ، بِنَفَقَةٍ كَثِيرَةٍ وَصَوْمٍ وَصَلاَةٍ وَاجتِهَادٍ وَوَرَعٍ، لَهُ صَوْتٌ كَصَوْتِ الرَّعْدِ، وَضَوْءٌ كَضَوْءِ الْبَرْقِ، فَإِذَا انْتَهَوْا إِلى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ يَقُولُ المَلَكُ المُوَكَّلُ بالسَّمَاءِ: أَنَا صَاحِبُ الذِّكْرِ، إِنَّ صَاحِبَ هٰذَا الْعَمَلِ أَرَادَ بِهِ الذِّكْرَ في المَجَالِسِ، وَالرِّفْعَةَ عِنْدَ الْقُرَّاءِ، وَالْجَاهَ عِنْدَ الْكُبَرَاءِ، أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لاَ أَدَعَ عَمَلَهُ يُجَاوِزُنِي إلى غَيْرِي وَكُلُّ عَمَلٍ لَمْ يَكُنْ لله خَالِصاً فَهُوَ رِيَاءٌ، وَلاَ يَقْبَلُ اللَّهُ عَمَلَ المُرَائِي.

العمل والإخلاص

وَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ مِنْ صَلاَةٍ وَزَكَاةٍ وَصِيامٍ وَصَدَقَةٍ وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ وَخُلُقٍ حَسَنٍ وَصَمْتٍ وَذِكْرٍ للَّهِ تَعَالى، وَتُشَيِّعُهُ مَلاَئِكَةُ السَّمٰوَاتِ السَّبْعِ، حَتَّى تَقْطَعَ الْحُجُبَ كُلَّهَا إلى اللَّهِ تعالى، فَيَقِفُونَ بَيْنَ يَدَي الرَّبِّ جَلَّ جَلاَلُهُ، وَيَشْهَدُونَ بِالْعَمَلِ الصَّالِح المُخْلِصِ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالى: أَنْتُمُ الْحَفَظَةُ عَلَى عَمَلِ عَبْدِي، وَأَنَا الرَّقِيبُ عَلَى مَا في نَفْسِهِ، إِنَّهُ لَمْ يُرِدْنِي بِهٰذَا الْعَمَلِ، وَلاَ أَخْلَصَهُ لِي، وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَرَادَ بِعَمَلِهِ؛ عَلَيْهِ لَعْنَتِي، غَرَّ الآدَمِيِّينَ وَغَرَّكُمْ وَلَمْ يَغُرَّنِي وَأَنَا عَلاَّمُ الْغُيُوبِ، المُطَّلِعُ عَلَى مَا في الْقُلُوبِ، لاَ تَخْفَى عَلَيَّ خَافِيَةٌ، وَلاَ تَعْزُبُ عَنِّي عَازِبَةٌ؛ عِلْمِي بِمَا كَانَ، كَعِلْمِي بِما لَم يكن، وَعِلْمِي بِمَا مَضَى، كَعِلْمِي بِمَا بَقِيَ؛ وَعِلْمِي بالأَوَّلِينَ، كَعِلْمِي بالآخِرِينَ؛ أَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، فَكَيْفَ يَغُرُّنِي عَبْدِي بِعَمَلِهِ؟ إِنَّمَا يَغُرُّ الْمَخْلُوقِينَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ، وَأَنَا عَلاَّمُ الْغُيُوبِ، عَلَيْهِ لَعْنَتِي، وَتَقُولُ المَلاَئِكَةُ السَّبْعَةُ وَالثَّلاَثَةُ/ الآلافُ والمُشَيِّعُونَ: يَا رَبَّنَا عَلَيْه لَعْنَتُكَ وَلَعْنَتُنَا؛ [٨٤/ب]

وَتقُولُ أَهْلُ السَّماءِ: عَلَيْهِ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَلَعْنَةُ اللاَّعِنِينَ» ثُمَّ بَكَى مُعَاذٌ رضي الله عنه وَٱنْتَحَبَ ٱنْتِحَاباً شَدِيداً، وَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: كَيْفَ النَّجَاةُ مِمَّا ذَكَرْتُ؟ قالَ: «يَا مُعَاذُ ٱقْتَدِ بِنَبِيِّكَ في الْيَقِينِ». قُلْتُ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَا مُعَاذُ بنُ جَبَلٍ، كَيْفَ لِي النَّجَاةُ وَالخلاَصُ؟ قالَ: نَعَمْ يَا مُعَاذُ، إِنْ كَانَ في عَمَلِكَ تَقْصِيرٌ، فَاقْطَعْ لِسَانَكَ عَنِ الْوَقِيعَةِ في النّاسِ، وَعَنْ إِخْوَانِكَ مِنْ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ خَاصَّةً، وَلْيَرُدَّكَ عَنِ الْوَقِيعَةِ في النَّاسِ مَا تَعْلَمُهُ مِنْ عَيْبِ نَفْسِكَ، وَلاَ تُزَكِّ نَفْسَكَ بِذَمِّ إِخْوَانِكَ، وَلاَ تَرْفَعْ نَفْسَكَ بِوَضْعِ إِخْوَانِكَ، وَلاَ تُرَاءِ بِعَمَلِكَ كَيْ تُعْرَفَ فِي النَّاسِ، وَلاَ تَدْخُلْ في الدُّنْيَا دُخُولاً يُنْسِيكَ أَمْرَ الآخِرَةِ، وَلاَ تُنَاجِ رَجُلاً وَعِنْدَكَ آخَرُ، وَلاَ تَتَعَظَّمْ عَلَى النَّاسِ فَتَنْقَطِعَ عَنْكَ خَيْرَاتُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَلاَ تَفْحُشْ فِي مَجْلِسِكَ كي يَحْذَرَ الناس مِنْ سُوءِ خُلُقِكَ، وَلاَ تُمَزِّقِ النَّاسَ بِلِسَانِكَ فَتُمَزِّقَكَ كِلاَبُ جَهَنَّمَ» قَوْلُهُ: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢﴾ [النازعات: ٢] يقُولُ: تَنْزِعُ ٱللَّحْمَ عَنِ الْعِظَامِ؛ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيقُ هٰذِهِ الْخِصَالَ؟ قَالَ: «يَا مُعَاذُ إِنَّ الَّذِي وَصَفْتُ لَكَ يَسِيرٌ عَلَى منْ يَسَّرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ؛ إِنَّمَا يَكْفِيكَ مِنْ ذٰلِكَ أَنْ تُحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَتكْرَهَ لَهُمْ مَا تكْرَهُ لِنَفْسِكَ؛ فَإِذَنْ أَنْتَ قَدْ سَلِمْتَ»[1].

---

(١) ـ أورد الغزالي هذا الحديث بطوله، وأسند روايته إلى عبد الله بن المبارك عن خالد بن معدان عن معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ. وذكر الغزالي هذا الحديث في الإحياء (٣/ ٢٩٥) في ربع المهلكات، باب الرياء وما ورد في ذمه. وأخرجه الإمام العراقي فقال: (رواه ابن المبارك في الزهد، وفي إسناده كما ذكر من لم يُسَمّ) إشارة إلى أن الغزالي أغفل في الإحياء ذكر اسم الرجل الذي نقل عنه ابن المبارك رواية معاذ بن جبل، علماً بأن الغزالي ذكر هنا في منهاج العابدين أن =

قالَ خالِدُ بنُ مَعْدَانَ: وَكَانَ مُعَاذٌ لَا يُكْثِرُ مِنْ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، كَما يُكْثِرُ مِنْ تِلَاوَةِ هٰذَا الحَدِيثِ وَذِكْرِهِ في مَجْلِسِهِ.

العودة إلى الله

فإذا سَمِعْتَ أيها الرّجل هٰذَا الحَدِيثَ، الْعَظِيمَ نَبَؤُهُ، الْكَبِيرَ خطَرُهُ، الأَلِيمَ أَثَرُهُ، الذِي تَطِيرُ لَهُ الْقُلُوبُ وَتَحِيرُ لَهُ الْعُقُولُ، وَتَضِيقُ عَنْ حَمْلِهِ الصُّدُورُ، وَتَجْزَعُ مِنْ هَوْلِهِ النُّفُوسُ؛ فَاعْتَصِمْ بِمَوْلَاكَ إِلٰهِ العَالَمِينَ، وَالْزَم البَابَ بِالتَّضَرُّعِ وَالابْتِهَالِ وَالْبُكَاءِ آنَاء اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ مَعَ المُتَضَرِّعِينَ المُبْتَهِلِينَ، فَإِنَّهُ لَا نَجاةَ مِنْ هٰذَا الأَمْرِ إِلَّا بِرَحْمَتِهِ، وَلَا سَلَامَةَ مِنْ هٰذَا الْبَحْرِ إِلَّا بِنَظَرِهِ وَتَوْفِيقِهِ وَعِنَايَتِهِ، فَتَنَبَّهْ مِنْ رَقْدَةِ الْغَافِلِينَ، واعقل الأمْرَ حَقَّهُ، وَجَاهِدْ نَفْسَكَ في هٰذِهِ الْعَقَبَةِ المَخُوفَةِ لَعَلَّكَ لَا تَهْلَكَ مَعَ الْهَالِكِينَ، وَالمُسْتَعَانُ بِاللهِ تَعَالى عَلَى كُلِّ حَالٍ، فَإِنَّهُ خَيْرُ مُعِينٍ، وَهُوَ تَعَالى أَرْحَمُ الرّاحِمِينَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ/ . [٨٥/أ]

= الرجل هو خالد بن معدان، ولعل العراقي لم يطلع على هذه الرواية. ثم يضيف العراقي: (رواه ابن الجوزي في الموضوعات).

فصل
في الإخلاص للَّهِ بالطاعة

وَجُمْلَةُ الأَمْرِ أَنَّكَ إِذَا أَحْسَنْتَ النَّظَرَ، فَرَأَيْتَ قَدْرَ طَاعَةِ ٱللَّهِ تَعَالَى وَرَأَيْتَ عَجْزَ الْخَلْقِ وَضَعْفَهُم وَجَهْلَهُمْ، فَلاَ تَلْتَفِت إِلَيْهِمْ بِقَلْبِكَ، وَكُنْ زَاهِداً فِي ثَنَائِهِمْ وَمَدْحِهِمْ وَتَعْظِيمِهِمْ، الَّذِي لاَ فَائِدَةَ تَحْتَهُ، فَلاَ تُرِدْ بِطَاعَتِكَ شَيْئاً مِنْ ذَٰلِكَ، وَإِذَ رَأَيْتَ خِسَّةَ الدُّنْيَا وَحَقَارَتَهَا وَسُرْعَةَ زَوَالِهَا، فَلاَ تُرِدْهَا أَيْضاً بِطَاعَتِكَ، وتقول: يَا نَفْسُ أَثَنَاءُ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَشُكْرُهُ وإعزازه خيرٌ أم ثناء المَخْلُوقِينَ الْعَاجِزِينَ الْجَاهِلِينَ، الذِينَ لاَ يَعْرِفُونَ قَدْرَ عَمَلِكَ بِالْحَقِيقَةِ وَمَا تَحَمَّلْتِ فِيهِ وَمَا يَبْلُغُونَ حَقَّكِ فِيمَا عَمِلْتِ وَتَحَمَّلْتِ؟ بَلْ رُبَّمَا يُفَضِّلُونَ عَلَيْكِ مَنْ هُوَ أَدْوَنُ حَالاً بِالأَلْفِ دَرَجَةٍ، وَيُضَيِّعُونَكِ في أَحْوَجِ الأَوْقَاتِ وَيَنْسَوْنَكِ؛ وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا ذَٰلِكَ فَمَاذَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بِأَيْدِيهِمْ وَإِلَى مَاذَا تَبْلُغُ قُدْرَتُهُمْ، ثُمَّ هُمْ في قَبْضَةِ ٱللهِ تَعَالى يُصَرِّفُهُمْ كَيْفَ يَشَاء، وَإِلَى مَا يَشَاءُ؟ فَاعْقِلِي أَيَّتُها النَّفْسُ، وَلاَ تُضَيِّعِي طَاعَاتِكِ الْعَزِيزَةَ بِهِمْ، وَلاَ يَفُوتُكِ ثَنَاءُ مَنْ ثَنَاؤُهُ كُلُّ فَخْرٍ، وَعَطَاءُ مِنْ عَطَاؤُهُ كُلُّ ذُخْرٍ. وَلَقَدْ صَدَقَ الْقَائِلُ: [الكامل]:

سَهَرُ الْعُيُونِ لِغَيْرِ وَجْهِكَ بَاطِلُ ... وَبُكَاؤُهُنَّ لِغَيْرِ عَفْوِكَ ضَائِعُ

وَقُلْ: يَا نَفسُ، أجَنَّةُ الْخُلْدِ خَيْرٌ أمْ لَطْخَةٌ مِنْ حَرَامِ الدُّنْيَا وَحُطَامِهَا النَّكِدِ الْفَانِي؟ وَأنْتِ مُتَمَكِّنَةٌ مِنْ أنْ تُحَصِّلي بِطَاعَتِكِ هٰذَا النَّعِيمَ المُقِيمَ، فَلاَ تكُونِي خَسِيسَةَ الْهِمَّةِ، رَدِيئَةَ الإرَادَةِ، دَنِيئَةَ الأفْعَالِ، أمَا تَرَيْنَ الحَمَامَ إذَا كَانَ سمَاوِياً[1]، كَيْفَ تَغْلُو قِيمَتُهُ وَيَزْدَادُ قَدْرُهُ؟ فَارْفَعِي هِمَّتَكِ كُلَّهَا إلى السَّمَاءِ، وَجَرِّدِي قَلْبَكِ لِلَّهِ تَعالَى الوَاحِدِ، الَّذِي بِيَدِهِ الأمْرُ كُلُّهُ، وَلاَ تُضَيِّعِي مَا ظَفِرْتِ بِهِ مِنْ طَاعَتِكِ بِلاَ شَيْءٍ. وَكَذٰلِكَ إذَا أحْسَنْتِ التَّأمُّلَ فَرَأيْتِ أيَادِيَ الله تعالى وَمِنَنَهُ الْعِظامَ عَلَيْكِ في هٰذِهِ الطاعَةِ، بِأنْ أمْكَنَكِ مِنْهَا وَأعْطَاكِ الآلَةَ أوَّلاً، ثُمَّ أزَاحَ عَنْكِ الْعَائِقَ حَتَّى تَفَرَّغْتِ لِهٰذِهِ الطَّاعَة ثَانِياً، ثُمَّ خَصَّكِ بِالتَّوْفِيقِ وَالتَّأْيِيدِ، وَيَسَّرَهَا عَلَيْكِ وَزَيَّنَهَا في قَلْبِكِ، حَتَى عَمِلْتِهَا ثَالثاً، ثُمَّ مَع جَلاَلَتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَاسْتِغْنَائِهِ عَنْكِ وَعَنْ طَاعَتِكِ، وَكَثْرَةِ نِعَمِهِ عَلَيْكِ أَعَدَّ لَكِ عَلَى هٰذَا/ الْعَمَلِ الْيَسِيرِ، الثّناء الْجزيلَ [٨٥/ب] والثَّوَابَ الْعَظِيمَ مَا لا تَسْتَحِقِّينَهُ رَابعاً، ثُمَّ شَكَرَكِ عَلَى ذٰلِكَ وَأثْنَى عَلَيْكِ وَأحبَّكِ بِذٰلكَ خَامساً، هٰذِهِ كُلُّهَا بِفَضْلِهِ الْعَظِيمِ لاَ غَيْرُ، وَإلاَّ فَبِأيِّ ٱسْتِحْقَاقٍ لَكِ، وَأيِّ قَدْرٍ لِعَمَلِكِ الْحَقِيرِ، المعيوب؟ فَٱذْكُرِي أيَّتُهَا النَّفْسُ مِنَّةَ رَبِّكِ الْكَرِيمِ الرَّحِيمِ سُبْحانَهُ، فِيمَا أحْسَنَ إلَيْكِ في هٰذِهِ الطَّاعَةِ، وَٱسْتَحْيِي مِنْ أنْ تَلْتَفِتِي إلى عَمَلِكِ، بَلِ الْفَضْلُ وَالمِنَّةُ لله تَعالى عَلَيْنَا بِكُلِّ حَالٍ، فَلاَ يَكُونُ لَكِ شُغْلٌ بَعْدَ حُصُولِ هٰذِهِ الطَّاعَةِ إلاَّ التَّضَرُّعَ وَالابتِهَالَ إلى الله سُبْحانَهُ بِأنْ يَتَقَبَّلَهَا. أمَا تسمع قَوْلَ خَلِيلِهِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصلاة والسَّلاَمُ، لَمَّا فَرَغَ مِنْ خِدْمَتِهِ في بِنَاء بَيْتِهِ، كَيْفَ ٱبْتَهَلَ إليه في أنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْهِ بِالْقَبُولِ، فَقَالَ:

---

(١) الحمام السماوي: الحمام المرتفع في طيرانه.

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٢٧﴾ [البقرة: ١٢٧] وَلَمَّا فَرَغَ مِنْ دُعَائِهِ قالَ: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۝٤٠﴾ [إبراهيم: ٤٠] فَلَئِنْ مَنَّ عَلَيْكَ بِقَبُولِ هٰذِهِ الْبِضَاعَةِ الْمُزْجَاةِ، فَلَقَدْ أَكْمَلَ الْمِنَّةَ وَأَعْظَمَ النِّعْمَةَ، وَيَا لَكِ مِنْ سَعَادَةٍ وَدَوْلَةٍ وَعِزٍّ وَرِفْعَةٍ، وَكَمْ تَرَيْنَ لذلك مِنْ خِلْعَةٍ وَنِعْمَةٍ، وَذُخْرٍ وَكَرَامَةٍ، وَإِنْ تَكُنِ الأُخْرَى فَيَا لَكِ مِنْ خُسْرَانٍ وَغَبْنٍ وَحِرْمَانٍ. فَاهْتَمَّ وَٱشْتَغِلْ بِهٰذَا الشَّأْنِ، فَإِذَا وَاظَبْتَ عَلَى مِثْلِ هذا وَكَرَّرْتَهُ عَلَى قَلْبِكَ عِنْدَ الْفَرَاغِ مِنْ طَاعَتِكَ، وَٱسْتَعَنْتَ بِالله عَزَّ وَجَلَّ، صَرَفَكَ عَنِ الإِلْتِفَاتِ إِلَى الْخَلْقِ وَالنَّفْسِ، وَشَغَلَكَ عَنْ مُرَاءاة وَإِعْجَابٍ، وَبَعَثَكَ عَلَى مَحْضِ الإِخْلَاصِ لله تَعَالى في الطَّاعَاتِ، وَالتَّمَسُّكِ بِذِكْرِ مِنَّةِ الله تَعَالى عليك في جَمِيعِ الْحَالاَتِ، وَيَحْصُلُ لَكَ أَرْجَى طَاعَاتٍ طَاهِرَةٍ لاَ عَيْبَ فِيهَا، وَخَيْرَاتٍ خَالِصَةٍ لاَ شَوْبَ فِيهَا، وَعِبَادَاتٍ مَقْبُولَةٍ لاَ نَقْصَ فِيهَا، بَلْ مِثْلُ هٰذِهِ الطَّاعَةِ، وَإِنْ حَصَلَتْ في الْعُمْرِ مَثَلاً مَرَّةً وَاحِدَةً لاَ غَيْرُ، فَإِنَّهَا بِالْحَقِيقَةِ لَكَبِيرَةٌ. لَعَمْرِي وإِنَّهَا وَإِنْ قَلَّ عَدَدُهَا لَقَدْ كَثُرَ مَعْنَاهَا وَعَظُمَ قَدْرُهَا، وَكَثُر نَفْعُهَا وَطَابَ عُقْبَاهَا، وَإِنَّ التَّوْفِيقَ لِمِثْلِهَا عَزِيزٌ، وَالْفَضْلَ بِهِ لله تَعَالَى عَلَى العَبدِ لَكَبِيرٌ. فَأَيُّ هَدِيَّةٍ أَجَلُّ مِنْ هَدِيَّةٍ يَقْبَلُهَا رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَأَيُّ سَعْيٍ أَكْرَمُ مِنْ سَعْيٍ يَشْكُرُهُ وَيُثْنِي عَلَيْهِ رَبُّ العَالَمِينَ، وَأَيُّ بِضَاعَةٍ أَعَزُّ مِنْ بِضَاعَةٍ ٱخْتَارَهَا وَرَضِيهَا رَبُّ الْعَالَمِينَ؟

فَتَأَمَّلْ أَيُّهَا الْمِسْكِينُ، وَإِيَّاكَ/ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَغْبُونِينَ، وَإِذَا [٨٦/أ] جَرَى الأَمْرُ عَلَى هٰذِهِ الْجُمْلَةِ، كُنْتَ مِنَ الْمُخْلِصِينَ لله سُبْحَانَهُ وتَعَالى الخالصين، الذَّاكِرِينَ لِمِنَنِهِ الْمَرْضِيِّينَ، وَكُنْتَ قَدْ خَلَّفْتَ هٰذِهِ الْعَقَبَةَ الْمَخُوفَةَ، وَسَلِمْتَ مِنْ آفَاتِهَا، وَسَبَقْتَ بِخَيْرَاتِهَا وَثَمَرَاتِهَا فَائِزاً إِلَى

الأبَدِ بِكَرَامَاتِهَا وَسَعَادَاتِهَا، وَالله سُبحانه وَلِيُّ التَّوْفِيقِ وَالْعِصْمَةِ بِمَنِّهِ وَفضِلِهِ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ بِالله الْعَليِّ الْعَظِيمِ.

العقبةُ السَّابعة: وهي عقبةُ الحمد والشكر

عَلَيْكَ، وَفَّقَكَ الله وَإيَّانَا بِحُسْنِ تَوْفِيقِهِ، بَعْدَ قَطْعِ هٰذِهِ الْعَقَبَاتِ، وَالظَّفرِ بِالْمَقْصُودِ مِنْ هٰذِهِ الْعِبادَةِ، السَّالِمَةِ مِنَ الآفَاتِ، بِالْحَمْدِ وَالشُّكْرِ لله سُبْحَانَهُ وتَعَالى عَلَى هٰذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ وَالمِنَّةِ الْكَرِيمَةِ.

وَإنَّمَا يَلْزَمُكَ ذٰلِكَ لِأمْرَيْنِ:

لزوم الحمد والشكر دوام النعمة

أَحَدُهُما: لِدَوَامِ النِّعْمَةِ. وَالثَّانِي: لِحُصُولِ الزِّيَادَةِ.

ــ فَأَمَّا دَوَامُ النِّعْمَة، فَلأَنَّ الشُّكْرَ قَيْدُ النِّعَمِ، بِهِ تَدُومُ وَتَبْقَى، وَبِتَرْكِهِ تَزُولُ وَتَحُولُ، قالَ الله سُبْحَانَهُ وتَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] وَقالَ عَزَّ مِنْ قائِلٍ: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢]. وَقالَ الله سُبْحَانَهُ: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧]. وَقالَ ﷺ: «إِنَّ لِلنِّعَمِ أَوَابِدَ كَأَوَابِدِ الْوَحْشِ، فَقَيِّدُوهَا بالشُّكْرِ»[1].

---

(١) ــ ذكر السخاوي في المقاصد حديثاً في المعنى نفسه عند كلامه على حديث =

وَأَمَّا حُصُولُ الزِيَادَةِ، فَلَمَّا كَانَ الشُّكْرُ هُوَ قَيْدَ النِّعْمَةِ، فَهُوَ يُثْمِرُ الزِّيَادَةَ؛ قالَ الله تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧] - ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ - [محمد: ١٧] ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وَلِلسَّيِّدِ الْحَكِيمِ إذَا رَأى الْعَبْدَ قَدْ قامَ بِحَقِّ نِعْمَةٍ يَمُنُّ عَلَيْهِ بِأُخْرَى وَيَرَاهُ أَهْلاً لَهَا، وَإلاَّ فَيَقْطع ذٰلِكَ عَنْهُ.

النِّعم وأقسامها

ثُمَّ النِّعَمُ قِسْمَانِ: دُنْيَوِيَّةٌ، وَدِينِيَّةٌ.

فَالدُّنْيوِيَّةُ ضَرْبَانِ: نِعْمَةُ نَفْعٍ، وَنِعْمَةُ دَفْعٍ.

فَنِعْمَةُ النَّفْعِ: أنْ أَعْطَاكَ المَصَالِحَ وَالْمَنَافِعَ.

فَالْمنَافِعُ ضَرْبَانِ:

١ ـ الْخِلْقَةُ السَّوِيَّةُ في سَلاَمَتِهَا وَعَافِيَتِهَا.

٢ ـ وَالمَلاَذُّ الشَّهِيَّةُ مِنَ المَطْعَمِ وَالمَشْرَبِ وَالمَلْبَسِ وَالمَنْكَحِ وَغَيْرِهَا مِنْ فَوَائِدِهَا.

وَنِعْمَةُ الدَّفْعِ: أنْ صَرَفَ عَنْكَ المَفَاسِدَ وَالمَضَارَّ. وَهِيَ ضَرْبَانِ:

أَحَدُهُما: بِأنْ سَلَّمكَ مِنْ زَمَانَتِهَا وَسَائِرِ آفَاتِهَا وَعِلَلِها.

= (إن الله لا يعذب بقطع الرزق) (الحديث رقم ٢٣٦) عن السيدة عائشة أنه ﷺ قال لها: «يا عائشة أحسني جوار نعم الله، فإنها قلما نَفَرَت عن أهل بيت أن ترجع إليهم».

وهذا الحديث رواه الخرائطي في كتاب (فضيلة الشكر لله على نعمته) ص ٥٧ رقم ٦٨.

وَالثَّانِي: دَفْعُ مَا يَلْحَقُكَ بِهِ من ضَررٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْعَوَائِقِ، أَوْ يَقْصِدُكَ بِسوءٍ مِنْ إِنْسٍ أَوْ جِنٍّ وَسِبَاعٍ وَهَوَامَّ ونَحْوِهَا/ . [٨٦/ب]

وَأَمَّا النِّعَمُ ٱلدِّينِيَّةُ فَضَرْبَانِ: نِعْمَةُ التَّوْفِيقِ، وَنِعْمَةُ الْعِصْمَةِ.

فَنِعْمَـةُ التَّـوْفِيـقِ: أَنْ وَفَّقَكَ أَوَّلاً لِـلإِسْـلاَمِ، ثُـمَّ لِلسُّنَّـةِ، ثُـمَّ لِلطَّاعَةِ.

وَنِعْمَةُ الْعِصْمَةِ: أَنْ عَصَمَكَ أَوَّلاً عَنِ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ، ثُمَّ عَنِ الْبِدعَةِ وَالضَّلاَلَةِ، ثُمَّ سَائِرِ المَعَاصِي.

وَتَفْصِيلُ ذٰلِكَ لاَ يُحْصِيهِ إلاَّ السَّيِّدُ الْعَالِمُ، الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْكَ، كما قالَ جَلَّ وَعَلاَ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وَإِنَّ دَوَامَ هٰذِهِ النِّعَم كُلِّهَا بَعْدَ ما مَنَّ عَلَيْكَ بهَا، وَالزِّيَادَةَ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ بَابٍ، ما لا يَبْلُغُهُ وَهْمُكَ، كُلُّهَا تَتَعَلَّقُ بِشَيءٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ الشُّكْرُ وَالْحَمْدُ لله، وَإِنَّ خَصْلَةً تَكُونُ لَهَا كُل هٰذِهِ الْقِيمَةَ، وَتَكُونُ فِيهَا كلُّ هٰذِهِ الْفَائِدَةِ، لَحَقِيقٌ أَنْ يُتَمَسَّكَ بِهَا مِنْ غَيْرِ إِغْفَالٍ بِحَالٍ، فَإِنَّهُ جَوْهَرٌ ثَمِينٌ وَكِيمِيَاءُ عَزِيزَةٌ، وَٱللهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقُ بِفضْلِهِ.

حقيقة الحمد والشكر

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا حَقِيقَةُ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ وَمَا مَعْنَاهُمَا وَحُكْمُهُمَا؟

فَاعْلَمْ أَنَّ الْعُلَمَاءَ فَرَّقُوا بَيْنَ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ عِنْدَ التَّحْصِيلِ، أَنَّ الْحَمْدَ مِنْ أَشْكَالِ التَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ، فَيَكُونُ مِنَ المَسَاعِي الظَّاهِرَةِ؛ وَالشُّكْرُ مِنْ أَشْكَالِ الصَّبْرِ وَالتَّفوِيضِ، فَيَكُونُ مِنَ المَسَاعِي الْبَاطِنَةِ. وَلأَنَّ الشّكْرَ يُقَابِلُ الكُفْرَان، وَالْحَمْدَ يُقَابِلُ اللَّوْمَ والذمّ، وَلأَنَّ الْحَمْدَ

أعَمُّ وَأَكْثَرُ وَالشُّكْرَ أَقَلُّ وَأَخصُّ، قَالَ اللَّهُ تَعالَى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ: ١٣]. فَثَبَتَ أَنَّهُمَا مَعْنيَانِ مُتَميِّزَانِ.

ثُمَّ الْحَمْدُ هُوَ الثَّنَاءُ عَلَى أَحَدٍ بِالْفِعْلِ الْحَسَنِ؛ هٰذَا مُقْتَضى كَلَامِ شَيْخِنَا[1] رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

وَأَمَّا الشُّكْرُ فتكَلَّمُوا في مَعْنَاهُ وَأَكْثَرُوا؛ فَعَنِ ٱبْنِ عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: الشُّكْرُ هُوَ الطَّاعَةُ بِجَمِيعِ الْجَوارِحِ لِرَبِّ الْخَلق في السِّرِّ وَالعَلَانِيَةِ. وَإلى نَحْوِهِ ذَهَبَ بَعْضُ مَشَايِخِنَا فَقَالَ: الشُّكْرُ هُوَ أَدَاءُ الطَّاعَاتِ في الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، ثُمَّ رَجَعَ إلى أَنَّهُ ٱجْتِنَابُ المَعَاصِي ظَاهِراً وَبَاطِناً.

وَقَالَ غَيْرُهُ: الشُّكْرُ الاِحْتِرَاسُ عَنِ ٱخْتِيَارِ مَعَاصِي اللَّهِ تعالى، تَحْتَرِسُ عَلَى قَلْبِكَ وَلِسَانِكَ وَأَرْكَانِكَ، حَتَّى لَا تَعْصِيَ اللَّهَ تَعَالَى بِشيءٍ مِنْ هٰذِهِ الثَّلَاثَةِ، بِوَجهٍ مِنَ الوُجُوهِ.

وَالفَرْقُ بَيْنَ قَوْلِهِ[2] وَبَيْنَ قَوْلِ الشَّيْخِ الأوَّلِ[3]، أَنَّهُ رَحِمَهُ اللَّهُ، جَعَلَ الاِحْتِرَاسَ مَعْنًى مُثْبتاً زَائِداً عَلَى الاِجْتِنَابِ عَنِ المَعَاصِي؛ وَأَمَّا الاِجْتِنَابُ عَنِ المَعْصِيَةِ فَمَا هُوَ إلاّ أَنْ لَا يَفْعَلَ المَعْصِيَةَ عِنْدَ دَوَاعِيهَا، وَلَا يَكُونُ فِي نَفْسِهِ مَعْنًى مُحَصَّلاً، يَكُونُ الْعَبْدُ بِهِ مُشْتَغِلاً، وَعَنِ الكُفْرَانِ مُعْتَصِماً. وَقَالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّ الشُّكْرَ تَعْظِيمُ المُنْعِمِ عَلَى مُقَابَلَةِ/ نِعْمَتِهِ، عَلَى حَدٍّ يَمْنَعُهُ عَنْ جَفَاءِ المُنْعِمِ [٨٧/أ]

---

(١) هو أبو بكر الورّاق.

(٢) الضمير هنا يعود إلى الغير (قال غيره).

(٣) الشيخ الأول: هو الذي عرّفه المصنّف بقوله: بعض مشايخنا.

وَكُفْرَانِهِ[1]. وَلَوْ قُلْتَ: تَعْظِيمُ المُحْسِنِ عَلَى مُقَابَلَةِ إِحْسَانِهِ، لَصَحَّ أن يَكُونَ مِنَ اللَّهِ الشُّكْرُ لِلْعَبْدِ[2]، فَحَسَنٌ؛ وَفِيهِ تَفَاصِيلُ قَدْ شَرَحْنَاهَا فِي كِتَابِ: «إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ»[3] وَغَيْرِهِ، وَلٰكِنَّ التَّحْصِيلَ أَنَّ الشُّكْرَ مِنَ الْعَبْدِ تَعْظِيمٌ يَمْنَعُ مِنْ جَفَاءِ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ، وَذٰلِكَ بِتَذَكُّرِ إِحْسَانِهِ وَحُسْنِ حال الشَّاكِرِ فِي شُكْرِهِ، وَقُبْحِ حَالِ الكَافِرِ فِي كُفْرَانِهِ.

قُلْتُ: إِنَّ أَقَلَّ مَا يَسْتَوْجِبُهُ الْمُنْعِمُ بِنِعْمَتِهِ، أَنْ لاَ يُتَوَصَّلَ بِهَا إلى مَعْصِيَةٍ، وَمَا أَقْبَحَ حَالُ مَنْ جَعَلَ نِعْمَةَ الْمُنْعِمِ سِلاَحاً عَلَى عِصْيَانِهِ، فَعَلَى الْعَبْدِ إِذَنْ مِنْ فَرْضِ الشُّكْرِ فِي حَقِيقَتِهِ، أَنْ يَكُونَ لَهُ مِنْ تَعْظِيمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، مَا يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَعَاصِيهِ عَلَى حَسَبِ تَذَكُّرِ نِعَمِهِ، فَإِذَا أَتَى بِذٰلِكَ فَقَدْ أتى بِمَا هُوَ الأَصْلُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَابِلُ ذلك بِجِدٍّ فِي الطَّاعَةِ، وَجُهْدٍ فِي القِيَامِ بِالْخِدْمَةِ، إِذْ هُوَ مِنْ حُقُوقِ النعْمَةِ، فَلاَ بُدَّ مِنَ الاحْتِرَاسِ عَنِ المَعْصِيَةِ، وَبِاللَّهِ التوفِيقُ.

موضع الشكر

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَوْضِعُ الشُّكْرِ؟

فَاعْلَمْ أَنَّ مَوْضِعَهُ النِّعَمُ؛ وَالنِّعَمُ دِينِيَّةٌ وَدُنْيَوِيَّةٌ عَلَى أَقْدَارِهِمَا. وَأَمَّا الشَّدَائِدُ وَالمَصَائِبُ في الدُّنْيَا، فِي نَفْسٍ أَوْ أَهْلٍ أَوْ مَالٍ، فَتَكَلَّمُوا فِي ذٰلِكَ، هَلَ يَلْزَمُ العَبْدَ الشُّكْرُ عَلَيْهَا؟ قَالَ بَعْضُهُم: لاَ يَلْزَمُ الْعَبْدَ الشُّكْرُ عَلَيْهَا مِنْ حَيْثُ هِيَ، وَإِنَّمَا يَجِبُ فِيهَا الصَّبْرُ. وَأَمَّا الشُّكْرُ فَهُوَ عَلَى النِّعْمَةِ لاَ غَيْرُ. قَالُوا: وَلاَ شِدَّة إِلاَّ وَفي جَنْبِهَا

الشكر على النعمة

---

(١) الكفران: جحود النعمة والكفر بها.

(٢) معنى شكر الله للعبد أن يوفقه لأن يشكره ويثني عليه بما هو أهله.

(٣) يراجع كتاب الصبر والشكر، وهو الكتاب الثاني من ربع المنجيّات من كتاب الإحياء (ج ٤ ص ٥٣).

نِعَمُ اللَّهِ تَعَالَى، فَيَلْزَمُ الشُّكْرُ عَلَى تِلْكَ النِّعَمِ المُقْتَرِنَةِ بِهَا دُونَ نَفْس الشِّدَّةِ.

وَتِلْكَ النِّعَمُ مَا قَالَهُ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مَا ٱبْتُلِيتُ بِبَلِيَّةٍ إلاَّ كَانَ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَيَّ فِيهَا أَرْبَعُ نِعَمٍ: إِذْ لَمْ تَكُنْ فِي دِينِي، وَإِذْ لَمْ تَكُنْ أَعْظَمَ مِنْهَا، وَإِذْ لَمْ أُحْرَمِ الرِّضَا، وَإِذْ رَجَوْتُ الثَّوَابَ عَلَيْهَا. وَقَدْ قِيلَ أَيْضاً: مِنْ تِلْكَ النِّعَمِ أَنَّ تِلْكَ الشِّدَّةَ زَائِلَةٌ غَيْرُ دَائِمَةٍ، وَأَنَّهَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى دُونَ غَيْرِهِ، وَإِنْ كَانَت بِسَبَبِ مَخْلُوقٍ، فَإِنَّهَا لَكَ عَلَيْهِ، لا لَهُ عَلَيْكَ، فَإِذَنْ يَلْزَمُ الْعَبْدَ الشُّكْرُ عَلَى النِّعَمِ المَقْتَرِنَةِ بِالشِّدَّةِ.

الشكر على الشدائد

وَقَالَ آخَرُونَ، وَهُوَ الأَوْلى عِنْدَ شَيْخِنَا رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ شَدَائِدَ الدُّنْيَا مِمَّا يَلْزَمُ الْعَبْدَ الشُّكْرُ عَلَيْهَا، لِأَنَّ تِلْكَ الشَّدَائِدَ نِعَمٌ بِالحقِيقَةِ، بِدَلِيلِ أَنَّهَا تُعَرِّضُ العَبْدَ لِمَنَافِعَ عَظِيمَةٍ، وَمَثُوبَاتٍ جَزِيلَةٍ، وَأَعْوَاضٍ كَرِيمَةٍ فِي العَاقِبَةِ، تَتَلاشَى فِي جَنْبِهَا/ [٨٧/ب] مَشَقَّةُ هٰذِهِ الشَّدَائِدِ، وَأيّ نِعْمَةٍ تكُونُ أَكْبَرَ مِنْ هٰذِهِ. وَمِثَالُ ذٰلِكَ مَنْ يَسْقِيكَ دَوَاءً كَرِيهاً مُرّاً لِدَاءٍ شَدِيدٍ، أَوْ يَفْصِدُكَ أَوْ يَحْجُمُكَ لِعِلَّةٍ عَظِيمَةٍ مَخُوفَةِ الْخَطَرِ، فَيُؤَدِّي ذٰلِكَ إلى صِحَّةِ النَّفْسِ، وَسَلاَمَةِ الْبَدَنِ، وَصَفْوَةِ الْعَيْشِ، فَيَكُونُ إِيلاَمُهُ إِيَّاكَ بِمَرَارَةِ الدَّوَاءِ، أَوْ جِرَاحَةِ الْفَصْدِ وَالحِجَامَةِ، نِعْمَةٌ بَالِغَةٌ بِالْحَقِيقَةِ، وَمِنَّةٌ ظَاهِرَةٌ، وإِن كَانَ فِي صُورَتِهِ مَكْرُوهاً، يَنْفُرُ عَنْهُ الطَّبْعُ، وَتَسْتَوْحِشُ مِنْهُ النَّفْسُ، وَأَنْتَ تَحْمَدُ الَّذِي تَوَلّى مِنْكَ هٰذَا، بَلْ تُحسِنُ إِلَيْهِ مَا أَمْكَنَكَ.

وَكَذٰلِكَ حُكْمُ هٰذِهِ الشَّدَائِدِ؛ أَمَا تَرَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، كَيْفَ حَمِدَ اللَّهَ وَشَكَرَهُ عَلَى الشَّدَائِدِ شُكْرَهُ عَلَى المَسَارِّ، حَيْثُ قَالَ:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا سَاءَ وَسَرَّ»[1]. أَمَا تَرَى كَيْفَ يَقُولُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۝١٩﴾ [النساء: ١٩] وَمَا سَمّاهُ اللَّهُ تَعَالَى خَيْراً، فَهُوَ أَكْثَرُ مِمّا يَبْلُغُهُ وَهْمُكَ؛ يُؤَكِّدُ هٰذَا الْقَوْلَ أَنَّ النِّعْمَةَ لَيْسَتْ خَيْراً عَنِ اللَّذَّةِ وَمَا تَشْتَهِيهِ النَّفْسُ بِمُقْتَضَى الطَّبْعِ، إِنَّمَا هُوَ مَا يَزِيدُ فِي رِفْعَةِ الدرجة، وَلِذٰلِكَ تُسَمَّى نِعْمَةً فِي مَعْنَى الزِّيَادَةِ؛ وَإِذَا كَانَتِ الشِّدَّةُ مِمّا تَصِيرُ سَبَباً فِي زِيَادَةِ شَرَفِ الْعَبْدِ وَرِفْعَةِ دَرَجَتِهِ، فَتَكُونُ نِعَماً بِالْحَقِيقَةِ، وَإِنْ كَانَتْ تُعَدُّ فِي الشَّدَائِدِ وَالْمِحَنِ بِظَاهِرِهَا، فَاعْلَمْ ذٰلِكَ مُوَفَّقاً.

مفاضلة بين الشكر والصابر

فَإِنْ قُلْتَ: فالشَّاكِرُ أَفْضَلُ أَمِ الصَّابِرُ؟

فَاعْلَمْ أَنَّهُ قِيلَ: إِنَّ الشَّاكِرَ أَفْضَلُ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ: ١٣] فَجَعَلَهُمْ أَخصَّ الْخَوَاصِّ. وَقَالَ فِي

---

(١) ـ لم أعثر على هذا الحديث بنصّه كما رواه الغزالي، لكن معناه معروف مشهور. فقد روى الحاكم في مستدركه (١/ ٥٠٢) كتاب الدعاء عن ابن عباس أنّ رسول الله ﷺ قال: «أوّلُ من يُدعى إلى الجنة الذين يحمدون الله في السراء والضراء».

قال الحاكم: حديث صحيح على شرط الشيخين.

ـ وفي رواية أخرى يذكرها الغزالي (٤/ ٨١):

(ينادى يوم القيامة: لِيَقُم الحمّادون... قيل: ومن الحَمّادون؟ قال: الذين يشكرون الله تعالى على كل حال) وفي لفظ آخر: (الذين يشكرون الله على السرّاء والضراء).

ـ قال العراقي في تخريج هذا الحديث: أخرجه الطبراني وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ: (أول من يُدعى إلى الجنة الحمّادون)قال: وفيه قيس بن الربيع ضعفه الجمهور (انظر الحلية ٥/ ٦٩).

نُوحٍ عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلاَمُ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ [الإسراء: ٣] وَقَالَ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ [النحل: ١٢١]، وَلأَنَّهُ فِي مَنْزِلَةِ الإِنْعَامِ وَالْعَافِيَةِ، وَلِذٰلِكَ قِيلَ: لأَنْ أُنْعَمَ فَأَشْكُرَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُبْتَلَى فَأَصْبِرَ.

وَقِيلَ: بَلِ الصَّابِرُ أَفْضَلُ، لأَنَّهُ أَعْظَمُ مَشَقَّةً؛ فَيَكُونُ أَعْظَمَ ثَوَاباً وَأَرْفَعَ مَنْزِلَةً. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ [صَ: ٤٤]. وَقَالَ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزُّمر: ١٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٦﴾ [آل عمران: ١٤٦].

قُلْتُ أَنَا: الشَّاكِرُ بِالْحَقِيقَةِ لاَ يَكُونُ إِلاَّ صَابِراً، وَالصَّابِرُ بِالْحَقِيقَةِ لاَ يَكُونُ إِلاَّ شَاكِراً، لِأَنّ الشّاكِرَ فِي دَارِ الْمِحْنَةِ لاَ يَخْلُو مِنْ مِحْنَةٍ يَصْبِرُ عَلَيْهَا لاَ مَحَالَةَ وَلاَ يَجْزَعُ؛ فَإِنّ الشّكْرَ تَعْظِيمُ الْمُنْعِمِ عَلَى حَدٍّ يَمْنَعُ مِنْ عِصْيَانِهِ، وَالْجَزَعَ عِصْيَانٌ/ [٨٨/أ]، وَالصَّابِرُ لاَ يَخْلُو مِنْ نِعْمَةٍ؛ كَمَا ذَكَرْنَا أَنَّ الشّدَائِدَ نِعَمٌ بِالْحَقِيقَةِ عَلَى المَعْنَى الْمُتَقَدِّمِ، فَإِنَّهُ شَكَرَ بِالْحَقِيقَةِ إِذْ صَبَرَ، لِأَنَّهُ حَبَسَ نَفْسَهُ عَنِ الْجَزَعِ تَعْظِيماً لِلَّهِ تَعَالَى، وَهٰذَا هُوَ الشُّكْرُ بِعَيْنِهِ، إِذ هُوَ تَعْظِيمٌ يَمْنَعُ عَنِ الْعِصْيَانِ؛ وَلِأَنّ الشّاكِرَ يَمْنَعُ نَفْسَهُ عن الكُفْرَان فَصَبَرَ عَنِ المَعْصِيَةِ، وَحَمَلَ نَفْسَهُ عَلَى الشُّكْرِ، وَصَبَرَ عَلَى الطَّاعَةِ، فَصَارَ صَابِراً عَلَى الْحَقِيقَةِ؛ وَالصَّابِرُ عَظَّمَ اللَّهَ تَعَالَى، حَتَّى مَنَعَهُ تَعْظِيمُهُ عَنِ الْجَزَعِ فِيمَا أَصَابَهُ وَحَمَلَهُ عَلَى الصَّبْرِ، فَقَدْ شَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى فَصَارَ شَاكِراً بِالحَقِيقَةِ؛ وَلِأَنّ حَبْسَ النَّفْس عَنِ الكُفْرَانِ مَعَ قَصْدِ النَّفْس لَـهُ شِدّةٌ يَصْبِرُ عَلَيْهَا الشّاكِرُ؛ وَتَوْفِيقُ الصَّبْرِ وَالْعِصْمَةِ نِعْمَةٌ يَشْكُرُ عَلَيْهَا الصَّابِرُ، فَأَحَدُهُمَا

لَا يَنْفَكُّ عَنِ الآخَرِ، لِأَنَّ الْبَصِيرَةَ الْبَاعِثَةَ عَلَيْهَا وَاحِدَةٌ، وَهِيَ بَصِيرَةُ الاِسْتِقَامَةِ فِي قَوْلِ بَعْضِ عُلَمَائِنَا؛ فَمِنْ هٰذِهِ الْوُجُوهِ قُلْنَا: إِنَّ أَحَدَهُمَا لَا يَنْفَكُّ عَنِ الآخَرِ، فَاعْرِفْ هٰذِهِ الْجُمْلَةَ، وَبِاللَّهِ التَّوفِيقُ.

فصل
في وجوب الحمد والشكر

فَعَلَيْكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ بِبَذْلِ المَجْهُودِ في قَطْعِ هٰذِهِ الْعَقَبَةِ الْيَسِيرَةِ المُؤْنَةَ، الْكَبِيرَةِ الْجَدْوَى، الْعَزِيزَةِ المُعْتَصَرِ، الْعَظِيمَةِ الْقَدْرِ، وَتَأَمَّلْ أَصْلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ النِّعْمَةَ إِنَّمَا تُعْطَى مَنْ يَعْرِفُ قَدْرَهَا؛ وَإِنَّمَا يَعْرِفُ قَدْرَهَا الشَّاكِرُ.

وَدَلِيلُ مَا قُلْنَاهُ، قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ فِي الْحِكَايَةِ عَنِ الْكُفَّارِ وَالرَّدِّ عَلَيْهِمْ ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣﴾ [الأنعام: ٥٣]، ظَنَّ أُولٰئِكَ الْجُهَّالُ أَنَّ النِّعْمَةَ الْعَظِيمَةَ وَالمِنَّةَ الْكَرِيمَةَ، إِنَّمَا تُعْطَى مَنْ يَكُونُ أَكْثَرَهُمْ مَالاً، وَأَشْرَفَهُمْ حَسَباً وَنَسَباً، فَقَالُوا: مَا بَالُ هٰؤُلَاءِ الْفُقَرَاءِ بزعمكم، مِنَ الْعَبِيدِ وَالأَحْرَارِ، أُعْطُوا هٰذِهِ النِّعْمَةَ الْعَظِيمَةَ بِزَعْمِكُمْ دُونَنَا؟ فَقَالُوا عَلَى طَرِيقِ الاسْتِكْبَارِ وَمَجْرَى الاسْتِهْزَاءِ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾؟ فَأَجَابَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهٰذِهِ النُّكْتَةِ الزَّاهِرَةِ، فَقَالَ: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣﴾ تَقْدِيرُ الْكَلَامِ أَنَّ السَّيِّدَ الْكَرِيمَ، إِنَّمَا يُعْطِي نِعْمَتَهُ مَنْ يَعْرِفُ قَدْرَهَا؛ وَإِنَّمَا يَعْرِفُ قَدْرَهَا مَنْ أَقْبَلَ بِنَفْسِهِ وَقَلْبِهِ فَاخْتَارَهَا عَلَى غَيْرِهَا، وَلَا

يَعْبَأُ بِمَا تَحَمَّلَ مِنْ أَعْبَاءِ المَؤُنَةِ في تَحْصِيلِهَا؛ ثُمَّ لَا يَزَالُ قائماً بِالْبَابِ يُؤَدِّي شُكْرَهَا، وَكَانَ فِي عِلْمِنَا السَّابِقِ أَنَّ هٰؤُلاءِ الضُّعَفَاءِ يَعْرِفُونَ هٰذِهِ النِّعْمَة، وَيَقُومُونَ بِشُكْرِهَا، فَكَانُوا أَوْلَى بِهٰذِهِ النِّعْمَةِ مِنكُم؛ فَلاَ اعْتِبَارَ بِغِنَاكُمْ وَثَرْوَتِكُم، وَلاَ جَاهِكُمْ في الدُّنْيَا وحَشْمتكم، ولا/ نَسَبِكُمْ فِي الأَنْسَابِ، وَلاَ حَسَبِكُمْ، إِنَّمَا تَحْسِبُونَ [٨٨/ب] النِّعْمَةَ كُلَّهَا الدُّنْيَا وحُطَامَها، وَالْحَسَبَ وَالنَّسَبَ وَعُلُوَّهُ، لَا الدِّينَ (والعلم)[١] وَالْحَقَّ وَمَعْرِفَتَهُ؛ وَإِنَّمَا تُعَظِّمُونَ ذٰلِكَ وَتَتَفَاخَرُونَ بِهِ؛ أَلَا تَرَوْنَ أَنَّكُمْ لَا تَكَادُونَ تَقْبَلُونَ هٰذَا الدِّينَ وَالْعِلْمَ وَالْحَقَّ إِلَّا بِمِنَّةٍ عَلَى مَنْ أَتَاكُمْ بِهِ، وَذٰلِكَ لِاسْتِحْقَارِكُمْ ذٰلِكَ وَقِلَّةِ مُبَالَاتِكُمْ بِهِ؟ وَأَنَّ هٰؤُلَاءِ الضُّعَفَاءَ يَقْتُلُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى ذٰلِكَ، وَيَبْذُلُونَ مُهْجَتَهُم فِيهِ، وَلَا يُبَالُونَ بِمَا فَاتَهُمْ وَلَا بِمَنْ عَادَاهُمْ مَعَ ذٰلِكَ، لِتَعْلَمُوا أَنَّهُم هُمُ الَّذِينَ عَرَفُوا قَدْرَ هٰذِهِ النِّعْمَةِ، وَرَسَخَ في قُلُوبِهِمْ تَعْظِيمُهَا، وَهَانَ عَلَيْهِمْ فَوْتُ كلِّ شَيْءٍ دُونَهَا، وَطَابَ لَهُمُ احْتِمَالُ كُلِّ شِدَّةٍ، وَيَسْتَغْرِقُونَ جميعَ الْعُمُرِ في شُكْرِهِ، فَلِذٰلِكَ اسْتَأْهَلُوا هٰذِهِ المِنَّةَ الْكَرِيمَةَ، وَالنِّعْمَةَ (العَظيمة)[٢] في سَابِقِ عِلْمِنا وَخَصَّصْنَاهُمْ بِهَا دُونَكُمْ، فَهٰذِهِ هٰذِهِ.

لا يُقدِّر النعمة إلى أهلها

ثُمَّ أَقُولُ: وَكَذٰلِكَ كُلُّ فَرِيقٍ مِنَ النَّاسِ، خَصَّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِنِعْمَةٍ مِنْ نِعَمِ الدِّينِ، عِلْمٍ أَوْ عَمَلٍ، فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ بِالحَقِيقَةِ أَعْرَفَ النَّاس بِقَدْرِهَا، وَأَشَدَّهُمْ تَعْظِيماً لَهَا، وَأَجَدَّهُمْ في تَحْصِيلِهَا، وَأَعْظَمَهُمْ في إِكْرَامِهَا، وَأَقْوَمَهُمْ بِشُكْرِهَا؛ وَالَّذِينَ حَرَمَهُمُ ذٰلِكَ،

(١) لفظة ساقطة من الأصل، مثبتة في (د) و(هـ) وذكرناها لأهميتها فيما بعدها.
(٢) لفظة ساقطة من الأصل، مثبتة في (ج) و(د) و(هـ).

فَلِقِلَّةِ ٱحْتِفَالِهِمْ وَتَعْظِيمِهِمْ لِحَقِّهَا بَعْدَ الْقَدْرِ السَّابِقِ؛ فَلَو كَانَ تَعْظِيمُ الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ فِي قُلُوبِ السُّوقَةِ وَالْعَامَّةِ مِثْلَ مَا هُو فِي قُلُوبِ الْعُلَمَـاءِ وَالْمُتَعَبِّدِينَ، لِمَا آثَرُوا سُوقَهُمْ عَلَيْهِ، وَهَانَ عَلَيْهِمْ تَرْكُهُ، أَلَا تَرَى أَنَّ فَقِيهاً إِذَا ظَفِرَ بِتَعْلِيمِ مَسْئَلَةٍ كَانَتْ مُلْتَبِسَةً عَلَيْهِ، ثُمَّ ظَفِرَ بِهَا، كَيْفَ يَرْتَاحُ قَلْبُهُ وَيَعْظُمُ سُرُورُهُ، وَيَجِلُّ مَوْقِعُهَا مِنْ قَلْبِهِ، حَتى رُبَّمَا لَوْ وَجَدَ أَلْفَ أَلْفَ دِينارٍ مَا كَانَ يَعْدِلُ ذٰلِكَ، وَرُبَّمَا يَهُمُّهُ أَمْرُ مَسْئَلَةٍ فِي بَابِ الدِّينِ فَيَتَفَكَّرُ فِيهَـا سَنَةً، بَلْ عَشْراً بَلْ عِشْرِينَ وَأَكْثَرَ، لاَ يَسْتَـكْثِرُ ذٰلِكَ وَلاَ يَمَلُّ، حَتى رُبَّمَا يرزُقَهُ اللَّهُ فَهْمَ ذٰلِكَ، فَيَعُدُّهُ أَعْظَمَ مِنَّةٍ وَأَكْبَرَ نِعْمَةٍ، وَيَرَى نَفْسَهُ بِذٰلِكَ، أَغْنَى كُلِّ غَنِيٍّ، وَأَشْرَفَ كُلِّ شَرِيفٍ؛ بَلْ رُبَّمَا يَتَبَيَّنُ مِثْل هٰذِهِ المسْئَلَةِ لِسُوقِيٍّ، أَوْ لِمُتَعَلِّمٍ كَسْلاَنَ، يَرَى مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ مِثْلُهُ فِي الرَّغْبَةِ فِي الْعِلْمِ وَالمَحَبَّةِ لَهُ، فَلاَ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِ حَقَّهُ، وَرُبَّمَا إِنْ طَالَ عَلَيْهِ الْكَلاَمُ يَمَلُّ وَيَنَامُ، وإن تَبَيَّنَ ذٰلِكَ لَهُ، فَلاَ يَعُدُّهُ كَبِيرَ أَمْرٍ.

كَذٰلِكَ المُنِيبُ إِلى اللَّهِ تَعَالَى، كَمْ يَجْتَهِد وَيَدأَبُ بِالرِّيَاضَةِ وَصِيَـانَـةِ/ النَّفْـس عَـنِ الشَّهَـوَاتِ وَاللَّـذَّاتِ، وَإِلْجَـامِ الأَرْكَـانِ فـي الْحَرَكَاتِ والسَّكَنَاتِ، عَسَى أَنْ يُتَمِّمَ اللَّهُ تعالى له رَكْعَتَيْنِ في آدابٍ وَطَهَارَةٍ، وَكَمْ يَتَضَرَّعُ إِلى اللَّهِ تَعَالَى، عَسَى أَنْ يَرْزُقَهُ سَاعَةَ مُنَاجَاةٍ بِصَفْوَةٍ وَحَلاَوَةٍ، فَلَئِن ظَفِر بِذٰلِكَ مرّةً في شهرٍ، بَلْ في سَنَةٍ مَرَّةً، بَلْ في العمْرِ كُلِّهِ مَرَّةً، عَدَّ ذٰلِكَ أَكْبَـرَ مِنَّةٍ وَأَعْظَمَ مِنَّةٍ؛ فَكَمْ يُسَرُّ، وكَمْ يَشْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى، وَلاَ يَكْتَرِثُ بِمَا قَاسَاهُ مِنَ المَشَقّاتِ، وَكَابَدَ مِنَ اللَّيَالِي، وَهَجَرَ مِنَ اللَّذّاتِ فِيهَا. [٨٩/أ]

ثُمَّ تَرَى الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ رَاغِبٌ فِي الْعِبَادَةِ، يُحِبُّ أَنْ يُحَصِّلَ

جهل البعض بنعم الله

مِنْهَا شَيْئاً، لَوِ ٱحْتَاجَ أَحَدُهُمْ في تَحْصِيل مِثْلِ هٰذِهِ الْعِبَادَةِ الصَّافِيَةِ إلى نُقْصَانِ لُقْمَةٍ مِنْ عَشَائِهِمْ وَتَرْكِ كَلِمَةٍ لاَ تَعْنِيهِمْ، وَدَفْعِ نَوْمِ سَاعَةٍ عَنْ أَعْيُنِهِمْ، فَلاَ تَسْمَحُ أَنْفُسُهُمْ بِذٰلِكَ، وَلاَ تَطِيبُ قُلُوبُهُمْ؛ وَإِنِ ٱتَّفَقَ لَهُمْ في النَّادِرِ، حُصُولُ عِبَادَةٍ في صَفْوَةٍ، فَلاَ يَعُدُّونَهُ خَطِيراً، وَلاَ يُقَدِّمُونَ فِيهِ كَثِيرَ شُكْرٍ؛ إِنَّمَا يَعْظُمُ لَهُمْ سُرُورُهُمْ، وَيَكْثُرُ بِالظَّاهِرِ حَمْدُهُم، إِذَا حَصَلَ لَهُمْ دِرْهَمٌ، أَوِ ٱسْتَقَامَتْ لَهُمْ كِسْرَةٌ أو طَابَتْ لَهُمْ مَرَقَةٌ، أَوْ طَالَتْ لَهُمْ في سَلاَمَةٍ، في الْبَدَنِ رَقْدَةٌ، فَيَقُولُونَ عِنْدَ ذٰلِكَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ هٰذَا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ؛ فَأَنَّى يُسَاوِي هٰؤلاءِ الْغَافِلُونَ الْعَاجِزُونَ، أُولٰئِكَ السُّعَدَاءَ المُجِدِّينَ المُجْتَهِدِينَ؟

صَارَ هٰؤُلاَءِ المَسَاكِينُ عَنْ هٰذَا الْخَيْرِ مَحْرُومِينَ، وَأُولٰئِكَ المُؤَيَّدُونَ بِهِ ظَافِرِينَ فَائِزِينَ؛ وَكَذٰلِكَ قَسَّمَ الأَمْرَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ سُبْحَانَهُ، هُوَ أَعْلَمُ بِالْعَالَمِينَ؛ فَهٰذَا تَفْصِيلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣﴾ [الأنعام: ٥٣]، فتَفَهَّمَ وَرَاءِهِ حَقَّهُ، وَٱعْلَمْ أَنَّكَ لَمْ تُحْرَم قَطُّ خَيْراً أَنْت تتَمَنَّاهُ إِلاَّ مِنْ قِبَلِ نَفْسِكَ، فَابْذُلْ مَجْهُودَكَ لِتَعْرِفَ قَدْرَ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتُعَظِّمَهَا حَقَّ تَعْظِيمِهَا، فَتَكُونَ أَهْلاً لَهَا وَلإِعْطَائِهَا؛ ثُمَّ يَمُنُّ عَلَيْكَ بِإِبْقَائِهَا، كَمَا مَنَّ عَلَيْكَ بِابْتِدَائِهَا، عَلى مَا نَذْكُرُهُ فِي الأَصْلِ الثَّانِي، إِنَّهُ هُوَ الرَّءُوفُ الرَّحِيمُ.

الأَصْلُ الثَّانِي: أَنَّ النِّعْمَةَ إِنَّمَا تُسْلَبُ مِمَّنْ لاَ يَعْرِفُ قَدْرَهَا، وَالَّذِي لاَ يَعْرِفُ قَدْرَهَا الْكَفُورُ الَّذِي كَفَرَهَا، وَلاَ يُؤَدِّي شُكْرَها.

وَدَلِيلُ ذٰلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝١٧٥ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥ ــ ١٧٦] الآية؛ تَقْدِيرُ الْكَلاَمِ أَنَّا أَنْعَمْنا عَلى هٰذَا الْعَبْدِ

[٨٩/ب] بِالنِّعَمِ الْعِظَامِ، وَالأَيَادِي/ الْجِسَامِ فِي بَابِ الدِّينِ، بِمَا مَكَّنَّاهُ فِي ذٰلِكَ مِنْ تَحْصِيلِ الرُّتْبَةِ الْكَبِيرَةِ، وَالمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ عَلَى بَابِنَا وَيصير رَفِيعاً عِنْدَنَا، عَظِيمَ الْقَدْرِ، كَبِيرَ الْجَاهِ، وَلٰكِنَّهُ جَهِلَ قَدْرَ نِعْمَتِنَا، فَمَالَ إلى الدنْيَا الْخَسِيسَةِ الْحَقِيرَةِ، وَآثَرَ شَهْوَةَ نَفْسِهِ الدَّنِيئَةِ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا لَا تَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَكَانَ فِي ذٰلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْكَلْبِ الَّذِي لَا يَعْرِفُ الإِكْرَامَ مِن الإِهَانَةِ، وَالرِّفْعَة وَالشَّرَفَ مِنَ الْحَقَارَةِ، وَإِنَّمَا الْكَرَامَةُ كُلُّهَا عِنْدَهُ فِي كِسْرَةٍ يُطْعَمُ، أَوْ عُرَاقِ[1] مَائِدَةٍ يُرْمَى إلَيْهِ، سَوَاءَ تُقْعِدُهُ عَلَى سَرِيرٍ مَعَكَ، أَوْ تُقِيمُهُ فِي التُّرَابِ وَالْقَذَرِ بَيْنَ يَدَيْكَ، نَهْمَتُهُ وَكَرَامَتُهُ وَنِعْمَتُهُ كُلُّهَا فِي ذٰلِكَ.

منزلة من لا يعرف ربَّه

فَهٰذَا الْعَبْدُ السُّوءُ إذَا جَهِلَ قَدْرَ نِعْمَتِنَا، وَلَمْ يَعْرِفْ حَقَّ مَا آتَيْنَاهُ مِنْ كَرَامَتِنَا، وكَلَّتْ بَصِيرَتُهُ، وَسَاءَ فِي مَقَام الْقُرْبَةِ أَدَبَهُ بِالالْتِفَاتِ إِلى غَيْرِنا، وَالإِشْتِغَالِ عَنْ ذِكْرِ نِعْمَتِنَا، بِدُنْيَا حَقِيرَةٍ وَلَذَّةٍ خَسِيسَةٍ، فَنَظَرْنَا إِلَيْهِ نَظَرَ السِّيَاسَةِ، وَأَحْضَرْنَاهُ مَيْدَانَ الْعَدْلِ، وَأَمَرْنَا فِيهِ بِحُكْمِ الْجَبَرُوتِ، فَسَلَبْنَاهُ جَمِيعَ خِلَعِنَا وَكَرَامَاتِنَا، وَنَزَعْنَا مِنْ قَلْبِهِ مَعْرِفَتَنَا، فَانسَلَخَ عَارِياً عَنْ جَمِيعِ مَا آتَيْنَاهُ مِنْ فَضْلِنَا، فَصَارَ كَلْباً طَرِيداً، أو شَيْطَاناً رَجِيماً، نَعُوذُ بِاللَّهِ ثُمَّ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سَخَطِهِ وَأَلِيمِ عِقَابِهِ، إِنَّهُ رَءُوفٌ رَحِيمٌ.

مثل آخر لمن لا يقدِّر نعمة الله عليه

ثُمَّ اقْنَعْ بِمِثَالِ مَلِكٍ يُكْرِمُ عَبْداً لَهُ، فَيَخْلَعُ عَلَيْهِ خَاصَّةَ ثِيَابِهِ وَيُقَرِّبُهُ مِنْهُ، وَيَجْعَلُهُ فَوْقَ سَائِرِ خُدَّامِهِ وَحُجَّابِهِ، وَأَمَرَهُ بلزوم بَابِهِ، ثُمَّ أَمَرَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنْ تُبْنَى له الْقُصُورُ، وتُوضَعَ له الأَسِرَّةُ،

---

(١) العَرْق: العظم أُكِلَ لحمه، وكذلك العُراق.

وَتُنْصَبَ لَهُ المَوَائِدُ، وَتُزَيَّنَ لَهُ الْجَوارِي، وَتُقَامَ لَهُ الْغِلْمَانُ، حَتَّى إِذَا رَجَعَ مِنَ الْخِدْمَةِ، أُجْلِسَ هُنَالِكَ مَلِكاً مَخْدُوماً مُكَرَّماً، وَما بَيْنَ حَالِ خِدْمَتِهِ إِلى مُلْكِهِ وَوِلَايَتِهِ إِلاَّ سَاعَةٌ مِنْ نَهارٍ أَوْ أَقَلُّ؛ فَإِنْ أَبْصَرَ هٰذَا الْعَبْدُ بِجَانِبِ بَابِ المَلِكِ سَائِساً لِلدَّوابِّ يَأكل رَغِيفاً، أَوْ كَلْباً يَمْضُغُ عَظماً، فَيَشْتَغِلُ عَنْ خِدْمَةِ المَلِكِ بِنَظَرِهِ إِلَيْهِ وَإِقْبَالِهِ عَلَيْهِ، وَلاَ يَلْتَفِت إِلى مَا لَهُ مِنَ الْخِلَعِ وَالْكَرَامَةِ، فَيَسْعَى إِلى ذٰلِكَ السَّائِسِ، وَيَمُدّ يَدَهُ وَيَسْأَلُهُ كِسْرَةً مِنْ رَغِيفِهِ، أَوْ يُزَاحِمُ الْكَلْب عَلَى عَظْمه، يَغْبِطُهُمَا وَيُعَظِّمُ مَا هُمَا فِيهِ، أَلَيْسَ المَلِكُ إِذَا نَظَرَ إِلَيْهِ في مِثْلِ هٰذِهِ الْحَالَةِ يَقُولُ: هٰذَا السَفِيهُ، لَمْ يَعْرِفْ/ حَقَّ كَرَامَتِنَا، وَلَمْ يَرَ قَدْرَ إِعْزَازِنَا إِيَّاهُ، بِخِلَعِنَا وَالتَّقْرِيبِ إِلى حَضْرَتِنَا، مَعَ مَا صَرَفْنَا إِلَيْهِ مِنْ عِنَايَتِنَا، وَأَمْرْنَا لَهُ مِنَ ٱلذَّخَائِرِ وَضُرُوبِ الأَيَادي، مَا هٰذَا إِلاَّ سَاقِطٌ عَظِيمُ الْجَهْلِ، قَلِيلُ التَّمْيِيزِ، ٱسْلُبُوهُ الْخِلَعَ وَٱطْرُدُوهُ عَنْ بَابِنَا. [٩٠/أ]

فَهٰذَا حَالُ الْعَالِمِ إِذَا مَالَ إِلى الدُّنْيَا، وَالْعَابِدِ إِذَا اتَّبَعَ الْهَوَى، فَبَعْدَمَا أَكْرَمَهُ بِعِبَادَتِهِ وَمَعْرِفَةِ أَيَادِيهِ وَشَرِيعَتِهِ وَأَحْكَامِهِ، وَلَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ ذٰلِكَ، فَيَصِيرُ إِلى أَحْقَرِ شَيْءٍ عِنْدَ اللهِ عَزّ وَجَلَّ وَأَهْوَنِهِ عِنْدَهُ، فَيَرْغَبُ فِيهِ وَيَحْرِصُ عَلَيْهِ، وَيَكونُ أَعْظَمَ شيء في قَلْبِهِ وَأَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ مَا يعطىٰ مِنْ تِلْكَ النِّعَمِ الْعَزِيزَةِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ وَالْحِكَمِ وَالْحَقَائِقِ. [حال العابد والعالِمِ إذا مالا إلى الدنيا]

وَكَذٰلِكَ مَنْ خَصَّهُ اللَّهُ تَعَالى بِأَنْوَاعِ تَوْفِيقِهِ وَعِصْمَتِهِ، وَزَيَّنَهُ بِأَنْوَارِ خِدْمَتِهِ وَعِبَادَتِهِ، وَيُدِيمُ النَّظَرَ إِلَيْهِ بِرَحْمتِهِ في أَكْثَرِ أَوْقَاتِهِ، وَيُبَاهِي بِهِ مَلَائِكَتَهُ، وَأَعْطَاهُ عَلَى بَابِهِ الْقِيَادَةَ وَالْوَجَاهَةَ، وَأَحَلَّهُ مَحَلَّ الشَّفَاعَةِ، وَأَنْزَلَهُ مَنْزِلَةَ الأَعِزةِ، حَتَّى صَارَ بِحَيْثُ لَوْ دَعَاهُ لأَجَابَهُ

وَلَبَّاهُ، وَلَوْ سَأَلَهُ أَعْطَاهُ وَأَغْنَاهُ، وَلَوْ شَفَعَ في عَالَمٍ لَشَفَّعَهُ فِيهِمْ وَأَرْضَاهُ، وَلَوْ أَقْسَمَ عَلَيْهِ لأَبَرَّهُ وَأَوْفَاهُ، وَلَوْ خَطَرَ بِبَالِهِ شَيْءٌ لأَعْطَاهُ قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَهُ بِلِسَانِهِ، فَمَنْ كَانَتْ هٰذِهِ حَالُهُ، ثُمَّ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ هٰذَا الْمُنْعِمِ، ولَمْ يَنْظُرْ إِلى قَدْرِ هٰذِهِ النعمة، فَيَعْدِلَ عَنْ ذٰلِكَ إِلى شَهْوَةِ نَفْسٍ رَدِيئَةٍ لاَ حَيَاءَ لَهَا، أَوْ لَعْقَةٍ مِنَ الدُّنْيَا الدَّنِيئَةِ الَّتِي لاَ بَقَاءَ لَهَا، وَلَمْ يَنْظُرْ إِلى تِلْكَ الكرامات وَالْخِلَعِ، وَالْهَدَايَا وَالْمِنَنِ وَالْعَطَايَا، ثُمَّ مَا وَعَدَهُ وَأَعدَّ لَهُ في الآخِرَةِ مِنَ الثَّوَابِ الْعَظِيمِ، وَالنَّعِيمِ المُقِيمِ؛ فَمَا أَحْقَرَهَا مِنْ نَفْسٍ، وَمَا أَسْوَأَهُ مِنْ عَبْدٍ، وَمَا أَعْظَمَ خَطَرَهُ لَوْ عَلِمَ، وَمَا أَفْحَشَ صَنِيعَهُ لَوْ فَهِمَ؛ نَسْأَلُ ٱللَّهَ البارّ الرَّحِيمَ، أَنْ يُصْلِحَنَا بِعَظِيمِ فَضْلِهِ، وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

بذل الجهد لمعرفة نِعم الله

فَعَلَيْكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ بِبَذْلِ الْمَجْهُودِ حَتَّى تَعْرِفَ قَدْرَ نِعَمِ ٱللَّهِ تَعَالى عَلَيْكَ؛ فإِذَا أَنْعَمَ عَلَيْكَ بِنِعَمِ ٱلدِّينِ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَلْتَفِتَ إِلى ٱلدُّنْيَا وَحُطَامِهَا، فَإِنَّ ذٰلِكَ لاَ يَكُونُ مِنْكَ إِلاَّ بِضَرْبٍ مِنَ التَّهَاوُنِ، بِمَا أَوْلاَكَ رَبُّكَ مِنْ نِعَمِ ٱلدِّينِ، أَمَا تسْمَعُ قَوْلَهُ تَعَالَى لِسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ﷺ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ الآيَةَ [الحجر: ٨٧ ــ ٨٨]؛ تَقْدِيرُهُ؛ أَنَّ كُلَّ مَنْ أُوتِيَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ، حُقَّ لَهُ أَنْ لاَ يَنْظُرَ إِلى الدُّنْيَا الْحَقِيرَةِ نَظْرَةً بِاسْتِحْلاَءٍ، فَضْلاً عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِيها رَغْبَةٌ، وليلزم الشُّكْرَ عَلَى ذٰلِكَ، فَإِنَّهَا الْكَرَامَةُ الَّتِي حَرَصَ خَلِيلُهُ إِبْرَاهِيمُ ﷺ أَنْ يَمُنَّ بها عَلَى أَبِيهِ فَلَمْ يَفْعَلْ، وَحَرَصَ حَبِيبُهُ الْمُصْطَفَى ﷺ أَنْ يَمُنَّ بِهَا عَلَى عمّه أَبِي طَالِبٍ فَلَمْ يَفْعَلْ. [٩٠/ب]

الدنيا بلاء

وَأَمَّا حُطَامُ ٱلدُّنْيَا فَإِنَّهُ يَصُبُّهُ عَلَى كُلِّ كَافِرٍ وَفِرْعَوْنٍ وَمُلْحِدٍ

وَزِنْدِيقٍ وَجَاهِلٍ وَفَاسِقٍ، الَّذِينَ هُمْ أَهْوَنُ خَلْقِهِ عَلَيْهِ، حَتَّى رقُوا فِيهِ، وَيَصْرِفُهُ عَنْ كُلِّ نَبِيٍّ وَصَفِيٍّ وَصِدِّيقٍ وَعَالِمٍ وَعَابِدٍ، الَّذِينَ هُمْ أَعَزُّ خَلْقِهِ عَلَيْهِ، حَتَّى إِنَّهُمْ لاَ يَكَادُونَ يُصِيبُونَ كِسْرَةً وَخِرْقَةً، وَيَمُنَّ عَلَيْهِمْ بِأَنْ لاَ يُلَطِّخَهُمْ بِقَذَرِهَا، حَتَّى قَالَ، عَزَّ مِنْ قَائِلٍ، لِمُوسَى (وهارون عَلَيْهِمَا)[1] السَّلاَمُ: «وَلَوْ أَشَاءُ أَنْ أُزَيِّنَكُمَا بِزِينَةٍ، علمَ فِرْعَوْنُ حِينَ يَرَاهَا أَنَّ مَقْدِرَتَهُ تَعْجزُ عَنْهَا لَفَعَلْتُ، وَلٰكِنِّي أَزْوِي عَنْكُمَا الدُّنْيا وَأَرْغَبُ بِكُمَا عَنْهَا، كَذٰلِكَ أَفْعَلُ بِأَوْلِيَائِي؛ وَإِنِّي لأَذُودُهُمْ عَنْ نَعِيمِهَا كمَا يَذُودُ الرَّاعِي الشَّفِيقُ إِبِلَهُ عَنْ مَبارِكِ الْعُرَّةِ، وَإِنِّي لأُجَنِّبُهُمْ سُكُونَهَا وَعَيْشَهَا، وَلَيْسَ ذٰلِكَ لِهَوَانِهِمْ عَلَيَّ، وَلٰكِنْ لِيَسْتَكْمِلُوا حَظَّهُمْ مِنْ كَرَامَتِي»[2]. وَقَالَ تَعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ. . . ﴾ الآيتين: [الزخرف: ٣٣ ـ ٣٤]؛ فَانْظُرِ الْفَرْقَ بَيْنَ الأَمْرَيْنِ إِنْ كُنْتَ مُبْصِراً وَقُلِ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَنَّ عَلَيْنَا بِمِنَنِ أَوْلِيَائِهِ وَأَصْفِيائِهِ، وَصَرَفَ عَنَّا

---

(١) في الأصل: موسى عليه السلام، والتصويب من (د) و(هـ) وهذا يتفق مع سياق الكلام الآتي.

(٢) ـ قال الكديري في سراج الطالبين (٢/٤٩٩): أورده صاحب الحلية وصاحب القوت عن وهب بن منبه.

ـ وذكر الغزالي في الإحياء حديثاً بنفس المعنى تقريباً وهو قوله ﷺ: «إن الله ليحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما يحمي أحدكم مريضه».

قال العراقي: أخرجه الترمذي وحسنه الحاكم وصححه (إحياء ٤/١٢٨).

ـ ورواية الحاكم في مستدركه عن قتادة بن النعمان بلفظ: (إذا أحب الله عبداً حماه الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه الماء) قال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرّجاه (٤/٣٠٩، كتاب الرقاق).

الشكر على نعمة الإسلام

فِتْنَةَ أَعدَائِهِ، لِنُخصَّ بِالشُّكْرِ الأَوْفَرِ، وَالْحَمْدِ الأَكْبَرِ، وَالمنَّةِ الْكُبْرَى، وَالنِّعْمَةِ الْعُظْمَى الَّتِي هِيَ الإِسْلاَمُ، فَإِنَّهَا الأُولَى وَالأُخْرَى، بِأَنْ لاَ تَفْتُرَ لَيْلَكَ وَنَهَارَكَ عَنْ شُكْرِهَا، وَإِنْ كُنْتَ عَاجِزاً عَنْ عِرْفانِ قَدْرِهَا، فَاعْلَمْ بِالْحَقِيقَةِ أَنَّكَ لَوْ خُلِقْتَ مِنْ أَوَّلِ الدُّنْيَا، وَأَخَذْتَ فِي شُكْرِ الإِسْلاَمِ مِنْ أَوَّلِ الْوَقْتِ إِلى الأَبَدِ لَمَا كُنْتَ تَقُومُ بِذٰلِكَ، وَلَمَا قَضَيْتَ بَعْضَ الْحَقِّ، لِمَا هُنَالِكَ مِنَ الفوزِ الْعَظِيمِ.

قُلْتُ: وَاعْلَمْ أَنَّ المَوْضِعَ لاَ يَحْتَمِلُ ذِكْرَ مَا يَبْلُغُهُ عِلْمِي مِنْ قَدْرِ هٰذِهِ النِّعْمَةِ، وَلَوْ أَمْلَيْتُ فِيهِ أَلْفَ أَلْفِ وَرَقَةٍ، لَكَانَ مَبْلَغُ عِلْمِي فَوْقَ ذٰلِكَ، مَعَ اعْتِرَافِي بِأَنَّ مَا أَعْلَمُهُ/ [٩١/أ] فِي جَنْبِ مَا لاَ أَعْلَمُهُ، كَنُقْطَةٍ فِي بِحَارِ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا.

أَمَا تَسْمَعُ وَيْحكَ قَوْلَهُ تَعالَى لِسَيِّدِ المُرْسَلِينَ ﷺ: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢] إِلى أَنْ قالَ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: ١١٣] وَقالَ تَعالى لِقَوْمٍ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧] الآية.

أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ ﷺ، وَقَدْ سَمِعَ رَجُلاً يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى الإِسْلاَمِ فَقَالَ: «إِنَّكَ لَتَحْمَدُ ٱللَّهَ عَلَى نِعْمَةٍ عَظِيمَةٍ»[(١)] وَلَمَّا قَدِمَ

(١) ــ رواه الخرائطي في كتاب فضيلة الشكر لله على نعمته (الحديث رقم ١٥) بلفظ: (مرَّ النبي ﷺ برجل وهو يقول: الحمد لله الذي هداني للإسلام وجعلني من أمة محمد، فقال رسول الله ﷺ لقد شكرت عظيماً).

الْبَشِيرُ[1] عَلَى يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامِ، قالَ: عَلَى أَيِّ دِينٍ تَرَكْتَهُ؟ قالَ: عَلَى الْإِسْلَامِ، قالَ: الآنَ تَمَّتِ النِّعْمَةُ[2].

وَقِيلَ: مَا مِنْ كَلِمَةٍ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ تَعالى، وَلاَ أَبْلَغَ عِنْدَهُ في الشُّكْرِ مِنْ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَنَّ عَلَيْنَا وَهَدَانَا إِلى الْإِسْلَامِ. وَإِيَّاكَ أَنْ تَغْفَلَ الشُّكْرَ وَتَغْتَرَّ بِمَا أَنْتَ عَلَيْهِ في الْحَالِ، مِنَ الْإِسْلَامِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالتَّوْفِيقِ وَالْعِصْمَةِ، فَإِنَّ مَعَ ذٰلِكَ لاَ مَوْضِعَ لِلأَمْنِ وَالْغَفْلَةِ، فَإِنَّ الأُمُورَ بِالْعَوَاقِبِ.

وَكَانَ سُفْيَانُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعالى يَقُولُ: مَا أَمِنَ أَحَدٌ عَلَى دِينِهِ إِلاَّ سُلِبَ.

وَكَانَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ: إِذَا سَمِعْتَ بِحَالِ الْكُفَّارِ وَخُلُودِهِمْ في النَّارِ، فَلاَ تَأْمَنْ عَلَى نَفْسِكَ، فَإِنَّ الأَمْرَ عَلَى الْخَطَرِ، وَلاَ تَدْرِي مَاذَا يَكُونُ مِنَ الْعَاقِبَةِ وَمَاذَا سَبَقَ لَكَ في حُكْمِ الْغَيْبِ؛ فَلاَ تَغْتَرَّ بِصَفَاوةِ الأَوْقاتِ، فَإِنَّ تَحْتَهَا غَوَامِضَ الآفَاتِ.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: يَا مَعْشَرَ الْمُغْتَرِّينَ بِالْعِصَمِ، إِنَّ تَحْتَهَا أَنْوَاعَ النِّقَمِ، زَيَّنَ ٱللَّهُ إِبْلِيسَ بِأَنْوَاعِ عِصْمَتِهِ، وَهُوَ عِنْدَهُ في حَقَائِقِ لَعْنَتِهِ، وَزَيَّنَ بِلْعَامَ[3] بِأَنْوَاعِ وِلاَيَتِهِ، وَهُوَ في حَقَائِقِ عَدَاوَتِهِ.

---

(١) البشير: هو المبشّر بخبر يوسف عليه السلام، وذكر المفسرون أن اسمه يهوذا ذهب إلى يعقوب عليه السلام ليبشّره أن ابنه يوسف ما زال حيّاً بعد أن كان أخبره أن الذئب أكله.

(٢) هكذا ذكره النسفي في تفسيره.

(٣) بلعام بن باعوراء: من علماء بني إسرائيل.

وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، وَكَمْ مِنْ مَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ، وَكَمْ مِنْ مَغْرُورٍ بِالسَّتْرِ عَلَيْهِ.

وَقِيلَ لِذِي النُّونِ: مَا أَقْصَى مَا يُخْدَعُ بِهِ الْعَبْدُ؟ قَالَ بِالْأَلْطَافِ وَالْكَرَامَاتِ. كَذَٰلِكَ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الأعراف: ١٨٢] أي نُسْبِغُ عَلَيْهِمُ النِّعَمَ وَنُنْسِيهِمُ الشُّكْرَ؛ (كما قال الشاعر)[1]: [البسيط]:

أَحْسَنْتَ ظَنَّكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسُنَتْ ... وَلَمْ تَخَفْ سُوءَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ
وَسَالَمَتْكَ اللَّيَالِي فَاغْتَرَرْتَ بِهَا ... وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَحْدُثُ الْكَدَرُ

وَاعْلَمْ أَنَّكَ كُلَّمَا صِرْتَ أَقْرَبَ، فَأَمْرُكَ أَخْوَفُ وَأَصْعَبُ، وَالْمُعَامَلَةُ أَشَقُّ وَأَدَقُّ، وَالْخَطَرُ عَلَيْكَ/ أَعْظَمُ، فَإِنَّ الشَّيْءَ كُلَّمَا كَانَ أَبْلَغَ عُلُوّاً إِذَا انْقَلَبَ كَانَ أَصْعَبَ وقُوعاً، كَمَا قِيلَ: [مجزوء الكامل]: [٩١/ب]

مَا طَارَ طَيْرٌ فَارْتَفَعْ ... إِلَّا كَمَا طَارَ وَقَعْ

فَإِذَنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْأَمْنِ، وَإِغْفَالِ الشُّكْرِ، وَتَرْكِ الِابْتِهَالِ فِي الْحِفْظِ بِحَالٍ. وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ بنُ أَدْهَمَ رحمه الله تعالى يَقُولُ: كَيْفَ تَأْمَنُ وَإِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقُولُ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥]. وَيُوسُفُ الصِّدِّيقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ [يوسف: ١٠١]. وَكَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، كَأَنَّهُ فِي سَفِينَةٍ يَخْشَى الغَرَقَ.

---

(١) زيادة من (د) و(هـ) يقتضيها الكلام.

وَبَلَغَنَا عَنْ مُحَمَّدِ بنِ يُوسُفَ[1] أَنَّهُ قَالَ: تَأَمَّلْتُ سُفْيَانَ الثَّورِيَّ لَيْلَةً فَبَكَى اللَّيْلَ أَجْمَعَ، قُلْتُ: بُكَاؤُكَ هٰذَا عَلَى الذُّنُوبِ؟ قَالَ، فَحَمَلَ تِبْنَةً، وَقَالَ: الذَّنْبُ أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هٰذَا إِنَّمَا أَخْشَى أَنْ يَسْلُبَنِي اللَّهُ الإِسْلاَمَ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

وَسَمِعْتُ أَنَا بَعْضَ الْعَارِفِينَ يَقُولُ: إِنَّ بَعْضَ الأَنْبِياءِ سَأَلَ اللَّهَ تَعَالى عَنْ أَمْرِ بِلْعَامَ وَطَرْدِهِ بَعْدَ تِلْكَ الآيَاتِ وَالْكَرَامَاتِ، فَقَالَ اللَّه تَعَالى: لَمْ يَشْكُرْنِي يَوْماً مِنَ الأَيَّامِ عَلَى مَا أَعْطَيْتُهُ، وَلَوْ شَكَرَنِي عَلَى ذٰلِكَ مَرَّةً لَمَا سَلَبْتُهُ.

فَتَيَقَّظْ أَيُّهَا الرَّجُلُ، وَاحْتَفِظْ بِرُكْنِ الشُّكْرِ جِدّاً جِدّاً، وَٱحْمَدِ اللَّه عَلَى منته فِي ٱلدِّينِ، أَعْلاَهَا الإِسْلاَمُ وَالمَعْرِفَةُ، وَأَدْنَاهَا مَثَلاً تَوْفِيقٌ لِتَسْبِيحٍ، أَوْ عِصْمَةٍ عَنْ كَلمَةٍ لاَ تَعْنِيكَ، عَسَى أَنْ يُتِمَّ نِعمَهُ عَلَيْكَ وَلاَ يَبْتَلِيكَ بِمَرَارَةِ الزوَالِ، فَإِنَّ أَمَرَّ الأُمُورِ وَأَصْعَبَهَا الإِهَانَةُ بَعْدَ الإِكْرَامِ، والطَّرْدُ بَعْدَ التَّقْرِيبِ، وَالْفِرَاقُ بَعْدَ الوِصَالِ، وَاللَّهُ تَعالَى المَاجِدُ الكَرِيمُ، الرَّءُوفُ الرَّحِيمُ.

---

(١) من كبار الزهاد، كان رجلاً فاضلاً، لم يذكر الدنيا قط. وكان ابن المبارك معجباً به.

انظر ترجمته في: حلية الأولياء ٨/ ٢٢٥ ت ٤٠٠.

فصل
في وجوب التَّضَرُّع إلى الله تعالى

وَجُمْلَةُ الأَمْرِ أَنَّكَ إذَا أَحْسَنْتَ النَّظَرَ في مِنَنِ اللَّهِ تَعَالى الْعِظَام عَلَيْكَ، وَأَيَادِيهِ الْجِسَام الْكِرَام لَدَيْكَ، الَّتِي لاَ يحصرها قَلْبُكَ، وَلاَ يُحِيطُ بِهَا وَهْمُكَ، حَتَّى خَلَّفْتَ هٰذِهِ الْعَقَبَاتِ الصِّعَابَ، فَوَجَدْتَ الْعُلُومَ وَالْبَصَائِرَ، وَتَطَهَّرْتَ مِنَ الأَوْزَارِ وَالْكَبَائِرِ، وَسَبَقْتَ الْعَوائِقَ، وَدَفَعْتَ الْعوَارِضَ، وَظَفِرْتَ بِالْبَوَاعِثِ، وَسَلِمْتَ مِنَ الْقَوَادِحِ، فَكَمْ حَصَلَ لَكَ فِيهَا مِنْ خَصْلَةٍ شَرِيفَةٍ، وَرُتْبَةٍ مُنِيفَةٍ، أَوَّلُهَاالتَّبْصِيرُ وَالتَّعْرِيفُ، وَآخِرُهَا التَّقْرِيبُ وَالتَّشْرِيفُ، فَتَأَمَّلْتَ فِيهَا بِمِقْدَارِ عَقْلِكَ وَتَوْفِيقِكَ، وَشَكَرْتَ اللَّهَ تعالى عَلَى قَدْرِ/ طَوْقِكَ، بِأَنْ يَشْغَلَ لِسَانَكَ [٩٢/أ] بِحَمْدِهِ وَثَنَائِهِ، وَيَمْلأَ قَلْبَكَ بِعَظَمَتِهِ، وَيُبَلِّغَكَ مَبْلَغاً يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عِصْيانِهِ، وَيَبْعَثَكَ عَلَى الْخِدْمَةِ بِمَا أَمْكَنَكَ، أَوْ بِسَعَةِ طَاقَتِكَ، مُعْتَرِفاً بِالْقُصُورِ عَنْ حَقِّ إِنْعَامِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَكُلَّمَا أَغْفَلْتَ شُكْرَهُ أَوْ فَتَرْتَ أَوْ زَلَلْتَ، عَاوَدْتَ وَٱجْتَهَدْتَ وَتَضَرَّعْتَ وَتَوَسَّلْتَ وَقُلْتَ: يَا أَللَّهُ يَا مَوْلاَيَ، كَمَا بَدَأْتَ بِالإِحْسَانِ بِفَضْلِكَ مِنْ غَيْرِ ٱسْتِحْقَاقٍ (فَأَتْمِمْهُ بِفَضْلِكَ أَيْضاً مِنْ غَيْرِ ٱسْتِحْقَاقٍ)[1]، وَتُنَادِيهِ بِنِدَاءِ أَوْلِيَائِهِ الَّذِينَ

---

(١) جملة ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

وَجَدُوا تَاجَ هِدَايَتِهِ، وَذَاقُوا حَلاَوَةَ مَعْرِفَتِهِ. فَخَافُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ حُرْقَةَ الطَّرْدِ وَالإِهَانَةِ، وَوَحْشَةَ الْبُعْدِ وَالضَّلاَلَةِ، وَمَرَارَةَ الْعَزْلِ وَالإِزَالَةِ، فَتَضَرَّعُوا بِالْبَابِ مُسْتَغِيثِينَ، وَمَدُّوا إِلَيْهِ الأَكُفَّ مُبْتَهِلِينَ، وَنَادَوْا فِي الْخَلَوَاتِ مُسْتَصْرِخِينَ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران: ٨].

قُلْتُ أَنَا: تَقْدِيرُهُ ـ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ـ أَنَّا وَجَدْنَا مِنْكَ نِعْمَةً فَطَمِعْنَا فِي أُخْرَى، لأَنَّكَ أَنْتَ الْجَوَادُ الْوَهَّابُ، فَكَمَا وَهَبْتَ لَنَا مَزِيَّةَ الإِنْعَامِ فِي الإِبْتِدَاءِ، فَهَبْ لَنَا رَحْمَةَ الإِتْمَامِ فِي الإِنْتِهَاءِ. أَمَا تَسْمَعُ ـ وَيْحَكَ ـ أَنَّ أَوَّلَ دُعَاءٍ عَلَّمَهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عِبَادَهُ الْمُسْلِمِينَ، الَّذِينَ اصْطَفَاهُم الله مِنْ بَيْنِ خَلْقِهِ، هٰذَا الدُّعَاءُ: قَوْلُهُ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦] أَيْ ثَبِّتْنَا عَلَيْهِ وَأَدِمْهُ لَنَا، هٰكَذَا تَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ فَإِنَّ الْخَطَرَ عَظِيمٌ.

وَقِيلَ: إِنَّ الْحُكَمَاءَ نَظَرُوا فَرَدُّوا مَصَائِبَ الْعَالَمِ وَمِحَنها[1] إِلى خمْسٍ:

المَرَضِ فِي الْغُرْبَةِ، وَالْفَقْرِ في الشَّيْبِ، وَالْمَوْتِ في الشَّبَابِ، وَالْعَمَى بَعْدَ الْبَصَرِ، وَالنَّكِرَةِ[2] بَعْدَ الْمَعْرِفَةِ.

وَأَحْسَنُ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ مَنْ قَالَ: [البسيط]:

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا فَارَقْتَهُ عِوَضُ ... وَلَيْسَ لِلَّهِ إِن فَارَقْتَ مِنْ عِوَضِ

---

(١) مِحَنها: أي محن المصائب، وفي رواية أخرى: محنهم: أي محن الناس.

(٢) النكرة: أي الإنكار، والمقصود: إنكار نعم الله تعالى بعد معرفتها.

وَلِغَيْرِهِ: [الطويل]:

إذَا أَبْقَتِ الدُّنْيَا عَلَى المَرْءِ دِينَهُ فَمَا فَاتَهُ مِنْهَا فَلَيْسَ بِضَائِرِ

وَكَذٰلِكَ في كُلِّ نِعمٍ أَنْعَمَ الله بِهَا عَلَيْكَ، وَتَأْيِيدٍ أَيَّدَكَ بِهِ فِي قَطْعِ عَقَبَةٍ مِنَ الْعَقَبَاتِ، لِيُثَبِّتَ عَلَيْكَ مَا أَعْطَى، وَيَزِيدَكَ فَوْقَ مَا تَوَدُّ وَتتَمَنَّى؛ فَإذَا فَعَلْتَ ذٰلِكَ، كُنْتَ قَدْ خَلَّفْتَ هٰذِهِ الْعَقَبَةَ الْخَطِيرَةَ، وَكُنْتَ قَدْ ظَفِرْتَ بِالْكَنْزَيْنِ الْكَرِيمَيْنِ الْعَزِيزَيْنِ، اللَّذَيْن هُمَا: الإِسْتِقَامَةُ وَالإِسْتِزَادَةُ، فَتَدُومُ لَكَ النِّعَمُ الْمُوجُودَةُ الَّتِي أَعْطَاكَها، فَلاَ تَخْشَى زَوَالَها، وَيَزِيدُكَ مِنَ النِّعَمِ الْمَفْقُودَةِ الَّتِي لَمْ تُعْطَ بَعْدُ مَا لاَ تُحسِنُ أَنْ تَسْأَلَهَا وَتَتَمَنَّاهَا/ [٩٢/ب] فَلاَ تَخْشَى فَوَاتَهَا، وَكُنْتَ حِينَئِذٍ مِنَ الْعَارِفِينَ الْعُلَمَاءِ بِالدِّينِ، التَّائِبِينَ الطَّاهِرِينَ، الزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا، المُتَجَرِّدِينَ لِلَخِدْمَةِ، الْقَاهِرِينَ لِلشَّيْطَانِ، المُتَّقِينَ حَقَّ التَّقْوى بِالْقَلْبِ وَالأَرْكَانِ، الْقَاصِرِينَ لِلأَمَلِ، النَّاصِحِينَ الْخَاشِعِينَ الْمُتَوَاضِعِينَ، المُتَوَكِّلِينَ المُفَوِّضِينَ، الرَّاضِينَ الصَّابِرِينَ، الْخَائِفِينَ الرَّاجِينَ، الْمُخْلِصِينَ الذَّاكِرِينَ المِنَّةَ، الشَّاكِرِينَ لأَنْعُمِ سَيِّدِك رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ ثُمَّ تَصِيرُ بَعْدَ ذٰلِكَ مِنَ الْمُسْتَقِيمِين المُكَرَّمِينَ الصِّدِّيقِينَ. فتَأَمَّلْ هٰذَا الْكَلاَمَ، وَاللَّهُ تَعَالَى وَلِيُّ التَّوْفِيقِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَإِذَا كَانَ الأَمْرُ كَذٰلِكَ، لَقَدْ قَلَّ مِنَ النَّاسِ العَابِدُ لِهٰذَا المَعْبُودِ، الْوَاصِلُ إِلَى هٰذَا المَقْصُودِ، وَمَنِ الَّذِي يَقْوَى عَلَى هٰذِهِ المُؤَنِ وَتَحْصِيلِ هٰذِهِ الشَّرَائِطِ؟

صعوبة تحصيل الشكر

فَاعْلَمْ أَنَّ الله تَعَالَى، كَذٰلِكَ يَقُولُ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ: ١٣] ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٣٨﴾ [يوسف: ٣٨] ﴿لَا

﴿يَعۡقِلُونَ ۝٦٣﴾ [العنكبوت: ٦٣]، ﴿لَا يَعۡلَمُونَ ۝٤٠﴾ [يوسف: ٢١، ٤٠، ٦٨].

ثُمَّ إنَّ ذٰلِكَ يَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ الله تَعَالَى عَلَيْهِ، وَعَلَى الْعَبْدِ الاِجْتِهَادُ، وَعَلَى الله الْهِدَايَةُ، قالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ الضَّعِيفُ يَقُومُ بِمَا عَلَيْهِ، فَمَا ظَنُّكَ بِالرَّبِّ الْقَدِيرِ الْغَنِيِّ الْكَرِيمِ الرَّحِيمِ؟ فَإِنْ قُلْتَ: فَالْعُمْرُ قَصِيرٌ، وَهٰذِهِ عَقَبَاتٌ طَوِيلَةٌ شَدِيدَةٌ، فَكَيْفَ يَبْقَى الْعُمْر حَتَّى تَكْمُلَ هٰذِهِ الشَّرَائِطُ وَتُقْطَعَ هٰذِهِ الْعَقَبَاتُ؟.

قطع العقبات وقصر العمر

فَلَعَمْرِي إنَّ هٰذِهِ الْعَقَبَاتِ طوِيلَةٌ، والشَّرَائِطَ فِيهَا شَدِيدةٌ، ولٰكِنْ إذَا أَرَادَ الله تَعَالَى أَنْ يَجْتَبِي عَبْدَهُ، قَصّرَ عَلَيْهِ طَوِيلَها، وَهَوَّنَ عَلَيْهِ شَدِيدَهَا، حَتَّى يَقُولَ بَعدَ قَطْعِهَا: مَا أَقْرَبَ هٰذِهِ الطَّرِيقَ وَأَقْصَرَهَا، وَمَا أَهْوَنَ هٰذَا الأَمْرَ وَأَيْسَرَهُ.

قطع العقبات بتوفيق الله

وفِي مِثْلِ ذٰلِكَ قُلْتُ أنا عِنْدَ وُقُوفِي عَلَى هٰذِهِ الْغَايَةِ: [الكامل]:

عَلَمُ الْمَحَجَّةِ وَاضِحٌ لِمُرِيدِهِ　　　وَأَرَى الْقُلُوبَ عَنِ الْمَحَجَّةِ فِي عَمَى
وَلَقَدْ عَجِبْتُ لِهَالِكٍ وَنَجَاتُهُ　　　مَوْجُودَةٌ وَلَقَدْ عَجِبْتُ لِمَنْ نَجَا

حَتَّى إنَّ مِنهُمْ منْ يَقْطَعُ هٰذِهِ الْعَقَبَاتِ فِي سَبْعِينَ سَنَةً، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْطَعُهَا فِي عِشْرِينَ سَنَة (وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْطعها)[1] فِي عَشْرِ سِنِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَحْصُلُ لَهُ فِي سَنَة، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْطَعُهَا فِي شَهْرٍ بَلْ فِي

(١) عبارة ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

جُمُعةٍ، بَلْ في سَاعَةٍ، حَتَّى أنَّ مِنهُمْ مَنْ يُحَصِّلُه في لَحْظَةٍ بِتَوْفِيقٍ خَاصٍ وَعِنَايَةٍ سَابِقَةٍ.

[٩٣/أ] أَمَا تَذْكُرُ أَصْحَابَ الْكَهْفِ؟ كَانَتْ مُدَّتُهُمْ خَطْرَةً حَيْثُ رَأَوا/ التَّغَيُّرَ في وَجْهِ مَلِكِهِمْ دِقْيَانُوس[1] فَقَالُوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية [الكهف: ١٤]، حَصلَتْ لَهُمُ المَعْرِفَةُ وَأَبْصَرُوا مَا في هٰذا الطَّرِيقِ مِنَ الْحَقَائِقِ، وَقَطَعُوا هٰذا الطريقَ فَصَارُوا مُفَوَّضِينَ مُتَوَكِّلِينَ مُسْتَقِيمِينَ، إذْ قالُوا: ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ الآية [الكهف: ١٦]، وَكُلُّ ذٰلِكَ إنَّما حَصَلَ لَهُمْ في مِقْدارِ سَاعَةٍ أوْ لَحظَةٍ.

أصحاب الكهف

أَمَا تَذْكُرُ سَحَرَةَ فِرْعَوْنَ؟ مَا كَانَتْ مُدَّتُهُمْ إلا لَحظَةً حَيْثُ رَأَوْا مُعْجزَةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ قالُوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢٢] فَأَبْصَرُوا الطَّرِيقَ وَقَطَعُوهُ بِحَقِّه، فَصَارُوا مِنْ سَاعَةٍ إلى سَاعَةٍ، بَلْ أَقَلَّ، مِنَ الْعَارِفِينَ بِالله، الرَّاضِينَ بِقَضَاء الله تَعالى، الصَّابِرِينَ عَلَى بَلائِهِ، الشَّاكِرِينَ لآلائِهِ، المُشْتَاقِينَ إلى لِقَائِهِ، فَنادَوا: ﴿لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الشعراء: ٥٠].

سحرة فرعون

وَلَقَدْ حَكَيْنَا أنَّ إبْرَاهِيمَ بنَ أدْهَمَ، كَانَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ ٱلدُّنْيَا، فَعَدَلَ وَقَصَدَ هٰذَا الطَّرِيقَ، فَلَمْ يَكُنْ مِقْدَارُ سَيْرِهِ مِنْ بَلْخٍ إلى مَرْو، حَتَّى صَارَ بِحَيْث أَشَارَ إلى رَجُلٍ سَقَطَ مِنَ الْقَنْطَرَةِ في

إبراهيم بن أدهم

---

(١) في كتب التفسير إنه دقيانوس الجبّار، وهو ممن عبد الأصنام وذبح للطواغيت، وقتل من خالفه، وكان ينزل قرى الروم، فلا يترك في قرية نزلها أحداً إلا فتنه عن دينه حتى يعبد الأصنام أو يقتله.

الْمَاء الْكَثِير هُنَالِكَ، أنْ قِفْ، فَوَقَفَ الرَّجُلُ مَكَانَهُ في الْهَوَاء فَتَخَلَّصَ.

وَأنَّ رَابِعَةَ الْبَصْرِيَّةَ كَانَتْ أمَةً كَبِيرَةَ السِّنِّ، يُطَافُ بِهَا في سُوقِ الْبَصْرَةِ، لاَ يَرْغَبُ فِيهَا أحَدٌ لِكِبَرِ سِنِّهَا، فَرَحِمَهَا بَعْضُ التُّجَّارِ فَاشْتَرَاهَا بِنَحْوِ مِائَةِ دِرْهَم وَأعْتَقَهَا، فَاخْتَارَتْ هٰذا الطَّرِيقَ وَأقْبَلَتْ عَلَى الْعِبَادَةِ، فَما تَمَّتْ لَهَا سَنَةٌ حَتَّى زَارَهَا عُبّادُ الْبَصْرَةِ وَقُرَّاؤهَا وَعُلَمَاؤهَا لِعِظَم مَنْزِلَتِهَا. رابعة البصرية

وَأمَّا الّذي لَمْ تَسْبِقْ لَهُ الْعِنَايَةُ، وَلَمْ يُعَامَلْ بِالْفَضْلِ فَيُوكَلُ إلى نَفْسِه، فَرُبَّمَا يَبْقَى في شُعْبَةٍ مِنْ عَقَبَةٍ وَاحِدَةٍ سَبْعِينَ سَنَةٍ لاَ يَقْطَعُها، وَكَمْ يَصِيحُ وَيَصْرُخُ، مَا أظْلَمَ هٰذَا الطَّرِيقَ وَأشْكَلَهُ، وَأعْسَرَ هٰذَا الأمْرَ وَأعْضَلَهُ، فَإنَّ الشَّأنَ كُلَّهُ إلَى أصْلٍ وَاحِدٍ، وَذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، الْعَدْلِ الْحَكِيمِ.

فَإنْ قُلْتَ: لِمَ ٱخْتُصَّ هٰذَا بِالتَّوْفِيقِ الْخَاصِّ وَحُرِمَ هٰذَا، وَكِلاَهُمَا مُشْتَرِكَانِ في رِبْقَةِ الْعُبُودِيَّةِ؟.

فَعِنْدَ هٰذَا السُّؤالِ تُنَادَى مِنْ سُرَادِقات الْجَلاَلِ: أَنِ الْزَم ٱلأدَبَ، وَٱعْرِفْ سِرَّ الرُّبُوبِيَّةِ وَحَقِيقَةَ الْعُبُودِيَّةِ، فَإنَّهُ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

قُلْتُ أنَا: وَمِثَالُ هٰذَا الطَّرِيقِ في ٱلدُّنْيَا الصِّرَاطُ في الآخِرَةِ، في عَقَبَاتِهَا وَمَسَافَاتِها وَمَقَاطِعِها/، وَاخْتِلاَفِ أحْوَالِ الخلائق فِيهَا، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ عَلَيْهِ كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ عَلَيْهِ كَالرِّيحِ الْعَاصِفِ، وَآخَرُ كَالْفَرَسِ الْجَوَادِ وَآخَرُ كَالطَّائرِ، وَآخَرُ يَمْشِي، وَآخَرُ [٩٣/ب]

يَزْحَفُ حَتَّى يَصِيرَ فَحْمَةً، وَآخَرُ يَسْمَعُ حَسِيسَهَا، وَآخَرُ يُؤْخَذُ بِكَلَالِيبَ فَيُطْرَحَ في جَهَنَّمَ.

وَكَذٰلِكَ حَالُ هٰذَا الطَّرِيقِ مَعَ سَالِكِيهِ في ٱلدُّنْيَا، فَهُمَا صِرَاطَانِ: صِرَاطُ ٱلدُّنْيَا، وَصِرَاطُ الآخِرَةِ؛ فَصِرَاطُ الآخِرَةِ لِلأَنْفُسِ، يَرَى أَهْوَالَهَا أَهْلُ الأَبْصَارِ، وَصِرَاطُ ٱلدُّنْيَا لِلْقُلُوبِ ، يَرَى أَهْوَالَهَا ذَوُو الْبَصَائِرِ وَالأَلْبَابِ، وَإِنَّمَا ٱخْتَلَفَتِ الأَحْوَالُ لِلسَّالِكِينَ في الآخِرَةِ لِاخْتِلَافِ أَحْوَالِهِمْ في ٱلدُّنْيَا، فَتَأَمَّلْ ذٰلِكَ حَقَّهُ، فَهٰذِهِ هٰذِهِ.

فصل
في أن طريق الآخرة روحاني تسلكه القلوب

ثُمَّ ٱعْلَمْ مَا هُوَ التَّحْقِيقُ في هٰذَا الْبَابِ، وَهُو أَنّهُ لَيْسَ هٰذَا الطَّرِيقُ في طُولِهِ وَقصَرِهِ مِثْلَ المَسَافَاتِ المَكَانِيَّةِ التِي تَسْلُكُهَا الأَنْفُسُ، فتَقْطَعُهَا بِالأَقْدَامِ فيكون قَطْعُهَا عَلَى حَسَبِ قُوَّةِ ٱلأنفس وَضَعْفِهَا، إنَّما هُوَ طرِيقٌ رَوْحَانِيٌّ تَسْلُكُهُ الْقُلُوبُ، فتَقْطَعُهُ بِالأفْكَارِ عَلَى حَسَبِ الْعَقَائِدِ وَالْبَصَائِرِ، أَصْلُهُ نُورٌ سَمَاوِيٌّ وَنظَرٌ إلٰهِيٌّ، يَقَعُ في قَلْبِ الْعَبْدِ يَنْظُرُ نَظْرَةً فَيَرَى بِهَا أَمْرَ الدّارَيْنِ بِالْحَقِيقَةِ، ثُمَّ هٰذَا النُّورُ رُبّمَا يَطْلُبُهُ الْعَبْدُ مِائَةَ سَنَةٍ فَلاَ يَجِدُهُ وَلاَ أثَراً مِنْهُ، وَذٰلِكَ لِخَطئِهِ في الطَّلَبِ، وتَقْصِيرِهِ في ٱلِاجْتِهَادِ، وَجَهْلِهِ بِطَرِيقِ ذٰلِكَ، وَآخَرُ يَجِدُهُ فِي خَمْسِينَ وَآخَرُ فِي عَشْرٍ، وَآخَرُ فِي يَوْمٍ، وَآخَرُ فِي سَاعَةٍ وَلَحْظَةٍ بِعِنَايَةِ رَبِّ العالمين، وَهُوَ تَعَالَى وَلِيُّ الْهِدَايَةِ، لٰكِنِ الْعَبْدُ مَأْمُورٌ بِالاجْتِهَادِ، فَعَلَيْهِ بِمَا أُمِرَ، وَالأَمْرُ مَقْسُومٌ مَقْدُورٌ، والرَّبُّ حَكَمٌ عَدْلٌ، يَفْعَلُ مَا يَشَاء وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ.

فَإنْ قُلْتَ: فَمَا أعْظَمَ هٰذَا الْخَطَر وَأَشَدَّ هٰذَا الأمْر، وَأكْثَرَ مَا يَحْتَاجُ إلَيهِ هٰذَا الْعَبْدُ الضعِيفُ، فَكُلُّ هٰذَا الْعَمَلِ وَالْجُهْدِ وَتَحْصِيلِ هٰذِهِ الشَّرَائِطِ لِماذَا؟

فَأَقُولُ لَعَمْرِي: إِنَّكَ لَصَادِقٌ في قَوْلِكَ، إِنَّ الأَمْرَ شَدِيدٌ، وَالْخَطَرَ عَظِيمٌ، وَلِذَلِكَ قالَ تَعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ [البلد: ٤] وَقالَ تَعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وَلِذٰلِكَ قال سَيِّدُ المُرْسَلِينَ صَلَوَاتُ ٱللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ «لَوْ عَلِمْتُمْ مَا أَعْلَمُ لَبَكَيْتُمْ كَثِيراً/ وَلَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً»[1]. [٩٤/أ]

---

(١) ــ رواه البخاري عن عائشة (٤٣/٢) باب الصلاة في كسوف الشمس، بلفظ: (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله. . يا أمة محمد، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً).

ــ ورواه البخاري أيضاً في كتاب النكاح، باب الغيرة (٤٥/٧) عن عائشة أيضاً. ورواه في كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: لو تعلمون ما أعلم (١٢٧/٨) عن أبي هريرة.

ــ ورواه أيضاً مسلم في صحيحه، كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف (٦١٨/٢) عن عائشة ضمن حديث طويل فيه وصف لصلاة النبي ﷺ في كسوف الشمس.

ــ ورواه ابن ماجه في الزهد، باب الحزن والبكاء (١٤٢/٢) عن أنس بن مالك (الحديث رقم ٤١٩١) مقتصراً على ما لدينا.

ــ ورواه الدارمي عن أنس بن مالك أيضاً (٣٠٦/٢).

ــ وفي موطأ الإمام مالك (١٤٩/١) عن عائشة، يروي حديث الكسوف، وفي ختامه قوله ﷺ: «يا أمة محمد، والله لو تعلمون ما أعلم. . .».

ــ وفي مسند الإمام أحمد (٣٢٣/٢) ورد هذا الحديث عن أبي هريرة بلفظ: (والذي نفس محمد بيده، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً).

وَرُوِي أَنَّ المُنَادِي يُنَادِي مِنَ السَّمَاء: «لَيْتَ الْخَلائق لَمْ يُخْلَقُوا وَلَيْتهُمْ إذْ خُلِقُوا عَلِمُوا لِمَاذَا خُلِقُوا».

وَكَذٰلِكَ يَقُولُ السَّلَفُ رَضِيَ الله عَنْهُمْ، فَعَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ خَضْرَاء تَأْكُلُنِي الدَّوَابُّ مَخَافَةَ الْعَذَابِ.

وَعَنْ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّهُ سَمعَ إنْسَاناً يَقْرَأُ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان: ١] فقال لَيْتَهَا تَمَّتْ.

وَقالَ أَبُو عُبَيْدَةَ[1] رَضِيَ الله عَنْهُ: وَدِدْتُ أَنِّي كَبْشٌ، فَيَتفَرَّق لَحْمِي وَيَتَحَسَّى مَرَقِي وَلَمْ أُخْلَقْ.

وَعَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهِ رحمه الله: خُلِقَ ٱبْنُ آدَمَ أَحْمَقَ، وَلَوْلاَ حَمْقُهُ مَا هَنَاهُ عَيْشٌ.

وَعَنِ الفُضَيْلِ: إنِّي لاَ أَغْبِطُ مَلِكاً مُقَرَّباً وَلاَ نَبِيّاً مُرْسَلاً وَلاَ عَبْداً صَالِحاً، أَلَيْسَ هٰؤلاَء يُعَاتَبُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ إنّما أَغْبِطُ مَنْ لَمْ يُخْلَقْ.

وَعَنْ عَطَاء السُّلَمِيِّ[2]: لَوْ أَنَّ نَاراً أُجِّجَت وَقِيلَ: مَنْ أَلْقَى نَفْسَهُ

---

(١) صحابي جليل، وقائد إسلامي مشهور، واسمه عامر بن عبد الله بن الجراح القرشي الفهري المكي. أحد السابقين الأولين، ومن عزم الصديق على توليته الخلافة. شهد له النبي بالجنّة، وَسمَّاه أمين الأمة، ومناقبه شهيرة جمّة. روى أحاديث معدودة وغزا غزوات مشهورة. وكان أبو عبيدة موصوفاً بحسن الخلق وبالحلم الزائد وبالتواضع. وقد توفي أبو عبيدة سنة سبع عشرة للهجرة. سير أعلام النبلاء ١/ ٥.

(٢) والأصح السليمي، وهذا القول ورد في الحلية (٦/ ٢١٥).

فِيهَا صَارَ لاَ شَيْء، لَخَشِيتُ أنْ أَمُوتَ مِنَ الْفَرَحِ قَبْلَ أَنْ أَصِلَ إلى النَّارِ.

فَالأَمْرُ إِذَنْ أَيُّهَا الرَّجُلُ شَدِيدٌ كَمَا تَقُولُ، بَلْ هُوَ أَشَدُّ وَأَعْظَمُ مِمَّا تَظُنُّ وَتَتَوَهَّمُ، وَلٰكِنَّهُ أَمْرٌ سَبَقَ فِي الْعِلْمِ الْقَدِيمِ، وَتَدْبِيرٌ أَجْرَاهُ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ، وَلاَ حِيلَةَ لِلْعَبْدِ إلاَّ بَذْلَ الْمَجْهُودِ فِي الْعُبُودِيَّةِ، وَالاِعْتِصَامَ بِحَبْلِ الله، وَالاِبْتِهَالَ دَائماً إلى الله تعالى، عَسَى أَنْ يَرْحَمَهُ فيسلِمه بفَضْلِه.

وَأَمَّا قَوْلُكَ: كُلُّ هٰذَا لِمَاذَا؟

فَهٰذَا كَلاَمٌ يَدُلُّ مِنْكَ عَلَى غَفْلَةٍ عَظِيمَةٍ، بَلِ الصَّوَابُ أنْ تَقُولَ: كُلُّ هٰذَا فِي جَنْبِ مَا يَطْلُبُهُ الْعَبْدُ الضَّعِيفُ مَاذَا[1]؟ أَتَدْرِي مَا يَطْلُبُ الْعَبْدُ الضَّعِيفُ؟

مطلب العبد

أَقَلُّ مَا يَطْلُبُهُ عَلَى الْجُمْلَةِ شَيْئَانِ، أَحَدُهُمَا: السَّلاَمَةُ فِي الدَّارَيْنِ، وَالثَّانِي: الْمُلْكُ فِي الدَّارَيْنِ.

أَمَّا السَّلاَمَةُ فَإن الدُّنْيا وَفِتْنَتَهَا وَغَوَائِلَهَا[2]، بِحَيْثُ لَمْ يَسْلَمْ مِنْهَا الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ، فَقَدْ سَمِعْتَ حَدِيثَ هارُوت وَمَارُوت[3]،

---

(١) أي: أي شيء هو؟

(٢) أي: أن الدنيا مخلوقة هي وفتنتها وغوائلها، فإذا طلبت الدنيا أخذتها مع ما فيها وما معها.

(٣) هاروت وماروت: من الملائكة العابدين الصالحين. انظر خبرهما في كتب التفسير، تفسير سورة البقرة الآية ١٠٢ (وعلى الأخص في تفسير الخازن).

حَتَّى رُوِي أَنَّهُ إِذَا عُرِجَ بِرُوحِ الْعَبْدِ إلى السَّمَاء، تَقُولُ مَلاَئِكَةُ السَّمٰوَاتِ مُتَعَجِّبِينَ: كَيْفَ نَجَا هٰذَا مِنْ دَارٍ فَسَدَ فِيهَا خِيَارُنَا؟ وَأَنَّ الآخِرَةَ في أَهْوَالِهَا وَشَدَائِدِها، بِحَيْثُ تَصْرُخُ فِيهَا الأَنْبِياءُ وَالرُّسُلُ: نَفْسِي نَفْسِي، لاَ أَسْأَلُكَ الْيَوْمَ إلاَّ نَفْسِي. حَتى رُوِي إنَّهُ: لَوْ كَانَ لِرَجُلٍ عَمَلُ سَبْعِينَ نَبِيّاً، لَظَنَّ أَنَّهُ لَنْ يَنْجُو. فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْلَمَ مِنْ فِتَنِ هٰذِهِ، فَيَخْرُجَ مِنْها بِالإِسْلاَمِ سَالِماً، لاَ تُصِيبُهُ فِتْنَةٌ مِنْ أَهْوَالِ هذِهِ/ فَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ سَالِماً، لا تُصِيبُهُ نَكْبَةٌ، أَيَكُونُ ذٰلِكَ أَمْراً هَيِّناً؟ [٩٤/ب]

وَأَمَّا الْمُلْكُ وَالْكَرَامَةُ، فَإِنَّ الْمُلْكَ نَفَاذُ التَّصرُّفِ وَالْمَشِيئَةِ، وَإِنَّ ذٰلِكَ بِالْحَقِيقَةِ في الدُّنْيا لأَوْلِيَاء الله عَزَّ وَجَلَّ وَأَصْفِيَائِهِ، الرَّاضِينَ بِقَضَائِهِ، الْبَرُّ وَالْبَحْرُ وَالأَرْضُ لَهُمْ قَدَمٌ، وَالْحَجَرُ وَالْمَدَرُ لَهُمْ ذَهَبٌ وَفِضَّةٌ، وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ، وَالْبَهَائِمُ والطُّيُور لَهُمْ مسَخَّرُونَ، لاَ يَشَاءُونَ شَيْئاً إلاَّ وَهُو كَائِنٌ، لأَنَّهُمْ لاَ يَشَاءونَ إلاَّ مَا شَاء الله، وَمَا شَاء الله كَانَ، وَلاَ يَهَابُونَ أَحداً مِنَ الْخَلْقِ، وَيَهَابُهُمْ كُل الْخَلْقِ، وَلاَ يَخْدِمُونَ أَحداً إلاَّ الله وَيَخْدُمُهُمْ كُلُّ مَنْ دُونِ الله، وَأَيْنَ لِمُلُوكِ الدُّنْيَا بِعُشْرِ مِعْشَارِ هٰذِهِ الرُّتْبَةِ، بَلْ هُمْ أَقَلُّ وَأَذَلُّ، وَأَمَّا مُلْكُ الآخِرَةِ فَيَقُولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠﴾ [الإنسان: ٢٠] وَأَعْظِمْ بما يَقُولُ رَبّ العِزَّةِ إنَّهُ مُلْكٌ كَبِيرٌ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا قَلِيلَةٌ، وَأَنّ بقَاءَهَا مِنْ أَوَّلِهَا إلى آخِرِهَا قَلِيلٌ، وَنَصِيبَ أَحَدِنَا مِنْ هٰذَا الْقَلِيلِ قَلِيلٌ، ثُمَّ الْوَاحِدُ مِنَّا قَدْ يَبْذُلُ مَالَهُ وَرُوحَهُ حَتَّى يَظْفَرَ بِقَدْرٍ قَلِيلٍ مِنْ هٰذَا الْقَلِيلِ في بقَاء قَلِيل، وَإِنْ حَصَلَ لَهُ ذٰلِكَ فَيُعْذَرُ بَلْ يُغْبَطُ، وَلاَ يَسْتَكْثِرُ مَا بَذَلَ فِيهِ مِنَ المَالِ وَالنفْسِ، نَحْوَ مَا ذُكِرَ عَنِ آمْرِىءٍ

الْقَيْس[1] حَيْثُ يَقُولُ: [الطويل]:

بَكَى صَاحِبِي لَمَّا رَأَى الدَّرْب دُونَهُ ... وأيقــن أنَّــا لاَحِقَــانِ بِقَيْصَــرَا

فَقُلْــتُ لَــهُ لاَ تَبْــكِ عَيْنُــكَ إِنَّمَــا ... نُحَــاوِلُ مُلْكــاً أَوْ نَمُــوتَ فَنُعْــذَرَا

فَكَيْفَ حَالُ مَنْ يَطْلُبُ الْمُلْكَ الْكَبِيرَ فِي دَارِ النَّعِيمِ الْخَالِدِ الْمُقِيمِ؟ أَيَسْتَكْثِرُ مَعَ ذٰلِكَ أَنْ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ لله تَعالى، أَوْ يُنْفِقَ دِرْهَمَيْنِ، أَوْ يَسْهَرَ لَيْلَتَيْنِ؟ كَلاَّ، بَلْ لَوْ كَانَ لَهُ أَلْفُ أَلْفِ نَفْس، وَأَلْف أَلْفِ رُوحٍ، وَأَلْفُ أَلْفِ عُمْرٍ، كُلُّ عُمْرٍ مِثْلُ عُمْرِ الدُّنْيَا وَأَكْثَرَ، فَبَذَلَ ذٰلِكَ كُلَّه فِي هٰذَا المَطْلُوبِ الْعَزِيزِ، لَكَانَ ذٰلِكَ قَلِيلاً، وَلَئِنْ ظَفِرَ بَعْدَهُ بِما طَلَبَ، كَانَ ذٰلِكَ غُنْماً عَظِيماً، وَفَضْلاً مِن الَّذِي أَعْطَاهُ كَبِيراً، فَتَنَبَّهْ أَيُّها الْمِسْكِينُ مِن رَقْدَةِ الْغَافِلِينَ.

ثُمَّ إِنِّي تَأَمَّلْتُ مَا يُعْطِي ٱلله تعالى الْعَبْدَ إِذَا أَطَاعَهُ، وَلَزِمَ خِدْمَتَهُ، وَسَلَكَ هٰذِهِ الطَّرِيقَ عُمْرَهُ، فَوَجَدْتُهَا عَلَى الْجُمْلَة أَرْبَعِينَ

(١) امـرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، أشهر شعراء العرب على الاطلاق، اشتهر بلقبه، وكان أبوه ملك أسد وغطفان، وأمه أخت المهلهل الشاعر. وقد ثار بنو أسد على أبيه فقتلوه، فخرج طالباً ثأر أبيه، وقال في ذلك شعراً كثيراً. وقد مات في أنقرة على أثر قروح ظهرت في جسمه عندما كان هناك يطلب مساعدة قيصر الروم في القسطنطينية. وقد جمع ما نُسِبَ إليه من شعر في ديوان صغير طبع بتحقيق عبد السلام هارون. وتوجد دراسات عديدة تناولت حياته وشعره.

انظر ترجمته وأخباره في:

الأغاني (طبعة دار الكتب ٩/ ٧٧، تهذيب ابن عساكر ٣/ ١٠٤ الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣١، خزانة الأدب للبغدادي ١/ ١٦٠، دائرة المعارف الإسلامية ٢/ ٦٢٢.

كَرَامَةً وَخِلْعَةً، عِشْرونَ مِنْهَا/ في الدُّنْيَا، وَعِشْرونَ في الْعُقْبَى. [٩٥/أ]

أمَّا الَّتي في الدُّنْيا:

كرامات الأولياء في الدنيا

فَالْأُولى: أنْ يَذْكُرَهُ ٱللهُ سُبْحَانَهُ وَيُثْنِي عَلَيْهِ، وَأَكْرِمْ بِعَبْدٍ يَكُونُ رَبُّ الْعَالَمِينَ في ذِكْرِهِ وَثَنَائِهِ.

وَالثَّانِيَةُ: أنْ يَشْكُرَهُ جَلَّ جَلاَلُهُ وَيُعَظِّمَهُ، وَلَوْ شَكَرَكَ مَخْلُوقٌ ضَعِيفٌ مِثْلُكَ وَعَظَّمَكَ، لَشَرُفْتَ بِهِ، فَكَيْفَ بِإِلَهِ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ؟

وَالثالِثَةُ: أنْ يُحِبَّهُ، وَلَوْ أَحَبَّكَ رَئِيسُ مَحَلَّةٍ، أوْ أَمِيرُ بَلْدَةٍ، لَافْتَخَرْتَ بِذٰلِكَ، وَٱنْتَفَعْتَ بِهِ في مَوَاطِنَ عَزِيزَةٍ، فَكَيْفَ بِمَحَبَّةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؟

الرَّابِعَةُ: أنْ يَكُونَ لَهُ وَكِيلاً يُدَبِّرُ أُمُورَه.

الْخَامِسَةُ: أنْ يَكُونَ لِرِزْقِهِ كَفِيلاً يُوَجِّهُهُ إِلَيْهِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ أوَ زوَالٍ.

السَّادِسَةُ: أنْ يَكُونَ لَهُ نَصِيراً يَكْفِيهِ كُلَّ عَدُوٍّ، وَيَدْفَعُ عَنْهُ كُلَّ قاصِدٍ بِسُوءٍ.

السَّابِعَةُ: أنْ يَكُونَ لَهُ أنِيساً، لاَ يَسْتَوْحِشُ بِحَالٍ، وَلاَ يَخَافُ التَّغْيِيرَ وَالاِسْتِبْدَالَ.

الثَّامِنَةُ: عِزُّ النَّفْسِ، فَلاَ يَلْحَقَهُ ذُلُ خِدْمَةِ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا، بَلْ لاَ يَرْضَى أنْ تَخْدُمَهُ مُلُوكُ الدُّنْيا وَجَبَابِرَتُهَا.

التَّاسِعَةُ: رَفْعُ الْهِمَّةِ، فَيَتَرَفَّعُ عَنِ التَّلَطُّخِ بمقاذر الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا

وَلاَ يَلْتَفِتُ إلى زَخَارِفِهَا وَمَلاَهِيهَا، تَرَفُّعِ الرِّجَالِ الأولياء عَنْ مَلاَعِبِ الصِّبْيَانِ والنِّسْوَانِ.

العَاشِرَةُ: غِنَى القَلْبِ، فَيَكُونُ أغْنَى كُلِّ غَنِيٍّ في الدُّنْيَا، لاَ يَزَالُ طَيِّبَ النَّفْسِ، فَسِيحَ الصَّدْرِ، لاَ يَفْزَعُهُ حَدَثٌ وَلاَ يَهُمُّهُ عُدْمٌ.

الإِحْدَى عَشَرَةَ: نُورُ القَلْبِ، فَيَهْتَدِي بِنُورِ قَلْبِهِ إلى عُلُومِ وَأَسْرَارِ وَحِكَمٍ، لاَ يَهْتَدِي إلى بَعْضِهَا غَيْرُهُ إلاَّ بِجُهْدٍ جَهِيدٍ، وَعُمْرٍ مَدِيدٍ.

الثَّانِيَةَ عَشَرَةَ: شَرْحُ الصَّدْرِ، فَلاَ يَضِيقُ ذَرْعاً بِشَيء مِنْ مِحَنِ الدُّنْيَا وَمَصَائِبِهَا، وَمُؤَنِ النَّاسِ وَمَكَايِدِهِمْ.

الثَّالِثَةَ عَشَرَةَ: المَهَابَةُ وَالمَوْقِعُ في النُّفُوس، يَحْتَرِمُهُ الأَخْيَارُ وَالأَشْرَارُ، وَيَهَابُهُ كُلُّ فِرْعَوْنَ وَجَبَّارٍ.

الرَّابِعَةَ عَشَرَةَ: المَحَبَّةُ في القُلُوبِ، يَجْعَلُ لَهُ الرَّحْمٰنُ وُدّاً، فَتَرَى القُلُوبَ كُلَّهَا مَجْبُولَةً عَلَى حُبِّهِ، وَالنُّفُوسَ كُلَّهَا بِأَجْمَعِهَا مَطْبُوعَةً عَلَى تَعْظِيمِهِ وَإِكْرَامِهِ.

الْخَامِسَةَ عَشَرَةَ: الْبَرَكَةُ الْعَامَّةُ في كُلِّ شَيْءٍ، مِنْ كَلاَمٍ أَوْ نَفسٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ ثَوْبٍ[1] أَوْ مَكَانٍ[2] حَتَّى يَتَبَرَّكَ بِتُرَابِ وَطِئَهُ، وَبِمَكَانٍ جَلَسَ فِيهِ يَوْماً، وَإِنْسَانٍ رَآهُ وَصحِبَهُ حِيناً.

السَّادِسَةَ عَشَرَةَ: تَسْخِيرُ الأَرْضِ مِنَ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، حَتَّى إنْ شَاء

---

(١) ثاب ثوباً: رَجَعَ، أي فعل فعلاً أو رَجَعَ عن فعلٍ.
(٢) مكان: أي مكان حَلَّ فيه أو وطئه.

سَارَ فِي الْهَوَاءِ أَوْ مَشَى عَلَى المَاءِ، أَوْ قَطَعَ وَجْهَ الأَرْضِ/ بِأَقَلَّ مِنْ [٩٥/ب] سَاعَةٍ.

السَّابِعَةَ عَشَرَةَ: تَسْخِيرُ الْحَيَوانِ مِنَ السِّبَاعِ وَالْوُحُوشِ، وَالْهَوَامِّ وَغَيْرِهَا فَتُجِيبُهُ الْوُحُوشُ وَتُبَصْبِصُ لَهُ الأُسُودُ.

الثَّامِنَةَ عَشَرَةَ: مِلْكُ مَفَاتِيحِ الأَرْضِ، فَحَيثما يَضْرِبُ يَدهُ فَلَهُ كَنْزٌ إنْ أَرَادَ، وَحَيْثُمَا يَضْرِبُ رِجْلَهُ فَلَهُ عَيْنُ مَاء إن ٱحْتَاجَ، وَأَيْنَما نَزَلَ فَلَهُ مَائِدَةٌ تَحْضُرُهُ إنْ قَصَدَ.

التَّاسِعَةَ عَشَرَةَ: الْقِيَادَةُ وَالْوَجَاهَةُ عَلَى بَابِ رَبِّ الْعِزَّةِ، فَيَبْتَغِي الْخَلْقُ الْوَسِيلَةَ إلى ٱللهِ تَعَالى بِخِدْمَتِهِ، وَتُسْتَنْجَحُ الْحَاجَاتُ إلى ٱللهِ بِوَجَاهَتِهِ وَبَرَكَتِهِ.

الْعِشْرُونَ: إجَابَةُ الدَّعْوَةِ مِنَ اللهِ، وَلاَ يَسأَلُ اللَّهَ تَعَالى شَيْئاً إلاَّ أَعْطَاهُ، وَلاَ يَشْفَعُ لأَحدٍ إلاَّ شُفِّعَ، وَلَوْ أَقْسَمَ عَلَى ٱللهِ تَعَالى لأَبَرَّهُ بِمَا شَاءَ، حَتَّى أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَوْ أَشَارَ إلَى جَبَلٍ لَزَال، فَلاَ يَحْتَاجُ إلَى السُّؤَالِ بِاللِّسَانِ، وَلَوْ خَطَرَ بِبَالِهِ شَيْءٌ لَحَضَرَ، وَلاَ يَحْتَاجُ إلى الإِشَارَةِ بِالْيَدِ، فَهٰذِهِ كَرَامَاتٌ فِي الدُّنْيَا.

كرامات الأولياء في العقبى

وَأَمَّا الَّتي في الْعُقْبَى:

فَالإِحدى وَالْعِشْرُونَ: أنْ يُهَوِّنَ عَلَيْهِ أَوَّلاً سَكَرَاتِ المَوْتِ، وَهِيَ الَّتِي وَجِلَتْ قُلُوبُ الأَنْبِيَاءِ منها، حَتَّى سَأَلُوا ٱللهَ أنْ يُهَوِّنَهَا عَلَيْهِمْ حَتَّى أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَكُونَ المَوْتُ عِنْدَهُ مِثْلَ شُرْبَةِ المَاءِ الزُّلَالِ لِلظَّمآنِ، قالَ ٱللهُ تَعَالى : ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾ [النحل: ٣٢].

وَالثَّانِيَةُ وَالْعِشْرُونَ: التثبيتُ عَلَى المَعْرِفَةِ وَالإِيْمَانِ، وَهُوَ الَّذِي منهُ الْخَوْفُ وَالفزَعُ، وَعَلَيْهِ كُلُّ البُكَاءِ وَالْجزَعِ، قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وَالثَّالثَةُ وَالْعِشْرُونَ: إرْسَالُ الرَّوْحِ وَالرَّيْحَانِ بِالبُشْرَى وَالأَمَانِ، قَوْلُهُ: ﴿ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [فصّلت: ٣٠] فَلاَ يَخَافُ مِمّا تَقَدَّمَ عَلَيْهِ في الْعُقْبَى، وَلاَ يَحْزَنُ عَلَى مَا خَلَّفَهُ في الدُّنْيَا.

وَالرَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ: الْخُلُودُ في ٱلْجِنَانِ، وَمُجَاوِرَة الرَّحمٰن.

وَالْخَامِسَةُ وَالْعِشْرُونَ: الحياة في السِّر لِرُوحِهِ، فَيَعْرُجُ عَلَى مَلاَئِكَةِ السَّمٰوَاتِ بِالْإِكْرَامِ وَالْإِلْطَافِ وَالْإِنْعَامِ، وَلِبَدَنِهِ في الْعَلاَنِيَة، بِتَعْظِيمِ جَنَازَتِهِ، وَالمُزَاحَمَةِ عَلَى الصَّلاَةِ عَلَيْهِ، وَالمُبَادَرَةِ إِلَى تَجْهِيزِهِ، يَرْجُونَ ذٰلِكَ أَكْبَرَ ثَوَابٍ وَيَعُدُّونَهُ أَعْظَمَ غُنْمٍ.

[٩٦/أ] وَالسَّادِسَةُ وَالْعِشْرُونَ: الأَمَانُ مِنْ فِتْنَة سُؤَالِ/ الْقَبْرِ وَتَلْقِينِ الصَّوَابِ، فَيَأْمَن مِنْ ذٰلِكَ الْهَوْلِ.

وَالسَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ: تَوْسِيعُ الْقَبْرِ وَتَنْوِيرُهُ، فَيَكُونُ في رَوْضَةٍ مِن رِيَاض الْجَنَّةِ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

الثّامنَةُ وَالْعِشْرُونَ: إِينَاسُ رُوحِهِ وَنَسَمَتِهِ وَإِكْرَامُهَا، فَتُجْعَلُ في أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضْرٍ مَعَ الإِخْوَانِ الصالِحِينَ، فَرِحِينَ مُسْتَبْشِرِينَ بِمَا آتَاهُمُ ٱللهُ مِنْ فَضْلِهِ.

وَالتاسِعَةُ وَالْعِشْرُونَ: الْحَشْرُ وَالْعِزُّ وَالْكَرَامَةُ، مِنْ حُلَلٍ وَتَاجٍ وَبُرَاقٍ.

وَالثَّلاَثُونَ: بَيَاضُ الْوَجْهِ وَنُورُهُ، قالَ ٱللهُ تَعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٣] وَقَالَ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ [عبس: ٣٩].

وَالْحَادِيَةُ وَالثَّلاَثُونَ: الأمْنُ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ القِيَامَةِ، قالَ الله تَعالى: ﴿أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [فصّلت: ٤٠].

وَالثَّانِيَةُ وَالثَّلاَثُونَ: الْكِتَابُ بِالْيَمِينِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كُفِيَ الْكِتَابَ رَأْساً.

وَالثَّالِثَةُ وَالثَّلاَثُونَ: تَيْسِيرُ الْحِسَابِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لاَ يحَاسَبُ أصْلاً.

وَالرَّابِعَةُ وَالثَّلاَثُونَ: ثِقَلُ الْمِيزَانِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لاَ يُوقَفُ لِلْوَزْنِ أصْلاً.

وَالْخَامِسَةُ وَالثَّلاَثُونَ: وُرُودُ الْحَوْضِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَيَشْرَبُ شَرْبَةً لاَ يَظْمَأُ بَعْدَهَا أبداً.

وَالسَّادِسَةُ وَالثَّلاَثُونَ: جَوَازُ الصِّرَاطِ وَالنَّجاةُ مِنَ النَّارِ، حَتَّى إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ لاَ يَسْمَعُ حَسِيسَهَا،وَتُخْمَدُ له النَّارُ.

وَالسَّابِعَةُ وَالثَّلاَثُونَ: الشَّفَاعَةُ في عَرصَاتِ الْقِيامَةِ نَحْواً مِنْ شَفَاعَةِ الأَنْبِيَاءِ وَالمرسلين.

وَالثَّامِنَةُ وَالثَّلاَثُونَ: مِلْكُ الأَبَد في الجَنَّةِ.

وَالتَّاسِعَةُ وَالثَّلاثُونَ: الرِّضْوَانُ الأَكْبَرُ.

وَالأَرْبَعُونَ: لِقَاءُ رَبِّ العَالَمِينَ، إِلٰهِ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، بِلاَ كَيْفٍ، جَلَّ جَلالُهُ.

ثُمَّ أَقُولُ: وَإِنَّمَا عَدَدْتُ ذٰلِكَ عَلَى حَسَبِ فَهْمِي وَمَبْلَغِ عِلْمِي وَقُصُورِهِ وَنَقْصِهِ؛ وَمَعَ ذٰلِكَ فَقَدْ أَجْمَلْتُ وَأَوْجَزْتُ، وَذَكَرْتُ مِن الأُصُولِ وَالجُمَلِ، وَلَوْ فَصَّلْتُ ذٰلِكَ لَمَا ٱحْتَمَلَهُ الْكِتَابُ. أَلاَ تَرَى أَنِّي جَعَلْتُ مُلْكَ الأَبَدِ خِلْعَةً وَاحِدَةً، وَلَوْ فَصَّلْتُهَا لَارْتَفَعَتْ عَلَى أَرْبَعِينَ خِلْعَةً مِنْ نَوعِ الحُورِ وَالقُصُورِ وَاللِّبَاسِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ؛ ثُمَّ كُلُّ نَوعٍ يَشْتَمِلُ عَلَى تَفَاصِيلَ لاَ يُحِيطُ بِهَا إِلاَّ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، الَّذِي هُوَ خَالِقُهَا وَمَالِكُهَا، وَأَيُّ مَطْمَعٍ لَنَا فِي مَعْرِفَةِ ذٰلِكَ، واللَّهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، [٩٦/ب] ثُمَّ يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خلَقَ/ فِيهَا مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[١] وَإِنَّ المُفَسِّرِينَ يَقُولُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف: ١٠٩] إِنَّ هٰذِهِ هِيَ الكَلِمَاتُ الَّتِي يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَهْلِ الجَنَّةِ فِي الجَنَّةِ بِاللُّطْفِ وَالإِكْرَامِ؛ وَمَن تَكُونُ حَالُهُ هٰذِهِ، فَأَنَّى يَبْلُغُ جُزْءاً مِن أَلْفِ أَلْفِ جُزْءٍ وَهْمُ بَشَرٍ، وَيُحِيطُ بِهِ عِلْمُ مَخْلُوقٍ؟

---

(١) ــ رواه مسلم (٤/ ٢١٧٥): كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها. (الحديث رقم ٢٨٢٥) عن سهل بن سعد الساعدي بلفظ: (شهدت من رسول الله ﷺ مجلساً وصف فيه الجنة، حتى انتهى. ثم قال ﷺ: «فيها ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

كَلَّا بَلْ تَقَاعَدَتِ الْهِمَمُ، وَتَقَاصَرَتْ دُونَهُ الْعُقُولُ، وَحقَّ أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ، وَهُوَ عَطَاءُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، عَلَى مُقْتَضَى الْفَضْلِ الْعَظِيمِ، وَحَسَبِ الْجُودِ الْقَدِيمِ. أَلَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ وَلْيَبْذُلِ الْمُجْتَهِدُونَ جُهْدَهُمْ لِهٰذَا الْمَطْلُوبِ الْعَظِيمِ، وَلْيَعْلَمُوا أَنَّ ذٰلِكَ كُلَّه أَقَلُّ قَلِيلٍ فِي جَنْبِ مَا هُمْ إِلَيْهِ مُحْتَاجُونَ، وَإِيَّاهُ يَطْلُبُونَ، وَلَهُ يَتَعَرَّضُونَ.

وَلْيَعْلَمُوا أَنَّ الْعَبْدَ لَا بُدَّ لَهُ فِي الْجُمْلَةِ مِنْ أَرْبَعَةٍ: الْعِلْمُ، وَالْعَمَلُ، وَالإِخْلَاصُ، وَالْخَوْفُ، فَلْيَعْلَمْ أَوَّلًا الطَّرِيقَ، وَإِلَّا فَهُوَ أَعْمَى؛ ثُمَّ يَعْمَلُ بِالْعِلْمِ وَإِلَّا فَهُوَ مَحْجُوبٌ؛ ثُمَّ يُخْلِصُ الْعَمَلَ وَإِلَّا فَهُوَ مَغْبُونٌ، ثُمَّ لَا يَزَالُ يَخَافُ وَيَحْذَرُ مِنَ الآفاتِ إِلى أَنْ يَجِدَ الأَمَانَ، وَإِلَّا فَهُوَ مَغْرُورٌ.

وَلَقَدْ صَدَقَ ذُو النونِ رحمه الله حَيْثُ قالَ: الْخَلْقُ كُلُّهُمْ مَوْتَى إِلَّا الْعُلَمَاءَ، وَالْعُلَمَاءُ كُلهُمْ نِيَامٌ إِلَّا الْعَامِلِينَ، وَالْعَامِلُونَ كُلُّهُمْ مُغْتَرُّونَ إِلَّا الْمُخْلِصينَ، وَالمُخْلِصونَ عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ.

قُلْتُ أَنَا: وَالْعَجَبُ كُلَّ الْعَجَبِ مِنْ أَرْبَعَةٍ:

أحدُهَا: مِنْ عَامِلٍ غَيْرِ عَالِمٍ؛ أَمَا يَهْتَمُّ بِمَعْرِفَةِ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ؟ أَمَا يَتَعَرَّفُ مَا هُوَ مُطَّلِعٌ بَعْدَ الْمَوْتِ عَلَيْهِ بِالنَّظَرِ فِي هٰذِهِ ٱلدَّلَائِلِ وَالْعِبَرِ وَالاسْتِمَاعِ إِلَى هٰذِهِ الآيَاتِ وَالنُّذُرِ وَالانْزِعَاجِ لِهٰذِهِ الْخَوَاطِرِ وَالهَوَاجِسِ فِي النَّفْسِ؟ قَالَ ٱللَّهُ تَعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٥] وَقَالَ تَعالى: ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ ﴾ [المطففين: ٥].

وَالثَّانِي: مِنْ عَالِمٍ غَيْرِ عَامِلٍ؛ أَمَا يتذكَّر مَا يَعْلَمُ يَقِيناً مِمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الأَهْوَالِ الْعِظَامِ وَالْعَقَبَاتِ الصِّعَابِ، وَهٰذَا هُوَ النَّبَأُ الْعَظِيمُ الَّذِي أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ؟

وَالثَّالِثُ: مِنْ عَامِلٍ غَيْرِ مُخْلِصٍ، أَمَا يَتَأَمَّلُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]. [٩٧/أ]

وَالرَّابعُ: مِنْ مُخْلِصٍ غَيْرِ خَائِفٍ، أَمَا يَنْظُرُ إِلَى مُعَامَلَاتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ مَعَ أَصْفِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ وَخَدَمِهِ، الدَّالَّة بَيْنَه وَبَيْنَ خَلْقِهِ، حَتَّى يَقُولَ لِأَكْرَمِ الْخَلْقِ محمد ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ [الزُّمر: ٦٥] وَنَحْوَهَا. حَتَّى حُكِيَ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصلاة والسَّلَامُ يَقُولُ: «شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا»[(١)].

ثُمَّ جُمْلَةُ الأَمْرِ وَتَفْصِيلُهُ، مَا قَالَهُ رَبُّ الْعَالَمِيْنَ فِي أَرْبَعِ آيَاتٍ مِنَ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥] ثُمَّ قَالَ عزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الحشر: ١٨]. ثُمَّ قَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ثُمَّ أَجْمَلَ الكُلَّ فَقَالَ وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [العنكبوت: ٦].

---

(١) ـ راجع تخريج هذا الحديث الذي ورد سابقاً ص ٣١٦ حاشية (١).

وَنَحْنُ نَسْتَغْفِرُ ٱللَّهَ مِنْ كُلِّ مَا زَلَّ بِهِ الْقَدَمُ، أَوْ أطْغَى بِهِ الْقَلَمُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ مِنْ أَقَاوِيلِنَا الَّتِي لاَ تُوَافِقُ أَعْمَالَنَا، وَنَسْتَغْفِرُهُ مِمَّا ٱدَّعَيْنَاهُ وَأَظْهَرْنَاهُ مِنَ الْعِلْمِ بِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى، مَعَ التَّقْصِيرِ فِيهِ، وَنَسْتَغْفِرُهُ مِنْ كلِّ خَطْرَةٍ دَعَتْنَا إِلَى تَصنُّعٍ وَتَزَيُّنٍ، في كِتابٍ سَطَّرْنَاهُ أَوْ كَلاَمٍ نَظَّمْنَاهُ، أَوْ عِلْمٍ أفَدْنَاهُ؛ وَنَسْأَلُهُ أَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مَعْشَرَ الإِخْوَانِ، بِمَا عَلِمْنَاهُ عَامِلِينَ، وَلِوَجْهِهِ بِهِ مُرِيدِينَ، وَأَنْ لاَ يَجْعَلَهُ وَبَالاً عَلَيْنَا، وَأَنْ يَضَعَهُ فِي مِيزَانِ الصَّالِحَاتِ إِذَا رُدَّتْ أَعْمَالُنَا إِلَيْنَا، إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.

فَهٰذَا مَا أَردنا أَنْ نَذْكُرَهُ فِي شَرْحِ كَيْفِيَّةِ سُلُوكِ طَرِيقِ الآخِرَةِ، وَقَد وَفَّيْنَا بِالْمَقْصُودِ؛ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى خَيْرِ مَوْلُودٍ دَعَا إِلَى أَفْضَلِ مَعْبُودٍ، مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عليهِ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسليماً كَثِيراً.

تمّ كتاب «منهاج العابدين» بحمد الله تعالى وعونه، وحسن توفيقه.



الفهارس العامة

١ ـ فهرس الأحاديث.

٢ ـ فهرس الأعلام.

٣ ـ فهرس أسماء الكتب الواردة في «منهاج العابدين».

٤ ـ فهرس القوافي والأشعار.

٥ ـ أهم مصادر التحقيق.

٦ ـ محتوى الكتاب.



١ ــ فهرس الأحاديث

---

(١) وضع الرقم بين قوسين يعني أن المفهرس له موجود في الحاشية.



٢ ـ فهرس الأعلام

— ب —

— ث —

— ج —

— ح —

٣ ــ فهرس أسماء الكتب
الواردة في «منهاج العابدين»

❑ ❑ ❑

٤ ــ فهرس القوافي والأشعار

القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
الملامَة	مجزوء الكامل	ـــ	٣٠٣
عمى	الكامل	الغزالي	٤٠٩
		قافية النون	
فيفتننا	البسيط	زين العابدين	٥٦
شيطاناً	البسيط	ـــ	٢٢٣
مجانَه	الوافر	ذو النون	٢٣٣
آمنا	الطويل	علي بن أبـي طالب	٢٨٠
محزون	الكامل	ـــ	٢٩٩
تكونُ	الخفيف	ـــ	٢٩٩
		قافية الهاء	
قتلِهِ	المتقارب	ابن المبارك	١٧٢
المكروهِ	الخفيف	ـــ	٢٥٧
		قافية الواو	
يكونْ	مجزوء البسيط	ـــ	٢٧٤
لو	الكامل	ـــ	٢٩٩
		قافية الياء	
راضياً	الطويل	ـــ	١٤٥
منيّه	الوافر	ـــ	٢٥٨

❑ ❑ ❑

٥ ـــ أهم مصادر التحقيق

١ ـــ ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج، **صفة الصفوة**، دار المعرفة ـ بيروت ط ٣ ـ ١٩٨٥ م.

٢ ـــ ابن الجوزي: **زاد المسير في علم التفسير**، المكتب الإسلامي، ط ١، ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٤ م.

٣ ـــ ابن الجوزي: **الموضوعات**، المدينة المنورة، ط ١، ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٦ م.

٤ ـــ ابن الجزري: شمس الدين أبي الخير محمد بن محمد بن الجزري، **غاية النهاية في طبقات القراء**، ط ١، ١٣٥٢ هـ ـ ١٩٣٣ م.

٥ ـــ ابن حجر: العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي، **لسان الميزان**، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت، ط ، ١٩٧١ م.

٦ ـــ ابن حجر: **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، تحقيق محمد سيد جاد الحق، ط ٢، ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٦ م، دار الكتب الحديثة ـ القاهرة.

٧ ـــ ابن حجر: **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي دار المعرفة ـ بيروت (د. ت).

٨ ـــ ابن حجر: **الإصابة تمييز الصحابة**، مطبعة السعادة ـ القاهرة، ط ١، ١٣٢٨ هـ ـ ١٩١٩ م وبهامشه الإستيعاب لابن عبد البر.

٩ ـــ ابن حجر: **تهذيب التهذيب**، ط ١، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية في الهند (د. ت).

١٠ ـــ ابن حجر: **تقريب التهذيب**، ط ٢، ١٩٧٥ م، دار المعرفة.

١١ ـ ابن حِبَّان: محمد بن حبان التميمي البستي: **صحيح ابن حبّان**، تحقيق شعيب الأرنؤوط بيروت ط ١، ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م.

١٢ ـ ابن حنبل، أحمد: **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، دار صادر ـ بيروت (د. ط، د. ت).

١٣ ـ أبو حيان الأندلسي: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي. **البحر المحيط**، ط ٢ دار افكر (د. ت).

١٤ ـ ابن خَلِّكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، **وفيات الأعيان** تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر ـ بيروت ١٩٦٨ م.

١٥ ـ ابن خزيمة: أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة: **صحيح ابن خزيمة**، تحقيق محمد مصطفى، المكتب ـ بيروت ط ١، ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م.

١٦ ـ أبو داود: سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، **سنن أبي داود**، إعداد وتعليق: عزت الدعاس، نشر وتوزيع: محمد علي السيد ـ حمص ١٩٦٩ م.

١٧ ـ ابن سعد: محمد بن سعد، أبو عبد الله، **الطبقات الكبرى**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر ـ بيروت ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦٠ م.

١٨ ـ ابن عربي، محي الدين: **محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار في الأدبيات والنوادر والأخبار** (١ + ٢) دار اليقظة العربية ١٩٦٨ م.

١٩ ـ ابن عساكر، الإمام الحافظة ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي: **تهذيب تاريخ دمشق**، دار المسيرة ـ بيروت ط ٢، ١٩٧٩.

٢٠ ـ ابن العماد، الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي: **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، دار الآفاق الجديدة ـ بيروت (د، ط، د. ت).

٢١ ـ ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر: **البداية والنهاية** مكتبة المعارف ـ بيروت ط ٢، ١٩٧٧ م.

٢٢ ـ ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني: **سنن ابن ماجه** تحقيق وتعليق: محمدفؤادعبد الباقي، دارإحياء الكتب العربية، القاهرة ـ١٩٥٢ م.

٢٣ ـ ابن الملقّن، سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد المصري: **طبقات الأولياء**، تحقيق نور الدين شريبة مكتبة الخانجي ـ القاهرة ط ١، ١٩٧٣ م.

٢٤ ـ ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور: **لسان العرب** دار صادر ـ بيروت (د. ت).

٢٥ ـ أبو نعيم، أحمد بن عبد الله الأصبهاني: **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء** مكتبة الخانجي ـ القاهرة، ط ١، ١٩٣٢ م.

٢٦ ـ ابن الأثير، لعز الدين ابن الأثير الجزري: **اللباب في تهذيب الأنساب** دار صادر ـ بيروت، ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م.

٢٧ ـ الألباني: محمد ناصر الدين: **ضعيف الجامع الصغير وزياداته**: المكتب الإسلامي ـ بيروت، ط ٢، ١٩٧٩ م.

٢٨ ـ الألباني: **صحيح الجامع الصغير**، المكتب الإسلامي ـ بيروت (د، ت).

٢٩ ـ البخاري: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري: **الصحيح**، عالم الكتب ـ بيروت، ط ٢ بيروت ١٩٨٢ م.

٣٠ ـ بدوي، د. عبد الرحمن، **مؤلفات الغزالي**، الكويت ط ٢، ١٩٧٧ م.

٣١ ـ البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب: **تاريخ بغداد**، دار الكتاب العربي ـ بيروت (د. ت).

٣٢ ـ البيهقي: أحمد بن علي: **السنن الكبرى**، حيدرأباد ط ١، ١٣٤٤ هـ ـ ١٩٢٥م.

٣٣ ـ الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، **السنن. وهو الجامع الصحيح**، دار الفكر ـ بيروت (د. ت).

٣٤ ـ الجوهري: إسماعيل بن حماد الجوهري. **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، دار العلم للملايين. بيروت (د، ت).

٣٥ ـ حاجي خليفة: مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة. **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، مكتبة المثنى، بغداد (د، ت).

٣٦ ـ الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله، النيسابوري: **المُسْتَدْرَك على الصحيحيْن**، دار الكتب العلمية ـ بيروت، (د. ط، د، ت).

٣٧ ـ الخرائطي: **فضيلة الشكر لله على نعمه**، دار الفكر، دمشق، (د. ت).

٣٨ ـ الخطابي: حمد بن محمد، أبو سليمان البستي، **معالم السنن**، دار المعرفة ـ بيروت، ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م.

٣٩ ـ الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام: **سُنَن الدرامي**، باعتناء: محمد أحمد دهمان، نشرته: دار إحياء السنّة النبوية (د. ط، د. ت).

٤٠ ـ الدارقطني، علي بن عمر: **سُنَن الدارقطني**، باعتناء ونشر السيد عبد الله هاشم يماني المدني، المدينة المنورة ـ ١٩٦٦م.

٤١ ـ الذَّهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان: **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة ـ بيروت (د. ط، د. ت).

٤٢ ـ الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد: **تلخيص المستدرك على الصحيحين**، دار الكتب العلمية ـ بيروت (د. ط، د. ت).

٤٣ ـ الذهبي، شمس الدين محمد أحمد بن عثمان: **سِيَر أعلام النبلاء**، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٨١ م.

٤٤ ـ الذهبي: **تذكرة الحفاظ**، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٤ م.

٤٥ ـ الرازي: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، **مختار الصحاح**، دمشق ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م.

٤٦ ـ الزركلي، خير الدين: **الأعلام**، دار العلم للملايين ـ بيروت الطبعة السادسة ـ ١٩٨٤م.

٤٧ ـ السبكي: تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، دار المعرفة ـ بيروت ـ الطبعة الثانية.

٤٨ ـ السّخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن: **المقاصد الحسنة**، دار الكتب العلمي ـ بيروت، الطبعة الأولى ـ ١٩٧٩ م.

٤٩ ـ السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، مكتبة الحياة ـ بيروت (د، ت).

٥٠ ـ السُّلَمي، أبو عبد الرحمن: **طبقات الصوفية**، تحقيق: نور الدين شريبة، مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٦٩ م.

٥١ ـ السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، **اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة**، بيروت ـ دار المعرفة طبعة ١٩٨٣.

٥٢ ـ السيوطي، جلال الدين: **الجامع الصغير**.

٥٣ ـ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، **الجامع الصغير من حديث البشير النذير** (١ + ٢) حققه محمد محيي الدين عبد الحميد ط ١ ـ المكتبة التجارية ـ مصر ـ ١٣٥٢ هـ.

٥٤ ـ السيوطي: جلال الدين: **تنوير الحوالك شرح موطأ الإمام مالك**، مصطفى البابي الحلبي ـ مصر ـ ١٩٥١ م.

٥٥ ـ الشعراني، أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علي الأنصاري، **الطبقات الكبرى**، (لواقح الأنوار في طبقات الأخبار) مصطفى البابي الحلبي ـ مصر ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٥٤ م.

٥٦ ـ الشهرستاني، **المِلَل والنِّحل**، المطبعة التجارية ـ مصر.

٥٧ ـ الشوكاني، محمد بن علي: **الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة**، جدة ـ الطبعة الثانية ـ ١٣٩٢ هـ.

٥٨ ـ الشيباني: أبو بكر عمرو بن أبي عاصم الضحّاك بن أبي مخلّد الشيباني، كتاب السنة، المكتب الإسلامي ـ الطبعة الأولى، ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م.

٥٩ ـ شيخ الأرض، تيسير: **الغزالي**، دار الشرق الجديد ـ بيروت سلسلة أعلام الفكر العربي (٦) ط ١ ـ ١٩٦٠ م.

٦٠ ـ الصَّفَدي، صلاح الدين خليل بن أيبك: **الوافي بالوفيات**، نشر: جمعية المستشرقين الألمانية الجزء الأول ـ الطبعة الثانية ١٩٦٢ م.

٦١ ـ الطبراني، أبو القاسم، سليمان بن أحمد: **المعجم الصغير**، دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م.

٦٢ ـ الطبراني: **المعجم الكبير**، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ـ بغداد ـ ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م.

٦٣ ـ الطيالسي: سليمان بن داود، أبو داود، **مسند أبي داود الطيالسي**، الهند ـ حيدر أباد، ١٣٢١ هـ ـ ١٩٠٣ م.

٦٤ ـ عبد الباقي: محمد فؤاد عبد الباقي، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، مطابع الشعب القاهرة.

٦٥ ـ العجلوني، إسماعيل بن محمد: **كشف الخفاء ومُزيل الإلباس**، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة الثالثة ـ ١٩٨٣ م.

٦٦ ـ عبد الرزاق: أبو بكر بن همام الصنعاني، **المصنف**، تحقيق حبيب الرحمٰن الأعظمي الهند ط ١ ـ ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م.

٦٧ ـ العَزّوزي، محمد العربي: **الجمع بين الصحيحين**، منشورات مطبعة الإنصاف ـ بيروت ١٩٦٠ م.

٦٨ ـ الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: **إحياء علوم الدين**، دار المعرفة ـ بيروت، (د. ط، د. ت).

٦٩ ـ الفيروز آبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، **القاموس المحيط**، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ١٩٨٦ م.

٧٠ ـ القُضاعي، أبو عبد الله محمد بن سلامة: **مُسْنَد الشِّهاب**، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الطبعة الأولى، ١٩٨٥ م.

٧١ ـ كارادُوفو، البارون: **الغزالي**، نقله إلى العربية: عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة، ١٩٥٩ م.

٧٢ ـ الكُتُبي، محمد بن شاكر: **فوات الوفيات**، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر ـ بيروت، ١٩٧٣ م.

٧٣ ـ كحالة، عمر رضا: **معجم المؤلفين**، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ١٩٥٧ م.

٧٤ ــ مالك بن أنس، الإمام: **مُوَطَّأ الإمام مالك**، مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة، ١٩٥١ م.

٧٥ ــ مرتضى الزبيدي، السيد محمد بن الحسيني: **إتحاف السادة المتّقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين**.

٧٦ ــ المزي: جمال الدين، أبو الحجاج يوسف بن الزكي، **تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف**، الهند، ١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٦ م.

٧٧ ــ مُسْلِم بن الحَجَّاج القشيري النيسابوري: **صحيح مسلم**، باعتناء: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ ١٩٥٦ م.

٧٨ ــ المكي، أبو طالب بن أبي الحسن علي بن عباس: **قوت القلوب**، دار صادر ـ بيروت (د. ط، د. ت).

٧٩ ــ المناوي، عبد الرؤوف: **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، دار المعرفة ـ بيروت ـ الطبعة الثانية، ١٩٧٢ م.

٨٠ ــ المنذري: عبد العظيم بن عبد القوي، **الترغيب والترهيب**، دار الفكر ـ بيروت ـ ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م.

٨١ ــ المنوفي، الحسيني، السيد محمود أبو الفيض: **جمهرة الأولياء وأعلام أهل التصوف**، مؤسسة الحلبي وشركاه ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى، ١٩٦٧ م.

٨٢ ــ النسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن بحر النسائي، **السنن**، المكتبة العلمية، بيروت.

٨٣ ــ الهيثمي: الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط ٢ ـ ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧ م.

٨٤ ــ الهيثمي: **موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان**، دار الكتب العلمية ـ بيروت. (ب، ت).

٨٥ ــ وِنْسِنْك، أ. ي: **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي**، مكتبة بريل ـ ليدن، ١٩٣٦ م.

٨٦ ــ ياقوت، الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله: **معجم البلدان**، دار صادر ـ بيروت ١٩٧٧ م.

٦ ـ محتوى الكتاب

الموضوع	الصفحة

❑ ❑ ❑